

تیرزا

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

Arnon Grunberg

Tirza

صدر العمل الأصلي عن دار نشر

Sterling Lord Literistic

أرنون جرونبرج

تيرزا

ترجمة / عمار خفاجي

مراجعة / محمود بطروخة

الغلاف / هانيبال – هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - رواية من هولندا

الطبعة الأولى/ القاهرة 2011

رقم الإيداع: ١٥٧٣٩/ 2010/

ISBN: 978 – 977 – 6299 – 30 – 6



وكالة سفينكس

٧ شارع معروف الدور السابع

وسط البلد – القاهرة

ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناس، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2011

أرنون جرونبرج

تیرزا

ترجمة / عمار خفاجي

obeikandi.com

المترجم

عمار عبد القوي خفاجي – مصري الجنسية ولد بكفر
الشيخ ١٩٨٦ م.. وحصل على ليسانس اللغات والترجمة في اللغة
الألمانية من جامعة الأزهر ويعمل حالياً مترجماً متفرغاً

obeikandi.com

١ الإيجار

تجهيزا لحفل تخرج ابنته، وقف يورجن هوفمستر في المطبخ، يقطع سمك التونة، تعلم كيف يمسك السمك الطازج بيده اليسرى وملوحا بالسكين كما ينبغي لدارس "اصنع السوشي والساشيمي بنفسك".. الذي حصل على "كورس" فيه قبل خمس سنوات هو وزوجته معاً.. فقط قليل من الضغط على السكين.. هذا هو السر!

الباب في الحديقة مفتوح قليلاً.. سيكون مساء دافئاً كما تمنت تيرزا، فم منذ يومين وهي تتابع نشرة أخبار الطقس.. وكان نجاح حفلتها يعتمد أولاً وأخيراً على حالة الطقس!

في خلال ساعتين سوف يستأثر الضيوف بالحديقة.. سوف يطأون الحشائش والنباتات، وسيجلس الشباب القرفصاء على السلم الخشبي لحجرة الجلوس، وآخرون سوف يعتلون كراسي الحديقة الأربعة التي اشتراها هوفمستر يوم أن انتقل إلى هذا البيت، ومرة أخرى سوف يتسلل آخرون إلى الحجرة الخشبية الصغيرة.. وكالعادة سيجد فيها هوفمستر زجاجات بيرة فارغة كما هو الشأن بعد الحفلات وسيجد أيضاً أكواب نبيذ نصف ممتلئة بجانب آلة الحش.. وقارورات غريبة الأسماء بجانب المنشار الذي يشذب به شجرة التفاح أيام الأحاد في الخريف والربيع.. ذات مرة وجد كيس شيبسي.. لم يفتح، نسيه أحدهم هناك فأكله وهو شارد الذهن.

سبق أن أقامت تيرزا حفلات عديدة إلا أن هذا المساء كان مميزاً بعض الشيء، فالحفلات مثل حياة أحدهم.. قد تنجح وربما يلحقها الفشل، وعلى الرغم من أن تيرزا لم تقل شيئاً إلا أن هوفمستر كان يشعر أن الكثير متوقف على هذا المساء.. على تيرزا، نور عينه وأصغر أبنائه وأكثرهم نجاحاً.

قام هوفمستر بتشمير أكمامه، وحتى لا يتسخ قميصه كان يلبس المريلة التي اشتراها ذات مرة في عيد الأم، واليوم

نظرا لظروفه سيتصرف كرجل، فمئذ ستة أيام لم يقم بحلق ذقنه، فالفرصة لم تواته.. فعقب الإستيقاظ من نومه بقليل باغتته أفكار لم ترد بخاطره من قبل: خطط، وذكريات عن الأطفال قبل مرحلة الحب، وأفكار بدت له في هذا الصباح رائعة.. لكن الآن كل ما يريده هو أن يحلق ذقنه على الفور حيث يرغب في أن يبدو أنيقا وجذابا.. فهكذا أراد أن يستقبل الضيوف: كرجل لم تذهب حياته هباء.

سوف يدور بالسوشي والساشيمي على الضيوف، في تنسيق بديع على صينية قد اشتراها خاصة لهذه المناسبة من محل لبيع المنتجات اليابانية، وسوف يجاذب أطراف الحديث مع الضيوف.. ثم يرجوهم بطريقة عابرة:

- جربوا ساشيمي الحبار.

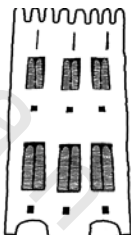
سوف يكون والدًا متحفظا، فسر وظيفة الآباء هو: التفاني الذي يتسم بالحكمة.. فحب الوالدين هو التضحية التي تتم في صمت.. فالحب يقوم على التضحية، إلا أن أحدا لن يتنبه لشيء حينها.. وهو الآخر يجب عليه أن لا يصغي لشيء.. وسيهنئه بعضهم بنجاح تيرزا الباهر.. وسيساله المدرس أو المدرسون المدعوون عما تنوي تيرزا فعله.. عندئذ سيجيب، بينما صينية الساشيمي في يده قائلا:

- هي تريد أولا أن تسافر بعض الوقت.. إلى ناميبيا.. جنوب إفريقيا.. بوتسوانا، ثم تعود من جديد إلى الدراسة. سيكون مضيفا مثاليا.. عينه على كل شيء.. ليبي حاجات الضيوف، ولن يقتصر على تقديم الطعام والمشروبات فقط، بل سيعتني أيضا بالضيوف المنعزلين والمهملين، وسوف يسلي من ليس لديهم شريكا يحدثوه سوى كؤسهم والسوشي الذي يأكلونه.. والضيوف الخجولين سوف يقدمهم لأصحابه.. ثم يكون الرقص.. نعم فلن تكتمل إلا بالرقص.

وبينما كان هو قمستر يضع يده في وعاء به أرز حار ويقوم بعجنه، ألقى نظرة على إطار باب الطريقة وكأنها يراه لأول مرة.. إذ لاحظ أن الدهان قد تقشر وطالع في المكان المكشوط على ورق الحائط بسبب الحذاء الذي أرادت تيرزا أن ترميه به في رأسه.. وهو أمر ليس غريبا، فقد نادته قبل ذلك قائلة له: "يا أحمق".. أو شيء مثل ذلك.. وعلى كل هو لم يعد يذكر ذلك بالضبط، ولكنه حمد الله أن الزجاج في الباب لا يزال سليما.

نظر إلى الأرز في يده.. في اليابان كل شيء يمر على نحو أفضل.. فأشكال السوشي التي يصنعها هوفمستر غير محددة المعالم، والحماس الذي يعتريه عند ما يعجن.. يدهشه كما تدهشه الحماقات التي كان يقوم بها في ماضيه، وهي حماقات لا تضر كثيراً.

ألقى نظرة أخرى على الدهان المتقشر... فذكره ببشرته، فهو لديه مرهم إلا أنه منذ أيام لم يعد يستخدمه.. وبينما هو يعجن الأرز بيديه وثبت إلى رأسه فكرة بيع هذا المنزل.. نعم منزله!.. وللوهلة الأولى لم يأخذها على محمل الجد.. مجرد خاطر فقط لن يصبح حقيقة أبداً، كان يتجمد بعد الموت ثم يذوب مرة أخرى بعد مائة عام، ولكن الفكرة أصبحت تراوده أكثر.. فالوقت صار ملائماً لها.. فحتى متى ينبغي عليه أن يظل منتظراً؟!.. وعلى ما الإنتظار؟!



فيما مضى- كانت مثل تلك الأفكار، سيئاً ذريعاً بالرفض!.. فبيته مجال زهوه وفخاره، وشجرة التفاح التي غرسها يحن إليها كأي ثألث له!.. سبق أن راوده خاطر الرحيل عن منزله، ومفارقة شجرة التفاح، إذا ما ثقلت عليه الديون يوماً ما.. إلا أن هذا الخاطر لم يكن ليجد في نفسه صدى، فكان يعتبره من ضروب المحال ويعد التفكير فيه سفاهة وجنون!.. فلو رحل! فإلى أين يذهب بأسرته إذن؟!.. وشجرة التفاح تلك، لم يعد بالإمكان نقلها حيث يرحل!.. هكذا كان "هوفمستر" متعلقاً، شغوفاً بمنزله ويراه جزءاً منه.. فهو

حريص دائماً على إثبات أن مكانته وجدارته تجعل منه "الأول".. وكانت ملاطفة ذات مغزى أن يبادر واحداً من أصدقائه ومعارفه، مستدعياً انتباه الجميع، ليقول في إسقاط مازح:

- الآن أعرف لماذا يسكن "يورجن" في "العنوان الأول"!

الأول!، كان لـ "هوفمستر" ظلٌ حتميٌّ لا يفارقه!.. ففي كل مقام عليه أن يبدي تفوقاً، وعنوان سكه بالطبع يؤكد ذلك!.. فكان يذكر اسم الشارع بنبرة حاسمة، وكأنه يرى في اسم الشارع ورقم المنزل والرقم البريدي، جوانب شخصيته وسيرة ذاته.. وعنوانه موجزاً ليس سوى: اسمه، وعمله، ورتبة الماجستير التي تسبق أحياناً حروف اسمه الأولى، دون زيف للحقيقة!

لم أعد في حاجة إلى هذا العنوان!.. جال هذا الخاطر في صفحة فكرة حين كان يضع على صحيفة الأرز قطعة من سمك التونة، بل رأى أن تحقيق ذلك يعنى الخلاص مما هو فيه!

واقع الأمر أنه قد طعن في السن، وكما يقولون فلا ينبغي أن يكون وحيداً شاردًا وفي العمر المتأخر لا تقوى النفس على نضال "العنوان الأول".. الأول!، من لم يتبق له سوى عقد من الزمان ليجد نفسه مع أمثاله في دار المسنين، فلن يجد مجالاً لـ الأول، وهو على دراية بأن من أبناء جيله من يعيشوا الزهايمر.. وإن كانوا من المؤكد أنهم ممن يعاقرون الخمر!

الرحيل عن المنزل وعن هذه المدينة، هو كل ما يملك من فكر إذ ينبغي أن يجد معنى لكلمة "حِلْ".. فهناك من يستيقظون كل صباح على فكرة "يجب أن أجد حلاً.. لا يمكن أن تستمر الحياة هكذا"، و"هوفمستر" واحد من هؤلاء.

عليه المغادرة سواء كان في البيت أبناء أم خارجه.. فعمله قد أصبح فراغاً وضجيجاً بلا طحين!.. بإمكانه الرحيل شرقاً، فسالفاً حين كان يدرس الأدب الألماني، كان ينقد الشعر التعبيري وكأنه يعيش شعراءه.. آنذاك عزم على الرحيل يوماً ما إلى برلين وفيها سيطاوعه قلمه في إعداد مرجع شامل عن الشعر التعبيري، والآن يمكنه تحقيق ذلك بلا تواني.

صحيح أنه سوف يفتقد رقمه البريدي والنجاح وآثار البريق الذي

يضيفه عنوانه.. كل ذلك فيما يبدو أصبح مجرد "جنون النجاح".. ثم أن ابنته الصغرى ذاهبة إلى إفريقيا، فلم لا يغادر هو الآخر، فلا اجتماعات أباء مسائية بعد اليوم، وليس هناك من هو ذو شأن ليتعاضم له، هكذا الأمر منتهى.

عليه أن يعترف أنه لا يقيم هنا إلا لميول عاطفية، وإشفاقاً من التغيير.. وقد أمسّت حاجته إلى المال ضرورة ملحة،

والحالة تدعو إلى اكتشاف طريق للهروب!، فلا مفر من تجاهل العواطف والإشفاق.

مضى في تقطيع سمك التونة محدثاً إيقاعاً من تلامس السكين بالصحيفة كما يفعل الشيف المتمرس، وتواصلت المودّة بينه وبين السمك وهو يضع قطعة منه في فمه، وبجانبه صحيفة أخرى من الجمبري في انتظار حظها مع الأرز!.. ففي الصباح ذهب للتسوق من مطعم البيع بالجملة، وسمك التونة الطازج يمنحه المذاق الممتع ويفصح عن أسرارهِ!

منذ حوالي أسبوع مضى، وفي حوالي الساعة مساءً، أقبلت زوجته إلى المطبخ مرتدية قميص نوم وصندلاً أنيقاً لتسأله:

- هل اتصلت أبيي؟

لم يكن "هوفمستر" قد اطمأن بعد إلى عودتها من جديد.. فقد هجرته قبل ثلاث سنوات.. بالفعل قبل ثلاث سنوات، ولم يكن "كورس" أن تصنع ساشيمي السمك بنفسك سلوان لفراقها.. وفجأة غير متوقعة أن يجدها أمام الباب مرة أخرى. كان "هوفمستر" يقضى -معظم وقته في المطبخ منذ أن هجرته زوجته، بل وحتى قبل أن تهجره، حيث الموقد مجال عمله الحقيقي، فلم تكن زوجته ولا خيّل إليها أن تقوم بأعمال المطبخ على الإطلاق، فمواهبها لا علاقة لها بالطبخ وتربية الأولاد، حتى وإن كانت الأجدر بالاهتمام، فأي شيء في حياتها كان دائماً أهم من العناية بالأسرة.

قبل ستة أيام دق جرس الباب، فصاح هوفمستر:

- تيرزا.. افتحي الباب من فضلك؟

فأجابته قائلة:

- أنا أتحدث في الهاتف يا بابا

تتحدث تيرزا في الهاتف كثيراً.. هذا طبيعي! سمع هذه

الكلمة من

أباء آخرين.. يمكن أن يصبح الحديث في التليفون هواية منتظمة.. ولكن هو نفسه لا يتحدث إلا نادراً، فإذا رن الهاتف وكانت المكالمات لـ تيرزا فإنه يجيب كخادم مثالي وأب نموذجي فيقول:

- تستطيع أن تكلمها على المحمول.. انتظر سأعطيك

الرقم.

كان هوفمستر يحضر طاجناً، وقد أخذ الوصفة من كتاب للطبخ.. فمنذ أن اختفت زوجته حصل على مجموعة خلاصة من كتب الطبخ لأنه كان يرى أن الإرتجال نوعاً من الإهمال وليس علامة على الإبداع، لذلك كان يقدس الوصفة.. فملعقة شاي تعني ملعقة شاي وليس غيرها.. ولكنه لم يستطع أن يذهب ويترك الموقد، فنار الفرن على أقصاها وكان لتوه قد وضع الطاجن فيه.. فنادى مرة أخرى:

- افتحي أنت يا تيرزا.. فأنا الآن لا أستطيع.. من المؤكد أنه الرجل الذي يسكن فوقنا.. أخبريه أنني سأتيه مساء اليوم بالأعلى.. هيا اذهبي وافتحي الباب يا تيرزا.
هذا الرجل هو المستأجر.. وهو شاب - في الواقع هو لم يعد شاباً، ولكنه رسمياً مازال أعزب - يسكن في الطابق الأعلى من البيت الذي استطاع هوفمستر في نهاية السبعينيات أن يحصل عليه بسعر مناسب، ودائماً ما يشتكي الشاب - هو طالب قانون - إلى هوفمستر بشأن كل شيء تقريباً.. في الغالب يشتكي من رائحة في الحمام.. وعلى الأقل مرة واحدة كل أسبوع يقف أمام الباب ويبدأ بولولة لا نهاية لها.. وفي كل مرة بعده هوفمستر بالإصلاح.. على الرغم من أن اثنين من السباكين المحترفين أوضحوا له أنه ليس هناك من حل لذلك إلا أن يقوم بتجديد كل المواسير.. وذلك سوف يكلفه نقوداً، وهو لا يملك نقوداً، وحتى إن كان يملكها فمن المؤكد أنه لن ينفقها من أجل تجديد المواسير.. فلا يزال هوفمستر مالكا أيضاً لكل شيء في المنزل.

سمع تيرزا تسرع إلى الباب وهي تطلق الشتائم.. ثم ساد الصمت ليعود فيركز في عمل الطاجن، وفي كيفية إقناع المستأجر الذي يقف أمام الباب مرة أخرى مثثراً بنصائح جديدة غير مرغوب فيها، وتهديدات لا يكاد يخفيها.. فمن تهديد بقانون الإيجارات ومروراً بالمحامين المشهورين وحتى بالمشرفين على أعمال البناء.. ما الذي بقي لم يهدده به؟! كل تلك الأمور مرت على هوفمستر في حياته، كمالك منزل، ولكنها لم توهن من عزمه.. ف هوفمستر وحش ضاري!، قد كشر عن أنيابه وتسليح ضد السلطات والمستأجر والقانون الذي لم يصدر إلا ليضيق عليه في استخدام كل الوسائل القضائية.. فالآن هو وحش ضاري شديد المراس.

وبعد دقيقة أو أقل، جاءت تيرزا تركض إلى المطبخ، وبدأت شاحبة ومذعورة ربما لأنه كان يتخيل ذلك في الأيام الأخيرة

فدائماً ما كان يراها تبدو كذلك؟!.. وبدون أن تشعر كان الذعر قد بدأ على جميع قسّمات وجهها وكأنه سيبقى للأبد!.. ثم قالت:

- إنها ماما.

وبكل تلقائية قام بإخراج الطاجن من فرن التحمير ثم أغلق مفتاح الغاز.. ثم جعل يحمق في منظره.. سمك البكّلاه بالبّطاطس، وجبة بسيطة ولكنها لذيذة.. كان يعلم أن أمرا آخر سيستغرق وقتاً أطوال.. إذن هذه المرة ليس بسبب الرائحة النتنة في حمام الجار.. ولمرة على سبيل التغيير ليست المشكلة مشكلة مجاري.. وإنما هي أم أولاده!.

صحيح أن الزوجات لا يدقّعن إيجاراً، إلا أنهن مثل المستأجر الذي يقع دوماً في شجار مع المؤجر.. يأتين أيضاً للشكوى.. الشكوى! هي ما تشترك فيه الزوجة مع المستأجر.. الشكوى لمجرد العتاب، والتهديد الذي يصدع الرأس.. ثم الأدهى والأمر: الإعتماد على الغير.. كما مرض الذي يسري في الجسد.

مسئول مراقبة المباني، وهيئة الإسكان، والمحامين.. كلهم قد تخلص منهم مستخدماً أسلوب اللّف والدوران.. ولكن هذه المرأة التي تتستر تحت هذه الكلمة التي عفا عليها الزمن "ماما"، أم أولاده، لم يمكنه أبداً خداعها، فقد كانت أخطر من قانون حماية المستأجر!.. وأكثر دهاء من مفتش هيئة الإسكان والبناء!.

وبينما يحمل رداء الطهي، الذي أخرج به طبق الطاجن من الفرن، على ذراعه.. كان يركض إلى باب المنزل، مستغرباً من مجيئها في هذا الوقت بالذات.. في هذا المساء، وفي وقت العشاء.

كان يتوقع عودتها كل يوم تقريباً من الأشهر الأولى بعد اختفائها.. في الواقع كان ينتظر عودتها في السنة الأولى بأكملها، وأحياناً كان يتصل من العمل على تليفون المنزل ليرى إن كانت ستجيب.. فقد كان المفتاح لا يزال معها، وهو لم يبدل الأقفال إذ لم يكن ليتخيل أنها لن تعود ثانية.. ولم يكن ليتصور أنها كانت مستعدة أن تبدل هذا المسكن بمسكن آخر.. كان الأسوأ والأكثر تفاهة والأحقّر على الإطلاق أنها كانت تسكن في مركب.. أخبره أحدهم بذلك.

ولكن بمرور الوقت كان عليه أن يدرك أنه كان على خطأ.. فهي لم ترجع إلى البيت.. بل حتى لم تكلف نفسها ولو مرة

فتتصل به، أو تأتي وتأخذ أشياءها المتبقية.. فقد ذهبت بعيدا.. وظلت كذلك.. لقد تعلم أن يعيش مع صمتها، مثلما كان يفعل قبل ذلك أثناء وجودها.

في أول الأمر بقيت زوجته على اتصال متقطع بابتته الكبرى ابيي.. كانتا يلتقيان في المدينة، في حانة غير مشهورة، ثم لم تلبث أن انقطعت عن ذلك أيضا، ولم يعرف هوفمستر إلا قليلا عما كان يدور في هذه المقابلات.. ولم يلح أيضا بخصوص ذلك على ابيي.. واسمها في الأصل ايزابيل، ولكن منذ ولادتها لم يناديها أحد إلا باسم ابيي.. لن يلح عليها، فما كان بين ابيي وأمها سيبقى بين ابيي وأمها.

أما تيرزا فلم تعد تهتم أن تكون على أي اتصال بأُمها.. وزوجته بدورها لم تتبادل معه - مع أبو أولادها - أي كلمة منذ مغادرتها.. ولو حتى لمرة عن طريق رسالة أو بالإيميل، فقد كان يعرف أنها لا تزال على قيد الحياة، وأنها سافرت للخارج بعد أن قضت وقتا في المركب.. ولكنه لم يصله أي معلومات أخرى فلقد بدأت السفر إلى الخارج ببلدة لا يعرفها، وأحزنه ذلك كثيرا.

وكلما طال الصمت.. كلما زاد حجم الألم.. ولا يتكفل الزمن بشفاء كل الجروح، هذا ما عاينه.. فهي لا تلبث أن تتقيح ولا تنتج إلا السموم والدمامل.. نعم.. ربما الموت هو الذي يقضي على الألم.. وليس الزمن!

بالطبع كان هوفمستر وبكل سهولة يستطيع أن يتصل بها.. أو يرسل لها بطاقة بريدية، ولكنه لم يفعل لا هذا ولا ذاك.. فهو أيضا لديه كبرياء.. سيظل صامتا حتى تعاود النظر في خطئها.. ففضاء الوقت مع حبيبها الأول في المركب هو خطأ، لا يتطرق شك إلى ذلك.. بل إن أمر المركب فقط هو خطأ في حد ذاته.. بقي هادئا، ظنا منه أن امرأته سوف تحسن التصرف في كل الأوقات.. بقيت الطفلتان معه في البداية، ولكن بعد نصف سنة حذت الكبرى حذو أمها.. فغادرت المنزل هي الأخرى!

وفي الشهور الأولى بعد رحيلها، كان في كل مرة يسمع جرس الباب يدق في المساء، يجد نفسه يقول: إنها هي.. إنها زوجتي.. لقد عادت.. ولكن شيئا فشيئا تحول الانتظار إلى طقوس.. إلى عادة فارغة.. تبدد الأمل أيضا في عودتها.. غابت أم أبنائه.. رحلت أم أبنائه.. تلك كانت حقيقة، فالحقائق تسمى حقائق لأنها ثابتة لا تتغير.

لكنها الآن واقفة بالفعل أمامه بكامل هيئتها الرسمية.. فالحقائق تتأرجح دائماً.. تقف في غرفة الجلوس، بنفس الحقيبة التي أخذتها عندما تركته.. حقيبة حمراء جراحة أخذتها ورحلت عن المنزل بهدوء.. لم يكن رحيلها مأساة.. إذ لم يشكل له رحيلا بالمعنى الحقيقي.

جاءت رؤيته لزوجته أقرب مما توقع.. فبينما كان يخرج الطاجن من قرن الموقد تساءل لماذا؟!.. لماذا هذا المساء؟!.. ماذا حدث؟!.. كانت الزيارة تمثل له لغزا.. وهو شخص يحب أن يفهم الأمور جيدا، فقد كان يمقت الأمور المبهمة مثل مقت الآخرين للحشرات.

رغبته في معرفة الأسباب المنطقية التي تؤدي إلى تصرف حكيم لم يتم إشباعها.. هاجمته أفكار غير مرغوب فيها، وكان عليه أن يعترف أنه يصبح عصيبا عندما تنطق ابنته الكلمة المحرمة في هذا المنزل.. كلمة: ماما!.

كانت ماما بالنسبة لأسرة هوفمستر كالإله بالنسبة للملحدين.. فلا أحد يتحدث عن الأم التي هربت، ولا أحد يتفوه بهذه الكلمة سيئة السمعة.. لم يكن أحد يقول: "عندما تعود ماما...".. حتى في اجتماعات الآباء المسائية.. والتي كان يحرص على حضورها بشدة.. لم يعد يذكر فيها اسم هذه المرأة.. المرأة التي ولدت أولاده.

كان الناس بقبولونه كأب أعزب.. ويراهم مقتنعين بذلك.. وكأنه كان هكذا دائماً.. كأنه قرر ذلك منذ ولادته، أن يخلق كأب أعزب.. ولكن كان عليه أن يستسلم لذلك، فهذا الدور كان قدره الذي لا يفارقه!.

لم يكن للأم وجود، ولا حتى كلمة ماما كان لها وجود.. لذلك كان هو الإثنين، الأب والأم في آن واحد.. كان الوالد الوحيد ومن ثم فهو الوالد الحقيقي.. كان هو كل ما تبقى لأبنائه، ومعه كان كل شيء على ما يرام عندما واجهها هوفمستر انتبه إلى شعوره بالإثارة.. ليس بالمعنى الجنسي.. للكلمة ولكنه يشعر بالإنفعال، كالذي يعتري مشاعر الطالب قبل دخول الإمتحان، حتى وإن كان قد استعد له جيدا، فرما يسير أي شيء على غير المرجو.. هذا ما عرفه من تدفق الأدريالين في جسده.. فالتركز الذي طالعه في وجهها أوحى إليه بأنه: يمكن أن يسير أي شيء على غير ما يرام.

جعل يتفحصها.. وجهها، ثم حقيبتها.. وللحظة شعر بشعور لم يكن لديه له تفسير.. شعر أنه يريد أن يحتضنها،

ويبقىها دقيقة بين ذراعيه، ولكن كل ما فعله هو أن استند بيده اليمنى على الحائط، متكلفا الهدوء.. بينما تتدلى فوطه المطبخ من يساره.

كان هو قمسטר رجل يبحث عن الإستقرار في الحياة.. ولكن حتى الآن وبعد أن أوشكت حياته تقريبا على الإنتهاء، فإنه لم يذق طعمه بعد، اللهم ليس إلا ما يتعلق برداء الطهي. كان ما يدور في رأسه فقط هو: ذلك يحدث دائما إذا لم ينتظر الميء من الدنيا أن تعطيه سوى القليل وإلا فإن الحظ يسايره لآتفه الأسباب.

ألم يطل اشتياقه لها؟!.. ألم يشفق كثيرا أن يجدها واقفة أمام الباب؟!.. في الماضي كانت غالبا ما تولي هاربة، ولكنها كانت دائما تعود.. بعد يومين.. بعد أسبوعين.. لم تستمر نوبة من نوباتها أبدا أكثر من شهرين.. ففي النهاية كانت تعود للمنزل، بدون أي إحساس بالخجل، أو أي كلمة تدل على الأسف.. كانت متغطرة وعدوانية- إلى حد ما- ولكنها كانت تعود في النهاية فتقف أمام الباب.. ولكن مرتها الأخيرة لم تكن كذلك.. المرة الأخيرة كانت مختلفة.. كانت بلا رجعة!.

والآن، وعندما لم يعد ينتظرها ولم يعد بحاجة إليها، لأن الأطفال كبروا وهو أيضا قد طعن في السن ولم يعد شابا أعزبا، تأتي وتطرق الباب، وكأن هذا هو الطبيعي في هذا العالم.. ربما كان كذلك، فهي ما زالت أم أولاده.. وقد عاشت سنين هنا، معه في البداية، ثم معه ومع البنيتين.. ربما أرادت أن تتفقد المنزل وترى إن كان كل شيء لا يزال يسير على نحو جيد، وتبدي إعجابها بشجرة التفاح، التي قد نمت بشكل ملفت للنظر.

كان ينظر إلى المرأة التي زعمت أنه قد حطم حياتها.. ولم يكتف بالحطام، بل سلبها منها، ولم يدعها تعيش.. ورأته كالمشعوذ سحر حياتها، وجعلها هراء متخيلة.. ولكنها أرادت استردادها.. استرداد حياتها، ولذلك غادرت!.. غادرت المنزل كما يغادر الرؤساء من هيئة الإسكان.. بهدوء!.. ولكن لابد من الغضب!.. جرى وراءها وهو يقول:

- هل أطلب لك تاكسيا؟!.. ولكنها تجيب:

- ليس ضروريا.. سأستقل الترام..

فرجع وأقفل الباب وجلس يقرأ الجريدة المسائية في حجرة الجلوس..

قالت وهي تبعد خصلة من شعرها عن وجهها:

- قلت في نفسي.. أراه، وأرى كيف حاله..

كانت حركاتها، والطريقة التي كانت تقف بها.. واثقة من نفسها.. متيقنة تماما أن هذه كانت اللحظة المثالية لتمر على أسرتها وتراهم.. فلم تجد مساء أفضل من هذا لتمر عليهم فيه، بابتسامتها الخفيفة، والنظارة الشمسية التي في شعرها، كان كل شيء رائعا للغاية.. ولكن صوتها كان يذلل على أنها متوترة.. تماما كما كان هو أيضا متوترا.. ربما جعلت تمر على المنزل ثلاث مرات قبل أن تتشجع وتدق الجرس.. ربما عادت منذ أسابيع إلى أمستردام، وكانت تراقبه سرا، عندما يذهب للعمل، أو يحمل المشتريات إلى المنزل، أو عندما كان يرافق تيرزا على دراجتها وهي ذاهبة إلى صديقها في كل مساء.. ثم بعد ذلك كيف كان يتباطأ ويظل واقفا.. لكي ينظر ورائه أولا إلى تيرزا وهي تغادر، ثم لكي يتأمل الشارع والمهتزه.. أكل ذلك كانت تتابعه زوجته؟!.. يوجد رجل أمام منزله.. كان هو ذلك الرجل؟!.. لا.. بل كان في الحقيقة رجل مسنا أمام منزله.. وقف في الحمام، أمام المرأة يساوره شعورا بأنه يواجه شيئا ماضيا.. وذلك كان يسيرا، فما كان ليواسيه في حياته أنها كانت تمر.. ولو كان يبحث طويلا بما فيه الكفاية، لاستطاع أن يجدها ثانية في ماضيه.

كان هوفمستر يرى أن زوجته تستطيع أن تعرف ذلك أيضا.. كان باستطاعتها أن تعرف كل شيء.. ولذلك فاجأه أن تأتي الآن وتفعل ما كان عليها فعله من قبل أو لا تفعله أبدا: أن تأتي فتدق الجرس، وتقف أمام الباب بحقيبتها الحمراء. لم يكن يفهم ماذا كانت تريد منه.. من الصعب أن يكون الأمر متعلقا بالجنس، ولا حتى بعاطفة الأمومة.. مما جعله يتعلم أن يطبخ طعاما لذيذا، ولكنها لم تعرف بذلك، فقد حدث ذلك بعد رحيلها مباشرة. ولكن ما الذي لا يزال لديه يمكن أن يريده منه إنسان في هذه المرحلة من حياته؟!.. لماذا كانت تعود دائما؟!.. ليس من أجله، ولا من أجل ما هو عليه حاليا.. ربما لأجل ما كان عليه؟، ولكن ما كان عليه أنهما كانا معا.. ولا يمكن أن يتكرر، وقد اتضح في النهاية كيف كانت حياتهما متغيرة ومتقلبة.

رفع يده من على الحائط.. نظر لبرهة إليه.. خلفت أعمال البستنة أثارا عليه، ولأنه كان دائما ما يتحرى التصرف السليم، أراد أن يتصرف كما لو كان يجري دردشة مع ساعي البريد،

فيبدو مهتما ولكنه لا يركز في كلامه.. تماماً كما يحدث ببساطة عندما تتحدث مع ساعي البريد.

يهجر الناس بعضهم لسبب معين، طالما كان السبب وجيهاً، وقد يعودون ثانية لسبب معين.. ولكنهم لا يأتون هكذا وبكل بساطة بعد ثلاث سنوات فيقفون أمام الباب!، وإذا كان الأمر هنا ليس إلا لحظة إلهام.. فماذا كانت تعني الحياة بأكملها إذن؟!

لذلك كان عليه أن يسألها، ماذا تريد منه؟!.. انعقد لسانه دقيقة قبل أن يقول:

- هل من شيء عاجل؟! فلدي شيء في الفرن.
لم تكن قد أغلقت باب المنزل.. فنظر هوفمستر إليها ماراً ببصره في اتجاه الشارع، وسألها:

- كيف وصلت إلى هنا؟..
ثم تقدم خطوة إلى الأمام، ماراً بها مستنشقا رائحتها.. ثم خطوات أخرى قليلة حتى وقف في الخارج، ونظر يمينا وشمالا فلم ير أحداً.. فقد ظنها مع عشيق ينتظرها بأدب في الخارج، بينما تتفقد المنزل.. رجل وسيم بعيون زرقاء.. شاب من النوع الذي يضايقه الآخرون يومياً بسبب الرغبة فيه.. إنه يعرف ذلك النوع من الرجال الذي يطارده في أحلامه وينغص عليه حياته: هذا الرجل الآخر الذي يظل غير مرئياً، لكنه هنا دائماً.. هنا في كل يوم.. بل في كل ثانية.

في أقصى الطريق عند الزاوية لم يوجد إلا طفل يلعب بكرة تنس، ولم ير هوفمستر أي عشيق أو حبيب.. كان مساء كأمسيات أخرى كثيرة.. مساء في أوائل الصيف يبشر.. بيوم دافئ.. يوم دافئ وحار.. سيكون من حظ طائفة عابدي الشمس.. ولكن هوفمستر ليس منهم.. أجابت:

- جئت بالتاكسي.
دخل المنزل وأغلق الباب خلفه، ثم التقط جريدة الإعلانات العامة التي توزع بالبريد وهو يتساءل.. لماذا جاءت هنا؟.. ما الذي يمكن أن تريده؟.. بم ستطالبني؟.. أصبح الأطفال كباراً، ولديهن حياتهن الخاصة، ولديهن أصدقاء.. يتحدثن عنهم بجدية.. ويفكرن فيهم بجدية أكثر.. ويفضلن أن يقضين بقية الحياة معهم.. حتى الأحاديث عن الخطوبة رسمياً قد وقعت في سمعه.. ولم تكن محادثات على سبيل السخرية.. بل يتحدثن عن حفل صاحب يلبسن

فيه دبل الخطوبة.. لقد أصبح مشروع الزواج قويا.. أصبح مؤسسة مرنة، لا ينالها الخراب الذي تخلفه الحرب، أو حتى أقوى القنابل الذرية.



ولكن عيون زوجته كانت تعاقبه على قلقه الكاذب.. فهي تنظر إليه بلطف، وبكل رقة.. ليست غاضبة أو نافرة.. ربما لم تأت لتطلب شيئا على الإطلاق.. لقد كانت بكل وضوح مضطربة بالفعل.

ظن أنها ربما تأملت في ماضيها ففكرت: يا إلهي.. هل كنت أعيش هنا طوال هذه السنوات؟! هل ذلك هو الرجل الذي قضيت معه ما يقرب من عقدين من الزمان؟!، صحيح هي إقامة متقطعة، ولكن ألم يكن ذلك على كل حال؟.. هل كانت حياتي هنا؟!.. كانت ترى شيئا.. وكان واضحا لها أن عليها أن تفعله ولكنها لم تستطع أن تفعل حياله شيئا.. ونظرا لهذا الموقف لم يرغب هوفمستر في شيء أكثر مما لو كان بإمكانه أن ينفجر بالضحك عاليا، ضحكا طويلا ملء شذقيه، لكي يزيل التوتر الذي لا يساعده على انجاز شيء. فالإضطراب يؤدي أولا إلى القهقهة، ثم إلى الصمت، وبعد ذلك إلى ممارسة الجنس.. ثم مرة أخرى إلى الصمت!.. ولكن الضحك الذي من شأنه أن يقضي على كل خطر، حتى خطر الماضي، ظل مكبوتا بداخله، فلم تظهر ابتسامة واحدة على وجهه.

والآن.. ولأن أم بناته بعد سنوات تقف أمامه مرة أخرى، فقد جعل يفكر فجأة في ولادة تيرزا، وفي الإنتظار في المستشفى، عندما لم يكن هناك حتى غرفة واحدة بسرير واحد شاغرة، فما لا يقل عن عشرة نساء قد قررن أن ينجبن أطفالا معا في تلك الليلة، لذا عاد إلى المنزل في وقت مبكر من الصباح، إذ لم يستطع أن يقاوم فهرب من منظر الدم، وأسرع إلى المنزل ليجهز المهد للمولود، وأثناء ذلك ينتظرا المكاملة من المستشفى.. سألها:

- هل قدمت من بعيد؟

- من محطة القطار.

قطّع الجيران فروتها بالحديث عنها.. كانوا يتحدثون ليل
نهار، طوال شهر منذ مغادرتها للمنزل، فالناس لا تشيع أبدا
من ذلك.. ربما كان الناس متحضرين ولا يحبون الفضول
،ولكن أحدهم إذا وجد الفرصة ليخوض في عرض شخص ما،
فإنه لا يدعها.. ولكن هوفمستر، بدافع من عزة نفسه، كان لا
يتوانى قدر الإمكان من الدفاع عنها، إذا وصل إلى مسامع
شيء من القيل والقال، عند الجزار أو عند بائع الخضار أو
حتى في الشارع.. اعتاد أن يقول:

- سنبداً من جديد، وهذا أفضل للأطفال.

كان هوفمستر يتصرف، كما لو أن الأمور تسير على
طبيعتها.. كان يعلق على اختفاء زوجته بسخرية خفيفة
اللهجة.. وإذا سأله الناس: عما إذا كان ذلك صعباً على
البنيتين؟.. كان يجيب مبتسماً:

- جزء كبير من ملابسها مازال معلقاً على الشماعة في
الدولاب عندنا في المنزل.. طال الزمان أو قصر.. سوف تظهر
ثانية في حياة أبنائنا.

ولكن هذا الظهور لم يتحقق.. برغم وجود ملابسها معلقة
في الدولاب.. حتى قبل ستة أيام من هذا المساء.
كان يرى أنها تبدو بأفضل حال.. أقل تبرجاً.. لون بشرتها
خمري، وذلك، لأنها تتمدد بانتظام في جهاز حمام الشمس
الإصطناعي.

- هل أزعجتك بزيارتي؟!

وجهت السؤال بدون تهكم ملحوظ كعادتها.. نظر مرة
أخرى إلى حقيبتها.. كانت هي الأخرى بأحسن حال بعد كل
هذه السنين.

- أنا الآن أعد طعاماً.. ولكن بصدق لم تزعجيني بزيارتك..

أعني: ما الذي قد يزعجني؟!

تقدمت خطوة نحوه، وكأنها تريد أن تطوقه بذراعيها،
ولكنها اكتفت بالمصافحة.. المصافحة بحرارة.. وتساءلت:

- كيف حالك وكيف تيرزا؟..

مع ابتسامة خفيفة وحزينة على وجهها عندما نطقت بهذا الاسم.. وعندما نطقت اسم صغيرته.. انتفض جسده كأنه يتعرض للجلد.

- تيرزا.. كيف حال تيرزا!؟

إذن هذه كانت العاطفة التي لاحظها فيها.. لقد هجرته، ولكن شيئاً ما على ما يبدو كان يتقصها.. كان ينقصها جزء من حياتها.. فقد كانت تمر الأيام دون أن تنظر إلى بناتها وهن يكبرن، ولم تكن تعرف عن بلوغ صغيرتها إلا من الأقاويل التي تسمعها وربما لم تكن تعرف بالمرّة..

والآن.. ولأنها كانت تقف أمام هذه الابنة وجهها لوجه، فقد أدركت فجأة عواقب حياتها.. أنهت المصافحة، ودون أن يشعر به أحد وبقدر المستطاع، جعل هوفمستر يمسح يده في البنطلون، فقد كان عرق الآخرين مصدر إزعاج له.. وبالنسبة للمقربين من هوفمستر؟!.. كلما كان الآخرون لا يستسلمون بسهولة، كلما سهل عليه أن يكون ذلك الوحش الضاري، فإذا كان قد تعلم شيئاً من حياته كصاحب بيت.. فإن هذا الشيء هو أن المستأجر لا يعامل كإنسان، وإلا سيكون المرء ليتنا في مواجهة الناس.. وإذا تنازل المرء فعندئذ سيقول: "حسناً سأصلح هذا.. نعم سأفعل ذلك.. سرير جديد؟ لا بأس.. دولاب جديد؟ ولم لا؟!.. كان هوفمستر يؤجر الطابق العلوي بالآثاث.. والآثاث يمكنه إذا اقتضت الضرورة من التخلص من المستأجر بدون منازعات قانونية مفروطة.. ولذلك لا يمكن أن يعامل المستأجر كإنسان، لأنه إذا حدث ذلك سيصبح المؤجر عاطفياً ويبلغ الضعف منتهاه، وعندئذ سيتردد في طرد المؤجر، بسبب الضعف.. ما أشد مقتته للضعف، وما أشد ما يكرهه.. وعرق زوجته كان يدل على الضعف.. ولذلك كان عليه أن يمسحه.. نظر حوله، وكأنه كان يتوقع أن يرى تيرزا تقف خلفه.. ولكن تيرزا لم تكن هناك، ربما في غرفتها تتحدث في الهاتف كالمعتاد.. أو تقف في المطبخ.. أو تبقى ساكنة وتنتصت للحديث كجاسوسة مدربة.. ثم عاد يفكر في الأيام والساعات التي سبقت ولادتها.. إنه مجنون في كونه يتذكر هذه الولادة أفضل بكثير من تذكره لولادة ابنته الكبرى.. بل إنه يتذكر وجه طبيب أمراض النساء - الذي أهدها فيما بعد بزجاجة نبيذ سعرها ثلاثون جلدن على الأقل - وهو يحمل تيرزا على ذراعه.. ويقول "هذه هي".. ويشير بزهو إلى طفلة منكمشة.. رأسها لا

يغطيه إلا بعض الزغب.. لونه بني مثل كثير من الأطفال عندما يولدون. وقد ولدت تيرزا مليئة بالتثنيات.. لكنها احتاجت وقتا طويلا حتى تذهب هذه التثنيات.. فأخذ طبيب النساء النيذ ومني له حظا سعيدا.. ثم أتبع قائلا:

- غالبا ما ينتج عن الولادات الصعبة شيء جميل.. شيء مميز جدا..

فعل ذلك وكأنه كان يفشي بأسرار المهنة.. قال هوفمستر:

- كل شيء على ما يرام.

ثم أمسك بيده اليسرى - بينما تتدلى فوطة المطبخ على ذراعه - نشرة الإعلانات المجانية، فطواها على بعضها عدة مرات ثم قام بإدخالها في جيب البنطلون وهو شارد الذهن. وردد مرة أخرى:

- كل شيء على ما يرام.. نجحت تيرزا.. حصلت في مرتين على تسعة من عشرة، وفي مرتين على ثمانية، ومن حين لآخر كانت تحصل على سبعة من عشرة وتلك كانت تعد أسوأ درجة.. وستقيم حفلة في الأسبوع المقبل.

كان يحكي ذلك بكل فخر.. ولكن عندما كان على وشك الانتهاء من حديثه.. لاحظ كم كان سخيفا أن يحكي ذلك لأم تيرزا.. وقد كان الحي يغتابها بسبب ذلك، وربما يغتابونه أيضا.. فلا يجب أن يفترب المرء عن أولاده.. ربما يفعلون هم ذلك.. ولكن ليس العكس.

ولأنه الآن ليس لديه ما يقوله.. فإنه يستطيع أن يدلك شفتيه كما يحلو له.. كما يفعل دائما إذا أربكه شيء أو أرهقه.

قالت:

- هذا جميل.. تسعة نقاط؟.. لم أكن أتوقع غير ذلك.. في ماذا؟

- ماذا تقصدين؟

- في أي مادة حصلت على تسع نقاط؟

- في اللاتينية وفي التاريخ.. ألم يكن لديك علم بذلك؟.. ألم تسمعي به أبدا؟ على الإطلاق؟..

أدهشه جهلها بذلك.. بل إنه أغضبه قليلا، فالشخص الذي يقرر العودة بعد فترة قصيرة كانت أو طويلة، يمكنه على الأقل أن يستعلم ولو في السر عن وضع الأمور فيما يخص

الإبنة والزوج.. إذن فمن المؤكد أن هذا الرجوع كان مجرد نزوة مثل كثير من النزوات في حياتها.

- من كنت سأسمع منه؟.. من أيبي؟.. إنني لم أتحدث معها منذ زمن طويل.. وهي لا تتصل أبداً.
لاحظ نظرتها الغاضبة على يده التي كان يعجن بها شفته السفلى، فقد كان يعرف أنها تكره هذه العادة القديمة، ولذلك توقف عنها..

"هي لا تتصل أبداً".. كان لدى هذه السيدة اعتقاد أن أولادها هم من يجب أن يتصلوا بها.. وليس العكس.. وكان الدنيا تدور حولها هي.. قالت:

- إن لم أكن أزعجك؟.. هل يمكننا أن ندخل؟
يا للخرج.. لقد كانوا يقفون طوال الوقت في منتصف الصالة.

- هيا.. فلدي في الحقيقة شيء في الفرن.. أعني.... لم يعد في الفرن ولكنني أخرجته.

نظرت إليه.. ثم أمالت الحقيبة لتسحبها إلى غرفة الجلوس، ولكنها تركتها كما كانت ثانية.. وقالت:

- إنني أفهم، وأعرف ماذا تعني بالضبط.. فأنت كما أنت دائماً لم تتغير أبداً.



لم تهتم
الأديان الأخرى بهذا: لم تعبأ بأن لم شمل الأسرة في الحياة الآخرة ربما يكون أيضاً أمراً غير مستحب! لأن المرء سيضطرب عندئذ أن يجامل في الحديث وأن يضافح باليد ثم يعانق... ولكنه دون أن يتفوه بكلمة ساعدها على خلع المعطف، كان معطفا شتويا لونه أزرق فاتح.. لم يكن قد رآه قبل ذلك..

ليس من النوع الرخيص.. كان يستطيع أن يرى ذلك بوضوح
فهو لم تكن تحب الأشياء الرخيصة، ثم علق المعطف
باهتمام على الشماعة.

شيئا فشيئا أصبح أكثر هدوءاً، وأصبح كل شيء مرة أخرى
تحت سيطرته.. فهكذا إذن الحياة.. يختفي الناس، وأحيانا
يظهرون ثانية.. بكل سهولة في ليلة جميلة كهذه في أوائل
الصيف.. ماذا لو كنت أدخلت الطاجن في الفرن.. لم تكن
ستعرف.. ولو كان يعلم المستور لضرب بكل الخطط عرض
الحائط، فالإلهام له ثقله ويتوافق أحيانا مع الأهواء النفسية.
ولأنه كان يبدو هادئا بدت متردة وسألته:

- أو شخص ما هنا؟.. هل لديك أحد؟

سمع هوفمستر صغيرته تندفع راضية من المطبخ.. وكما
توقع.. لقد كانت تتصنت.

نعم.. الفضول من علامات الذكاء.. ولكن الطفل الذي
يعني أيضا: أن يكون الوالدين دائما على حذر، فمع الطفل
الذي لا يعرف المرء أبدا من يخدع من، ولكنها رمت والدها
بنظرة قاتلة.. ثم صعدت الدرج مسرعة.. مارة بأمها ومارة
بالمعطف الأزرق المعلق بعناية على الشماعة.

- هل لدي أحد؟..

قالها هوفمستر بينما تيرزا تغلق الباب بعنف.. وهو لا
يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك:

- هل لدي أحد؟.. لا، ليس لدي أحد.. أنا أعيش هنا
بمفردي مع تيرزا.. بالطبع هي أحد، ولكن ليس كما تعنين
أنت.

وظل هوفمستر يضحك بلا توقف.. فلم يعد يستطيع أن
يمسك نفسه من الضحك أو يستحي.. ولما هدا أخيرا قال لها:
"تفضلي" ومشى أمامها إلى غرفة الجلوس، وبقي واقفا أمام
الكنبة.. لكنها لم تجلس وجعلت تنظر حولها كأنها تريد أن
تتذكر كل شيء بالضبط.. وكأنها كانت شخص آخر.. شخص
غريب في هذه الغرفة.. التي عاشت فيها طويلا، والتي كانت
تجلس فيها كل مساء.. معه بمفردهما.. أو مع الضيوف..
حيث كانت تقيم المهرجانات، وتضع المهود وأقفاص
الأطفال.. والغرفة التي كان يزحف فيها بناتها على الأرض
والتي كانت ترسم فيها من وقت لآخر مناظر هادئة.

- لم تتغير الحجرة كثيرا، وأنت أيضا لم تتغير كما قلت لك منذ قليل.. في الحقيقة لم يتغير أي شيء.. هل قمت بتجديد الدهان؟

- رف الكتب جديد كما ترين.. وكذلك الكرسي.. تيرزا هي التي اختارته.. هناك أشياء قد تغيرت بالفعل.. وبذلك تجاوز سؤالها فلم يجب عليه.. فمن يستطيع تجاهل الأسئلة.. لا يمكن أيضا أن يقع بلسانه.. فهو كصاحب منزل لا يلقي بالألمعظم الأسئلة.. ولعبة الإلهاء هذه هي طريقة يستطيع المرء أن يمارسها لسنوات عديدة.. ولكنها لم تنظر إلى رف الكتب ولا إلى الكرسي الذي قامت تيرزا باختياره.. وبدلا من ذلك وقفت أمامه مباشرة وجعلت تتفحصه كأنه لوحة في متحف لا تعرف إلا من خلال البطاقات المصورة أو الكتالوج.. حيث يقف المرء أمامها فجأة ليحاول أن يفهم لماذا خيبت ظنه قليلا.. ليس كثيرا.. ولكن قليلا بعض الشيء.. بعد ثواني قالت:

- أنت لم تجدد الدهان.. فأنا أرى كل شيء باهت.. أعتقد لأنك لا تعيد تجديد الديكور بانتظام.. يجب أن يحافظ المرء على البيت من الداخل أيضا.. ولكنك تحسن التدبير.. بدت مسرورة ولكنها في نفس الوقت بدت في حيرة.. ماذا كانت تتوقع؟.. أن تجد سكريا؟ أو مريضا؟ أو يد مرتعشة وأسنان متساقطة؟.. أو حطام في آخر لحظاته؟ هل كانت تتوقع أنه لا يحسن عمل شيء أبدا غير النقاشة وختم الباركيه بالشمع أو تجديد مواسير الصرف؟! بدا عليها الإندهاش لأنه أستطاع أن يتدبر حاله بدونها، ولكنها أحببت أيضا.. تماما مثل إحباطها من الحوائط التي لم يجددها..

كان بين زوجته والمستأجر صفة أساسية مشتركة، فكلاهما يجد دائما أن أي سقف يحتاج للإزالة.. دائما يصطدمون بشيء في المنزل يجب أن يتم تجديده.. دون عمل أي حساب للمال، ودون أن يكون لديهم فكرة عن الأجر الذي يطلبه الحرفيون في هذه الأيام لساعة عمل واحدة.. فلا بد أن يوجد دائما أي شيء لتتم الشكوى بخصوصه، ولكن شكوى زوجته كانت دائما تنتكر في زي الحب! رجعت خطوة إلى الوراء.. ثم قالت:

- هل أنت سعيد بزيارتي؟
فاجأه السؤال.. انعقد لسانه عن الكلام.. لم يستطع إلا
قول: "سعيد".. ثم نظر في الساعة وقال:

- نعم أنا مسرور، ولكنني كنت للتو أطيخ ولو كنت أعلم
أنك تأتين كنت طبخت كمية أكبر.. كان بمقدورك أن تتصلي
فلا يزال رقم الهاتف نفسه لم يتغير.. ولكن.... عندئذ توقف..
ليس لسبب عاطفي، ولكنه لم يشأ أن يقول ما كان يريد
بالضبط قوله..

- من الجميل رؤيتك، ولكن المرء بطبيعته فضولي.. أعني
نفسي بالطبع.

كان هوفمستر مندهشاً أنه لم يتفوه بكلمة، أو حتى ما
يقاربها، من الكلام الذي كان يتوقعه من نفسه إذا ما اجتمع
بهذه المرأة مرة أخرى.. والآن، وعندما جاءت الفرصة لقوله،
فإنه ينسأه، فقد أراد أن يبدو جذاباً وقوياً، لم يضعف عوده
أو ينحن أو قد وهنت صحته بالمرّة.

- فضولي!.. حول ماذا؟!

- بشأنك.. كيف الأمور معك.. ماذا تفعلين.. كيف
تعيشين.. وماذا حدث لك.

- كيف أعيش؟ لماذا لم تتصل أبدا طوال كل هذه
السنوات؟.. كنت سأخبرك حقاً كل شيء بالتفصيل ولم أكن
سأكتفم عنك شيئاً.. ما كان عليك إلا أن تتصل.
شيء مضحك.. تخلت عنه ثم تتوقع منه أن يجري
وراءها لكي يستعلم عن أخبار رفاهيتها أو يسألها إن كانت
تحتاج شيئاً.

- لم تبد لي فكرة جيدة أن أتصل بك.. لم أكن أريد أن
أتطفل - لو إنك جائعة يمكنكني قلي بيضة أخرى - علاوة على
ذلك لم يكن لدي رقم هاتفك.

- لم آت من أجل الطعام..

ثم جلست على الكنب.. التي طالما كانت تجلس عليها..
كان هوفمستر قد جدد كسوتها.. وقامت تيرزا باختيار الجلد..
كانوا كثيراً ما يختارون الأشياء معاً.

- إذا ربما تريدني شيئاً آخر غير البيض؟

- يورجن، أنا لست جائعة...

قالتها وهي تؤكد عليها بشدة.

- لا يحتاج المرء أن يكون جائعا حتى يأكل.. فأنا اليوم أحضر طبق المشهور الطاجن.. وصديقات تيرزا مولعون به.. فلن نأكل لأننا نشعر بالجوع.. ولكننا سنأكل لأن هذا وقت الطعام.

قال ذلك كأنه معلم يحاول أن يقنع التلاميذ بشراء كتاب يعرف أنهم سوف يكرهونه.

بدت وكأن لهجة الكلام قد أقنعتها.. وخاصة لهجة إنسان متعلم يعيش ليعاتب الآخرين على أخطائهم.. ولكنها قالت:

- لكنني لم أعد كذلك.. لم أعد أكل لأن وقت الطعام قد حضر.. لم أعد أخضع لروتين ممل، وأصبحت أكل عندما يكون لدي رغبة في الأكل.. ولم أقدم إلى هنا من أجل طبق المشهور.

ثم أشعلت سيجارة.. وكانت حقيبة اليد جديدة.. ألوانها ملفتة قليلا وشبابية مناسبة لعمرها.. كانت مطرزة بالكامل.. فذكرت هوفمستر بحقيبات اليد التي تحملها صديقات تيرزا عندما كن يقفن في المطبخ في الصباح الباكر بعد الحفلات بحقائهن المرصعة باللآلئ وقطع الزجاج اللمعة.. فبإمكان المرء في هذه الأيام أن يزين أشياءه بأي شيء يقع تحت يديه.. فكان هوفمستر يعتذر إذا دخل عليهم بالبيجامة في المطبخ.. حيث يجدهم مع تيرزا في جو مرح تفوح منه رائحة الدخان الكريهة وأحيانا رائحة الطعام العفن، فيصب مسرعا كوبا من الحليب ويأخذ تفاحة من طبق الفواكه ثم يلجأ ثانية إلى حجرة نومه - أو لو كان في الصيف ووجد أن الطقس جميل يذهب ليجلس في الكوخ منتظرا بجانب الجرافة والمنشار حتى تذهب الفتيات إلى السرير أو يعدن إلى المنزل.. وتبقى تيرزا.. وكان من حين لآخر يقابل في الحمام شبابا غرباء لا يعرفهم ولم يتم تعريفه بهم، ولكنهم رغم ذلك يقضون الليل عنده.. شباب لا يملك هوفمستر غير أن يسألهم: "هل تحتاج منشفة؟".. لأن تيرزا كانت تنام كالقتيل.. إذا نامت فقد يمكن لقنبلة أن تنفجر بجانبها وهي لا تشعر.. أما الشباب فقد كانوا دائما يستيقظون قبلها.. ولم يكن هؤلاء الأشخاص الذين يلتقي بهم من وقت لآخر في الحمام يستيقظون خاصة ليستنشقوا هواء طازجا.. ولم يكن بين تيرزا وأصدقائها شيء مشترك غير رائحتهم الكريهة.. ولكنها الآن قد

استقرت على صديق واحد.. وهو ليس متأكداً حتى الآن بشأن الرائحة الكريهة.. بل إنه قلق من أسوأ من ذلك.

- لقد عاودت التدخين!

قال ذلك ونظره لا يزال موجهاً نحو حقيبة اليد.. بدا مهتماً، وما أزعجه أن ما قاله للتو كان لأقرب الناس إليه.. وكان تدخينها من شأنه.. فرثتها من شأنها هي.. بل جسمها كله من شأنها هي.. فهو لم يعد مسئول عن بدنها.

- هل يزعجك ذلك؟

- ليس بالضبط.. لا يزعجني ذلك.. سأطلب من تيرزا أن تحضر لك طفاية.. فقد تخلصت منها.

اتجه نحو الممر ونادى:

- تيرزا؟ هل يمكنك أن تحضري لماما طفاية؟ أصغى ليستمع الجواب ولكن تيرزا لم تقم بأي رد فعل..

ربما كانت تجلس في غرفتها وتحدث في الهاتف.. فالعاطفة الصادقة لا تذهب حرارتها.. إنها تتحدث حول كل شيء مع صديقاتها.. حتى في التفاصيل، أخبرته عن ذلك ذات مرة أثناء الأكل.. فسألها متعجبا:

- وعني أيضا.. هل تتحدثين عني أيضا؟ قالت: نعم أتحدث عنك.. أنت والدي.. لماذا لا أتحدث عنك؟

ما زالت زوجته دون أن تحرك ساكناً تتابع التدخين.. فنادى هوفمستر مرة أخرى بصوت أعلى:

- تيرزا.. طفاية لأملك من فضلك!

جعل يحدق في رماد السيجارة الذي يطوال شيئاً فشيئاً ويوشك أن يسقط ولم يستطع أن يرفع عينيه عنه وكأنه منوم مغناطيسياً.. وقال: "إنها متعاونة جداً.. خلافاً للسابق.. بل إنها في أيام امتحانات الثانوية كانت تصر.. على مساعدتي.. رغم المذاكرة التي كانت لديها."

كان هوفمستر يتكلم وكأنه في حلم.. يهذي بلا توقف، وكأنه يحدث نفسه وليس زوجته.. كما لو كان بمفرده في الغرفة.. وكأنه يجرب إلقاء كلمة على ضيوف منتظرين بشوق.. وعندما لم تبدي تيرزا حراكاً ذهب هو بنفسه إلى المطبخ وبحث عن طفاية.. أين هم الآن؟.. لم يعد أحد يدخن

في هذا المنزل، فنادرا ما كان يزور أحد هوفمستر.. حتى الخادمة لا تدخل.. كانت بين حين وآخر تشرب كأسا، ولكن تدخل؟.. لا.. وإذا كان صديقات تيرزا أو شبابها يريدون التدخين - كان نادرا ما يحدث - فإنهم يذهبون ويدخنون في الحديقة.. أو ينفثون الدخان من النافذة.. ولم تكن تيرزا ترغب في التدخين ولكنهم الشباب.

لم يجد هوفمستر أية طفافة.. فقد تخلص منهم جيدا.. على أساس أنهم لم يعودوا بحاجة إليها.. ولذلك أحضر صحن فنجان.. لم يكن ذلك تصرفا دقيقا بالطبع ولكنه حل مؤقت.. فقد كان هوفمستر يهتم قبل كل شيء بالدقة والقواعد الأخلاقية.. وإذا كان من شيء سيبرر له موقفه فهو أنه كان دائما دقيقا في تصرفاته.

عندما عاد إلى الغرفة كانت يد زوجته اليسرى قد امتلأت من الرماد.. ناولها صحن الفنجان وسألها إن كانت تريد قطعة قماش مبللة.. قالت:

- أنا يدي ضد النار!

قالت ذلك وهي تضحك.. تماما كما في الماضي.. يا إلهي.. لا يكاد الناس يتغيرون.. بل يجدون مسرحا جديدا لهواجسهم.. فتظهر التجاعيد وتسقط الأسنان وتنكسر - العظام وتستبدل الأعضاء بأجهزة.. ولكن حقيقة تبقى أفعالهم كما هي.. لا تتغير أفعالهم.

وعندما انتهت من ضحكها قالت:

- إذا صنعت فيك جميلا - وكنت ترغب في ذلك - وأنا أعرف أنك ترغب في ذلك بشدة - سأكل لقمة صغيرة معك، ولكن من غير تكلف.. أحضر - لي ما تيسر.. فقط لا تجهد نفسك.

قام هوفمستر بإزاحة زهرية بها ورود من على مائدة الطعام.. كانت تيرزا قد تلقت الورد منذ يومين.. وهيا بذلك مكانا لزوجته ذات الظهور المفاجيء التي سيأكل معها لقمة صغيرة، وجعل يردد في نفسه أنها ربما وانتهت الشجاعة لتسكن في حانة قريبة من هنا قبل أن تظهر هنا فجأة بحقيبتها أمام الباب.

قال وهو يخفض صوته:

- ليس في المطبخ إجهاد، ولا يتطلب كثيرا.. أنا لدي أسرة إذن أطبخ.. فهذه مهمتي.

كانت المائدة مجهزة لشخصين فقط.. فقد كان يعد المائدة دوما قبل الطبخ، وأحيانا كان يعدها بمجرد وصوله إلى البيت من العمل.. لأنه لم يكن يتوقع أن يجلس مع تيرزا على المائدة.. لأن هذه اللحظة كانت لحظة إصلاح الارتباط الأسري المتدهور دائما.. الارتباط المتأزم.. فقد كان هو وتيرزا يجلسان سويا على المائدة فيظهران وكأنهما اسرة مترابطة.. بل أكثر من ذلك.. كان رباط مقدس يربطهما.

ذهب ليحضر - طبقا ثالثا.. تذكر مهمته لهذا اليوم.. الطاجن.. القرن.. وأنه لابد أن يطبخ. وقف هناك حائرا ممسكا بالطبق في يده.. مترددا.. هل يمكن أن يترك الضيف بمفرده أو ينبغي عليه أن يدعوه ليأتي إلى المطبخ.. فيتسامرا هناك عن تفاهات ما قبل التاريخ.. ما رايك؟ "هل تاتين معي إلى المطبخ؟".. ووضع الطبق على المائدة وبذلك أصبح عليها مكان لشخص ثالث.. لزوجته.. أم تيرزا.

وفي الحال بدأوا في أكل لقمة صغيرة معا.. كان على هوفمستر طبخ شريحة من لحم الضأن أولا.. كان يورجن يطبخ للمرأة التي هي في النهاية زوجته.. وكان يعرف أنه لن يكتفي بتقديم اللحم فقط.. فجعل يفكر في الحقيبة التي مازالت في الطريقة.. وفي زيارتها الأولى عندما جاءت ومعها تورته محلية الصنع.

قالت وهي توجه بصرها نحو لوحة معلقة على الحائط:

- لقد تغيرت.

كانت قد علقتها بنفسها على الحائط.. بل هي التي رسمتها، ولم يكلف هوفمستر نفسه العناء أبدا وينزلها.. على الرغم من أن تيرزا سألت مرتين: "هل حقا سوف نمضي- بقية حياتنا ننظر إلى طبق الفواكه هذا؟ هل هذا ضروري؟"

- من؟ تيرزا؟

كانت فوطة المطبخ لا تزال معلقة على ذراعه.

- نعم، تيرزا.. لقد أصبحت جميلة. لقد صارت امرأة.. لكنه عندما قال ذلك شعر بالأسف في الحال.. امرأة؟ كيف أصبحت امرأة؟.. حسنا، أصبح لديها ثدين وخاصرتين مشوقيتين.. ولكن متى يصبح الإنسان امرأة؟ وما الذي يجعله رجلا؟ هل هو العضو الجنسي الذي يتدلى بين ساقيه؟ لم يعرف ماذا كان يقول عن تيرزا أو ماذا كان يريد أن يقول.. لذلك لم يزد على أن قال:

- لقد كانت دائماً جميلة. وهي طفلة كان جسمها مليئاً
بالتشنجات ككل الأطفال.. أما إيبى قلم تكن كذلك، بل كان
لديها مشاكل أخرى.. هل ترغبين في شرب شيء ما؟
هزت رأسها:

- سأخذ أنا بنفسى شيئاً.. فأنا حقاً في هذه اللحظة في
غاية السرور.

حدق ببصره إليها.. إلى المرأة السعيدة التي لم يرها على
مثل ذلك في الماضي أبداً رغم كل امكانيات الحياة السعيدة
التي كانت متوفرة، ولكن من الواضح الآن أنها أصبحت
سعيدة.. إذا فقد انتهت قصتها بنهاية سعيدة في مكان ما.. لم
يكن هو فمستر متواجداً فيه ليس إلا.

ذهب إلى المطبخ.. بإمكانها أن تتدبر أمرها بمفردها في
غرفة الجلوس.. أدخل الطاجن في الفرن وفتح زجاجة نبيذ
وضبط المؤقت على ثلاثين دقيقة.. فبدون المؤقت لا يستطيع
هو فمستر أن يطبخ.. ثم وضع كتاب وصفات الطبخ جانباً
على كومة الكتب.

ظل واقفاً أمام الفرن.. تتحسس يديه البوفيه.. كأنه لا
يستطيع أن يبصر ويقرأ كالمكفوفين عندما يقرأون بطريقة
برايلي.. وتساءل في نفسه عن أي شيء يمكنه أن يتحدث فيه
مع الضيوف وهم على الطعام.. هل سيقول لها: هل سافرت
لفترة طويلة؟ أو.. هل ما زالت أمك على قيد الحياة؟.. فقد
كانت أمها تعاني من مرض شديد وقت أن هجرته.

جعل يفكر في عمله وفي تيرزا ورحلتها التي خططت
لها.. وفي بوتسوانا التي قرأ عنها أنها منطقة موبوءة بالمalaria.

دق جرس المؤقت.. جاء إلى الحجرة حاملاً الطاجن
بعناية.. كانت زوجته مستلقية على الكنب.. قد خلعت
حذاءها وأغلقت عيناها.. بينما تفوح رائحة دخان السجائر..
قال لها:

- سوف أحضر لك أيضاً شوكة وسكين.
ثم وضع الطعام على المائدة.. لم تحرك ساكناً.. كانت فقط
تستلقي على الكنب متمددة وسعيدة كأنها لم تترك البيت
أبداً.. بل خرجت فقط لفترة وجيزة لتحضر الخبز.. ولكنها
تأخرت أثناء الطريق بسبب زحمة سير لا أكثر.. غيابها لثلاث
سنوات كان زحمة سير بسبب الأجسام الإنسانية لا أكثر!

نادى في الطريقة.. بينما هو يحضر الشوكة والسكين وكأسا للضيف وزجاجة النبيذ من المطبخ:

- تيرزا، هيا.. الطعام!..
سألته زوجته:

- أين ينبغي عليّ أن أجلس؟

.. بينما هو يسكب النبيذ.. كل الكؤس ممتلئة تقريبا بنفس الكمية.. إنه يعني بكل التفاصيل.. يتقن دوره.. دور الخادم.. خادم المنزل.

قامت بتناقل من فوق الكنبه.. واتجهت حافية نحو المائدة.

- هنا على رأس المائدة.. حيث يجلس الزائر دائما.. لديك حذاء أنيقا، من إيطاليا؟

- من فرنسا.

أخذت مكانا على المائدة.. فتح هوفمستر فمه.. ثم نادى ولكن هذه المرة بصوت أعلى:

- تيرزا، الطعام جاهز!

كان الطعام على المائدة.. موضوع في الأطباق.. لكن أحدا لم يأكل.. فهم ينتظرون الطفلة...

- هو هدية!

قالت الزوجة ذلك وهي تمسك الشوكة بيدها مرتدية قطعة من المجوهرات في البتسر الأيسر.. لم يكن قد رآها من قبل.

- ماذا؟!

- أعني الحذاء.. هدية.

- لطيف حقا.. لقد تركت هنا على الأقل عشرة أزواج من الأحذية.. هل كنت تعرفين ذلك؟.. كنت أريد أن أرسل بهم إليك.. ولكن لم أعرف إلى أي مكان كان ينبغي عليّ أن أرسلهم.

ثم أخذ قطعة من الخبز الموجود في السلة.. الموضوعة أيضا منذ ساعتين على الطاولة.

- كنت أظن أنك تخلصت منهم منذ زمن بعيد.

كان الخبز جافا.

- أتخلص - من أي شيء؟ أتعنين الأحذية؟

- نعم.. الأحذية.. كنت أظن أنك ستتخلي عنها.. ونفس الشيء ظننتك ستفعله بأشياء.. أليست فكرة مجنونة؟ ولذلك اشتريت لنفسي من جديد كل شيء.

- من كان يلبس نفس مقاسك؟.. لم أكن أعرف أحدا يلبس نفس مقاسك.. فأنت تلبسين مقاسا غريبا. - الطعام يا تيرزا! - ما زال كل شيء في الدولاب كما هو.. تماما كما تركتيه.. كان يمكنك أن تعودتي في أي وقت تشائين. نظرت إليه.. بتفحص.. كأنها تريد بذلك أن تتأكد إن كان يمزح أم لا.

- لقد قيل لي أن قدمي تحفة فنية.
.. قالت الزوجة ذلك بعد وقفة قصيرة وهي تبسم برقة..
بدا واضحا أنها كانت مجهدة.. وهو أيضا كان كذلك.. كان كلاهما كذلك:

شخصين مجهدين.. كانا في الواقع مجهدين دائما.
- هل ملأت نظرك جيدا بتحفتي الفنية؟ فقد اعتنيت بها جيدا.

استدارت قليلا في مقعدها ومددت ساقها بجانب الطاولة.. كانت تزين أطراف قدمها باللون الوردي.. لامست رؤوس أصابعها فخذ هوفمستر.. تجمد الدم في عروقه..
لأزالت قطعة الخبز الجاف في يده.. ألقي نظرة على قدمها العارية وعلى بطن ساقها.. وعلى الأصابع التي تلامس بنطاله.. وضع الخبز في فمه وبدأ يمزغ...

- أليس لديك شيئا تقوله بعد كل هذه السنوات؟
- شيئا أقوله؟
- شيء لطيف.. هل أنت سعيد لرؤيتي مرة أخرى؟
- تقصدين بشأن قدميك؟ شيء لطيف؟..
كان الخبز جافا جدا.. لكنه لم يكن لديه رغبة في تحميمه.

- أنت تعرف بالتأكيد كم هي مهمة بعض الأشياء لي.. ألا يمكنك أن تكون أكثر حميمية بعد هذا الوقت الطويل..
فأنت بالتأكيد لديك مشاعر.
.. حركت أصابعها فنظر هوفمستر مرة أخرى على قدميها.

الحميمية.. هذا ما يتوقع من زوج عندما تهجره زوجته
ثم يجدها بعد ثلاث سنوات واقفة أمام باب المنزل!

- لم تتغير قدماءك.

- أهذا كل شيء؟

- أعتقد ذلك.

- إنها جوهرة يا يورجن.. قدماي جوهرة.. الكثيرون
معجبون بها ويقولون لي هذا دائما.

أعادت ساقها مرة أخرى تحت الطاولة.. حملق هوفمستر
في الأطافر ذات اللون الوردي.. كان من النوع الغالي.. ثمه
على الأقل ثلاثين يورو.. فمن إذا كان يعطيه لتيرزا؟.. إنها لم
تذكر أسماء.. نادرا ما كانت تذكر أسماء الشباب.. كانوا
يجلسون على الطاولة ويتحدثون عن الأشياء اليومية.. عن
الأخبار والطعام والطقس وصديقاتهم ومشاريع التخرج..
فقط من حين لآخر كانوا يتحدثون عن رحلاتهم حول العالم..
كانوا يتجنبون الأحاديث في السياسة.. ويتفق رأيهم على
الذهاب إلى إفريقيا.

شرع هوفمستر في الكلام: "أجد أن...." ولكنه توقف..
فلم يكن يعرف بالضبط ماذا وجد.. وفي هذه اللحظة يسمع
تيرزا تنزل على الدرج فيقرر أنه لم يعد بحاجة أن يكمل
الجملة حتى نهايتها.. وأن عليه أن يقول شيئا لطيفا وودودا
عن تيرزا: فإذا كان الجو حقا يحتاج إلى حميمية.. ولديه شك
في ذلك.. إذن فعليه أن يوجهها لتيرزا
صاحت تيرزا:- أوف.. رائحة منتنة هنا..

كانت ترتدي بلوزة بيضاء.. فبدلت ملابسها قبل الطعام..
وهي عادة لا تفعل ذلك إلا إذا كان لديهم ضيف.. كانت
جميع الزيارات في الماضي من أجل تيرزا.. فقط الشغالة من
غانا كانت تأتي من أجل هوفمستر.. ولكن هذه لا يمكن أن
تسمى زيارة بالمعنى الدقيق للكلمة.

جلست الابنة.. عندئذ رفع هوفمستر كأسه وقال:

- تيرزا، لنشرب نخب زيارة أمك المفاجئة.. لنشرب نخب
أننا كلنا الآن، تقريبا كلنا، هنا مرة ثانية بصفتنا... حسنا،
نعم، بصفتنا أسرة تجلس مع بعضها.. ولنشرب نخب أننا
بعافية.

وبالفعل رفعت الابنة كأسها لكنها وضعت مرة أخرى
وقالت:

- لن اشرب نخب ذلك.. والرائحة كريهة هنا، بابا، ألا تشم ذلك؟ لقد كانت تدخن هنا بكل بساطة.. التدخين ليس مسموحا به هنا.

عندما يصل الأمر لهذا الحد.. تستطيع تيرزا أن تتحدث أيضا كما لو أنها معلمة.. ذات مرة قال مديرها: إنها زعيمة بالفطرة.. تملك زمام المبادرة.. وتتقدم للأمام ساحبة معها الكل.

ساد صمت مؤلم.. قام هوفمستر لفرط إثارته بحشو قطعة أخرى من الخبز في فمه.. حاول هوفمستر أن يتكلم مرة أخرى:

- سنشرب.....

لكن تيرزا قاطعته قائلة:

- لا.. لن أشارك في هذا.. لن أشارك في هذا الأمر.
جعلت تطعن بغضب في الطاجن الذي في طبقها الذي كان الأب قد أعدّه للتو.
قال هوفمستر:

- حسنا.. إذا نخب الحياة.. نخب شهادتك - حسنا تيرزا؟
نخب شهادتك الثانوية.. نخب مستقبلك.. نخبك أنت.
وقبل أن يتمكن أي شخص أن يثير إعراضات أخرى قام هوفمستر بالرشفة الأولى.. لم يكن النبيذ باردا كفاية.. ولكنه تغاضى عن ذلك.. ففي مساء كهذا يجب التغاضي عن أشياء كثيرة.

كان الطاجن الذي طبخه هوفمستر يمكن أن يكون أفضل من ذلك ولكن طالما أنه يؤكل فكل شيء إذن يمر بسلام.
كان الوضع يمر بسلام.. هذا المساء.. والمجلس.. والأسرة.
أكلت الزوجة لقميتين ثم خلعت نظارة الشمس من على تصفيفة الشعر وسألت:

- وكيف حالك ياتيرزا؟ كنت للتو أقول لأبيك أنك قد أصبحت جميلة جدا.

أخرجت تيرزا شريحة من الجبن من طبقها.. فالطاجن كان بالجبن.. كانت وصفة فرنسية.. وغمغمت قائلة:

- وكأنك تهتمين بذلك على أي حال.

- يهمني ذلك بالفعل.. بل يهمني للغاية.. وكنت أفكر في كثير من الأحيان أنك قد أصبحت حقا جميلة.

- أصبحت؟.

- بل لا تزالين جميلة كما كنت بالفعل.. كنت دائما جميلة.. ولكنك الآن كما ينبغي أن أقول.. حقا مزدهرة كالزهرة.

أجابت تيرزا:

- شيء مضحك!..

كانت تمضغ الطعام بدون نفس.. كالطفل العازف عن الطعام.. فقط كانت تلهو بالطعام.
سألته أمها:

- شيء مضحك؟ ما المضحك في ذلك؟

- مضحك أنه يخطر ببالك أنني كنت في الماضي أيضا جميلة.. مضحك أنه يهمل كيف حالي.. لأنني لم ألاحظ هذا ولو قليلا في السنوات الأخيرة.. بل لا حرج أن أقول: لم ألاحظ أبدا.

بعد هذا العداء الخفيف واصلوا جميعا الأكل في صمت.. ولكن

الإثارة استحوذت على هوفمستر مرة أخرى.. أكثر من ذي قبل عندما نظر إلى حقيقة زوجته في الطريقة.. ولذلك حشا فمه مرة أخرى بأكثر من قطعة خبز.. حتى التهم كل ما في السلة.. فعلى المرء أن لا يترك شيئا من الطعام، فرمي الطعام تبذير.. بل يعتبر خطيئة.

وعندما أوشكت الزوجة أن تنهي طبقها.. سألت:

- ما نوع هذا النيذ؟

أجابها هوفمستر:

- جنوب أفريقي.. اكتشفت أنا وتيرزا النيذ الجنوب أفريقي.

قالت وهي تضحك بسخرية:

- اكتشفتم؟ ماذا تعني بـ اكتشفتم؟.. ما الذي تم اكتشافه في ذلك إذن؟

- كل سبت بعد الظهر كان بائع النيذ يقيم مهرجانا لتذوق النيذ.. هنا عند الزاوية.. فكنا نذهب هناك أحيانا.. ليس كذلك يا تيرزا؟

أدركت أم تيرزا الوضع تماما وقالت:

- كطائري سلام متحابين! كل سبت بعد الظهر.. إلى مهرجان تذوق النبيذ؟.. كم هذا رومانسي.. من كان يظن ذلك؟ أن تفهما أنتما الإثنين بعضكما جيداً هكذا؟

- بابا! "

هتفت تيرزا.. لكن الأب تصرف كأنه لم يسمعها مطلقاً.. وتابع قائلاً:

- تيرزا تهتم بمنطقة جنوب إفريقيا.. بالمنطقة كلها.. بإفريقيا كلها في الواقع.. هل ما أقوله صحيحاً؟ إفريقيا كلها؟.. هي تفضل أن تسافر مستخدمة وسائل المواصلات العامة من أطراف جنوب القارة حتى أعلى الشمال إلى المغرب، ولكنني حظرت عليها ذلك.. وفوق ذلك لا يكاد يوجد هناك وسائل مواصلات عامة.. تصوري ماذا يرد في ذهني بشأن وسائل المواصلات العامة في الكامبيرون؟ الأموات.. فقد قرأت ذات مرة أنهم في الكامبيرون ليس لديهم عربات لنقل الموتى، وبكل بساطة يأخذون الأموات إلى المقابر بالباص وهم يحملونهم بين أذرعهم.

ضحك هوفمستر.. فهذه الفكرة: أقارب الموتى يحملونهم تحت أذرعهم ويذهبون بهم إلى المقابر بالباص، تجعل الموت يبدو أقل مهابة، فطالما يتصرف المرء وكأن كل شيء متأزماً.. سيكون كل شيء متأزماً..

تلقي ركلة في قصبة رجله.. فكانت هذه علامة له أن يجمع الكسرات المتبقية من الخبز في السلة ويحشو فمه بها.. الغذاء نعمة!.. قاطعته الأم:

- أنت تريدين إذن أن تسافري عبر إفريقيا بالمواصلات العامة؟

كان يبدو عليها التعب.. لكن لم يكن يجهداها.. كانت نواياها حسنة.. بالضبط كما كانت دائماً.. ولكن كل ما كانت تهتم به هو نفسها بصفة أساسية.. لم تجبها تيرزا وركلت أبيها مرة أخرى في قصبة رجله.. ربما هذا هو جوابها!

تابع هوفمستر قائلاً:

- لقد قلت لها إن المواصلات العامة في إفريقيا..... تلقي ركلة أخرى.. أصبح فمه فارغاً من الطعام.. عندئذ قال:

- تيرزا.. لا ذنب لي في هذا.. ليس بيدي شيء حيال ذلك..
 في الحقيقة لا أستطيع أن أغير أي شيء في ذلك بالصدفة.....
 هزت تيرزا رأسها بغير توقف كالطفل الذي نام لمدة
 طويلة ثم استيقظ سيء المزاج من فرط التعب.. ثم صاحت:
 - لا يتعلق الأمر بما تستطيعه، بابا.. ولكنني لم أعد
 أحتمل هذا.. لا أطيق ذلك.. توقف من فضلك.. توقف!
 كانت تؤكد على مخارج الكلام.. نظر هوفمستر
 إليها.. نصف شريحة الطاجن في طبقها لم يتم لمسها والنصف
 الآخر كانت تعبت به.. يصعب عليه قليلا فهم النفس
 البشرية.. بل حتى أبناءه من لحمه ودمه يبدون له في بعض
 الأحيان كالغرباء.. مألوفين ولكن غير مفهومين.. كالشباب
 الذين يقابلهم هوفمستر من حين لآخر في الحمام.. هم أيضا
 غير معروفين له ولكنهم رغم ذلك مألوفين.. كأنهم ينتظرونه
 الليل بأكمله في الحمام.. ينتظرونه هو والمنشفة.. أصدقاء
 ابنته الذي كان بالنسبة إليهم مجرد كومبارس جيد.. ولكنه
 حقيقة لم يكن كذلك.. والآن لا يريد أن يبدو غيبا.. بل كان
 يريد أن يكون شيئا آخر تماما.
 - أتوقف عن ماذا؟

- عن هذا الضجيج.. وهذا الكلام.. وهذا الحديث
 السخيف.. توقف عن تعظيم نفسك أمامي بهذا الشكل..
 توقف عن هذا التمثيل.. فقط لمجرد أن هذه المرأة الشاذة
 تجلس معنا هنا على الطاولة.
 عندما قالت "هذه المرأة الشاذة" أصبح صوتها أعلى..
 كانت تصرخ تقريبا.

- هل أنا أتصرف إذا بطريقة مختلفة؟
 .. سأل ذلك السؤال وهو يحاول أن لا يدع نظره يغيب
 عن كل من زوجته وابنته.. وإلا لو ضعف انتباهه لحظة
 لأمسكا بخناقه..

- هل أتحدث بطريقة مختلفة؟ هل آكل بطريقة
 مختلفة؟ أو هل توقفت فجأة عن الثثرة؟
 وضحك على دعابته.. لكنه ضحك بمفرده.
 - أنت لا تتأثر - بابا - لكنك تتحدث على غير المعتاد.. في
 غير ذلك أنا التي تتحدث وأنت تحرك رأسك.. أو تسأل: "ماذا
 يفعل أبوها؟".. ثم نقوم بغسل الصحن.. بعد ذلك أنت

لاتتفوه بكلمة تقريبا.. أنت تستمع فقط وهذا شيء طيب.. وأحيانا أسأل: "وكيف كان يومك؟" فتجيب "مثل كل يوم.. لا جديد" .. ولم أكن أجد ذلك سيئا.. فأنت هكذا.. لا يمكنك أن تكون غير ذلك.. وهذا أكثر بكثير مما تستطيع هذه.. فقط هذا الحديث.. هذا الحديث السخيف تماما لا أطيعه.

تحسس هوفمستر الطاجن.. كان لا يزال ساخنا.

- أتحدث معك أحيانا ياتيرزا.. وأنت تعرفين ذلك.. تعرفين ذلك جيدا.. وأقرأ إليك الفقرات الطريفة من الجريدة.. تعرفين ذلك أيضا.

- كل هذا صحيح يا بابا.. فأنا أجده لطيفا وأنت على طبيعتك.. لطيفا جدا وأنت على طبيعتك.. ولا أنكر أيضا أنك تقرأ لي الفقرات الطريفة من الجريدة.. لا أجدها دائما طريفة، لكن لأبأس، فأنت تجدها كذلك وهذا هو المهم.. ولكن هل يمكنني أن أسألك سؤالاً ما.. الآن.. حيث نتحدث مع بعضنا ولا تقرأ فقرات طريفة من الجريدة؟.. هل يمكنني أن أسألك الآن سؤالاً؟

- بالطبع.. أسألي عن أي شيء يا تيرزا.. أي شيء تريدينه.

- لماذا لم ترفس غريبة الأطوار هذه برجلك وترمي بها في الشارع؟

للحظة شعر هوفمستر برغبة في تدليك شفته السفلى.. لكنه كبّث هذه الرغبة.. رفع كأسه مرة أخرى.. أولا لتيرزا ثم زوجته ثم أخيرا لنفسه.. وحاول أن يغمز لزوجته بعينه لكي لا تلقي بالا لكلام تيرزا.. لكنها لم تلاحظه.. فقط كانت تبتسم ابتسامة باهتة.. فعندئذ قال:

- لا يلقي الرجل السيدات بسهولة هكذا عرض الشارع ياتيرزا.. وبالأخص لو كانت سيدة أنجب منها طفلتين.. وغريبة الأطوار هذه هي أمك.. لذلك سمحت لها بالدخول بدل أن ألقى بها عرض الشارع.. وهذا يبدو لي سببا وجيها للغاية.. إنها أمك.. كانت أمك وستظل كذلك.

قلبت الأم وجهها وكأنها توجه الحديث إلى شخص غريب.. أم أخرى تتحدث إلى طفل ليس ابنها.. وقالت بينما تعبت في نظارتها الشمسية:

- بصعوبة.. أنجبت الطفلي بصعوبة يا يورجن. أما الحديث.. أووه.. أنت بارع فيه.. أنت تظل تتحدث وتتحدث

وتتحدث.. غرفة نومنا كانت أحيانا استوديو لمسلسل إذاعي مثير.. ولكن إنجاب الأطفال يتطلب من الرجل عمل شيء يايورجن.. وهو ليس أي شيء.. بل هو شيء محدد.. على الرجل أن يدخل جهازه في الفتحة المناسبة! ظل هوفمستر مندهشا لدقيقة من كلمة "مسلسل إذاعي مثير".. فقد كان يعتبر نفسه رجل هاديء الطبع ومتحفظ ولكن من الواضح أن الآخرون كانوا يرونه بشكل مختلف.

- لقد تخلت عنا.

قالتها تيرزا وهي توجه الشوكة نحو الزوجة التي أرت هوفمستر قدميها منذ قليل.. كانت بعض بقايا الطاجن لا تزال متعلقة في الشوكة فوقعت على مفرش الطاولة.. واسترسلت:

- ربما كان لديها سببا لتتخلي عنك يا بابا، بل ربما كان لديها عدة أسباب وجيهة لذلك.. لكن في الحقيقة لم يكن لديها سبب.. ولو حتى أدنى سبب لتتخلي عني.. تغيرت نبرة صوتها.. شعر هوفمستر بالرعب يتصاعد في داخله.. رعب هائل بداخله.. عندئذ قال:

- لا تشيرني إلي وجه أحد بالشوكة يا تيرزا.. لا تفعلي ذلك.. ربما تحدث من جراء ذلك حوادث.

جعل يتحسس شعره برفق وكأن هذا سيساعد في أن يأخذ الحديث مجرى آخر أقل ضررا.. أو سيجعل الصيف الماضي أفضل أو المدرسة، وإذا لزم الأمر إفريقيا أيضا.. أو أي وسائل مواصلات عامة في العالم.

أخذ صوت تيرزا يرتفع أكثر.. كان هوفمستر يعرف ماذا يعني ذلك.. سيكون هناك دموع وهو لا يتحمل الدموع.. نقطة الضعف التي تمرضه.. دموع أولاده التي تغضبه.

ألقي بنظرة خاطفة على زوجته.. كانت تشرب من كأسها بهدوء ولا تزال تجلس معهم وكأن الأمر لم يكن يعينها في شيء اطلاقا.. لذلك كان عليه أنقاذ الموقف، وعلى الفور.. فلا أحد غيره سيفعل ذلك.. بل لن يفعل أحد غيره ذلك.. فقال لها مهدئا:

- لا يمكنك قول ذلك.. هي لم تتخل عنا.. ولكنها كانت تبحث عن تحقيق ذاتها.

تهتدت الزوجة.. وضعت الشوكة والسكين وقالت:

- بل قل أني لم أكن أطيقك يا يورجن.. تيرزا تعرف ذلك
تماما كما أعرف أنا.. بل يعرف الحي كله ذلك.. فلست
مضطرا لأن تبدأ الحديث عن تحقيق الذات.. لست مضطرا
أن تبدأ تبريراتك الحمقاء هذه كما تفعل دائما.. لم يكن
لرحيلي أي علاقة بتحقيق الذات.. ولكنني رحلت لأنني لم أعد
أحتمل العيش هنا.. لم يكن أحد ليحتمل العيش هنا.. أي
إنسان طبيعي لم يكن ليحتمل العيش هنا.

- أنا أتفق معك.. ودعونا مؤقتا نترك موضوع تحقيق
الذات.. ألا يعتبر هذا حل وسط يمكننا القيام به؟ .. فأحيانا
يكون تحقيق الذات مشابها لعدم احتمال إنسان لمكان ما..
لذلك لا أستطيع أن أفرق بدقة بين الإثنين.
صاحت تيرزا:

- بابا.. دعك من هذه المهزلة.. لا تسمح لأحد أن يعاملك
هكذا.
صاح هو بدوره:

- أريد أن أكل في هدوء يا تيرزا.. هذا هو الشيء الوحيد
الذي أريده: الأكل في هدوء.. أعددت هذا الطاجن في هدوء
وأريد أن أستمع بأكله في هدوء.. وسيتم ذلك لي كما يحدث
كل مساء منذ ثلاث سنوات.
صاحت الابنة وهي تضرب بيدها اليسرى على الطاولة
فسقطت شوكة على الأرض:

- لا أريد الجلوس مع غريبة الأطوار على الطاولة.. لا
أريد أن أراها بعد الآن.. لا أريد أن أراها مطلقا بعد الآن.
ثم انتفضت واقفة وصاحت في وجه أمها:
- إني أكرهك.. ليتك لم تأت.. ليتك لم تأت أبدا.. كنت
أتمنى لو أنك ميتة.

انصرفت مسرعة إلى الطابق العلوي.
مسح هوفمستر فمه بعناية.. زحزح زجاجة النبيذ عدة
سنتيمترات وسأل:

- هل ترغبين في الحلوى؟
حدقت الزوجة في كأسها.. أخرجت قطعة فلين كانت قد
انزلقت عند صب النبيذ فيه.. وقالت في هدوء:
- كانت هكذا دائما.

- توجد بعض الحلوى متبقية من الأمس.. يوجد كيك تيراميسو من التي أعدها دائما كل أربعة.. أستطيع أن أقدم هذا لك.. أم تفضلين تناول الفاكهة؟

- هي لا تسامح أبدا.

- أستطيع أيضا أن أحضر سلطة فواكه.

- هي حتى لا تستطيع أن تسامح نفسها.. هل تستطيع أن تسامح، يورجن، هل تستطيع أن تسامح نفسك حتى؟
.. ثم وضعت النظارة مرة أخرى على رأسها كأنها شريط للشعر.

- سلطة فواكه؟ هل أعدها لك؟ هي جاهزة في أي وقت من الأوقات.

زفرت الزوجة وقالت:

- حسنا إذن.. إن كنت تصر.. لنتحدث عن شيء آخر.. كيف حال منظم النوافذ؟

- من منظم النوافذ؟

- منظم النوافذ.. الرجل الذي كان ينظم النوافذ هنا مرة كل شهر.. الرجل العجوز.. كيف حاله؟

- آه.. نعم نعم.. لقد مات.

لم يتزحزح من مقعده وجعل يعبث في شفته السفلى.

- لقد تعلمت أن تطبخ جيدا.. يجب أن أشهد لك بذلك.

- شكرا

ثم نهض وذهب يصعد الدرج إلى الطابق العلوي لغرفة صغيرته.. ولكنه غير رأيه فجأة في منتصف الطريق وعاد إلى حجرة الجلوس فجلس على الطاولة.

مازالت الزوجة تجلس هنا.. تجلس كما لو أنها ليست ضيفا.. بل شخصا كان يعيش هنا في المنزل.. وهي تعتبر كذلك أيضا بالمعنى الحرفي للكلمة.. فهي لم تتسجل رسميا أبدا في مكتب التسجيل.. كانت تأتي إليها إشعارات حق التصويت إلى هنا.. مثلما كان يحدث دائما.. فكان هوفمستر يضعهم دائما على الكومودينو الصغير في الطريقة.. حتى انتهت الانتخابات.. واضطر مستسلما أن يعترف أن زوجته لم تعد تستخدم حقها في التصويت مرة أخرى.

- هل ترافق صديقا؟

- تيرزا؟
- نعم.. بالطبع تيرزا.. من غيرها؟
- أحيانا أصادف شبابا في الحمام.
- في الحمام؟
- نعم في الحمام.. هم يمكثون فيه معظم الوقت.
- وماذا يفعلون هناك؟
- ما يفعله الناس في الحمام.. يأخذون حماما.. تعودت على الذهاب إلى التواليت من غير أن أسأل: "ماذا تفعلون هنا؟.. وإلا سأعتبر غير مضياف.. فهذا منزلها أيضا.. أعني تيرزا.
- تنهدت الزوجة بعمق ثم أفرغت كأسها وقالت:
- وماذا تقول لهم إذن؟
- حتى لو ستجدين ذلك مضحكا ولكني حينئذ أسأل الواحد منهم: هل تريد منشفة نظيفة؟.. هذا هو ما أسأله لهم.. ربما لديك اقتراحات أخرى.. أو ربما أفكار أفضل.. ربما ينبغي علي أن أسألهم: أليديك رغبة في كأس شيمانيا أنها الشاب؟ هل مارست أوضاعا ممتعة؟ أتمنى فقط أنك كنت ترتدي الواقي الذكري.. فقط إن لم يكن ذلك يسبب مشكلة؟.. كنت ستصرفين بطريقة مختلفة.. أعرف ذلك.. فقد كنت دائما غيورة من أصدقاء بناتك.. لكني لا أسأل إلا هذا السؤال فقط: هل تريد منشفة نظيفة؟.. ولا أزيد على ذلك.
- صرخت:
- توقف!
- بقيا لحظة في صمت ثم قال هوفمستر:
- نحن نصرخ في وجه بعضنا.
- نعم.. وهذا غباء.. نحن نعاود ذلك ثانية دون أن يكون هناك سبب لذلك.. ولا حتى أدنى سبب.
- اتجهت نحو الكنبه فأخذت علبة السجائر من حقيبتها.. أشعلت سيجارة ثم عادت وجلست على الطاولة.. سألها هوفمستر:
- هل النظارة أيضا من فرنسا؟

وأشار إلى النظارة الشمسية ذات العدسات الكبيرة التي تدعو للسخرية.. والتي ترتديها على رأسها دائما كأنها شريط للشعر.

- من إيطاليا.. الحذاء من فرنسا والنظارة من إيطاليا.
أزعجه تدخينها هو الآخر، لكنه كتم ذلك في نفسه..
سألته:

- هل حرستها علي.. أم هي تفعل ذلك من تلقاء نفسها؟
- هي تفعل ذلك من تلقاء نفسها.. لست مضطرا أبدا
لفعل شيء مثل ذلك.

٢

- يورجن.. لقد سألتك سؤالا.. هل اتصلت ابيي؟..
مسح هوفمستر يده في المريلة فبقيت بعض حبات من
الأرز ملتصقة بها.
أجاب وهو يلقي نظرة جامدة على أم أولاده التي ترتدي
الروب:

- ابيي.. نعم ابيي اتصلت، ولكن لست أنا من تحدث
معه.. بل

كان دور تيرزا فقد كانت مارة بالتليفون.
ابتسمت الزوجة.. إن لم تكن بالضرورة سعيدة.. ومسحت
بظهر يدها على خده مبعدة شيئا كان على أنفه.. لم يستطع
أن يعرف ما هذا الشيء بالضبط.. ربما قطعة صغيرة من
الجمبري، أو قطعة جلد، أو بقايا خضار.. قالت:

- تحتاج أن تحلق ذقنك، فأنت تبدو كاللصوص.
- سأفعل ذلك.. لكن علي أولا الإنتهاء من تحضير هذه
الأشياء هنا.



وأشار إلى الأسماك الطازجة.. أرادت أن تذهب، فأمسكها من الروب وقال:

- دعي تيرزا تقيم الحفلة.. فقط ابقِ بعيدا.
مطت وجهها وكأنه ألقى نكتة من نكاته القديمة المشهورة.. ثم ذهبت ببطء من أمامه.. وعاد هو يركز في السوشي بشغف لم يعد يتعجب منه بعد الآن.. فهذه حياته وهذا أرزه.. وهو منذ ثلاث سنوات يستمتع بهذا على الرغم من كل شيء.

لم تغادر تيرزا غرفتها في ذلك المساء.. قبل ستة أيام عندما عادت الزوجة.. وبعد فترة ذهب مرتين إلى أعلى وطرق على باب حجرتها، ولكنها لم تجبه.. لذلك ظل منتظرا أكثر من خمس دقائق أمام الباب متحيرا ماذا يفعل.. مترددا.. يدرس مختلف الإمكانيات.. قلق.. هكذا..

على هذا الحال كان يقف أمام الباب.
ففيما يخص تيرزا فإن القلق يلزمه دائما.. ليس قبل مرضها.. بل منذ ولادتها.. قلق لم يشعر به أبدا على ابنته الكبرى.. ليس لهذا الحد على كل حال.. قلق لم يفارقه منذ هذه اللحظة.. لحظة أن حملها لأول مرة بين ذراعيه: قلق الخوف من خسارتها!.. عندما لم ترد عليه عندما طرق الباب ناداها بهمس "تيرزا"، ولكن لما لم ترد على ذلك أيضا أخذ نفسه ورجع إلى غرفة الجلوس وهناك فتح زجاجة نبيذ ثانية.. نبيذ جنوب أفريقي مرة أخرى.. وفي حوالي الساعة الحادية عشر كانت هي الأخرى فارغة تماما.

كان هو وزوجته يشربان في صمت.. لم يكن يوجد الكثير لقوله.. تمت العودة في هدوء.. مرّ الأمر تقريبا.. ربما لأنها

كانت تغادر يوميا.. من غير مبالغة.. يوميا.. كانت الزوجة غائبة والآن قد عادت.. جعلت تشمشم:

- هل وضعت شيئا آخر فيه؟

- في أي شيء؟

- في الفرن.. أشم رائحة شيئا ما.

قال بحدة:

- لم أقم بوضع أي شيء في الفرن.. لقد عادت إليك هلوسة الشم مرة أخرى.

انتظر هوفمستر بضغ دقائق ثم نظر في يده إلى الساعة وقال:

- الوقت متأخر، ولا أعرف أين تريد أن تنامي.. أو إن كنت رتبت لشيء ما؟ عند الأصدقاء؟

- عند الأصدقاء؟

هزت رأسها مبتسمة مرة أخرى.. كما كانت تفعل في الماضي.. كانت قد تركت شعرها يصبح أطوال.. استطاع هوفمستر أن يلاحظ ذلك الآن.. في البداية لم يلاحظ ذلك ولم يعره إهتماما.. فلديها أشياء كثيرة على المرء أن يلاحظها.. حداثها، وحقيبتها ومعطفها الشتوي وخاتمها والنظارة الشمسية وشفقتها وشعرها الذي كان أطوال عن يوم أن اختفت.. وكل هذه الأشياء كانت تليق عليها.

- أي أصدقاء؟

لم يجر جوابا.. أي أصدقاء لا زال لها علاقة بهم أو من قامت بوداعهم.. لم يكن يعرف.. ولذلك قالت:

- لا لم أرتب لأي شيء.. لم أدبر لشيء مقدما.

بدت فخورة.. وكأنها تطلب من القدر مساعدتها شخصا، فقد كانت تفعل ذلك دائما.. كانت تظن دائما أن على القدر أن يذكرها بوجودها.. وكأن القدر يمكن أن ينساها! ذهب بالأطباق والزجاجات الفارغة إلى المطبخ.. ولما رجع ثانية إلى غرفة الجلوس قال لها:

- لو ترغيبين.. يمكنك أن تقضي الليلة أيضا هنا.

لم يفكر في ذلك طويلا.. إذ لم يكن قرارا.. بل على العكس كان بسبب قلة البدائل.. قالت:

- هذا لطف منك، فأنا حقا متعبة.. لقد كانت رحلة طويلة.

كان كأسه لا يزال ممتلئاً للنصف.. فجلس مرة أخرى.. وهو يقول "حسناً".

جلس هوفمستر يعبث بالسدادتين اللتين كانتا على الطاولة.. كان يدعهما تتدحرجان.. كان منهما في ذلك، وعندما سقطت إحداهما على الأرض قال:

- حسناً.. إذن رتبنا لذلك على كل حال.

كان الوقت متأخراً جداً حتى في البحث عن فندق أو بانسيون لتقيم فيه.. علاوة على ذلك سيكون تصرفاً غير مؤدب - وهذه أيضاً قسوة.. فندق لأم أولاده؟ - هذا يتعارض مع كل ما يعتنقه هوفمستر من مبادئ.. لم يرد أن يكون قاسياً.. بل أراد أن يشع دفئاً.. دفء متوهج.

صحيح أن كلمة "حب" قد أصبحت أقل أهمية عما كانت عليه في الماضي - بل تقريباً كل الكلمات أصبحت أقل أهميته من ذي قبل - ولكن الحياة لنصف قرن كان لها توابعها.. وقد عاش هوفمستر إلى الآن حوالي نصف قرن.. كان يسمح لبعض الناس بالدخول إلى المنزل ويعطهم شيئاً ليأكلوه وسريراً ليناموا عليه.. فقد طبعته الحياة على الشعور بالآخرين وإظهار العاطفة العميقة تجاه كل البشر.

كان قد تعود على العيش مع تيرزا في بيت واحد.. تعود على هذا البيت الكبير الخالي.. الذي يستطيع العمل فيه بدون إزعاج.. دون أن يضطر بأن يقابل بشراً كثيرين، وظهر له أن عدم وجود شريك ليس لعنة.. بل هو حرية.. صحيح أنها حرية مؤلمة ومميتة، ولكنها حرية على كل حال.. كان هو وطفلته معا.. لأنه يجب أن يكونا كذلك.. لأن هذا كان هو التصرف السليم.. كانا لا ينفصلان هو والطفلة.. لدرجة أنها كانت تعرف أحياناً ماذا يريد أن يقول حتى قبل أن يفتح فمه.. والشباب الذين كان يلقاها من حين لآخر في الحمام لم يكونوا سوى بعض المارة العابرين.

لن يملك إلا أن يعتاد على ذلك مرة أخرى.. على أن يكون في البيت ضيف.. حتى لو كان هذا الضيف هو زوجته.

أفرغ كأسه، والتقط السدادات من الأرض ثم ذهب إلى الأعلى قاصداً غرفة النوم.. مار بحقيبة السفر الحمراء التي تقف في وسط الطريقة دائماً مبتهجة كالنطاط، فتساءل: ترى ما الذي فيها؟.. ثم مر أيضاً على المعطف الشتوي الأزرق، ثم على حجرة تيرزا: فرأى أنها قد أطفأت نوراً الغرفة.. وعند دخوله غرفة النوم لاحظ أن زوجته تتبعه بخطوات وئيدة.

جلست على السرير.. على الجانب الذي كانت في الماضي تستلقي فيه دائماً.. والذي تستلقي فيه الآن الكتب والمجلات، فأخذت هذه الأشياء ووضعتها على الأرضية، ونفضت أيضاً الغبار الذي كان تحت كراكيب الورق التي على السرير.. وبذلك رجع السرير المهجور مرة أخرى إلى سابق عهده..

سرير حقيقي.. وضعت رأسها للحظة بين يديها.. ثم رفعته مرة أخرى، لم يكن شعرها فقط أطوال مما كان عليه في الماضي.. بل كان أيضاً لونه مختلف.. كان اللون الأصلي الذي لم يره منذ فترة طويلة جداً.. ثم وضعت نظارتها الشمسية على الكوميدينو بجانب السرير.

فك هو فمستر ربطة العنق وعلقها حول أحد الكراسي.. قالت:

- المرتبة.. هل مازالت هي نفس المرتبة؟.. ثم ضغطت بيديها عليها تختبرها بينما يتطلع هو في الكارافات.. واحدة من الهدايا التي أهداها له رب عمله بعد خدمة عشرين سنة بإخلاص.. كانت جميلة حقاً وأنيقة.. اختارتها السكرتيرة بنفسها شخصياً من البيانكورف.. أرقى مول في المدينة.. فقد كان أسهل له بكثير أن يظل مخلصاً لرب عمله على أن يتولى هو عمله الخاص.

أجابها قائلاً:

- على حد علمي.. لا تزال هي نفس المرتبة.

- لم تعد تصلح بعد الآن.. بل كانت لا تصلح أصلاً من الأصل.. ليس بإمكان أحد النوم على نفس المرتبة لسنوات. جعل يستوعب الصورة في صمت: هي.. جالسة على السرير.. تنتقد المرتبة.. وكأنها تعيش هنا.. وكأنها لم تتعد أبداً.. كانت الصورة إلى حد ما مثيرة للضحك.

سألها:

- هل تريد أن تنامي هنا؟؟

كان ينظر إلى الكتب والمجلات التي كانت مستلقية بجانبه على السرير لشهور بدلاً من امرأة - لا - بل لسنوات.. حتى أصبح الجسد في حياته هو مجرد الكلمة.

- ولكنك أنت من دعوتني.

- لكن هنا؟

وأشار إلى السرير وإلى المرأة والكوميدينو بجانب السرير.
- نعم.. هل كنت تقصد في مكان غير هذا؟ ربما حجرة
أبيي القديمة؟

- أليس ذلك مضحكا بعض الشيء؟
- مضحك؟ ما المضحك في ذلك؟ أو هل ينام هنا أحد؟..
هل أستلقي في مكان يخص أحدا آخر؟ هل أخذت مكانا
ليس من حقى؟
أجابها بعد تردد:

- بالتأكيد لا.. لا ينام هنا أحد.. ولكني أقصد أنى أنام هنا
أنا ومجلاقي.

- أوه، في هذه الحالة نعم.
خلع قميصه وجلست هي بقدميها الحافيتين على السرير
تتطلع إليه.

قال موجها الكلام إلى نفسه أكثر مما يوجهه إليها: "ولكن
الأمر لا يزال مضحكا.. كل شيء فيك مضحك.
نظرت إليه بينما يقف في النافذة ممسكا قميصه في يديه
وقالت:

- بشرتك شاحبة.. أكثر شحوبا مما مضى... وكأنك كنت
دائما شاحبا.. ألا تخرج أبدا في الشمس؟.. النساء لا يفضلن
البشرة الشاحبة.

علق القميص بعناية على الكرسي ثم جلس.. خلع حذائه
وجوربه.. حشر الجورب في الحذاء.. كان الجورب هو الآخر
هدية من رب عمله.. في دار نشر.. لذكرى عشرين سنة من
الخدمة.. عقدين من الزمان.. الآن مر أكثر من ثلاثة عقود..
كان يسعدهم أن يهدوه شيئا مفيدا.. شيئا يلبسه.. شيئا
يمكنه أن يخلعه كما هو الحال الآن.. قال:

- منذ أن ذهبت لم أسمع أي شكوى.. لا عن بشرتي
الشاحبة ولا عن الخروج قليلا في الشمس.. لم أسمع شكوى
عن أي شيء.. كانت الشكاوي قد اختفت.. فقط المستأجر
كان لا يزال يأتي بين الحين والآخر.

ولما لم يكن ينتظر منها جوابا فقد نسي اللحظة أنها كانت
موجودة معه في الغرفة.. همست:

- صاحب جدا.. لدرجة أن أحدا يكاد أن يرتجف بدنه من
منظر جسمك.

صوتها بالكاد لم يتغير.. فلفترة طويلة كان في هذا الصوت شيء ما يثير اشمئزازه.... كان فستانها زاهي الألوان.. كان فستان صيفي.. ولكنها في الماضي كانت ترتدي اللون الأسود بالتحديد.. كانت ترتدي الجينز.. الجينز غالبا.. حتى أنه ذات مساء قال لها:

- أنت لم تعودتي فتاة في السابعة عشر.. لقد حان الوقت أن تلبسي بطريقة أخرى.
تابعت تقول:

- كما لو أنك مريض، أو أنك ستموت. هل تحتضر؟..
أليس كذلك يا يورجن؟.. هل أنت على مشارف الموت؟
ذهب إلى الحمام.. أضاء النور، وهي تتبعه حافية، فحذاثها كان لا يزال في الأسفل بجانب الكنية.. تتطلعت إليه في المرأة فوق حوض الغسيل.. ولكنها بطريقة ما كان مظهرها مختلفا.. تجاعيد في أماكن لم تكن موجودة فيها من قبل، هل كان وجهها أعرض أم أكثر نحافة؟.. ربما الضوء الساطع كما في الحمام يكون تأثيره هكذا.. حدثت هذه التغيرات القليلة في ثلاث سنوات فقط.. قليلة ومخيفة جدا ولذلك سببت نفورا كثيرا منها كأنها امرأة عجوز.. كما يبدو أن أحوالها قد تدهورت.. وجاءت تملأها الرغبة بالانتقام.

سعل هو فمستر.. أرجع علبة كريم اليد إلى مكانها.. قالت:
- حقيبة الزينة خاصتي في الأسفل في حقيبة السفر.. ليس لدي رغبة في إحضارها، فلم أعد أقوى لأنني متعبة جدا.. هل لديك فرشاة أسنان لي؟
كان على حوض الغسيل فرشتي أسنان.. فنظرت نحوهما.. فقال هو مسرعا:

- الخضراء تخص تيرزا.
أخذت الفرشاة الزرقاء، ووضعت عليها المعجون، ثم بدأت في تنظيف أسنانها بينما تتابع حركتها في المرأة.
نظر هو فمستر بفزع إلى فرشاة أسنانه.. كيف اختفت في فمها.. وكيف تذهب الفرشاة يمينا ويسارا.. فأغضبه شيء في ذلك، وأثار اشمئزازه.. فقد كانت فكرة دخول فرشاة أسنانه في فمها لا تحتمل.. أراد أن يصيح: "توقفي.. أينها القذرة.. توقفي عن ذلك حالا." لكي تخرج فرشاة أسنانه من فمها، ولكنه بدلا من ذلك قال لها:

- يمكنني أن أحضر لك من الأسفل واحدة لم تستعمل..
رہا كان ذلك صحيا أكثر.

أجابته وفيها ممتلئ بالرغبة:

- لا تكلف نفسك.. فهذه تعمل بشكل جيد.

- ماذا تقولين؟

كررت: فقط لا تكلف نفسك.. هذا ما قلته.. فهكذا صحي

كفاية.

انتظر حتى انتهت من تنظيف أسنانها.. احتاجت وقتا طويلا لذلك.. ثم شطف الفرشاة بعناية، وظلت هي واقفة بجانب حوض الغسيل.. مستغرقة في التفكير، ولكن مسترخية كما لو أنها كانت بالأمس واقفة هنا، وقبل أسبوع وقبل شهر.. ولم يتوقف هو عن الشطف.. بل ظل يفرك فيها وكأنها عدوى يمكن أن تصيبه بشيء.. فكرة.. أو عقيدة أو مرض.

أصبحت ساقها أكثر سمنة.. استطاع هو فمستر أن يرى ذلك الآن..

منتفخة قليلا، ولم يعد فيها شيء من الجمال، الذي يقل كلما اقترب منها.. ولكنه أيضا كان قد تغير فيه الكثير، فقد خضع لعمليتين جراحيتين في الفم، وهذا يظهر عليه بوضوح.. فهو يرى ذلك.. إذن من المؤكد أنها أيضا لاحظت ذلك، ولكنها أثرت الصمت حول ذلك.. كما حول كل شيء تقريبا، وكما لم يطرح عليها أسئلة.. لماذا إذن ستفعل هي ذلك؟

كان يفكر في تيرزا، إذ لم يبق لها هنا إلا بضعة أسابيع.. فقط بضعة أسابيع وبعد ذلك لن تكن موجودة.. ستسافر بعد ذلك بعيدا.. في جولة حول العالم مع صديقها، الذي لم يعرفه حتى الآن، ولكنه سيتعرف عليه في حفلتها الكبيرة.. ولكنه جس نبضا ذات مرة:

- رہا هو أحد الشباب الذين أقابلهم في الحمام في الصباح من حين لآخر؟.. نظرت إليه واجابت بابتسامة عريضة:

- أوه.. بابا - لا.. هؤلاء كانوا لمتعة اللحظة فقط. وان نايت ستاندرس.

ابتسم وغمغم قائلا: "آه..". لم يكن يربط بين عالم الوان نايت ستاندرس أو العلاقة لليلة واحدة وبين عالم ابنته ولكنه الآن.. لأنها تفعل ذلك بشكل عابر قد أصبح يخلط بينهما.. لم يصدم ولكنه كان قلقا أكثر بعض الشيء، فارتباط الكلمات قد

أزعجته بعض الشيء: "الإبنة" و"وان نایت ستاند" - كان ذلك مزعجا بعض الشيء.. ليس أكثر.

- لقد أعطيت الشاب منشفة نظيفة.
لكنه لم يستطع أن يخفى بذلك ألقلق الذي كان يبدو عليه، ولكن تيرزا لاحظت ذلك بوضوح.. ولذلك قالت:
- لا داعي للقلق - بابا - أنا أعرف ما أفعله.. ولست ساذجة.

- لا، لا.. أنت لست كذلك بالطبع.
واستدار مواصلا قلقله على الرغم من أنه لم يعد يعرف ماذا يريد بالضبط.. لم يستطع إلا أن يفكر - بينما يقوم بتنظيف أسنانه على حوض الغسيل بجانب زوجته - في الحديث الذي دار بينه وبين تيرزا.. وفي الشباب الذين كان يقابلهم هنا دائما وقت الفجر دون أن يجرؤ على إضاءة النور.. كأنهم يعرفون أنهم هنا بصورة غير مشروعة يستخدمون حمامه.. حمام يورجن هوفمستر.. قالت زوجته:
- لا داعي للقلق.

.. استدار قليلا لكي يراها بصورة أفضل، وأخرج فرشاة الأسنان من فمه.. عن ماذا تتحدث هذه؟.. ثم توجه مرة أخرى إلى حوض الغسيل.. أمال جسده إلى الأمام وبصق الرغوة ثم غسل فمه.. وتابع يفكر.. اقترب شهر أغسطس، وعندئذ تذهب تيرزا بعيدا.. سيكون وحيدا، وسيتم إزعاجه لأقصى حد بين حين وآخر من قبل المستأجر، الذي يريد أن يتصيد أخطاء أخرى.. مرحلة جديدة من حياته على وشك البدء.. مرحلة ألا تيرزا.

قالت مرة أخرى: "لا تقلق"
أخذ منشفة ومسح فمه.. كان على شفته جرح صغير ربما قد عض عليها وهو يغسل فمه.

- من أي شيء؟
- إذا نمت بجانبك.
طوى المنشفة ثم علقها.. كانت منشفة بيضاء.. قد أصبحت متسخة قليلا من بعض بقع الدم التي كانت على شفته.

- لماذا ينبغي علي أن أقلق؟ مم سأقلق؟
- مني!

لم يملك نفسه من الضحك وقال:

- منك أنت؟

- أين الصابون فأنا أريد أن أغسل يدي.

- لدينا صابون سائل فقط، فلا تستعمل تيرزا غيره.. إن لم تكن تستعمل شيئاً على الإطلاق.. فهي تقول أن الصابون ليس جيداً للبشرة، ومن الأفضل الإغتسال بالماء فقط.. بالماء الفاتر.

وفتح الخزانة وأعطاهما الزجاجة.. خلعت خاتمها.. فألقى نظرة خاطفة عليه وتساءل أين تركت دبلتها.. ثم جعلت تغسل يديها بالصابون. وقالت بينما تبقي يديها تحت الماء المتدفق:

- إذا نمت بجانبك فيما بعد فلا تشعر بإحراج. نظر لنفسه في المرأة: صدره وأكتافه وذراعيه.. في الحقيقة: بشرة صفراء وخشنة لم تعد كما كانت في الماضي.. جافة قليلاً أيضاً. كان الطبيب قد وصف له كريماً ضد تقشر الجلد.. لعلاج البشرة المسنة.. فقد كان يلاحظ في العمل أن الرجال المسنين كانوا يعتقدون غالباً أنه مازالت فيهم الجاذبية للنساء الشابات، ولكن الشيء الوحيد الذي كان يجذب هؤلاء الشابات كان: المركز والسيطرة والمال.. كان هناك سوء تفاهم مأساوي يحدث بينهما.. سوء تفاهم مشترك.. كان هناك عدم اتفاق الهرمونات.. قالت:

- أعني لا ينبغي أن تتصور أي شيء من هذا.. أو - أعذر إذا خرجت ذلك في غير محلها، ولكن - لا عليك، ليس بالشيء المهم.

أخذ هوفمستر يغسل هو الآخر يديه.

- ما هو الذي ليس بالشيء المهم؟

- أنا - هنا.. وجودي.

- لم أفكر للحظة إن كان هذا بالشيء المهم أم لا.. فأنت هنا.. إذن تحتاجين لسرير، فكل إنسان يحتاج للنوم.. يعرف هذا كل طفل.. ولكنني لم أفكر في شيء من ذلك مطلقاً، فقد تقبلت الأمور كما هي عليه.. أنا أتقبل كل شيء كما هو عليه"

- نعم، أعرف.. على الإنسان أن ينام، ولكنني كنت أعني أن لا تنجذب إلي جنسياً.. أنه ليس عليك القلق حيال شيء

من هذا، وأنه لا ينبغي عليك فعل شيء ليس لك رغبة فيه..
يا إلهي، لماذا اضطررتني أن أوضح هذا بطريقة غير ملائمة؟
لماذا لم تساعدني قليلاً؟

أمعن هوفمستر في غسل يديه.. كأنه كان يحرق الحديقة
طوال اليوم.. لا بد عليه غدا ومبكراً أن يحضر - فرشاة أسنان
من الخزانة في المطبخ، التي يوضع فيها قرش الأسنان، ويضعها
في الحمام.. حتى يكون لكل واحد فرشاته الخاصة..
فالسعادة كلها تكمن في التوزيع العادل للممتلكات.

- عامة أفعل بعض الأشياء وليس لدي رغبة في فعلها..
ولكن الأمر لا يتعلق بالرغبة دائماً.. أو بطريقة أخرى: لا
يفعل المرء الأشياء لأنه يشعر بالرغبة في فعلها، ولكنها يفعلها
لأنه يجب عليه أن يفعلها."

وجعل يحك ذراعاه، فقد لدغته حشرة ما في يمينه.. ربما
مساء أمس عندما كان يقف لبرهة في الحديقة وتصفه الأعلى
من جسده عارياً.. يعتني بالطماطم والقرع حول شجرة
التفاح، فالقرع مثل الأعشاب.. كلما خصبها المرء بطريقة
صحيحة كلما توغلت في الانتشار.. كانت ليلة جميلة.. كانت
الأولى من نوعها في هذا العام.. ليست دافئة ولكن منعشة
تنبيء عن دفء قادم.

قالت:

- أنا لا أتحدث عن العمل، ولا أتحدث أيضاً عن الأعمال
المنزلية ولا عن الأبوين الخرفين الذي يجب على المرء أن
يعتني بهما.. بل أتحدث عن الجنس، وهنا لا يتعلق الأمر
بـ(يجب) بل يتعلق بالرغبة.. وأنا أقول: لا تفعل أي شيء ليس
لك رغبة فيه، حتى لا تفكر أنني هنا على أمل أن يكون بيننا
شيء مرة أخرى، لأنني لا أتمنى ذلك، ولا أريده أيضاً.. ليس
لدي رغبة في هذا ولم أعد أريده.. لقد جئت هنا فقط لأنني
أردت أن أرى كيف حالك وحال تيرزا.

- لم أفهم أي كلمة.. ولا أي كلمة مما تقولين.. أنت
تهذين والوقت متأخر.. هيا، هيا بنا نذهب فننام.

- قصدت أن أقول أنه ينبغي علينا ألا نمارس الجنس،
حتى لا نحاول مطلقاً فعل ذلك من البداية.
كانت تتحدث مثل طفل بليد الفهم يعاني من صعوبة في
التعلم.

- جميل.

ومسح يديه. ثم قال:
- وهذا من شأنه أيضا ألا يعقد الأمور بغير ضرورة.
- الأمور؟

- نظام البيت هذا.. كل شيء على أحسن ما يرام.. كل شيء منتظم.. فنحن لدينا شغالة.. شغالة جديدة من غانا، ولدينا بابا.. ليس من غانا، ولدينا طفل ومال وطعام - وحب.. ربما تستغربين هذا، ولكن لدينا الحب، وفي الأسابيع الأخيرة المتبقية لتيرزا لا أريد هنا ضجيجا، ولا تعقيدات، ولا توتر يتضاعف حتى لا يطاق.. فمئذ أن ابتعدت وتيرزا تحصل على أعلى الدرجات.. لا أقول أن بين ذلك وبين غيابك علاقة، ولكنه شيء ملفت للنظر حقا.. ألا تجدان أنت أيضا ذلك؟ ملفت بشكل غريب؟

وضع بعناية فرشاة الأسنان الزرقاء بجانب الخضراء.. كما يفعل كل مساء.

قالت:

- لن أقف في طريقكم.. من المفترض ألا أفعل ذلك.
استند بكتفها يديه على حوض الغسيل، وعلى الرغم من ان الحمام لم يعد حارا جدا، إلا أنه كان يتصبب عرقا تحت إبطيه.. سألتها محققا بنظره إلى حوض الغسيل:

- لماذا أتيت؟ ماذا تريدين؟ ما الذي بقي لتتم مناقشته؟
- ألم أقل لك للتو أنني لا أريد شيئا مطلقا.. فقط لأرى كيف حالكم وليس لمناقشة أي شيء.

أمسكته من شحمة أذنه اليسرى وضغطت عليها.. حدّق في ماكينة الغسيل، التي كانت في البداية مركبة في المطبخ، ولكن الطريق كان ضيقا بسببها، فنقلوها إلى الحمام.. وهذه واحدة من آخر الأشياء التي فعلها بسبب إلحاحها قبل أن تغادر بقليل.

- هل يزعجك وجودي هنا؟ هل أزعجك؟ من آلافضل أن أذهب؟

تحسس يديه ليرى إن كان بشرته قد أصبحت خشنة وجافة، وتساءل إن كانت يديه تكشف عن عمره أم لا، فقد قرأ أن: معركة التقدم في العمر تبدأ في الوجه ثم في اليدين.

- لا أعرف إن كنت تزعجيني أم لا.. لو تريدني بصدق أن تعرفني: فأنا لا أعرف حقاً.. ربما كان من الأفضل ألا تأتين، ولكنك هنا الآن، ولا بأس بذلك، وأنت تريدني أن تقضي- الليلة هنا، ولا بأس بذلك أيضاً.
كانت لا تزال تمسك بشحمة أذنه وتقول:

- أوه، يورجن.. عزيزي يورجن.
وتركت شحمة أذنه:

- هل تعرف ماذا؟ أنت لم تنجذب لي جنسياً أبداً.. أبداً، ولم تبدأ ذلك أي مرة.. هل تعرف ماذا تكون الجاذبية؟ أعني، هل تعني لك تلك الكلمة شيئاً؟ غير أنها شيء نظري بحث؟

جعل يتحسس خديه، ويستشعر شعيرات ذقنه، ثم قرب وجهه من المرأة.. ليس كثيراً.. فقط بضعة سنتيمترات.

- الجاذبية.. ما هي الجاذبية؟ عن أي شيء تتحدثين؟

- أتحدث عن الوحش الكاسر.. الوحش الذي لا يحتاج المرء أن يفكر فيه.. لأنه موجود بداخله.. بكل بساطة موجود بداخله، وهو ليس شيء يمكن تفسيره أو نسيانه.. شيء ما أقوى من المرء نفسه.. إنها الجاذبية.. التي تأسر الناس أحياناً عندما يرون الآخرين.. كما يمكن أن تختفي.. وهي غالباً ما تختفي، ويظل المرء ينظر للشخص الآخر ولكنه لا يفكر فيه حقيقة، بل يكون في نظره مجرد كائن بعضو جنسي- يؤدي وظيفته.

تطلع في المرأة ثم نظر إليها هي الأخرى ثم مرة أخرى إلى المرأة.

- أنا أيضاً لا أجداك جذابة.

قال ذلك بصوت منخفض فقد شعر فجأة بالقلق من أن تستيقظ تيرزا ولذلك تابع الهمس بينما يتطلع في المرأة:

- إذا كان هذا ماتريدني معرفته: ولا حتى أجداك مثيرة، بل حتى في الماضي لم أكن أجداك كذلك.. ربما كنت كذلك لرجال آخرين، ولكن ليس لي، فقد كنت أجداك ممتلئة الجسم.. لم يكن يمكنني أن أنظر إليك دون أن أخجل من نفسي.. أمام الناس على الأقل.. لأنني قمت بإختيارك.. لأنني أردت أن تشاركني امرأة مهنتي وبيتي، وكنت أظن أنك هي.. أنك المرأة التي ستكمل مهنتي بها.

قرب وجهه أكثر إلى المرأة.. بالفعل لم تعد بشرته مشدودة كما في الماضي، ولم تعد ناعمة، وأصبحت مترهلة، وظهرت عنده الذقن المزدوجة. كانت حياته كلها تكمن في هذه الكلمة.. البشرة.. فمسيرة حياته يمكن التنبؤ بها من منظر بشرته، وكذلك قصته مع ابيبي وتيرزا التي لا يمكن نسيانها.. قالت:

- لكن يا يورجن.. هل كنت تعتقد أنني لم أكن أعرف ذلك؟ ولم أره؟ ولم أشعر به؟.. هل تعتقد أنني لم ألاحظ أبدا الطريقة التي تنظر بها إلي عندما كنت تفعل ذلك يوما ما؟.. الإشمئزاز الذي يبدو على وجهك، والفرع الذي يملأه.. هل تعتقد أنني لم أكن ألاحظ ذلك؟

لم يجبها وتوقف عن النظر في المرأة.. وجعل بصره يطوف بين الرخام والبانيو وحامل المناشف، الذي كان مدفأة في نفس الوقت حتى يحصل المرء على مناشف دافئة كل صباح في الشتاء.. كل شيء مرتب ونظيف.. كما ينبغي أن يكون. ثم قالت:

- أما أنت.. أنت لم تكن ترى أي شيء.. أي شيء مطلقا طوال هذه السنين.. كنت أعمى.. فقد كنت أنظر إليك كما كنت تنظر إلي، ولكنك لم تلاحظ شيئا مطلقا، فقد كنت أجدك عجوزا، ولكنك لم تشعر بذلك، فقد كنت مشغولا جدا.. لم أكن أعرف فيم كنت مشغولا، ولكنك كنت كذلك.

- عجوز؟

- بل عجوز جدا.

- عجوز جدا؟ ماذا تقصدين بذلك؟ متى يكون أحد عجوزا؟

- عجوز يا يورجن.. بكل بساطة عجوز.. عجوز جدا بالنسبة إلي.. كانت صديقاتي يسألنني باستمرار: "ماذا تريدين من هذا العجوز المريض؟".. كنت أجدك معوقا.. ليس في السرير فقط، بل في غيره أيضا.. بطيء بشكل فظيع لدرجة يريث لها.. كأن بطأك شيء مميز، كنت هكذا دوما. على الرغم من أنك لم تكن بطيئا في بعض الأمور.. نعم أنا أعترف بهذا.. وهل تعرف لماذا بقيت؟ لأن الرجال الذين يشعرونني بالإثارة.. الذين كنت أقع في حبهم - أحيانا لمدة أسابيع وأحيانا لمدة أشهر - كانوا كلهم لديهم شيء مشترك: لن يكونوا

أباء جديدين لأولادي إن لم يكونوا يرغبوا في أطفال بالمرّة، ولكن المشكلة الأساسية لم تكن تكمن في ذلك.. كانت المشكلة أنهم لن يعتنوا بهم، فكرت في ذلك، هم ليسوا مثلك. اتجه نحو التواليت.. انتزع ورقة ك्लينيكس من البكرة.. تمخّط من أنفه ثم رمى المنديل في الكومبينيشن، وجعل يتابعه بينما يغرق في المياه، ثم سحب السيفون.. فهذه صوت خرير المياه، وبدأ التوتر - الذي كان منذ دقيقة لا يحتمل - يأخذ في الزوال.

قال بينما يحدث في الكومبينيشن:

- مضت سنوات كثيرة لم نكن فيها مع بعضنا؟.. عجوز جدا.. ما الذي تحدثين عنه؟ كم سنة بالضبط أصبحت أكبر؟.. هل جئت من أجل ذلك؟.. لأنك قد نسيت أن تخبريني بذلك؟

ثم ضحك.. كانت الفكرة سخيفة.. كانت سخيفة جدا كـ بعض شكاوي المستأجر.. بالضبط سخيفة مثل "عجوز جدا.. حتى تعطي مبررا لهجره"

- سنوات كثيرة.. وستصبح أكثر دائما.. فالفرق بيننا أخذ في الإزدیاد.. ألا تلاحظ ذلك؟، ولا يهم أيضا كم سنة بالضبط.. فهو فرق روحي.. ليس له أي علاقة بالعمر.. أو تاريخ ميلادك في بطاقة إثبات شخصيتك.. أنت عجوز ومنذ مدة طويلة، ولم تعد مثيرا.. بقدر ما كنت في أي وقت مضى.. مثير، هل تعني لك تلك الكلمة شيئا ما؟

انتزع نفسه من صحن المرحاض متوجها إلى زوجته:

- أنت محقة.. لم تربطنا الرغبة أبدا، ولكن الرغبة ليست هي أهم شيء ولا الأكثر جمالا ولا أعظم شيء ولا تقف الدنيا عليها، فأنا على سبيل المثال كنت أجيد رائحتك مثيرة للاشمئزاز.. لكنني لم أخبرك بذلك أبدا.. لأن الأمر لا يتعلق بالرائحة.. وإذا أصبحت مشكلتنا هي الرائحة بعد أن أنجبنا طفلين.. فإن في الأمر إذا شيء ما.. أليس كذلك؟ هل عندئذ سيتوانى المرء في شراء ماركات العطور؟

- أية رائحة؟

ثم اقتربت منه خطوة وقالت: "أي رائحة تقصد؟" بسط سيابته وضغط برقة على عظمة القص في صدرها.. لم تكن حركة ذات مغذى.. كانت حركة عابرة.

- أنت تعرفين ذلك.. أنت على علم تام بذلك.. برائحتك التي تفوح منك دائما، أربع وعشرون ساعة في اليوم." ورجع خطوة إلى الوراء باتجاه ماكينة الغسيل فاستند عليها لكنه ظل واقفا، مرتخيا ومستغرقا في التفكير.. طاويا ذراعيه.. كانت وقفة يبدو منها أنه هادئ جدا، ولكنه لم يكن كذلك، بل كان متوترا.. فقد كان كل رفض، كل ما كان يشعر أنه رفض، يحرجه.. والحياة كانت الرفض الوحيد.. لذلك كان يشعر أن الحياة وضعت في مأزق.

- عن أي شيء تتحدث؟ الرائحة! هل تعتقد أنه يمكنك أن تسمح لنفسك بهذا؟ فقط لمجرد أنك عانيت بدوني يضع سنوات؟ وتظن نفسك في نفس الوقت أفضل مني؟ أو أقوى مني؟

كان حامل المناشف المسخن هدية. وكان قد تمكن من إحضاره في نفس الوقت عندما كانا مشتركين في الكورس "قم بتحضير السوشي والساشيمي بنفسك"، فالفكرة لمعالجة العلاقة بينهما كانت: اشتركا في عمل شيء ما.. أسسا شيئا ما.. قدما لبعضكما البعض هديا بين الحين والآخر، وتبادلا المشاعر بحيث يشعر الطرف الآخر أنها مشاعر خاصة له.. قال لها:

- ربما أنت أكثر شبابا مني، وهذا هو الواقع، وقد تجدينني عجوزا ومعاقا، ودائما حالي يرثي له، وبالمناسبة فإن حق الملاحظة الشخصية هو.... قاطعته قائلة:

- عجوز عديم الفائدة.

- دعيني أتحدث، فأنت تستطيعين أن تجدي كل ذلك في وتبدينه على الرغم من أن رائحتك كانت لا تطاق. أخذ بذلك يده اليمنى كما يفعل غالبا إذا قضى يوما كاملا في كتابة الخطابات وتبادل الرسائل الإلكترونية.

- هل تستطيع أن تصف هذه الرائحة؟ هل يمكنك أن توضح أكثر؟ هل تقصد رائحة نتنة؟ هل تريد أن تقول أن رائحتي نتنة؟ هل تتحدث عن رائحة نتنة؟

كانت تقف أمامه فلم يتمكن من الرجوع إلى الوراء لأن الغسالة كانت وراءه، فاستطاع أن يرى كل مسام وجهها بوضوح، ومادة قلم الكحل السوداء.. ربما كانت على حق في أنه كان يشمئز منها. ولكن الإشمئز لم يصبح سببا للطلاق

بل أصبح قمة العلاقة الحميمة.. فقد كان هدفها أن يؤدي ذلك إلى علاقة حميمة لا مفر منها.. وما جعلها تقدم على ذلك هو تعوده على هذا العيب، وكونه تقليديا.. وكذلك شجاعته.. فقد أرادت أن تكبت جماح رغبته لكي يشمئز من النساء الأخريات.. بل وحتى من نفسه أيضا.

- ليس بالضبط رائحة نتنة.. الرائحة النتنة هي رائحة مواسير المجاري.. هي رائحة المجاري نفسها، والمستأجر يشتكي من الرائحة النتنة.. فليس كل رائحة كريهة إذا تستحق هذا الوصف، فلا تخطي الحابل بالنابل.

- رائحتي نتنة، هل تريد أن تقول هكذا إذن؟ هل تريد أن تلمح بهذا؟

- لا.. أنت لا تستمعي إلي، قماما كما في الماضي..
الرائحة

الكريهة ليست رائحة نتنة.. الرائحة الكريهة هي رائحة كريهة. وأنا بالتأكيد لم أكن أول من لاحظ ذلك - لا تتصرفي بسذاجة هكذا، ولا تحاولي الظهور بمظهر الملاك.

- ومن أين كانت تأتي الرائحة النتنة؟ إن سمحت لي بالسؤال؟

نظر إليها مباشرة في وجهها.. نظرة خاطفة، ولكنها كانت كافية أن يرى أشياء غريبة تدور في رأسها، وأن يرى الشرير يتطاير من عينيها فيقع نظرها من حين لآخر كالصاعقة.. ولكنه كان قد نسي أن يكتف هذا الأمر.

- لماذا تريدون معرفة ذلك؟ ألم أقل لك أنه لا بأس بذلك؟ أنا أريد إنهاء هذا الحديث.

أمسكته من ذراعه التي كان يحكها لأن شيء ما كان قد لدغه. وقالت:

- أريد أن أعرف ذلك فمن حقي أن أعرف... بدت كلمة "حقي" جافة، ومفاجئة كطلقة رصاص.. وكأنها في الحقيقة كان لها حق في شيء ما جاءت الآن تطالب به.. جاءت تطالب بحصتها من الغنيمة.

- من فمك، وخاصة عندما كنت تشرين الخمر، ولكنك كنت تفعلين ذلك كل يوم ولم يكن ذلك جيدا على الإطلاق.. ثم أصبحت الرائحة نفاذة لدرجة أنها كانت تبدو: أنها تفوح من كل مكان.. من بين أصابع قدمك، ومن شعرك، ومن

جميع أجزاء جسديك.. كانت مثيرة للإشمئزاز ولا تطاق..
وعندما كنت أراك غريبة كنت مباشرة أعرف أن السبب
يكمن وراء هذا.

ضغطت على ذراعه بلطف وبشيئ من الرقة وسألته:

- هل يمكنك شمها الآن؟ هذه الرائحة؟ هل تشمها؟ هل
تفوح هنا ثانية؟

هز رأسه بارتباك وغضب.. وشعر بالحرج من وجودها
ومن أسئلتها ومن قربها منه. فقد كان منذ بضع ساعات
يقوم بتحضير الطاجن، وهو في غاية السعادة، دون أن يدري
بما سيحدث. ولا يدرك المرء أبداً أنه سعيد إلا بعد قوات
الأوان.. أوه نعم.. لقد كنت سعيداً حينها.. إنني غبي جداً إذ
لم الأحظ ذلك.. قال لها:

- أنا مصاب بنزلة برد، وقد قمت أنت علاوة على ذلك
بتنظيف

أسنانك للتو، ولذلك أشم رائحة معجون الأسنان الخاص بي،
وهذا أيضاً ليس ممتع.

- هيا إذن شم جيداً.

وقربت فمها من أنفه ونفخت فيه.. شعر بحرارة أنفاسها
على وجهه. ثم نفخت مرة أخرى واقتربت أكثر.. كان
باستطاعته أن يرى كل شيء بوضوح لكنه لم يرد أن ينظر أكثر
من ذلك.. فأمسكها هوفمستر بيده اليسرى من حنجرتها
وجعل يخنقها، فنفخت في وجهه مرة أخرى.. أبعد وجهه
وجعل يضغط بشدة على حنجرتها، فهمست استمر في
خنقي.. هل يجب أن أتصل بالشرطة؟ كما في الماضي يا
يورجن؟ هل يجب أن أتصل بهم ثانية؟

دفعها بعيداً عنه فهوت على الحائط بجانب البانيو،
ولكنها لم تلبث أن قامت متثاقلة ثم سحبت الستار جانباً
وبصقت عدة مرات في البانيو.

- الآن عرفت لماذا" قال ذلك هوفمستر بينما يفتح يده
ويغلقها للإسترخاء.. يده التي كان يخنقها بها.. كأنه في عيادة
أخصائي العلاج الطبيعي ويقوم بعمل التمرينات الموضوعة له
بمهارة.

- مالذي تعرفه الآن؟

- الآن أعرف لماذا آتيت.. لأنك لم تتحملي، لم تستطعي أن تتحملي، أنني أعيش في سعادة.. لم تتحملي أنني قد بنيت لنفسي مع تيرزا حياة.. أنني أواصل بدونك.. كنت تجدين السعادة دائماً شيء لا يطاق، ولم تستطعي أن تجدي للحياة طعاماً دون بكاء أو عويل، وبدون سبب.. وإذا لم تبكي تعتقدين أنك قد فاتك أفضل شيء.. أنت تجعلين الحياة مأساة.. الحياة وكل شيء فيها، و..... قاطعته:

- أتسمي هذه حياة؟
وأشارت إليه وإلى الغسالة وإلى حامل المناشف.. لم يجبها، وفتح صندوق الإسعافات الأولية وجعل يبحث عن محلول مضاد للدغات البعوض.. لا بد وأن يكون هناك بقية منه منذ الصيف الماضي، كان يوجد حشرات كثيرة في هذا الصيف، وقد عانت تيرزا أيضاً من ذلك، فاشتري لها ناموسية ولكن بطريقة غير مفهومة كان البعوض دائماً يدخل من خلالها.

لم يجد أي شيء.. لا يود ولا بلاستر ولا أسبرين.. لا يوجد أي دواء
لعضة البعوض.. لم يدر ماذا يفعل، فضغط بظفره على مكان اللدغة المتورم.

- يورجن

- نعم

ولا يزال ظفره على لدغة البعوض.

- ما لذي تجده مثيراً بالضبط؟.. أنا لست مثيرة.. أعرف ذلك.. بل أعرف ذلك منذ مدة طويلة، ومن الجيد حتى أنك أفصحت عن ذلك بسرعة، فمن الأفضل أن يخرج الإنسان ما في قلبه ويتحدث بصراحة، ولكني الآن لدي فضول بشأن ما يثيرك حقاً.. فلا بد وأن يثيرك شيء ما.. أحياناً كنت أتساءل: ربما يواعد رجالاً في السر؟، ولكني لم أسألك أبداً عن ذلك لأنني كنت أشعر بالخوف من أنك عندئذ سوف تفزع من أنه لن يتبقى منك شيء أقل بكثير من الآن.. كنت أخاف من أن تشعر بأنك مفضوح لا حول لك ولا قوة قد سحقت إلى تراب. ولكن الآن، حيث أننا أصدقاء.. أصدقاء فقط ليس إلّا.. بل ربما أفضل الأصدقاء، فقد فكرت: أنه بالتأكيد يمكنني أن أسأل - هل هم الرجال.. هل هم من تشعر بالرغبة فيهم؟

الشباب؟ الأولاد؟ الأشقر الذي يلبس جينز ضيق؟ أم أنك تفضل أكثر النماذج الإندونيسية؟

اقتربت منه مرة أخرى فلم يتحرك من مكانه، وجعل يتحسس لدغة البعوضة بأظافر يده اليسرى في حركة آلية، فلم يساعده الضغط بظفره على مكان الإنفتاح إذ لم يسكن الحرقان إلا بنسبة قليلة.. ظلت واقفة أمامه على بعد خطوتين منه.. ثم سألته:

- هل أنت سعيد الآن؟ لأنك أخيراً قد استطعت أن تكون ما أنت عليه؟ هادئ البال.. بالطبع يحدث هذا في السر- وإلا فماذا يقول الناس إذن؟ -، ولكن على كل حال هادئ البال. هل تأتي حضرتك متأخراً في المساء عندما تكون تيرزا قد نامت، أم في نهاية الأسبوع بينما هي تبیت عند إحدى صديقاتها؟ هل ترجع إلى البيت بمفردك أم معك دائماً أحد؟ بملابس جلدية؟ وشارب؟ وشعر ناعم منفوش، رطب أو لامع من الجبل الذي يستخدمه؟

وللحظة رأى في وجهها التعبير الذي رآه قبل بضع ساعات عندما كانت تقف بحقيبتها الجرارة في الردهة.. كان انفعالا يبدو عليها لم يكن يعرفه منها قبل ذلك، ومع كل كبرياءها وطوال سخريتها اللاذعة كان يظهر بين حين وآخر على وجهها شيء ما يوحي باليأس.. نظرتها ووجهها الذي يبدو عليه الضيق.. والطريقة التي مرت بها عليه، ونبرة صوتها.. كان هذا اليأس جديداً عليها وقد جعلها سهلة الكسر- على غير المتوقع، وبذلك يكون هو الآخر كذلك.. إذا تحطمت تحطم هو الآخر، فقال لها:

- توقفي! ما الذي تتحدثين عنه هنا؟ أنت تهذين.

- أنا أهذي؟ لقد قلت ذلك لي اليوم. أنا أهذي؟ لأنني أعرف هذا الأمر؟ لأنني لم أعد أتحمّل تصرفاتك الحمقاء؟ لقد عشت في صمت طوال كل هذه السنوات لأنني رأيت من الأفضل أن تشعر أنت بنفسك، ولم أشأ أن أخيب أملك عندما تكذب بل إن كل الآخرين بمن فيهم أنا قد صدقناك أيضاً.. لقد كان من الجنون التساهل معك في خداعك لذاتك وأنا لم أقل لك أبداً: يورجن، إنه من الأفضل للجميع أن تعترف بذلك.. اعترف بكل بساطة، فنحن لم نعد نعيش في القرن التاسع عشر، فهناك أشياء أسوأ من ذلك. ولكن الآن وعندما أسأل بدافع الود، ليس إلا، فكأنني أعلنت الحرب، وأنا أهذي -

لمجرد أني أسأل، محبة ومجاملة، عما يشترك، فأنا بذلك قد فقدت عقلي؟
كرر مرة أخرى:

- أنت تهذين أكثر مما مضي، لماذا يجب الخوض دائماً في كل الأمور، لماذا لا تستطيعين أن تدعي الأشياء تمر بسلام أبداً، لم ليس لديك احترام للصمت؟ لماذا يستفحل الأمر عليك ويصبح غير محتمل إلى هذا الحد؟
خلعت الفستان والفتة بجانبها على الأرضية، وكأنها كانت مستعجلة على خلع ملابسها.. ليس من أجل الرغبة أو بحكم العادة، ولكن مستعجلة على الذهاب إلى السرير. فلنم الآن.. ثم ذهبت مسرعة إلى السرير، كما يفعل المرء بعد ليلة على متن طائرة لم يغمض له جفن فيها وقد تأخرت الطائرة أيضاً عن موعد وصولها.. لم تكن ترتدي حمالة صدر فحول نظره عنها.

قالت له في همس:

- يورجن، أهذا ما تخاف منه؟ أهذا ما تمقته في؟ أنبي امرأة؟ أهذه إذن هي الرائحة التي تقصدها؟ رائحة المرأة؟ التي تشمها على بعد متر، لأنه كلما خاف الإنسان من شيء أكثر كلما شم رائحته أكثر، وهذا من قوانين الطبيعة، اليس كذلك؟ هل تشمئز من ذلك؟ .. يمكنك الآن أن تخبرني قاناً فقط أريد أن أعرف.. لن يؤلمني أن أعرف، فلا يمكن أبداً أن تكون الحقيقة مؤلمة، بل المؤلم هو الصمت وعدم الكلام.. ذلك هو العذاب، وكذلك الكذب والأسرار.
قال لها وهو مطأطي رأسه:

- اذهبي.. اذهبي بعيداً من فضلك.. اذهبي إلى أحد الفنادق.. لا ينتهي اليوم قبل أن تذهبي، وسأعطيك المال.

- من أجل ماذا؟

- من أجل الفندق.

قدمت إليه ثدياها ورفعتهما قليلاً.. كان لون صدرها قد أصبح أيضاً برونزياً، فلم يكن يمكنها أن تترك أبداً (حمام الشمس للصدر العاري).. سألتها:

- هل تنظر إليه.. هل تجرؤ على النظر؟ هذا هو الثدي الذي أَرْضَع أولادك.. هل تراهما؟ لم يتديا بعد ولم يتجعدا أيضاً مثل مثل أثداء النساء الأخريات.. ليس هناك ما يقتل الجلد

مثل التجعد والتغلظ.. التجعد والتغلظ.. لكن ثدياي ليسا متجعدين.. لم يتغيرا.. هل سبق لك النظر إليهما ولو مرة واحدة بإمعان؟ هل افتقدتهما؟ ربما افتقدت الإشمئزاز الذي يثيرانه بداخلك؟ فهو أيضا يمكن أن يفترقه أحد؟ ولكن شكرا للرب أنه مازال لديك شيء أكبر من الإشمئزاز، أليس كذلك؟ طموحك لإبرام الإتفاقيات. تجاهل ثدياها ونظر في عينيها ولما لم يستمر ذلك تخطاها.

- أنا آسف!

قال ذلك أخيرا لأنه لم يعرف ماذا يقول غير ذلك، لأنها كانت تقف أمامه، واقعا وغير حقيقية في نفس الوقت، وهي عارية تماما.. زوجة في سن متقدمة تقف عارية. وضع يده على جبهته ثم أخذ يتحسس شعره ثم جعل يحك أيضا عظم رأسه.

- ما الذي يؤسفك؟

تردد، فلم يكن يعرف بالضبط ماذا كان إلا أنه آسف.. ولكنه قال أخيرا:

- أنني لم أكن كذلك.

- أنك لم تكن ماذا؟

- أنني لم أكن الرجل الذي تشعرين بالإنجذاب له.

- نعم ، لم تكن كذلك.

تركت ثدييها ثم سكنت بضع ثوان وقالت:

- ولكنني لم أكن كذلك أيضا، لم أكن أيضا الشخص الذي كنت تنجذب إليه.

- نعم.. - شعر مرة أخرى بالجرح الذي على شفته - ربما يمكنني قول ذلك لو كان علي قوله. إذا نحن قد انتهينا. شعر أن الجرح ينزف.

- انتهينا، نعم ، أستطيع أن أرى ذلك أيضا. انتهينا ومع ذلك فقد كان في حياتي قطاطقيط - لا تقلق يا يورجن، فقط لا تشعر بالذنب!

قالت ذلك بغموض وواقعية في نفس الوقت.. أفصحت بذلك عن أين كانت بالفعل. تم تقديم المكسب والخسارة إليه.

- قطاقيط؟! -

- نعم قطاقيط.. وأحدهم بقصة الراستا.

- هذا إذن؟ هذا ما كان ينقصك؟

وجد أنها نفس الكلمة التي تستعملها ابنته.. قطقوط.. لو كان يستطيع الضحك لانفجر ضاحكا بصوت عال ومن كل قلبه.. دون توقف، ولضرب يديه على فخذه من كثرة الضحك.. فالأم والابنة كلاهما ينجذبا للقطايط.

- الرجل الذي أنجذب إليه كالقطقوط.. جميل، نعم هو كذلك.. صديقاتي يقلن لي: هو ليس (عسول)، ولكنه سيعتني جيدا بأولادك.. هو معاق بعض الشيء ولكنه سوف يطبخ لك ويقوم بالتسوق.. فكري في الأمر. ويقلن أيضا: هو عجوز ولكنه إذا مات فإن الحياة ما زالت أمامك. "والآن انظر إلي وقل لي: ما الذي أمامي؟.. كنت قبل بضعة أيام عند إحدى قارئات الفنجان وقالت لي "سوف تحدث تغيرات كبيرة هذا العام.. كل شيء سيكون مختلفا.. انتظري وسترين. والآن يا يورجن انظر إلي: ما الذي ينبغي أن يكون مختلفا هنا؟
مرر أصابعه بين شعرة، الذي فقد لونه الأصلي فأصبح لونه أبيض، ولأول مرة يشعر بشيء من الشفقة نحو زوجته، ولأول مرة منذ سنوات لم تعد فقط المرأة التي تخلت عنه وعن أبنائها لتبحث عن سعادة مزيفة على مركب.

- لقد أنجبت طفلين معي.

- وماذا في ذلك؟! هل هذا الآن هو عزائي وخلاصي؟ ماذا تعني المرأة بدون طفل؟.. عاهرة!.. بل أحقر من ذلك، فالعاهرة يمكنها أن تنجب أطفال، وكما قلت من قبل: أني أرى أنك الأفضل لتربية الأطفال.. لم أستطع أن أجد أفضل منك يا يورجن.. لم أستطع على الأقل أن أجد أحدا يريد ذلك. ولكن الأطفال لم ينقذوني.. فالرغبة العاجزة في عين رجل كانت دائما ما تعطيني أكثر مما تعطيني نظرات الإستعطاف في عيون بناتي.



الأمهات الأخريات يعتبرن ذلك هو الحب، ولكنه مجرد الجوع.. يورجن، بكل بساطة-الجوع العادي الممل. وبعد ذلك يكون الصراخ.. في بعض الأحيان صراخ كل ليلة، نعم، فقد كنت تضع سدادات في الأذن خاصة من أجل ذلك، وشيئا فشيئا لم يعد ذلك يشكل لك مشكلة بالمرة.. بل كنت تجده رائعا.. كان لديك شيء لتفعله، أما أنا فقد كان لدي تصورات أخرى عن الحياة عندما كنت أسمع صراخ الأطفال العطشى." حاول أن لا ينظر إليها، وجعل مرة أخرى يمر أصابعه بين شعره.. يمكنه أن يصبغ شعره إذا جعله هذه اللون يبدو عجوزا.. ولكنه كان يجد اللون الأبيض متميزا بعض الشيء وأنه يناسبه أيضا، بل يعطيه مكانة متميزة.. لكنه ربما كان مخطئا في ذلك.

قال لها هامسا:

- لا أعرف ماذا تريد مني، وليس هذا أيضا من شأني.. لكنني لست شادا، ولم أكن كذلك أبدا.

وقفاة خطر له أنه كان يحلم، وأن كل تلك الأشياء كانت في الحلم: كيف أنه كان يقف معها في الحمام بينما هي عارية، فقد كانت دائما عارية.. كانت تنظم في الصيف مهرجانات مع الأطفال تظهر فيها أمامهم شبه عارية وأحيانا عارية تماما، حتى اشتكى من ذلك الآباء الآخرون ولم يسع هوفمستر إلا أن يتعهد لهم بأن يدعو زوجته إلى احترام النظام، وأن يحرص على أن لا تمرح عارية مع الأطفال في الأيام الحارة، عندما يلعبوا لعبة راعي البقر والهنود تحت شجرة التفاح، وأضاف من نفسه: ولا نصف عارية أيضا.. لأنه يعرف زوجته جيدا. ولكن في حلمه كانت هذه المحادثة تجري بطريقة مختلفة.. ولم يكن الأمر يتعلق أيضا بالمثلين.

- ماذا تكون إذا؟

- كيف - ماذا أكون إذا؟

- إن لم تكن مثلياً، فماذا تكون إذن؟ ماذا تكون إذاً عليك اللعنة مرة أخرى؟

- أهذا هو ما تريد من معرفته؟

- نعم، في الواقع، والآن.. إن قلت ذلك أعتقد أنني أستطيع أن أجعل السلام يحل بيننا، فقط لو أعرف ماذا تكون ومن تكون.. من أنت يا يورجن؟

أخذ هوفمستر نفساً عميقاً، رأى بقعة زرقاء على فخذه..

رهما
انخبطت أو ربما قد تلقت ركلة من أحدهم.

- أنا لست أحداً.. كانت الأنا عندي متضخمة ولكنني شطرتها نصفين، فأكملت أنت عليها وطحتيها، وجعلتها مثل اللحم المفروم.. أنا والد تيرزا وإيبي.. نعم.. هكذا أكون، لست أكثر من ذلك ولكن أيضاً لست أقل.. والد إيبي وتيرزا.. أنا أكون والد.

- أتعرف...

قالتها ببطء كأنها تجد صعوبة في إيجاد الكلمة المناسبة.. أو كأنها تتحدث بلغة أجنبية، "... ما أتسأل عنه غالباً؟ هل فكرت أبداً: كم أن الإنسان غريب؟

- ماذا تقصدين؟ بـ "كم أن الإنسان غريب؟" ما الغرابة التي يمكن أن أجدها؟

- ماذا أقصد؟ هيا يورجن، لا تدعي الغباء هكذا.

- لا أعرف، وليس لدي أدنى فكرة عن ما تقصدينه. منذ دقائق وأنا لم أعد أفهم عما تتحدثين.

- ألم تفكر أبداً وتقول لنفسك: كم هذا غريب! إنني لم أجعل زوجتي تشعر بالشبق مرة؟ ما أغرب ذلك!.. ربما ينبغي علي أن أفعل ذلك أو أتعلم كيف يفعل المرء هذا، فهناك كتب كاملة تتناول هذا الموضوع وأيضاً فيديوهات في كل مجالات الأغذية الصحية. ألم تفكر أبداً: يجب أن أضطلع في عمل شيء ما ولو لمرة واحدة. ألم تفكر أبداً: ياللعار.. ما الذي تعتقده في؟ علي أن أكون ذكياً مرة واحدة.. ربما يجب علي أن أتدرب على ذلك إلى أن يمكنني التحكم فيه.

حدق في وجهها كما يحدق المرء بدهشة في مصيدة فئران كانت في المطبخ منذ عشرين عاماً ولم تصطاد أبداً أي فأر..

وذاث صباح والسما صافية تجد فجأة فأرة بداخلها فلا
تمسكها إذ تعتقد أنك ذلك من قبيل الهلوسة أو الخطأ.
لا، كان كل شيء في الحلم مختلفا.. ليس من ناحية أنه
كان لطيفا، بل على العكس لم يكن لطيفا، ولكن الوضع هنا
أسوأ.. سألها:

- ألا يمكننا أن ننهي هذه المحادثة؟ هيا ارتدي ملابسك
ولنذهب فنام.. خذي بيجاما أو تي شيرت ولنذهب للنوم
وكان كل شيء على ما يرام، فلا يزال هنا تي شيرتات كفاية لك،
وكذلك بيجاماتك، مازال كل شيء هنا.. كل شيء كان ينتظرك.
وقع نظره مرة ثانية على البقعة الزرقاء في فخذها.. كانت
طائشة وخرقاء، وتتعثّر غالبا في مشيها. كان لون سروالها
الداخلي وردي.. لون وردي جميل، كلون سمك السالمون
الوردي المثير.. وليس هذا اللون القاسي الفاقع الذي يؤلم
العين عند النظر إليه ولكن كان فيه أيضا شيء ما.. شيء مثير..
لأنه كان يؤذي العين حقا.
قالت:

- سرتاح قلبي لو اتضحت لي بعض الأمور وأنا هنا الآن،
وهذا واحد منهم.
هز رأسه ثم قال:

- تريدين معرفة ذلك.. أنت تريدين معرفة ذلك. حسنا،
ما أذكره هو، وربما تخونني ذاكرتي، وربما أيضا أكون خرفا
بعض الشيء، ولكن ما أذكره هو أنني بلا شك كنت أجعلك
من حين لآخر تشعرين بالشبق.. ليس دائما.. ولكنني كنت
أفعل ذلك.. ليس كل شهر أو حتى كل فصل، ولكن من حين
لآخر كنت أفعل ذلك. وعلى كل حال فانا أجد أنه من
المضحك التحدث حول هذا الموضوع في هذه الساعة.. أجد
هذا مثيرا للسخرية وغير مناسب.

- أبدا يا يورجن.. يوجد آخرين على العكس منك تماما لا
يجدونونه هكذا.. كان الرجل صاحب قصة الراسا يفعل ذلك
تقريبا كل يوم، أما أنت فلم تفعل أبدا.. أبدا، هل تسمعني؟
أبدا.. اتجه نحوها.. أغرته نفسه قليلا أن يضغط مرة أخرى
على حلقتها ورفع ذراعه بالفعل ولكنه عاود السيطرة على
نفسه مرة أخرى.
همس قائلا:

- لقد أنجبت معك طفلين.. أليس هذا أفضل من كل هزة جماع.. أليس هذا أفضل ألف مرة؟ علام تثيرين نفسك؟ فليدك طفلين.. طفلين بصحة جيدة.. ألا يزن هذا أثقل من كل هزات الجماع؟ - ثم رجع خطوة إلى الوراء... أنت إذا تعيش في الوهم.. لقد كنت تعيش في الوهم - هذا أمر يمت من الضحك!.. هل سبق وأن لاحظت مع من كنت تعيش كل هذه السنوات؟ هل نظرت إلي في وقت ما نظرة صحيحة؟ أين كنت طوال الوقت؟ على أي كوكب كنت تعيش؟ جعل يدلك معصمه فمئذ أن أصيب بالتواء وهو يلعب التنس ذات مرة وهو يدللكه غالباً إذا شعر بالملل.. أحياناً يدللكه في منتصف الليل إذا لم يستطع النوم، أو في الحديقة أثناء إزالة الحشائش والتقطيع بالمنشار، فكثيراً ما يوجد في الحديقة حشائش يجب إزالتها وأخشاب يجب تقطيعها، وأيضاً كان عليه تهذيب حديقة منزل والديه في جزيرة بيتوفي وبيالها من حديقة!

- ماذا تريدان؟ لقد أخطأت. أهذا هو ما تريدان سماعه؟ حسناً إذا، سأعترف لك: لقد أخطأت ولم لاحظ خطأي.. كنت أظن أنك كنت تشعرين معي بالنشوة، ولكن على الأرجح أن ذلك كان خطأ، كما اتضح الآن. أوكي.. أهنتك من كل قلبي. والوقت قد فات.. والحمد لله أن الوقت قد فات على أن نظل نتناقش طويلاً بشأن هذا الأمر. هذا الأمر قد انتهى. وعلى العكس لم تعد نشوتك هذه تهمني في شيء. سوف يهتم الآخرون بك مثلما اهتم آخرون. لماذا تنوحين الآن؟ كان لديك كل الوقت في العالم طيلة ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات تعيشها منتقلة من نشوة إلى أخرى، وإن كنت أفهمك جيداً، فلماذا تثيرين الآن فتنة حول البضع سنوات الماضية التي كانت الحياة فيها تدور حول شيء مختلف تماماً عن نشوة قلان أو علان؟

- بضع سنوات؟! تقصد بضع عقود على الأرجح؟
صرخ قائلاً:

- كان بإمكانك أن تفعلي ذلك بنفسك، وإذا كان هذا مهم حقاً بالنسبة إليك، وهي مسألة حياة أو موت، فلماذا لم تفعلي ذلك إذن بنفسك؟
صرخت هي الأخرى:

- لقد فعلت، ولم أنتظر منك أي شيء.

- أنا لا أفهم إذن علام تنفعلين وتعيدين إحياء الأمور المميّنة بالكلام فيها. لقد انتهت، والوقت فات - هيا انسيها! امسحيها من ذاكرتك لتجعلي مكانا للمستقبل.. توقفي عن الضرب على وتر نزعتك الإنتقامية والمرارة التي بداخلك إلى الأبد. فأنت ما زلت شابة وقد قلت أنت ذلك بنفسك.. إبدأي في عمل شيء جديد، وأنت بالفعل قد بدأت في شيء ما، ويؤسفني أنه لم يصبح كما تمنيت.. لكن اتركيني وشأني، وخاصة تيرزا اتركها وشأنها، فقد كان لديها ما يكفيها من المشاكل.

- فات الوقت؟ لا يا يورجن، لا يفوت الوقت أبدا ولا ينتهي شيء أبدا.. لقد سلبت مني حياتي، هكذا يبدو لي. ولا أستطيع أن أجعل مكانا للمستقبل، فليس لدي أصلا مستقبل، وحياتي لا تزال هنا.. في مكان ما هنا.. وقد جئت كي أستردها.

لوحث بذراعها ونظرت حولها مرتبكة وأشارت إلى غرفة النوم.
فكر في حالها.. لقد فقدت صوابها.. إنها مجنونه، وأصبحت سيئة أكثر من الماضي ومجنونة أكثر من أي وقت مضى.

- لقد أعدتها لك قبل ثلاث سنوات عندما استهواك العيش في مركب.. إن كنت قد أخذتها أصلا منك في أي وقت.. وإن كانت تختلف الآراء أيضا حول ذلك. لم أجبرك على شيء أبدا.. لم أجبرك على الإنجاب.. لم أجبرك على الزواج.. لم أجبرك على ممارسة الجنس، بل كلها كانت أفكارك أنت. صاحت:

- بالضبط، كلها كانت أفكارك.. كما تقول.. اضطرت أن اسبب كل هذا.
وفجأة اعتقد الاثنان أنهما قد سمعا شيئا ما فصمتا خوفا من إيقاظ تيرزا.. الطفلة
وعندما أدركت أنها ارتكبت خطأ قالت - ولكن بصوت أهدأ:-

- من أجل هذا جئت يا يورجن، من أجل هذا أنا هنا.. لأنني أردت استردادها.

تلفتت حولها مضطربة بعض الشيء ولكن جنونها قد ذهب.. بطريقة ما قد أصبحت أقل جنونا.. وبدأت أيضا رزينة وحازمة.

كان يتصب عرقا كأنه في منتصف الصيف فجعل يمسحه عن جبهته.

نظرت إليه.. الفستان ملقى بجانبها على الأرض.. بدا وكأنها ألقتة هناك ليدخل في ملابس الغسيل.. ربما يتكرم ويلتقطه ثم يضعه في الغسالة ويكويه أيضا.. إذا اقتضى الإتيكيت ذلك.. سألته:

- ما أكثر جزء في جسم المرأة تجده حقا مثيرا للإشمئزاز يا يورجن؟ - بدت فجأة أنها الذ من الشهد - "هل هما الثديان؟ أم المؤخرة؟ عندما تنظر إلي، ما هو أكثر شيء يثير اشمئزك؟

تحسس فكيه، فقد كانا يتخبطان عندما تتم إثارتة.. يتشنج وأحيانا يعاوده الألم.. أو هو ليس ألما بالضبط ولكنه أقرب إلى الوعي بأن لديك فكا مثل هذا.

- لقد قلت لك.. أنا لست شاذا، وأنا أحب النساء. ضحكت ضحكة ليست لطيفة وعالية.

- نعم، ولكن أي نوع؟ أي نوع من النساء؟ هل يجب أن يكونوا من أورانوس أو من مجموعة شمسية أخرى؟ أو ربما من الأقزام.. من القزمات؟

ابتلع هوفمستر ريقه ثم تأسف لها عن عرضه عليها أن تبحث عن مكان لقضاء الليلة فيه.. ولكن ماذا كان يسعه أن يفعل غير ذلك؟ لقد ظهرت بحقيبتها ثم أكلت وشربت وبعد الأكل والشرب جاء وقت النوم.. لم يكن يتوقع هذا الهجوم المفاجئ، فلم يكن مستعدا له.

- علينا أن نتحدث بصوت منخفض ف تيرزا تنام.

- لقد سألتك سؤالا.. أي نساء تجدهن مثيرات؟ أي نوع؟ تلاصقت يديه مع وجهه، فلا يزال يتحسس فكه الذي كان يسطك مثل آلة لم يتم ضبطها جيدا.

- لم أقسمهن أبدا إلى أنواع، وأنا لست نوعك المفضل وأنت لست نوعي.. ألا يكفي هذا؟ ألا نعرف ما يكفي الآن، إن لم نكن نعرفه بالفعل منذ مدة طويلة؟ ونحن لم يكن أحدنا يثير في الآخر الرغبة الجامحة إلا نادرا، وربما لم نفعل

أبدا - للأسف! ولكننا أنجبنا طفلين، وهذا أهم. فحيوان الشهوة فينا ميت.

اتجه نحو الحوض.. وضع فمه تحت فوهة الصنبور وشرب، ومع أن الماء كان فاترا إلا أنه ظل يشرب بشراهة.

- ليس بداخلي يايورجن.. لم يميت الحيوان بداخلي.. صحيح أنك حاولت كل شيء ولكنه يعيش بداخلي. مازال يعيش.

أغلق الصنبور والتفت إليها وقال:

- جميل.. ولكنه بداخلي ميت.. أصبح كالحجر، فقد تغلبت عليه، فأصبح تحت سيطرتي، وصرت أقوى، وبذلك أصبحت حرا أيضا أما أنت فلا.. ارتدي شيئا على جسدك فسوف تسببن لنفسك نزلة برد.

- الحيوان بداخلك.. لم أره أبدا على قيد الحياة.. لم أره على قيد الحياة كما ينبغي أن يكون الحيوان.. كان حيوان شهوتك مصابا بجرح قاتل منذ البداية، وكنت تتصرف كما لو أنه سليم وعلى قيد الحياة.. فقط لكي تغويني.. لكي تستدرجني إلى جحرك. كنت لا أزال لم أتكيف جيدا هنا، وحينها كان الحيوان ميت بالفعل - مثل نبتة لم ترو أبدا. آه، كانت تدب فيه الحياة من حين لآخر، ولكن ذلك كان مجرد لعبة. ولذلك كان علي أن أجتهد لأخرج حيوانك من بياته الشتوي. إن ذلك من الماضي.. معك حق، وقد مر وانتهى. ولكن الآن حيث أنا هنا، وأنا لا أكون هنا في كثير من الأحيان، عليك أن تقولها يايورجن، وإلا سأذهب بأفكاري بعيدا وأظن أنك كنت تقضي وقتك طوال السنين مع أحد الشواذ، وأن أبنائي لديهم أبا شادا.. ليس لأن ذلك أمر سيئ أو أن لدي شيئا ضد المثليين، ولكن قل لي: أي أنواع النساء تثيرك؟

ضغط بيديه على صدغيه كأنه يعاني من صداع في الرأس، وحاول إبعاد الألم بالتدليك.

رجته بكل ما في صوته من رقة:

- قل لي الآن.. هل هم أنواع من الرجال.. أو نساء لهن شوارب وليس لديهن صدور، ولهن شعر قصير أو ليس لديهن أصلا؟ أو مع أطفال في منتصف العمر؟ أم ربما ذوي الإحتياجات الخاصة؟ أو نساء بأرجل خشبية؟ يفكونها عندما يزحفون إليك في السرير؟

هز رأسه.. وأخذت تسترسل:

أو هم يا ترى رجال في السر؟.. يمكنك قول ذلك الآن، فأنا صديقتك.. صديقتك المفضلة. أنا شخص يعرف عنك كل شيء ورغم ذلك لا يجد فيك شيئاً سيئاً.. لأن كل شيء قد مضى.. الزواج. هذه المعضلة.

- أنا أحب...- يحاول أن يبتلع ريقه مرة تلو الأخرى كلما يحاول أن يتخلص من الشعور غير المريح في فكه -.. أنا أحب النساء المبتذلات.

انعقد لسانها للحظة ثم انفجرت في الضحك.. كانت تضحك ملء شديقتها ورأسها مائلاً إلى الخلف.

- ماذا - المبتذلات -؟

- المبتذلات. أنا لا أعرف كيف تقال.. أعتقد أنها تسمى هكذا.. المبتذله. هل عرفتي الآن ما يكفي؟ هل يمكننا أن ننام إذن؟ أيكفي هذا؟

تابعت ضحكها.. لم تعد تستطيع أن تتوقف.

- ألم أكن إذن المبتذله بالقدر الكافي؟ كيف يكونون المبتذلات إذن؟ لكي يتناسبن مع متطلباتك؟ همس قائلاً:

- لا أعرف. لا أعرف وأنت سكرانة.

- بربك يا يورجن.. قل غير ذلك. سكرانة من مجرد زجاجة نبيذ؟ حسناً هيا! يمكنك أن تقول الآن.. يمكنك أخيراً أن تحكي لي كل شيء. هيا لا تخف أن أصبح غاضبة.. لم أعد أغضب.. فلم يعد ذلك من شأني، وكما تقول أنت: لم يعد يخصني ذلك في شيء على الإطلاق. هل حقاً إذا قابلت امرأة المبتذلة فإن الحيوان الجامح بداخلك يعود حينها إلى الحياة؟ أم هو حقيقة ميت كما تقول - كالحجارة؟ اقتربت منه خطوة.. رأى ثديها.. كانا أملسين ومتماسكين.. في الواقع كانا كما هما تقريباً. نظر جانبه إلى حوض الغسيل حيث توضع فرشاة الأسنان الخضراء بجانب الزرقاء.. مستعدة لحمام الصباح.

- الكاشيرات.. النساء على الطاولة عند الخباز.. وفي المحلات والكافيتيات. ما معنى ذلك؟ يعني كل أنواع البائعات.

أخرجت من فمها همسة مبالغ في مدها وعلو صوتها. وقالت:

- الجنس.. هذا بكل بساطة لا يعني لك إلا صراع الطبقات.

- المملونات منهن.
أمسكته من ذقنه كما تفعل المعلمة مع أحد طلابها الوقحين.. بحزم وسخرية في نفس الوقت. ثم تجعل عقابه اللعب. وقالت:

- عنصري، مملونات!
لم تترك ذقنه، بل اقتربت أكثر.. أرادت أن تقبله، شعر بها.. فقد رأى ذلك واضحا في عينيها.. ألصقت شفثيها بشفتيه، فلم يملك إلا أن يغرمها قبله هو الآخر.. ردا على قبلتها.. لم يكن بيده غير ذلك.. وما كان بإستطاعته غير ذلك ولم يفعل هذا إلا لكي يعفيها من الإحراج.. وهي أم أولاده.. أم تيرزا.
لم يكن يستطيع أن يمنعها من تقبيله حتى لو كان يريد ذلك، وما كان يملك إلا أن يرد عليها بقبله أخرى.
ثم ناولها صفعة على وجهها على الرغم أن ذلك كان صعبا نظرا لطريقة وقفته.

ترنحت.. تراجعت إلى الوراء.. ثم جعلت تتلوى.
بدت للحظة أن عينيها قد احولت. ربما بدت هكذا بسبب انحراف أشعة الضوء أو أن النعاس كان يغلبه.
قالت وهي تتلوى كأنما لكمها في معدتها:

- أرايت.. أريت؟ أنت مخطيء، فالحيوان بداخلك لم يمت.. لقد استيقظ مرة أخرى.. وأنا أيقظته.
شد ورقة من ورق التواليت وجفف الشفاه التي كانت تدمي.. كان قد عض عليها. بسبب التوتر والضغط... وهذا يحدث غالبا. كان يمسح حول فمه بورق التواليت وقال لها:

- أرجوك أعذريني.
كانت تستلقي على ركبتيها بجانب الغسالة فنظرت إليه، فقال لها مرة أخرى:

- أعذريني أرجوك، لقد حاولت أن أجيب على سؤالك لأنك كنت تلحين بشدة.. لأنك أردت أن تعرفي الإجابة بأي شكل. وأنا كنت أريد أن أصارحك من كل قلبي، ولم يكن ينبغي علي أن أفعل ذلك.
نهضت من جلستها.. كانت تستند على الغسالة وهي تنهض.. جعله خدوها المتوهج يشعر بالجنون.. لكنه لم يكن

جنونا ظاهرا، بل كان داخليا، ساكنا وصامتا كالذي يعتريه عند تسريح الشعر أو كوي الملايات أو عند تحضيره للطاجن. قالت مرة أخرى:

- أريت.. مازال الحيوان بداخلك، وسيظل هنا ما دمت حيا يا يورجن، ولا يستطيع أحد أن يوقظه بقبلة إلا أنا وعليك الإعتراف بذلك.

أخذ يدقق النظر في زوجته العارية تماما ذات الخد الأحمر، وشرد

بذهنه للحظة.. في هذه اللحظة التي مرت سريعا بدا له أن الماضي الذي مات قد عاد إلى الحياة، ولكنه سرعان ما غاب مرة ثانية.. كشيء يريد أحدهم قوله، والكلمة على لسانه، شيء مهم - ولكن الكلمة تهرب من ذاكرته فينساها.

- إلى ما يؤدي هذا؟

كان يتحدث بصوت منخفض.. كان يحدث نفسه خاصة. "إلى ما يؤدي ذلك؟" ثم بصوت أعلى:

- لقد قلت لك قبل ذلك أن الشهوة ليست هي الهدف الأسمى.. لقد قلت لك أن نظام البيت هنا نظام قائم على الحب.

- نعم، لقد بذلت مجهودا. كل متجر كان خيالا جديدا فالتسوق لا بد وأن يكون بمثابة الجنة بالنسبة إليك. ولكن هل هذا يأتي أيضا بنتيجة؟ أم يبقى الأمر عند مجرد الخيال؟ فالحياة بأكملها ليست إلا مجرد حلوة وقليل من الخيال الذي لا يمكنه مجاراة الواقع أو لا يسفر عن شيء أبدا لأن الخيالات الصغيرة في الحقيقة تصبح مهددة. يا إلهي: إنني أتعجب حين أفكر أنه كان على أن أضع بنفسى - شينك هذا الذي يكاد لا يصلب نفسه. على كل حال إنها معجزة أننا حصلنا على أطفال. نعم إنها معجزة! أي حيلة لم أجريها كفاية! وأي عبث محزن ومخرج هكذا!.. وأنا كنت أظن طوال الوقت أن ذلك بسبب أنك تمارس الشذوذ في السر.. ولكن الأمر ليس كذلك: أنت لا تجدني المبتذله بما فيه الكفاية.. هذا السبب! لست مبتذله كفاية! والآن؟ هل تجدني المبتذله كفاية؟

رفع المنديل من على شفته ونظر إلى الأرضية ثم أخذ يتفحص المنديل. كانت عليه نقطة صغيرة من الدم الأحمر القاتم.

قال بصوت منخفض:

- أنت مبتذله.

أصبح خد زوجته الأيسر أكثر حمرة.. حمرة قائمة.. كأن جانباً واحداً هو الذي يحمر من شدة الخجل.. وهو يتصبب عرقاً أكثر وأكثر.. عرق تزداد شدته غزارة.. سألها:

- لماذا بقيت إذن إذا كان كل شيء عبث محزن ومحرج هكذا؟

- بسبب الأطفال.

- لماذا أنجبت إذن أطفالاً؟

- لقد قلت لك بالفعل.. ألا تستمع إلي؟ ألا تستمع إلي مطلقاً؟

كانت تقف أمامه قريبة منه تماماً.. وبحركة سريعة أمسكته من عضوه.. ولم تتركه.

إنها مجنونة.. فكرهو فمستر في ذلك.. ولكنه لم يبد أي رد فعل.. ظل واقفاً والمندبل في يده.. سألته:

- هل توجد امرأة لا تستطيع أن تملك نفسها من الضحك عالياً؟ أم أنهن كن غير مباليات لدرجة أنهن لا يضحكن حتى عندما يمارسن معك الجنس؟ هل صبرت عليك أي امرأة مثلاً صبرت أنا؟ كم من الوقت يمر قبل أن ينتصب؟ نصف ليلة وأحياناً أكثر! أو هل تتناول الآن حيوب منع الحمل؟ النساء المبتذلات! شيء يسبب الضحك.. أو بالأحرى مدعاة للبكاء. هل تقابلهن صدفة أو عليك أن تطاردهن؟ أين؟ في وسط البلد؟ أم في الأحياء حيث تسكن الملونات؟

انقض مرة أخرى على حنجرتها.. لم يستطع غير هذا.. لم تتركه منذ أن كانت تمسكه، فلم يتهياً له أن يخنقها من حنجرتها.. قالت:

- هيا افعل ذلك.. أظهر أن الحيوان بداخلك لم يمِت.. اعترف أنني أيقظته كما كنت أفعل دائماً. هيا يا يورجن أعطني صفقة أخرى ولكن ليست هشة - كما في الماضي! فتلك فقط هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك معالجة الأمور بها.. وإلا فلا.. قبل أن تضربني كان فقط يمكنك أن تقول: أنا أحبك.. هيا قلها

تماماً أن تيرزا
كانت تقول له

مثلاً يعرف
هي ابنته وأنها



بشأن العمل أنه قد أصبح مسن جدا وقد يتم تسريحه..
يعرف تماما الآن أنه يكره زوجته.

ضربها بظهر يده على خدها الآخر.. كانت صفة موجهة
بشكل جيد وبقوة.. بلغ من قوتها أن جعلتها تتركه وتسقط
على الأرضية.

ساد الصمت للحظة.. صمت الأموات.. كأنهم كانوا في
الجبال.. في أعلى الجبال حيث لم يعد بشر هناك ولم يبق غير
الثلج والحصى.

عندها فقط رأى أن تيرزا كانت تقف في مدخل الباب
ودميتها بين ذراعيها.. كانت تنام بها دائما.. كانت على شكل
حمار صغير أزرق، وأما كان الوضع لايد وأن يكون أزرق.
حدقت في والديها.. كانت الزوجة تزحف على الأرضية
وهي ترتدي سروالها الداخلي فقط حتى وصلت إلى الحوض
وأخذت تتسند عليه حتى وقفت. كان أحد خديها أحمر
والآخر أحمر قاتم يميل إلى الزرقة.
أخذ هوفمستر خطوة في اتجاهها:

- كل شيء على ما يرام، تيرزا..
نظرت إليه دون أن تصدر أي حركة.. دون أن تتفوه
بكلمة.. كانت تقف موقفا محايدا.. بالحمار بين ذراعيها.

- لا تخافي، تيرزا، لا تخافي. نحن نلعب فقط أنا وأمك.
يخلق ذقنه بسرعة ولكن بدقة.. ومن حين لآخر يتجسس
بيده إن كان قد نسي موضعا ما.. يشعر المرء بشعور أفضل
عندما ينظر إلى ذقنه في هذا الضوء.

السوشي والساشيمي جاهزين الآن.. كان قد اشترى
كميات كثيرة منهما.. أخذ في حسابه الضيوف الجائعين.
وكما جرت العادة في مثل هذه المناسبات فإن قلبه يعتصر-
من القلق أن لا تكون هذه الكميات كافية، وربما عاد الناس

إلى منازلهم وهم لا يزالوا جائعين.. أو ربما يقولون: " لن يصاب أحد بالسمنة هنا.. في بيت هوفمستر".
اشتري أسماك السردين أيضا.. كان قد قرر في وقت لاحق في المساء عندما كان مزاجه في ذروته، أن يقلّي هذه السردين مع إضافة قليلا من الثوم. طريقة بسيطة ولكن الطعم يكون لذيذ. كان يفعل ذلك كثيرا من الأحيان في أمسيات الصيف الحارة وكان ينجح دائما في فعل ذلك.
في المرأة رأى زوجته وهي تجر برجليها على الأرضية ولا تزال مرتدية الروب.

في خلال ساعة سيكون أول الضيوف هنا.. وهم الناس الذين يأتون مبكرا، بحجة أنهم يريدون أن يعودوا إلى البيت مبكرا.. ثم يبقون - برغم كل النوايا الجادة - ولا يعودون إلا بعد الرابعة صباحا والرقع تملأ البلوزة أو القميص.. فقد كانوا يغلقون دراجاتهم. إنه مما يبعث على الإطمئنان مشاهدة الشباب وهم ثمالى ، ومحاولاتهم المستميتة أن يتصرفوا كبالغين، وجهدهم في أن يلعبوا بشيء ليس موجودا حتى الآن.. وهذا الشيء - على حد علمه الآن - لن يكون موجودا أبدا، ولكن في رأي هوفمستر كانت محاولاتهم كافية..

غسل وجهه وهو يحرص بدقة على إزالة رغبة ما بعد الحلاقة عن أنفه وأذنيه.. ثم ذهب إلى حجرة النوم وأخذ يبحث عن قميص برابطة عنق مناسبة.. وقف حائرا أمام الدولاب لبضع ثواني بينما رابطة العنق والقميص في يده، وهو يشاهد زوجته كيف تنقب في الدولاب لكي تبحث عن ملابسها. ثم قرر أن لا يرتدي رابطة عنق، فهذه حفلة تيرزا.. ومثل هذه التجمعات ترفع فيها الكلفة.. وكانت تسمى في زماننا Fete أي حفلة شبابية، ولهذا السبب لا يحضر أحد إلى هذه الحفلات بربطة عنق.. حتى لو كان والد المضيقة، وحتى لو كان معلموها سيأتون أيضا.. ولكن بالطبع لا ينطبق الأمر على كل معلميها.

ترك تيرزا إختيار المدعوين لهذه ليلتها.. حفل وداعها للجيمنازيوم.. لفترة المراهقة، ومن يدري، ربما أيضا لـ أمستردام.. ووداعها له.. ليورجن هوفمستر.. أبوها، الذي أوشك دوره كأب تقريبا على الإنهاء. انتهت مهمة التربية، وسوف يكون لديه الوقت لنفسه مرة أخرى على الرغم من أنه ليست لديه أدنى فكرة كيف سيبدأ، فهو يرى بقية حياته تبدو أمامه كصحراء وهو تائه فيها.

رفع القميص أمام عينيه ليري إن كان يتناسب لونه مع لون البنطلون.. لم يكن تناسب الألوان أبداً مصدر جاذبيته.. أو بطريقة أخرى: لم تكن الملابس بشكل عام هي مصدر جاذبيته.

كان هوفمستر قد قام بدعوة معلمه المفضل، إذ لم تكن تمر جلسة إشراف مسائية دون وجوده.. كان في الغالب يأتي مبكراً جداً، فقد كان يدعو للإلتزام بالواجب، وشيئاً فشيئاً أصبح يقدر هذا الواجب. كان يتمنى لو استطاع أن يقيم صداقات مع معلمي تيرزا ولكن عقد الصداقات لم تكن أعظم مواهبه.. ولكنه عندما كانت تيرزا لا تزال في المدرسة الابتدائية، قام بدعوة معلمتها ذات مرة إلى الطعام.. كان مساء ممتعاً، جلسوا في نهايته يتسلون فيه بلعبة جماعية. كان يوضح ذلك لزوجته قائلاً: "يجب علينا أن نظهر لمعلمة تيرزا كم هي طفلة مميزة، وأفضل شيء لذلك هو أن ندعوها إلى الطعام بين حين وآخر عندنا هنا في المنزل. لكي تشاهد تيرزا في محيطها الطبيعي.

كان إنجاب الأطفال في الأساس فكرة زوجته، فذات صباح على الإفطار - وذلك يبدو له الآن كأنه حدث في حياة أخرى - فأتته الكلمة:

- سنزق بمولود.

سألها:

- كيف حدث هذا؟

- لقد توقفت عن تناول الحبوب.

- طفل.. يا إلهي.. ألا يوجد ما يكفي منهم في العالم؟ هل أنت متأكدة أيضاً أن هذا لن يؤثر على صحتك؟ لكنها لم ترد على أن قالت:

- لو كنت انتظرت مشورتك ما كان هذا سيحدث.

كان مبلبل الخاطر طوال الصباح حتى قرر بعد الغداء أن يقبل المهمة. انتظر حتى انتهاء وقت العمل في الساعة الخامسة ثم ركب الدراجة نحو البنك، حيث قام بالتأمين على حياته دون أن يخبر زوجته عن شيء من ذلك.. كان يجب أن تكون مفاجأة.. أي النقود.. في حالة موته في أي وقت غير متوقع.

وبذلك أصبح يورجن هوفمستر والداً، وهو الرجل الذي لم يكن يعرف بعد شيئاً عن الأبوة ولا حتى كان يريد أن

يعرف.. إلا أنه كان تصرفا حكيما أن يقوم بالتأمين على حياته إذا كان مواطنا جديدا سيدون في سجلات هذا العالم.

ولكن عندما ولدت ابني اكتست المهمة طابعا مختلفا. ففي الشهور الأولى كانت تنام بين أمها وأبيها، على الرغم من أن حجرتها كان فيها كما ينبغي - مهذا لتنام فيه.. لكنها لم تكن تفضل غير السرير

الكبير لتنام فيه مغمورة بين والديها بالغطاء.

وعندما أصبحت في الثانية من عمرها ظلت أيضا تنام هناك.. كأنها طرف ثالث مشترك في السرير.. كان أحيانا يوقظ زوجته حتى تتمكن من الإستمتاع بمنظرها ثم يقول:

- انظري.. انظري كيف تنام في سلام.

ثم أتت تيرزا، فقد كانت زوجته تقول:

- إذا كان لدينا واحدا فلا زال باستطاعتنا أيضا أن ننجب

الثاني.

فلا يفعل شيئا غير أن يؤمي برأسه.. وبعد عدة أشهر قاد الدراجة مرة أخرى إلى البنك وقام برفع قيمة التأمين.

أخذ قميصا آخر من الدولاب ورفعه في الضوء ليرى إن كانت بقع عالقة فيه ولكن اللون لم يعجبه.. كان يريد أن يبدو أنيقا ومميزا، في نظر المعلمين الحاضرين وفي نظر أصدقاء تيرزا بل في نظر تيرزا نفسها.. واللون الأصفر ليس لونا مميزا. اتصل به ثلاثة معلمون بعد فشل العلاقة مع زوجته: معلم الرياضيات ومعلم اللغة الألمانية ومعلمة اللغة الهولندية.. كانوا قد سمعوا عن الأمر، فشيء مثل هذا لا يبقى في السر أبدا، كانوا يشجعونه، فقد كانوا يعرفون هذه الظاهرة.. وبعضهم كان يعرفها من خبرته الخاصة، كانوا يتعجبون: كيف تميزت تيرزا تحت ضغط هذه الظروف الصعبة: نعم.. فلم يكن لديه داع لأن يقلق بشأن تيرزا. وكانت ميفروف ديلفن معلمة اللغة الهولندية وفي نفس الوقت كانت مدرسة تيرزا في الفصل تسأله:

- ربما ترغب أن تمر لتتحدث في هذا الشأن وفيما يخص

تيرزا أيضا؟ هل من الممكن أن يساعدك هذا؟

فيحييها:

- أوه لا.. ليس ضروريا.. وفي الواقع هذا لن يساعد أيضا.

كان يسعده أن تتصل ولكن على المرء أن لا يطيل الكلام أو يوسع نطاقه حول زوجته المختلفة، ولذلك كان يؤكد على

أن زوجته ذهبت بناء على اتفاق بينهما.. بل إنه قد شجعها على ذلك: "لا يمكننا أن نسمي هذا هروب...." كان يوضح هذا لمدرس الرياضيات "... بل دعينا نقول أننا أخذنا عطلة لبعض الوقت من بعضنا البعض.. لقد قلت لها: اهربي بهدوء فأنت ستأتين مرة أخرى.

إذا لم يأتي المعلمون المفضلون لديه مساء اليوم، فسوف يحدثهم مرة أخرى أو يكتب إليهم خطاباً قصيراً يخبرهم فيه أن مشاعره نحوهم لن تتغير، وأنه يفكر فيهم من حين لآخر.. على الأقل مرة في الأسبوع.. أو ربما دائماً.

المشاعر.. توقف عند هذه الكلمة للحظة.. مثلما يتوقف عند الأشياء التي تشد انتباهه في الطريق.. ثم علق القميص وربطة العنق في الدولاب.. قميص كاجوال سيكون أفضل.. قالت له زوجته:

- كان علي أن أشتري شيئاً جديداً لألبسه.. ماذا سأرتدي الآن؟ لقد أخذت أفضل ملابس معي، وضاعت مني أفضل ملابس، وباقي ملابس لم تعد تليق علي أو تناسبني.

أشار هو قممستر إلى الفستان الذي كانت تمسكه بين يديها.. كان واحداً لم يعد يذكره.. كان خفيفاً.. ولكنها كانت تحب أن ترتدي هذا النوع من الملابس، وعلاوة على ذلك فإن الطقس كان يستوجب ارتداء الملابس الخفيفة.

قالت له:

- كل شيء عندك سواء، ألا ترى كم أن هذا بعيد كل البعد عن الموضة الموجودة هنا؟ وكم هي موضة قديمة مربعة؟ علاوة على ذلك هو لا يناسبني. فالسمنة..... ونظرت إليه في حيرة - مذهولة من التغيرات التي طرأت على جسدها.

- السمنة؟ أي سمنة؟

سترجع إليه مثل جرو يعود حزينا إلى سيده.. هذا ما يعتقده. فحتى يكون عند المرء أمل في التحرر يجب عليه أن يبقى في القيد، فبعض الناس يكمن مفتاح تحرره في القيد الذي يتلوى فيه.

أراد أن يذهب إلى حجرة تيرزا ولكنها استوقفته.

- يورجن.. ألن يجدوا ذلك غريباً أنني هنا مرة أخرى؟
- من؟

- الضيوف.
- الضيوف؟ إنهم لا يعرفونك حتى.
- هذا ما أعنيه بالفعل.. ألن يتساءلوا: من تكون؟ من هذه المرأة؟

- لا أظن ذلك، فسيأتي أناس كثيرون، ولن يلفت وجودك انتباه أحد في قليل ولا كثير.. علاوة على ذلك أنت والدة تيرزا أولاً وأخيراً.. يمكنك قول هذا لأي أحد. وعندما يسألك الناس: "ماذا تفعلين هنا؟"، فتجيبين أنت: "أنا والدة تيرزا." وهذا سبب معقول لتفسير وجودك هنا في الحفلة. نظرت إليه في ارتياب.. غير مقتنعة، وفي يديها الفستان الذي عفا عليه الزمن.. هذا سيجعل الأمور تزداد سوءاً:

- ولكنني قد ذهبت.

- لا ينكر ذلك أحد، ولكن الناس لا يعرفون ذلك فقد نسوه.. لديهم ذاكرة ضعيفة. وقد رحل كثير من الناس بعيداً.. أما في ثانوية فوسويس فهم يتفهمون مثل هذه الأمور.. أو على الأقل يتفهمون أمري.

ثم بدت على وجهه ابتسامة عندما عاودته تلك الذكريات، والمدرسون الذي كانوا يتصلون به عندما هربت زوجته مع عشيق أيام الشباب.. لن ينسى أبداً كم كانوا ودودين دون أن يفرضوا أنفسهم عليه. وغير ذلك لم يكن يتصل أحد.. وإن جاء اتصال فهو ليس من أجله على كل حال.

كانوا قد أرسلوا ابني إلى ثانوية بارلايوس ولكن بعد تجربتهم معها تم تسجيل تيرزا في ثانوية فوسويس، وقد كان في الأساس قرار هوفمستر فقد كان يجد أن تيرزا موهوبة، عندما رآها وهي تحاول أول خطواتها وعمرها لا يزال أحد عشر شهراً.. صحيح أنهم كانوا خمس خطوات لا أكثر ولكنه على الرغم من ذلك كان يعتبرهم ركضاً.. كان يحكي عن ذلك لكل من يريد أن يسمع "إنها حقاً تستطيع الركض.. إن بداياتها الأولى في التطور تتجه إلى الهدف الصحيح." كان يحب أن يحكي خاصة للآباء الذين لديهم أطفال من نفس عمرها تقريباً وعندما لا يلاحظ الحماس في عين أحدهم كان يغضب. لم يكن يتوقف عن قول كلمة "بداياتها الأولى في التطور" وكأن فمه عجلة صلاة.. وعندما كان عمرها لا يزال بضعة أشهر

كان يقف طوال الليل، وأحيانا عشرين دقيقة، وهو منحني باتجاه تيرزا لكي يشاهدها أثناء نومها.. باسطة ذراعيها وأحيانا مبتسمة.. ولم تكن أم تيرزا نفسها تفهم ماذا يفعل هنا أو فيما ينظر في الرضعة.

كانت ايبى في هذه الأثناء قد انتقلت إلى سريرها الخاص.. وتيرزا الآن هي التي تنام بينهما، وإذا لم تكن المرأة موجودة أو كانت تأتي إلى البيت متأخرة، فإن تيرزا كانت تنام بجانب أبيها. وفي معظم الأحيان كان يضطر أن ينام على حافة السرير فقد كان لدي تيرزا ميل إلى الانتشار، ولكن لم يكن يهمه ذلك.. والسرير ملكها هي.

بطء وفي رقة كان يكتب وبجانبه زوجته. لاحظ أن تيرزا قد أغلقت باب حجرتها، فلم يرد أن يزعجها، ولذلك ذهب هو إلى الأسفل ونظر في المطبخ ناحية اليمين.. كل شيء جاهز.. كل شيء معد للتقديم وجاهز للأكل.. تبدو ألوان السوشي والساشيمي وقد نسقت باحتراف.. فالأمر أبعد من مجرد هواية للمطبخ.. كأنها نسقت من قبل أحد العاملين في السرفيس.. هكذا كانت تبدو.

لم يكن هوفمستر يترك شيئا أبدا للصدفة، فعلى المرء أن يحسب حسابا لكل شيء، فمن يضطر أن يدافع عن نفسه هو الذي لم يتسلح كفاية ضد الكوارث التي يمكن أن تواجهه. قام بتوزيع المشاعل في الحديقة.. كل أربعة في مجموعة. سوف يشعلهم فيما بعد عندما يبدأ الغروب.

ثم ذهب يورجن هوفمستر إلى الكوخ الخشبي ووضع آلة الحش والمجراف والمنشار جانبا، وبذلك أصبحت المساحة كافية للضيوف الذين يرغبون أن يختلوا بأنفسهم قليلا لتبادل القبل في السر.. ثم غادر الكوخ ونظر إلى الأشجار.. يوجد أيضا الكثير منهم في حديقة والديه وعليه أن يعتني بهم، حاليا، كأنهم طفلة الوحيد.. لأن العجوزان لم يعودا موجودان وأشجار الفواكه يجب تشذيبها بانتظام.

ثم عاد متمشيا إلى المنزل عبر الحشائش في الحديقة.. يتنسم الهواء.. إنه مسرور.. سوف يكون الإحتفال جميلا كما أرادت تيرزا. فقد قالت له: "ستكون هذه آخر حفلة لي في هذا المنزل، ولذلك أريد أن أقيمها بتوسع.. هل يناسبك، بابا؟ حفلة كبيرة بحق؟"

- بالطبع، ولكن إلى أي مدى تقصدين؟ ماذا تعنين بقولك (كبيرة)؟ وهل سيكون علي أن أبتعد؟ هل سيكون هذا أفضل لك؟

- ربما ينبغي علي قضاء العطلة الأسبوعية في بيتوفي؟
- لا.. ابقى هنا.. إنك تجد حفلاتي جميلة أيضا؟ أليس كذلك؟

فكان يومئ برأسه قائلا:

- نعم.. بل جميلة جدا.

وعندما عاد إلى المطبخ سمع جرس الباب، فانتظر دقيقة ليرى إن كانت تيرزا أو زوجته ستفتح الباب، ولما لم يحدث ذلك ذهب بنفسه إلى المدخل، فالسيدتان مشغولتان جدا في الحمام.. إنها ايبي.. ومعها فقط حقيبة سفر صغيرة مما خيب أمل هوقمستر قليلا، فذلك يعني أنها لن تبقى طويلا. وهي الآن تعيش في فرنسا.. على بعد ستين كيلومتر تقريبا شمال غرب جنيف. بادر هو بنفسه فاحتضنها بحرج بعض الشيء عندما داس فوق قدمها، فهمس لها معذرا.. وهي أيضا كانت محرجة قليلا.

كان ينتظر الكثير من الطفلتين ولكنه كان ينتظر من تيرزا أكثر من ايبي.. كان ينتظر من ايبي الكثير ولكن ينتظر من تيرزا كل شيء. هكذا كان الحال.. هذا ما يجب أن يعترف به.. كل شيء.. قالت له ايبي:

- أنت تسحقني يا بابا.. ليس بشدة هكذا.

كان يحتضن أحيانا بشكل رسمي ثم يعود مرة أخرى إلى الإحتضان بشوق عارم.. إذ من الصعب إيجاد التوازن المناسب في هذه الحالة.

أمسكها من كتفها وأخذ خطوة إلى الوراء ولكنه لم يدعها من بين يديه. ثم قال لها:

- تبدين بخير.

قال ذلك بدون أن يعرف إن كان يعنيه حقيقة.. فهو في الواقع لم ينظر إليها.

- لدي الكثير من الأعمال، فقد بدأ الموسم.

توقفت ايبي، التي تكبر تيرزا بأربع سنوات تقريبا، عن دراستها للفيزياء لكي تفتتح بانسيون في فرنسا يقدم سريرا وإفطارا.. وعندما كان يفكر في هذه الفكرة ويعيها جيدا

ويمعن فيها التفكير يتعكر مزاجه.. إذ كيف يمكن لأحد أن يتوقف عن دراسة الفيزياء من أجل بانسيون؟.. ولكن ايبي قد تعرفت على فرنسي وقررا أن يفتتحا سويا هذا السريـر والإفطار، وقد كانت هذه فكرة الفرنسي بالطبع.. فأى إنسان طبيعي تدور في رأسه مثل هذه الأفكار غيرهم؟ أما في نظـر هوفمستـر فلم يكن فرنسيا حقيقيا.. على الرغم من أنه يحمل جواز سفر فرنسي.. ولكنه كان ملونا يجري، كما هو الحال دائما، وراء مالهـا.. فهو قد سلبها شرفها بالفعل.. فماذا يبقى إذن غير ذلك؟ ولكن هوفمستـر لم يعد يريد أن يضيع وقته بالكلام في هذا الموضوع، فقد خسر هذه المعركة من قبل.

عندما أخبرته أنها انقطعت عن دراستها للفيزياء وعلاوة على ذلك، كان هذا ليس كافيا، أعلمته هو واختها أنها سوف تنتقل إلى فرنسا في أقرب وقت، اتصل هوفمستـر بخدمة الصحة الإجتماعية فأحالوه إلى معالج نفسياني. وفي الجلسة الأولى ظل يسأل:

- كيف يمكن لأحد أن يفضل سريرا وإفطارا على دراسة الفيزياء، أو يتخلى عن العلم من أجل فرش السريـر؟

- ربما ابتكت سعيدة هكذا؟..

أخيرا أعطاه النفسياني إجابة تدعو للتأمل.. كان هوفمستـر ينظر إلى الرجل منزعجا منه.. هذا الخائن للعلم.. هذا المخادع. سعيدة؟ وهو الذي كان ينتظر أن تحصل ابنتيه على الدكتوراه، ويعتبر ذلك شيئا بديهيـا، الدكتوراه على أقل تقدير.. لم يكن مستعدا أن يترك هذه البداهة تهرب منه، وخاصة أنها من أجل ماذا؟ من أجل سعادة عابرة. تبـا لذلك إذن. كان متشبثا ببداهة النجاح.. متشبثا بالتصور الذي رسمه لحياة أولاده.. كم كانت من فكرة جميلة ورائعة.. حلم نموذجي.. عظيم ولكنه بعيد عن الواقعية، ولكنه على أي حال كان عظيما. كان ينشئهما على خدمة العلم، وليس لطـي بياضات السريـر في نزل ما ومديرها رجل من أصل مشكوك فيه. ولا يمكن للمرء أن يتخلى عن مبادئه ببساطة من أجل سعادة موهومة. نهض ثم سلم بصمت على الطبيب النفسياني ثم خرج من عنده ولم يعد إليه أبدا.

ذهبت ايبي إلى المطبخ ونظرت حولها:

- أنت تسرفس مرة أخرى! كم ضيف تنتظرون بالضبط؟
أين تيرزا؟
- بالأعلى. ألم تسمعي بالأمر؟
- ماذا؟
- من تيرزا.
- ماذا؟ ماذا كنت سأسمع؟
- أن ماما هنا مرة أخرى.. لقد عادت ولكني لا أعرف كم ستبقى، ولكنها هنا مرة أخرى.
- أوه.
- لم تبد ايبي مهتزة جدا لسماع الخبر، بل ربما لم تهتم أيضا. ولكنها سألت: "هل لديك شيئا ما للشرب؟"
- بالطبع.
- شعر هو فمستر بأنه مضيف سيء، والمضيف السيء يعني أنه أب سيء.. فتح الثلاجة:
- ماذا ترغبين: بيرة، نبيذ، عصير ليمون؟ لقد صنعتها بنفسي. لم أستخدم فيه غير الليمون والمياه المعدنية والسكر.. طبيعي تماما.. كما تحبينه.
- اللين.
- أعطاهما كوبا فشر-بته دون توقف محدثة صوتا ثم مسحت فمها بظهر يدها.
- هل سمعت بذلك حقا أم لا؟
- حدقت إليه وكأنه بعيد جدا عنها وقالت:
- ماذا؟
- بشأن ماما.
- نعم سمعت.. هل يجب علي أن أبدي رأيا في هذا؟
- حسنا... - قالها مترددا -.. هل يجب عليها أن تبدي رأيا؟ سؤال جيد. ماذا يعتقد هو نفسه بشأن ذلك؟.. "... لا أعرف إن كان عليك أن تبدي رأيا في هذا، ولكن ربما لديك شيئا لتقوله بشأن هذا الأمر، بل ربما تبدين رأيك أيضا.
- إنها حياتكم... مرة أخرى هذه النظرة.. ربما هي متعبة من طوال السفر، فقد بدأت السفر إلى هنا منذ فجر اليوم..
- تغير المواصلات في باريس وتنتقل بالمترو من محطة إلى

أخرى.. وقد قال لها كثيرا: "عندما يكون معك أمتعة استقل
سيارة أجرة وأنا سأعطيك المال.." إلا أن ايبي تجد استقلال
سيارات الأجرة تبذيرا وعلاوة على ذلك فهي
حريصة على استقلاليتها.

والآن، بعد أن عمل قليلا على وصول ايبي، أخذ ينظر إلى
ملابسها.. بنظرون مموه وتي شيرت، بالأوان كان يجدها
معقولة.. سألته:

- كيف حالك؟ - ووضعت الكوب على البوفيه.. - أعني:
خلاف ذلك؟ كيف حالك في خلاف ذلك؟

- خلاف ذلك؟ عمل كثير. ووضع الكوب مباشرة تحت
الصنبور.

- بماذا؟

شعر بالغضب الذي بداخلها.. لا.. بل أكثر من الغضب..
الكرهية التي بداخلها.. عدم القدرة على العفو.. الكراهية
التي لاتزال تارها تحترق حتى عندما أصبح كل شيء عند
الأخرين مرة أخرى في طي النسيان.

- في النشر.

لم يسأل كيف تجري الأمور في النزول.. فقد أمات الكلام
عن النزول.. ولم يعد يستطيع أن يفعل شيئا من أجلها.. ولم
يستطع أن ينسى.. أبدا أنه في النهاية، عندما لم يستطع أن
يثنيها عن رأيها، قد قام بدعائها بالمال من أجل النزول. فهذا
شيء لم يستطع نسيانه أبدا. إن ماضيه ليس فيه أي صفحة
بيضاء: أشياء لم يعد يريد معرفتها، ويحاول أن يحوها من
ذاكرته، فلا يستطيع.. إنه يعتقد أنه يعرف كل شيء. فعلى
المؤرخ أن يستنبط التفاصيل التي تعتبر مهمة للأجيال التالية
وبذلك يضمن تسليم التفاصيل الأخرى التي يجري نسيانها.
من لا يستطيع النسيان لا يستطيع العيش.. وفي النسيان
يكمن ازدهار المستقبل. كان هوفمستر قد توقف عن دراسته
للتاريخ بعد نصف سنة فقط، وتركها وتحول لدراسة
الجرمانية وعلم الجريمة، فلم يستطع أن ينسى.. ذلك أبدا،
وهذا هو السبب في أنه يتحسس ماضيه كالأعمى.

إن من يريد تشويه الحقيقة لن يحتاج سوى خلل في
الذاكرة.. سوى أرض مفقودة.. يستطيع المرء أن يذهب في
ذاكرته الخاصة إلى رحلة إستكشافية.. كما لو كان في بلد
أجنبي، أو في الغابة: فتجد رجال الأدغال، ووعاء للطبخ،

وأكلي لحوم البشر يرحبون بك، وبينما يسخن الماء ببطء ترى أمامك كل صفحاتك البيضاء لم تعد كصفحات، ولكن تبدو أمامك كما هي، كما كانت.. أو كفيلم إن صح القول. وحينها يعرف المرء حقيقته، ثم يبدأ الماء في الغليان، فلكل شيء ثمه.

أشارت إلى خده. وقالت:

- أنت تنزف.

- لقد كنت أحلق ذقني للتو.

أخذت من لفة ورق المطبخ قطعة ضغطت بها على الجرح.. عند ذلك وقفا، الأب وابنته، محرجين ولكن حميمين.. لا يمكن إنكار أن هذه حميمية أو شيئاً قد تبقى منها بعد المعاناة العابرة في ردهة المطار عند موقف السيارات.

لا حظ في عينيها نظرة باردة كان يعرفها جيداً، ولكنه لم يستطع أن يتعود علي هذه النظرة أبداً وهي لم تكن تريد أن تفهم أبداً. إنه يأمل في الغفران.. لأنه مستعد هو الآخر أن يغفر ولكن بعد أن ينشب مخلبه.. مخلب الوحش الضاري.. مخلب هو فمستر الحقيقى.

وبينما تسحب المنديل من على خده سألها:

- هل أنت سعيدة؟

.. بقيت قطعة صغيرة ملتصقة بخده.. نظرت إليه بتعجب، ولكنها كانت تتصنعه.. لم يكن تعجبا حقيقيا. بل هو آخر البقايا العنيدة من الغضب:

- منذ متى وأنت تهتم بسعادتي يا بابا؟

رجع خطوة إلى الوراء:

- أنا مهتم برفاهيتك، فأنت ابنتي وأنا ليس لدي إلا ابنتين فقط.

- ليست السعادة في الرفاهية.. توقف لاتتحرك حتى أستطيع أن ألتقط قطعة الورق هذه.

بقي واقفا بلا حراك بينما تخدش إبيي خده.. شعر بظفرها على بشرته.. حبس أنفاسه وحاول أن يستعيد ذكريات حياته عندما كانت بدون ابنتيه.. عندما لم يكن لديه وظيفة، وعندما.. وذلك ما كان عليه أن يعترف به فيما بعد.. كان تأثها كرصاصة طائشة أطلقت في الفضاء.. شاردًا.. ليس

سوى، فيما عدا أنه صاحب منزل، ليس سوى رئيس تحرير في إحدى دور النشر.

كان هوفمستر قد قرأ أن يؤجر الطابق الأعلى في اليوم الذي كان

يوقع فيه عقد شراء، المنزل عند موثق العقود، وإلا سيعوزه المال مع مرتبه الضئيل هذا.. وقد كان البيت على كل حال كبير بالنسبة إليه.. بل حتى كبير بالنسبة لأسرة بجميع أفرادها.

في بادئ الأمر لم يكن يؤجر إلا لرجال الأعمال خاصة.. لمدة شهر أو فصل سنوي. رجال يكونون خارج المنزل طوال اليوم، ثم يعودون منهكين في المساء فيرقون كالحجر في السرير، لكي يستيقظوا مبكرا في الصباح التالي ثم يرتدون بزاتهم المكوّية بعناية ثم يعودوا فيختفوا بسرعة في المدينة.

كان الطابق مجهزا بأثاث رخيص ولكنه كان عمليا، وعلاوة على ذلك كانت إطلالته مبهرة، فقد كان يطل على الفوندل بارك. ولذلك عندما كان هوفمستر يقوم بعرض الشقة لمستأجر ما، كان يظل في كل مرة يشير إلى المنظر الأخضر - في البارك وكأنه يملكه.. أو كأنه حديقة منزله الأمامية.. فإذا قال رجل الأعمال عندئذ: "حسنا.. إنها جميلة.. سأخذها" فعلى الفور يتم إحضار عقد مكتوب بخط اليد حتى يمكن تمديد مدة الإيجار كل شهر في صمت.

وعند الانتهاء من كتابة العقد يقول هوفمستر: "الدفع يكون نقدا في أول كل شهر، وإذا قمت بالدفع نقدا فإنك ستحصل على خمسة بالمائة خصم." كان يقول ذلك بنغمة توحى كما لو أنه يقدم عرض صداقة لا يقدر بثمن.. وذلك ما كان يترقب لسماعه المستأجر.. خمسة بالمائة خصم.

وبذلك كان هوفمستر يصعد الدرج كل أول شهر لكي يحصل الإيجار، فيجده في معظم الأحيان مجهزا له وموضعا في ظرف صغير، وإن لم يجده كذلك.. يظل واقفا لمدة دقيقة متبادلا أطراف الحديث حول وجهات النظر في علم المناخ.. إذ بإمكانه أن يستقيض في الحديث عن الطقس إلى ما لا نهاية وبحماس يظن منه السامع أنه لا ينتهي. كان يظل منتظرا، ويصبر حتى يشغل المستأجر في النهاية جيوبه لكي يدفع له المبلغ المتفق عليه.

كان هوفمستر دائما ما يجد سببا لكي لا يرد مبلغ التأمين كاملا إذا قام رجل الأعمال بإخلاء الشقة.. أو بالأحرى: كان

يأخذه بالكامل.. فيتعلل بأسباب مثل تمزق في ورق الحائط.. أو مقابض أبواب ساقطة.. أو تصدع في رخام حواف الحوض قائلا: "أنا أسف، ولكن الشقة لم تكن كذلك عندما تسلمتها قبل ثلاثة أشهر، ولذلك يجب أن أقوم بالإصلاحات.. أنا محرج منك ولكن هذه الإصلاحات ستكلف مالا.

لم يكن هوفمستر يفعل ذلك لأنه سيئا ولكنه كان يحتاج المال فقد كانت هناك حاجة ماسة له، ومستقبله يتوقف على ذلك، ومستقبل بناته أيضا في وقت لاحق، فماذا تعني الحرية إذا لم يكن المرء يملك مالا يستطيع به شرائها؟ فالأثرية فقط هم من يصيرون أحرارا.. بل إنهم لا يظنون هكذا دائما.

كان يخادع قليلا من حين لآخر، ولم يكن يحب فعل هذا.. إلا أنه كان يتحمس للكذب.. كان يشير إلى الثقوب التي في السقف والتي كان قد انتقدها قبل ذلك أيضا عند رحيل آخر زيون.. كان ينتقد البقع على ورق الحائط، ولم تكن هي الأخرى بقع جديدة.. أو يقوم بعد الشوك والسكاكين في المطبخ - فقد كان يؤجر الشوك والسكاكين أيضا - ويؤكد بنفاق على أن عدد السكاكين والشوك ليس كاملا. وبهذا الكذب - وإن كان كذبا خفيفا - كان الخجل يبلغ منه منتهاه.

كان يكره المستأجرين الذي لا يقولون من تلقاء أنفسهم: "إذن فلا مشكلة أن تحتفظ بنصف التأمين."

ولماذا ليس المبلغ كله؟.. كان يكره المستأجرين الذين يضطرونه إلى الكذب بسبب بخلهم.. لأنهم كانوا يريدون أن يحصلوا على أي شيء في وسعهم الحصول عليه. حتى أصبح مضطرا - برغم دراسته الناجحة في الجرمانية.. صحيح أنه لم يحصل على ترقية، ولكن في الأمر تفاصيل كثيرة تحتاج إلى توضيح - لأن يتسكع في الطابق العلوي من منزله للبحث عن مزيد من الأضرار. لم يكن يفعل شيئا غير التفاوض في كم يمكن أن يتكلف إصلاح زاوية مساحتها اثنين متر في أربعة متر؟ برغم أنه كان لديه في الواقع أشياء أفضل من ذلك ليفعلها، فكان بعض المستأجرين يقولون:

"أخ، سأشتري غدا على وجه السرعة صفيحة طلاء وأقوم بطلائها بنفسي، وهذا سيوفر عليك القلق ويوفر علي الكثير من المال." ولكن الأمر لا يتعلق بذلك.. لا يتعلق الأمر بالحائط أو الدهان، ولكنه يتعلق بالتأمين الذي لا يمكن استرجاعه إذ أنه في الواقع لم يعد في

حوزته.

عندئذ يدور هوفمستر حول الموضوع بمهارة.. ويبالغ ويتحسر ويصرخ ويثير الإستعطاف.. ثم فجأة ولسبب ما غير مفهوم يصبح عدوانيا: "إذا لم نتمكن من الإتفاق قبل مغادرتك فإننا سنضبط ذلك في وقت لاحق، ولكن حينها لن يكون لديك سوى قليل من الحظ، فأنت ليس لديك الحق في أخذ التأمين ولا تملك أي شيء في يدك.. أي شيء على الإطلاق، فقد استهلكته." ثم يطبق يده ويبدو جادا.. كان يسترسل في الشجار كما يفعل الآخرون في الأفلام أو في الكتب أو في تمثيلية مسرحية. كان هناك لحظة ينسى فيها نفسه تماما قبل أن يحث نفسه على الإنضباط.. ثم يأخذ نفسا عميقا ويذهب، فعلى المرء أن يستطيع التحكم في نفسه وإلا فعل الآخرين هذا نيابة عنه.

كما كان يحدث لوالديه البالغين من العمر تسعون عاما - هذا بالنسبة للوقت الحالي: ولكن ربما منذ كانا في الثمانينات - كانا يصبحان أكثر غرابة.. ليس بسبب عبث الشيخوخة، ولكنه كان شيئا آخر.. مرض غير معروف. ولأن هوفمستر لم يستطع فعل أي شيء حيال هذا المرض فإنه اضطر أن يترك والديه عاجزين، ولذلك كان عليه أن يعتني بكل شيء وأن يدير المال، ويدبر أمر المنزل، ويعتني بالحديقة. وحول ثروتهم على حسابه المصرفي كإجراء احترازي، فقد كان في احتياج إلى هذه الثروة.. وعن حق لا يمكن أن يعتبر هذا غير أخلاقي، فقد كان والداه عاجزين، وهذا ما أكده له المحامي، بنفس الكلمة: عاجزان، ولم تعد لديهما الأهلية لمباشرة الأعمال القانونية.

كان والد هوفمستر يمتلك محل أدوات صناعية في جلدرمالسن، وكانت أمه تغني في جوقة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك من أجل كسب المال، ولكن الغناء كان هوايتها. أما هو، الابن الوحيد، فقد كان يسجل لنفسه نجاحا رائعا، وذلك - لأنه لا يليق به إلا هذا - ما كان متوقعا من شخص مثله. الترقى في العمل، لأن الأغنياء فقط هم من لا يتعرضون لمضايقات.

ووالدا هوفمستر كانا يتعرضا لمضايقات، ولا يخفى هذا على أحد ولا يحتاج أحد أن يرى هذه المضايقات حتى يكون على علم بها.

ثم بعد أن يستعيد رباط جأشه كان يشير بتحفظ إلى المستأجر بأنه كان لا يزال يسكن في الشقة بعد مرور خمسة أيام من أول الشهر دون أن يدفع إيجارا عليها.. ثم يقول في النهاية: "أتعرف شيئا؟ سأعفيك من دفع هذه الأيام الإضافية وننسى التأمين.. دعنا لا نفكر بشأنه.. فلننسى المبلغ بأكمله.. مفهوم؟"

وهكذا يسرع بقدر المستطاع إلى النزول من على الدرج وهو يكاد لا يستطيع للمرة الألف أن يتجنب إحتقاره الدائم لنفسه ويبرر ذلك بأنه يفعل ذلك من أجل أسرته.. من أجله هو وزوجته أولا.. والأهم من ذلك من أجل بناته ثانيا.. من أجل مستقبلهم، فقد سمع ذات مرة في الكنيسة أن القديسين يعتمدون على حسنات فعلوها في الماضي أما الآثمون فيعتمدون على تخطيطهم للمستقبل. ولكن ابنتيه كانتا استثناء.. فهما ليستا أثمتين ولكنهما بحاجة إلى التخطيط للمستقبل.

وشيئا فشيئا كان المستأجر يبقى مدة أطوال، وكان هذا يوفر عليه الجهد في البحث كل فصل عن مستأجر جديد، ويعفيه من استخدام وكالة وسيطة تطالبه بمبالغ عالية بأرقام مرعبة إزاء خدماتها متدنية الجودة.. على كل حال هو سيستغني عنها.

كان هو فمستر يحب أن يباشر ذلك بنفسه، فكان يبحث عن مستأجرين لهذا الطابق وكأنه يبحث عن أزواج لابنتيه.. كان يبحث بعناية شديدة: متبحرا في إعلانات كل الجرائد تقريبا حتي يجد من بينهم المستأجر الأنسب والأهدأ والأكثر نظاما والأمين والأنظف. كان يبحث في المقام الأول عن مستأجر يمتلك محل إقامة في مكان آخر ويبحث عن محل إقامة ثاني حتى يصبح مسجلا في هذه المدينة هي الأخرى. ولم يكن يدخر وسعا حتى لا تقع الأرباح الجانبية الصغيرة تحت طائلة الضرائب، فالحرية والجوع ليسا إلا عدوان لدودان، وعلى الرغم من أنه لم يذق أبدا طعم الجوع.. إلا أنه نشأ وهو خائف منه وظل هذا الخوف رفيقه الدائم.

وما ظل يلزمه أيضا هو صعوده الدرج في أول كل شهر إذا لم يودع المستأجر في الوقت المحدد الطرف الموضوع فيه المبلغ المتفق عليه في صندوق بريد هو فمستر. طقوس حياته بشكل عام ظلت تلتزمه.. عبادته، فهو يعبد الكائن الأسمى ولا يرضى بغيره، وفي كل أول شهر يطلب ما يستحقه.

ثم عندما يصبح مرة أخرى في شقيقته في الأسفل مع الشعور الذي يصاحبه دائماً.. أنه خلق دينياً.. يحصى- النقود مرة تلو الأخرى لكي يحفظها في مكان أمين إلى أن يكون لديه منها ما يكفي، ثم يحولها في السر على حساب في بنك أجنبي حتى يخفيها.. كان لديه حساب بنكي في لكسمبورج ولكنه مؤخراً أصبح يودع المال في سويسرا.. كانت الأفكار عن استقلاله المادي تهاجمه وهو جالس مستغرق في العد مراراً وتكراراً.. تهاجمه.. هكذا بالضبط. كانت الأفكار تهاجمه ولا تتركه يرتاح، فكان يصبح في هذه اللحظات أسيراً لتطلعاته إلى المستقبل. كان يحسب كم سنة بقيت له حتى يصل إلى الاستقلال المادي.. كان يعد الأشهر. فقط لو يأتي الاستقلال قبل المرض والموت. كانت مسألة عقود أو ربما أقل عندما يزدهر سوق الأوراق المالية.

وبرغم سعادته من النمو البطيء للثروة في الخارج، فإن ما كان ينبغي عليه أن يقلق من أجله هو ألا يعرف تيرزا وايبي طعم الفقر أبداً، وأن تفتح لهم أيضاً الأبواب التي لا يلجأ إليها الأغنياء فقط، وأن يتمكنوا من الدراسة في أي مكان في أفضل جامعات العالم.. كانت هذه السعادة تشتتوه كل أول شهر وهو في طريقه عبر الردهة المتواضعة إلى المستأجر.. لم يكن يفهم لماذا لا يحضر المستأجر المطروف بنفسه سريعاً، فقد طلب منه عدة مرات أن يعجل بإحضاره، كان إذا بقي المستأجر لم يظهر حتى الساعة الثامنة مساءً في أول الشهر يذهب هو قممستر إلى الباب الجانبي ويرن الجرس واقفاً عند مدخل شقة المستأجر.. كان يضيق صبره من شدة الخوف أن ينساه المستأجر.

حتى أيام الأحد كان يقف فيها أمام المدخل.. فأول الشهر يعني أول الشهر.. فلم يكن هو قممستر يعرف أيام الأحد لأن حلمه كان يسيطر عليه.. كان يسامح المدينين تماماً كما كانوا يسامحونه، فكانت المسامحة تتم في صورة نقود.. وأخيراً عندما يكون الأمر مهماً تكون المسامحة في صورة نقود.

ولكن حتى هذه المسامحة أيضاً لم تستطع أن تمنع عنه القلق أثناء النوم في أيام السابع والعشرين أو الثامن والعشرين من كل شهر، فكان يحلم بالمستأجرين وبالمطروف وبالأضرار في المنزل.. كان يحلم كأنه يصعد الدرج ذاهباً إلى الشقة وهناك يجد كل شيء قد اختفى: الأثاث.. أدوات المطبخ.. بل وحتى المستأجر نفسه والملابس وخزانة الملابس..

كل شيء.. كان كل ما تبقى هو: تسرب المياه وجثة قطعة متعفنة في حوض الوجه، على الرغم من أنه كان يحذر أي مستأجر صراحة بعدم الاحتفاظ بالحيوانات المنزلية.. حتى ولو كانت سمكة زينة.

كان حلمه ينتهي دوما بضجيج الماء المنخفض المثير للأعصاب الذي ينساب على السجادة، وجثة القطعة في حوض الوجه.. وهو - هوفمستر - يركض في أنحاء المنزل وهو يصيح باحثا عن المظروف الذي يحتوي على الإيجار ولا يمكنه الحصول عليه. كانت كوايبسه دائما رطبة من الماء ومائلة للخضرة من العفن ومليئة بشعر القطط.. كانت أرواح هيئة العقارات تقتحم عليه نومه.

ذات يوم كان يائسا ويشعر بخمول أعصابه وبالتوتر من قلة النوم.. ثم جاءه الإلهام فقال: "إيبي" كانت حينها في الثانية عشر من عمرها وتستطيع أن تعزف على الكمان وأن تلعب التنس.. كان يُنظر إليها عادة أنها فتاة ذكية وجميلة..

- إيبي.. هل تريد أن تحصلي على خمس جولدات وأيس كريم؟

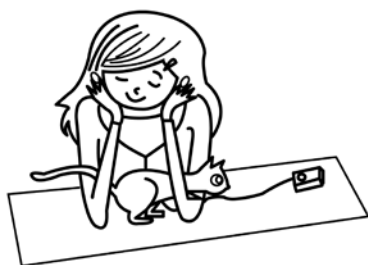
هزت رأسها بنظرة حاملة، فقد كانت فتاة حاملة.. وكان الآخرون يسمونها النعسانة.. إلا هو، فقد ظل يسميها بالحاملة.

-... إذن عليك أن تذهبي سريعا إلى جارتنا بالأعلى وتقول "لقد جئت من أجل الإيجار. عندئذ سيعطيك مظروفا فتحضره لي.. لا تتلكأي أو تنتظري أي شيء آخر، ولكن عليك أن تكوني مؤدبة.

ثم يصطحبها حتى باب المنزل فيفتحه ويبقى يشاهدها وهي تدق جرس الشقة في الطابق الأعلى.

وهنا تذهب ابنته.. ابنته التي هي إحدى نور عينية.. طفلة رائعة.. لا يمكن لأحد أن يعارض في ذلك.. بل إنه يقول ذلك بنفسه دائما: "إنها طفلة رائعة.. رائعة بكل بساطة." وهذه حقيقة لا يمكن دحضها أبدا مثل حقيقة الجاذبية.

وعندما يسمعها تصعد الدرج يغلق الباب ثم يجلس في الردهة مكتوف الأيدي منتظرا عودتها بفارغ الصبر ونظرة على السجادة أمام الباب.



ثم
بعد دقيقتين فينقض هوفمستر على المظروف كأنه حيوان
يتصور جوعاً، ويأخذ في عد النقود، ولا يكتفي أن يعدها مرة
بل يعدها مرتين.. كانت الأوراق ترفرف بين أصابعه مثلما
يحدث مع أوراق اللعب عند خلطها.. ثم وضع النقود في
مكان سري في البوفيه.. ثم ربت على رأس أبيي ماسحاً على
شعرها الأشقر الداكن وأعطاهما خمس جيلدرات وثمان الأيس
كريم علاوة على ذلك.

- هل بإمكانى شراءه الآن؟

- ماذا؟

- الأيس كريم.

فيقول الأب:

- نعم.. يمكنك ذلك.. اذهبي بهدوء، ولكن افعلي ذلك
بسرعة فنحن سنأكل حالا.

فتركض إلى الخارج مرحة ومبتهجة لا يمنعها الخجل أو
الأوساخ التي كانت عالقة بملابسها، لأن كل شيء بداخلها كان
نقياً.

ومنذ ذلك اليوم وأصبح ذلك عادة: كانت أبيي تحصل
الإيجار وتفعل مالم يعد بإمكان والدها أن يفعلها، فكانت
تصعد إلى الشقة العليا في كل أول شهر لكي تحضر- ما يدعم
أسرة هوفمستر.

وبعد فترة تعودت هي على ذلك لدرجة أنها هي التي
كانت تقول دائماً:

- بابا، اليوم هو أول الشهر.. سأذهب سريعاً إلى الأعلى.

ثم بدأ في الإعتماد على مواهبها.. سحرها وفهمها للنفس البشرية.. مما كان يعني في هذه الحالة: فهم نفسية المستاجر.

وأكثر من ذلك كان يبدو أنهما يجدا متعة غريبة في هذا الفعل الخسيس حتى أنه يمكن العثور في عين هوفمستر على بعض الإهتمام المنحرف الذي كان يشعر بسببه دائما أنه يتدنى أخلاقيا وأنه ملوثا وملطخ.. كل شهر يصبح لديه صفة جديدة، فيتدرج في سوء الخلق درجة بعد درجة. ولكن كان هناك فرق هام بينه وبين أبيي: كان هوفمستر يحصل الإيجار أما ابنته فكانت مضطرة أن تفعل ذلك، وعندما كانت تصعد الدرج للشقة العليا كانت تقلده، أو إن صح القول كانت تسخر منه. لم تكن حينئذ بالغة ولكنها كانت تتصرف كأنها كذلك وأكثر من ذلك! كانت تفعل ذلك والحماس يغمرها، فكان هذا الحماس في لعبتها هذه ينشله من ورطته.. يحمره من قبضة شياطينه.. فالتقليد والمبالغة فيه بطريقة بشعة جعللا دائما من أبيي فتاة حرة.

وبعد وقت قصير لم يعد هوفمستر بحاجة لأن يقول لها: "لا تتلكأى أو تفعل أي شيء غير ذلك، وعودي بسرعة." فقد عرفت القواعد، وعرفت شروط أداء الطقوس.. بل إنها كانت فخورة بأنها تنجز المهمة كل شهر مجددا بلا أخطاء. كان الإيجار بالنسبة إليها غنيمة حرب كانت تحصل على نصيبها فيها.

فقط من حين لآخر كانت ترجع من غارتها على الطابق العلوي وتقول: "إنه يسأل إن كان لا بأس من أن يدفع الإيجار بعد بضعة أيام." حينئذ يقول هوفمستر:

- بالطبع لا بأس ولكن عندها لا يوجد خصم خمسة بالمائة، فالخصم يكون فقط عند الدفع نقدا في أول الشهر، وليس في اليوم الثالث أو الرابع.. عندئذ يتم دفع المبلغ كاملا.. وليكن في معلومك أن أول يوم في الشهر ينتهي في منتصف الليل، فحينئذ يجب دفع المبلغ بأكمله.

ثم عندما كانت تظهر في اليوم الثالث أو الرابع والإيجار كاملا في يدها، فإنه يأخذ مكانا على الطاولة ويجلس يعده بينما الآلة الحاسبة بجانبه. لأن المال بالطبع كان يزداد في الخارج، فالثروة لأبد وأن تنمو.. وهي تنمو بسرعة، فالثروة في

الأيدي الأمينة تنمو مثل الحشائش الضارة. وتأخذ ابني تنظر إلى والدها وهو مستغرق في عد النقود، فكانت تنظر إليه نظرة توحى أنها متأمرة عليه وفي هذه النظرة أيضا شيء يكاد يشبه الرثاء، وكأنها تفهم كل شيء، فلم يعد الأب هو الذي ينظر إلى ابنته بحنان بل على العكس كانت الابنة هي التي تنظر إلى الأب بحنان.

وعندما يجمع قدرا كافيا من المال يأخذ إجازة ليومين ويسافر إلى سويسرا لكي يودع الإيجار في مصرف قوي، وهناك يستثمره له المختصون.. حتى يقترب خطوة من تحقيق إستقلاله المادي.. صحيح أنه يقترب ببطء ولكن يقترب باستمرار.. يوما بعد يوم.. ساعة بعد ساعة.. دقيقة تتبعها دقيقة.

ثم كبرت ابني وذهبت إلى الجيمنازيوم، وبدأت في وضع الماكياج على وجهها.. كانت تضعه بطريقة توحى أنها تريد أن تعوض الستة سنوات الأولى في المدرسة التي لم تكن تضع فيهم ماكياج.. أصبحت تمر بتقلبات مزاجية وتصرخ في وجه والديها.. وفقدت الرغبة في العزف على الكمان - يا لخبية الأمل!-، إلا أن الطقوس بقيت لم تتغير: كل أول شهر تصعد إلى الشقة في الطابق الأعلى وتحصل الإيجار.

كانت تنظر إلى والدها بمكر وهي عائدة بالمظروف.. وكأنها تعرف ماهية ما كانت تفعله هناك.. ما تشارك فيه - وأن أباه لا يستطيع أن يفعل ما تفعله.

ومنذ أن قهمت خجله وهذه المعرفة قد غيرت حريتها فارتبطت بهذا الرجل الذي كانت مضطرة أن تدعوه "بابا".

وعندما ينتهي من عد النقود يأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه فيبقيها لبرهة بين أحضانه.. فالمهمة البسيطة قد أصبح لها وزن، وصارت ذات أهمية.. كانت هي ما يربط الأب والابنة معا.. كانت سرهما.. أو ليس سرا بالمعنى الحقيقي أيضا ولكنها على الأرجح رابطتهما.

في الحقيقة.. كانت هذه هي اللحظة الوحيدة التي يكونان فيها سويا.. الأب والابنة.. بلا أغراب يسكنون معهم بالصدفة في نفس المنزل، ويستخدمون نفس الحمام.. بل حتى من حين لآخر يجلسون معهم على الطاولة للأكل. لم يعد يعطيها نقودا لشراء الأيس كريم، ولكن لشراء تنورة أو للذهاب إلى السينما.. لم يعد يقول "لماذا".. بل

يعطي بكل بساطة.. دون أن يتفوه بكلمة ولكن غامزا بعينه. بل وفي بعض الأحيان كانت تحصل على علاوة، عندما يرى أن الإستقلال المادي يقترب أكثر مما توقع - فقد كان سوق الأوراق المالية وأعدا في تلك السنوات.

وغالبا ما كانت تأتي أيضا إلى الأسفل وهي تحمل أخبارا من المستأجر أنه - على سبيل المثال - يريد إلغاء العقد.. أو العكس.. يريد إطالة مدته. كانت تغني والدها عن فعل ما يكره.. وبعد سنتين أصبح الأمر وكأنه كان هكذا دائما أو يجب أن يكون هكذا دائما.. أصبح آل هوفمستر أسرة تجارية.

يذهب مستأجر ويأتي آخر.. لا يهم.. المهم أن تصعد ابنة هوفمستر الدرج في أول كل شهر.. كان الأمر بالنسبة إليها سهلا ولم تكن تنكر ذلك: فقد كان يكفيها أن المستأجر يدفع الإيجار عن طيب خاطر.. علاوة على ذلك كانت هذه خدمة تقدم للمستأجر.

منذ أن أصبحت ابني تحصل الإيجار ولم يكذب يوجد شكاي بشأن عفن علي ورق الحائط.. أو بشأن مدفأة ضعيفة التدفئة.. أو نافذة صعبة القفل. كانت ابتسامتها تغطي على جميع الشكاوي.. وفكرة أن كل شيء في الشقة لا يزال مكلفا.. كان النظر إلى ساقها يخنق هذه الفكرة في مهدها.. كانت عيناها تشفعان للماء المتساقط من الصنبور!.. كانت ابني تعوّض إلى حد كبير عن عيوب هذه الشقة المفروشة.

وعلى غير عاداتها.. وذات مساء من ليالي الخريف في أول الشهر.. -فحياته دائما أول الشهر.. وإذا أعاد النظر فيها رأى سلسلة لا نهاية لها من أيام دفع الإيجار - بقيت في الأعلى لمدة طويلة بشكل ملحوظ.

شيئا فشيئا بدأ القلق يدب في نفسه، وكان من عاداته أن يقرأ الجريدة المسائية بتمعن وهو يستمع للعزف المنفرد من موسيقى الجاز التي لحنها إيجار، إلا أنه عندما يصل إلى صفحة التعليقات - فإنه عندئذ يقرأ الصحيفة مثلما يقرأ كتاب.. ولكن مرت نصف ساعة تقريبا على ذهابها.. واصل القراءة ولكن لم يعلق بذهنه أي من هذه التعليقات، فقد ظل سارحا بأفكاره حول ابني.

حسنا.. بالطبع لا يصح أن يأخذ المرء النقود بكل بساطة ويولي هكذا دون دردشة.. على المرء من حين لآخر أن يرددش قليلا.. وهو يعرف بذلك من قبل عندما كان لا يزال يقوم

بهذه المهمة الشاقة بنفسه.. ولكن دردشة لمدة نصف ساعة ليست دردشة.. إنها محادثة كاملة يتخللها عشاء!

قام بالذهاب نحو الباب مرتين مرتقبا قدومها.. وكأنه في محطة الترام، والترام متأخر، وهو يرقبه بفارغ الصبر.. على فرض أن هذه النظرات المترقبة سوف تقدم في شيء أو تأخره.. ياله من افتراض يدعو للسخرية.. وكأن النظرات الحادة بإمكانها أن ترى ما لا يمكن رؤيته.

من المستبعد أن تكون قد تعرضت لهجوم، فهي لا تحتاج أن تكون في الشارع عند ذهابها وإيابها للمستاجر.

بدأ يتوجس من هذا الأمر.. فقد خرجت زوجته من المنزل لإحضار تيرزا التي بقيت في منزل إحدى صديقاتها للعب معها، فلم يجد هوفمستر أحدا ييث إليه قلقه، فقام بإطفاء موسيقى إيجار، ثم ذهب إلى الحديقة لكي يلقي نظرة على شجرة التفاح، وفي أثناء ذلك يطل إلى الأعلى من بين فروع الشجرة.. لينظر إلى النوافذ التي يعيش المستاجر خلفها، ولكنه لم يستطع أن يقع على شيء ذا أهمية.. لم يرى فقط إلا الستائر والتي كانت بحاجة ملحة إلى الغسيل..

كانت ليلة جميلة في بداية أكتوبر.. كان جوها ينصت كأنه يستمع.. فلا يسمع فيها حفيف للأشجار، ولا صراخ للإنسان.. لم يكن إلا الصمت فقط.. الصمت المطبق.... لم يكن بيده حيلة، ولذلك رجع إلى غرفة الجلوس والتقط الجريدة المسائية الموضوعة على الكنبه.

كانت إيبى قد أتمت الخامسة عشر- قبل بضعة أيام، ولذلك كانت بعض الهدايا لا تزال موضوعة على البوفيه.. فقد كان هذا تقليدا لديهم إذا كان لدى أحد الطفلين عيد ميلاد.. فكانوا يسمونه "تراييزة الهدايا"، ولم يتوقفوا أبدا عن القيام بهذه العادة حتى الآن.. حتى وإيبى قد أصبح عمرها خمسة عشر عاما.. وكما يعلق البنات الأكاليل كان هوفمستر يعلقهم بفن ودقة، تماما كما كان يفعل في الماضي عندما يحصل الإيجار.

أخذ يحدق في الهدايا.. فوقعت عينه على ساعة كان قد أهداها إلى إيبى لأنها كانت ترغب فيها، فظل يبحث حتى اشتري واحدة جيدة بعد أيام من البحث.. صحيح أنها كانت ساعة ثمينة، ولكن هذا يهون، لأنها كانت لابنته في عيد ميلادها الخامس عشر: وعلاوة على ذلك هي كانت تريد

هذه الهدية.. تريد هدية تجعلها تشعر بالسعادة.. بل وتستطيع أن تفتخر بها أمام صديقاتها.

كانت تراييزة الهدايا موضوع عليها غير ذلك: بنطلون، ولعبة لم يكن يعرف ما المغزى منها، وملابس للسباحة، وكتابين، وصورة لقارب رسمته تيرزا بنفسها.. أما باقي الهدايا فقد تم التخلص منها أو منها ما تم أكله أو قاموا باستخدامه.

وأخيرا قرر أن يدق الجرس، فقد طال غيابها أكثر مما ينبغي.. إذ من المؤكد أن المستأجر - واسمه اندرياس، وهو شاب ألماني يعمل مهندس معماري - يصم أذنانها بجميع أنواع الشكاوي التي لا معنى لها، والتي كان قد أصم أذان هوفمستر بها يضع مرات في الشارع.. نعم في الشارع! فلم يعد لدى المستأجرين لباقة في التعامل.. إذ لم يتلقوا أي تعليم في الأخلاق.. فقد كان يلاحظ.. بل يرى أن الناس قد أصبحوا مغرورين وأن الغطرسة قد امتزجت بالهواء كما يمتزج الدخان المتصاعد من حرق الدهون.. كان يشعر بهذه الرائحة عند خروجه من المنزل في المساء لكي يتنزه قليلا في الفوندل بارك.. كان يشعر بأن مزيجا من الكسل والغرور يستولي على أهل هذه المدينة.. هذا المزيج جعل هوفمستر يشعر بالخوف.. مما جعله ينحزل عن الناس، فقد أدرك قبل فوات الأوان أن هذا الغرور هو العدو الأول لعقيدته العميقة وهي: يستحق الأطفال أن يحصلوا على أفضل من ذلك.

وعلى الرغم من أن أحدا لا يستطيع أن يراه فقد جعل يهز رأسه وهو يخاطب نفسه: ليس من اللياقة مضايقة فتاة في الخامسة عشر بشأن عيوب شقة مفروشة.

أخذ هوفمستر يدق جرس الباب في الطابق العلوي.. بشدة ولكن ليس لوقت طويل.. يجب على المرء كمؤجر أن يظل يتعامل بآداب.. ربما على طلاء هذا الباب مرة أخرى.. ربما في السنة المقبلة.. ولكن ليس الآن، فعليه الآن أن يدخر.. وإلا لن يحصل على استقلاله المادي أبدا كما يتمنى.

من المحتمل أن ابني قد فضلت أن تذهب للتسوق سريعا وتعود، ولكن ألا تعرف أن عليها أن تحضر له الإيجار أولا؟ لقد كانت دائما دقيقة في فعل هذه الطقوس.. كانت تعلم كم كانت هذه الطقوس مهمة.. كانت تعلم كم كانت مهمة لأبيها.

لم يفتح أحد.. واصل دق الجرس ولكن الباب لم يفتح..
من الواضح أن سيادة المهندس ليس في المنزل أو ربما يخط في
نوم عميق.

أخذ قلقى هوفمستر يتزايد، فسحب ميدالية المفاتيح من
جيب البنطلون وجعل يبحث عن مفتاح الشقة العليا.
كان غالبا ما يدخل سرا إلى شقة المستأجر.. مرة كل
أسبوع أثناء النهار.. ليس للتجسس حقا، ولكن لكي يعاين
على الحقيقة ما يحدث هناك.. مع من كان يتعامل المستأجر..
كان يقوم بالتفتيش في خزانة الملابس والأدراج، ولكنه نادرا ما
كان يجد موادا تجرمة.. وما كان يجده على أقصى تقدير هو
بعض المجلات الإباحية.. أو تذكير من إحدى وكالات جمع
الديون.. أو خطابات غرام.. كان يتصفحها كلها بطريقة
عابرة.. وربما يظهره ذلك أنه ليس حريصا كفاية.. ولكنه قد
تعلم شيئا واحدا من الزمن: إذا كان لدى الناس أسرارا فإنهم
لا يحتفظون بها في إقامتهم المؤقتة.

دق الجرس مرة أخرى.. توخيا للحذر.. لمدة أطول، ولكن
ليس أكثر من اللازم، فهذا غير لائق.. ولكن لا حياة لمن
تنادي.

فتح الباب بحذر.. كان يشبه اللصوص إلى حد ما.. يخالجه
شعور غامض بالذنب.. ثم صعد الدرج الواقف.. كان يصعد
بطء ويلاحظ أنه يجد صعوبة في التنفس.

لأول مرة في حياته يدرك أنه قد أصبح عجوزا، فوهم
الشباب يصل إلى نهايته الحتمية عند الإحساس بالعجز
البدني.. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الصعوبة في التنفس
عجز بدني.

وبينما هو يلهث.. سمع صوت موسيقى.. كانت موسيقى
حديثه ولكن تعزف بالكمان.. إذن فقد كان أحدهم في المنزل
أو ربما نسي المهندس إطفاء الموسيقى.. وترك النور مضاء.. ولا
غربة فقد كانوا يتركون النوافذ مفتوحة في الشتاء بينما
المدفأة تشتعل، ولا تمر سنة إلا ويصبحون أكثر انحطاطا
ووقاحة.. بل لم يكن انحطاطا أكثر من كونه لا مبالاة من
بعض المنحرفين، فكان هوفمستر يعتبر هذه اللامبالاة إهانة
شخصية.. فهو لا يستطيع تحمل التكلفة، ولا يرغب في الأساس
أن يتحملها.

أصبح التنفس أصعب لدرجة أنه وقف ليستريح في
منتصف الدرج.. وجعل يتساءل إن كان كل شيء في وظائف

قلبه على مايرام؟ أو ربما ينبغي عليه زيارة الطبيب فيقوم بعمل رسم للقلب - أو كما يطلق عليها بأي حال؟ أو على الأقل يقوم بعمل فحص كامل على صحته.. فقد كان يدخل السيجار منذ زمن طويل، ولكنه توقف عنها عندما كانت زوجته حاملا بابي.. ولكن المشكلة لم تكن في السيجار أيضا.. لقد كانت المشكلة شيء مختلف تماما.. مرض آخر غير معروف كان ما سبب له ضيق التنفس.

كان كلما اقترب كلما علا صوت الموسيقى.. أصبح النص مفهوما ولكنه لم ينصت له.. إن البضع درجات هذه لم تكلفه أبدا هذا الجهد الكثير في صعودها، لدرجة أن يحضره الموت هكذا ويضيق تنفسه.. ولكن ما أعجبها هذه الحياة.. إنها أشبه بمزحة.

ثم دخل هوفمستر الغرفة التي كان يستخدمها كغرفة معيشة.. كان بابها مفتوحا فلم يكن بحاجة إلى طرق الباب....

كان المستأجر يقف خلف ابيي يسقط بنظونه حتي كعوب رجليه.. أما ابنة هوفمستر فكانت تتمدد نصف عارية على مائدة الطعام.. التي قام بشرائها هو ذات مرة، لأنه وجدها مناسبة عمليا لشقة مفروشة.

كانت ابنته رافعة تنورتها، وتبدو كالغزال الجريح.. تلك كانت هي الكلمة التي جعل صداها يتردد في رأس هوفمستر.. جريح.. جريح.

ذكره المشهد ببعض الفقرات التليفزيونية القذرة التي تعرض بعد منتصف الليل.. ثم تليها هذه الموسيقى.. اختفت فجأة كل همومه بشأن ضيق التنفس.. بل نسي-

ما كان يفكر فيه أثناء صعوده الدرج.. نسي.. كل ذلك خلال ثانية واحدة.

وللحظة ظل واقفا ومحدقا بذهول في ابيي.. ثم تقدم خطوة إلى الأمام، وهو لا يزال يلهث قليلا، فأمسك بيده اليسرى ابجورة صغيرة كانت زوجته قد اشترتها لشقتهم الخاصة ولكن تبين لها أنها ليست مناسبة. فقد كانت من عاداتها أن تضع الأشياء المعيبة ومرشحات الغبار في الشقة العليا.

كان يسافح ابنته من الخلف كأنها حيوان.. لم يكن يتوقع أن يرى هذا المنظر إلا في اصطبل إحدى المزارع.. وليس في أفضل مكان في شارع فأن ايجينس ترات.

تحول شهيق هوفمستر إلى فحيح.. أمسك الأ بجورة بقوة.. ولكنه لم يستطع أن يبدي حراكا.. وكان هذا الحيوان يسافحه هو.. بقسوة وشدة.. وكان الهزات كانت موجهة إليه وليس إلى ابنته.. أو كأنه يتعمد الحط من كرامته.. من كرامة المؤجر.. صاحب المنزل، فأراد إذلاله في عقر داره.. أخذ جسده كله يؤلمه.. جسده كله يناضل حتى يمكنه التنفس.

شعر أنه سيتمزق، وكلما أطل النظر كلما قوي لديه هذا الإحساس وعرف حق المعرفة أن المستأجر هو الذي يضاجعها بقسوة وبربرية وبكل احتقار.

أخيرا شعرا بوجوده.. أو المستأجر على الأقل.. إذ حانت منه التفاتة فرأى مالك المنزل الذي يقطنه، فترك ايبي في الحال ويديه تنزلق من على خصرها.

ثم قام المهندس بفعل شيء أثار مقت هوفمستر للغاية: ابتسم ابتسامة عريضة ومازال بنطلون الجاكييت - بنطلون رمادي - يتدلى بين ركبتيه.. ابتسم وكان الأمر مزحة.. نعم هذا مؤسف ولكنه لقاء كوميدي على كل حال.. لم يكن يظهر من معالم وجهه غير هذه الابتسامة المرححة، وربما كان الوضع محرجا بعض الشيء.. ولكنه على الحقيقة كان ميت من الضحك.. هذا ما أوحى به منظره.. المرح.. المرح المطلق.

لم يخجل أو يخاف.. لم يبدر منه غير ابتسامته الشامتة. أمسك هوفمستر الأ بجورة بقوة أكثر وتقدم بضع خطوات ناحية المستأجر مباشرة، فنظر في عينيه ثم ضربه بينما تنهض ايبي من فوق الطاولة، وكأنها لم تلاحظ إلا الآن أن الشبق قد وصل إلى نهايته عندما ضرب أبوها المذنب بالأبجورة على أم رأسه بقسوة.. فلم يرجع هوفمستر إلى وعيه إلا بعد أن سمع صوت تحطم الزجاج.. وجينئذ شعر بصعوبة في الرؤية كأنه كان جالسا ثم قام فجأة.. فأشعره ذلك بالدوار ولكنه لم يسقط على الأرض.. ففعل المستأجر ذلك بدلا منه...

سقط المستأجر على الأرض دون أن يصدر ضجة كثيرة.. ربما يكمن السبب في صوت الموسيقى المرتفع الذي كان يطغى على كل صوت آخر.. كيف يمكن لأحد أن يشغل الموسيقى بمثل هذا الصوت المرتفع؟ وكأنه بلا جيران.. أم تعاني الأذنين بما يكفي من ضوضاء الطريق؟

وبينما كان المستأجر لا يزال ملقى على الأرض وهو فمستر لا يزال ممسكا الأبجورة في يده سمع ابنته تصرخ: "بابا!"

كانت قطع الزجاج تحيطه من كل ناحية، فقد تحولت المظلة الصغيرة المستديرة للأبجورة إلى حطام.. وهو يقف بين هذا الحطام ممسكا بساق الأبجورة.. إذ لم يتبق منها غيره، فظل مذهولا للحظة لم يعرف أين كان أو لماذا هو هنا، أو ماذا يريد من هذا المكان مرة أخرى.. في هذه اللحظة كان عليه أن يتجلد ويتروى في التفكير.

كانت إبي تصرخ مثل الأطفال، كأن نوبة هيسترية قد انتابتها.. وأخذت تروح وتجيء في أرجاء الغرفة.. وهي تغطي ثدييها، وتقوم بإنزال تنورتها، فلم تنساها.. وعندئذ ذهبت عنها هذه النوبة الهيسترية.. وجعلت تسحب التنورة أكثر إلى الأسفل.. وتبالغ في ذلك.. متشبثة بها كأنها سترة إنقاذ.

كان مجرد سماع صراخها يجعل المرء يعتقد أن هذه حالة لدى الطبيب النفساني جاءت من مستشفى المجانين.. أو تجعل السامع لصراخها يعتقد أن الجنون قد طغى عليها وتغاني تحت قهره.

كانت ملامح النضج تدعو على وجهها أكثر من جسمها.. ربما بسبب المكياج، فقد كانت تعيش دائما وبشكل مقنع كأنها بالغة، وبسبب ذلك أصبحت ملامحها حقيقة تبدو بعض الشيء بالغة.. كان ذلك يظهر في وجهها وعينيها وطريقة نظرها.

ولكن جسمها كان ينبئ غير ذلك تماما.. كان ذراعاها نحيفين جدا

كذراعي هيكل عظمي.. أو كذراعي طفل.. ومؤخرتها جلد على عظم فقط.. ولما يظهر عليها حتى الآن أمارات البلوغ.. وإن كان جسدها ينبئ عن شيء فإنه ينبئ بقصة صبية.. ولكن كل هذا ليس مبررا للصراخ هكذا.. ليس مبررا لهذه الهستيريا.

بدا حذائها الرياضي ظريفا ومتناسبا مع تنورتها.. كانت علامته التجارية تحظى بشعبية كبيرة في الوقت الراهن.. إلا أن هوفمستر لم يستطع أن يتعرف على اسمها أبدا. كان ينظر في كل شيء ويتحقق من كل شيء، بينما ابنته تركض حائرة في غرفة الجلوس، وكأنها لم تدرك ماذا حدث

للتو معها هنا.. وكيف كانت تبدو أيضا.. كانت كأنها حيوان غلب عليه الذعر عند سماعه لعاصفة صيف رعدية.
لم يستطع الأب أن ينطق ببنت شفة.. لم يستطع إلا أن يقف وبقية الأيجورة في يده.

وعلى الطاولة رأى مطروفا.. أوه، إنه الإيجار الذي جاءت إيبى من أجله.. كان المؤجر قد جهز المطروف بالفعل ووضعه على الطاولة.. إلا أن بعض التعقيدات قد حدثت

فأصبح ولا يزال طريح الأرض.. تغمره البراءة والطهر.
أعادت رؤية المال حيويته إليه، وكان النقود كانت بمثابة دش بارد.. كما حرره التفكير في الإيجار من شلله الذي كان يقيده.

بدأ المستأجر يعود إلى وعيه شيئا فشيئا.. ثم بدأ في التحرك، فاعتدل قائما وهو يستند على الطاولة بينما الدم يقطر من جرح على جبينه في ناحية اليسار، وبنطلونه لا يزال ساقطا تحت ركبتيه.

ولحسن الحظ فقد اختفت ابتسامته من وجهه.
كان هوفمستر يعرف الآن لماذا كان هنا.. لقد جاء هنا بحثا عن إيبى.. حبيبة قلبه.. جاء هنا لأن إيبى لم ترجع إلى البيت، فقد كان جالسا يستمع لإيجار ويقرأ الجريدة المسائية حتى مل من الإنتظار وبلغ منه الشك مبلغه.

وضع الأيجورة، أو ما تبقى منها على كل حال.. ثم تنحنج. نظر المستأجر إليه حائرا.. كأنه هو الآخر لا يفهم ماذا كان يحدث

هنا.. وكأن جميعهم لا يفهمون ماذا كان يحدث هنا بالضبط.

ولكن هوفمستر شعر بالإذلال مرة أخرى.. عندما تذكر كيف كان المستأجر يقف خلف إيبى في فرحة ظافرة وشهوة مولعة.. هكذا كان المستأجر.. حيوان ظافر.. لن ينسى.. هذا النصر الساحق بسهولة.. لن ينسى نجاحه كرجل.. فهكذا هو الجنس في نظر الرجال.. إذا مارس الرجل الجنس مع امرأة اعتبر ذلك نصرا ونجاحا.. إنها ملكي.. لقد استحوذت عليها وانتفعت بها واستخدمتها.

وبسبب هذه التصورات لم يعرف هوفمستر مرة أخرى ماذا كان يريد أن يقول، ونسي ما كان عقد العزم على قوله قبل قليل.

صرخ عاليا:

- اطفئ هذه الموسيقى.
ثم شعر أنه لا يريد أن يتحدث.. لا: بل يريد أن يصرخ..
راوده شعور بأنه يستطيع أن يزار بصوت أعلى من صوت
الموسيقى.. فيشوش على كل شيء وكل شخص.
تراجع المهندس الشاب، ولم يدرك وضعه المخزي إلا عندما
حاول الجري.. فمن المخرج حقا الوقوف أمام المؤجر بينما
يسقط بنطلون الجاكيت والشورت الداخلي تحت الركبة.
سحب البنطلون إلى الأعلى بحركة سريعة وغير ملائمة،
وعلى جبهته بقعة كبيرة يسيل منها الدم، فلم يكن الدم قد
تخثر بعد.. كان لا يزال ينزف ويسيل، فلم يبد اهتماما بهذا،
ولكن ما راعه أكثر هو أنه كان عاريا.. كان يشعر بالخزي من
كونه عاريا.

نظر هوفمستر فوجد أن المهندس يرتدي بوكثر، وقد كان
يكره البوكثرات.. ثم راعه شيء آخر.. لم يكن الرجل يستعمل
واقى ذكري.

استحوذ الإشمزاز على هوفمستر.. لم يكن يحبه من
البداية.. نعم.. كان يبدو ودودا.. ولكنه ذو وجهين، وخنوع -
وإن اقتضت الظروف - يصبح شخصا معقدا.. ولو لم تكن
ابنته موجودة معهم.. لقام في الحال بنشب مخالفه في
حنجرته حتى يخرج روحه.. وكأنه يخنق هرة صغيرة.. بمجرد
لمح البصر.. لن يحتاج الأمر سوى الضغط بشدة مع التركيز
لمدة لحظة، فتخرج الروح حينها.

هذب المعماري من هندامه قليلا - ولكن قميصه ظل
مفتوح حتى

السرة - وعندما أصبح بعيدا عن متناول يد هوفمستر ذهب
إلى مشغل الموسيقى فأطفأه.

فقال هوفمستر: اللعنة! أخيرا.

رطب شفتيه بلسانه، وأشار إلى المستأجر ولكن الأخير لم
يفهم ماذا يقصد، فقال هوفمستر: ازرر.. القميص، ازرره،
فيا مكاني رؤية كل شيء، ولا أريد ذلك، فقد رأيت حقا ما
يكفي.

كانت ابني تقف عند الباب تبكي في صمت مما يجعل
نصفها الأعلى يهتز بطريقة إيقاعية.

عقد المستأجر أزرار قميصه حتى آخر زر.. ثم ضرب
هوفمستر يقبضته اليمنى على الطاولة بشدة.. بلغ من قوتها
أن ألمته، وأخافت المستأجر فتراجع خطوتين إلى الوراء.

بدا لهوفمستر أنه لايد من الصراخ في هذا الموقف.. وأن يأخذ في حسبانته أن يزار بشكل صحيح كحيوان مجروح.. فصرخ في وجه المستأجر:

- أنت تدفع الإيجار لهذه الشقة، وهذا الأثاث.. للغاز والكهرباء.. للإطالة على الفوندل بارك.. تدفع لكي تحظى بامتياز السكن في أفضل منطقة في فان إيجينزترات.. أفضل منطقة في أمستردام.. وكل ذلك مقابل سعر معقول.. بل يمكنني القول بأنه أقل من المعقول.. ولكن ليس مقابل ابنتي. مفهوم؟.. لا يشمل الإيجار ابنتي أيضا. مفهوم؟.

ثم وضع يده على جبهته كأنه في حاجة إلى التفكير فيما يريد أن يقوله، إلا أن كلامه كان قد وصل إلى نهايته.. ولم يعد لديه مايقوله أكثر من ذلك.. كان هذا كل شيء.. بإمكانه الذهاب الآن، فقد قال ما اقتضاه الأمر، وعليه أن يذهب الآن.. حتى يضع حدا لتأزم الوضع.

ولكن المستأجر لم يبقى على صمته كما كان هو فمستر يتوقع. صحيح أنه كان يقف مصابا ويغمره شعور بالذنب، ولكنه نطق بصوت مبحوح قائلاً:

- سوف تعيش حياتك نادما على هذا.. وسترى عواقب ذلك. وضع يده على جبهته فرأى الدم وقد علق بيده، فنظر إليه مذعورا.. كان الذعر طاغيا على الخوف. وبدا أنه لم يشعر بالألم إلا عندما رأى منظر الدم.. لأنه تأوه عندما رآه.. لا.. بل جعل يأن بصوت منخفض.. وهذا سبب آخر.. إنه ابن مدلل.. ولا غرو إذن، فالأبناء المدللين هم الأسوء على الإطلاق.

ثم سمع هو فمستر ابنته تهمس: أندرياس.. ما جعله يجن جنونه.. ايبي تهمس.. ابنته وتنادي المستأجر بأندرياس.. فمن ناحيته لم يكن يعرف للمستأجر اسما.. فمناداة المستأجر بأسمه معناها: إعطاه أفضل وسيلة ليصبح فردا من أفراد الأسرة.. وهو لن يستطيع أن يدع ذلك يحدث.. فالمستأجر إسمه المستأجر.. وبذلك يسد الباب الذي يأتي منه الريح.

أين مكنم الخطأ؟ لماذا لم يكن أكثر حذرا؟ وكيف استطاع أن يسمح لهذا الرجل بالدخول إلى منزله؟ ثم قال المعماري ولهجته تزداد حدة عن ذي قبل:

- سوف أريك.. يمكنك أن تعتمد على ذلك ياسيد هو فمستر، فلن يمر الأمر هكذا بسهولة..

كان لا يزال يحدق في الدم العالق بيديه.. لم يكن دما كثيرا.. ولكن نقطتين أو ثلاثة.. كأنه جرح نفسه وهو يقوم بأعمال الحديقة.

وكرد فعل على ذلك عاود هوفمستر إمساك الأبجورة مرة أخرى.. ولكن ليس لإستعمالها كسلاح، ولكن مثل إبقاء شيء في يدك للإستناد عليه. إذ كيف يمكن لبقايا أبجورة متهالكة أن تكون سلاحا؟

وقد كان هوفمستر ينزف دائما في الماضي عندما كان طفلا.. ولكن هل كان يثور أبدا من أجل ذلك؟ فأجاب هو الآخر بإقتضاب:

- وأنا أيضا.. يمكن **لحضرتك** أيضا أن تعتمد على ذلك، وسوف أريك.. ابنتي ليست شيئا للإيجار، وسعر الإيجار لا يتضمنها!

جعل يصرخ مرة أخرى.. ثم انتزع المظروف من فوق الطاولة وأتجه نحو أبيي، وكانت قد توقفت عن البكاء ووقفت ترتجف بينما تستند على الحائط.

لقد كانت نحيفة جدا.. كانت لا تزال طفلة.. وقد اتضح ذلك الآن عندما أنتهى اللعب، فظهرت رقعة جسمها بوضوح. قال لها: تعالي.

هزت رأسها معترضة.. فقال مرة أخرى: هيا تعالي. صرخت قائلة: سأبقى هنا.

نظر هوفمستر إلى ابنته.. كانت تغطي ثدييها الصغيرين بيديها، فقد كانت بلوزتها ملقاة على الكنبه.. كانت هذه البلوزة هي الأخرى هدية عيد ميلاد.. اختارتها أمها هي وتيرزا معا وقاما بتقديمها لها..

أخذ البلوزة وأعطأها لها قائلا: هيا يا أبيي البسيها ولتأتي معي.

كان المعماري يقف بجانب مشغل الموسيقى، وهو يضغط بظهر يده على جبهته.. ربما كان يخشى أن ينزف حتى الموت. بلغ منه الذهول والإحراج لدرجة أنه لم يستطع أن يذهب إلى الحمام ويلتقط شيئا من صندوق الإسعافات الأولية.. فلم يكن يحتاج أن يضع على جبهته شيئا غير البلاستر.

ارتدت أبيي البلوزة وهي تحول وجهها بعيدا كأنها في حجرة تغيير الملابس في إحدى الصالات الرياضية.. ولكنها لم تكد تكلف نفسها حتى في إغلاق أزرارها.. فلم تكن ترتدي

ستيان.. لأنها لم تكن تجد ذلك مهما.. ذات مساء قالت له: "لماذا أرتدي ستيان وأنا ليس لدي شيء أصلاً؟"
لم يحر هوفمستر جواباً على هذا السؤال البليغ.. ولم تكن زوجته حاضرة معهم في هذا المساء.. لأنها كانت دائماً خارج المنزل، وقد قال لها ذات مرة: لماذا تظلين خارج المنزل دائماً مثل كلبة تطلب التعشير.. ما الذي سيتطرق إليه تفكير ابنتيك؟

ولما انتهت ايبى من لبس البلوزة ولم تعد تنظر إلى الحائط عودت جوابها:

- سأبقى هنا.. مع اندرياس.
كانت قد هدأت، ومن كان هادئاً استطاع أن يتخذ القرار. عندما سمع هوفمستر هذا الاسم ثانية.. أندرياس.. شعر وكأن أحداً ضربه بعصا البوكر.. لم يكن يعرف أي أندرياس ولا يريد أن يعرفه أيضاً.

كانت تبدو شاحبة وبعض الدموع لا تزال على خديها.. وشحوبها هذا كان بسبب سن البلوغ الذي تمر به.. علاوة على صراخها الدائم وصياحها ونواحها.. وكذلك الفتيات الأخريات من نفس عمرها يعانين من ذلك أيضاً.

كانت تنظر إلى المستأجر كأنها جاءت لأخذ الإيجار وهذه أول مرة تراه فيها.. نظرة متيمة ولكن قاسية.. نظرة من كل قلبها وملؤها التحدي.. تملؤها الثقة بالنفس ولكن دون أمل.. لقد جاءت لإحضار المظروف ولكن كان لديها وظيفة أخرى عليها أن تنجزها بنفسها.. وظيفة تعتبرها لعبة.. فقد كان كل شيء في نظرها مجرد لعب.. وذلك يحدث عندما لا يعرف المرء متى عليه أن يتوقف عن اللعب.

لم يتفوه المستأجر بأية كلمة أخرى، فقد كان منهمكاً في تحسس جرحه.. دون أن ينظر للإبنة أو أبيها.. كان ينظر إلى يديه والطاولة والأرضية.. كان مشغولاً بنفسه فقط.
قال هوفمستر:

- ستأتي معي الآن أو يمكنك أن تبقي هنا، ولكن للأبد.
ولم ينتظر جوابها.. فهو يعرفها مسبقاً، وأكثر ما يخشاه هو رد فعلها على تحذيره.. فأمسكها من ذراعها ودفعها أمامه من خلال الباب.. ثم أجبرها على نزول الدرج.

وعلى درج المنزل بدأت مرة أخرى في الصراخ والنحيب والعيول والركل.. نعم كانت تحاول أن تركل والدها.. كانت تحاول أن تفلت من قبضة هوفمستر ولكنها لم تنجح.. ربما لأن محاولتها لم تكن جدية أيضاً.. إذ لم يكن لديها خيار.. كانت تعرف هذا في قرارة نفسها.. أبقى مع أندرياس؟ كيف يمكن هذا؟ كأنها كانت تعرف في أعماقها أن أندرياس أيضاً لا يريد لها من الأصل أن تبقى.

كانت أيضاً تحاول باستماتة أن تعضه وتركله بينما يدفعها أمامه.. ولكنها كانت مهمة انقاذ، وعليه أن يتعامل مع ذلك.. حتى تصبح في الأسفل وحينها ستعود إلى رشد.

ثم دخلاً إلى الشقة.. إلى حجرة الجلوس.. نحو الكنبه حيث تنتظره الجريدة المسائية التي كان يقرأها في هدوء وسلام بينما تتعرض ابنته للإغتصاب على بعد طابقين فقط منه.. وهل يمكن أن يسمى غير ذلك؟.. هو على الأقل يسميه اغتصاباً.

رمت بنفسها على الأريكة ثم كورت نفسها كالقنفذ.. دون أن

تتوقف عن النواح.. تصدره على هيئة تنهدات طويلة وكأنها لن تتوقف عنه إلى الأبد.

كان هوفمستر يحمل في يديه مظروف النقود.. ولكن لا يمكن عدها الآن.. لا مرة ولا مرتين، فقد تم خرق قواعد الطقوس، وأصبح كل شيء مختلفاً تماماً.. وضاع الأمل في الإستقلال المادي.. وتبددت الأحلام المرتبطة بهذا الإستقلال.. وذلك كله بسبب ابنته المتكومة على الأريكة.. كأنها كومة يأس كبيرة، لا يصدر منها إلا النحيب والعيول.

قال لها:

- هدي من روعك.. ابيي هدي من روعك، فليهدئ تماماً.. فقد عدت إلى المنزل.. وكل شيء على ما يرام.. أنت بأمان الآن.

كان يمشي أمام الأريكة ذهاباً وإياباً، ففي هذا الوقت بالذات وفي هذا المكان لن يمكنه أن يتوقف عن الذهاب والإياب.. لقد أسقط من حسابه شيئاً.. فإصابه الفشل لأنه لم يكن يضع هذا الشيء في الاعتبار.. لقد أخطأ، مع أنه يكره الأخطاء.. ثم التفت إلى أبيي وقال: ابيي.. حبيبتي.. كل شيء على ما يرام.

عندئذ توقف التنهد.. نظرت إليه نظرة تشبه تماما نظرتيه إلى المستأجر.. عرف تلك النظرة لأنهما لم يكونا مجرد أب وابنته. ثم قالت: أيها الأحمق.

وضع يده على فمه كأنه يريد العطس.. إلا أنه لم يرد أن يعطس.. بل أخذ يعجن في شفته السفلى.

وبدأ يشعر بصداع غريب يتصاعد في رأسه.. إنها لم تقل له أبدا قبل ذلك أيها الأحمق.. استولت هذه الكلمة على كل تفكيره.. ولم يستطع أن يتعامل معها. وصحيح أنها لم تركله أيضا قبل ذلك، ولكن "أحمق" أسوأ من الركل، ولذلك تجاهل هذه الكلمة وتصرف كأنه لم يسمع أي شيء، فلم يكن يريد أن يستجيب لذلك.. أو بالأحرى لم يكن يعرف كيف سيتعامل مع ذلك. فمن المؤكد أنه يوجد بنات كثيرات يقمن بسب أباءهن بهذه الكلمة، ولكنه لم يسب والده أبدا بهذه الكلمة.. لم يكن ذلك ليرد على ذهنه أصلا.

قال لها باقتضاب: أهدئي ايبي.. أنت في أمان، فقد عدت إلى المنزل.

كان الجواب الوحيد على تحذيره هو أنها قامت وركضت نحو

الباب.. فسبقها هو فمستر إليه.. نعم.. هو كان عجوزا، ولديه مشاكل في التنفس عند صعود الدرج.. ولكنه الآن يواجه مسألة حياة أو موت، وعندما يتعلق الأمر بالبقاء تهون إذا صعوبات التنفس.

وقف أمام الباب وسألها: إلى أين تريدان الذهاب؟
صاحت: إلى الأعلى

- إلى غرفتك؟

كررت كلامها: إلى الأعلى.. إليه.. إلى أندرياس.

- لماذا؟

فقلت مرة أخرى ولكن بصوت أهدأ:

- أريد أن أذهب إليه.. بكل بساطة.. من أجل.... هذا لا يعنيك.. أنا لم أعد طفلة، وبإمكاني أن أفعل ما أريد أو أترك ما أريد. وليس من حقك أن تحدد لي ماذا أفعل.

- بكل بساطة ليست مبررا، وليس من الحكمة وجودك هناك.. فأنت تسكنين هنا.. معي.. مع والديك وأختك.. هنا هو الأفضل لك.

صرخت قائلة:

- ليس من حَقِّكَ أن تَملي عليّ أفعالي.. توقف عن تحديد ما عليّ فعله.. فقط لأنك لا تستطيع أن تمارس سلطتك على أحد غيري.

عائدة الأُم الذي كان يسري في رأسه.. قبل أن يبنى فكرة صحيحة عما كانت تعنيه بكلامها.. رباه.. كلما مرت السنين أصبحت الحقيقة مرة.

- لا أريد أن أحجر عليك أفعالك، وبكل الود أقول لك أنه لا يمكنك الآن أن تذهبي إلى الأعلى.
صرخت:

- مازال السليب هناك.. لذلك أريد أن أذهب للأعلى.

- ما الذي مازال بالأعلى؟

- سليبي، أيها الأحقق.. سليبي.. سليبي.. هل تفهم الآن؟
كانت تصرخ صراخا لم يسمعها تصرخ مثله أبدا.. وربما لن تصرخ مثله أبدا.

جعل الدم يغلي في عروقه.. لم يعجبه الطريقة التي تخاطبه بها ولا التي تنظر إليه بها.. ثم هذه الكلمة الصفيقة "سليب".. إن كلمة "لباس داخلي" هي كلمة سيئة مما فيه الكفاية، ولكن كلمة "سليب" كلمة قذرة.. أزعجته.. وأثارت جنونه.. لأنها قيلت في عقر داره.. ومن الذي تفوه بها؟ إنها ابنته.

أعاده سماعه لكلمة "سليب".. وسماعه لتنهيدات ابنته الكبرى التي يسمعها لأول مرة.. والصداع الذي سيقضي عليه.. إلى ثورة الغضب التي كانت تملكه في الأعلى.. في شقة المستاجر.. كان يتمزق من الغضب بداخله.. شعر بأنه سيقضي عليه.. كل ذلك جعل غضبه يشتد.. وحينها فعل شيء لم يفعله أبدا في حياته.. لم يفعله على الأقل مع ابنته قبل ذلك.. قام بصفع أبيي على وجهها.. كانت صفة مدوية، فهو هكذا إذا ضرب.. لا يستطيع أن يتحكم في ضربه.
تجمدت في مكانها.

لم تصرخ، ولم تبك.. كانت تنظر إليه فقط.. فاقدة القدرة على الكلام.

ظلت صامتة.. مثلما كان تماما.. وكأنه انتهى من عد الإيجار وهي تنتظره أن يعطيها ما يعطيها.. حصتها من الغنيمة.

كانت هذه اللحظة مثل اللحظة التي يصبحان فيها أبا وابنته.. أهم لحظة في تأدية الطقوس.
ولكنه الآن لم يعطيها أي شيء.. إلا تلك الصفحة التي أعطاها إياها.

لم يكن يرى أي أمارات شكر في عينيها.. أو أي بواعث سرور من نصيبها.. أو ما يدل على مؤامرة تفعلها في السر.. بغض النظر عن مهمتها السرية التي تفعلها كل شهر.. لم يكن يرى في عينيها غير الإحتقار المزري له.

وفجأة سمع وقع خطوات على الدرج، فتلفت ليرى زوجته تجري نحوه.. تتبعها تيرزا.. صغيرته تيرزا.
كانتا قادمتان إلى المنزل في هذه الأثناء.. ياله من وقت! ترى كم استغرق من الوقت في الأعلى؟ كم طالت المدة التي كان فيها في الأعلى؟ ليس لديه أي فكرة.. ربما بضع دقائق لا أكثر.

قالت زوجته: ما الذي يحدث هنا؟ ما هذا الضجيج؟ ولماذا تبدو هكذا؟

فكر هوفمستر: كيف من المفترض أن أبدو؟ أدخل القميص في البنطلون.. ومسح العرق عن جبهته.. فأصبح يبدو كما كان دائماً.

ألقي هوفمستر نظرة على تيرزا.. كان في يدها مصاصة حمراء منهكة في مصها. كان اسم صديقتها إيمي.. لم ترجع تيرزا من عندها مرة إلا وفي فمها مصاصة.. وقد كان هوفمستر يكره المصاصات.. فالمصاصات مضرّة للأسنان.. ومضرّة للمعدة، ومضرّة للأطفال.

سألته زوجته مرة أخرى: ما الذي يحدث هنا يا يورجن؟ قال لها أخيراً.. بعد أن أخذ يتلفت حوله عدة مرات.. كأنه يتأكد إن كان في شفته أم لا: انكسرت الأبجورة.

- أية أبجورة؟

- الأبجورة التي في الطابق العلوي.. التي كنت قد اشتريتها لنا من قبل.

- هل هذه هي المشكلة؟

تنهد وهو ينقل المظروف من يد إلى أخرى.

- المشكلة؟ .. كان يحاول أن يتخيل المشكلة في ذهنه حتى يستطيع أن يصيغها بأفضل صورة.. كان يريد أن يصيغها في بضع كلمات "لا.. ليست هذه هي المشكلة.

فتحولت الزوجة إلى ابنتها وقالت:
- ايبي.. ماذا يحدث هنا؟ أخبريني ما المشكلة؟
صمتت ايبي ورمقت والدها بنظرة تجمع بين الإحتقار
والأسى والغضب.. كان يرى كل ذلك في نظرتها.. كانت ابنته
الكبرى تكن له كل الإحتقار...
رجع بيصره إلى زوجته.. ثم قال بصوت منخفض: المشكلة
هي المستأجر.. لا بد أن يخلي المستأجر السكن.. إنه يدمرنا.
تقدمت ايبي خطوة إلى الأمام.. ليس ناحية أمها.. ولكن
نحو والدها.. ثم قالت:

- لا.. ليس أندرياس هو المشكلة.. أنت هو المشكلة يا
بابا، ومنذ زمن طويل جدا.
رفع يده بطريقة لا شعورية.. لم يضرب طفلته.. نعم هو
يستطيع

الضرب ولكن ليس طفلته.. وما حدث للتو قبل حوالي دقيقة
كان شيئاً استثنائياً.. كانت هفوة.
ولكنه أمسك لجام نفسه هذه المرة.. فخفض يده، وأصبح
كل شيء مرة أخرى تحت سيطرته.. لا بد وأن يفعل ذلك وإلا
باء بالفشل كل شيء يفعل.. الأعمال الحالية.. تشذيب
الحديقة في أيام الحر.. قطع الأشجار.. وتحصيل الإيجار.. بل
وحياته نفسها.. ولذلك كان عليه أن يقف وهو يخفض كل
شيء كان سيرفعه، حتى يظل مسيطراً على نفسه.
لكن ايبي قالت:

- افعلها.. ولكنك لن تستطيع أن تنتزع مني بالضرب
حبي لأندرياس.

هذا الاسم ثانية.. هذا الاسم القذر الملعون!
نظر إلى زوجته دون أن تبادله النظر.. كان يبدو على
وجهها أنها لم تفهم الأمر حتى الآن.. ولا حتى أدنى فكرة عنه.
"حبي لأندرياس" لو كانت الظروف مختلفة لظل يضحك
على ذلك ضحكا مفرطاً دون توقف.. ولكنه سيشعر ببعض
القلق أيضاً وهو يقول: ما الذي تعرفه ابنته عن الحب؟ هذه
الكلمة الكبيرة.. كوني حذرة بشأن هذا.

بدت زوجته غاضبة.. كأنه غريب.. كأنه صبي قد هاجم
ابنتها في الشارع.. وهي تريد أن تكتشف ما حدث بالضبط
قبل أن تصدر حكماً.. فسألت:

- هل بإمكان أحد أن يوضح لي الآن ما الذي يحدث هنا؟

ذهب إلى المطبخ دون أن يرد عليها بأدنى جواب.. أدخل المظروف في جيب البنطلون ثم غسل يديه.. مرة ثم أتبعها بأخرى.. ثم أخيراً وجهه.. على أمل أن يطرد بذلك الصداق الذي يسري في رأسه. ثم أراد أن يجفف نفسه فلم يجد منشفة.. فاستخدم قماشة الأطباق.

وعندما رجع إلى الغرفة كان ثلاثهن يجلسن على الكنبه، الزوجة وابنتاه.. يحدقن إليه في صمت.

كان الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت اللعيق الذي تصدره تيرزا وهي ترضع في مصاصتها.. صوت يصم الأذان.

كان قد طوى الصحيفة ووضعتها على الطاولة في غرفة المعيشة ولكنها انزلقت ووقعت على الأرض.

لماذا لا يقلن أي شيء؟ ماذا يردن منه؟ كيف عليه أن يتصرف؟ هل يكتفي بالنظر فقط أو يغادر أفلا حيث كان؟.. لم يدري.. فتح زرا آخر من قميصه.. كأن ضيق الملابس هو الذي كان يسبب له ضيق التنفس. قطع الصمت قائلاً:

- تيرزا.. أخرجي المصاصة من فمك.. المصاصات تضر بصحة الأطفال.

لم تعره أي انتباه.. ولم تدعمه امها حتى.. بل قالت له:

- دع الطفلة في حالها.. لقد سببت هذه الليلة ما يكفي. لم يعد تنفسه يزداد صعوبة، ولكنه شعر بتيسر في جميع أجزاء جسده.. ربما عليه أن يخضع لبعض جلسات العلاج الطبيعي.. أو يكثر من لعب التنس، فقد كان ذلك جد مؤلماً.. جسمه كله يؤلمه.

- سببت؟ ماذا سببت؟ عما تتحدثين؟ هل تعرفين حتى ماذا حدث للتو في الأعلى؟ هل تدركين حتى ما الذي يدور في عقري دارك؟

أجابته بصوت منخفض:

- تأجير الطابق كان فكرتك.. وبالنسبة لي لسنا في حاجة إلى ذلك.

أصيب فم هوفمستر بالشلل عن الكلام.. كأنه تلقى حقنة تخدير عند طبيب الأسنان ومازالت آثار المخدر تعوقه عن الكلام.

صاح قائلاً: لسنا في حاجة إلى ذلك؟ ولكن... كيف كنا سنعيش هنا إذا؟ لم تكن ضرورة! كان ذلك من أجلكن.. من

أجلكن فعلت هذا.. من أجل مستقبلكن. - ويا تيرزا، أخرجني المصاصة من فمك.

ونظر إلى زوجته وابنتيه، ولكن من الواضح أنهن لم يدركن ماذا كان يقول.. فغمغم: لسنا في حاجة إلى ذلك.. لسنا في حاجة إلى ذلك!.. جعل يهز رأسه مستغرباً من هذا الجهل المركب.

ولكن زوجته قالت:

- يورجن.. ايبي فتاة كبيرة.. وقد أصبحت امرأة.. ولا يمكنك أن تعبت مع أصدقائها.

صاح هوفمستر: ولكن هذا ليس صديقها.. إنه المستأجر.. هلا تفهمن؟ هل لا زلتم لا تفهمون أي شيء؟.. علاوة على ذلك هي ليست امرأة.. هي حتي ليست بالغة.. إنها طفلة.. وليست إلا طفلة.. لقد كان خطأي.. ليتني لم أرسلها أبداً إلى الأعلى من أجل الإيجار.

انتهى من كلامه ونظر إلى أسرته ليجث عن علامة قبول، ولكنه لم يقع على أي شيء من هذا القبيل، فجعل يتساءل: ربما كان يتحدث لغة أخرى.. أو جاء من أرض أخرى.. أو شخص غريب عن باقي الأسرة.. كأنه جسم دخيل.. أو بقايا إنسان مستنسخ.

لم يبق له إلا حقيقة أنه خصب زوجته مرتين.. ولكن هذه الحقيقة ليس لها قيمة.. كالزائدة الدودية والحبـل السري.. ولكن المال هو الشيء الوحيد الذي يعطيه قيمة.

قالت ايبي:

- أنت لست طبيعياً حقاً.. هل تظن أنني الوحيدة في الفصل التي ترافق صديقاً بالغاً؟

نظر إلى زوجته، ولكن بدا أن ذلك مألوفاً لها بصورة يومية.. أو أنها اعترافات تافهة، كقطرات المياه على زجاج السيارة في الشتاء.. وكل ما يفاجئه يبدو لها مألوفاً.. وما يستنكره هو تجده هي طبيعياً ولا بأس به.. وهو (هوفمستر) من الطراز القديم.. رجعي.. وهو في الواقع بقايا إنسان لا نفع منه كان يعيش في زمن آخر.

ثم قال هوفمستر بصوت يملؤه اليأس:

- ولكن هذا ليس صديقك.. إنه المستأجر.. هذا لا يمكن أن يكون صديقك.. إنه مستأجر عندنا.

قالت تيرزا: بابا

نظر إليها.. كان جسمها صغيرا بالنسبة لعمرها.. كانت هي الأصغر حجما في الفصل، ولكن طبيب الأطفال طمأنه فقال: سوف يحدث لها طفرة في النمو.. وليس عليه أن يقلق بشأن ذلك.

نأدته مرة أخرى: بابا

كان على وعي بأنه يقف أمام أسرته كأنه يقف أمام القضاء في المحكمة.. أجابها: نعم.. ثم قال: أخرجني المصاصة حالا من فمك.. إنها حتى ليست لذيذة، وكلها مواد صناعية.. يوجد حلوى غيرها سوف تجدينها حلوة المذاق.

- أنا أيضا لدي صديق من فصل السيدة ميفروف تيمرسما.

كان هوفمستر يتصبب عرقا من كل مكان.. عرق على يده.. عرق على رقبته.. عرق على جبينه جعل يمسحه.. ربما يرجع هذا إلى صعوبة التنفس أو الشعور بالضيق الذي يخالج صدره. أو بسبب التشنجات في ذراعيه وساقيه.. أصبحت المشكلة تسري في جميع أجزاء جسده.. كان مثل أداة لم تعد تعمل ويجب التخلص منها عندما يوجد البديل عنها.. كل ذلك بسبب الشيخوخة، وقد بدأت شيخوخته اليوم.. هناك على الدرج.

أجابها: هذا جميل.. سوف تحكي لنا اليوم أثناء الطعام عن ذلك.. عن ميفروف تيمرسما.

- ليس عن ميفروف تيمرسما.. بل عن صديقي.

- نعم هذا ما أقصده.. حبيبتي. هذا ما أعنيه بالضبط.. عن صديقك.

ثم ساد الصمت، وسرح هوفمستر بأفكاره لبرهة، فتمنى أن تعود الأمور إلى نصابها مرة أخرى.. وود لو يتسامرون اليوم في المساء عن ميفروف تيمرسما وعن صديق تيرزا.. كما يتسامرون كل ليلة وهم ملتفون حول مائدة الطعام.. وربما يتخلل ذلك بعض الصمت.. أو غالبا ما تنظر ابني بشذر، ولكن ذلك يرجع إلي أنها تمر بمرحلة البلوغ! سوف يجلسون على المائدة.. وهو أيضا سيكون معهم.. فهم أسرته.. وأتباعه.. إنه واحد من هؤلاء الناس، وسوف يكون على وعي بذلك عندما تقص تيرزا قصتها مع ميفروف تيمرسما أو عن صديقها وهم ملتفون حول الطعام.

كان علي وشك أن يقتنع أن كل شيء عاد إلى مجراه الطبيعي، وأن الأمور تجري على طبيعتها.. حتى قطعت عليه زوجته تفكيره فقالت: وكيف تنوي إصلاح ذلك؟
اعتدل في جلسته.. فقد كان من عادته دائما أن يجلس منحنيا إذا كان مستغرقا في التفكير أو هائما في أحلام اليقظة.

- إصلاح؟ عما تتحدثين؟

وتيرزا تساندها فتقول بصوتها الجهوري الجميل:

- نعم يا بابا.. كيف ستصلح ذلك الآن؟

عاود الضغط على شفته السفلى، فقد شعر بأنه محاصر

في عقر

ذآره!

ثم قال لها.. وكأنها هي الوحيدة التي وجهت إليه

السؤال:

- ولكن يا تيرزا أنا لست مضطر لأن أصلح أي شيء.. بل المستأجر هو من عليه محاولة إصلاح ما أفسده.. إنه إنسان شرير وقذر.. مهندس معماري قذر.. مستأجر قذر.. لقد بلغت به القذارة إلى حد أنه لا يستطيع إصلاح شيء أبدا.. سوف ألقيه خارج المنزل.

عندئذ صرخت إيبى:

- إذن سأذهب أنا أيضا.. إذن سأذهب الآن.. إذن سأحزم

أشياءى.. وسأذهب من هذا المنزل هذا المساء.

ثم قامت وذهبت نحو "تراييزة الهدايا"

سألته زوجته.. ولم تعد الآن تتكلم بهدوء أو برزانة:

- ألا تري ما سببته؟ ألا ترى؟ هلا يكون لديك ولو أدنى

فهم لإبنتك أنت الآخر؟

- أنا أفهم ابنتي جيدا، وقد رأيت أنها تعرضت للتحرش..

لا.. بل تعرضت للإغتصاب، مما يضطرننا أن نذهب إلى

الطبيب.. وإلى الشرطة.. وما أظنه أيضا: أنها من المحتمل أن

تكون حبلى.

صرخت إيبى:

- لا! قولي له أن يتوقف.. قولي له أن يتوقف عن ذلك.

ثم أخذت الساعة التي قد تلقتها هدية في عيد ميلادها،

فأمسكتها في يدها.

- عما أتوقف؟ عن أي شيء أتوقف يا ابيي؟ هل تصدرين القوانين في منزلي؟ هل تريدين أن تحددي ما يجوز لي وما لا يجوز؟
صرخت ابيي:

- أنا لست حبلى.. أنا أتناول حبوب منع الحمل أيها الممغل.

ثم رمت بالساعة على الأرضية وأخذت تدوس عليها.. كأنها تدوس على عنكبوت كبير لكي تقتله.. وجعلت تدوس حتى مات الحيوان. ثم صرخت:

- ولم أعد أريد هذه أيضا.. لا أريد أي شيء يأتي منك.. لا أريد أي شيء مطلقا.

مسح هوفمستر أنفه على الرغم من عدم وجود أي شيء على

أنفه يحتاج المسح.. إنه عجوز جدا.. لقد بدأ في سن متأخرة جدا مع الأطفال.. وقد كان يعيش في شبابه كشاعر تعبيري وفي نفس الوقت يتصرف في منزله كطفل أو كحيوان أليف.. لذلك لم يكن يحبذ فكرة إتجاب الأطفال.
سأل بهدوء:

- لماذا لا أعرف أي شيء بخصوص هذا الشأن؟ لماذا لا يخبرني أحد بأي شيء؟ لماذا أنا دائما آخر من يعلم بما يحدث؟
قالت زوجته:

- لأنك لا تسأل عن شيء أبدا.. أنت لا تسأل أبدا.. هل أنت حقا هنا؟ هل لا زلت تعيش معنا أصلا؟

فكر في نفسه.. هكذا إذن.. أنا لا أسأل عن شيء أبدا.. ولكن كيف بإمكان المرء أن يفعل ذلك؟ كيف يسأل عن أشياء محددة؟ ومتى يسأل؟ عند أكل الحلو بعد الطعام؟ أم بعد ظهر يوم أحد مطير؟
أجابها وهو لا يزال محتفظا بهدوئه:

- أنت آخر من يتكلم عن هذا.. تقولين هذا وأنت من يجري خارج المنزل كل مساء تقريبا كالكلبة التي تطلب العشر.. بينما أنا علي أن أنهي كل شيء.. ولكنني أفعل ذلك عن طيب خاطر.. فلا تسيئي فهمي.. أنا من يذهب لحضور مجالس الأباء.. أنا من يبقى في البيت من أجل الأطفال.. لأنك لا تكونين هنا أبدا.. فأنت قنائة ولا تحتاجين أن تبقي في

المنزل. نعم يا عزيزاتي.. أمكما فنانة لا يقبل أحد على شراء فنها.. وبينى وبينكما: أنتما فوق الإحتمال.. ولكنها لا تأبه لذلك وتواصل الرسم - ثم تزداد حدة صوته-: ثم تأتي وتلومني أنني لا أعرف أن ابنتي الكبرى تتناول حبوب منع الحمل.. من أين لي أن أعرف بذلك؟ هل علي أن أفتش طوال الأربعة أسابيع في الحمام وأنظر إذا ما كان أحد يخفي حبوب تحديد النسل في أي مكان خلف صندوق الإسعافات الأولية.. أو أسأل كل مساء على الطعام: حسنا يا طفلتي العزيزتين.. من منكما تتناول حبوب منع الحمل؟ ليس عليها سوى رفع يديها عاليا.. من لديها مرض تناسلي.. من منكما نكحت اليوم في مؤخرتها.. في الفناء المدرسي؟ فلترفع يديها عاليا مرة أخرى.. يا عزيزتي.. هل تعني الآية ذلك؟ إذا كانت تعني ذلك فسأبدأ في قول ذلك من الآن.. لم أكن أعرف فقط أن الأمور تسير بهذا الشكل.. لم يكن لدي أدنى فكرة أنكن تنتظرن مني فعل ذلك.

ظلت ابنتي واقفة أمام البوفيه.. اتجهت زوجته نحوها وانحنت ترفع ما تبقى من حطام الساعة، وأخذت تحقق فيها كأنها تريد أن ترى إن كان بقي منها شيء فيمكن إصلاحها.

كانت تيرزا تنظر إليهم جميعا بعينيها البنيتين الكبيرتين.. بفضول يصاحبه الحماس.. كانت تنظر إليهم وكأنها تفهم كل شيء.

لم تلق إحداهن بالا لخطبته العنيفة المسهية.. كن يحدقن إليه بذهول كأنه كائن من الفضاء الخارجي.. لم يكن مدهولات بسبب الخوف، ولكن بداعي الفضول والإستغراب.. ثم تصرفن حياله كأنه على الحقيقة كائن فضائي.. فحافظن على المسافة بينه وبينهن.. لم يقتربن منه.. كأن هذا هو الحل الذي لا مفر منه عندهن إذا ما قابلن كائنا فضائيا.

وبعد وقفة طويلة قال هوفمستر:

- أنا بطبعي متحفظ.. ولذلك لا أسأل عن أشياء بعينها إنطلاقا من تحفظي.

تقدمت زوجته بضع خطوات نحوه وقالت:

- يورجن.. لا يتعلق الأمر بذلك.. إن كنت متحفظا أم لا.. لن يمكننا أن نواصل هكذا.. وهذا الحديث مهم الآن.. وليس

ما نتحدث فيه هو شأنك أنت فقط.. بل من شأني أيضا..
ومن شأن ايبي.. ومن شأن تيرزا.

أراد أن يغادر حجرة الجلوس فنحاهها جانبا.. إلا أنها لم
تتنحى عن مكانها بهذه السهولة.. بل وقفت أمام الباب
وقالت: يورجن.. فكر جيدا، وراجع نفسك.. قبل أن تفعل
أشياء تندم عليها بعد ذلك.

دفعها تجاه الحائط.. كانت جميع أجزاء جسده ترتعش..
كما كانت ايبي من قبل ترتعش في شقة المستأجر.. كانت
طفلة ترتعش.. طفلة لم تظهر عليها أمارات البلوغ إلا في
وجهها فقط.

اتضح له أنه كان عليه أن يبادر فيفعل أي شيء.. فعجلة
الحياة تدور سريعا دائما.. وابنتاه على عجل لفعل بعض
الأشياء.. كأنهما في خوف دائم أن تهرب الحياة منهما فلا
يعشنها كما تتمنيان.

سألته زوجته:

- هل تريد أن تضربني أنا الأخرى بالأبجورة على رأسي؟
هل تنوي فعل ذلك؟

تركها وذهب إلى المطبخ.. وهناك غسل يديه مرة أخرى
كأنه لم ينته من فعل ذلك للتو.. كانت بعض الأكياس
البلاستيكية موجودة أسفل حوض المطبخ بجانب فرش
الأसन الإحتياطية والصابون.. كانت هذه الأكياس مستعملة
فأخذها وخرج.. وقبل أن يخرج من المنزل وقف أمام المرأة
في الردهة وعدل من تسريحته.. ثم غادر المنزل.

كان قد سمع زوجته والأطفال يتهايمسون في غرفة
الجلوس.. سمعهم يتهايمسن عنه ولكنه تجاهل ذلك.. سوف
يعدن إلى هدوئهن مرة أخرى، وفي وقت ما سوف يفهمن كل
شيء.. سوف يفهمن كل شيء في وقت لاحق.. فمن الأفضل
لهن أن يفهمن فيما بعد.

في بادئ الأمر كان ذاهبا بإتجاه الفوندل بارك، ولكنه
عندما وصل إلى الجانب الآخر من الطريق اكتشف أن
الأكياس البلاستيكية ترفرف في يده فاضطر للرجوع.

أصبحت معظم الأشياء غير مفهومة له.. الناس.. أسرته..
حتى آراء الناس قد أصبحت غريبة وغير منطقية.. لدرجة أنه
أصبح حائرا من الناس وآرائهم.

ذهب حتى وقف أمام باب المستأجر، وظل واقفا مثلما وقف قبل قليل في هذا المساء.. مسح جبهته بالمنديل ثم طرق الباب..

ووقف ينتظر...

فتح له الباب هذه المرة.

تسلق الدرج للمرة الثانية هذا اليوم.. وفي هذه المرة أيضا عاوده شعور صعوبة التنفس.. ولكن علي الإنسان أن يتعلم أن يعيش مع ضيق التنفس والأمراض الأخرى. وبمرور الوقت لن يعد يشعر بها ولكن عليه أن يتجنب القيام بمجهود.. وسوف يكيف حياته على فعل هذا.. بل إنه لاحظ أكثر من ذلك.. لاحظ كم هي قليلة جدا درجات السلم هذه.. ومع ذلك تسبب له ضيق في صدره.

وأخيرا وصل إلى الأعلى.. كان يتصبب عرقا كأنه في إحدى المناطق الإستوائية.

وقف هوفمستر في الردهة ونظر إلى المستأجر وهو يجلس على مائدة الطعام.. كان يبدو وكأنه يقوم بتمثيل مشهد إغراء.. ولكن ليس فيه نساء فينظر إليهن.. ولكن مستأجرا متخن بالجراح.

كان الدم يسيل على جبهته.. فلم يعد الرجل يربطها برباط ضاغط.. أو يلصق بلاستر على الجرح.. ولكنه على الأقل كان قد التقط بقايا الأبقورة المتحطمة.. ثم جلس الرجل بكل بساطة.. بلا حراك.. وبأبه مفتوح على مصراعيه.

حتى عندما دخل هوفمستر إلى الغرفة لم يحرك المستأجر ساكنا.. اكتفى بالتحديق إلى مالك منزله ثم عاود النظر إلى الطاولة، التي كان عليها ورق من مختلف الأنواع، وبعض رسوم الهندسة المعمارية، وبضع أقلام فحم.

أصيب هوفمستر بالذعر.. وأخذ يبحث في جيوبه.. لأنه كان يظن أنه فقد مظروف النقود ولكنه وجدته في الجيب الخلفي للبنطلون.. فأخرجه ووضعه على الطاولة.. ثم مسح وجهه ورقبته.. وهو يشعر بحاجة إلى العطس.

وهكذا ظل واقفا وينتظر.. فقد كان يريد أن يرى فقط إن كان المستأجر سيأخذ المال أم لا.. ولكن يدا لم تمس المظروف. ظل ينتظر حتى تذكر سبب مجيئه.. وعندما تذكر كل شيء قال للمستأجر:

- لقد جئت لأرد لك الإيجار.

لم يجد من المعماري أي رد فعل.. ليس إلا نظرة خاطفة
ثم عاود النظر إلى قرص المنضدة.
فقال هوفمستر مرة أخرى:

- لقد جئت كي أرد لك الإيجار.. فأنت لم تعد موضع
ترحيب هنا.. وسأعطيك مهلة خمسة أيام.. فقط خمسة أيام
لإخلاء الشقة.

نظر إليه المعماري دون أن يبدو على وجهه أدنى تأثر لما
سمع.. بل ظل طبيعي تماماً.. كأن هوفمستر قال له: ياله من
طقس جميل اليوم.. ولكن بعد خمسة أيام تأتي عاصفة.
وعلي غير ما كان يتوقع هوفمستر.. فاجأه المعماري..
فتكلم أخيراً:

- سيد هوفمستر.. أنا لا أعرف ماذا أخبرتك ابنتك، ولكني
أفترض أنها قد أخبرتك بالحقيقة.. ولكن الأمر ليس كما
ظننت.. أو ما يبدو أنك تعتقده.. وما حدث هنا بيني وبين
ابنتك.. كان قائماً على المشاركة.

وضع هوفمستر يده الملتهبة من شدة الحر على الطاولة..
بينما الأكياس البلاستيكية الفارغة لا تزال في يده الأخرى.. ثم
مال ناحية الرجل، وتذكر الحلم الذي رأى فيه القطعة
والحيوض.. لقد جعله هذا الوجد سيء الخلق.. فجميع
المستأجرين السابقين في كفة وهو في كفة.
قال للمستأجر.. وكان صورة الحلم تلوح له أمام عينيه:

- المشاركة.. كيف يمكن لشيء أن يحدث بالمشاركة بين
رجل في مثل سنك وبين فتاة في الخامسة عشر.. بالكاد بلغت
الخامسة عشر؟ لم تكن تأتي إلا لتحصيل الإيجار.. هل تدري
ما تقوله الآن؟ كيف يمكن لشيء مثل هذا أن يبنى على
أساس المشاركة؟ كم عمرك؟ أليس لديك أي فكرة عما تعني
المشاركة؟.. ما بيني وبينك هو المشاركة.. ما بيني وبينك!
ولكن مع فتاة في الخامسة عشر..؟ أليس لديك أي إحساس
بالمسؤولية؟ هل أنت حيوان؟ هل تريد أن تبين لي أنك
حيوان.. في صورة مهندس معماري.. هل تريد أن تقول لي أن
حيواناً يسكن فوق أسرتي؟ أو أنني أجرت أفضل بقعة في
أمستردام لمخلوق بشع؟

كان هوفمستر على وشك أن يبيكي.. ليس بكاء بسبب الألم
بل بسبب قلة الحيلة.. فقد أراد أن يقول أكثر من ذلك،
ولكنه أدرك أن ذلك سيكون بلا جدوى.. فتوقف وأخذ

يتحسس رقبتة بشماله، فقد كان العرق يتصبب منها كأنه مصاب بالحمى.

كان وجه المستأجر يطرب فرحاً.. كأنه رأى ملاكا جاء لينشله من المستنقع الذي يعيش فيه.. ثم قال والفرحة تغمره:

- ابتك.. إنها فتاة ذكية أكثر مما تتصور.. وهي مبكرة التطور، فلم تعد طفلة.

وكان هوفمستر قد صفع على وجهه عندما سمع هذه الكلمة "مبكرة التطور". فسأله:

- مبكرة التطور.. ماذا تقصد بذلك.. ماذا تقصد بمبكرة التطور؟

- إنها نضجت مبكراً.

أخذ هوفمستر يهز رأسه.. ببطء في البداية.. ثم أخذ يهزها بسرعة وهو يقول:

- أنت منحرف.. لا يمكن أن تكون غير ذلك.. ولا يمكنني أن أتصور غير ذلك.. وهذا الكلام لا يصدر إلا من منحرف. سوف تفهم أنني خصمت ثمن الأبجورة من مبلغ التأمين.. بكل عدل وإنصاف.. مع أن مصابيح الكهرباء أصبحت غالية الثمن.

كان يلهث من الجهد الذي بذله.. يلهث من الألم في صدره.. من استياءه من النغمة التي يكلم الرجل بها. أخيراً انطبع وجه المعماري بتعبير آخر.. فقد رأى صاحب المنزل الغضب باد على وجهه.. فقد أيقظه المال من لا مبالاته.. ولا غرو فما يثير المستأجرين دائماً هو المال.

- هذا ليس عدلاً ولا إنصافاً.. سيد هوفمستر.

ثم أراد أن ينهض.. ولكن هوفمستر عاجله قائلاً: ابقِ جالساً.. إن كنت لا تريد أن تحدث كارثة فلتبقى جالساً! فأنا لا أستطيع أن أضمن نفسي.. هل تعرف هذا؟ هل جربت الشعور بأنك لا تستطيع أن تضمن نفسك.. أو أنك تفقد السيطرة على نفسك؟ أو أن شخصاً آخر هو الذي يراقب تحركاتك ويتحكم بها؟

ثم قام بمد يديه الكبيرتين المتوهجتين إلى الأمام.. كان يظهرهما أمام المستأجر، وكان منظرهما كافياً لأن يعرف أنه يعمل بهاتين اليدين في حديقته الخاصة وحديقة والديه أيضاً.

لم يبد المستأجر حراكا.. ربما يرجع السبب إلى جبهته المجروحة أو إلى لهجة هوفمستر التي تثير الإستياء.. على كل حال هو لم ينهض من مكانه.

أخذ هوفمستر يتجول في أنحاء الغرفة بينما يجول بنظره على الأرض.. ثم دفع أحد الكراسي جانبا ونظر تحت الطاولة.. وبعد بحث وجد أخيرا ضالته في زاوية بجانب الكنبه.. وجد سليب أسود اللون.. فالتقطه ووضع في الكيس البلاستيكي. ثم ظل واقفا للحظة.. ينظر إلى الرجل الذي تغيرت تعبيرات وجهه فلم يعد يبدو الآن وغدا.. كان ينظر إلى الرجل الذي كان يعاشر ابنته قبل قليل معاشرة الحيوانات.. كان المعماري يبدو كتلميذ ضبطه المعلم يغش.. بل كان يبدو حتى أصغر من ذلك.. وفي الحقيقة كان يبدو أصغر من كونه رجلا.. فحينئذ قال هوفمستر:

- سأعود بعد ستة أيام فأجد أشياء قد اختفت وكذلك أنت.. وبعد ذلك تتركني في حالي أنا وأسرتي.. ابنتي ليست أحد الأشياء التي أحرصها في هذه الشقة.. وتذكر أن ثمن الإيجار لا يتضمن الأطفال.

كان المعماري لا يزال يحدق في قرص الطاولة.. فقال دون أن يحرك نظره:

- سيد هوفمستر.. لقد أسأت الفهم بعض الشيء.. أنت لا تريد أن تفهم.. ليس للأمر أي صلة بالإيجار ولكنه الحب. عقد هوفمستر الكيس الذي بداخله السليب بإحكام.. كأنه يخاف أن يخطفه منه شخص ما.. كان المستأجر ينظر بطرف عينيه إلى الكيس بينما رأسه مائلة.. فقد كان الكيس شفافا ويستطيع أي أحد أن يرى ما بداخله. قال الأب:

- إن ما فعلته بابنتي ليس جبا.. وإنما شيء غير قانوني.. لا يمكن تفسيره بغير ذلك.. ولا يمكن أن يكون الحب أبدا شيء غير قانوني.

ثم أراد أن يستدير فيمشي، ولكن المعماري نهض حينئذ من مكانه.. ولكنه لم يذهب إلى هوفمستر بل ظل واقفا فقط.

كان المعماري رجل كبير الحجم.. طويل ونحيف.. ليس قبيحا، ولكنه حقا ليس وسيما أيضا، وإذا سار في الشارع فإن الأنظار تلتفت إليه دائما بسبب حجمه.

ثم سأل الرجل هوفمستر: هل تظن أنني كنت الأول؟ هل تعتقد ذلك؟ هل يجعلك ذلك تشعر بالصداع؟ إذن لابد علي أن أوقفك من غفلتك! لقد كنت الرابع أو الخامس.. ولم أجرو حتى علي السؤال.. بل إنها لم تحتاج أن تتعلم مني شيئاً.. بل العكس.

أغرقه التفكير في ابنة هوفمستر الكبرى في الضحك، فارتسمت على وجهه أولاً ابتسامة خفيفة.. ثم انفجر في الضحك.. ولم يستطع أن يتوقف عندئذ عن القهقهة عالياً. كان هوفمستر يقف.. ولا تزال الأكياس البلاستيكية في يده.. محذقاً بإحتقار في الرجل الكبير.. في جرحه التافه على جبهته.. في غطرسته التي تشع من وجهه.. مثل كثير من الناس في هذه الأيام.. وإعتداده بنفسه.. وقلة تعرضه لهزائم.. والسهولة التي يدعون بها لأنفسهم كل شيء ممكن.. وتصور أنهم يستطيعون شراء كل شيء أو إستتجاره.. بما في ذلك ابنته.. كان يحتقر كل ذلك. فقد كان يتعلم في المدرسة على يد إحدى الراهبات، وقد كانت تعلمه أن الإنسانية تعني التواضع.. فكلما كان المرء أشد إنكاراً لذاته كلما أصبح أكثر إنسانية.. ولكنهم، البشر، لم يعودوا يعترفون بالتواضع.. ونسوا ضآلتهم.. بل إنهم يثرون ضدها، ولكنهم سوف يدفعون الثمن غالياً لقاء ذلك.. فبدون إنكار الذات لا تدور عجلة الحياة.

قال هوفمستر بينما ترفرف الأكياس في يده:
- لا يعنيني إن كنت الأول أو حتى الثامن.. ولكنك كنت الأكبر عمراً.. وهذا ما يعنيني.
فقال المعماري:

- هي من قامت بالمبادرة.. وقد كنت أقول لها: هل يعقل هذا؟ ليس لدي شيء أقدمه لك.. ولكنها لم تكن ترغب في معرفة أي شيء.. إنهم يبدأون مبكراً في هذه الأيام.. سيد هوفمستر.. كلما مر الزمن يبدأون مبكراً. كل شيء يبدأ مبكراً ولا يتوقف إلا في وقت متأخر.. إن ابنتك ليست تحت طوعك.. أنت تظن أنها كذلك وتتمنى ذلك.. ولكن الحال ليس كما تعتقد.. وسوف تدرك هذا في يوم من الأيام.. إنها تبحث عن شخص ينصت إليها بينما تتحدث.. شخص تستطيع أن تحكي له كل شيء.. ومن الواضح أنك كنت مشغولاً بأشياء أخرى.. عندئذ تؤول الأمور إلى هذا الوضع

فيأتي الإنسان إلى إنسان آخر.. لقد كانت تبحث عن...
ويؤسفني أنه علي أن أصارحك بهذا في وجهك.. ولكنها كانت
تبحث عن العاطفة.

ثم عاد الرجل فجلس مرة أخرى.. كأنه قد قال فأصاب..
كأنه في مؤتمر ثم قام بتصحيح بعض النقاط للمحاضر
باختصار.. بكل أدب.. إلا أنه واثقا كل الثقة أنه على صواب.
أخذ هوفمستر نفسا عميقا.. فالتنفس بعمق يساعد دائما
على الإسترخاء.. ولكنه كلما تنفس بعمق.. كلما شعر بوطأة
الأم في صدره.

وأخيرا عندما حصل على بعض الهواء سأل:

- منذ متى كان هذا؟

- ربما بضعة أسابيع.. أو بضعة أشهر.. يا إلهي.. أنا لم أكن
أنظر إلى الساعة من أجل هذا.. لدي ما يكفيني لأقلق بشأنه،
سيد هوفمستر، وليس بشأن ابتك.

تأوه هوفمستر مثل حيوان جريح.. ثم أطرق برأسه، فلم
يعد لديه أسئلة أخرى.. فقد عرف أن المعماري لديه
إهتمامات أخرى.

بقي واقفا للحظة.. فقد كان يريد أن يرى كيف سيأخذ
الرجل النقود.. أراد أن يكون موجودا بينما يأخذ المستأجر
ماله الذي لم يعد مرغوبا فيه هنا.. أراد أن يراه وهو يضع
المال مرة أخرى في جيبه.. ثم قال:

- خذ المال.. لأن شيئا لم يحدث.

ألقى المستأجر نظرة خاطفة على المظروف.. ثم أخذه
ووضعه في جيبه بينما تعلو وجهه ابتسامة رقيقة.. وبذلك
يكون كل شيء قد تم إنجازه.. وانتهى.. وفعل هوفمستر ما
كان عليه فعله.

ثم قال المعماري:

- أشعر حيالك بالأسف.

كان هوفمستر في طريقه إلى الباب فالتفت إليه مرة
أخرى وقال:

- ماذا تعني بذلك؟

- إنني أشفق عليك.. وأود لو أطوقك بين ذراعي.. فأنا
متفهم لوضعك.. أود لو أخذك بين ذراعي وأقول أنها ليست
سيئة إلى هذا الحد.. إنها تشق طريقها الخاص في الحياة..

أعني ايبي.. إنها شابة جميلة وذكية، وأبضا - يؤسفني أنه علي أن أستخدم هذه الكلمة، ولكن هذا أبضا من الأهمية مِكان للمرأة في هذه الأيام: إنها مثيرة.. أكثر من أي شيء آخر.. وهي تعرف ذلك.. تعرف ذلك جيدا جدا.. وهي ذكية أيضا.. بل إن كل شيء يسير معها علي مايرام.. وبالتأكيد لاحظت ذلك أيضا؟ لا حظت كم أنها مثيرة.. وكيف تعبت مستخدمة ذلك في أن تجعلنا مهووسين بها؟

كان هوفمستر ينصت إلى قائمة الصفات الحسنة التي تتمتع بها ابنته الكبرى.. وبالكاد استطاع أن يقمع الضحك الذي كان علي وشك أن يسيطر عليه.. فقد غمره شعور عاجل بأنه سيصبح مجنونا.

ولما انتهى المعماري من سرد الصفات سأله هوفمستر:

- علي أنا.. هل تشفق عليّ أنا؟

- لست الوحيد الذي يعتقد ذلك.. صارحني آخرون بذلك.. وقد كونت رأيي حولك من خلال الآخرين.. لا أنظر إليك فقط علي أنك مالك بغض، ولكن أنظر إليك كإنسان أيضا.. إنسان يعتريه الضعف.. كما أن له تجاربا في الحياة.. إنسان يسهل فهمه.. أوه.. لو يقبل المرء نفسه كما هي عليها!.. لاستطاع أن يتعايش معها بسهولة.

كان الكيس الذي بداخله سليل ايبي يبدو في يد هوفمستر كأنه قد أصبح ثقيلًا.. كالحديد.. أو كقطعة عملاقة من اللحم البقري.

تقدم هوفمستر خطوة مبتعدا عن الباب باتجاه الطاولة.. قضت هذه الكلمة "مثيرة" على هدوئه.. إنه لم ينظر أبدا إلى ابنته هذه النظرة.

ولكنه سأل: ماذا تعني بذلك؟ ماذا تعني بأنك لست الوحيد؟

- كما هي بالضبط.

- ماذا تقول إذن؟

- أعني أن آخرين غيري يشعرون أيضا بالشفقة نحوك.

- من؟ من هم هؤلاء الآخرون؟ هل أعرفهم؟

- ابنتك منهم.. علي سبيل المثال.. ايبي تشعر بالشفقة نحوك.. إنها لا تخجل منك فقط.. بل إنها تشعر أيضا بالأسى

عليك.. وقد أخبرتني ذلك بنفسها.. هل تظن أنها كانت تأتي هنا من أجل الجنس فقط؟ كانت تريد من تتحدث إليه. تمنى هوفمستر أن لو كان هناك أبجورة أخرى.. لضرب حينها المعماري مرة أخرى على أم رأسه بكل قسوة. ولكن لم يعد هناك أبجورات.. وعاد فملك زمام نفسه، وجعلها تحت سيطرته ثم قال:

- إننا نحاول حمايتهم- لم يتضح عمن يتكلم بالضبط- نحاول ذلك بقدر المستطاع.. لأن المرء لا يستطيع أن يوفر لهم الحماية الكاملة.. إننا نحاول.. ولكنهم يقابلون شخصاً مثلك في يوم من الأيام.. هكذا تسير الدنيا.. ثم ينظر الإنسان إلى ماضيه.. ويتساءل.. أي خطأ فعلته ياترى.. ماذا كنت أفقد.. ما الشيء الذي فعلته وكان من الأفضل لو تركته؟ ألم يحدث لك هذا قط.. أو مر بخاطرك: أنها طفلة؟.. ألم تقل لنفسك أبداً: إنها لا تزال طفلة؟ ابنة صاحب المنزل الذي أقطن فيه.

هز المعماري رأسه وقال:

- إنها ليست طفلة.. إنها منذ فترة طويلة لم تعد طفلة.. إنها أقل صبيانية منا نحن الإثنين.. هل تعرف ماذا كانت تقول لي؟ "ممارسة الجنس مع الصبية من نفس عمري.. يشوبها التوتر الممل دائماً.. والتوتر عند ممارسة الجنس يدل على العجز الجنسي".. نعم، لقد كنت أنا الآخر لا أصدق ما أسمع.. التوتر عند ممارسة الجنس يدل على العجز الجنسي.. ولكنها على كل حال لم تكن تجديني مملاً. وأخذ يقهقه...

جعل هوفمستر يحدق في الرجل.. كما لو كان يحدق في شبح حقيقي ظهر له فجأة في بيت الرعب.. ليس مثلاً شمعيًا.. معلقاً فقط لإخافة الناس.. لا، بل على عكس كل التوقعات كان جثة حقيقية.. شيء كان يعيش في يوم من الأيام.. إلا أنه قد فارق الحياة منذ زمن بعيد.

قال المعماري: إنها تدخر المال.. كنت أساعدها بشيء من حين لآخر.. أعتقد أنها تفعل ذلك من أجل حلمها الكبير.. أو إنه أحد أحلامها.. ولا تنفك تفكر فيه.. كما هو الحال مع كل الناس في عمرها.

- تدخر المال - لأي شيء؟ ألقى هوفمستر السؤال بكل تلقائية، وبدون تفكير.. فقد كان جسمه لا يزال تحت سيطرته.. ولكن لسانه لم يعد كذلك.

- كي تجري عملية تكبير الثدي.. فهي تقول: ليس لدي شيء في هذه المنطقة من جسمي. ومعها حق في ذلك.. فجسمها العلوي كجسم الأطفال.. وقد تخلت عن الأمل بأن الطبيعة سوف تلعب دورها وتعالج ذلك.. واتجهت كما قلت لك.. إلى إدخار المال.. ولذلك كنت ادعمها من حين لآخر ببعض المال.. فمرة خمسين، ومرة أخرى مائة. وربما تكون هذه الأشياء مضحكة لنا.. ولكن هذه الأثداء بالنسبة إليها هي مسألة حياة أو موت.. إنها طفلة مميزة.. لا يل امرأة شابة مليئة بالحيوية.. وتعرف ماذا تريد.. عليك أن تفخر بها.. بل إني على علم بأنك فخور بها.. تماما مثلي.. نحن الاثنان فخوران بها.

غادر هوفمستر الغرفة دون أن يتفوه بكلمة واحدة.. نزل الدرج إلى شقته الخاصة متجها مباشرة إلى المطبخ.. يخالجه شعور - أي شعور كان يخالجه؟ لم يعد يعرف - بلي هو يعرف الآن: كان يشعر بالحزن.. كان يشعر أنه كومة من البؤس.. متكونة من بعض اللحم والعظم وجزء ضئيل من المخ.

كانت تيرزا في المطبخ.. تقف على مقعد بدون مسند بينما تفتح الدواليب.
فسألها: عما تبحثين؟

- عن شيء يؤكل.
- لقد أكلنا لتونا.
ثم وضع الكيس البلاستيك على البوفيه.. فأخرج منه السليب ووضع الكيس مرة أخرى مكانه مع الأكياس البلاستيكية الأخرى الفارغة.

نزلت تيرزا عن الكرسي ثم سألت: لماذا أنت غاضب، بابا؟
- لست غاضبا.

- لماذا ضربت أبيي إذن؟

- لم أضرب أبيي.
كان يبحث عن الكلام.. ولكن الكلمة الوحيدة الذي كان صداها يتردد في رأسه.. والتي لم ترد أن تتركه.. بل إنها لن تتركه أبدا.. كانت كلمة "الشفقة". هل يمكن أن تشعر الفتيات بالرتاء لأبائهن؟ هل يمكن أن يحدث ذلك مع فتاة في الخامسة عشر من عمرها؟ بالكاد بلغت الخامسة عشر..

وإن كان.. فلماذا؟ فلا يوجد ما يدعو للشفقة عليه.. إنه يسكن مع أسرته في أرقى مكان في شارع فان إيجينز شترت.. ولديه وظيفة مرموقة كمراجع في دار نشر.. أدبية.. وابنتين رائعتين.. إحداهما في الجيمنازيوم، والأخرى سوف تلحق بها قريباً.. كما لديه زوجة وخادمة.. ولم يعوزه المال.. بفضل التخطيط المالي السليم من أجله ومن أجل أسرته.. - ولذلك فحاله لا يدعو لأن يشعر أحد بالشفقة عليه.. ولا بأس أن تدخر ابنته الكبرى المال لإجراء جراحة لتكبير حجم الثدي.. فالناس في سن البلوغ يفعلون أشياء تدل على الجنون.. ومن المحتمل أن عشرات الآلاف من الفتيات الصغيرات يدخرن المال من أجل إجراء جراحة لتكبير حجم الثدي.. وهي من بينهن.. فهي ليست استثناء.. وربما كان عجوز قليلاً على كونه والد..

ولكنه ليس رجلاً يحتاج إلى شفقة من أحد.
وبعد سكوت طويل قال لها بصوت منخفض تبدو في نبرته الحكمة: لقد طيبت من خاطرها.

- ولكنها تقول أنك ضربتها.
أخذ يتحسس عنقه مرة أخرى بيده.. كان عنقه لا يزال رطباً.

- ابيي مشتتة قليلاً.. كيف سار يومك في المدرسة؟
- ابيي تقول.. أنها لا يسمح لها بمرافقة صديق.
- بالطبع يمكنها مرافقة صديق.
- هل يمكنني أيضاً مرافقة صديق؟
- نعم يمكنك مرافقة صديق.... ثم رفع تيرزا وأجلسها ثانية على المقعد بدون مسند وهو يقول: بالطبع يمكنك ذلك.. فأنا أحبك يا تيرزا.. ويمكنك فعل أي شيء.
- كانت تنظر إليه بجدية واستغراب بينما يستعمل المنديل في مسح العرق عن وجهه.. ولم يدر بأنه كان سليل ابيي إلا عندما أراد إدخاله في جيب بنطاله.
- فوضعه على البوفيه.. ثم رمقه لجزء من الثانية.. كان سليل أسود عليه بعض الرسوم.. لم يستطع أن يتعرف على ملامحها بشكل صحيح.. كانت على شكل حيوان صغير.. ربما فراشة؟ أو نحلة؟ أو طنانة؟

رأى كيف تتابع تيرزا نظراته.. فحملها، وعندها أحس بالتعب.. إذ لم يكن قد حملها منذ فترة طويلة.. ولكنه وقف في المطبخ هكذا.. حاملا صغيرته بين ذراعيه.
أشارت إلى الشيء فوق البوفيه وقالت: بابا، هل هذا لايبي؟

- نعم.. إنه سروال ايبي.. وقد نسيته.
ونظرا معا إلى السروال.. تيرزا وأبوها.
ثم سألت تيرزا: عندما أكبر ألن يكون عندي ثدي أنا الأخرى؟
أخذ نفسا عميقا.

- بالطبع سوف يكون لك ذلك.. كل امرأة يكون لديها صدر.. وأنت أيضا.. وايبي.. ولكن يجب أن نتحلى بالصبر.. علينا أن نعود أنفسنا على التحلي بالصبر.. علينا كلنا أن نتعلم ذلك.

ثم ضم تيرزا إليه بشدة.. وجعلت الذكريات تعاوده.. كيف كان يحملها وهي لا تزال في السنة الأولى من عمرها.. كان يرفعها عاليا في الهواء فوق رأسه.. ويناديها: تيرزا.. يا جميلة الجميلات.. يا أحب شيء إلى قلبي.. هل تعرفين أي شيء أنت بالنسبة إلينا؟ أنت ملكة شمسنا.. عندما تكبرين.. ربما تصبحين راقصة باليه.. أو عالمة فلك فتكتشفين كوكبا جديدا.. أو تصبحين كاتبة وتحصلين على جائزة نوبل.. تستطيعين أن تكوني أي شيء.. حبيبتي تيرزا.. كل شيء تريدينه.. لأنك أنت ملكة الشمس.. والآن دعيني أعانقك حتى الموت.

في الحقيقة كان يريد أن يسميها مالا.. فقد قرأ ذات مرة عن بنت تسمى مالا.. ولكن زوجته قالت له قبل الولادة ببضعة أيام: إن مالا تعني "سيء" في اللغة الأسبانية.. هل يعقل أن يطلق أحد على ابنته مثل هذا الاسم؟
ولذلك قررا أن يسميها تيرزا.. في البداية كان الاسم ينتهي بحرف الهاء.. ولكنه لم يعد ينطق كذلك مؤخرا.. حتى يتجنبوا التشابه مع الاسم العبري.

فلم يكن يريد لابنته أن تسمى "سيئة".
ثم قطع هذه الذكريات بقوله: هيا يا تيرزا.. لقد أصبحت ثقيلة علي.. سوف أنزلك على الأرض.



أبطأ الضيوف في الحضور على غير العادة، فقد كانت السابعة والنصف.. ولكن أحد لم يأت بعد.. ولذلك سارع هوفمستر بنفسه إلى أكل أول كمية قام بتحضيرها من السردين.. كان في الواقع يريد قلي السردين في وقت متأخر من المساء.. ولكن ماذا بيده الآن.. وبالفعل أكل ثلاثة سردينات.. كان يأكل السمكة بعظمها.. فالسردين سمك صغير جدا.. لا يكاد المرء يشعر بها وهو يأكلها.

ذهب إلى حجرة تيرزا ليعرض عليها شيئا من السردين المقلي.. فوجدتها ترتدي فستانا أسود.. كان معلقا في الدولاب منذ سنة.. ولم ترتدي الفستان الذي اشترياه معا لتحضر بها الحفلة.. مع أنه كان فستانا ثمنه ثلاثمائة يورو، مع حذاء مناسب اشترياه أيضا بنفس سعر الفستان تقريبا.

ولكن الدهشة استولت عليه عندما طوقته بذراعيها وقالت: سأحرص على إرتدائه فيما بعد، بابا، ولكنه ليس مناسباً لهذه الليلة.. لا أستطيع.. ولست في مزاج لأرتديه.. إنه بطريقة ما ليس الثوب المناسب لهذه الليلة.

ابتسم متسامحاً، ولا يزال طبق السردين في يده.. "ولكننا اشتريناه مخصوصاً لهذا اليوم.. وللحفلة بالذات" فلتت هذه الكلمة من لسانه.. ولكنه أثر السكوت.. فالأشياء التي يختارها مخيبة للأمال.. وليس لها ضرورة في الوجود.

وقف الأب يتبسم.. وعندما كانت تبرزاً تتبعد عنه كان لا يزال يتبسم.. من الواضح عليه أنه لم يتأثر.. ثم قال لها: القرار يعود إليك أنت.. ثم تركها بمفردها.

أراد هوفمستر الذهاب للحمام.. وعندما دخل وجد ايبي مستلقية في البانيو وهي تتصفح مجلة Elle.. إحدى مجلات المرأة العصرية.. مع أنها كانت تحتقر هذه المجلة من قبل. صاحت ايبي: بابا، ألا يمكنك أن تطرق الباب؟

لم يرد عليها وجعل يطوف ببصره في أنحاء جسدها..
وجعل يحدق في بطنها لبضع ثوان ثم قال: معذرة، ولكن هل
أنت حامل؟

نادته: بابا، توقف عن طرح مثل هذه الأسئلة السخيفة..
واتركني بمفردي.

أغلق باب الحمام وذهب إلى حجرة النوم.. كانت الزوجة
لا تزال في حيرة.. لم تقرر ماذا سترتدي بعد.. ثم قررت تأجيل
هذا القرار الصعب إلى حين - فقد كانت تنتظر أن يأتي
الإلهام إليها فجأة - وأخذت تجفف شعرها أولاً.. جلست
شبه عارية أمام مرآة الزينة وهي تمسك مجفف الشعر في
يدها.. وأمامها طفاية سجائر يتصاعد منها الدخان المنبعث
من عقب سيجارة.. من الواضح أنها أخذت تبحث عن مطفأة
السجائر في مكان ما حتى وجدتھا.

حدق فيها هوفمستر للحظة دون أن يتكلم.. كان يريد أن
يجاملها ويقول لها شيئاً يبهجها.. مثلما يفعل المرء مع صديق
حميم له، غاب عنه لسنوات ثم تقابلا بعد طوال الغياب..
ولكن لسانه لم يطاوعه.. فخرج ونزل الدرج إلى الأسفل وهو
يتساءل إن كانت تفكر في العودة إلى المنزل بشكل نهائي، فقد
كان يكره هذه الفكرة.. ولكن ما كان يخيفه أكثر هو تصور
نفسه معها في البيت من الآن فصاعداً.. وأن عليه أن يتعايش
مع ذلك.

عاد إلى المطبخ، فجلس على مقعد بدون مسند.. وعاد
بأكل السردين المقلي.. بينما يشعر بالسأم. تذكر أنه نسي تماماً
أن يعرض على صغيرته شيئاً منه.. فنادى بصوت ضعيف:
تيرزا.. تعالي وجربي هذه السردين اللذيذة! لن تجديها
طازجة هكذا ولا حتى في البرتغال. ولكنه لم يقع على جواب.
كان يود أن يطعمها قطعة من السردين المقلي في فمها
بنفسه، ويرى إلى أي مدى تستطيع مذاقها.. ثم مسح
شفتيها بمنديل من الورق.

لكنه لم يرد أن يفرض نفسه عليها.. فبقي في مكانه
جالساً.. ثم

توقف عن المضغ.. لينصت إلى أحدهم وهو يغلق باب البيت
خلفه.. هل تريد تيرزا أن تذهب مرة أخرى، وقد قارب
الحفل على البدء.. الآن، حيث يمكن أن يأتي الضيوف في أية
لحظة؟

لم يستطع أن يفهم لماذا لم تلبى نداءه وتأتي فيتذوقا
السردين معا.. ولكنه عاود المضغ شيئا فشيئا.. إذ يوجد الكثير
مما لا يفهمه.. في الواقع.. أشياء كثيرة أكثر مما يتخيل.
أراد أن يتدرب قبل أن يأتي الشباب.. فحمل صينية مليئة
بالسوشي والساشيمي وذهب بها إلى الحديقة.. ففعل ذلك
مرتين. كان قد اشترى هذه الصينية خصيصا لحفل تيرزا..
اشتراها من محل ياباني في شارع بيتهوفن.
الكل يعرفه بالاسم في هذا المحل.. وهو يشعر بالفخر
لذلك.

المصاييح مضاءة.. وشجرة التفاح قد هذبها قبل أسبوعين..
حتى لا يجرح أحد السكارى نفسه من أحد فروعها المتدلية..
وفي هذه الأثناء كان قد ارتدى هو الآخر ملابس
الحفل..نظر إلى نفسه.. كان يبدو وسيما.. ولكن ليس بشكل
ملفت للنظر.. كما ينبغي أن يكون عليه الأب.. إذا ما أراد أن
يتجنب خجل ابنه من هيئته.. وهذا الشعور يتضح بشدة في
الأطفال.. وهو من أكثر مشاعر الأطفال بدهاة.. شعور
طبيعي. فالطفل لا يريد لأي شيء خارج محيطه أن يكون
أفضل مما في محيطه.

كان يورجن هوفمستر يشعر بأنه مثل صاروخ جاهز
للإطلاق.

نهض من فوق كرسي المطبخ وصب لنفسه كأسا من نبيذ
الكير.. وفجأة أصبح لديه بار على البوفيه.. به خمس أنواع
مختلفة من النبيذ.. في الواقع لم يكن يحب الكير.. ولكنه
أحضره لأنه مشروب تيرزا المفضل.. فاتفقوا على أن تتم تحية
كل ضيف بكأس من نبيذ الكير.. إلا إذا طلب هو بنفسه شيئا
آخر.. وأحضره أيضا لسبب آخر.. هو لونه.. إذ يبدو في غاية
الجمال عندما يوضع في الكأس.. لون أحمر وردي.

لم يستطع أن يتحمل حلاوة الكير.. كان مذاقه حلو جدا..
فصب قليلا من النبيذ الأبيض.. ثم أفرغ الكأس على عجل..
ثم نظر في الساعة.. إنها الثامنة إلا الربع.. وما زال لم يأتي
أحد.. ألن يأت أحد حقا؟.. إنها ليست حفلته، فلم يعد يقيم
حفلات منذ سنوات.. بل منذ عقود.. ولكنه يشعر بالقلق..
فقد رأى رؤيا بأن الضيوف سوف يغيبون عن موعد تيرزا،
وكان على هوفمستر وأسرته أن يلتهموا السوشي بمفردهم.
وعلى الرغم من نبيذ الكير الذي في يده.. جعلته هذه الفكرة
يشعر بالأم.. كانه قد تأكد تماما بأن ما رآه سوف يتحقق..

كأن كل كوابيسه سوف تصبح حقيقة.. فصب لنفسه مرة أخرى كأساً من الكير وأخذ ينقر بأصابعه على البوفيه.
كان هذا الخوف يطبق عليه من قبل عندما يقوم بالتقديم لكتاب ما.. شعور بالخوف من أن يقف أمام المؤلف بمفرده.. فيصاحبه الخجل عندما يضطر أن يقول له: كما يبدو.. نحن الإثنين معا في ذلك.. ولكننا سنصلح ذلك بطريقة رائعة.. الذعر الذي يسيطر عليه ويهاجمه من حين لآخر قبل أن يلقي كلمة صغيرة.. يضطر أن يقوم فيها بالدعاية الجادة والساخرة في نفس الوقت للمؤلف والكتاب - أو المترجم والكتاب-.. مع وجود الصحافة التي لم تكن تظهر إلا نادراً.. ولكن ذلك كله قد انتهى.

شرب كأسه الثاني بسرعة.. ثم نادى: تيرزا.. تيرزا!! لم يسمع همسة حتى. أخذ الصينية وعليها السوشي والساشيمي.. وذهب للمرة الثالثة إلى الحديقة.. وأخذ يتصورها في خياله مكتظة بالضيوف.. سوف يقدم نفسه للغرباء على أنه والد تيرزا.. وسوف يستمع إلى الكل في اهتمام بالغ.. وربما يلح لبعض الشباب تلميحا مرحا يثير الضحك فيهمس في أذنيه: ألم أقابلك ذات مرة في الحمام؟.. لا شيء سوف يخرجهم عن ائترانه.. سيكون المضيف المثالي.. سيعود الأطفال إلى منازلهم وهم يقولون في أنفسهم: كم هي محظوظة تيرزا بأبيها اللطيف!

وبعد جولة على الحشائش.. أحضر الصينية مرة أخرى إلى المطبخ.. ثم غلفها بالورق المعدني ووضعها في الثلاجة.. وظل واقفاً أمام الحوض يلاحق أنفاسه.. فقد أنهكه التجول بالسمك الطازج.. ثم صب كأساً آخر من نبيذ الكير.

لا، إنه لا داعي للقلق بعد الآن.. قبل تقديم أي كتاب.. ليس بعد الآن.. فقد كانوا يجرون إعادة هيكلة لدار النشر.. التي يعمل بها.. وفي بادئ الأمر كانوا يريدون تسريحه من العمل.. إلا أنهم لاحظوا حينها أن ذلك مستحيل.. بسبب سنه.. لم يسمح القانون بذلك.. فوقف حائلاً بين فصله.. مع أنه لا يعرف الرحمة في مثل هذه الحالات.. والقصة أن المدير استدعاه في أوائل أبريل.. وكان هذا المدير مسؤولاً بشكل عام عن الأمور المالية ورغبات المكتب الرئيسي.

في بداية الجلسة كانا -هو والمدير- يتجاذبا أطراف الحديث بكل سعادة حول الأشياء اليومية.. الأطفال.. المناخ.. بل وتجاذبا أطراف الحديث حول البورصة وحول المجتمع..

ولكن أكثر ما تحدثا بشأنه هو فيما يخص الأرصاد الجوية.. ثم مرا على مسألة الإحتباس الحراري مروراً خاطفاً.. ثم تحدثا قليلاً عن أشياء ممتعة.. والمرض الذي فتك بمدير التسويق.. ومشكلة الشباب المغربي.. مروراً بالإزدحامات المرورية المعتادة على الطريق السريع.. وهذا على وجه الخصوص هو الذي جعله يبدو شديد القلق.. فقد كان يسكن في أرقى أحياء أمستردام.

وبعد مناقشة مشكلة الإزدحام اتكأ المدير بظهره مسترخياً على كرسي المكتب.. على أساس أن المحادثة قد انتهت.. ولكنه بعد ذلك سأله فجأة:

- يورجن، على طوال السنين التي عملت فيها هنا.. من هم أهم المؤلفين الذين اكتشفتهم لنا؟ هل سبق وأن اكتشفت لنا أي مؤلف؟

جاء السؤال مباغتاً لهوفمستر.. ولم يكن مستعداً له - ألم يكونا لتوهما يتحدثان عن الشباب المغربي وازدحامات المرور؟

أطل من النافذة.. ثم نظر إلى المدير ثم إلى المكتب.. وعاد فأطل ثانية من النافذة.. ينظر إلى الشجرة المزدهرة هناك، والتي تزين منظر المؤسسة.. ثم قال:

- كنت أعمل خاصة في الأدب الأجنبي - ولكنه حسن من صياغة الجملة وقال: أنا أعمل خاصة في الأدب الأجنبي.. ألمانيا.. أوروبا الشرقية.. القوقاز.. حيث هناك الكثير مما يثير الإهتمام في الوقت الحاضر.. وكنت أعمل أيضاً لفترة في مجال الكتب الرياضية.. ولكن الحق يقال: إنها لم تناسبني بأي حال من الأحوال.

قال المدير: نعم.. لا تناسبك الكتب الرياضية.. ولكن بإمكانك أيضاً أن تكتشف مؤلفاً ألمانياً.. أو آخر من أوروبا الشرقية؟ أم أنني مخطئ؟ .. إن مشكلة مؤلفيك هي أنهم يكلفوننا الكثير من المال فقط.. ولم يعد علينا منهم شيء أبداً.. إلا الخسارة دائماً.

ثم اتكأ بظهره مرة أخرى وقال:

- تعرف شيئاً، يورجن، إنك لن تصدق ما سأقترحه عليك الآن: لقد كنا في الواقع نريد تسريحك.. ولكن مستشارنا القانوني قد اكتشف أن ذلك مستحيلاً بسبب سنك. ولكن هل تعرف ما سنفعله الآن؟ سوف ندفع لك المدة التي بقيت لك

معنا.. سوف ندفع لك بكل بساطة سنتين ونصف.. أو بالضبط سنتين وثمانية أشهر.. سوف نسرحك بعد أن ندفع لك هذه المدة.. بما في ذلك التأمين.. وتكاليف الإجازة.. سوف ندفع لك من الإبرة حتى الصاروخ.. ولكن لا تأتي بعد الآن.. لا تأتي أبدا إلى المكتب بعد ذلك.. أنت حر.

وبذلك نهض المدير واقفا.. ثم صافح هوفمستر مبتسما.. وعند ذلك شعر أنه مضطر إلى القيام من مكانه هو الآخر.. كان المدير يبدو كأنه مقدم في برنامج تليفزيوني يقوم بالتقديم للمرشح لنيل الجائزة الكبرى.. ولكن هوفمستر لم يستطع أن يصدق أن ما يعرضه المدير الآن يمكن إعتباره جائزة كبرى بأي حال من الأحوال.. لا يمكن أبدا أن يعتبر أحد ما عرضه المدير جائزة كبرى.

سأله المدير: ما رأيك في ذلك؟ يورجن، ماذا تقول؟ لم يشعر هوفمستر بأي غضاظة في أن ينظر إليه بود.. ولكنه لأول مرة منذ سنوات وجد نفسه يفكر في والديه وفي أيامه المدرسية.. من الواضح أن العمر ليس مهما بحال من الأحوال.. فمهما كان المرء مسنا، ويبلغ من العمر أربع وخمسون.. أو ثمانية وخمسون.. أو حتى اثنين وستون.. فإنه يبقى تلميذ دائما.. يصاحبه الإذلال.. الإذلال الذي كان يصاحبه طوال عمره منذ أن كان في الثالثة عشر.. من عمره.. الإذلال الموهوم.. الذي ربما كان أسوأ من الحقيقة. قال هوفمستر: لا أعرف ماذا علي أن أقول.

ثم سحب يديه باحتراز من بين يدي المدير.. يديه الساخنة والرطبة الزلقة دائما.. فلديه خوف أبدي من أن يقبض عليه.. مع أنه نفسه لا يعرف من أجل ماذا.. ولكن الحقيقة أنه لن يقبض عليه أبدا بشأن أي شيء.. ولا حتى من أجل مشبك ورق أخذه من المكتب وذهب به إلى المنزل. قال هوفمستر: كنت أود لو أستطيع أن أواصل أكثر من ذلك..

ولكن بالطبع ما عرضته جيد أيضا. وأخذ يتساءل في نفسه لماذا لم يتمكن من قول أن هذا العرض لا يناسبه علي الإطلاق.. لماذا لم يطاوعه لسانه فيقول ذلك - فقط يريد أن يظهر إنطباعا بأن كل شيء يسير على هواه، وطبقا لكامل إرادته.

ولكن هذه المرة كانت استثنائية.. فلم يكذب بشئ أي انطباع يوحي بالإقتران.. كان مضطربا وعلى ثقة بأن الحيرة قد

انطبعت - رغما عنه - بوجهه فلا يستطيع أن يخفيها.. بل ربما كان شعور أعمق من الحيرة: الخوف من الموت.

أراد المدير أن يبدد شعور الخوف عند هوفمستر - كما ظن هوفمستر - وأن يعطي للحدث طابعا وديا.. فريت على كتف العامل الذي على وشك أن يتم تسريحه، بضعة مرات وقال: أليس هذا حلمنا كلنا؟ استمرار وجود المال دون أن نضطر للعمل؟.. استمتع بها.. اذهب في رحلات.. أو اذهب للتجديف.. لقد كنت تحب التجديف دائما؟.. أزل مكتبك ودلل نفسك.. إنني أغبطك.. بكل صدق أقول لك ذلك.. ولكن.. نعم.. لم يحن بعد وقت خروجي من هنا، يا يورجن.

أخذ المدير يد هوفمستر للمرة الثانية فصافحه.. فشعر هوفمستر أنه دمية يلعب بها الآخرون.. وليس هو من يتحكم في حركته.. بل شخص آخر يتحكم في أقواله.. بل حتى في تفكيره.. كان شيء أقوى منه.. كل ذلك بسبب الخوف والخل وعدم مقاومة الشعور بالدونية تجاه المدير.

بدا على الرجل بعض الفخر.. الرجل الذي كان يصارع كل شيء دون النزول إلى ساحة المعركة.. فخر الإنسان الذي يستطيع أن يظل هادئا في أي موقف، ويظل هادئا لا يخرج عن طوره.. إنسان لا تفوته صغيرة أو كبيرة دون أن يلاحظها.

قال المدير: نحن لم ننس كل ما قدمته للشركة.. إنه كثير وليس قليل.. نحن مدركون لذلك.. من أجل هذا سوف ننظم بالطبع علاوة على ذلك حفل وداع رسمي.. وسوف نعرف في الوقت المناسب كيف سيتم تقديمك.. ربما شيء حميمي؟ أو عشاء صغير؟ أو بطاقة دعوة؟.. كل ما أريد قوله في هذه اللحظة: كان من الممتع العمل معك.. ولتبلي حسنا في أمورك المالية، يورجن، اجعل أوقاتك كلها سعيدة! هل تعرف.....

ثم مال على هوفمستر حتى ليكاد وجهه يلتصق في وجهه.. كان سرا جاثما على صدره سوف يبوح به الآن:

- ما سأقوله لك ربما يبدو غريبا لرجل قضى معظم حياته بين الكتب: لكن أجمل شيء في الدنيا ليس الكتب.. إنما الأطفال.. قم بزيارة ابنتك في فرنسا.. فقريبا سيكون لديك حفيد.. ما أروع ذلك أيضا.. اذهب معهم للتجديف والإبحار بمركب شراعي.. أو اذهب للتزحلق على الماء.. فالأطفال مهووسون بالألعاب المائية.

شعر هوفمستر ببذرة صغيرة في فمه.. فابتلعها.. علي الأرجح أنها بذرة عنب.. لأنه أكل على الغداء زبدية مليئة بسلطة الفواكه.

انتهى المدير من كلامه.

ذهب هوفمستر نحو الباب مشتمت آفكار.. ولكنه التفت هناك وسأل المدير: بالنسبة للأعمال الجارية.. لمن علي أن أنقل ما تبقى منها؟

أشار المدير بيده إشارة ذات معنى.. مرحة وصبيانية.. ثم جلس على المكتب وقال:

- انسأها.. انسأها لأننا لن ندفع إلا علي كتب الأدب الشرقي.. فمن الآن فصاعدا سوف نعالج الأمر بطريقة مختلفة.. لقد ولى الزمن الذي لا تشتري الكتب فيه إلا من المكتبات.. سوف نعرض الكتب في كل مكان.. في محطات البنزين.. في السوبرماركت.. وفي البنك، نعم، في البنك أيضا.. في الصيدليات.. في غرف الإنتظار عند الطبيب.. بل وفي الكافي شوب.. سوف نملأ بها كل زاوية من زوايا الشوارع.. لن نترك أنفسنا حتى نصبح مهمشين.. فمن الخطر علي المجتمع أن ينسحب طلائعه.. وترضى نخبته بمكان هامشي فيه.. فالثقافة الحقيقية.. الثقافة الحقة هي التي تجذب الجمهور، يايورجن، وليس أي شيء آخر.

كان هوفمستر ينظر إلى الحماسة التي يتحدث بها المدير ولذلك كان البصاق يصاحب كلامه.. كان الرجل نادرا ما ينتابه الحماس، ولكن إذا حدث استثناء ذات مرة وشعر بالحماس فإنه يبصق عند الكلام.

لم يكن لدى هوفمستر حيلة.. فاضطر أن يبقى واقفا عند الباب.. لأنه ينتظر الشيء.. الذي يصاحب إقالته من منصبه.. التي لا يصح أن يطلق عليها إقالة.. كان ينتظر عرض آخر أعماله.. أو كلمة وداع مرتجلة من أجل مراجع قسم "أدب اللغات الأجنبية"

استطرد المدير قائلا: وطوائف الشعب.. المعروفين بأنهم لا يقرأون مطلقا.. سوف نضطرهم للقراءة.. بل وحتى الرجال ذوي مستوى التعليم المنخفض.. سوف ترى، يايورجن: سوف يجد الكتاب طريقه إليهم في غضون خمس سنوات.. ليس عن طريق المكتبة ربما.. ولكن من ناحيتي سوف أتكفل أن أجده عند مضخات الغاز أو في مكتبات الفيديو.. أو عن طريق محلات بيع المشروبات.. أو عروض الإغراء.. هذا من

ناحيتي.. ولكن الطريق إلى الكتاب ستكون مهمتهم.. والكل يقول "لا تضع المسلمين في حسابك! إنهم لا يقرأون لأنهم أميون.." ولكني أقول: هذا هراء.. إذ علينا أن نجد الطريقة التي نصل بها إليهم.. علينا أن نلبي حاجاتهم.. ونفس الشيء مع اليهود الأرثوذكس.. ومع شهود يهوه.. الذين يشاهدون التلفاز بين الحين والآخر.. بالطبع يشاهدونه في السر.. ولكن إذا كانوا يشاهدون التلفاز في السر فسيقراون الكتاب أيضا في السر.. ولأن عملية التسويق تتطلب المعرفة بعلم السكان.. فسوف نقوم بتحليل البنية السكانية.. والبحث في الفئات المستهدفة.. مستخدمين كل الإمكانيات.. معاملة العملاء بود.. تلبية كل الأذواق.. سوف نتوجه أيضا لذوي البطالة طويلة الأمد.. ومثيري الشغب.. كل ما ينطبق على وسائل الإعلام ينطبق علينا.. ولن يمكننا البقاء والمواصلة إلا إذا قبلنا العمل كشريك لنا على قدم المساواة.. عندما نتوقف عن التحكم برأسه وتقرير ما هو سيء أو حسن بالنسبة إليه.. الكل يستطيع التفريق في هذه الأيام.. إن القارئ والمؤلف ما هما إلا جسد يكمل بعضه، هذا ما ينبغي أن يكونا عليه.. والناس لم يعد لديها ما يكفي من الوقت.. لم يعد لديها وقت للجرائد.. ولا للكتب.. ولا للتلفاز. ولذلك يجب علينا أن نفكر على أساس ذلك.. فنصنع الكتب الموجهة إلى الفئة التي ليس لديها وقت لتقرأ.. نعم، يورجن، إن ما ينتظرنا ليس أقل من ثورة.. ثورة رقمية وأيدولوجية.. أو بالأحرى: ثورة فكرة من شأنها أن تبقينا جميعا على قيد الحياة - الزبون ملك!.. نعم، يا يورجن، الزبون ملك.. وقد نسينا ذلك.. حتى سحبنا التيار فجعلنا لا وزن لنا.. كل ذلك يحدث أمام أعيننا! وأنا أفترض أنك سوف تتابع كل ذلك بهدوء.. قم بإزالة مكتبك، وارتم في أحضان الحرية.. فقد كنت جنديا شجاعا.. وسوف يواصل آخرون النضال بدلا منك، ولكن بأسلحة جديدة.

لم يزد هوفمستر على أن قال:

- أنا لم أقم بالتجديف أبدا.

ثم أغلق الباب وذهب مسرعا.. كأنه في حاجة ملحة إلى دخول الحمام.. فعاد إلى غرفة مكتبه.. وفي أعماقه ما زال يسمع المدير يضحك لفرط سعادته بالثورة.. التي من المفترض أنها ستشمل المجتمع كله.. ثورة رقمية أو غير ذلك.

جلس على مكتبه.. يشرب ببطء قنجانا من الشاي البارد.. كان موضوعا بجانب الحاسب الآلي.. وقام بالرد على بعض

الرسائل الإلكترونية.. ولكنه لم يذكر في أي منها ما يتعلق بشأن رحيله أو الثورة وشيكة الحدوث.. ثم جلس ينتظر.
انتظر حتى غادر جميع زملائه.. جالسا بلا حراك على كرسي المكتب الذي ظل جالسا عليه طوال ثلاثة وثلاثين عاما.. لم يطرأ فيها على المبنى سوى بعض التغيرات القليلة. ولكن الآن.. بعد أن يذهب.. سوف تتوالى التغيرات على هذا المكان. لم يكن هو قممستر يفكر في أي شيء.. لا في مستقبله.. ولا في الوقت الذي قضاه في دار النشر.. ولا في زوجته.. ولا في أطفاله.. فقط لحظات في تيرزا.. في أنها لا يجوز لها أن تعرف بما حدث هنا.. لا يجوز لأحد أن يعلم بما حدث هنا.. بهذا العار.

بدا له أن حياته كلها كانت تتهيا من البداية استعدادا لهذا العار.. ثم تردد صوت المدير مرة أخرى في رأسه وهو يسأل: من هم أهم المؤلفين الذين اكتشفتهم لنا، على طوال السنين التي عملت فيها معنا؟

لم يحر جوابا.. فقد كان يهتم بالمواهب التي ماتت قبل أن تأخذ حظها من الرعاية أو التطور بشكل صحيح.. ولكن هل كان ذلك خطاه؟

وعندما تأكد أن الكل - حتى عمال النظافة - قد غادروا المبنى.. نهض ووقف أمام النافذة يتطلع إلى الحديقة التي عندما يأتي الصيف يتناول غداء العمل فيها.. وكذلك سلطة الفواكه.. مع مجموعة من المخضرمين في الشركة.. والتي منذ أن حظرت الشركة التدخين داخل المبنى، وذلك منذ فترة قصيرة، وقد أصبح بعض الموظفين يدخلون فيها دائما. كان ينظر إلى الحديقة غير مكتث بها.. لم يكن في عينيه ما يدل على عاطفة نحوها.. ولكن أكثر ما أدهشه: أنه لم يعد في حاجة بعد الآن لأن يرى هذه الحديقة.. أن الفراق جاء بغتة.. وكان أقرب للصدفة.. خاصة هذا الأخير - كأنه يُسرح من أجل وظيفة عاجلة.

فكر قليلا في اختفاء زوجته الذي فاجأه تماما.. ليس في الإختفاء في حد ذاته.. فقد عود نفسه على ذلك.. ولكن في أنها لم تعود إلى البيت حتى الآن.. فلم يكن يشعر بالراحة بسبب ذلك.. وعندما كانت ايبي وتيرزا تذهبا للنوم.. كان يجلس هو بجوار الهاتف.. لدقائق.. وربما لما يقارب الساعة.. منتظرا ومتريدا في أن واحد.. يفكر فيما عليه أن يقول عندما تتصل زوجته.. ثم فكر في أنه كم كان يود لو يستطيع أن

يكون على اتصال بها.. فقط لو ترغب في ذلك.. وبإلها من إهانة حقيقية.. دائماً ما تطارده.. ولا تفارق خياله.. ولن يتمكن من نسيانها أبداً.

وبعد أن وقف بضع دقائق على هذا الحال.. نظر في الساعة، وقال مخاطباً نفسه بصوت هامس: علي الآن أن أحزم أشتائي - دعنا نذهب!

لم يكن يضع كثيراً من الأشياء الشخصية حوله في العمل.. على خلاف معظم الزملاء.. الذين توحى مكاتبتهم كأنهم هناك في البيت.. ولكنه كان يقي - كما في المصطلح الحديث - حجرة عمله دائماً بسيطة ونظيفة قدر الإمكان.

ولكنه كان يعلق صور أبنائه خاصة.. صورهم في كل المراحل العمرية.. مرحلة الرضاعة.. والطفولة.. والمراهقة.. كانت بعض الصور مثبتة على شاشة الكمبيوتر بالورق اللاصق.. أزالها بحرص حتى لا يحدث بها ضرر.. ثم وضعهم في أجندة المواعيد.. حتى يتجنب حدوث إلتواءات.. وعلى الحائط بطاقة بريدية.. كانت تيرزا قد أرسلتها إليه من روما أثناء رحلة مدرسية.. كان الكلام المكتوب عليها يمس شغاف قلبه.. ولذلك تركها معلقة.. على الرغم من أن رحلة روما قد مر عليها سنة ونصف.. ولكنه كان يقلب الكرتون بحرص مرة كل أسبوع تقريباً ويقرأ بضعة الأسطر التي تبدأ بقول تيرزا "أبي العزيز...".

وبجانب لوحة المفاتيح جمل خشبي.. كانت أبيي قد أحضرته له معها من مصر.. فخاف عليه من الإنكسار أثناء ركوب الدراجة، ولذلك ذهب إلى الحمام وسحب كمية من ورق الحمام فغلف بها التمثال.

كانت لا تزال لوحة رسمتها تيرزا معلقة على الحائط.. كانت قد رسمتها لنفسها.. فأزالها هي الأخرى بحرص.. حتى لا تتأذى ولا يتأذى الحائط أيضاً.

وبذلك انتهى من إخلاء غرفته.. ثم فتح بعض الأدراج ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً.. ولكن ما تبقى لم يكن يخصه هو..

لم يمكث طويلاً.. فقد مضت حياة العمل.. ومرت سريعاً.. دون أن يخلف أثاراً عظيمة.. أو يكتشف مؤلفين مهمين.. فتلخص عمله في هذين النقطتين.

وعندما كان في الردهة تقابل مع عامل النظافة.. كان رجلاً أفغانياً يشتبه هو فمستر دائماً فيه.. يظن أنه يعمل لحساب

طالبان في وطنه.. لكنه لم يبدأ أبدا هذه الظنون.. وسوف تبقى هذه الظنون الآن طبي الكتمان.. وعندما مر عليه غمغم في أدب: "مساء الخير".. على الرغم من أنه لم يعد لديه أدنى شك.. في أن هذا الأفغاني وأقرانه هم حسان طروادة.. الذي فتح الغرب له كل أبوابه.

عندما فتح الدراجة.. تذكر أن المخطوطة التي بعثها إليه الكاتب الأذربيجاني.. مترجمة إلى الإنجليزية.. لكي يراجعها.. لا تزال في حقيبته الجلدية.. فأخرجها وأراد أن يرجع فيضعها على مكتبه من أجل من يأتي بعده.. ولكنه توقف وتراجع عن هذه الفكرة، وأعاد المخطوطة إلى الحقيبة مرة ثانية.. فلن يفقدها أحد.. لأن كل شيء سيتغير.

أصبح بذلك رجلا حرا قبل إمتحان تيرزا في الدراسة الثانوية.. حر من الإلتزامات.. حر من حياة المكتب.. حر من الضوابط المالية الحادة.. لأن راتبه سيظل كما هو دائما.. سيكون حرا من الواجبات التي يكرهها ورغم ذلك عليه أن ينجزها.. إقامة المؤتمرات على سبيل المثال.. إن تلك الحرية التي هبطت عليه فجأة وأخذته في أحضانها.. تمتد أمامه الآن مثل صحراء شاسعة.

بعد ذلك أخذ يعد طعام العشاء: شريحتين من لحم الضأن.. وبينما هو يطبخ قال في نفسه: هذا عار.. من العار أن تكون بلا فائدة.. ولكن ربما كنت هكذا دائما.

بعثت هذه الأفكار - ذات الصوت العالي - في نفسه بعض الطمأنينة.. كأنها خففت من وطأة شعوره بأنه بلا فائدة.. عندما واجه نفسه بصراحة. أخذ مطحنة الفلفل وطحن بعض الحبوب الطازجة بداخلها.

وجلس على المائدة مع تيرزا.. وعندما انتهت من طبقها سألته:

- كيف كان يومك؟

- جيد، الكثير من العمل.. لقد جمعنا لتونا قائمة بالكتب التي ستنشر في فصل الخريف.. سوف يكون برنامجا جميلا.. وكيف تجري الأمور معك في المدرسة؟
في الصباح التالي ركب الدراجة مثل كل صباح في حوالي التاسعة.. معلقا الحقيبة الجلدية في يده اليسرى.. ذاهبا

باتجاه وسط المدينة. ولكن قيل أن يصل لمنتزه لايدسبلاين
بقليل بدا له أن هذه الفكرة ربما لا تكون جيدة.. ما الذي
بقي له في وسط البلد لبحث عنه؟ بإمكانه إذن الذهاب
والجلوس في إحدى الحانات.. ولكنه سيخاطر عندئذ بمقابلة
زملائه.. الذين سيتساءلون عما يفعله في مثل هذا الوقت..
في منتصف النهار.. هنا في هذه الحانة..
نزل من فوق الدراجة.. فكر قليلا ثم عاد فركب الدراجة
متجها نحو الجنوب... فنزل وأغلق دراجته.. كان التعب قد
ألم به عندما وصل لمحطة زويد

وتمشى لبرهة خلال الصالة.. حاملا الحقيبة الجلدية تحت
ذراعيه.. حتى بدأ يشعر بالملل.. إلى متى أستطيع أن أتنزه في
محطة مثل هذه صغيرة نسبيا؟ لقد تصفح معظم المجلات
الموجودة في الكشك.. نظر في الساعة فأراها لا تزال العاشرة
وعشرون دقيقة.. كأن وقت الحرية يمر عليه ببطء.. عندئذ
وبدون تفكير.. قام بشراء تذكرة لمطار شيفول.

وهناك تحرك عبر صالات المغادرة.. الأولى.. ثم الثانية..
وأخيرا وصل إلى صالة الوصول.. هناك شعر بالجوع فاشترى
ساندويتش وجلس يأكله على أحد مقاعد الصالة.. ثم أخرج
من حقيبته الجلدية مخطوطة المؤلف الأذربيجاني.. وبدأ
يقرأها.. ثم يضع بحكم العادة القديمة بعض الملاحظات
بالقلم الرصاص على أماكن متفرقة من حواف
الصفحات.

وبعد أن انتهى من أكل الساندويتش.. اشترى تفاحة..
وجلس ما يقرب من نصف الساعة جالسا في قاعة الوصول
يلاحظ المسافرين.. ثم رفع يده فجأة.. كأنه يلوح لأحد.. كان
أحدا يعرفه هوفمستر يقف على الجانب الآخر من سير
الحقائب.. وهو يلوح له بجنون.. كأنه قريب.. أو زميل
طيب.. أو صديق شبابه.. الذي لم يره منذ ثلاثين سنة.
لم يكن يفعل ذلك إلا ليبعد الشبهة عن نفسه.. فمن
يروح ويجيء طوال النهار في شيفول من الضرورة أن يشته
فيه.. وخاصة هذه الأيام.. الجميع محل شبهة.. بل إن الركاب
يمارسون هذا على بعضهم.. وكلهم يشتبهون في بعضهم
البعض.

وفي الرابعة والنصف وجد أنه يستطيع العودة إلى المنزل
بضمير مرتاح.. كان اليوم يمر ببطء في بدايته.. ولكنه في

النهاية مضي كطرفة عين.. فاستقل القطار إلى محطة وسافر من هناك إلى المنزل عبر شارع فان ايجنز زويد أمستردام .. في المنزل غسل يديه وقام بتحضير طعام العشاء: دجاج مع البطاطس المقلية.

وبعد الطعام قال لتيرزا: عليك أن تخبريني إذا كان علي أن أراجع معك المواد من أجل الإمتحان.

- ليس ضروريا، بابا.. كيف كان العمل؟

- على ما يرام.. سوف نغرق لأذينا من كثرة المخطوطات. ومن حينها وهو يذهب في الخامسة صباحا كل أسبوع إلى شيفولي.. كان العمل في دار النشر يعجبه أكثر مما هو فيه.. ولكن المطار لم يكن سيئا أيضا.

أصبح ذلك لدى هوفمستر روتين ثابت.. يذهب كل صباح فيتحقق قاعتي المغادرة.. ثم استراحة الغداء.. ساندويتش وتفاحة.. ويشرب الماء في حمامات الرجال.. واثناء استراحة الغداء يقرأ في مخطوطة الكاتب الأذربيجاني.. وبعد الظهر يتفحص قاعة الوصول.

كان يعتني بالقاعات.. فهكذا كان يشعر.. يراقبها ويهتم بحمايتها.

وحتى لا يثير الكثير من الإنتباه.. كان يقف بين الحين والآخر أمام إحدى الشاشات.. يزفر بصوت مسموع ويتمتم قائلا: اللعنة.. دائما متأخر.

كان يشتري أيضا وردة من حين لآخر.. يقف بها أمام زجاج قاعة الوصول.. كي يلوح بها لمسافر وهمي.. ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا عندما يشعر بأنه إن لم يفعل ذلك فسوف يثير اهتمام الكثيرين.. كان يترك الوردة أحيانا في القطار.. وأحيانا يأخذها معه للمنزل.. يشذبها ثم يضعها في كأس في المطبخ.

كان قد أصبح مثل حارس أمن.. فقد أصبح باستطاعته أن يقف لدقائق أمام كاميرات مراقبة القاعة.. وفي معظم الأيام يقف ويسجل بنفسه ملاحظات في أجندة مواعيده عن الرحلات الجوية المتأخرة.. ثم يراجعها في نهاية الأسبوع ويلاحظ مثلا أنه في الثاني من يونيو قد أقلعت طائرة كيه إل إم نحو فارشاو متأخرة.

وبعد أسابيع قليلة أصبح يشعر أنه قد قضى معظم حياته هنا في شيفول.. وأن العقود التي قضاها في دار النشر لم تكن سوى سراباً.. ليس فيها شيء واقعي.. إذ لا فرق كبير بين العمل في الحديقة أو نشر الكتب وبين ملاحظة الطائرات المتأخرة.. ومراقبة المسافرين وأمتعتهم.

فقبل سنتين.. وبينما هو في رحلة بحرية تقيمها الشركة للموظفين بها على قارب في نهر لينجه.. ومن شأن هذه الرحلة أن تعمل على تقوية العلاقات الداخلية بين الموظفين.. جلس بجانبه أحد زملائه وسأله: يورجن.. لأي شيء تعيش بالضبط؟

حداً في بعضهما البعض لعدة ثوان وهم في النهر.. الذي يخيب آمال هوفمستر بسبب بعض الذكريات في شبابه.

قطع هوفمستر هذا الصمت الطويل بجوابه: أعيش من أجل عملي.. من أجل دار النشر والأطفال.

أما بالنسبة لزوجته فإنه في الوقت الراهن لم يعد يستطيع أن يحيا من أجلها - دون أن يسخر من نفسه - لأنها هي من أخذ حياته منه.

ولكنه الآن عليه أن يعترف أن جوابه قبل سنتين لم يكن صحيح تماماً.. فهو لم يعد يعمل الآن.. وبالكاد لم يتغير شيء في حياته.. فبدلاً من ذهابه خمس مرات في الأسبوع إلى نهر ألتهنجرأخت.. يذهب الآن خمس مرات في الأسبوع إلى المطار.. فقط هو لا يرى بشراً كثيراً - أو لا.. على العكس.. هو يرى الكثيرين.. ولكنهم لا يرونه.. أو إن كانوا يرونه في الماضي.. فالقضية تبقى كما هي بطبيعة الحال.. إنه لم يعد يعيش من أجل عمله.. وفوق ذلك لم يتغير أي شيء جوهري في حياته.. فهو يعيش من أجل الأطفال.. من أجل تيرزا.. وهذا ما كان عليه قوله حينها.. على القارب السياحي.

مرور الوقت أصبح يعرف مكان كل صناديق القمامة في المطار.. أو على الأقل في قسم الجمارك الذي كان يجلس فيه.. أصبح يعرف كل أكشاك الجرائد.. كل نقطة تفتيش.. كان يلاحظ كل تغير يحدث، وذلك يعني له نشاز في إيقاعه اليومي.. لم يعتقد أبداً أن الآخرين في الجحيم.. بل إنه كان يجد دائماً أنه من الغريب أن تنتشر مقولة لسارتر بهذا الشكل.. مع أن له مقالات أفضل وأهم.. وليست ساخرة كهذه.. أو سوداوية.. وتحتوي على بغض للبشر.

ولكن ما اكتشفه بذلك هو أنه كلما ابتعد الإنسان عن الواقعية بشكل أكثر كلما قبله الناس بشكل أكثر.

كان ينتظر في صالة الوصول.. مثل عشرات.. وأحيانا مئات آخرين.. ولكنه بخلاف الآخرين كان ينتظر شخصا آخر.. ليس موجود.. يستقبل شخصا لن يأتي أبدا.. يلوح دون أن يعتقد أو حتى يأمل أن يأخذ شخصا في الجانب الآخر تحيته هذه على محمل الجد.. لم يكن يلوح بيده إلا لكي يعتقد المارة أن: من يقف هنا هو رجل طبيعي تماما.

كان لإستقبال المسافرين الذين لن يأتون أبدا مزاياه.. التي أعفته من القصص المملة.. ومن خيبات الأمل.. ومن الإتهام المتمثل في هذا القول "أنت لا تنصت إلي".. أعفته من التوتر.

ذات مرة اقترب منه رجل يبدو أنه سائق تاكسي.. وكان يحمل لافتة مكتوب عليها اسم أحد المسافرين.. وقال له: أرى أنك ستقف أيضا لفترة هنا.. هل يمكنني أن أتفضل وأسأل: منذ متى؟ وأي طائرة تنتظر؟

كان من المفترض على هوفمستر أن يقول: تقريبا منذ ستة أسابيع. إلا أنه قال: منذ بضعة ساعات. واحتضن حقييته الجلدية كأنها فيها حياته.

أصر السائق.. وكان رجلا تفوح منه رائحة العرق، ممتلئ الجسم.. على أن يسأل: أي طائرة تنتظر؟

أي طائرة ينتظر؟ لم ينظر في الأمور أبدا بعد هذه النقطة.

ولكنه قال في النهاية: ليست واحدة بعينها.

ثم فتح الحقيبة الجلدية باحثا عن تفاحته.. وعندما وجدها أخذها وجعل يقضم منها.. كان السائق ينظر إليه.. كأنه يأمل أن يبدو منه شيء.. أو كلمة.. أو نظرة.. أو علامة تدل على التفاهم.. فهما رجلان مسنان يقفان في قاعة الوصول.. ويعرفان.. ماذا يعني الإنتظار.. ولكن كلمة لم ينطق بها هوفمستر.. كان يأكل تفاحته.. بينما عيناه تحدقان في سير الأمتعة رقم ١٢.

وحتى الآن.. عندما أصبح عمله يسمى شيفول.. لا يغادر المنزل أبدا بدون حقيته الجلدية.. كان قد تلقاها هدية من زوجته.. قبل إختفائها الأول بوقت طويل.. وقبل ايبي أيضا بوقت طويل.. عندما كانا يعيشان معا لأول مرة.

كلما كان عدد الناس أقل.. كلما أصبحوا لطفاء.. هذا ما اكتشفه في المطار.. ولكن هذا لا يعني أنه ينطبق أيضا على البشر الحقيقيين.

كان فيما سبق محررا للأدب الأجنبي.. فحياته كانت عبارة عن اشتغال بالظواهر الخيالية.. أو في أغلب الأحوال بالظواهر الممكنة.. والآن امتزجت الحقيقة بالخيال.. وبدأت الحدود تتميع بينهما.. يحيطهما الضباب مثلما يحيط المطار في صبح يوم من أيام سبتمبر.. وما استيقن به هو فمستر في هذه الأيام وتأكد منه هو أن الحقيقة لأبد أن تقهر بسياط الخيال وإلا هوت بأحدهم كحصان يكره السرج فيطرحه عن ظهره.

كان يبسط يده اليمنى ويلوح عاليا بأقصى ما يستطيع.. وفي بعض الأحيان كان يقف عند حاجز ضبط الجوازات ويلوح بيده لأولئك الذين لا يلوح لهم أحد غيره. أكل بمفرده أول مقلاة سردين بكاملها.. وبعد ذلك ذهب إلى الأعلى.. باب الحمام مفتوح الآن.. وإيبي قد غادرت البانيو.. وفي غرفة النوم لا تزال زوجته تجلس أمام المرأة.. وقد انتهت من تجفيف شعرها.. ترتدي تنورة من الجينز بينما نصفها الأعلى من جسمها لا يزال مجردا من الملابس.. وفي فمها سيجارة مشتعلة.

سألها ولا تزال شفتاه تلمعان من أثر الدهون المتبقية من السمك:

- ما هذه؟.. وأشار إلى التنورة باسطا ذراعه.
لم تحول نظرها عن المرأة.. وقالت له دون أن تخرج السيجارة من فمها:

- هذه؟ تنورة إيبي.
- نعم، أرى ذلك.. أعرف أنها لايبي.. ولكن لماذا ترتدينها أنت؟

عندئذ أخرجت السيجارة من بين شفتيها.. وتخلت عن دور النجمة السينمائية.. وعادت إلى طبيعتها.. فأصبحت الزوجة.. المرأة التي عادت إلى البيت فجأة.

- أرتديها لأنه ليس لدي شيء آخر أرتديه.. وهي تناسبنى.. وأنا في نحافة إيبي تقريبا عندما كانت في الخامسة عشر.. ولكن هل ما زلت تذكر كم كانت بدينة؟ عندما كانت

هكذا في أوئل عمرها.. وكنا نسميها "صندوق قمامتنا".. لأنها كانت تلتهم كل ما تبقى منا.. وكانت تجوع طوال اليوم. كان هوفمستر يهز رأسه.. لم يكن يريد أن يخوض الآن في الكلام عن الماضي.. وليس الوقت مناسباً للتحقيق.. ولكنه تساءل: أي وقت إذاً هو المناسب.. فقال لها:

- لا يليق هذا.. التنورة.. في الواقع هذا بعيد جداً عن اللياقة.. ولا أريدك أن تدخني في حجرة النوم.
نظرت الزوجة في المرأة.. كان تضع أمامها فرشاة، والمجفف.. وأحمر شفاه ومشط ودبابيس الشعر جنباً إلى جنب.. كانت تبتلع الدخان وتنفخه مثل طفل يحاول التدخين بينما هو لا يستطيع أن يدخن.

- كيف - "لا يليق!".. ألا تناسبني؟
قال هوفمستر: "إنها..." وضغط على أنفه كأنه مصاب بنزلة برد.. ثم تركها وأكمل قائلاً: ليس المقصد أن تناسبك أولاً تناسبك.. ولكنها قصيرة.. إنها ميني روك.. لا تستر شيئاً.. وهذا لا يليق.

- هل تجدها قصيرة؟ ألا تعجبك ساقاي؟
ثم تحولت و مدت ساقها بإرهاق في الهواء: ألا تعجبك؟
لقد كنت أظن أنك تجد ساقاي جميلتان.. لقد جعلتهما ملساوين لا شعر فيهما.. خاصة من أجل مساء اليوم.
أجابها هوفمستر وهو يدلك زراعه الأيمن:

- أجد التنورة مثل تنورة عاهرة.
حملقت فيه: عاهرة؟!!

- نعم، عاهرة، وليس عندي كلمة أخرى غير هذه.. وأجدك - ويؤسفني أنني مضطر لقول ذلك - أجدك عجوزة على لبس هذه التنورة.. إنها للبنات في سن الثامنة عشر.. لمثل تيرزا وصديقاتها.. ولكنهن أنفسهن لا يلبسن مثل هذه.. فتأتي أنت وترغبين أن تفعلي ذلك وبكل سرور.. مع أنك لست صديقتها.. أنت أمها.

عادت فجلست كما كانت أمام المرأة.. وأشاح هوفمستر ببصره بعيداً عن ساقها.
قالت:

- لقد كنت أظن أنك تهوى العاهرات الصغيرات بشكل شديد.. أن كل الرجال عامة يحبون ذلك؟ أن العهر يعجبهم..

على الرغم من أنهم لن يعتزفوا أبدا.. فالرجال مثلك لا يعتزفوا أبدا.. لا يعجبهم الإحترام.. أو التحفظ.. والأدب.. وسأريك ما لدي، يا يورجن.. فإن لم أفعله الآن فلن يكون له معنى.. خلع القميص الكاجوال.. قميصا كلاسيكيا سيكون أفضل.. علاوة على أنه جعله يتصب عرقا.. فالجو حار جدا.. وسيجد الضيوف هذا المساء المنتظر رائعا.. ولكن سيكون عليه أن يخدم.. ويراقب الأيدي.. فاليد الفارغة تعني معدة فارغة.. سوف يطعم الجائعين ولن يكون بلا فائدة.. لن يصبح بلا فائدة بعد الآن.

كان التي شيرت مبتل جدا.. فألقاه على السرير.
وقال بينما يبحث عن قميص:

- إنها حفلة تيرزا.. وإذا كان لأحد أن يظهر شيئا اليوم.. فهي أحق شخص بذلك.. ولكنها لم تفعل ذلك.. تواضعا منها واحتشاما.

- ولكن ما الذي عندها لتظهره يا يورجن؟
أخذ قميصا من الدولاب وذهب نحوها فقال لها: ماذا تعنين بذلك؟ ثم خلع القميص من الشماعة وكرر مرة أخرى:

- ماذا تعنين بذلك؟

أخيرا.. خرجت السيجارة من فمها.

- ماذا أعنى بذلك؟ أنت تعرف أكثر مني ماذا أقصد.. إنها

ليس لديها شيئا في صدرها على الإطلاق.. مسطحة كطاولة الكي.. لا مفاتن في الأمام ولا في الخلف.. أنا لا أعرف كيف يمكن أن لا تملك بناتنا مثل هذه المفاتن.. التي ما زالت لم تضمر عندي.. انظر إلي.. انظر ماذا طرأ على جسمي.. أصبح لدي تثنيات.. ألا يدهشك أن الرجال يسمونني "شهوانية"؟

ترك هوفسمتر القميص يسقط من يديه.. ولم يبق في يده غير الشماعة.. كان يحرق في زوجته.. معتقدا أنه سيصاب بالجنون.. بالجنون المطلق.. هذه الأسرة تقودني إلى الجنون.. لا، ليس هذه الأسرة.. هذه المرأة.. زوجتي.. كيف كنت أنتظرها.. وأجلس بجانب الهاتف.. أفكر هل علي أنا أن أتصل.. ثم في النهاية أتركه مرة أخرى.. كيف أمكنها أن تظهر في حياتي.. وأنا أكرها أشد الكره.. ليتها لم تعود.. ليتها ظلت بعيدا.. لكان ذلك أفضل.. هل يعقل أن يغار أحد من ابنتيه

فلذتي كبده.. تغار منهما وتحسدهما؟ وعلى كل الآخرين..
الجيران والزملاء والأقارب والزوج والنساء.. كيف يمكن هذا؟
كان هو فمستر هكذا أيضا تقريبا مع الآخرين.. ولكن ليس
مع أطفاله.

ومن شدة توتره لم يلاحظ أنه يضرب ساقه بشماعة
خشبية..

وأخيرا انطلقت الكلمات من فمه كالسيل:

- كيف يمكنك قول ذلك عن بناتك فلذات أكبادك؟
وكلامك ليس بصحيح.. وهو أسوأ شيء سمعته.. تيرزا امرأة
شابة.. جميلة ورائعة.. تثير الجميع.. وكل الشباب مغرمون
بها.. هائمين في عشقها.. أسمع كل معلمها يقولون هذا.. ولا
أعرف فتاة في جمالها.. وهي ليست مسطحة.. وهذا نعمة
أنها لا تتمتع بمثل هذه الأثداء المتدلية المترهلة المبتدلة..
التي لا يقف لها إلا الأتراك والمغاربة.

استدارت وابتعدت عن المرأة. ثم سألتها: أثداء متدلية؟
استمر يضرب على ساقه في إيقاع بالشماعة.. وكانت
غنيمة من إحدى الفنادق السويسرية.

- انظر بعين الإنصاف يا يورجن.. هل يتدليان؟ هل
تسمى ذلك تدلي؟ هل أنت عجوز جدا لدرجة أنه لم يعد
بإمكانك أن تنظر جيدا؟ هل تحتاج نظارة؟ ألم تعد تعرف
الفرق بين "مثيرة" و "بين الأثداء
المتدلية؟

أمسكت صدرها الأيمن وجعلت تتحسسه.. لا.. لم
تتحسسه.. بل تدلكه بلا مبالاة.. وفي هذا الوقت توقف
هو فمستر عن ضرب ساقه.. ففي مكان ما في المنزل أغلق أحد
الأبواب محدثا ضجيجا.

كان قلقا أن يبدأ شجار والحفلة على وشك البدء فقال:

- حسنا.. ليسا متدليان.. ربما ليس بعد.

إنه يحتاج إلى ذهن صاف حتى يستطيع أن يقوم على
خدمة الضيوف.. يحتاج إلى كامل تركيزه للسردين..
للكوكيتلات.. للنبيذ.. ولكنه الآن لا يستطيع أن يتراجع فقد
تشجع هذه المرة وقال الحقيقة.. فأكمل كلامه قائلا:

- لست خبيرا في هذا المجال.. لا أعرف متى تكون الأثداء
طبيعية ومتى تبدأ في التدلي.. ولكني أعرف.. أنهما سيتدليان
قريبا.. هذا ما أراه.. بل إنهما بالفعل يتدليان قليلا.. وألاحظ

أن الزمن عفا عليهما كما عفا عليك أيضا.. ولهذا السبب عدت.. لأنه لم يعد بإمكانك الذهاب إلى أي مكان آخر.. لأنك تعرفين أن كل شيء قد انتهى.. مغامرتك.. مغازلتك.. ملابسك ذات الصدر المفتوح.. رسوماتك.. كل هذا في الماضي.. عفا عليه الزمن وانتهى.. لذلك أنت هنا.. لأنك لا تستطيعين أن تذهبي لأي مكان.. ولكن هذا ليس مبررا لأن تتحدثي عن ابتك بهذا الشكل.. ابتك التي تقيم حفلتها اليوم.. إنه شيء مقزز.. يصيبني بالغثيان.. إنك الآن كما كنت دائما في الماضي تجعليني أشعر بالغثيان.

كان يشعر بالأسف من هذا الكلام.. حتى وهو يقوله كان يشعر بالأسف.

ثم عاد ففكر: إنه الجنون.. لقد حلت لعنة على هذه الأسرة.. ربما حلت اللعنة عليّ أولا.. ولكنها أيضا حلت بعد ذلك على هذه الأسرة.. وسواء حلت على أي أحد.. على زوجتي.. على أبنائي أو عليّ.. ففي النهاية قد حلت علينا جميعا. واللعنة هي ما نتقاسمه معا.

لم تنطق ببنت شفة.. لم تزد على أن أمسكت بحلمة ثديها الأيمن بين أظافرها.. كان يبدو أنها تقرصها.

التقط قميصه ووضع شماعة الملابس على السرير.. لقد ذهب

الأسرة جميعها ذات مرة إلى جزيرة كوراساو.. Curaçao إلا أنه لم يشعر فيها بالحر مثلما يشعر الآن.. بسبب الإثارة.. والوقوف على الموقد أمام السردين.. والزيغ الساخن.. وقميصه الكاحوال الذي تنبعث منه الروائح.. روائح السمك والدهون.. سألته:

- يورجن، هل نرغب في ممارسة الجنس؟
كانت تنظر إليه في المرأة.. وأمامها المجفف.. واحد من آخر هدايا هوفمستري.. تقف وجسمها عاريا حتى يغطي بقبته تنورة إيبى.. كانت الساعة الثامنة وخمس دقائق.. فسألها: الآن؟

- نعم.. الآن.

نظر إلى الساعة.

- ولماذا؟ إن كان يمكنني أن أسأل؟

- ولم لا؟

- ربما يأتي الضيوف في أي لحظة.

هزت رأسها:

- ولكنهم لم يأتوا بعد.. لماذا تكون مذعورا دائما بسبب الضيوف؟ إنك تبالغ جدا.. فليس لديك فكرة متى تبدأ الحفلات هذه الأيام.. لأنك موضة قديمة.. لقد كنت هكذا دائما.

- "الأطفال...." كان يريد أن يضيف شيئا آخر ولكنه قرر أن يكتفي بهذه الكلمة.. فأعادها كاملة: "الأطفال".. فهذه الكلمة ستوضح كل شيء.

- إنها تستمتعان.. وهما راشدتان.. هل نسيت ذلك؟ بناتك أصبحن راشدات.. لم يعودا أطفال بعد الآن. نظر طويلا إلى الطفاية أمام المرأة ثم قال: كنت أفكر.. أعني لماذا هكذا فجأة؟

- حسنا، فجأة - ولكن لا يمكن أن يسمى هذا فجأة، يايورجن.. لقد فعلنا هذا دائما.

- ولكنه كان يتحول دائما إلى كارثة.

- نعم، يا إلهي، إن كان لا بد وتريد أن تسميه كذلك. كانت لا تزال تنظر إليه في المرأة.. وبينما كان يبادلها النظر.. اتضح

له أنه قد قضى جزء كبير من حياته مع هذه المرأة.. كانت في الحقيقة أفضل فترة وأكبر فترة.

- لقد كنت أظن أنك لا تريدين هذا.. فقد كنت تجدينني مثيرا ولكن ليس جذابا.. ولا يهم ذلك.. ولكن هذا ما قلتيه.. ولن يتغير هذا فجأة هكذا؟ ثم أخذ نفسا عميقا وشاملا كأنه عند الطبيب.. واستطرد قائلا:

- كنت أظن أنك جئت.. لأنك أردت أن تعرفي كيف حالي وحال الأطفال.

وأغلق الباب بهدوء كما يفعل اللص.. وشرع يتحدث كأنه محام يقوم بالمرافعة أمام القاضي في المحكمة:

- لقد جئت زائرة.. هل اتفقنا.. ولن نبدأ من جديد؟ لقد كنا متفقان على أننا لن نعاود فعل ذلك.. وقد بدأنا عدة مرات في فعل ذلك.. وكل مرة كان الأمر يصبح أسوأ.. وقد كنا في الماضي نبرر ذلك دائما فنقول: "بسبب الأطفال." ولكنك

الآن قد قلت بنفسك أنهما راشدتان.. وبسبب الأطفال لم نعد بحاجة أن نفعل ذلك بعد الآن.
على الرغم من أن نصفه الأعلى كان عاريا.. إلا أن العرق كان يتصبب منه صبا.



- لن نعاود فعل على كل حال لماذا؟ علام ذلك؟
- ابتلع لعابه عدة مرات ثم مسح على فمه.. وبعد ذلك حاول أن يمسح العرق على ظهره قدر المستطاع.
- بسبب الكارثة التي تحدث.
- عندئذ ضحكت.. فلم تعد كارثتها بالنسبة لها إلا شيئا مضحكا.. وكل تعليقها على هذا الفشل المأساوي.. هو ضحكة مدوية.
- لماذا تقولين مثل هذه الأشياء عن ابنتك فلذة كبدي؟ أنا لا أتصور ذلك.
- ماذا قلت إذن؟
- أنها ليس لديها مفاتن في الأمام أو الخلف.
- ولكنها الحقيقة! مسطحة كطاولة الكي. - ثم تنهدت وقالت: لن يمكنك أن تحمي أولادك للأبد، يورجن، ليس طوال حياتهما.. وكلما بالغت في حمايتهما.. كلما أصبحتا مدلتين.. وعلينا أن نعهدهما للتعامل مع العالم.. ومن المتوقع أن يقول الناس: صدرها مسطح كطاولة الكي.. إن لم أقل أنا ذلك سيقوله آخرون.. ومن الأفضل أن تسمع ذلك مني.. لأنني أقوله بدافع الحب.
- ولكنها تمتلك وجهها رائعا.
- نعم إنها تمتلك وجهها رائعا وشعرا جميلا وقد لطيفا.. ولكن لا أئداء، يورجن، لا أئداء.

- ولكن تيرزا ابنتك.. ابنتك! التي كانت في بطنك..
تيرزا..... لم يعرف ماذا كانت تيرزا غير ذلك؟

- وماذا في ذلك؟ أنا أعرف أنها ابنتي.. هل ينبغي علي إذن أن أرى أشياء ليست موجودة؟ هي لا تمتلك آثداء.. فقط نقطة بدلا منهما.. وأقول لك الحقيقة.. أنا لا أطيعها.. أعرف أن الأم لا يليق بها قول مثل ذلك.. أعرف أن هذا مفزع وسيء.. وربما أكون أنا هكذا.. ربما أكون أنا مفزعة وسيئة.. ولكنها الحقيقة: أنا لا أطيعها.. إنها ساحرة.. لقد كانت هكذا دائما عندما كانت طفلة: شريرة بكل ما في الكلمة من معنى.. ولم تحبني أبدا، يورجن، أبدا.. حتى عندما كانت رضيعة. ظل يستمع إليها ولكنه لا يقول أي شيء.

أخذ يفكر في تيرزا عندما مرضت قبل بضعة سنوات.. يفكر في مرحلة المراهقة.. في وجودها في حياته.. كان لم يكن أحد غيرها موجود في حياته.. في مدرستها.. وفي النهاية استنتج أن زوجته ربما تكون الأمور مختلطة عليها.. بسبب سن اليأس؟ متى تبدأ هذه الفترة عند النساء؟ تأتي دائما مبكرا.. ككل شيء.. ولكنه كلما أمعن في التفكير.. كلما قوي لديه الإنطباع بأنها كانت هكذا دائما.. مبلبله الخاطر.

- لا تحتاج أن تحبك.. إنها ابنتك.

- إذن فلتعاملني على الأقل بلطف؟! إنها تتجاهلني.

- إنها تسيء معاملتك لأنك تركتها عندما كانت في حاجة إليك.

كان يحتقر كلامه.. فقد كان يجده تافها.

- هل كان علي أن أتخلى عن حياتي من أجلها؟

أراد هوفمستر أن يقول نعم، فالإنسان يضحي بحياته من أجل أبنائه.. وربما يكون هذا الشيء الوحيد الحقيقي في الأبوة والأمومة.. وكل ما عدا يعتبر اكسسوارات.. ولكنه قال بدلا من ذلك: لم يطلب أحد منك ذلك.

- أنت، يا يورجن، أنت.

وهي على وشك أن تشعل سيجارة جديدة.

- التدخين في غرفة النوم يثير اشمئزازي.. وأنت تعلمين ذلك.. وليست الآثداء هي كل شيء.. ومع ذلك فلديها... لديها مرتفعات صغيرة.

- المرتفعات الصغيرة ليست أئداء، يا يورجن.. وماذا تنتظر؟

فتح الأزرار الأخيرة من القميص.. الذي يريد أن يلبسه في وقت لاحق.. فعليه أن يركز على الدور الذي سيقوم به بعد دقائق أو ربما بعد نصف ساعة.. فالباب يمكن أن يدق في أي لحظة.. ودائماً الضيف الأول هو الأصعب.. ولا يزال كل شيء معقماً، وطازجاً لم يلمس.. ستكون التسلية على أشدها.

في الماضي كانت زوجته تقيم احتفالات دائماً.. ولكنه لم يكن يرى أبداً أنها احتفالات جيدة.. وأثناء هذه الحفلات كان ينسحب بنفسه ويعود إلى غرفة النوم.. ولكن في بعض الأحيان كان الضيوف يحاصروه هناك.. كانت أوقاتاً جامحة.. فلا يجد أمامه إلا أن يقف في الشرفة ويشاهد الصخب الذي تعج به الحديقة.. وفي هذه اللحظات يصبح الشعور بالعزلة التامة، الذي لا يشعر به أبداً سوى في هذا الوقت، عذاباً.. ويشعر أن هذا الانفصال هو مرض يسري في بدنه.. مرض شديد الألم.. لم تنبت أعشاب في الأرض لعلاجه بعد.

كان أصدقاء الأسرة أصدقاء زوجته.. وقد كانت المحادثات العابرة

تصيبه بالملل.. لأنه يضطر في غير هذه الحفلات أن يدخل في محادثات عابرة كثيرة مع المترجمين والمؤلفين والزملاء.. إلى أن اكتشف حيلة الدوران على الضيوف بالمقدمات.. فلا أحد مطلقاً يريد أن يتحدث مع الرجل الذي يقوم بتقديم المقدمات.. لذلك أعد نفسه لأن يكون خادماً في عقر داره.. وكان من لا يعرفه يظن أنه الخادم.. كان رقيق مع النساء ولكن بصمت.. متحفظ دائماً.. رجل مندمج مع مهمته البسيطة المتواضعة.. وأحياناً كان ضيوف الحفلة يدهشون عندما يتبين لهم أن هذا الخادم، هذا العبد الودود، هو صاحب المنزل.

سألها: ماذا تريدین؟ ماذا تريدین مني؟

نهضت واقفة.. فظهرت تنورة ابيي ضيقة عليها.. لا تستطيع أن تتحرك من شدة ضيقها دون جهد جهيد.. صدمه المنظر على غير ما توقع.. وأكثر مما كان يظن.. فهذه زوجته.. أصغر منه بسنوات.. وتلبس تنورة ابنتها الكبرى.. ربما المنظر ليس سخيلاً بالضرورة ولكنه يشابه ذلك.

- ماذا تريدان بحق الجحيم؟ ربما يأتي الضيوف في أي لحظة؟

- ممارسة الجنس.

- ولكن لماذا؟ لم يكن ينجح معنا.. وكان الأمر يصبح.. كما أسميته أنت للتو.. كارثة.. ولم يكن الجنس فقط هكذا.. بل لنكن صريحين.. كان زواجنا بأكمله كارثة.

ثم ابتسم.. لأنه أوجز الحقيقة في بضع كلمات بدت لطيفة، ولا يمكن تبديلها.. لا يمكن لأحد أن يغير فيها حرفاً.. ولو حصل حادث مرور.. أو كان في الضباب.. أو تصادم في طريق ذو اتجاه واحدة.

- لأنه ليس لدى أي منا صديق.

ابتعد عن اتجاه باب الشرفة.. مثل حيوان على وشك أن يذبح وهو يهرب مدافعاً عن نفسه فقط لأنه لابد وأن يفعل ذلك.. ولكنه يعرف أنه سيدبح.

تغيرت ملامح وجهها.. ونظرت إليه مستفسرة:

- أو يوجد أحد؟ هل يوجد أحد لم أعرفه أبداً؟ هل ترافق أحداً؟ ولا تريد أن تقول؟ ماذا كنت تفعل بالضبط كل هذا الوقت الذي لم أكن موجودة فيه هنا؟

هز رأسه نافياً:

- لا - لا، لا أحد.. لا شيء منتظم.. لا شيء يستحق الذكر.. ولكن لماذا لم تبق مع حبيب الشباب؟ على المركب السكني؟

ثم أغلق باب الشرفة خوفاً من أن يسمعهما الأطفال. توجهت نحوه.. فبدأ قماش التنورة كأنه سيتقطع إرباً.. وقالت:

- كان هناك مشكلة.. هل تريد أن تعرف ما هي؟
أوماً:

- بالطبع أريد أن أعرف ماذا كانت المشكلة؟ قصي- علي ولكن أوجزي.

- كان يريد إنجاب طفل.

ضحكت عندما تذكرت ذلك.. ابتسمت حتى بدت ثناياها.. وهي تقف أمامه نصف عارية.. تشبه إيبى.. أو بالأحرى.. إيبى هي التي تشبهها.. أما تيرزا فلا.. لم تكن تيرزا تشبه أحداً.

- لماذا لم تنجبا أي طفل إذن؟ كان لا يزال يمكنك ذلك عندما ذهبت.. فقد كنت ولودة حتى آخر لحظة.. وكان من السهل لو فعلت ذلك.

لأنه لم يكن يستطيع.. لم يستطع فعل ذلك لأنه كان عقيما.. وكان هذا عيبه هو.. وعند ذلك ثار علي وأصبح فجأة عدوانيا.. وألقي اللوم علي.. ثم جن جنونه.. وهذا ما حدث.. يايورجن.. والآن أنت مندهش، أليس كذلك؟ ثم ابتسمت مرة أخرى.

وضع القميص، الذي كان ممسكا به طوال الوقت في يده، على السرير.. وألقى نظرة على الساعة.. ماذا يريد من هذه المرأة أكثر من ذلك.. فقد أنجب منها ابنتين وقضى- معها نصف حياته تقريبا؟ في الحقيقة لا يريد أكثر من ذلك.. لماذا لم يقل لها منذ ستة أيام عندما ظهرت فجأة بعد أن انتهت من تناول الطعام: سأحجز لك غرفة في فندق.. هل سنرى بعضنا غدا؟ هل سنتقابل ثانية لنحتسي- معا فنجانا من القهوة؟

لماذا لا يستطيع أن يتركها تغادر؟ لقد حان الوقت لذلك.
- كانت حيواناته المنوية ميتة.. ثم يكون خطأي. قالت ذلك وضحكت كأنها قالت نكتة لا يفهم أحد غيرها ما المقصد منها.

انحنى وخلع حذاءه.. ثم نظر إليها فأومأت الزوجة برأسها.

خلع هوفسمتر جوربه أيضا.. وكل ما يفكر فيه أن السوشي والساشيمي في الأسفل ينتظرا الضيوف في الثلاثية.. وهو فخور بذلك.. فخور بما أنجزه بعد الظهر في المطبخ.. بالحب والتفاني.

وضع الجورب في الحذاء وهو يقول: حيوانات منوية ميتة.. هذا قاس.

وبسرعة البرق خلع البنطال أيضا.. وعلقه بحرص حول الكرسي.. فهو أفضل ما عنده.. وعليه أن يلعب فيه دور المضيف طوال المساء.

وبذلك كان يقف في غرفة النوم بسرواله الداخلي فقط.. بدت له بطن صغيرة.. تكاد لا تذكر بالنسبة لرجل في نفس عمره.

سألها: لماذا عدت؟

تنحنت.. ثم أجابته:

- لقد قلت ذلك بنفسك.. أنت تعرف لماذا.. لقد كنت تعرف طوال الوقت.

- ماذا قلت أنا؟

- أنه ليس لدي مكان آخر أذهب إليه.

نظر إلى التنورة.. نظر إلى طيات الدهون التي تتدلى على حزام التنورة.. في الواقع لم يكن منظرها قبيحاً.. بل كان منظرها مغرياً.. وهذه المرأة التي يكرهها ويحتقرها - ليس بصفة دائمة.. فهي تعتبر في أغلب الأحيان ودائماً حبه الوحيد - هذه المرأة حركت قلبه.. أكثر مما كان يظن.. أكثر مما كان يريد أن يبوح به.. وما بقي منها يصيبه بالضعف.. لأنه قليل جداً.. ولا يمكن إنكار ذلك.. لا يمكن إنكار أن ما بقي منها قليل جداً.. إنه الوصي على ماضيها.. وإغوائها.. إنه يتذكر كل شيء.. ويعرف من تكون.. من خلال رؤية كل أفعالها.. فلا تزال مغامراتها العاطفية تحيا بداخله.. يتذكرها كلها واحدة تلو الأخرى.. يوماً تلو الآخر.

قالت: بل إننا ذهبنا لفرنسا.. ولكن الحال هناك أيضاً بقي كما هو.. والحيوانات المنوية الميته لن تعود في فرنسا إلى الحياة.

نظر إلى الأرض ثم عاود النظر إلى الزوجة.

قالت له: لقد هيئت نفسي لك.. وجعلتني بسيطة قدر الإمكان..

هل ترى ذلك؟ لم أبدو أبداً قبل ذلك بمثل هذه البساطة.

قال لها: نعم، نعم. ونظر إليها.

- لم يستطعن أن يكن بسيطات بما فيه الكفاية؟ النساء اللاتي كنت تقابلهن؟

أوماً برأسه.. تنفس بصعوبة.. ليس بسبب الإثارة.. بل بسبب البؤس.

فمن البؤس تذكر أوقات السعادة.. وعليه أن يعترف أنه كان مخطئاً.. وبسبب خطأه خطأ شخصان آخران أيضاً.. أو بالضبط خاطئان آخران.. وأخيراً وخز الضمير الذي يشعر به.
قال: نعم، أرى ذلك.. لم تكوني أبداً بمثل هذه البساطة.. وأنت لي.. لي فقط.

كان لون جوربه أزرق قاتم.. مقلم بخطوط زرقاء فاتحة.. فبدت وهي تطل من حذائه كأنها جني صغير.

قال لها: علينا فعل ذلك بسرعة.. فالضيوف قد يأتون في أي لحظة.. بل من المفروض أن يكونوا هنا الآن.

- نعم.. بسرعة.. بأسرع وقت.. كيف تريد ذلك؟

- كيف تريد ذلك؟

هزت رأسها وقالت:

- أرايت أن الحيوان بداخلك لم يمت بعد؟ أرايت أنه لا

يزال حيا؟

اتجه هوفمستر نحوها.. مد يده وتحسس مفاتها برفق.

- ماذا نفعل هنا؟ ألسنا مسنين جدا على هذا؟ ألا يجدر

بنا أن نتحلى بالعقل؟

ودفعت يده عنها جانبا برفق.. وسألتها: ألا ترى؟ أما زلت

لم تدرك بعد؟ هل أنت أعمى؟ ليس لأحد منا غير الآخر.

كانت تؤكد على كل كلمة.. كل مقطع.. كأنها في حصة

إملاء.

قرب رأسه منها أكثر وسألها: هل الأمر كذلك.. هل هذا

هو السبب الوحيد؟

- لماذا برأيك تظن أنني عدت؟ لأنني كنت أعرف أنك لن

تطردني.. كنت أعرف أنه ليس لديك أحد آخر.. فمن س يرغب

فيك؟ قلننظر إلى أنفسنا الآن، يا يورجن، نحن بقايا الماضي..

نحن ما تبقى منا..

ما تبقى من الحيوان بداخلنا.

- من أين عرفت أنني لن أطردك؟

- أنت لم تطردني أبدا.. لماذا ستفعل الآن؟ وقد كان

الخوف يملكك دائما.. ليس بسبب الهجر.. فقد كنت لا

تهتم.. ولكن كنت تخاف من أن الناس حينها سيجدون

الفرصة للكلام عنك.. فتظهر بمظهر الزوج السيء.. كان

الخوف من التشهير بسمعتك هو الذي يقض مضجعك ولا

يتحرك بسلام.

ازدرد ريقه.

- أنت الآن الوحيد أمامي، يا يورجن،

فالأخرون... "وضحكت".. الآخرون قد ماتوا.. ومنهم من مرض

أو جن.. أو قد وجد شيئا أفضل.. شيئا أكثر شابا.. ولم يعودوا

يرغبوني في.. ولو حتى لإحتساء فنجان من القهوة. ولذلك

يجب أن لا تهدم السعادة الجديدة.. أنت الشخص الوحيد

الذي نجا.. لقد فزت أنت في النهاية.. أنا لك الآن.. كل كياني لك أنت.. لا يشاركك أحد فيه.
إنها اللعنة.. أخذ يفكر.. إنها اللعنة.. إنها لا تترك أحدا أبدا.. تتدلى فوقك كغمامة حتى تموت.. وعندما تموت تطبق على أطفالك.. لذلك لم يكن يرغب في شيء.. لم يكن يريد لللعنة أن تمر حتى يطفن العالم.. ثم يفقد نفسه.. يفقد أولا ايبي.. ثم تيرزا. كان قد نسي- أمر اللعنة حتى قطع صوت زوجته تفكيره:

- هل تجدني عادية؟

نظر إليها وأوماً متعمدا.. قائلاً ببطء:

- نعم.. مبتذلة تماما.

- كيف تريد الأمر يا يورجن.. عليك أن تقول.. فهذه ليلتك.. وهذا الحفل يعتبر أيضا حفلك.. فقد اهتمت بتيرزا كل هذه السنين.

تيرزا.. أيقظه الاسم، وأعادته إلى رشده.. هذا صحيح.. نعم لقد اهتم بها كل هذه السنين.. عاش لها.. وعاش بها.. ومعها، وبجانبها، وتحت أقدامها. أراد أن يصرخ.. يصرخ طلبا للمساعدة.. إلا أن أحدا لن يسمع له حسا.
قال لها: أريدك أن تتمددي على ركبتي.

ابتسمت.. واستطاع هو للحظة أن يتصور كيف كانت تقف أمام

الآخرين.. في الأوقات السعيدة.. كيف كانت تقف أمام عشيقها على سبيل المثال.. على المركب السكني.. فخورة.. لا يمكن الوصول إليها.. استطاع أن يتصور تازجح المركب.. ومراكب الرحلات المارة.. وصراخ السياح وغنائهم.. ثم الصيف.. وأخيرا الحيوانات المنوية الممتة.

جلس هوفمستر على السرير.. ألقى نظرة ناحية باب الشرفة.. كان صراخ أطفال يدوي في حديقة الجار.
قالت وهي تتجه نحوه:

- هذا ما تبقى منا.. ليس كثيرا.. أليس كذلك؟ ولكن حيواني قابل للتكيف.. إنه يدفعني أحيانا إلى الجنون.. إنه نهم لا يشبع.. وكذلك حيوانك لم يمت أيضا، يا يورجن.. إنه هنا ينتظرنى كل هذا الوقت.. ليس عليك قول ذلك.. فأنا أشعر به.. لقد كان ينتظرنى طوال هذه السنين.

وضعت نفسها على ركبته متمدة على بطنها.. لا يزال صوت الأطفال يعلو.. ولكن يصحبه الآن بكاء.. أحدهم قد سقط.. دائما ما يسقطون.. أطفال جارهم.. إنهم صغار وجامحون.

وضع يده اليسرى على تنورة ابنته الكبرى.. تحسس مؤخرة زوجته التي انسحبت إلى مركب سكني.. أهذه قصة حياته.. يالها من أسطورة.

همست: مبتذلة جدا.. منظر مبتذل للغاية لدرجة أنني أكاد أموت خجلا.

كان هوفمستر يربت عليها كقطة قفزت في حجر أحدهم.. فأخذ يربت عليها.

همست: لم أكن مطيعة.. لم أكن أبدا مطيعة.. أنا ملهمتك.. لست إلا ملهمتك.. أنا خيالك الذي تستطيع أن تعتمد عليه، يا يورجن، ولذلك عدت لأنني ملهمتك.. قلها يا يورجن.. قل أنني ملهمتك.

قال: نعم.. أنت خيالي الذي أستطيع أن أعتمد عليه.
رفع التنورة التي لا تخص أمراته قليلا إلى الأعلى.. وترك يده اليمنى تهوي على مؤخرتها بقوة رجل في قلبه غل.. وهو يقول في نفس الوقت:

- لقد تجاهلتني.
ولكنها لم تفهمه.
ضربها مرة أخرى على مؤخرتها بنفس الغل.. ثم قال:
- لقد تجاهلتني.. والآن سأجاهلك.
حتى الآن لم تفهمه.. تقلبت في حجره وخلعت تنورة ابنتها.. ثم سألت:
ماذا تقول الآن؟ لم أفهمك.. ماذا تقول؟

- لا شيء.
- معذرة.. وأخذت تعبت في شعره.
- ماذا؟

ظل جالسا على السرير.. فاستطاعت أن تأخذ مكانا في حجره مرة أخرى.. كأنهما سيواصلان اللعبة ولن تتوقف أبدا.. وكأن أحدا لن يقاطعهما أبدا.
كررت مرة أخرى: معذرة.

- لماذا "معذرة".. وأنت لما تفعلني شيئا.

- لا يمكن ذلك.
- ماذا؟
- ما نفعه هنا.
- لم لا؟ ما المشكلة؟
- ممارسة الجنس.
نهض واقفا.. وسحب مفرش السرير متثاقلا.. على الرغم من أن الأمر اتضح أنه كان كذبة مثلما كان دائما.
قالت:

- كان ذلك خطأ.. لقد أخطأت.. يؤسفني ذلك.. نحن أصدقاء.. أليس كذلك؟.. كنت أتمنى غير ذلك.. كنت أتمنى لو أستطيع، ولكن لا يمكنني أن أدعك تعاشريني.. ليس بعد الآن.. أنا جد أسفة.
لثمته قبلة على رقبته ثم قالت:

- لا أستطيع أي شيء حيال ذلك.. فأنا أجذك بغضاً.. وكنت قد نسيت ذلك.. كنت قد نسيت تماماً.. ولكنني تذكرته فجأة.. فلم يخطر ببالي إلا عندما أمسكتني من هنا.. وأشارت حيث أمسكها.
نهض هوفمستر ثم قال:
- لا عليك.. لقد حذرتك للتو.
فهمست:

- يؤسفني أنني لم أستطع مساعدتك.. كنت أود من قلبي لو أفعل ذلك.
وقفا متقابلان.. مسحت بيديها على شعرها.. ثم فتحت باب الشرفة.. لا يزال الهواء في الخارج منعشاً.
قال هوفمستر: لا أحتاج أحداً كي يساعدني.. لست بحاجة للمساعدة.

وقفت تتطلع في حدائق أمستردام زويده.. بينما يقف، هو، بسرواله الداخلي في منتصف الغرفة يتساءل ماذا يفعل هنا.. من أغراه بذلك.. أي شيطان مسه؟
قالت: هيا أعطني قبلة.. حتى أعرف أنك لست غاضباً.
اتجهت نحوه مسرعة.. أمسكته من رأسه.. وراحا يتبادلا القبل.. لمدة عشر.. أو عشرون ثانية.. يقبلا بعضهما مثل الماضي.. لا.. بل أسوأ.. كانا يقبلان بعضهما كأن الموت جائم على رقابهما.. وفي هذه اللحظة، هذه البضع ثوان.. التي كانا

بقبلا بعضهما فيها.. في هذه اللحظة بدا الأمر أشبه بالماضي.. كانت الحياة قد اختفت في مكان ما في الماضي.. ثم عادت فجأة إلى هذا المكان.. عندما أراد هوفمستر أن يتذكر أنها كانت موجودة ذات مرة.. كأنه لا يسمح له أبدا بأن ينسى ما ينقصه.

دفعها جانبا برفق وهو يقول:

- هذا يكفي.. يجب أن أهيء نفسي للحفلة.
نظرت إليه للحظة والوله تملأ عينيها.. مثلما حدث في الماضي.. عند بدايتهما.. البداية الملعونة.. ثم سألتها:

- هل لديك مبرد للأظافر؟ فأنا أريد طلاء أظافري سريعا بالمانيكور.

وفي هذه اللحظة دق جرس الباب.
نظر إلى زوجته منصتا للضوضاء التي يعج بها منزله.. من جراء فتح باب وارتطام آخر بعنف - لأبد وأنها أبواب الباحة فقد تركها مفتوحة - وليس غيرها.. ثم ساد الصمت.. لم يفتح أحد للضيف الأول.. فانتابه الذعر.. فاندفع نازلا إلى الأسفل وهو يقفز في البنطال وهو يستكمل إرتدائه.

نادته زوجته: يورجن. ولكن لم يعد لديه وقت.
لديه الآن اهتمامات أخرى يقلق بشأنها.. لقد بدأ الحفل أخيرا.

فتح باب المنزل ويده ترتعش فقد جرح نفسه بسبب العجلة والعصبية.. وعلى باب المنزل كانت تقف.. كانت الضيف الأول.. وهو يعرفها وجها فقط.. بل يعرفها جيدا.. ولكنه نسي اسمها.

رفع اصبعه وأشار إليها قائلا:

- الجغرافيا.. أليس كذلك، الجغرافيا؟
هزت المرأة التي تقف أمامه رأسها.. لم تكن في الواقع كبيرة في السن.. ربما كانت في نهاية الثلاثينات على أقصى تقدير.

قالت: فلد كامب.. البيولوجيا.
لم يدرك هوفمستر كيف كان يقف إلا الآن.. كان يقف مشيرا إلى امرأة غريبة.. مشيرا إلى معلمة ابنته الصغرى بإصبع السبابة الدامي.. وحينها سحب يده إلى الوراء.

صفق بيديه وقال: أوه.. طبعاً.. لا تؤاخذيني.. نعم،
بيولوجي.. كيف أمكنني نسيان ذلك؟ البيولوجي.. أنت
يوفروف قلد كامب.. لقد كنا نتقابل دائماً.. والمرة الأخيرة...
نظرت إلى الأسفل.. وهو يتابع نظراتها.. فلم يلاحظ
قدميه الحافيتين إلا الآن.. وكذلك بطنه العارية.
وحينها قال: يا إلهي.

- ماذا؟

- أنا أعتذر.

- مم تعتذر؟ .. أرادت السيدة فلدكامب أن تعرف.

- من هذا.. وأشار إلى بطنه وصدره العاري.

- ولكن لا بأس بذلك.

- كنت أخذ دشاً.. وفجأة سمعت الجرس.. وبناتي... ثم
سعل "بناتي لا يمكن العثور عليهن.

- ربما علي أن أذهب قليلاً وأتنزه حول المنازل؟ لا مانع
لدي.. حقاً لا مانع لدي.. فالطقس رائع.. وأنا لدي عادة سيئة
أني آتي مبكراً دائماً.. هل أبكرت جداً؟

- لم تأتي في وقت مبكر جداً.. لقد جئت في الموعد
المناسب.

ثم أخذ بيدها اليمنى وسحبها إلى المنزل.. وأغلق الباب
بقدمه اليسرى.

ومشى.. أمتار قليلة قبل أن يتذكر أنه لا يليق سحب
معلمة الأطفال هكذا إلى المنزل.. فترك يديها فجأة أمام باب
غرفة الجلوس وقال:

- يجب أن أعتذر إليك مرة أخرى.

أرادت السيدة فلدكامب أن تعرف: لماذا الآن مرة أخرى؟

- أنني أتحرك حولك وأنا بهذه الوقاحة.

ضحكت قليلاً.. ممتزجا ضحكها ببعض السخرية..
وقالت:

- أوه.. لا بأس بذلك.. فأنا أجد أنه من اللطيف حقاً أن
يعبث أحدهم معي من حين لآخر بوقاحة!

نظر إليها متوجساً.. فما يحرجه ليس فقط كونه نصف
عاري بل كان لديه أيضاً شعور بأنها تسخر منه.

قال لها: أنا لست في وعيي.. أظن ذلك بسبب الحرارة..
والحفلة.. والفراق.. فتيرزا ستذهب إلى إفريقيا.. كما تعرفين.

- كلنا نكون أحيانا فاقدون الوعي إلى حد كبير.. سيكون مملا لو كنا دائما في وعينا، سيد هوفمستر.. أليس كذلك؟
غمغم لكي يختبر، إن كانت جادة فيما تعني، ولكي يتخلص من هذا الشعور المقيت.. الشعور بأنها تسخر منه..
فاتضح له أن كون الرجل نصف عاريا لم تعد كارثة في هذه الأيام.. فنصف العالم قد تعرى.. ولم يصبح ذلك سيئا للدرجة التي يخافها.

- ارتاحي.. سأعود في الحال.
صعد الدرج مسرعا.. كانت زوجته في غرفة النوم ولا تزال تطلي أظافرها.. مدت يدها إليه وقالت:

- ما رأيك في هذا اللون؟
لبس الجورب ثم الحذاء.. ثم لبس التي شيرت مرة أخرى..
رغم رائحة السردين التي تفوح منه.. ولكن قريبا ستملا رائحة السردين البيت بأكمله.. ثم وقف لرهة أمام المرأة يلاحظ بدهشة الحزن الذي يعلو وجهه.. الألم الذي يطغى على كل شعور يطبق عليه من حين لآخر.. يلاحظ الخجل.. والخوف.. والعار.

سألته الزوجة: هل هذا لون وردي جميل.. أم متوهج بعض الشيء؟
قال لها: أنت على حق.. ليس لدينا إلا بعضنا.. لن نستطيع أن نحصل على أحد بعد الآن.. هكذا الأمر.

- أهذا لون وردي؟
قربت يدها أكثر نحوه.. فتأذى أنفه من رائحة طلاء الأظافر.. المختلطة برائحة السردين المقلي.

- لن يمكنك ذلك من الحصول على أحد.. لقد أصبحت ورقة محترقة.. وأصبحت بالية.. ولهذا السبب أتيت. - كان يسمع نفسه أكثر مما يريد إسماعها-.

- قل لي أهذا لون وردي أم لا؟
- لا.. وقد جاءت يوفروف فلداكامب في الموعد بالضبط.. ورأيتني نصف عارى.

- من تكون يوفروف فلدكامب؟ لا أتذكر من هي.. عليك أن تعرفني بالناس بعد ذلك.. فقد نسيت أيضا أسماء كل الوجوه.

كانت تتحدث كأن شيئا لا يحدث.. وهكذا كانت دائما.. لا تبالي بأي شيء.

ذهب إلى الحمام وقام بوضع عطر ما بعد الحلاقة بسخاء.. حتى يخفي رائحة السردين.
كانت ابني تنظف أسنانها.. فسألها والعطر يقطر من وجهه:

- أين تيرزا؟

قالت له:

- إنها تحضر صديقها.

ثم واصلت غسل أسنانها.. نزل هوفمستر الدرج والحيوية تغمره والعطر يفوح منه.. فذهب مباشرة إلى المطبخ.. وأحضر الصينية من الثلاجة.. وأزال ورق الألومنيوم.. ثم هرع إلى حجرة الجلوس حيث تجلس السيدة فلدكامب وحيدة على الأريكة.

- سوشي وساشيمي.. وفي المطبخ مايونيز الواسابي لو تريدن.

- لذيذ.

- أعددته بنفسي.

- السوشي؟

- هو أيضا.. ولكنني عنيت مايونيز الواسابي.. لقد أعددته بنفسي..

ليس هذا سهلا.. ولكنني خبير فيه إلى حد كبير.
- أوه.

نظرا قليلا إلى بعضهما.. معلمة البيولوجيا ووالد تيرزا.

ثم قال: لحظة.. ساشغل شيئا من الموسيقى.

ذهب إلى مشغل الإسطوانات.

كانت تيرزا قد أعدت هذه الإسطوانات خصيصا لهذا المساء.. ووضعتهم جاهزين.. على أحد الأرفف.

وضع الإسطوانة وانتظر ليسمع ما سيأتي من الموسيقى.. لم تكن تيرزا قد سجلت فقط الموسيقى التي تحب سماعها.. ولكنها وضعت بعض المقطوعات الموسيقية من أجله أيضا.

فقال مسرورا:

- الأخوات أندرو هي واحدة من أحب المقطوعات إليها.
وهي في الواقع أغنيته المفضلة.. فعندما كانت تيرزا لا
تزال في المهد.. كان يشغل دائما أغنية الأخوات أندرو.. ثم
يراقصها في الحجرة على أنغام الموسيقى.. وحينها كان ينسى..
اللعنة.. فلا لعنة في هذه الدقيقة ولا قصة.. لم يكن يرى غير
الطفلة بين ذراعيه.. لم يكن يرى غير نظراتها.. لم يكن يشم
غير الرائحة الخفيفة التي تنبعث منها.. رائحة اللبن الحامض
بعد الرضاعة.. لم يكن يشعر إلا بحرارة رأسها الصغير..
والأخوات أندرو.

أما الآن فتيرزا ليست هنا.. لم يكن هنا إلا صينية ممتلئة
بالسوشي والساشيمي، ورجل عجوز.. تفوح منه رائحة
السردين المقلي على الرغم من وضعه لعطر ما بعد الحلاقة.
أخذ يددن مع الأغنية.. يغني للسيدة مفروف فلدكامب،
التي تجلس على الكنبه دون حراك.
(سأحاول أن أوضح لك.. أجذك جميلا.. لذلك قبلني
وقل لي أنك تفهمني).

كانت السيدة فلدكامب تبتسم.. لا شك أن لها تجاربا
كثيرة في الحياة.. وانتظرت حتى أتى هوفمستر على نهاية
الأغنية فقالت:

- بعض مايونيز الواسابي سيكون لذيذا الآن.
ذهب إلى المطبخ.. وعاد بمايونيز الواسابي وطبق.. فأعطى
يوفروف
فلدكامب ملعقة خشبية صغيرة.. حتى تستطيع أن تخدم
نفسها.. كانت الملعقة هي الأخرى من المتجر الياباني في شارع
بيتهوفن شترات.
شعر بالفخر عندما رأى كيف تأكل السوشي من صنع
يده.

تذكر سعادته أيام شبابه.. السعادة الشديدة.. الطاغية..
التي لم تكن تروي له غلة.. فبدت له الآن كأنها كانت
شائعة.. كأنها قصة خرافية لم يقدم هو على قراءتها أبدا.
ولم يبق له من شبابه أو ما يتندر به سوى هذه الأغنية
القديمة البالية.

ذهب إلى مشغل الإسطوانات وقام بتشغيل الأغنية مرة
أخرى.. وأخذ يغني ليوفروف فلدكامب.. بينما هي تنظر إليه

في دهشة.. ورعشة من الخوف تتتابها.. ولا تزال تمسك
السوشي في يدها.
أخذ هوفمستر يدندن مع الأغنية " ري دي، ري دي، ري
دي.. ري دي.. ري دي.



في حوالي الساعة التاسعة
أصبح في غرفة الجلوس حوالي أربعة عشر شابا.. بالإضافة إلى
يوفروف فلديكامب، ومدرس الاقتصاد الذي يدعو هوفمستر
هانز.. أما تيرزا فحتى الآن لم يعثر لها على أثر. والزوجة
تختبيء في غرفة النوم.. ربما تدخن وتطيل التفكير في عشيقها
الشاب ذو الحيوانات المنوية الميتة.. تبتسم في سرها ابتسامة
الخل، عندما تتذكر الإحراج الذي تعرضت له.. الإحراج
الهائل الذي تعرضت له.

دار هوفمستر بنفسه بصينية من السمك الطازج.. وأخذ
يقدم نيذ الكبر ويخوض في مواضيع لم يتحدث فيها مطلقا
من قبل. ثم قام بخلط نوعين آخرين من النيذ.. السيريناه
وسكريودرايفر.. فكانت نتيجتهما مبهرة.. لقد فاق كل
تصوراته.. عليه أن يعترف أنه تفوق على نفسه إلى أبعد
الحدود هذا المساء.

لقد سما- دون أن يتكلف ذلك - فوق يورجن هوفمستر
الرجل.. الذي كان قبل سنوات يجلس صامتا في الحفلات التي
تقيمها زوجته.. وحيدا في إحدى الزوايا.. أو يتجول بالمقيلات..
أو يقوم أثناء المحادثات فيذهب لسقي النباتات.. فقد كانت
حفلات صاخبة.. كل ضيوفها من الذكور.. وكلهم أصغر سنا
بكثير من هوفمستر.. وكلهم قد اختارتهم زوجته ليكونوا
عشاقها.

لقد حقق يورجن هوفمستر تقدما.. لقد أصبح مؤنسا..
وأكثر رقة وعذوبة في المعشر.. فهو الآن والد تيرزا أكثر من أي
شيء آخر.. وعندما يستغرقه هذا الدور يصبح مرحا.. وتطغى
هذه الصفة على كل الصفات الأخرى.

وفي أثناء جولة بالإدامامي، وتعني الفول الصويا باليابانية، تعرف على شاب صادفه ذات مرة في الحمام في صباح يوم أحد في الشتاء.. كان الشاب يجلس على البانيو وعينيه حمراوتين.. يبدو عليه البؤس.. ووجهه باهت.. إلا أن الشاب أنكر ذلك عندما ناوله هوفمستر قليلا من الإدامامي.. وحدثه عن ذلك مباشرة، ولكن بطريقة مؤدبة.. أنكر الشاب هذا اللقاء وقال: أنا لم أجيء هنا قبل ذلك مطلقا.. فلم يواصل هوفمستر الحديث عن هذا اللقاء، على الرغم من أنه مقتنع أنه قد رآه في حمامه وشم رائحته. ولكن الشاب له الحق أيضا في كذبة صغيرة في سبيل خدمة حياته الشخصية.

والآن جاءت أيبي إلى حجرة الجلوس وجلست على الأريكة.. بجانب معلمة البيولوجيا.. على الأقل إحدى بناته موجودة الآن.

وبعد صمت طويل نشأت محادثة بين أيبي وبين من أكبرمنها سنا.. كان هوفمستر من وطد لها.. وإلا فإن أيبي أشد عنادا من أن تبدأ هي بنفسها.. ففي الماضي كانت عنيدة مع أي شيء.. ولا تزال الأيام قادمة.. وسوف تتصرف هكذا دائما.

يدق الجرس من حين لآخر.. فيندفع هوفمستر إلى الردهة.. كي يفعل ما كان في الواقع مهمة أبنته الصغرى.. مصافحة الأيدي أو تقبيل الخدود.. إبداء الإعجاب.. وإسقاط الملاحظات.. وتبادل المجاملات. كان هوفمستر يصافح بجرارة شديدة.. يصاحبها في بعض الحالات قوله موضحا - أو ما يناسب كل حالة على حدة: "أنا والد تيرزا." وتعلو عندئذ وجهه ابتسامة.. هو نفسه يجدها ظريفة.

وفي كل مرة يقول: ستأتي حالا.. إنها فقط تحضر صديقها. فيبدو وكأنه يعرف هذا الشاب جيدا.. كأن أسرة هوفمستر قد خرجوا معه في رحلة لثلاث مرات.

كان بعض الضيوف يسلمه هدية.. من المؤكد أنها لتيرزا.. وهم يغمغمون: هاك، إنها لتيرزا. ثم يضعونها في يده دون أن ينظروا إليه.. وذلك - على ما يظن هوفمستر- لأنهم خجلون منه.. فقد كانوا شباب هائمين بعشق تيرزا في يوم من الأيام.. كانوا يكتبون لها خطابات.. أو يبعثون لها رسائل بالحوال.. تدل على شعورهم باليأس.. وبعد ذلك يشعرون بالإحراج الشديد من مثل هذه الرسائل مما يضطرهم إلى عدم الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي.. خجلا من الظهور.. ولكنه

كان ينظر إليهم مشجعاً.. فلا يريد لهم أن يتخلوا عن الأمل.. فالحياة يمكن أن يكون لعنة.. وأهم شيء في الحياة أن لا يتخلى الإنسان عن الأمل.. مهما حدث.. لا يتخلى أبداً عن الأمل.. عليه دائماً أن يواصل.

كان يقول لهم: "إنها ستسعد بها كثيراً." دون أن يكون لديه أدنى فكرة عما يخفيه ورق التغليف.. ثم يضع الهدية على البوفيه بجانب الأمغلفات الأخرى الصغيرة والكبيرة.. وبجانب زجاجات المشروبات التي لا بد منها.. وأيضاً بعض باقات الورد.. فهو يتبع وهو يشعر بالشرف بتقاليد طاولة الهدايا.. فالأسرة لا تقوم إلا بالتقاليد.. وهذا ما يرغب هوفمستر فيه: أسرة صغيرة.. أو حتى نصف أسرة لو اقتضى الأمر.. وهذا ما يجعله يتبع التقاليد بهذا الشكل.. وهذا ما يجعله يواصل فعل هذه التقاليد.. ولو بمفرده على الأقل.

وبينما كان يجوب الردهة حاملاً صينية وثلاثة كؤوس من البيرة.. اثنان من النيذ الأحمر، والآخر من الفودكا.. رأى زوجته تنزل الدرج.. مرتدية التنورة القديمة لإيبي وبلوزة ضيقة.. حتى أنها من شدة ضيقها تبدي كل شيء.. تجسد جسم امرأة بأكمله.

كانت تلبس حذاء بكعب عال، وبلوزة، وتنورة.. فكانت تبدو كأنها لبست كل ذلك للتبرك.

انتظرها حتى تصل إلى الأسفل.. والصينية في يده لكي يحظى منها برائحة خفيفة تطغى على رائحة العرق وعطر ما بعد الحلاقة والسردين المقلي.. وعندما وصلت قال هامساً: ياللعجب.

حتى الآن لم يتجرأ أي من الضيوف على الذهاب إلى الحديقة.

والشموع تحترق وحيدة دون جدوى.. فقد بقي الضيوف في غرفة الجلوس منتظرين للآخرين.. منتظرين لتبرأ. تستعرض الزوجة نفسها أمامه.. متبخرة صعوداً وهبوطاً بالكعب العالي.. ولكن يلبسها الكعب العالي لن تتمكن ساقها من تجنب المقارنة التي كانت تخشاها من قبل.. وقت تعارفهما.. في الأيام الأولى.. في الإصابع الأولى.. وقت أن كان كل منهما بالنسبة للآخر ورقة بيضاء، لا يعرفان عن بعضهما كثيراً.. وقت الحرية التي أنتجت لها سعادتها.. وقد اختفت هذه الحرية في مكان ما في ساقها.. أما هوفمستر فقد كان فقدوها ولكنه استردها في شيفول.. ولكنه الآن لم يعد

بذق طعام الحرية، أو بالأحرى: لم يعد يعرف طعامها الحقيقي.. فهو لا يعرف لها الآن إلا طعام النكد.

في مكان ما في ساقها تختفي ذكريات السعادة.. لقد كانت جميلتين دائماً.. هاتان الساقان.. طويلتان.. نحيفتان ولكن عضليتان. وإذا كانت تريد أن تترك انطبعا.. فإنها تتغنج في تنورة قصيرة.. فتذكر نظرات الرجال الآخرين، عندما اتضح له لأول مرة أنه قد أنجب أطفالاً من امرأة.. هي في الواقع أصغر منه بكثير، ولا تناسب سنه أو حالته.

ولم تكن لوحتها الزيتية عن الحياة الساكنة ذات قيمة تذكر.. ولكن هذه الصورة نفسها كانت غير مسبقة...

كان هوفمستر في السبعينيات يتوقع أن يصبح واعداً.. أنه سيترقى من محاضر إلى مدير للنشر.. سيكون رجلاً يحسب له حساب.. ولكنه ظل هكذا دون تغير في حياته.. يجلس ساكناً في مكتبه في هرنجراخت.. ونظره على الشجر.. يركز في أدبه الأجنبي.. وأحياناً يرمق الشجرة بنظرة.. حتى استيقظ ذات صباح متيقناً أن أحداً لن يحسب له حساب، باستثناء نفسه.. وهذا هو الجحيم.. فليس الجحيم هو الآخرين.. وإنما نفسه هي الجحيم.. إنها تتلظى في أعماقه، مخفية عن الأعين.. مختفية لا يمكن رؤيتها.. ولكنها حية يشعر بها.. حارة تستعر. سألها:

- أليس ذلك مبالغاً فيه بعض الشيء؟
أشارت نحو نفسها وقالت:

- مبالغاً فيه؟ هذا؟ - ثم هزت رأسها واسترسلت:- هل تجد ذلك فوق الحد؟ أنا لا أجده كذلك.. ما المبالغ فيه هنا يا يورجن؟ لقد كلفت نفسي مثل هذا الجهد.. من أجل احتفال تيرزا خاصة.

- حتى ولو.. حتى ولو لأن هذا هو حفلها.. أو أكبر حفلاتها.. ألم يكن لديك قليلاً....

توقف يبحث عن الكلمات والعبارات الدبلوماسية.. نظر إلى ما يبرز من البلوزة.. وبرغم هذه الأشياء كانت تبدو يائسة ومنفرة.. وحينها طرقت رأسه كلمة "عاهرة".. لم يدرك هذه الكلمة إلا الآن.. الآن بعد أن لم تعد زوجته شابة.. يدرك أنها عاهرة، وأنها على ما يبدو كانت هكذا طوال حياتها.. مما دفعه أن يقول:

- ألا يمكنك السيطرة على نفسك بعض الشيء؟

- السيطرة؟ لماذا؟ ألا يعجبك ذلك؟
 دق جرس الباب.. فاهتزت الصينية في يد هوفمستر قبل
 أن تهتز بطنه أيضاً.

- عودي إلى الأعلى مرة أخرى.. وارتدي شيئاً آخر..
 أرجوك.. فهذا لا يليق.. أنت لم تعودي في سن السادسة عشر..
 كلانا لم يعد في سن السادسة عشر.

- ولكن يا يورجن.. سن المرء على حسب ما يشعر.. ألا
 تعرف ذلك؟ وأنا الآن في زهرة شبابي.

ثم دفعت الصينية عدة سنتيمترات جانباً.. ووضعت فمها
 سريعاً على فمه.. ثم همست:

- هل تذوقت ذلك.. زهرة الشباب؟!
 تحول عنها بعيداً.. فلم يكن يريد أن يقبلها، ثانية أبداً..
 كانت هاتان الكلمتان بمثابة التعويذة.. أقصر صلاة في العالم..
 صلاة هوفمستر: ثانية أبداً!

دق الباب مرة أخرى.. وهو يقول:

- هذا عار.. ما أنت إلا وصمة عار يارتدائك لمثل هذه
 الملابس..

تفعلين ذلك بسبب "زهرة الشباب"! لا.. أنا آسف.

أرادت أن تقبله مرة أخرى.. ولكنه ابتعد إلى الوراء..
 فاهتزت الصينية بشدة.. قالت:

- إذن أنا أناسبك تماماً.. إن كنت أنا وصمة عار.. فنحن
 إذن توأم سيامي.. إذن أنا أناسبك تماماً.. أنا المثالية لك.

وأخذت تضحك.. وتضحك كأن شيئاً لا يحدث.. طلاقة
 المحيا.. كأنها تدعم مؤسسة في طور تكوينها.

ثم تركته وذهبت إلى غرفة الجلوس.. وهوفمستر يستمع
 في صمت إلى الأحاديث التي تدور حوله.. بينما ظل واقفاً في
 الردهة.. يود لو يصرخ.. كأحد علق في مصعد ولكن ضيق
 التنفس يخترق فمه.. فلا يستطيع أن يصرخ.

ذهب إلى المطبخ.. فوضع الصينية على البوفيه وصب
 كأساً من النبيذ الأبيض وهو يغغم "زهرة الشباب".. انهالت
 عليه صور أخرى من الماضي.. صور لطيفة أيضاً.. فمستنقع
 ذكرياته يمكنه أن يتمخض أيضاً عن ذكريات جميلة.. فمن
 يتذكر لحظات السعادة.. من المؤكد أنه عاينها.

ذات مرة قال له أحد الزملاء: لا يستطيع المرء أن يحيا بالذكريات فقط.

ولكن هوفمستر مازال لم يعرف لماذا قال ذلك.. حتى إنه لا يتذكر عما كان يدور الحديث.. لا يذكر غير أن الزميل استطرد قائلاً: لا يمكنك أن تظل للأبد تنقب في الماضي.. مثلما لا يمكنك أن تنقب بالسكين في حديقة يابسة.. وإلا فإنك ستكون عرضة لأن تجرح نفسك في أي وقت.

وبعد فترة أصيب زميله بسكتة دماغية. إن الإنسان أسير ذكرياته.. هذا ما وجده هوفمستر.. هو هكذا بكل بساطة.. فبعض الناس يتذكرون أشياء لم تحدث أبداً.. وأخرى قد حدثت.. إنهم عبيد الخيال.. دعاة إلى أساطيرهم التي إبتدعوها.

شرب الكأس دون أن يستطيب مذاق نكهة النبيذ الطازجة.. الحامضة بعض الشيء.. ولم يدرك أن أحدا يقف أمام الباب إلا عندما دق الجرس للمرة الثالثة. أسرع نحو الباب.. حانقا على نفسه.. على زوجته.. وعلى الشخص

الذي جاء في هذا الوقت بالذات.. فهو فمستر يطمح - في هذا اليوم خاصة - إلى الكمال.. ولابد لهذا الحفل أن يكون مثالياً.. لا بد وأن تعاقب كل الإشاعات الكاذبة التي تدور حوله.. لا بد وأن يظهر كيف أنه ناجح في كل شيء.. هذا ما يريد أن يظهره - كيف أن حياته ناجحة وكذلك أطفاله.

وهذه هي المهمة السرية لنبيذ الكير.. فما يقصه الساشيمي سوف يؤكد السايبيرينا: سوف يؤكد قصة والد تيرزا.. القصة التي انتهت بنهاية سعيدة.. فقد تحمل عبء تربية ابنته الصغرى بمفرده.. ولكن كل شيء سار على مايرام.. نعم، فقد كان ولا بد أن تكون رسالته سعيدة.

كانت تقف فتاة أمام الباب.. واحدة من صديقات تيرزا الكثيرات لم يكن رآها قبل ذلك. قالت الفتاة: هاي

رد هوفمستر: هاي. وهو يفكر بطريقة عابرة في زوجته والعار.. ويتساءل ما الذي ربما قد يجري الآن في غرفة الجلوس. مثلما كان يفعل بعد اختفائها.. في كل مساء.. عندما تقوم تيرزا بأداء واجبها المدرسي في غرفتها، أو تتحدث مع صديقاتها في الهاتف.. فيجلس هو يفكر بينه وبين نفسه: أين هي الآن؟ ما الذي تفعله؟ بين أحضان من ترمي في هذه

اللحظة؟ ماذا ترتدي؟ هل تشعر بالأسف؟.. كان الصمت يرغمه أحيانا على إغلاق التلفاز.. فلم يعد أحد هنا يمكن أن يتشاجر معه.. كان قد أصبح عدو نفسه.. وإذا كان يريد إغضاب نفسه.. ما عليه ألا أن يبقى أمام برنامج حوارى.. ثم يصرخ في التلفاز.. حتى يبدي التلفاز له الاعتذار.. فيعود ويجلس أمامه مرة أخرى صامتا.

- هل أنت والد تيرزا؟

أوما برأسه، فرحا بعض الشيء، فقد كان انتباهه قد انصرف للحظة للتفكير في همومه التي لا ضرورة لها أصلا.. فهما لم يعودا معا ولم تعد تربطهما علاقة.. وإن كانت زوجته تريد أن تسخر منه، فهي الجانية على نفسها.

قالت: أنا إستر.. بدون ياء.

كرر كلامها: إستر بدون ياء.. وأنا يورجن.. بإمالة الحرف و.. كان حضور بديته في الجواب مضحكا بالنسبة إليه..

وهذا

حسب رأيه من أثر النيذ الأبيض الذي يشعره ببعض الغبطة.. وقد أشعره ذلك لبرهة أنه قد تحرر، فطفق يمشي- لبضع ثوان في الردهة مزهوا كالمتمتص.

ظل واقفاً أمام شماعة المعطف.. لكي يتلقى الملابس عند الإستقبال.. معطف أو هدية.. أو حقيبة.. ولكن شيئا لم يأت.. وكانت إستر بدون ياء ترتدي جينزا وسخ.. وعلى ظهر يدها رقمي هاتف.. وترتدي فليب فلوب (صندل) ولا تحمل هدية. يمكن للمرء أن يقول لقد جاءت عارية حقا.. وهو فمستر لا يحب الأشخاص الذين لا يلقون بالا لهيئتهم ولا يكلفون أنفسهم فيهتموا بمنظرهم.

سألها: أيمكنني أن أقدم لك كأسا من نبيذ الكير؟

إنه السؤال الذي يحيي به كل الضيوف تقريبا.. جملة مثل صفارة الإنطلاق.. التي من واقع خبرته تجري المحادثة بعدها دون مشاكل تذكر.

- ماذا؟

- كأسا من الكير.. هل يمكنني أن أقدم لك كأسا من

الكير؟

هزت رأسها نافية وقالت: هل لديك عصير طماطم؟

- بالطبع، يوجد أيضا عصير طماطم.

- بدون ثلج.

كرر هو فمستر ما قالت:

- بدون ثلج.

كأنه لم يكن يفعل شيئاً طوال حياته غير تلبية الأوامر..
وتعليق المعاطف.. وتقديم أشخاص لا يكاد يفهم أسماءهم
إلى أشخاص آخرين

- وهل تسمح لي باستخدام حمامكم؟

دلها على الطريق.. كان الحمام بجوار المطبخ.. ففتح
الباب.. وأضاء المصباح.. وتحقق ما إذا كان الحمام لا تزال
حالته مقبولة.. فوجده مناسباً.. على الأقل لحفلة.

أخذ يبحث في الثلاجة عن عصير الطماطم.. فقد اشترى
ثلاث عبوات.. ولكن أين هم الآن؟ ثم سمع صوت زوجته
يخترق أنغام الموسيقى.. تتحدث وكأنها على المسرح.. ولابد
أن تسمع الصفوف الخلفية صوتها.

ولكنه قد اشتراهم بنفسه.. اشتراهم بالأمس.. إنه متيقن
من ذلك.. متيقن أنه اشترى ثلاث عبوات.

لا بد وأن يكون العصير في مكان ما في الثلاجة.. ففتحتها
مرة أخرى.. ثم جلس.. وأنحنى - ربما في درج الخضروات؟..
ولكنه زحزح بعض علب عصير البرتقال فانسكبت في الحال
عبوة لبن.. وهو الآن غارق في اللبن.. يركع أمام الثلاجة
المفتوحة.. ينظر إلى طبق من السوشي.. قد أعده مسبقاً في
النهار والحب يغمره.

قال في نفسه: الآن بالذات لا تفقد أعصابك.. لا تفقد
عقلك أو أعصابك.. ليست هذه هي اللحظة المناسبة.
قام بسرعة وأغلق الثلاجة.. ثم صب لنفسه كأساً من
النيبذ وهمس في نفسه: إنه مساء جميل.. إنه مساء تيرزا.

ثم أخذ لفة من ورق المطبخ وطفق يمسح اللبن بحرص..
ثم ظل واقفاً على الأقل لنصف دقيقة وكتلة الورق المبتل في
يده.. يستمع لزمجرة الماء في الحمام عند شد السيافون.. ثم
ضغط برفق ورق المطبخ.. فهو يرغب أن تبقى صورته في
ذاكرة الضيوف صورة مضيف جذاب.. وهذا من المؤكد ليس
من الصعب تحقيقه.

هذه الفكرة من شأنها أن تجبره على العمل.. فألقى
الورق بعيداً وشعر بأنه قد نجا مرة أخرى من خطر كان
يحدق به.. ولكن ينطاله مازال مبتلاً عند ركبتيه من
أثار اللبن.. ولكن من يابه لركبتيه في مثل هذا الحفل؟

عدل من منظر شعره.. وأخذ الصينية وعليها البيرة،
والنبيذ الأحمر، والفودكا مع الثلج.. وذهب إلى غرفة
الجلوس.. والبسمة على شفتيه.. البسمة التي يتكلفها منذ
عقود.. بسمة أدب اللغات الأجنبية.

وهناك سمع زوجته وهي تسأل: ألا يبدو عليّ أنني والدة
تيرزا؟ . وزملاء تيرزا في الدراسة يحيطون بها.. وهم -
الأطفال، فلطالما عرفهم المرء هكذا، يحتشدون حولها كأنهم
يحتشدون حول سمكة كبيرة سحبها التيار من شدة تعبها إلى
اليابسة.

غير هوفمستر مبدؤه وحول مؤشر مشغل الموسيقى
فجعلها صاخبة.. حتى يشوش على هراء زوجته، الذي لأبد
وأن يتصنت له كثير من هؤلاء الناس.
وعلى الرغم من الموسيقى الصاخبة.. إلا أن هذه الكلمات
ثقت أذنه: لقد كنت مسافرة.. وتيرزا كانت منسجمة بشكل
رائع مع زوجي.. فقد كانت دائماً فتاة مستقلة.. لا تحتاج
لأحد.

رجع هوفمستر إلى المطبخ بالصينية الفارغة.. وأعد لفتين
من السوشي.. واحدة بسمك السلمون.. والأخرى بسمك
التونة.. ثم شرب كأساً من النبيذ الأبيض.. واستدعى تيرزا على
هاتفها الجوال.. ولكنها لم تجبه مباشرة.. فبدأ يفقد أعصابه
شيئاً فشيئاً.. فهو أب يشعر دائماً بالقلق، وخاصة إذا كانت
الأم لا تبالي.

ثم سمع صوتها: مرحباً.. أنا تيرزا.. لست هنا الآن.. ولكن
اترك لي أخباراً سعيدة.

لم يفهم أبداً ماذا تعني بأخبار سعيدة.. فأحياناً يكون
لدى المرء أخبار أخرى ليتركها؟ مما جعله يسألها ذات مرة:
هل هاتفك المحمول قد صنع فقط للأخبار السعيدة؟

فأجابته: نعم، يا بابا.. هاتفني للأخبار السعيدة فقط.. وإن
لم تكن الأخبار سعيدة.. فعليك أن لا تتصل.

تحدث عبر المجيب الآلي: أين أنت؟ .. تيرزا فلتأتني سريعاً
قدر الإمكان إلى المنزل.. لقد بدأت الحفلة منذ وقت طويل..
والكل ينتظرك.

جلس على كرسي المطبخ.. يضغط على وجنتيه.. وظل
جالساً هكذا حتى رأى مدرس الاقتصاد يدخل عليه.

دار الرجل حوله قليلاً.. ثم اتكأ أخيراً على البوفيه.. وأخذ
ينظر بدون خجل إلى هوفمستر.. كما يفعل الناس أحياناً في

الحفلات.. يريدون أن يتفحصوا كل الأماكن.. فقد كانوا يقفون في غرفة الجلوس أمام أرفف الكتب ثم تساءل هو: ترى كيف يبدو مطبخهم؟ فالمطابخ تكشف عن الكثير.

لم يرد هوفمستر أن يفسد الحفل.. فاكتمل بتبادل النظر معه دون حراك.. والمزاج الجيد الذي يشع من وجه الرجل كان بمثابة هجوم عليه.. فسعادة الآخرين دائما ما تشكل تهديدا.. كان الرجل يحمل زجاجة جعة في يده ويرتدي سترة فضفاضة من الكتان.. كان بإمكانه أن يكون طالبا أيضا.. ولكنه يعمل مدرسا ومبتسما.. إنه رجل يبدو دائما مبتسما.

سأل الرجل: كيف حالك سيد هوفمستر؟

قام هوفمستر من فوق المقعد.. كان يشعر بأنه محتجز في عقر داره كأنه شخص غريب.. كأنه يفعل أشياء من الأفضل للمرأة أن يكف عن فعلها.. وعلى بنطاله الأسود عند ركبته مازالت البقعتان موجودتان دون أثر للحليب.. وهذا ميزة اللون الأسود.. إنه يشعر بالإمتنان لهذا اللون.. ولكنه مازال يشعر بالبلل وبأنها غروية بعض الشيء.. فأصبح بذلك رجل غروي مبتل.. رجل غروي عجوز.. ولكنه لن يسمح بأن يرى أحد ذلك.. لن يرى أحد ذلك.

- رائع.. قل يورجن بلا تكلف.. أنا يورجن.. وأنت؟ هل تستمتع؟

كان هوفمستر يتحدث بهدوء وبطريقة متحضرة.. كشخص يسيطر على نفسه دون أن يتكلف أدنى جهد.. كأنه ولد هكذا.

هل تستمتع؟ أمثل هذا السؤال يطرح على مدرس إقتصاد؟ كان لديه شكوكه ولكن الآن قد فات الأوان للتغيير.. كما أنه قد نسي اسم المعلم: هانز، نعم.. ألا يوجد أيضا قصة خرافية بمثل هذا الاسم؟

شعر هوفمستر بالدوار.. ولكنه لم يعد يرغب في الجلوس.. وبدلا من ذلك أخذ يدقق النظر في حذاء معلم الإقتصاد.. حذاء أسود اللون بمشبك.. ولا يهمه إن كان هناك قصة خرافية تسمى هانز أم لا.. فقد كان في الماضي يقرأ دائما للطفلتين.. بل ويقرأ لهما أيضا من كتب مازالتا صغيرتان على أن تدرگا محتواها.. ولكن إذا ما أراد الأباء أن يشب أولادهم على حب الفن والثقافة فعليهم أن يشجعوهم على ذلك منذ الصغر.. فثيرزا في العاشرة من عمرها قد تعرفت على مغامرات دون كيشوت.. وفي الثانية عشر.. قرأت مجموعة

مدام بوفاري وخيانتها الزوجية.. وعندما بلغت الرابعة عشر.. لم تعد ترغب في قراءة شيء مطلقاً.. وعلى الرغم من ذلك جاء هوفمستر إلى غرفتها ذات مرة متحمساً.. يحمل كتاباً أحضره من المكتبة الروسية.. وهو مستعد للخروج.. وبمجرد أن رآته وهي تجلس على السرير لم تتحرك.. صرخت في وجهه: اخرج من هنا.. لا أريد أن أسمع هذه الهلوسات من منازل الأموات.. لا أريد.. اذهب بعيداً، بابا.. اتركني وحالي.. اخرج من هنا.

وأخذت تركل بقدميها.. ولكنه جلس عند نهاية قدميها وأخذ

يربت عليها طويلاً حتى هدأت.. ثم فتح الكتاب وأخذ يقرأ لها لمدة ربع الساعة من رواية ذكريات من منازل الأموات لدوستويسكيس.. ومن الصعب على المرء أن يبدأ في فترة مبكرة من حياته بالقراءة للأدباء الروس الكبار.. ولكن من مبرر في مراهقته على العدمية لن يحتاج في سن رشده أن يدقق فيها النظر.

قال هانز: حفلة لطيفة.

ثم تلفت الرجل حوله.. ولم تظهر عليه أي علامات تدل على الذهاب.. فقد وجد المطبخ دافئاً - دافئاً ومريحاً.. فاستند على البوفيه.. وقمر الساعات.. لكي يصبح مساء آخر من الماضي.

وهذا المدرس حياته ما هي إلا قضاء نهاية أسبوع هادئة في المنزل.. وأزيز خلاط العصير كل صباح.. ومشاهدة التلفاز في المساء.. وحفلة كل ثلاثة أشهر.. ثم يتسوق كل من في الحفلة.. واختيار الإسطوانات.. وفك الشفرات.. هكذا يقضي- مدرس الإقتصاد حياته.

لم يكن هوفمستر يعيش بغير هذه الطريقة.. كانت هذه الطريقة ما لوفة له لم يعرف غيرها. مسح على شعره برقة ثم قدم السوشي للمعلم.. بينما هو يحاول أن يتخيل حياة هذا الرجل اليومية: حياة سعيدة ومرتبّة.

قبل سنوات، عندما كان البيت يزرع تحت الصمت المطبق، كان يشعر بالأسف لأنه لا يستطيع العزف على البيانو.. كان يود لو يجتمع كل مساء وكل ظهر يوم الأحد مع ثلاثة أو أربعة من عشاق الموسيقى.. مثلما يتقابل الآخرون مع أصدقائهم ويذهبون إلى الحانة.

ولكنه لم يكن يتمتع بموهبة الصداقة.. وكذلك الآخرون لم تكن لديهم موهبة الرسم أو معرفة باللغات الأجنبية.. ولهذا السبب بالذات كان يود أن لو يتقن العزف على آلة موسيقية.. حتى يعزف شيئاً أمام الناس بدل أن يتحدث إليهم.. فمعالم الأفكار يفضحها الحديث.. وبداخل هوفمستر أفكار لا يمكنه أن يتحدث بها.. أفكار في أعماقه سرية وستبقى سرية.. لصالح جميع الأطراف.

في الماضي كانت تيرزا تعزف على الكمان.. كانت تتمتع بموهبة رائعة.. ولكنها لم تعد مؤخرًا تعطف عليه ولو بنظرة.. ولكنه كان في بعض الأحيان، بعد رحيل الزوجة، عندما كان

صمت الليل المطبق يوشك أن يؤدي به إلى الجنون، ولا يعرف كيف يتصرف.. وبعد أن يجشم نفسه العناء فيركض عشرين لفة في الحديقة.. ثم يقرأ بصوت عالٍ من كتاب يوميات كاتب لدوستويسكي.. يصعد الدرج ذاهباً إلى حجرة تيرزا فيطرق عليها الباب.. ثم يسأل:

هل انتهيت من أداء واجبك المدرسي؟ فإذا أجابت بنعم.. يقول لها مقترحاً: ألا ترغبين إذن أن تأتي إلى الأسفل وتعزفي قليلاً على الكمان؟.. إلا أنه كان يفعل ذلك فقط إذا انتهت من أداء واجبها المدرسي.. فقد كان لا بد وأن تواصل في المدرسة.. فالمدرسة كانت أهم من العزف على الكمان.

كان معلم الإقتصاد يقف مستغرقاً في التفكير.. بينما زجاجة الجعة في يده.. كأنه يشعر بالأسف على شيء ما.. على وداع تيرزا.. على أن محياها غاب عن حياته المهنية.. ثم قال: لقد كانت فتاة غير عادية.. ابنتك.. كانت حساسة وموهوبة وذكية. ثم مسح قمه وقال: ينبغي على المرء أن لا يكثر من أكل السوشي.

أوماً هوفمستر برأسه.. وهو يتهاى لأن يقول شيئاً.. لا حيلة له غير ذلك.. سوف يتحدث.. فقال:

- مرهفة الشعور.. وموهوبة جداً.. منذ أن كانت طفلة.. فقد كانت تفهم كل كلمة وهي لم تبلغ بعد نصف السنة.

- وهي جميلة أيضاً.

أكد هوفمستر على كلامه:

- نعم وهي جميلة أيضاً.

- وراشدة.

أوما هوفمستر أيضا.. للمرة الألف.

- سوف تقوم برحلة عبر العالم.. سمعت ذلك؟

- ليست رحلة عبر العالم.. ولكنها ستكون كبيرة.. بوتسوانا إفريقيا، وجنوب إفريقيا، وناميبيا.. وربما زائير.. لقد كانت تولي اهتماما بهذه القارة دائما.. جعة مرة أخرى؟

كان هوفمستر يستند هو الآخر على البوفيه.. بينما يسمع لغطا يأتي من حجرة المعيشة إلى المطبخ.. همهمة غير مفهومة.. ولكن هوفمستر لا يريد أن يسمع ما تقوله زوجته.. فاسترخى وجعل يفكر في شيفول.. في صالة المغادرة.. التي كان يتجول فيها خمسة أيام كل أسبوع.. أثر أن يكون وحيدا كطائرة عند الإقلاع.. يلامس الآخرين من حين لآخر كما تلامس الطائرة الأرض.. ثم لا تلبث أن ترتفع سريعا بمحركها الهادر.

ولكن حياته ما هي إلا هبوط إضطرابي كبير.. فالطائرة التي ظلت على الأرض طويلا.. لا يمكنها أن ترتفع.. وستضطر دائما إلى الهبوط.. كل يوم.. وكل ساعة.
قال معلم الإقتصاد:

- نعم.. لذيذ. ثم وضع الزجاجاة الفارغة في الحوض.

- بالكأس؟

هز الرجل رأسه وهويقول:

- ولكن أخبرها أن تأخذ معها الحقن الخاصة بها.. إذا كانت ستذهب لبوتسوانا أو زائير.

ثم أخذ الزجاجاة من هوفمستر مباشرة ووضعها على الفور في فمه.. راقبه هوفمستر.. وهو يشعر مرة أخرى أن الدوار قد غلبه:

- الحقن الخاصة بها؟

- إبر خاصة بها.. عندما يسافر المرء إلى إفريقيا.. لا بد وأن يصحب معه إبر خاصة به.. فهولا يعرف أبدا.. متى يزور المستشفى.

لا يعجب والد تيرزا من أن الطالبات يقعن في حب معلم الإقتصاد، سرا أو جهرا.. لا يعجب من ذلك.. فالرجل ينضح بكل ما يتمني.. يشع ثقة، ليس فقط في المستقبل، بل في كل شيء.. ثقة في الحياة نفسها.. في الخير الطبيعي لكل ما يعيش.. ثقة قد خلق بها.

- هل ذهبت إلى هناك من قبل؟
- إلى إفريقيا؟ .. لا.. مطلقا.. فقط ذهبت مرة إلى مصر...
إلى الغردقة وجزر الكناري. ولكن هل تعتبر هذه إفريقيا؟
ولكنني أعرف أشخاصا كانوا في إفريقيا الحقيقية.. وكان معهم
إبرهم الخاصة بهم.. ولكن من يذهب إلى كيب تاون لن
يحتاج ذلك.. ولكن.. أما زالت كيب تاون في إفريقيا؟
ثم ساد الصمت.. إذ يبدو أن مادة الحديث عن كيب
تاون قد استنفذت.

ابتعد هوفمستر عن البوفيه وطوق بين ذراعيه وقال:
- هل يمكنني أن أسألك سؤالاً.. ربما يكون سؤالاً غريباً.
قال الرجل:

- بالتأكيد.. اسأل بكل بساطة.. بالطبع يمكنك أن تسأل
عن أي شيء.. وحتى عن الأشياء الغريبة.. أنا معتاد على ذلك.
ثم ضحك وتناول رشفة كبيرة من الجعة.. شعر هوفمستر
بالدوار مرة أخرى.. ولكنه الآن أقوى.. فالدوار عرض يدل على
وجود ذكريات غير مرغوب فيها.. أو أفكار لا يجوز أن تدور
في الرأس.. ولكنها في نفس الوقت أيضا لا يمكن دفعها.. وهذا
هو الجحيم بعينه.

- ماذا تعني بالضبط المحفظة الوقائية؟
كان معلم الإقتصاد لا يكاد يضحك إلا بمرح وحفاوة..
ويمكن لأي أحد أن يسأله عن كل شيء.. وهو هنا من أجل
ذلك.. لإعطاء الإجابات.. حتى ولو كانت إجابات لأسئلة
مستحيلة.. ولكن من الواضح أنه لم يتوقع هذا السؤال.. فقال
متسائلاً:

- محفظة وقائية؟!
كرر هوفمستر: محفظة وقائية. وأسر في نفسه لو كان
سؤاله: كيف هي الحياة الجنسية للتماشيح؟. لما حصل على
صمت مرهق كهذا.

ثم قال معلم الإقتصاد بعد لحظات من الصمت: نعم..
بأي طريقة أوضح ذلك؟ إنها صندوق استثمار من نوع
خاص.. صندوق يحقق أرباح أيضا - أو يستطيع أن يحقق
أرباح - إن لم تحدث زيادة في أسعار البورصة.. وفي معظم
الأحوال لا يتم الإعلان عنها علنياً.

كان يريد أن يقول شيئا آخر.. ولكن ذاكرته لم تمده بأكثر من ذلك.. فابتسم.. ولأول مرة أيضا يشعر في نفسه بالعجز.. ابتسم لأنه عالق في حديث.. لم يرغب بالخوض فيه أبدا في مساء كهذا.

قبل حوالي خمس سنوات.. عندما كان هوفمستر مسافرا إلى الخارج حاملا الحقيبة وبها إيجار سبعة أشهر.. تحدثت إليه مستشارة البنك عن المحافظة الوقائية.. وقد كان هذا الموضوع يلقي قبولا لديه.. فالمحافظة الوقائية قد لاقت إقبالا كثيرا.

كان قد قرأ شيئا عن ذلك.. وسمع عنه أيضا.. والناس في كل مكان يتهامسون عن المحافظة الوقائية كأنهم يتهامسون عن سر كبير مثير.

ولم تكن ملاحظاتهم بالشيء الذي يشبعه بالقدر الكافي.. ولكن في هذه الأشياء خاصة لا يسع المرء إلا أن يثق في حدسه.. فحدسه لم يخنه أبدا.. ليس في الأمور المالية على الأقل.

قالت المستشارة له: الإستثمار في المحافظة الوقائية يبدأ بمليون.

كان كل ما يملكه هوفمستر تقريبا في هذا الوقت هو ذلك المليون.. أوه، لقد كان يدخر بكل شراهة.. لم يكن يقتصر على وضع الإيجار الشهري في حسابه.. بل في هذا الحساب إرث.. وعائدات بيع قارب إيجار أيضا.. بل ويضع المعاش الشهري بانتظام.. كل شيء يذهب إلى صندوق الإستثمار.. لكي تصل ابنتيه إلى العالم الذي لم تطأه قدمه أبدا.. ثم قالت له المستشارة: هل أنت متأكد أنك لا تريد توسيع استثماراتك قليلا؟

كانت امرأة شابة ترتدي زيا أسود ضيق.. وذات شعر أشقر كثيف.. وهي جديدة في هذا المكان.. فقبل ذلك كان مستشاره رجلا.. كان يقدم له مقترحات استثمارية.. وقد كان ذو شعر بني اللون.. على الأقل عندما كان يعمل في البنك.. وقد كانت الحقيقة تنكشف أينما كان.. فقد رأى هوفمستر الكثير.. وكلما رأى أكثر.. كلما خبت جراته على الحديث.. كلما تصارعت بداخله آفكار التي لا يملك إلا أن يكتمها بداخله ولا يصارح بها أحدا. "ولكن ساعة القدر يعمى البصر" ولم تكن اللعنة لتحل عليه أبدا لو لم يفعل هذه الخطوة.

قبل أن يقول: على المرء أن يتحلى بالثقة.. فليس في ذلك كثير مخاطر.

ففكرة الإستقلال المادي وشيك الحدوث.. الذي من شأنه أن يكفل لطفليته أن لا تتم مضايقتهما بعد ذلك.. وكذلك زي المستشارة الأسود الضيق.. هاتان الفكرتان قد جعلتا يتفائل.. يتفائل حتى الغرور. أوه.. سيتحقق الأمل.. فقط على أن أبقى عيني مفتوحتين.. ألم تر إلى عائدات المحفظة الوقائية في السنوات الماضية كيف كانت مذهلة.. لا يمكن وصفها بغير ذلك.. وهو يتمسك بهذا الوصف.. مذهلة.. إنها كلمة رنانة.. كلمة تذكره بشكل أو بآخر بالجنس.. الجنس المحرم الذي يحدث في مقعد القيادة أو في الحمامات العامة.

- علي أن أحذرك.. فتكاليف الرسوم عالية.

- ولكن العائدات مذهلة؟!

- العائدات مذهلة - أكدت على ذلك المرأة من البنك.. فخرجت كلمة " مذهلة " من بين ثناياها تقطر رقة وعذوبة كطعام شهى نادر.. ثم أكملت :- إنها محفظة وقائية شعبية من نوع خاص.

ثم نظرت إليه وهي تشع جمالا.. لتري كيف بدت له الفكرة.

فقال هوفمستر وهو يشعر بالجفاف في فمه: إذن فلنفعل ذلك.. أنا أريد هذه المحفظة الوقائية.

نظر إليها وكأنها هي المحفظة الوقائية بعينها.

وكما كانت تجلس أمامه كعارضة أزياء.. لم يتطرق الشك إليه لحظة: أن هذه المرأة هي أيضا المحفظة الوقائية ولكن في صورة إنسان!

سألته وهي لا زالت مترددة.. كأن كل ما مضى كان شكليا:

- حسنا.. هل نريد أن نفعل ذلك؟ كل شيء؟

قال هوفمستر:

- كل شيء.

كان اسم الصندوق الذي أودع فيه ثروته يبدو غريبا ولكنه يوحي بالثقة.. كأنه كان موجودا دائما.. كأنه كان موجودا في سرية تامة على مدى عقود.. ثم أعلن له هذا الشيء الجميل عن نفسه.. كإله لم يجد إلا مؤخرا أن من كرامته أن يعلن للوجود عن نفسه.

كانت تملأ الإستمارة وهو فمستر يجلس بشوشا.. كأنه يسدي إليها معروفا.. ثم وقع بقلمه الخاص.. وبعد ذلك سألته: فنجانا آخر من القهوة؟

- سيكون ذلك جميلا.

- وبعض البسكويت؟

- لذيذ.

وعندما جاء البسكويت أخذ قطعة من الطبق.. ولكن يده كانت ترتعش بشدة لدرجة أنها تفتت تحت ضغط يديه.

فنظر أولا إلى الفتات ثم نظر إلى الشابة.

ولكن المستشارة الشابة لم تكن قد لاحظت ذلك.. فظل كما هو.. الشخص الذي هو عليه: الرجل الذي يودع ماله.. ليس لنفسه.. بل لإبنتيه.. لمستقبلهما.. لمستقبل أفضل.. لسعادة مقدمة الدفع.

وفي شهر مارس من السنة التالية عاد إلى البنك حاملا حقيبة اليد التي بها إيجار الأشهر المنصرمة.. وكانت المحفظة الوقائية تنمو وتزدهر.. كانت مذهلة.. هذه هي الكلمة التي توصف بها.. نعم، لقد أوشك أن يحصل على الإستقلال المالي.

وفي نهاية مارس بعد سنة أخرى عاد ثانية إلى البنك. الكل كما هو لم يتغير.. نفس وسيلة المواصلات.. نفس المكتب.. نفس الحاسب الآلي.. نفس المستشارة.. ولكنها لا ترتدي الآن زيا أسود ضيق ولكن تنورة رمادية وبلوزة بيضاء.. غير ذلك فكل شيء موجود.. بما في ذلك الشعر الأشقر الكثيف.. بل حتى الوظيفة التي تحضر القهوة والبسكويت.. كل شيء تماما كما كان أول مرة.. ولكن المحفظة الوقائية فقط هي التي لم تكن موجودة.. اختفت المحفظة الوقائية.. تبخرت في الهواء.. وعليها السلام.

سأل هو فمستر: كيف يمكن أن يحدث هذا؟

فتوالى عليه سيل من الشروح التقنية.. التي لم يفهمها.. لأنه لم يكن يصغي جيدا.. ولم يتمكن من التركيز.. فلم يلقي بالاً لكسرات البسكويت التي لاحصر لها التي تلتصق براحة يده الرطبة.

لم يستطع أن يفكر إلا في: أنه قد تحطم. ولكنه لم يعرف من أو ما الذي حطمه.. لم تكن هذه الشابة ذات الشفاه الحمراء والبلوزة البيضاء التي تجلس على الجانب الآخر من

الطاولة.. امرأة يود من كل قلبه أن يقبلها.. ولكنه كان يكبت جماح هذه الرغبة.. فقد أصبح كل ما يرغب فيه الآن هو خروف مدرب يقوم بعرض مهاراته أمام حشد صغير.

لن ينفعه الآن المستأجرين الذين كانوا يدفعون في الوقت المحدد.. ولا حتى البنك يمكنه عمل أي شيء حيال ذلك ويتضح ذلك له من الكلمات التي تخرج من وراء الإبتسامة اللطيفة لمستشارة البنك.. كانت تجد ذلك مؤسفا حقا.. بل إنه كاد يصدقها.. كانت تشعر بالأسف مثله تماما.. وهي تظل تنطق بهذه الكلمة "الإقتصاد العالمي".. ولكنه لم يكن سوى اليهودية العالمية.. تظهر دائما بريئة وهي من الداخل شديدة القسوة والوحشية.

هوفمستر! وهو الذي كان يدخر من خداع الضرائب والمستأجرين.. لكي يحقق لابنتيه نوعا من الإستقلال المادي.. الذي لا يملك الكثيرون إلا أن يحلموا به.. أحدث ذلك وهو الذي كان يحيا بفكرة أن العمل فقط هو الذي يحميه من البؤس والحزن.. فيأتي الإقتصاد العالمي ويحطمه.. ينتصر عليه ويحطمه.. ثم يتركه ويهرب.. مجبرا إياه على الركوع على ركبتيه.. لقد وجد من الإقتصاد العالمي خصما له.. خصما قويا بالنسبة إليه.. أقوى من الوحش الضاري بداخله.. لقد وجد أخيرا ندا حقيقيا.. ولكنه كان عدوا بلا وجه أو اسم.. عدو لن يدع له مكانا يلجأ إليه.. فالإقتصاد العالمي أصبح عدو لا يشعر به.. عدو لا يجاهر بالدعوة للمبارزة.. لا يمكن أن يحضن ويقبض بلطف على الحنجرة حتى يخنق.. كان الإقتصاد العالمي عدو بلا وجه.

قالت الشابة وهي ترمقه بنظرة حزينة : " لقد كنا نمر بوقت عصيب... " ولكنها على الرغم من هذه النظرة لم تبد حزينة على الحقيقة.. بل يغمرها المرح والسعادة. " لم يمض وقت على فقاعة الإنترنت.. حتى تلاها ضربات الحادي عشر- من سبتمبر.. إنها ضربات قاسية.. لم يتعاف منها بعض اللاعبين في السوق.

- أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ ما علاقته بها؟

ذكره ذلك باليوم الذي سقط فيه الجدار.
قال حينها لابنته: أمني عينك من ذلك.. فأنت الآن ترين لحظة تاريخية.

وهكذا كان ينظر إلى كل شيء: كل شيء قد أصبح في أعماق التاريخ.

ثم قالت: أخ.. كل شيء يأسيد هوفمستر في هذه الأيام له علاقة بكل شيء.. ومن المؤكد أنك تعرف القول السائر: عندما يسعل أحدهم في قارة.. يصاب آخر بنزلة برد في قارة أخرى. ولكن كيف حال ابنتيك؟ أليس لديك ابنتان؟ لقد تحول التاريخ فجأة إلى شخصية.. أفصح غموض الإقتصاد العالمي عن وجه وجسم واسم: محمد عطا - لقد أخذ مال هوفمستر.. أفقده استقلاله المالي.. وحرية أولاده.. التي كانت قريبة جدا من الحدوث.. قرية بشكل لا يصدق.. ومحمد عطا وراء ذلك.. لقد قطع عطا رأس محفظة هوفمستر الوقائية.

- ماذا سألت؟

- كيف حال ابنتيك؟

- رائع.. ولكن لماذا لم تتصلي بي هاتفيا؟

- لم نستطع أن نصل إليك.

أقرب الحديث من نهايته ببطء.. وعلى حسابه لم يبق سوى بقايا بائسة.. ما يقرب من إيجار شهرين.. أودع معهم أيضا إيجار الثمانية أشهر الموجودة في حقيقته. ثم تساله المرأة مرة أخرى: هل ترغب في استثمار هذا المبلغ؟

ولكنه لم يزد على أن قال: فلتتركه حضرتك فقط في صندوق الإيداع.

ثم تصافح وهي تقول له: إذن حتى سنة أخرى.

ثم وقف أمام الباب.. يشاهد الربيع.. والشمس الساطعة.. والناس الذين يمشون لأول مرة في الشارع بدون معاطف.. والفرحة الناتجة عن ذلك.. وكذلك يفكر ويقول: بذلك انتهى الإستقلال المالي.. انتهى ككل شيء آخر.. هكذا في ساعة ينتهي كل شيء.. ويكهي المرء بالبستكويت.. والنظرة الحنونة.. والشفقة التي يجب أن تبدأ وتنتهي في غضون عشر دقائق.. لأن الأجور مرتفعة.

أخذ يتجول في السوق.. يتأمل وجوه الناس ويتساءل إن كانوا هم أيضا قد تم تحطيمهم من قبل الإقتصاد العالمي.. أو من قبل محمد عطا.. أو من كلاهما في نفس الوقت.. وهل يستطيعون أن يتعرفوا فيما بينهم على المحطمين منهم؟ أم أنهم سيقفون مجهولين للأبد؟ ويمشي- الفائزون والخاسرون بجانب بعضهم كالأخوة.. متجولين معا في شوارع الأسواق

الغالية.. واقفين أمام نوافذ العرض لا يعرف أحد من منهم الغث ومن منهم السمين.

وقف أمام محل لبيع الأحذية.. وأخذ يتطلع في المعروضات للرجال.. ما أكثر الأحذية بنية اللون هذا الربيع.. إنه لا يحب الأحذية بنية اللون.. ولا حتى البزات ذات اللون البني.

تساءل لماذا فقد كل شيء.. وأخذوا منه كل شيء.. هناك سبب وجيه

لم يخطر على باله.. ما الغرض من هذا كله؟ ما هي اللعبة التي تم تنفيذها؟ ومن الذي قام باللعب معه؟

دخل المحل.. وجرب بعض الأحذية الطويلة السوداء..

ولكنه تذكر فجأة أنه لم يعد يستطيع أن يتحمل تكاليف

ذلك.. وأنه من الآن فصاعدا لن يستطيع أن يتحمل غير

التكاليف الصغيرة.. وللحظة.. وفي جزء من الثانية شعر

بالإغراء.. شعر بأنه سيمزق الملابس عن بدن بائعة الأحذية

ويأخذها في الحال إلى أي مكان.. ولم يحدث ذلك إلا لأنه لم

يعد يرى أن السيطرة على نفسه تستحق العناء.. والرغبة هي

أعلى أشكال اللامبالاة.. فنظر إليها.. وعندها سألته: هل

أعرض لك حذاء طويل آخر؟ أو أن حضرتك تريد حذاء بدون

رقبة؟ فهو أكثر راحة عندما تصبح الحرارة شديدة.

إن من يرتكب جريمة لن يكون أبدا بمفرده.. فأينما ذهب

ستظل جريمته تصاحبه كظله.. ولكنه لم يتجرأ فيفعل شيء..

لأن الحارس الواقف على الباب كان مبقيا عينيه عليه.. فقفر

هو فمستر من المتجر مسرعا.. لدرجة أنه ترك حقييته لم

يأخذها.. فتبعته البائعة تحملها إليه.

باستثناء مخطوتين وأربعة أقلام رصاص.. وإصبع موز

واحد.. لم يكن فيها غير كتيبات عن المحافظة الوقائية

والصناديق الأخرى.. نشرات ذات ورق لامع.. وهو يعرف كم

هي باهظة تكاليف طباعة الإعلانات.. فانهمك ينظر في هذه

الكتيبات وهو يقف في وسط شارع التسوق المزدهم.. يحمل

حقيته تحت إبطه.. والناس تصطدم به.. وهو يقف في وسط

الطريق لا يتحرك.. يتطلع في الرسوم البيانية، والأرقام..

والتشذقات التي تعد بمستقبل واعد مشرق.

ثم أعاد كل شيء مرة أخرى داخل الحقيبة.. لم تمثل

هزيمته كابوسا بالنسبة إليه أو قلقا من أمسيات صيف

فاترة.. ولكنها كانت حقيقة.. والسقوط جاء بدون سابق إنذار.

كيف يحيا المرء وهو يشعر بالهزيمة؟ هل ينظر في وجوه الناس أم أنه من الأفضل أن يدع ذلك؟ ربما من الأفضل أن ينظر إلى الأرض.. على أمل أن لا ينظروا إليه مادام هو لا ينظر إليهم.

ثم ذهب إلى إحدى محلات ماكدونالدز واشترى لنفسه أيس كريم بنكهة الفانيليا.. وجلس بجانب بعض الشباب أمام مدخل أحد البيوت.. فنظروا إليه مندهشين.. مصطنعين الابتسامة.. وبجانبهم حقائق الظهر مليئة بالأدوات المدرسية.. ثم قرروا أن يتجاهلوه.. أن يتجاهلوا العجوز ذو الأيس كريم.. فتركوه وشأنه.. لم يزعجوه.. مازال لدي تيرزا.. لم أفقد كل شيء.. لقد ترك له شيء.. ترك له تيرزا.. وهي الأجل والأفضل والأحب إلي.. إنها ملكة الشمس.

ثم نهض وذهب إلى المحطة دون أن ينظر إلى الأرض على الرغم من هزيمته الساحقة.. ولكنه مازال لديه تيرزا.. وهي تنتظره في مكان ما.. في عالم آخر.. عالم بلا محافظ وقائية.. تنتظره في بلد آخر وحياة مختلفة.

ثم استقل القطار عائدا إلى البيت.. ولكنه أثناء الطريق لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في ملكة الشمس.. أنه يستحي من هذا الإنهيار: الهزيمة من الاقتصاد العالمي.. كان يشعر بالعار المميت.. وتغلبت فكرة واحدة على كل أفكاره: لا يمكنني بعد الآن أن أنظر في عيون الناس.

وهكذا أصبح الرجل الذي ينظر إلى الأرض أثناء مشيه في الشارع.. رجل يخلق في حذائه أثناء دفعه للعربة في المتجر.. رجل يتجنب نظرات الآخرين.. كأنه يخشى أنهم يستطيعون معرفة قصته من قراءة صفحات وجهه.. فيقرأونها جرحا متقيحا.. وعار لا يمحوه الدهر.

وفي البيت أخفى بارشورات المحفظة الوقائية في أحد الأدراج.. يخالجه شعور بأنه لا يدفن مجرد هذه الكتيبات.. بل إنه يخفي حياته السابقة كلها.



قال معلم الإقتصاد: إن لها شعبية عالية جدا.. ولكن على المرء أن يتعامل معها بحذر.. سأوضح أكثر: كل يوم تحتاج صناديق المعاشات التقاعدية الخاصة أن تستثمر أموالها في مكان ما.. ولكن الأسواق يأتي عليها فترة ركود.. وفي هذه الحالة يتم البحث عن بدائل.. ومن هنا نشأت فكرة المحفظة الوقائية.. ولكن أفضل أوقاتها في الواقع قد ولت.. ولكن لماذا تريد أن تعرف ذلك، لو سمحت لي بالسؤال؟ بطريقة عرضية ضغط هوفمستر برقة على طية سترته.. كأنه اكتشف بقعة في ملابسه.. يرغب في إزالتها ليكون مضيفا مثاليا.

كل شيء مختلف في هذه الليلة.. في هذه الليلة أصبح ينظر إلى الناس في وجوههم.. اليوم كل شيء قد أصبح طي النسيان.. إنه اليوم هوفمستر الذي كان في الماضي.. بل أفضل.. إنه اليوم نسخة مثالية من هوفمستر القديم.. لأن الليلة حفل ملكة الشمس.

سأله هوفمستر: على المرء أن يتعامل معها بحرص، كيف؟ مثل سلاح مشحون؟

- لم أنظر إليها بهذه الطريقة.. ولكن بالطبع يمكن النظر إليها كما نظرت؟

ثم بدرت منه ابتسامة.. وأتبعها برشفة من الخمر.. ثم ابتسامة أخرى.. فمعلم الإقتصاد كان رجل جذابا.. مذهل تماما.

تركه هوفمستر.. وأخذ الرجاجة من الرف المعلق وبدأ يهز بعصبية.. فضيوف تيرزا لايد وأن يجربوا في النهاية أشياء أخرى غير الكوكتيل الذي أعده.. فالمرء لا يسعه في حفلة ابنته الصغرى إلا أن يشعر بالسعادة.. لا يسعه إلا أن يكون مرحا.. ممتلئا ثقة.. وكله تفاؤل.. بل إنه سوف يروح عن نفسه قليلا ويحتفل بحفلة ابنته الصغرى.

وضع الرجاجة على البوفيه وملاً لنفسه كأسا حتى النصف من النبيذ.. وصدم بكأسه زجاجة الخمر التي يشرب منها المدرس.. ثم قال: "لها مكانا خاصا في قلبي.. إنها..." وفي هذه اللحظة هربت منه الكلمات.

فقد كان التفكير في ابنته يستولي على جميع كيانه.. حتى لم يترك منه شيئاً.. فخلفه مجرد أطراف.. أطراف زائدة لا لزوم لها.

- تيرزا؟

نعم. إنني أتواصل معها خاصة.. كما أتواصل مع كثير من التلاميذ في الفصل، فهم مجموعة رائعة، ولكنني أكثر ما أخص تيرزا.. فهي مرحلة جداً.. ومتفتحة.. ويبقى السؤال كما هو دائماً.. أي متنمرين سوف يراهم المرء في السنة المقبلة. توجه معلم الإقتصاد نحو الباب.. فقد تملى من مشاهدة المطبخ.. ولم تكن شهيته في مزاج لتناول السوشي.. ولم يعد الآن يرغب في المزيد من الكوكتيل.. فعاد إلى منطقة الحدث.. لمركز الحفلة النابض.. عاد إلى غرفة المعيشة.

تبعه هوفمستر وهو يقول: إنها في بعض الأحيان تتبخر في الهواء، أليس كذلك، المحفظة الوقائية؟ .. فلا تحس لها ذكراً بعد ذلك.. كأنها لم تكن موجودة أصلاً.

كان هوفمستر يخفض من صوته.. فقد تذكر الإشارة التي كان يشعر بها بعد انتهائه من الحديث في البنك.. ثم اختفت مبالغ ادخرها على مدى عقود من نقود الإيجار.. وكذلك اختفت المكاسب المالية التي كان يحلم بها.. كل ذلك قد تبخر.. وهو الآن يود من كل قلبه أن لو يعرف أين تقبع ثروته الآن.. فهو لا يحتاج أن يعيد تكوين ثروة.. وخاصة بعد أن استقال من منصبه.. وهو يعرف أنها ليست في البنك الآن.. ولكنه يود أن يعرف من يستحوذ عليها حالياً.. فرأس المال يذهب ولكن لا يضيع؟.. فقط يختفي من حقيقة أحدهم ويحط في حقيقة آخر.. آه لو يرى هذا الوجه.. لو يكون لديه صورة هذا الرجل الذي يملك ماله الآن.. أو مكان البيت الذي يقبع فيه كل الإيجارات الشهرية التي ادخرها.. وكما كان يشعر بالفضول نحو من استولى على زوجته.. فإنه الآن يشعر بالفضول نحو من استولى على ماله.. إنه فضول يقضي على الصحة في الحقيقة: فضول نحو من انتصر عليه. قال له هانز وهو على وشك أن يخرج في الردهة: أحيانا تختفي المحفظة الوقائية.. وتخسر.. مثل كل المعاملات الطبيعية.

ثم تحول وذهب.. وهوفمستر يتابعه بنظراته.. كما جاء إلى المطبخ كما خرج: غير مكترث.. عفوي.. وفي يده زجاجة خمر.. ياله من وغد محظوظ.

غسل وجهه ثم جففه بورق المطبخ.. ثم اتصل بتيرزا مرة أخرى..

ولكن لم يجبه إلا البريد الصوتي مرة أخرى.. ثم ذهب إلى غرفة المعيشة.. ليتلقى الأوامر.. وللدردشة.

بينما كان يمزج الكوكتيل.. كان يحتفظ بكأس من النبيذ أسفل منه.. فلا بد وأن يشعر بالإسترخاء مثل هانز.. يعالج كل شيء بهدوء.. وهو بالفعل يبلي في ذلك حسنا.. فقد وصل إلى السن الذي فيه لا يمكن لأي شيء أن يخرج عن طوره.

وهكذا عاد إلى الحفل.. وهو يشعر بأنه أفضل قليلا عما كان عليه في بداية هذا المساء.. جعله النبيذ الأبيض يشعر بالإسترخاء.. يشعر برشاقة في حركته.. ولا يبقى إلا أن يشرب قليل فقط وسوف يتصرف بطيش.

يرقص الضيوف الآن في غرفة المعيشة.. وقد أطفأت المصابيح فوق مائدة الطعام.. وأزيحت بعض الكراسي جانبا.

كانت زوجته ترقص هي وشاب وثلاث فتيات.. كانت زوجته تراقص الشاب.. وهو يعرف هذا الشاب.. لقد جاء

هنا بضع مرات ولكن هو فمستر لا يتذكر إسمه.. هو شيء ذو مقطع واحد.. يصادفه أحيانا عند القراءة: فرما تمر عليه

الكلمات ولا تستقر في وعيه.. ولكنه يرى المقاطع المفردة.. ويقوم بعدها عند القراءة: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة..

فيراهم أمام عينيه يقفزون.. كما تقفز زوجته الآن إلى الأعلى ثم إلى الأسفل مع هذا الشاب.. ويسمون هذا رقص. ولا حرج

على المرء عندما يفكر أن جسدها يختفي تحت نسيج لا يجوز أن يلبس أبدا بحجة حرية التصرف للإنسان.

طوال حياتها كانت تجيد الرقص.. كان متعة بالنسبة إليها تفعله دوما بإجادة.. ولكن من يرى صورها قبل خمس أو

ست سنوات.. سوف يلاحظ كم أصبحت عجوز.. إن المرء ليمتلئ رعبا عندما يرى الصور.

أكثر من أنها أم أولاده لم يكن يرى هو فمستر إلا: امرأة يبدو عليها الذبول.. تراقص شابا في الثامنة عشر.. وكأنه لا

مجال للحديث عن الذبول.. كأن شبابها سوف يبقى إلى الأبد.

ولكم يشعر بالأسف لذلك.. ثم أدرك في نفسه الشفقة.. وأن الغيظ على وشك أن يختفي.. وأن الغضب سيتبخّر تماما.. فمن السهل أن ترى مواضع القوة في عدوك.. ولكنه الآن يرى

أن العدو ضعيف تماما مثله.. بل ربما أضعف منه.. وهو الآخر محطم.. والعدو الذابل لم يعد عدوا.
والقصة.. الأسطورة التي كانت كل هذه السنوات تستهدف إعتداده بذاته.. قد تأكد أنها خطأ.. قصة أم أطفالي التي كانت ترافق عشيقها.. أم أولادي التي كانت تعتبر نفسها رسامة.. لم تعد القصة صحيحة.. لأن العشيق لم يعد موجودا.. وهذا هو السر في العودة المفاجئة لأم أولاده.. عودتها في زي سخييف بعض الشيء.. ولكن ذلك لا يغير شيئا من معالم الحقيقة.

هذا ما يراه عندما ينظر إلى قاعة الرقص.. القصة الذاتية - قصة خداع النفس. قال الشباب المزهري يشبه إلى حد كبير المحفظة الوقائية.. وعود، وأوراق لامعة براق، وعائدات مذهلة، وحلم بالاستثمار، وحلم بإمرأة.. كل ذلك من أجل إدراك السعادة الموهومة.

أمسكت الزوجة بيدي الصبي ووضعتها على كتفيها. يا إلهي.. ما اسمه مرة أخرى؟ فقد أكل هنا مرتين.. فكان شاب ذو خلق.. لا يتكلم كثيرا.. إنه كذلك حقا.. ولا يمكن أن يقال عنه أقل من ذلك.. بل إنه كان يريد أن يساعد في تنظيف المائدة بعد الطعام.

يعتقد هوفمستر أن هذا الشاب قد أقام علاقة مع تيرزا لفترة قصيرة.. لكنه ليس مستيقنا تماما.. فقد كانت تيرزا كالعواصف في أمور الحب حتى قبل نصف سنة من الآن.. فقد كانت تعرف مثلا منذ الخامسة عشر أنها تريد أن تسافر بعد الثانوية إلى إفريقيا وتقضي- هناك سنة.. ولكن عندما يتعلق الأمر بالشباب فإنها لا تثبت على رأي لمدة أسبوع.. فكانت تقول: لدي أصدقاء جيّدون.. وبعضهم بالصدفة من الشباب.. ولكن هذا لا يعني أي شيء.. فقط عندما يعني شيء! ثم تضحك.. كأنها مجرد مزحة بالنسبة إليها.. ويشاركها هوفمستر الضحك.

ذات مرة على العشاء قبل ثلاث سنوات - بعد بضعة أسابيع من اختفاء زوجته على المركب السكني - سألته تيرزا: بابا.. متى يأتي الوقت الذي تفض فيه بكاري؟
كان هوفمستر يأكل حينها طبق من حلوى البانا كوتا.. اشتراها من صانع الحلوى الذي يبعد عنهم بضعة شوارع. فهم سؤالها.. فتوقف عن الأكل.. ونظر إلى الساعة ثم قال:

كل فتاة سوف تفض بكارتها في يوم ما.. طال الزمان أم قصر..
لابد وأن يحدث ذلك لكل واحدة.

- ولكن تقريبا كل فتاة معي في الفصل قد فضت
بكارتها.. متى إذن يحدث ذلك معي؟ ألا تعرف كل شيء
دائما؟

- ليس دائما.. بل في الحقيقة لا أعرف عن الأشياء إلا
نادرا. ثم لعق الملعقة ووضعها بجانب الطبق.. فلم يعد
يستطیع مذاق الباناكوتا.

ولكن أأست تبدي رأيك في كل شيء ما عدا ذلك؟ تبدي
رأيا حتى في أطرف الأشياء.. فماذا تقول إذن في أنني ما زلت
عذراء حتى الآن؟.. وأن كل من في الفصل قد فضت
بكارتهن.. باستثناء بعض البقرات الغيبات.. اللاتي يقرضن
الأوراق ولا يتغذين.. وليس غيرهن.. فقط أنا.. ما رأيك في
ذلك؟

لم تكن ايبي موجودة.. كانت ايبي مختفية في ذلك
الوقت.. متبخرة في الهواء.. بينها وبين العالم الذي نشأت فيه
مسافة بعيدة.

نظر هو قمستر إلى أدوات المائدة.. فقد كان يجلس بمفرده
مع ابنته الصغرى وسيبقى بمفرده دائما معها. ثم قال لها:
لا يحدث شيء إلا بسبب.. وإن لم يحدث شيء.. فهو لم
يحدث لسبب أيضا.. وربما لأنك لم تقابلي الشخص المناسب
بعد.

زفرت تيرزا قائلة: أووف!.. ثم زفرت مرة أخرى.. وعلى
طبقها لا يزال نصف قطعة من الباناكوتا.. فقسمتها بالملعقة
إلى ثلاث قطع وهي تقول: هذا هو الهراء، بابا.. هذا خارج
الموضوع تماما.. لا يتعلق الأمر بمقابلة الشخص المناسب.. بل
يتعلق بفعله.. وهذا هو الأهم والشيء الوحيد الذي يوضع
في الحساب.. وأنا أريدك أن تساعدني.. قل لي من الذي ينبغي
أن يفض بكارتي.

أسند هو قمستر رأسه بين يديه.. وأخذ يضغط على
وجنتيه.. كأنه يشعر بألم رهيب في أسنانه.. ويتطلع في وجه
تيرزا.. ابنته الشابة الموهوبة.. التي لا يمكن أن تفض بكارتها
هكذا بسهولة من البداية.

كانت تكثر من السباحة في الماضي.. بل واشتركت أيضا في
المنافسات.. فكان يذهب بها على الدراجة ثلاث مرات في

الأسبوع بعد العمل إلى حمام سباحة زويد.. وكان يشعر بالفخر لذلك مثلها تماما.. لا، بل أشد فخرا.. فابنتاه تحققا ما لم يستطع تحقيقه.. ولذلك لم يكن يفوت الفرصة في أن يفعل ما لم يستطع الوصول إليه بسبب كل العوارض التي كانت تحيط به: فرصة النبوغ والتفوق.. حتى لا يأتي يوم يلام فيه هوفمستر: فهو لم يدرك فقط أن هذا العالم لا يرحب إلا بالمتصرين والفائزين.. بل إنه يبيد البقية أو يطرحهم جانبا كالغثاء.. بل إن الفائزين أنفسهم لا يسلمون دائما من مثل هذا القدر.

حتى مرضت تيرزا.. ومن وقتها انقطعت عن السباحة.
- سأذكر أسماء كل الشباب الذين يسألونني ذلك.. وعندما تجد من يناسني تقول: "توقفي!".. قلنستخدّم هذه الطريقة.. فأنا بكل بساطة لا أستطيع أن أقع على قرار.. لا أعرف.

نهضت من على كرسيها.. ووقفت خلفه.. وطوقته من الخلف بذراعيها.

وهو في مكانه لم يقوم.. يجلس منصتا إليها.. ونظره علي الباناكوتا.. مستندا برأسه على يديه.. ثم لمع في خاطره فجأة أن لو تتصل به زوجته الآن.. وفي هذه اللحظة بالذات.. لكي تقص عليه أين كانت كل هذه الأسابيع.
قالت تيرزا: لا بد أن تساعدني.. ألم يخلق الله الأباء من أجل ذلك؟ فلتساعدني إذن، بابا.

قال لها: تيرزا، دعك من هذا.. توقفي عن هذا الجنون.. من فضلك توقفي عن هذا.. ولتأكلي البانا كوتا خاصتك.
فواصلت الضغط على كرسيه.

- سأقول الآن أسماء الشباب.. مع وصف مختصر.. هل أنت مستعد؟ دايفيد: شعر ناعم بني.. يبلغ من الطوال متر وأربع وسبعون سنتيمتر.

صرخ هوفمستر: لا، لا ياتيرزا.. اجلسي.. أرجوك توقفي.. هيا اجلسي. وضرب بيده على الطاولة.
تركته وعادت إلى كرسيها.. ثم أخذت وهي مازالت واقفة قطعة صغيرة من الباناكوتا.

ثم قالت: لا تحزن يا بابا.. لا تحزن.. لقد طال انتظاري فقط.. وأنا لست قبيحة؟ لماذا إذن لم يحدث ذلك حتى الآن؟

شعر بغصة في حلقه من قطعة صغيرة من الحلوى.. أما هي فجلست.. وأخذ هو يمسح يديه برغم أنه ما من شيء قد علق بها.. ثم عاد فأسند رأسه بيديه.. وهو يضغط بشدة على خديه. ثم قال:

إنك بارعة الحسن يا تيرزا.. أنت كاملة النضج.. ولا نقاش في ذلك.. ولكن الشباب يشعرون بالخجل.. في البداية فقط.. ولا يستمر ذلك دائماً.. ولذلك يجب أن تشجعهم.

- ولكن كيف ذلك؟

غطى عينيه بقوة.. يتذكر كيف كان يسافر بها إلى ألمانيا ذاهباً إلى العيادة.. عندما بدأ لأول مرة في حياته بالدعاء.. ليس دعاء بالكلمات.. بل كان أقرب إلى الأنشودة.. دعاء بهمهمة.. كان يطن في سره كأنه حشرة كبيرة.

سألته مرة أخرى: ولكن كيف؟ كيف أشجع الشباب؟ إنهم دائماً هزليون.

أكثر من الضغط بأصابعه على عينيه.. وتوقف الطنين.. ثم قال هامساً: يجب أن لا تنسى.. أنهم يشعرون بالرهبة منك قليلاً.. إنهم يخافون.. ولكنهم يخافون منك في أغلب الأحوال.. ولذلك يجب أن تأخذ الشاب الذي قمت باختياره إلى مكان لا يراكما فيه أحد.. مكان سري.. وهناك عليك أن تتحسس به بحرص.. سوف يرتعب في بادئ الأمر.. ولكن عليك أن لا تشعري أنت بالخوف.. مهما حصل لا يجوز لك أن تشعري بالخوف.. ثم تلمسه مرة أخرى.. وأنت تقولين: أنا تيرزا.. وقد وقعت في حبك.

وأخذ يغطي في عينيه قدر الإمكان.. وهو يأمل أن تحبس دموعه.. أن لا تدعها تتسرب.. وهو يأمل أن تبقى دموعه مختفية عن العالم.. والفضل لهاتين اليدين.. اللتان يعمل بهما بكل سرور في الحديقة.

- وبعد ذلك.. عندما أقول له هذا؟

- "وبعد ذلك..." - أحس بغصة... وبعد ذلك... يخلع هو التي شيرت.. أو القميص - أو الجاكيت؟ أقصد الشاب الذي قمت باختياره.

- قميص.

- إذن عليك أن تفتحي له القميص ببطء.. الأزرار العليا أولاً.. ثم

التي تليها.. وربما يقاوم.. بل ربما يحاول الهرب.. ولكن عليك أن تمسكه بيدك وتقولين: لا تهرب.. فأنا تيرزا.. وقد وقعت في حبك.

- وبعد ذلك؟ أكمل.

لم يعد هوفمستر يستطيع.. طأطأ برأسه أكثر إلى الأمام.. شعر بعينيه حمراوتان ومتورمتان.. ويده قد ابتلت.. ويبدو عليها طعن السن.

- ثم... - وأخذ نفسا عميقا.. ثم أتبعه بآخر.. نفس الشيء الذي حدث معه وهو يصعد الدرج باحثا عن ايبي التي كانت عند المستأجر ولم ترجع بعد.. نفس الشعور بضيق التنفس والإختناق -... ثم تضغطي جسدك على جسده.. واضعة في الحسبان.. قدر الخوف الذي ينتابه.. فهو يخاف منك أكثر مما يخاف من الموت نفسه.. لأنك امرأة، يا تيرزا. ثم يجب عليك أن تتحسسيه.. وتربتي عليه.. وتتفحصيه مادام واقفا.. وتشمي جسده.. وتقبله.. وتضميه إليك.. ولا تنسي.. أن تتشبي به إذا ما حاول الهرب.. ولا شك أن سيحاول ذلك.. ولكن عليك أن تأخذي بتلابيبه.. لأنه يريد أيضا أن يبقى.. نعم إنه يريد أن يهرب ولكن يريد أن يحتجز.. ولكن عليك أن تكوني قوية.. فهذه هي الإمكانية الوحيدة.. ثم بعد ذلك تقولين له: من أنت؟ أنا تيرزا وقد أحببتك.. ولكن من أنت؟

وفي هذه اللحظة لفظ صرخة كانت جاثمة على صدره.. صرخة كصافرة الضباب.. قصيرة ولكن مدوية.. يسمعها من هو على بعد أميال.

أقامت تيرزا من مكانها.. بل إن هوفمستر نفسه قد شعر بالرعب من صرخته.. فقفز هو الآخر.

سألته تيرزا: ماذا بك، بابا.. ماذا حدث؟

أمكنها أن ترى الدموع في عينيه.. فاحتضنها من شدة خوفها.. وأطبق عليها بين ذراعيه بشدة.. يقبلها.. من شعرها ووجنتيها وأنفها وشفاهها وأذنيها.. ويقول: لا شيء، يا تيرزا.. لا شيء.. مجرد حلم من أحلام اليقظة.. فكرة غير سارة وذهبت إلى حالها! لا تحزني.. كل شيء سيكون على ما يرام.. بل كل شيء على ما يرام.

ثم فتح أبواب الباحة.. وأخذها معه إلى الحديقة المظلمة.. على

الرغم من أن الجو كان ياردا.. وذهبا إلى الخارج وبدون معاطف.. ولكنه فعل ذلك أملا في أن لا ترى عينيه المتورمتين. وعندما وقفا أخيرا على العشب الرطب.. قالت له: إذن علي أن أقوم بذلك.

فأجابها وهو يشيح بنظره بعيدا عنها بعض الشيء.. يتطلع في الكوخ، والأشجار، ومنازل الجيران: إذن عليك أن تفعلي مثل ذلك.

- ولكن لماذا يخاف الشباب مني؟
انطفأت الأنوار في إحدى الغرف في البيت المقابل لهم.. أغلب الظن أنها غرفة أطفال، وقد وصلت قصة ما قبل النوم إلى نهايتها.

فقال لها وهو لما يزال ملتفتا عنها قليلا: لأنهم يظنونك بعيدة المنال.. وعندما يحصلون عليك لأول مرة.. فإنهم لن يشعروا بالخوف بعد ذلك.
عندئذ وقفت على رؤوس أصابعها وهمست في أذن والدها: أنا تيرزا.. وقد وقعت في حبك.

جلس هوفمستر على الأريكة بجانب يوفروف فلدكامب.. التي لم ترح حتى الآن مكانها.. ويتساءل للمرة الألف.. أين تيرزا يا ترى.. لماذا لا تتصل.. إنها عاقلة دائما.. ولم تعد طفلة في الواقع.. إنها راشدة.. بل أكثر رشدا من كثير من أقرانها.. ولا بد أن هناك سببا وجيها يبرر تأخرها هذا.. ربما العرف أصبح أن لا تظهر مقيمة الحفلة في الوقت بالضبط.. فهو لم يعد يعرف حاليا ما العرف الجاري.. وما الذي اندثر من الأعراف في الحفلات.. بل في الحقيقة لم يعرف أبدا مثل هذه الأمور.

ألقي نظرة خاطفة على يوفروف فلدكامب.. كان يبدو وأن مذاق نبيذ الكير قد راق لها.. فهي الآن تشرب كأسها الخامس.. فابتسمت له.. فبادلها الابتسامة.. ثم أخذ يتفقد ضيوف الحفل.. كأنه أحد الجنرالات يتفقد قواته. فلم يجد أحدا ينقصه شيء.. تم تزويد الكل بما يحتاجون.. وكل طلباتهم قد لبيت.. بل إنه قال من أجل الإحتياط للسلامة: "من يريد حجة أو نبيذا فيمكنه أن يخدم نفسه في المطبخ." فلن يقف أحد هنا بكأس فارغ.. ولا يمكن أن يشعر أحد بالحزن في هذا المساء.

كانت ابيي ما تزال تجلس بجوار يوفروف فلداكامب على الأريكة.. ولكنها لم تعد تتفوه بكلمة.. فقط كانت تجلس.. كعادتها دائماً.. مع نفسها.. مشبكة بين ذراعيها.. وكأنها لا تجلس معهم.. وقد كانت في الحقيقة هكذا دائماً.. فهي منذ أن كانت طفلة وقد قررت أن لا تنتمي لهذه الأسرة.. لأنها ببساطة لا تنسجم فيها.. ومن المحتمل أنها تفكر الآن في نزلها.. وفي زوجها-أو صديقها- أيا ما يطلق عليه.. ولكنه على كل حال هو الرجل الذي يفضل هوفمستر أن يصمت ولا يتكلم عنه. فهناك أشياء لا يتطرق المرء للحديث عنها.. إنه يتعلم كيف يتعايش معها.. ولكن أن يتحدث بشأنها - هذا مستحيل!

لمست يوفروف فلداكامب يد هوفمستر للحظة، وكأنها لمسته صدقة، وهي تناديه: جميل.. أليس كذلك؟

- ماذا؟

- كل هؤلاء الشباب الراقصين.. الأطفال..

- نعم.. هذا جميل جداً. ولكنه كان يتمنى أن لم ترقص زوجته.. خاصة في هذا المساء.. ومع كل هؤلاء المراهقين المغرمين الذين يحيطون بها.

وفجأة انتفضت ابيي واقفة واختلطت هي الأخرى بين الراقصين.. بجنون ودون أي اكتراث.. كأنها في غابة أو في أي مكان لا يراها فيه أحد.. وهي بمفردها تماماً ولا يمكن للخجل في هذا الوقت أن يلعب أي دور.. فالخجل يحتاج إلى ناظرين.. فالمرء يستحي، لأنه يعتقد أن الآخرين يرونه.. ولأنه يعرف أن الآخرين ينظرون.

لقد تجاوزت الساعة العاشرة.. وهوفمستريتابع رقص ابيي لبضع لحظات.. وهو يشعر كما يشعر كل الآباء.. يشعر بالفخر والحزن.. على الرغم من أن خوفاً غير واضح المعالم يختلط بداخله مع هذه المشاعر. وهو يقابل هذا الخوف عند مواجهة ابنتيه.. فهما تستفزانه.. وتظهران له أشياء تجعله يخرج عن إرادته.. ولذلك يعتقد أنه قد أعد ابنتيه للحياة إعداداً سيئاً وبشكل غير كامل.. ولذلك تتهمانه ولكن دون أن تتفوه بكلمة.. فابنتاه يظهران له كيف هو.. ولا بد أن يعترف أن هذا فوق الإحتمال.

رفع شخص ما صوت الموسيقى.. وطوقت زوجته الشاب بذراعيها

وهما يرقصان.. الشاب الذي كان هنا مرة يأكل معهم.. ولم يزل هو فمستر لم يتذكر اسمه.. فذهب إلى المطبخ وأخذ لنفسه كأساً من النبيذ.

ولما فرغ الكأس.. اتصل بـ تيرزا.. فلم يجبه إلا المجيب الآلي مرة أخرى. "مرحباً.. أنا تيرزا.. ولست هنا الآن.. ولكن أترك لي فقط أخباراً لطيفة.

فحدثها من خلاله: عزيزتي.. إن حفلك يجري على قدم وساق.. والجميع هنا تقريباً.. وحقق عليك أن تأتي الآن.. إنها حفلة رائعة.

دق الباب.. ليست تيرزا.. ولكنها ميفروف فان ديلفن.. معلمتها السابقة.. فبادلها الحديث في الأمور العادية.. عن السياسة.. وعن رواية لمؤلف بلجيكي لم يسمع عنه هو فمستر أبداً.

ثم ذهب هو فمستر إلى الحديقة.. لا تزال الشموع تشتعل.. فقد أبلى فيها بلاء حسناً.. فلا تحترق إلا ببطء.

فذهب إلى الكوخ.. وجلس بين المنشار والجرافة.. ثم استند على الحائط الخشبي.. وأخذ يتمتم بأشياء لم يفهمها هو نفسه.. حتى لاحظ بعد برهة أنه يردد الطلبات التي كان يتلقاها قبل ما يقرب من عشر دقائق.. ولما انتهى من ذلك.. واقتنع بأن ذاكرته ما زالت تعمل بشكل جيد.. تذكر أنه ما زال لم يعرف ما هي المحفظة الوقائية.. فمعلم الإقتصاد لم يستطع أن يوضح له المفهوم جيداً.. مثل أي أحد آخر.. وبقية المحفظة الوقائية لغزاً.. وقمر ثلاث سنوات كاملة على اختفاء استثماراته.. وهو لا يزال لم يعرف ما الذي اختفى فعلاً.

أخذ مسح بكلتا يديه على خديه اللذين ما زال ينبعث منهما عطر ما بعد الحلاقة.. وعاد يتذكر ما أجابته به زوجته: "ممارسة الجنس" رداً على سؤاله: ماذا تريدان بحق الجحيم؟ فالضيوف ربما يأتون في أية لحظة.

كما فكر في باب الشرقة في غرفة النوم.. وتذكر هذا المساء عندما وجدها فجأة واقفة أمام الباب تحمل حقبتها. كل هذا لم يمر عليه وقت طويل في الحقيقة، ولكنه بدأ له كأنه حدث في حياة أخرى. وهكذا بقي جالساً.. يداه على خديه تضغطان.. تهاجمه ذكريات كاملة عن شيء لا يريد أن يعترف به.

لم تمض دقائق حتى عاد إلى طبيعته.. فهناك حفلة، وهو مضيفها.. لم يعد يشعر بالألم.. فالألم من صنع الخيال.. على الأقل في أغلب الحالات. ومن لديه الألم، لابد وأن يخلو بنفسه.. إلى أن تزول هذه الآلام فلا يعد يشعر بها. ومن المؤكد أن هذا صعب عند الشعور بالألم من ساق مكسورة.. هذا مؤكد.. ولكنه الآن ليس لديه ساق مكسورة.. ليس لديه أي شيء مكسور.

فتح أحدهم باب الكوخ.. ولكنه لم يستطع أن يراه جيدا. فحرق بإمعان في الجزء المظلم.. فتعرف على الشخص.. كانت البنت التي أرادت عصير الطماطم. فقال لها بطريقة ليست ودودة، وهو يريد ذلك على الحقيقة: إن الحفل في الداخل.. وهذا كوخ وليس الحفل. بدت مذعورة.. فمن المؤكد أنها لم تكن تتوقع أحدا هنا.. إلا المخلفات القديمة والصمت.. ولكنها سرعان ما تماكنت نفسها. فمن الممكن أيضا أنها كانت تتبعه.. فحضوره لم يربعها مطلقا.. بل هو من أحس بالخوف منها.. أحس بخوف غامض.

- وماذا تفعل أنت هنا؟

- أنا؟ أستنشق الهواء قليلا.. بعض النسيم الممتع.

كان ينفخ مثل ممثل سيء يؤكد على كلماته باستخدام اللفات البرهانية.

- لم أجد عصير الطماطم.. لا بد وأن يكون في مكان ما.. ولكنني لم أستطع أن أعثر عليه.

وكان هذا بمثابة بيان خرج من فمه في هذا الكوخ وفي هذا المساء.. كان يبدو أنه بيان عن حياته كلها.. ينبئ عن غياب أشياء كثيرة من حياته.. غياب السعادة.. التي أثبت عصير الطماطم أنه لا يمكن تعقبها.

- إذن سأشرب أي شيء آخر.

ثم تركت خلفها باب الكوخ مفتوحا.. وهو يحدق في الفليب قلوب الذي تلبسه.. والجينز.. الذي تمت معالجته العديد من المرات.. ربما الموضة هكذا في هذه الأيام.. ولكن بالنسبة إليه تبدو مضحكة.. ثم

تذكر اسمها مرة أخرى: إستر بدون ياء.

إنها تذكره بتيرزا هي الأخرى بدون هاء.

- هل أنت صديقة حميمة لتيرزا؟

- في الحقيقة لا.
ابتعد عن الجدار الذي يستند عليه ويجده مريحاً جداً..
ولكنه لا يبد وأن يعود للحفل.. فالضيوف يحتاجونه.. ومن
المحتمل أن ابنته قد عادت في هذه الأثناء.

- في الواقع.. أنا لست صديقة لها.
نظر الأب إلى الفتاة بإرتياب.. ماذا تفعل إذن في الحفلة؟
ماذا تريد هنا؟ فهذا مساء خاص لأصدقاء وصديقات تيرزا،
وليس للمتجولين.. أو الناس الذين لا يريدون إلا مجرد
التطفل.. لأنهم يستطيعون المذاق بشكل أفضل عندما لا
يضطرون أن يدفعوا حساب مشروباتهم.

وضع إحدى يديه على جازاة العشب.. كم كان يود أن
يكون أباً آخر.. بمعنى: أن يكون أباً أفضل. ولما تبين له أنه لا
يستطيع أن يتفوق في أي شيء.. قرر أن يكون دوره كأب هو:
أن تتعد ابتناؤه عن العالم وتواجهها بحسم. وماذا يعني
الذكاء غير هذه المسافة الحرجة التي تتيح للمرء أن ينظر إلى
نفسه وإلى الأشياء الأخرى؟ فلا يعتقد في أي شيء بسهولة..
وطفلتيه لا تثقان في أي شيء غير ذكائهما.. هذا ما درسه
لهما.. علمهما أن هذا الذكاء هو الإله الذي بيده مقاليد
الأمور.. كما علمهما أيضاً إحترام كل الناس. ولكنه الآن لديه
إحساس دامغ أنه قد غفل عن شيء ما.. لديه إحساس بأن
نظرية النظرة الناقدة للعالم، التي فرضها على ابنتيه.. ليس
لديها أية إجابات عن أسئلة هي في حد ذاتها جوهرية..
وظلت أشياء كثيرة غيبية عن هذا الإله.. يحار في تفسيرها..
والتساؤلات ما زالت عديدة.. لم يستطع هذا الإله الوصول إلى
أجوبة عليها.

- لماذا قامت بدعوتك إذن؟
ونفض الغبار الموهوم على كتفيه وأخذ خطوة باتجاه
الحفل.

لم يتلق جواباً من الفتاة.. كانت فقط تقف في عرض
الباب.. تعبث في الفليب فلوب.. وتنظر إلى معدات
الحديقة.. والكراسي.. وإلى صندوق فارغ، لم يعبأ فيه
اليوسفي غير مرة واحدة.. ولسبب لا يعرفه
لم يتخلص منه.
انتظر جواباً ولكن لا حياة لمن تنادي.

فسألها وهو يشعر ببعض الحرج: وهل تعرفين ماذا تريد أن تفعل؟ بعد المدرسة؟
سألها بهذه الطريقة لكي يصل الحديث إلى نتيجة مهذبة..
فسواء كانت صديقة ابنته أم لا.. لابد وأن ينتهي الحديث بطريقة مهذبة.

- علي أن أعيد السنة.. فقد رسبت.

- يؤسفني ذلك.

وفي جيب البنطال وجد هوفمستر مندبلا.. فمسح به جبهته.. لم يكن بها ما يستدع المسح.. ولكنه فكر أنه سيبدأ بالعرق.

- لست جيدة في المدرسة.. وهذا يوحي كما لو أنني ذكية.. وهذا ليس بصحيح.
لا يعرف ماذا يفعل بهذا الإعتراف.. وكذلك الحديث بأكمله.. فمسح مرة أخرى على جبهته.. وهو يضغط عليها أكثر من المرة الأولى.. كأنه مصاب في هذه المنطقة بالجرب.. ولا بد أن يكشطه.

- هل جربت مذاق السوشي؟

- كما أن حظي سيء في العلاقات.

- هل جربت مذاق السوشي؟ يوجد أيضا ساشيمي.

لم يستطع أن يهدأ.. فهو يتلهف على إجابات.. وهو لا يستطيع أن يتحملها عندما تتجاهل أسئلته.

- أنا لا أكل السمك.. فهي لا تستغرق وقتا طويلا.. شهر أو ما يقاربه.. أسبوعين أو ثلاثة. معذرة أنني أحكي لك كل هذا.

- لا بأس، هل أنت نباتية؟

ثم أعاد هوفمستر المندبل إلى جيبه.. فعليه أن يعود إلى الحفل.. ولكنه لم يجد رغبة في ذلك.. إذ كلما أطال البقاء في الكوخ.. كلما كان من الصعب عليه العودة.. واستئناف مهمته من جديد.

- أنا لا أكل أي نوع من الأسماك.. ولا حتى الطازج منها.
لا شك أنها فتاة صعبة المراس.. فالمزعجون في الأكل هم أناس سيئو المزاج.. وهوفمستر يحب الناس الذين يأكلون كل شيء.. وخاصة كل شيء يطبخه هو.. فعلى الإنسان أن يأكل..

وخاصة من لا يستطيع أن يتحدث.. وكذلك الناس الذين لا يمكنهم العيش.. عليهم أن يأكلوا.

- إذن فأنت نباتية؟

- أنا لا أكل الأسماك.. ولكن أكل اللحوم. لأعرف ماذا

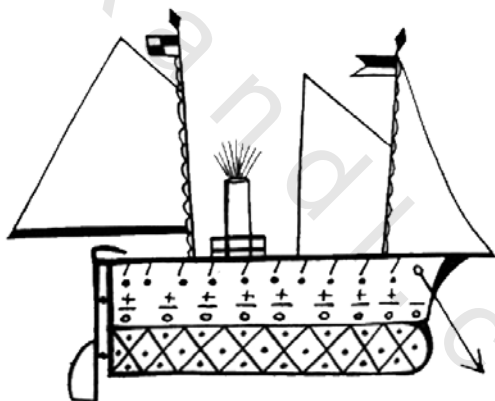
يسمى المرء ذلك. ماذا يسمى المرء في هذه الحالة؟

أطرق هوفمستر يفكر للحظة.. هل يوجد كلمة تعبر عن ذلك؟ لو كانت توجد.. فهو إذن لا يعرفها.. فقال بعد صمت لبرهة قصيرة: في هذه الحالة يطلق عليك: الفتاة التي لا تأكل الأسماك.

كانت تقف في مكانها لم تنوي أن تتنحى جانبا.. فمن الواضح أنها لم تدرك أنه عليه العودة.

- حسنا.. إذن أنا هكذا فقط: الفتاة التي لا تأكل الأسماك.

ثم ضحكت.. ولكن ليس ضحكا نابعا من قلبها.. بل أقرب إلى ضحك الرسوم الكاريكاتيرية.



هو الآن يقف أمامها مباشرة.. ولا يجد بدا من أن ينحى جانبا.. إذ عليه أن يعود.. فقال لها مرة أخرى:

- يؤسفني ذلك.. أقصد بالنسبة للعلاقات والمدرسة، وأيضا بالنسبة للسّمك.. أنا آسف لذلك.. ولكنك حتما سوف تجددين من يحبك بصدق.. بالمناسبة يوجد هنا مشهيات نباتية.. بوجد زيتون.

قالت: أخ.. بففف - "الحب"! إنه موضة قديمة.

- ماذا تعنين بذلك؟

- نحن لم نعد نمح هذا الشيء لبعضنا.
قالت ذلك بعدائية.. كأنها توبخه.. وقد شعر بذلك.. شعر بأنه قد ويخ.. فهو قد ارتكب زلة.. وهذه الفتاة قد لمحت له عن هذه الزلة بمهارة.

وضع يده على كتفها.. مصمما أن يدفعها جانبا ولكن بود.. فصورة زوجته وهي ترقص في حجرة المعيشة مع أصدقاء تيرزا.. تتصاعد في مخيلته وتغضبه.. وتجعله سيء المزاج.. أو مريض.. نعم يمكن القول بأنها تمرضه.

وسألها ولا تزال يده على كتفها: وماذا تفعلون إذن؟
كانت تقف صارمة وفي نفس الوقت منكسرة القلب.. هكذا كانت تقف.. وصرامتها هذه هي التي تؤكد إنكسار قلبها.. أو بالأحرى تؤكد على أن كل شيء منكسر.

- نحن نمارس المتعة مع بعضنا.. أو على الأقل نحاول.
تخلل شعره بيده اليمنى.. بينما بقيت اليسرى على كتفها كأنها مشلولة.

لم يرق له جوابها.. فلم يرد أن يسمعها.
ربما تريد أن تنقطع عن الدراسة. وتصبح شخص كسول.. لا يريد أن يبذل أي جهد.. لا تفهم أن الأمر يدور حول النظر إلى العالم بنظرة ناقدة.. لا تفهم أن الإنسان لا بد وأن يعمل.. ويعمل.. ويعمل.. ومرة أخرى يعمل. ولكنها تعتقد أن كل شيء يدور حول المتعة.. فأى غطرسة هذه.. أي غطرسة عذمة القلب هذه.

قال لها: "نحن؟" نحن؟.. لم أكن أظن أن "نحن" هذه توجد على الحقيقة. فأنا وأنت على سبيل المثال.. هل يطلق علينا الآن "نحن؟" لا أظن ذلك. من تقصدين بـ "نحن؟" إلى من تتحدثين؟

ما الذي به؟ لماذا ترك نفسه يدخل في مثل هذه المناقشة؟
ما الذي يريد أن يثبتته لهذه الفتاة التي من الواضح أنها لا تطبق السمك ولا المدرسة؟ عليه أن يتركها تنعم بالهدوء.. أم أنه يريد أن يراها تشعر بالألم أمامه.. عليه أن ألا ينزل لمستوى عقلها.. لا بد وأن يكون في مستوى أعلى.. فهو يبلغ من العمر ستون عاما تقريبا.. والرجال في عمره لا تستغرقهم الأشياء.. ولكن ما يلاحظه جديدا كل ساعة، بل كل ربع

الساعة، كأنه لا يمل أبداً من تذكر ذلك: إنه لا تستغرقه الأشياء.. بل لا يستغرقه شيء أبداً.

- ولكنني أعتقد أنه يوجد "نحن". وأعتقد أنه يمكنني أن أقول: **نحن**.. لا نمنح بعضنا الحب. نحن لا نفعل ذلك.. ربما أنت.. ولكن ليس نحن. فنحن نجد ذلك سخيفاً.. ولا تعتبرني وقحة، ولكنني أعتقد أن ما تقوله هراء.. وأعتقد أن الكثيرين يفعلون ذلك.. ويعتقدون أنهم قادرون على تحقيقه.. فقط لأنهم أكبر في السن.. أو يملكون المال.. إنني لست ذكية.. وربما أفكر أقل من الآخرين.. ولكنني أعرف ما هو الهراء. همس هو فمستر:

- عليّ أن أعود للحفل.. سوف نكمل حديثنا عن ذلك فيما بعد.. في مرة أخرى.. لا يمكنك تجاهل الحب يا إستر.. لقد حاولت فعل ذلك.. عندما كنت في مثل عمرك.. وأردت تجاهله. يمكنني أن أقص عليك الكثير من ذلك.. فلتأت مرة لتناول الطعام معنا.. سوف تسعد تيرزا. تعالي قبل أن تسافر.. فهي ستسافر إلى إفريقيا كما تعرفين.

- نحن. لقد قتلها الآن بنفسك. "نحن سوف نكمل حديثنا فيما بعد." نحن. أرايت أنها موجودة. نحن الاثنين.. يطلق علينا "نحن". وإن كان ذلك يناسب حضرتك أم لا.. فإنه يطلق على الإثنين "نحن".

نظر إليها في وجهها.. ولا تزال يده علي كتفها.. ولأول مرة يلاحظ أن حياته هي ما تجعله يشعر بالأم.. ليس الحياة في مجملها.. ولكن حياته تخبيء له الأمل.. وهذا ما لاح له وهو ينظر إلى وجه إستر بدون ياء. وعليه أن يفكر في ذلك.. ماذا يعني الأم؟

ثم قال لها بطريقة توحى كأنه يتوسل إليها.. وأن ثقته بنفسه قد تذبذبت.. وفقد الأمل: علي أن أذهب للداخل.. دعيني أمر.

- هل تسمح لي بأن أبقى هنا؟

- هنا؟

انزلقت يده من علي كتفها.. وبرغم أن الجو فاتر هذا المساء.. إلا أنه شعر بالبرد فجأة.. فكبّت رعشته بخشخشة أسنانه.

أشارت إلى معدات الحديقة وقالت: هنا.

نظر إلى شكاية سماء، وواحدة أخرى على الأرض.. وإلى المنشار.. والمجرفة.. وجزاة العشب.. ودلو.. والصندوق الذي كان يعبأ فيه اليوسفي.

- في الكوخ؟ ولكن الحفلة ليست هنا.. لا شيء هنا.. غير أشياء صغيرة.. بل لا شيء هنا على الإطلاق.

- أجد أنه من الأفضل لي أن أكون بمفردي.. لحظة.....
ثم أخذت الدلو وقلبته وجلست عليه. وقالت: رأيت..
أجلس هنا بشكل جيد تماماً.. ولن أكون عبئاً على أي أحد.
شعر بالحيرة.. هل ينبغي أن يسمح لها بذلك؟.. لا يجد ذلك ملائماً: أن يتركها تحجز نفسها في كوخ.. بينما الحفل في غرفة المعيشة يستعر على أشده. صحيح أنه كان ينسحب من حين لآخر من الحفلات التي تقيمها زوجته إلى غرفة النوم.. ولكنه رجل راشد.. وكان، عندما كان يفعل ذلك، في سن أكبر من سنّها.. كان شخص لا يستطيع أن يعقد صداقات مع الناس.. وفوق ذلك أقنع نفسه بأن يكتفي بطفلتين فقط.
قال لها: حسناً. لا مانع لدي.. إن كان هذا يشعرك بالمتعة.
إن كان هذا هو تصورك عن الحفلات.. وسوف أحضر.. لك شيئاً تشربينه.. فيم ترغبين؟ يمكنك أيضاً أن تيري المصباح.. وأشار إلى المفتاح.. وقال:

- هل أحضر لك شيئاً تقرئينه؟ جريدة اليوم؟
- شكرًا.. لا أحتاج شيئاً للقراءة.. فأنا سوف أحسّس نفسي قليلاً.

طأطأ رأسه.. كأنه لم يفهم بشكل جيد.. لم يصدق أذنيه..
- ماذا تريد أن تفعلني؟

- أتحمس نفسي قليلاً.. هكذا.. تحرك يدك اليمنى ببطء على ذراعك الأيسر.. على مضض.. كأنها تلمس شيئاً مجهولاً.. غير لطيف.. كالزواحف.. كأن ذراعك حشرة زاحفة.
طفق للحظة ينظر إلى العرض وهو لا يشعر بالراحة.. تراوده فكرة، كلما مر الوقت كلما اتضحت له: لا يريد أن يراقب هذا.. ليس الآن.. بل في الواقع لا يريد أبداً.
ثم سمع أصوات تأتي من بعيد.. كانت موسيقى الحفل.
أخذت تدلك يدها التي كتبت عليها رقم الهاتف.. ثم عادت مرة أخرى إلى ذراعها العاري.. تدلكه ذهاباً وإياباً.. دون أن تسرع.. وفي

نفس الوقت أيضا دون أن تتراخى.
فقال وهو يستحضر كل مواهبه في فن الإقناع:

- إستر.. يوجد بالداخل أناس كثيرون سوف يقومون بالتدليك لك بكل سرور.. تعالي معي إلى غرفة المعيشة.. وسأقدمك لبعض الضيوف اللطفاء.. على الرغم من أنك في الحقيقة تعرفهم كلهم.. تعالي معي.. لا تبقي هنا.. فالكوخ ليس مكانا مناسباً لك.

- أفضل أن أفعل هذا بنفسى.. فأنا أستطيع أن أفعل بشكل أفضل.

فظل للحظة لم يبد حراكا.. يتخذ قرارا.. لا بد وأن يقنعها.. ولكنه لا يعرف كيف يقنعها.. إذ أنه لو تركها بمفردها سوف يشعر بأنه تصرف تصرفا غير مسئول.. تصرفا ينبيء عن اللامبالاة.. فكبّار السن هم من يجوز في حقهم أن يختجزوا أنفسهم في الكوخ، عندما تكون الحفلة على أشدها في غرفة المعيشة.. ولكن إذا كان المرء شابا.. فمن الأفضل أن لا يفعل ذلك.. وإلا راودته آفكار السخيفة.

قالت له وهي تواصل تدليك ذراعها:

- سيد هوفمستر، هل تخضع أنت الآخر أحيانا لقليل من التدليك؟

غادر الكوخ دون أن ينبث ببنت شفة.. فلم يكن يريد أن يواصل هذا الحديث.. فلكل شيء حدود.. وكل ما كان يفكر فيه أن لو يصرخ: أيتها الوقحة! أيتها الوقحة الملعونة!

ولم يزد على أن ناداها عندما خرج ووقف:

- ماذا تريد الآن لتشرّب بينه؟ هل أحضر- لك عصير برتقال.. إن لم أجد عصير طماطم؟

- فأجابته منادية هي الأخرى:

- لا بأس بعصير البرتقال.. ولكن بلا ثلج.

تهادى بخطوات واسعة إلى المطبخ.

لقد كان جيل ابني مختلفا.. صحيح أنها لم تكن تكبر تيزرا في السن كثيرا.. ولكن على الرغم من ذلك فهو لا يستطيع أن يتذكر أن مثل هذه التطورات قد بدت على صديقاتها..

فلم ير مثلا أنهم لا يأكلن السمك.. أو تجلس إحداهن في الكوخ

لتدلك نفسها قليلا.. أو لا تجد نفسها ذكية.. ومثل هذا التبدل سيحيله إلى الجنون التام.
وبمجرد أن صب عصير البرتقال - في كأس نبيد.. إذ لم يجد الكؤوس الأخرى - بمجرد أن صب العصير شعر بيد على كتفه.

- تيرزا.. أين كنت كل هذا الوقت الطويل؟ من أين أتيت؟

بدت متعركة.. ومسحوق التجميل في عيناها متلطح قليلا.
قالت: لقد كنت أتجول بالذراجة.. فسمعت رسائلك..
وعندها جئت أسابق الريح.. ثم - هل هذا حقا، هل أعجب الناس بالحفل؟ هل نال السوشي الذي أعدته قبولا، بابا؟
كانت تتعرق.. ولكنها لامعة.. كانت عيناها تلمعان.

ضمها إليه.. وهو يدرك، كما لو لم يكن يدرك أبدا من قبل، إدراكا يسحق كل شك.. أنه يستحيل أن يفقد تيرزا..
فبدونها لا يستطيع أن يتصور حياة.. وما لا يتوقع المرء حدوثه.. لا يمكن أن يرغب فيه. إنها مصدر وجوده.. إن هذا الذي يضمه بين أحضانه.. هو ما يعطيه امتياز الحياة وواجبها في نفس الوقت.. فإذا ذهبت ستضع عنه الواجب ولكنها ستسلبه حق الحياة.. إنه مازال لا يمكنه أن يتصور كيف كان يعيش قبل أن تأتي إلى الوجود.. كان في حالة انتظار.. هكذا كان حاله.. وهكذا أمضى كل هذه السنين منتظرا لتيرزا.. على الرغم أنه، من الطبيعي، لم يكن يعرف أنها تيرزا.. هي التي ستأتي.

قالت له: بابا.. أنت تضغطني بشدة.. ستجعلني مثل العصيدة! يمكنك أن تفعل ذلك لاحقا.. في المطار.. لا تكن وقحا الآن.. فأنا أريد أن أعرفك على شخص ما.

وأشارت إلى شخص من الواضح أنه كان يقف في الباب لفترة طويلة.

كان شاب.. في الحقيقة كان رجلا.. قدر هو فمستر عمره بثلاث وعشرين.. أو أربع وعشرين.. فهو على كل حال يكبر تيرزا.

كانت بشرته تميل إلى السمرة.. ذو ذقن واسعة.. وحاجبين كثيفين.. يعطيانه مظهر العابس.. ومن المحتمل أن يكون هو الذي ينظر بعبوس.. من قد يدري؟

قالت تيرزا: بابا.. هذا شكري صديقي.

اتجه هو فمستر نحو الضيف الجديد بخطى متثاقلة.

وفي أثناء الخطوات التي خطاها باتجاه الباب فإنه غير أفكاره عن العمر.. الذي يضع نهاية لكل شيء. إنه حقا شبه ميت.. وما الفرق بين شبه ميت وبين الموت التام؟ وأي تفاصيل تزعجه، وكم عدد السنتيمترات التي تفصل أحدا عن عدوه؟ ثم مد هوفمستر يده وهو يسأل: ما اسمك مرة أخرى؟ وقبل أن يتمكن الرجل من الجواب.. سارعت تيرزا فقالت: شكري، يابابا.. يدعى شكري.. وقد أخبرتك بذلك للتو.

- "ش-ك-ري" كان هوفمستر يكررها ببطء وهو يهز يد الآخر.. ثم قال: وأنا يورجن هوفمستر.. والد تيرزا. يبدو الرجل مألواً له.. وكلما أطل النظر إليه.. كلما قويا لديه الإحساس بأنه قد رآه قبل ذلك. فقال هوفمستر: "إذن أنت...." ولكنه تردد للحظة.. لأنه في الواقع لم يكن يعرف ماذا يريد أن يقول. فانتهزت تيرزا هذه الوقفة وقالت:

- نعم.. إنه هو.. هذا هو صديقي.. وسيأتي معي. لازال هوفمستر يقبض بشدة على يد صديق ابنته الصغرى.. يالها من يد كبيرة وباردة.. ولا تبدو أصابعه حساسة أو ناعمة.. لا تبدو أصابع عازف بيانو.

- معك؟ إلى أين؟ قالت تيرزا.. وهي تتعلق بذراع أبيها.. ولكنه لم يدع يد الآخر: إلى إفريقيا.. وقد أخبرتك أنه سيأتي معي.. سيأتي معي صديقي إلى إفريقيا، بابا.

- أوه نعم.. بالطبع.. إلى إفريقيا. ثم سأل الرجل: وماذا تعمل إذن؟

- أنا أألف الموسيقى.
- الموسيقى.. أها.. وأي موسيقى؟
- أكتب النصوص.. وأعزف الجيتار.. بالإضافة إلى أشياء أخرى.

- الغيتار.. بالإضافة إلى أشياء أخرى. ثم قلب يد الرجل وأخذ يتفحص أظافره.. وقال: يمكنني أن أرى ذلك.. فأنت لديك أظافر طويلة.. والأشخاص الذين يعزفون على الجيتار باحتراف.. غالبا ما تكون أظافرهم طويلة. أنا ليس لدي أظافر طويلة.. ولكنني أيضا لا أعزف على الغيتار.. بل أعمل في الحديقة.

ثم أخذ يعرض يديه للرجل.. ماذا ذراعيه.. ومحركاً أصابعه.. كأنه يعزف على بيانو.. ويقول: أنظر.. أيدي الحديقة.. هذه هي اليد التي تناسب الحديقة.
قالت تيرزا: بابا.. لسنأ هنا في سوق الثيران - وسوف تحصل اليد الأقوى على ميدالية ذهبية! - لقد دخل لتوه هنا.

ابتسم هوفمستر.. وبات شبه متأكد أنه قد رأى الرجل ذات مرة على شاشة التلفاز.. ولكنه لما يزال لا يعرف.. في أي برنامج.. ولا حتى في أي سياق.. هل كان كوميدياً.. أم في الأخبار.. أم في أحد البرامج الحوارية؟

- أنت على حق يا تيرزا.. لقد وصلتكم لتوكم.. وليس من اللائق أن أكثر من الأسئلة هكذا.

ثم التفت إلى الرجل: ولكنني فضولي في بعض الأحيان.. أنا أب فضولي.. كما أن تيرزا ابنة فضولية.. أليس كذلك يا تيرزا؟
أعد كأسين من نبيذ الكير.. وصب لنفسه كأساً من النبيذ الأبيض.. ودون أن يسأل الرجل إن كان يريد واحداً أم لا.. دفع كأس الشمبانيا في يده.. والآخر أعطاه لتيرزا.. ثم طوقها بذراعيه.. وضمها إليه.. ضم حياته.. مصدر وجوده.. ضم ابنته الصغرى.

ثم قال: نخب هذا المساء.. لقد سمعت عنك الكثير.. يا شكري.. وأنا سعيد بالتعرف عليك أخيراً.. هل تعمل بشيء آخر غير الموسيقى؟

- نعم.. في العمل الإجتماعي.

- إذن فأنت عامل إجتماعي؟

- نعم.

- جميل.. هذا شيء مفيد أيضاً.

ثم أرتشف هوفمستر رشفة كبيرة.. وأتبعها بأخرى.. حتى فرغ محتوى الكأس مرة أخرى.. وهو يحدث ضغط قوي من جراء إفراغ الكأس على دفعة واحدة.. ولا يزال مبقياً تيرزا بين ذراعيه.. كأنها ستهرب إن تركها. ثم قال: هل يحتاج المرء أن يدرس مثل هذا العمل؟.. أو؟.. أعني لكي تصبح عاملاً إجتماعياً؟ يمكن ذلك بدون الدراسة في الجامعة.. أليس كذلك؟ ماذا ينبغي على المرء أن يفعل بالضبط من أجل هذا؟ قال الرجل: يحتاج إلى دورة تدريبية.. ولكنها في الواقع ليست في الجامعة.

أوضح هوفمستر: لم يستحدث كل شيء من أجل الجامعة.. فالبعض لا يهتمون.. وآخرون لا يتمتعون بموهبة - البحث عن العلم. وهؤلاء لا تفتقدهم الجامعة أيضاً على الإطلاق.

قالت تيرزا: بابا!.. ثم ضحكت، على طريقتها، بود ولكن صارمة.. عبثية ولكن صادقة.. مهذبة ولكن جريئة.. ومسحت لأبيها على خديه، وهي تقول: ليس الآن.. لا تبدأ الآن بالحديث عن العلم.. بابا.

قال لها: حسنا ليس الآن.. سوف نتحدث مرة أخرى.. عندما تأتي لتناول العشاء.. سنتحدث حينها عن العلم.

ثم نظر إلى صديق ابنته، الذي لم يعد يشك أنه قد رآه قبل ذلك.. وأنه يعرفه.. ولكنه لا يعرف فقط أين رآه.

فسأله هوفمستر: هل يمكن أنني قد رأيتك قبل ذلك على شاشة التلفاز؟ هل تظهر أحيانا على شاشة التلفاز؟

هز الرجل رأسه قائلاً: أنا أولف الموسيقى.. ولكنني لست مشهوراً.. فلم أظهر أبداً على شاشة التلفاز.

- ولكننا قد تقابلنا ذات مرة، أليس كذلك؟ نحن نعرف بعضنا.

هز الرجل رأسه قائلاً: لا.. في الحقيقة لا.. فهذه هي أول مرة أراك فيها.

- بابا.. لا تكن سخيلاً.. إذا أنت لم تقابل شكري أبداً.. فأنت لا تستطيع إذن أن تراه.

- ربما هنا في هذه المنطقة؟

- شكري لم يسكن هنا أبداً.. إنه يسكن في منطقة أخرى.

- وأين هذه المنطقة؟

قال الرجل: بالقرب من محطة القطار الرئيسية على إحدى الجزر.

أوماً هوفمستر برأسه.. على إحدى الجزر. وشرع في إعداد كأسين آخرين من نبيذ الكير.. للرجل وصغيرته.. وظل هو على النبيذ الأبيض.

ولما أنهى من ملاً الكؤوس قال: إن هذا المكان.. حيث نقف الآن.. هو أفضل جزء في شارع فان إيجينز شترت.. ويستمر حتى الأسفل، حتى شارع يعقوب أوبريشت، وبعده يبدأ الجزء الأقل جودة.. هو الآخر مكان لطيف تماماً.. ولكني لم أكن أود أن أعيش هناك.. لأن هذه البقعة، التي لا تعدو

مساحتها بضع مترات مربعة، هي أفضل بقعة في أمستردام.. وبالتالي فهي أفضل بقعة في هولندا كلها.

ثم تقارع مع الرجل كاسه.. ثم بهدوء مع تيرزا. وقال:
نخب هذا المساء.. نخب الحفل.. نخب سعادتكما
وسعادة كل البشر.. فشينوزا يقول: لا يمكن للمرء أن يشعر
بالسعادة.. إذا حصل عليها على حساب تدمير سعادة
الآخرين.. وأفترض أنك تعرف من هو شينوزا؟

- بابا، لا شينوزا اليوم.. ولا دوستوفسكي.. ولا
تولستوي.. ليس الآن.. اتفقنا؟ حسنا يا بابا؟

أفرغ كأسه وعاد فصب كأسا آخر في الحال.
وقال: ها أنت قد رأيت.. ها قد رأيت يا شكري.. إن ابنتي
تبقيني تحت تحكمها.. ابنتي هي التي تحكم هنا في البيت..
وذلك منذ أن ولدت.. منذ الشهر الأول.. وهل تعرف لم
ذلك؟ ثم بدأ يهمس.. كأنه سيفصح عن سر.. لا ينبغي لأحد
غيره أن يعرف به: لأنها ملكة الشمس.. تيرزا - ملكة
الشمس! احترس، فقريبا سوف تبقيك أنت الآخر تحت
تحكمها.

ثم أخذ هوفمستر رشفة كبيرة.. ووضع الكأس على
البوفيه.. وأخذ من تيرزا كأس الشمبانيا.. فشربه بجرعة
واحدة.. ووضعه هو الآخر على البوفيه.. ثم رفعها.

رفع ابنته عاليا في الهواء.. عاليا بقدر ما يستطيع.. وهو
يصيح بإجهااد وبصوت مخنوق: هل ترى؟ إنني أيضا يمكنني
أن أرفعها.. ملكة الشمس.. ولو تحتم علي أن أحملها لمسافة
نصف أمستردام.. لحملتها.. ليس كذلك يا تيرزا؟

ثم حملها بين ذراعيه وأخذ يدور بها في المطبخ.. لفة.. ثم
لفة أخرى.. كأنه يحمل جائزة على شكل معبودة.. حتى تعب
من حملها فلم يعد يستطيع أن يواصل.

فأنزلها عندئذ على الأرض.. وهو يشعر بالدوار.. فلم يجد
بدا إلا أن يستند على البوفيه.. وهو ينظر إلى المطبخ يدور
أمام عينيه، وتدور معه ابنته.

تعثرت خطى الحديث.. فران الصمت.. ولم يعد أحد
يعرف ماذا يقول.. فقبضت تيرزا على يد شكري.
وهكذا وقف ثلاثهم في المطبخ.

تنحنج هوفمستر.. وأخذ الدوار يذهب عنه شيئا فشيئا..
حتى استطاع الرؤية بوضوح.. ولكن حتى الآن لم يعرف أحد
ماذا يقول.. فما يزال الصمت مستمرا.. حتى أصبح محرجا.

فقطعت تيرزا هذا الصمت أخيرا وقالت لصديقتها:
- تعالي.. فلنذهب إلى الداخل.. فلنذهب إلى حجرة
المعيشة.. فامي هناك أيضا.. فقط لتعرف ذلك، ولكنني لن
أعرقك بها.
قال الشاب:

- كان من الجميل التعرف إليك، سيد هوفمستر.. وسوف
نرى بعضنا مرة أخرى على ما أظن؟
قال الوالد: أوه.. من المؤكد أننا سوف نرى بعضنا مرة
أخرى.. لاحقا.. أو في مرة أخرى.
ثم خرجت ابنته.. والرجل يتبعها ممسكا بيدها.. ملوحة
لأبيها بحركة عابرة.. ملوحة ليورجن.. الذي ما إن غمزت له..
حتى بقي وحيدا في المطبخ.
وفجأة تذكر ما قد نسيه.. تذكر السوشي.. إنه لم يقدم
لهما شيئا من السوشي.

نظر إلى الساعة.. كانت الحادية عشر إلا الربع تقريبا.
وضع هوفمستر رأسه تحت صنوبر المياه الباردة.. وفجأة
سمع الأزيز في رأسه.. أزيز حشرة.. ولكنه الآن يعرف.. ماذا
يعني الأزيز.. إنه يعني الصلاة.
فوقف في وسط المطبخ تاركا قطرات الماء تتساقط دون
أن يجففها.. الآن عاد إلى وعيه.. وأصبح يشعر بالإنعاش..
لقد عادت تيرزا.. وسيدا الحفل الآن.
فأخرج إحدى أطباق الساشيمي من الثلاجة.. وأزال عنه
الورق

الألومنيوم.. وشرع يرتب السمك على الصينية التي تم
شراؤها خصيصا من أجل هذا.. وهو يقول لنفسه: سوف أقلّي
المقللة القادمة من السردين في الساعة الحادية عشر.
كانت الزوجة تحتجز الشاب، الذي لم يتذكر هوفمستر
إسمه، في زاوية.. تقنعه أن يدفع بالطاولات جانبا، ويعيد
الأضواء مرة أخرى إلى ما كانت عليه.. ولكن الساشيمي كان
مغريا.. والناس يأكلون ويشربون بشراهة.. فالجوع والعطش
دائما ما يمشيان يدا في يد.

وتيرزا تتحدث هي وصديقتها مع يوفروف فلدكامب.
ثم نادته فتاة، قد نسي اسمها مرة أخرى: هيا، سيد
هوفمستر، إلى قاعة الرقص.

هز رأسه مقررًا: هذا المساء أنا المسؤول عن الطعام. وينفجر ثغره عن ابتسامة تنبيء عن سعادة بالغة.
لم تكد الفتاة تسمعه.. فقد كانت مستغرقة بفكرها فيما ستقدم على فعله.. إذ كانت تسحب مدرس الإقتصاد خلفها.. وهو - هانز - في غمرة الفرح تاركا نفسه لها تسحبه.
وهكذا وقف هوفمستر بالصينية في وسط غرفة المعيشة.. يشعر بأنه غير مرئي.. ولم يكن هذا شعور لطيف.. أن تشعر بالوجود دون أن تكون موجودا.. والوصف الذي ينطبق عليه في هذا الحال هو أنه الرجل المصنوع من السيلوفان.. ولكن من الغريب أنه فخور بذلك الآن.. بعكس الماضي. عندما كان يقول له أحد الزملاء: لقد كنت أتجول في معرض الكتاب، وهل تعرف ماذا حدث؟
فيكون الجواب من هوفمستر غالبا، بعد بضع دقائق.. بعض وقفة صغيرة: أنا أعرف.. فقد كنت هناك أيضا.
وهكذا كان الحال هنا.. موجود.. ولكن لا يلحظ وجوده أحد.

جعل يجول بنظره في الحفل.. لا زالت تيرزا وصديقتها يتحدثان مع يوفروف فلدكامب.. لم يكن يعرف أن السيدة فلدكامب تستطيع أن تدير محادثة ممتعة هكذا، إنها مريحة للغاية.. إذن الآن هو الوقت الذي يصفو مزاج الناس فيه.. وعندما يصفو مزاج الناس.. سيمر عليهم هوفمستر في سرور بالساشيمي الذي أعده.. فعلى المرء أن يضع في معدته شيء، قبل أن يقع تحت وطأة ميوله عميقة الغور.. ونظر إلى صديق صغيرته ولم يدعه يغيب عن ناظره.
أصطدم أحدهم به وسأله: هل مازال هنا سمك تونة؟
فأشار دون وعي إلى الصينية.. ثم عاد فحدق في صديق صغيرته.

وواصل هوفمستر التحديق.
إنه الآن يعرف من أين يبدو له الوجه مألوفاً.. وبمن يذكره الشاب.. إنه يتعجب، لماذا لم يعرف ذلك في الحال.. ولكن الآن كل شيء قد اتضح له.. إنه صورة طبق الأصل من محمد عطا.. نفس ملامح الذقن.. نفس العينين.. ونفس قصة الشعر.. إنه أخو محمد عطا.. أو توأمه.. بل إنه على وشك أن يقول إنه محمد عطا نفسه.. إن لم يتأكد تماما أن الرجل قد مات.

عاد إلى المطبخ حاملا الصينية قد فرغ نصفها.

شرب سريعا كأس نبيذ.. واستند بكليتا يديه على الثلاجة..
يفكر: محمد عطا في منزلي.. عطا هنا في منزلي.. وقد عاد إلى
الحياة.

وضع المقلاة على النار.. ثم انتظر حتى تسخن ليضع فيها
الزيت.. والثوم، والملح، والفلفل ثم السردين في رصات
متباعدة عن بعضها.. ولأن المقلاة لا بد وأن تسخن جيدا أولا..
فلمس حافتها بسبابته، ولكنها لما تزال لم تسخن بالقدر
الكافي.

ولبرهة وقف هو فمستر لا يدري ماذا ينبغي عليه أن
يفعل.. وكيف يواجه هذه الكارثة.. ولذلك عاد يركز في
السردين.. ولكن الكارثة نفسها خارج حدود الشك بالنسبة
إليه.. فمحمد عطا هو كارثة.. وهل يمكن أن يقال غير ذلك؟
فتح زجاجة نبيذ جديدة.. من نبيذ العنب الإيطالي.. وكان
قد اختار هذا النوع مع تيرزا.. فمئذ سنين وهو يشتري كل
أنواع النبيذ معها. وما على تيرزا إلا أن تكلف وتقرر.. وهو
عليه أن يدفع.

- يورجن؟

التفت على إثر الصوت.

إنها الزوجة.

وما زال لحمها العاري مثلما كان في بداية هذا المساء..
يبرز منتفخا بسبب ملابسها الضيقة.
ولكنه ليس لديه وقت لها.. فعليه أن يقلب السردين.

- يورجن!

أصبحت المقلاة ساخنة.. فعندما ينتظرها المرء تسخن على
مهل.. ببطء يخرج عن الشعور.. ولكنها الآن قد وصلت إلى
الحد المطلوب.. وبإمكانه الآن أن يضع الزيت.

- يورجن.. أنا أتحدث إليك.

- أنا مشغول حاليا.. ألا ترين ذلك؟.. أنا أقلب السردين.

اقتربت منه قليلا.. وقالت: ساعدك لن أزعجك.. ولكنني
أريد فقط أن أعرف.. إن كان هنا نبيذ روم أم لا.

بإمكانه الآن وضع السردين في المقلاة.. فوضعها واحدة
تلو الأخرى.. ولكم تمتعه هذه اللحظة.. فهو فمستر يطبخ
بشغف.. بل يحب الطبخ أكثر من الطعام نفسه.. وقد تعلمه
بدافع وحالة من الحب.

سألها بدون أن يلتفت إليها.. مبقيا نظره على المقلادة: هل تعرفين من هنا؟ من هنا في حجرة معيشتنا؟

- من يا يورجن؟ من هنا في حجرة معيشتنا؟ حب حياتي؟ أين؟ أين رأيته؟

وأخذت تضحك كما لو سمعت نكتة لا ذعة.. حب حياتها في حجرة المعيشة.. لقد بلغت السن الذي تعتبر فيه هذه الأشياء مزحة.. ماذا قالت الفتاة في الكوخ مرة أخرى؟ لا ننتظر الحب من بعضنا ولا تقوم علاقتنا على أساسه.. إننا نجده شيئا سخيافا.

- محمد عطا.

ترقد الآن خمس سردينات في المقلادة.. وما زال المكان يتسع للسادسة.. فوضعها بجانبهم متراصين بجانب بعضهم البعض كإخوة.. كان منظرهم جميل يعجب هوفمستر.. فالسردين لم يخذله أبدا. وقد أصبح من تخصصه منذ أن تولى الأعمال المنزلية والطهي لثيرزا.

- من يكون محمد عطا، يا يورجن؟ هل أعرفه؟ هل هذا هو حب حياتي؟ هل ينبغي أن أرسمه؟ هل يصلح كموديل؟

- محمد عطا.. ألا تعرفين من هو محمد عطا؟ اللعنة!؟ هزت رأسها.. ولامسته، لامست والد ابنتيها، وجعلت تشم رائحته.

قالت: ليس لدي فكرة.. هل لابد أن أعرفه؟

- أين كنت كل هذه السنوات؟ في أعماق كهف مظلم؟ هل كان المركب السكني في المحيط الهادي؟ كان الزيت يطلق الفرقات بهرح.. فربط هوفمستر مريلة المطبخ.

- أنا آسفة.. ليس لدي فكرة عمن يكون محمد عطا.. من الواضح أنه ليس حب حياتي.. وهذا جيد أيضا.. كنت فقط أتساءل إن كان لا يزال هنا روم أم لا.. فقد بدأت بشرب الروم والكوولا.. وأريد أن أواصل بذلك.. هل تبقى منه شيء؟ زار هوفمستر: محمد عطا.. م-حم-د ع-ط-ا!!

- لا تصرخ هكذا يا يورجن.

وقفت خلفه وعانقته.. وأثقلت بنفسها عليه.. ثم أمسكت بذراعيه. إنه الرجل الذي استبدلته بعشيقتها.. استبدلته في البداية.. ثم عادت مرة أخرى.. أو على الحقيقة

استحوذت عليه.. فحياة الحب عند البشر ما هي إلا سلسلة لا نهاية لها من عمليات الإستحواذ.

سوف يغضب منها.. وكلما اشتد غضبه، كلما تمنى أن تبقى خلفه لحظة أخرى.. تضغط عليه هكذا.. لن يتمنى أن تبقى طويلا.. ولكن لبضع ثوان فقط.. فما زاد على ذلك سوف يذهب سدى.

- ليس لدي فكرة عمن تتحدث.. ولكني أيضا لا آبه.. فقد أتيت على عجلة من أجل الروم فقط.. فالشباب لطفاء جدا، يا يورجن.. أصدقاء تيرزا.. يا لذكاء هؤلاء الشباب ولطفهم.

- ألم يكن عشيقك يقرأ الجرائد؟ أم لم يكن يملك المال للإشتراك؟ هل كان فقيرا؟ أم غنيا؟ أم الإثنين معا؟ هل كنتما تشاهدان التلفاز على المركب بين الحين والآخر؟ أم لم يكن لديكما أصلا تلفاز؟ أين كنتم.. أي عالم هذا الذي كنت تعيشين فيه؟ وبغض النظر عن ذلك: عندما حدثت كل هذه الأحداث.. هل كنت لا تزالين تعيشين هنا.. رسميا على الأقل. لقد كنت في حالة حب، يا يورجن، كنت عاشقة.. وفي هذه الحالة يفوت المرء الكثير.. وأنا أجدك لطيفا.. بل في الحقيقة أكثر لطفا.. أكثر مما أستطيع تذكره.. ولكن الآن قل لي أولا.. أين الرم، وبعد ذلك لا بد وأن تخبرني.. من هذا الـ محمد.. وكل الأخبار التي فاتتني.. عندما كنت على المركب.. وأعدك أنني سأنصت لك.. ألم أكن أنصت لك دائما.. عندما كنت تحاول أن تنشر حكمتك؟

حقد في المقلاة.. ثم انتظر للحظة حتى حان وقت قلب السمك. كان العرق يتصبب على رقبتة.. ولكن الوقت لم يكن مناسب لمنديل الجيب.. فهذا الموقف معقد.. وعلى عكس ما يظن معظم الناس فإن قلي السردين صعب جدا. قال لها، بينما يأخذ المقلاة من فوق الموقد.. حتى يوزع الزيت على الأماكن جيدا: لقد بدأت الحرب العالمية الثالثة قبل أربع سنوات.

- أوه.. في الواقع لم أصادف ذلك.. الحرب العالمية الثالثة.. هل هناك أيضا مجاعة شتاء؟

صاح قائلا: دعك من هذا.. توقفي.. سوف تأتي مجاعة الشتاء.. عاجلا أم آجلا.. وكل أمني أن تصيبك أنت أول ما تصيب.. وستكون تلك عقوبة عادلة.. فمن مثلك يستحق أن

يعاقب بمجاعة الشتاء.. وليس مجاعة شتاء واحدة.. بل أربع متتاليات.

ضغطت أكثر عليه.. وهمست: أي نوع من البشر أنا إذن؟ من أي فئة؟ أمن النوع: الذي - يستحق - مجاعة - الشتاء؟

- الفئة التي تظن نفسها في غاية السعادة والأمن، لدرجة أنها لا تحتاج أن تقرأ الأخبار.. هذه هي الفئة التي أعنيها. تناول مغرفة.. فحرك بها السردين يمينه ويسرته.. حتى لا تحترق.

- اعذربي يا يورجن.. أنا لم أصادف الحرب العالمية الثالثة.. اغفري لي أنني تعاملت مع الحرب العالمية الثالثة بمثل هذا العبث وعدم الإحترام.. ولكن قل لي الآن أين الروم؟ ولا تبقي طويلا في العذاب. دفعها بكوعه بعيدا عنه.

فعانقته مرة أخرى.. وضغطت ببطنها على مقعده. صاح فيها، ولا تزال المغرفة بيده، ابتعدي أيتها الفاسدة.. أيتها المرأة القذرة.. ابتعدي!

همست في أذنه: هل أنتهت الحرب العالمية الثالثة؟ أم ما زالت مستمرة؟.. هيا أخبرني بكل شيء.. نورني. جعل يقلب في السردين.. منشغلا عنها بالقلبي.. فهو يجد فيه سلواه.

- لست في مزاج لهذا الهراء.. أظن أنه يوجد زجاجة روم في الثلاجة.. وما أشد حيائي منك.. فليست لديك أي مدينة.. ما أنت إلا بربرية. وعندما تعرفت عليك.. كنت أظنك متحضرة.. وأنه بما أنك رسامة.. إذن فأنت امرأة متحضرة.. وبما أنك قد درست في كلية الفنون.. إذن فأنت مثقفة. ها! لا بد وأنت تمزحين! فأنت أجهل من دابة.. مع أنك لا تترددين عن إبداء رأيك أينما كنت.

- أنا أيضا لست في مزاج للهراء.. وأنا لست غبية.. ما بي فقط إلا الرغبة في الرم.. والرغبة فيك.. الرغبة في أي شخص.. هل أنت أي شخص يا يورجن؟

دفعها هوفمستر عنه مرة أخرى.. وعاد فحدق مرة أخرى في المقلادة.. ولم يزعجه أن الزيت يقفز عاليا.. وظل يحدق كالمنوم مغناطيسيا.. فجلد السردين جميل.. أجمل من جلد

الإنسان.. حتى وإن كان عليه أن يعترف أنه لم ير أبدا كيف يبدو جلد الإنسان عندما يقلبه المرء في المقلادة.
فتحت زوجته الثلاثية.. وانحنت تبحث بداخلها.. كما كان يبحث قبل ساعة تقريبا عن عصير الطماطم.
قال: محمد عطا هو واحد من مختطفي الطائرتين.. كان هو قائدهم.. وصديق تيرزا هو أخوه.. أو أخ غير شقيق.. أو ابن عمه.. أو عمه.. عم غير متزوج.. على كل حال هو من نوع محمد عطا.. نفس البشرية.. ونفس النظرة.. ونفس الذقن.. وبطبيعة الحال سيكون في رأسه نفس الأفكار.. نفس الكراهية.. الكراهية تجاهنا.. كراهية ما نحن عليه.. وكراهية من نحن.. والأسباب التي جعلتنا هكذا.

- ولكن من نحن يا يورجن؟
أخذت بضعة زجاجات من الثلاثية.. ثم تنهدت.. وغمغمت قائلة: لقد وضعت أشياء كثيرة هنا.. فلا يستطيع أحد أن يجد شيئا.

وبينما مسح يديه في مريلة المطبخ.. تذكر فجأة أنه قال "نحن". قالها بدون تفكير.. فخرجت منه ببساطة وكل تلقائية.. وكم يكره هذه الـ"نحن".
قالت بعد أن وجدت الرم: أعتقد الآن أنني أعرفه.. محمد عطا.. أحداث الحادي عشر من سبتمبر! اليس كذلك؟ الحادي عشر؟

ثم أخذت زجاجة كولا من الثلاثية.. وفتحت زجاجة الروم.. وخلطت الرم بالكولا.. وشربت "الحادي عشر.. من سبتمبر، اليس كذلك؟ يا إلهي.. لقد مر وقت طويل على ذلك.. وكم كنت سعيدة حينها.. واقعة في الحب.. وأشعر بالشباب.. لا أعرف كيف..."

أصبحت السردين جاهزة.. فوضعها على طبق.. دون أن يبدي أي اهتمام بزوجه فيلقي لها نظرة.
وهي تهمس: عشرون.. ثمانية عشر.. وأحيانا أيضا سبعة عشر.

ثم رش عليها بقدونس.. وهو بالكاد يستطيع أن يوقف بوادئ الضحك التي تعتريه.. بينما ينظر إلى السردين بإعجاب.

ثم قال لها.. وهو يخلع المريلة: أتعرفين لماذا يكرهونك ويكرهوني ويكرهون الجيران؟ لأننا نؤمن بالحظ.. لا نؤمن

بالله.. بل بالحظ.. لأننا أفراد مستقلين.. بشر- لهم هويتهم الخاصة.. لا أفراد قطيع.

كانت تشرب من خليطها الرم والكولا كما يشرب الأطفال.. تطبق على الكأس بكلتا يديها.. وهي تنظر إليه.. وعلي وجهها تظهر آثار الرقص، والزحام.. والحرارة في غرفة المعيشة.. ولكن وجهها ليس ملطخا بمساحيق التجميل.. بل إن معاملها قد انمحت إثر محاولة إزالتها.. فظهرت تجاعيدها بوضوح.

- يورجن، منذ متى وأنت تؤمن بالحظ؟ لقد كان إلهك دائما هو سوء الحظ. ولم تكذ تريد أي شيء من الحياة غير سوء الحظ.. وقد خدمت هذا الإله.. مخلصا له أبدا.. ولم تتوان عن عبادته في أي وقت.. حتى عندما كان لديك كل الأدلة.. التي تدعوك إلى الشعور بأنه يخونك.. وأصليت العبادة.. فكنت خادمه المخلص.. إني أصفق لك!.. لماذا برأيك كنت أهرب منك بعيدا؟ لأنني كنت أريد أيضا أن أعيش في المقام الأول مع شخص.. أن أستيقظ كل صباح بجانب شخص.. لا يعبد سوء الحظ.. لأنني لم أستطع التحمل أكثر من ذلك.. تحملك - أو... نعم.. لم أستطع تحمل كل هذا الذي كنت تعبده.

ثم إتجهت إليه.. تريد أن تقبله. إنه يشعر بذلك.. بل يعرف أنها ستفعل ذلك.

فدفعها بعيدا صائحا: توقفي.. أيتها المرأة الفاسدة.. لا تلمسيني.

أخذت الكأس وملأته لنفسها.. وهي تسأل: من نحن.. أقصد نحن التي نتحدث عنها الآن - من نحن، حتى يكرهونا هكذا؟ من نحن يا يورجن؟ ماذا نحن بالضبط؟ واتجهت نحوه، والكأس في يدها.

فقال لها: لا بد أن تضعي فيه الثلج.. فالرم والكولا بدون ثلج شيء مثير للإشمئزاز.. أليس لديك ذوق أبدا؟ طوقته بذراعيها.. وهو يبعتها عنه.. ولكن قواه كانت قد أنهكت.

همست في أذنه وبسرعة البرق أدخلت لسانها فيها: أتعرف ماذا نحن؟ نحن الإثنين؟ نحن فاسدان.

نطقت الكلمة كأنها شيء غرامي، شهواني.. كأن من هو أكثر إثارة.. وفسادا هو الأفضل والأجمل في العالم.. وهذا شيء يكون عادة مقصورا على عارضات الأزياء ونجوم السينما.

ثم واصلت الهمس: ولكن لا ينبغي أن تخبر أحدا.. إنه سرنا.. اتفقنا؟ لا ينبغي أن يعرفه أحد غيرنا.
كانت تهمس على الرغم من أحدا لا يستطيع سماعها.. ثم تركته أخيرا.

مسح هوفمستر أذنه بمنديل جاف.. وأخذ طبق السردين وهو يحدث نفسه يسمعها أكثر مما يسمع زوجته: لا بد أن يؤكل مباشرة.. فمذاقه يكون أفضل وهو ساخن.
ثم ذهب إلى غرفة المعيشة ونادى مقلدا العادة السيئة للتجار: سردين، سردين.. لن تحصلوا عليها هكذا ولو في البرتغال.

ولكن الضيوف لم يلبوا نداءه.. فهم إما لا يثقون في السردين.. أو لم تعد لديهم رغبة في الطعام.. ولكنه لن يدع السمك بسهولة.

ثم أخذ - الذي اسمه ذو مقطع واحد - سمكة.. فقال هوفمستر:

- هذا يجلب الحظ.

مشيرا إلى السردين.. ونظر إلى الشاب كيف يأكل.
ولما أخذ الشاب السمكة الثانية.. قال له هوفمستر: أنا آسف.. ولكنني نسيت اسمك.
فقال وقمته ممتلئ: باس.
وهو كذلك أيضا.. اسم يمكن نطقه جيدا مع فتح الفم بأكمله.

كرر هوفمستر الاسم:

- "باس".. هل تعجبك الحفلة يا باس؟

قال الشاب: نعم.. تعجبني جدا.. يوجد أيضا مشهيات لذيذة.

أوماً هوفمستر: لقد ذهبت إلى ديمن صباح اليوم مبكرا جدا.. واشتريت السمك من سوق الجملة "فن".. فمذاقه جيد جدا.

ثم ظلا للحظة ينظران إلى بعضهما.. العجوز والشاب.. كل منهما ينظر إلى وجه الآخر.. مترددا ماذا يقول الآن. والعجوز يفكر في سوق الجملة "فن".

ولكي تنتهي المحادثة، قال هوفمستر: إنهم يبيعون في "فن" أفضل أنواع السمك في المدينة، يا باس. تذكر ذلك، حتى تعرف بعد ذلك من أين عليك أن تشتري.

ودون أن ينتظر جوابا.. تركه واتجه نحو تيرزا.. التي ما زالت تتحدث مع يوفروف فلداكامب.. كأنها صديقتها الحميمة.. في الواقع لا يجوز أن يقول "يوفروف" فنحن لم نعد في القرن التاسع عشر.. وهو لا يفهم لماذا لم تقل له: من فضلك، لا تقل يوفروف.. بل ميفروف فلداكامب!

- الأخيرة لك يا تيرزا. وقرب الطبق من أنفها، لكي تستطيع أن تشمها وتعرف أنها طازجة.

كان محمد عطا يقف خلفها.. لا يشارك في الحديث.. ولكنه يداعب أصابعها بينما تتحدث. نظر هوفمستر إلى ذلك لبضع ثوان.. فشعر بالإشمئزاز.

فذهب إلى المطبخ وأكل سمكة السردين الأخيرة هناك.

كانت زوجته لاتزال قائمة على البوفيه.. تماما كما تركها.

أرادت أن تعرف: هل أعجبك طعمها؟

ظل صامتا.. ووضع الطبق تحت فوهة الصنبور.

سألها: ماذا سنفعل الآن؟

- بشأن ماذا؟

- بشأن ماذا؟ بشأن ماذا؟ هل تنصنين إلي حتى؟

- أنا أنصت إليك دائما.. بل أنصت إليك أفضل من ذي

قبل.. ولكنك الآن أيضا تقول أشياء مثيرة للاهتمام.. بشأننا تقصد؟

جفف يديه.

- بشأننا! لا، ليس بشأننا.. لقد انتهيت منا، ولكن: ماذا

نفعل

بشأن محمد عطا؟ .. فمهما كنت تكرهينها.. فهي طفلتك..

إنها حبيبتي تيرزا.. ولكنها أيضا ابنتك.

خلطت لنفسها رم وكولا مرة أخرى.

قالت له: لا تتسب لنفسك بالجنون.. فهذا مجرد مزاج..

فتيرزا لم تنضج بعد بما فيه الكفاية لتدخل في علاقة حقيقية..

ولا تزال مشغولة بنفسها أكثر مما ينبغي.. ولكن علينا أن

نعامل محمد عطا بلطف.. وكلما كنا أكثر لطفا معه.. كلما

تخلصنا منه سريعا.

هز رأسه.. نعامل محمد عطا بلطف.. مثل هذا لا

يستطيع أن يفكر فيه إلا زوجتي.

اشتد الطنين في رأسه.. ووصل إلى أعلاها.. ولكنه لا بد وأن يركز على ما تبقى من الحفلة.. وعلى المشهيات.. وعلى محمد عطا.. والضيوف.

فتح باب البلكون في حجرة النوم. أخذ هوفمستر نفساً عميقاً.. ثم نظر إلى ساعته.. كانت الحادية وعشرون دقيقة.. إذن فالحفل على وشك أن ينتهي.. فالحفلات تبلغ ذروتها بين الحادية عشر والنصف والواحدة والنصف.. على حسب ما يتذكر من الحفلات التي كانت تنظمها زوجته دائماً في الماضي.. حتى وتيرزا لم تتعدى بضعة أشهر.. لم تكن تأبه. ولكن هذه الحفلات قد ولت.. ولت حفلاتها.

نظر إلى حدائق بيوت الجيران.. إلى المساحات الخضراء التي تكسوها.. وهو يفكر في الرحلة التي تنوي تيرزا القيام بها مع عطا.. إذن عطا هو صديقها.. هو الرجل الذي تعتقد أنه أفضل منه.. ثم حاول أن يتخيل نفسه وهو يقضي الشهور في هذا المنزل الكبير الخالي.. لمن سيشتري إذن النبيت.. ومن سيعتني؟.. وتذكر مرضها الذي تسلل كمتطفل وقضى معه فترة من الزمن في بيته.. فكان ضيفاً ثقيلاً. لم يلاحظ أي شيء في البداية.. وبطبيعة الحال لم تلاحظ زوجته أيضاً.. وقد كان هو الذي يحضر- تيرزا إلى درس التشيلو عند سيدة عجوز تعاني من ضعف الإبصار.. ويذهب بها إلى تمرين السباحة.. كانت تجيد السباحة.. وكانت تشارك في المسابقات.. ولو كانت واصلت التمرين لأستطاعت أن تصبح بطلة.. ثم يحضرها من حمام السباحة.. وبعد ذلك يقرأ لها كل مساء شيئاً من الأدب العالمي.. وخاصة الأدب الروسي.. أدب تولستوي الذي تخلي عنه.. وكشف عن أنه عبث.. ومجرد متعة لا يساهم بأي شيء في سعادة البشرية.. ولكنه كان يجده أدباً نبيلاً.. لدرجة أنه لا يشعر بالتعب عند القراءة لتيرزا منه.. كان يجده غاية الروعة.. متعجباً كيف يدخل الرجل التعاسة على أسرته.. ويقود زوجته إلى الجنون.. ويضحى بكل ما لديه من مواهب.. لكي يطارد السعادة من أجل البشرية.

وبقي لم يلاحظ أي شيء على تيرزا كل هذا الوقت، وربما لم يكن يريد أن يلاحظ، حتى اتصلت به ذات يوم معلمتها في الفصل، مفرووف فان دلفن.

كانت زوجته حينها في الاستوديو الخاص بها.. فقد كان لديها في هذا الوقت استوديو.. والله وحده يعلم كل ما كانت تفعله هناك.. فماذا كانت تفعل ماعدا النوم لساعات طويلة؟ لقد قابل امرأة ذات مرة.. قالت له: أنا الآن أنام كثيرا.. قبل أن أرزق بأطفال، إذ عندما يأتي الأطفال لا يليق أن أنام كثيرا هكذا. أما الزوجة فقد سلكت طريقة أخرى: شرعت في حملة النوم بعد أن رزقا بالطفلتين. قالت له ميفروف فان دلفن في الهاتف: ربما.. ترغب أن تمر أنت وزوجتك في وقت ما.. لننتحدث عن تيرزا؟

- سأتى بمفردى.. فزوجتي لديها الكثير من الأعمال. واتفقا على أن يكون الموعد يوم الجمعة عصرا في الساعة الرابعة والنصف.. وكان هذا يعنى أن عليه أن يغادر دار النشر في هذا اليوم مبكرا قليلا.. وعلى كل حال فإن الناس يتقابلون في هذا الوقت كل يوم جمعة لمجرد الشرب. ثم جاء اليوم المتفق عليه.. وفي الساعة الرابعة وعشر- دقائق وضع المخطوطة التي يريد أن يقرأها في نهاية الأسبوع، في حقيبة اليد.. ثم ركب الدراجة متجها إلى المدرسة في أمستردام زويد.

وأمام ثانوية فوسيوس أغلق دراجته رابطا إياها في عمود من أعمدة الإنارة.. وهو يتساءل ماذا يريدون منه.. ترى مالذي فعلته تيرزا.

ثم مشى بين المباني.. محتضنا حقيبته.. يكاد لا يوجد أحد هناك.. وكان يشعر بالقلق.. كما يحدث له دائما.. عندما يقتضي الوضع أن يمارس دور الأب في العلن.. فهو يفضل أن يقوم به عندما لا يكون هناك أحد معهم.

رأى ثلاثة شباب يقفون أمام ماكينة القهوة.. فقال لهم: معذرة.. أين أجد فصل السيدة ميفروف فان دلفن.

فدله شاب صغير الحجم وضيع المظهر إلى حد ما على الطريق.. وبينما يتجه هوفمستر إلى الطابق الأول.. والحقيبة مازالت بين يديه.. لاحظ أن مجموعة الشباب يتبعونه بأنظارهم.. من أجل منظره المثير للسخرية.. ليس مثيرا للسخرية كرجل.. فهو يستطيع أن يتعاش مع ذلك.. ولكن كوالد مثير للسخرية.. نعم، لقد كان والدا مثيرا للسخرية. كان رجل يشعر دائما بالقلق العميق، حتى عندما كانت ابني وتيرزا لا تزالان في مدرسة مونتيسوري أمستردام.. كان يشعر

بالقلق عندما كان عليه أن يقف في ساحة المدرسة في وسط
الآباء الآخرين لكي يحضر ابنتيه.

كان الآباء والأمهات الآخرين يتحدثون سوياً.. كانوا
يعرفون بعضهم.. ويريدون أن يوطدوا معرفتهم أكثر.. أما هو
فكان يفضل أن يقف خلف شجرة مختبئاً.. حتى يسمع طفلاً
ينادي: انظري يا تيرزا، هذا أبوك.. وعندئذ كان عليه أن
يخفي اندفاعه عندما يلتفت خلفه ليرى مع من يتحدث.

كان باب الحجرة رقم تسعة مغلقاً.. فطرق يهدوء وانتظر
لبضع ثوان.. ثم طرق مرة أخرى ولكن بصوت أعلى.. فسمع
صوتاً من الداخل يقول: ادخل.

فتح الباب..

كان الفصل خالياً من التلاميذ.. وتصدر منه رائحة العرق
والعلكة.. وهي رائحة لا يستطيع أن يتذكر أنها كانت
موجودة أيام دراسته.. ولكن ما الذي يتذكره أصلاً من ذلك
الوقت؟ لا يتذكر سوى أشياء قليلة.. وأكثر ما يتذكره وكأنه
يراه بعينه الآن هو متجر والديه في جلدर्मالسن للأدوات
اليدوية.

كانت ميغروف فان دلفن تجلس خلف مكتبها.. والسبورة
خلفها مكتوب عليها مشكلة نحوية ما.. وقد جهزت له
مقعداً.

كانت ميغروف فان دلفن امرأة في نهاية الخمسينات من
عمرها..

متحفظة جداً.. ترتدي ملابس لائقة.. وليست متجهمة الوجه
أيضاً.

صافحته مبتسمة، ولم تكن ودودة بشكل مفرط.. ولكنها
على كل حال لم تكن إلا دعوة.. أو مجرد حديث على الأقل.
ولم يكن هذا أول حديث لهما.. فقد رأيا بعضهما قبل
ذلك بضع مرات في مجالس الآباء.

سألته عن عمله.. وذكرت له بعض عناوين الروايات
الهولندية التي نشرت مؤخراً.. ولكنه لم يكن قد قرأها. من
الواضح أنها قد نسيت أنه متخصص في الأدب الأجنبي.. والمرء
غالباً ما ينسى ذلك.

ولذلك لمح لها منتحياً الأدب قدر الإمكان.. بأن مجال
عمله هو الروايات الخيالية باللغات الأجنبية. ولكنها قالت
دون أن تتوقف عند ذلك:

- فلنتحدث بشأن تيرزا.

قال: نعم.. هل شيء ما ليس صحيحا؟ هل يوجد مشاكل؟
- هذا ما أريد أن أسألك عنه في الواقع، سيد هوفمستر.
هل تعاونون في البيت من أية مشاكل؟
وضع حقيبة اليد، التي كان يضعها طوال الوقت في
حجره، على الأرض.

- مشاكل؟ لا - ليس على حد علمي. نعم، إنها تمر
بمرحلة المراهقة.. بل هي في مرحلة المراهقة.. فعمرها أربعة
عشر عام.. ولكن لا مشاكل في البيت.. إنها تذهب إلى دروس
التشيكلو.. وهذا يشعرها بالسرور.. وتذهب إلى تمرين
السباحة.. ولديها بعض الصديقات الجيدات.. وانطباعي عن
تيرزا أنها فتاة سعيدة.. ربما منغلقة قليلا، ولكن.....
لم يكمل الجملة حتي نهايتها.. وأخذ الحقيبة فأعادها مرة
أخرى إلى حضنه.. دون أن يعرف لم يفعل ذلك.. وحاول أن
يبحث عن كلمات.. ولكنه لم يتذكر أي شيء.
فسأله ميفروف فان دلفن: نعم؟ ماذا تريد أن تقول؟

- أنني هكذا أيضا.. أنني منغلق.
ابتسمت.. ولكن ابتسامتها كما يبدو لهوفمستر ليست من
القلب.. ولماذا ذلك يا ترى؟
- ألم تلاحظ أي شيء؟
هز رأسه.. وضغط بحقيبته قليلا على صدره.. ما الذي
يمكن أن يلاحظه؟ هل غاب عنه شيء ما؟ ولكنه لم يخطر على
باله أي شيء.

- لا.
فقالت ميفروف فان دلفن: إذن سأقول ذلك مباشرة.. لقد
لاحظنا شيئا ما.. وعلى الرغم من أنه لا يزال مبكرا بعض
الشيء.. إلا أننا قرنا - نظرا لتجاربنا مع الطلاب الآخرين -
إخطارك.
وضع الحقيبة مرة أخرى على الأرض.

- نعم؟
فكر في المخدرات.. أو التورط مع مجموعات شريرة.. على
الرغم من أنه لا يملك أي فكرة كيف تكون المجموعات
الشريرة.. هل توجد أصلا هنا في أمستردام زويد؟ هل يوجد
مجموعات شريرة في ثانوية فوسوس؟

كانت ميغروف فان دلفن تطرق بالقلم طرقا خفيفا على مكتبها.. ثم قالت وهي مستمرة في الطريق: إننا نعتقد أن تيرزا - في أحسن حالاتها - سوف يحدث لها اضطراب في الأكل.

ابتسم هوفمستر.. ولكن بسبب سوء المزاج.. فهذه هي الكلمة الوحيدة التي ظللها بقلم رصاص.. عندما كان يقرأ في إحدى المخطوطات قبل فترة، اضطراب الأكل، وكتب ملاحظة على حافة الصفحة: تناقش مع المترجم. فهو فمستر لديه تصورات خاصة عن الكلمات القبيحة.

- وعلى أي شيء يبنني تخمينك هذا؟
توقفت عن الطريق.. وقالت: نحن لدينا تجاربنا.. وكما قلت، فالأعراض تظهر عليها.. وهي أنماط سلوك مألوفة لدينا. ثم رفعت يدها وتركتها تسقط في حجرها.. كأنها تريد أن تقول: ولا أستطيع أن أغير من ذلك أيضا.. فلنقبل الأمور كما هي عليه.

- نحن؟

- أنا وبعض زملائي؟
أوما برأسه.

ثم قال بعد صمت قصير يشوبه بعض التوتر: حسنا.. والآن؟

- لا تقع المسؤولية مباشرة علينا في التعامل مع مثل هذه الحالات.. ولكنها تقع على عاتق الوالدين.. ولكننا نجد أنه من الواجب علينا إبلاغ الوالدين.. وهذا ما فعلته. الوالدين.. إنه الوالدين.. إنها تتحدث عنه. نظرت إليه.. كان من الواضح أنها انتهت.. لأنها سكنت.. ولم تبد أي استعداد لقول شيء ما. فسألها هوفمستر: والآن؟

- هل حقا لم تلاحظ أي شيء عليها؟
من الواضح أنها لم تستطع أن تتخيل ذلك.. ولكنه على الحقيقة لم يلاحظ أي شيء.. أو: بالإمكان أن يتذكر كل شيء.. ولكن ذلك يعتمد على النتائج التي يبقى أثرها في ذاكرة الفرد.

- على سبيل المثال، هل تأكل؟ وإن سمحت لي، ماذا تأكل؟ وكم الكمية التي تأكلها؟ ومتى تأكل؟

مسح رقبته.

- هي لم تأكل كثيرا أبدا.. حتى وهي طفلة.. لقد كانت دائما ذات شهية ضعيفة. - كلنا تقريبا هكذا، أنا نفسي هكذا - وكذلك أختها، لم تعد تأكل كثيرا كما من قبل - وزوجتي: كلنا ذو شهية ضعيفة.. ولكنني سوف أولى اهتماما بذلك. رجعت ميفروف فان دلفن بظهرها إلى الخلف.. كانت نظراتها متشككة.. "ألا تجدها نحيفة كالخيال؟ بالنسبة لفتاة في مثل عمرها؟

- نحيفة كالخيال؟. لم يكن يعتقد ذلك أبدا.. ولكنه الآن سيفعل.. سوف يفكر في معالجة ذلك.. والعناية بهذا الأمر - وهذا شيء بدهي بطبيعة الحال.

- وزوجتك، ماذا ترى بشأن هذا الأمر؟

- زوجتي..... ثم وضع ساقا على الأخرى.

- زوجتي رسامة كما تعرفين.. وتقضي- معظم الوقت في الاستوديو.. تقضي- وقتا طويلا جدا في العمل.. في الطلاء، والرسم.....

حدقت إليه ميفروف فان دلفن والكآبة تعلو وجهها.. هكذا كان يراها.. بل في الواقع كان اليأس يعلو وجهها.. نعم، هكذا كانت تحديق في وجهه.. دون أي أمل.. كأنها في جنازة.. ثم نظرت إلى الساعة. وقالت: جيد إذن.. لقد أطلعتك على الأمر.. وهو إليك الآن.

وأخذ هو حقيبته ونهض واقفا.. ثم سألها قبل أن يصادفها:

بالطبع.. هو من شأني الآن.. ولكن ما الذي ينبغي علي فعله؟.. ما المنتظر مني؟

كان يبدو وكأنه يتوقع وصفا للمهمة.. كأنه في وظيفة جديدة. وربما كانت هكذا أيضا.

- ما المنتظر منك؟ حسنا، تحدث مع تيرزا.. ستكون هذه بداية جيدة.

- بشأن اضطراب الأكل؟

بالكاد خرجت الكلمة من بين شفتيه.. ترددت قبل أن تخرج.. فقد كان يؤمن في أعماقه أن ميفروف فان دلفن مخطئة.

قالت ميفروف: نعم، بشأن اضطراب الأكل.. فقليل من الكلام معها لن يضر سواء كانت تعاني من ذلك أم لا.

- إنني أتحدث معها كثيرا.. أنا وصغيرتي نتحدث معا كثيرا.

لم يرد هوفمستر أن يذهب والفكرة عنه خاطئة.. الفكرة التي أخذت عنه هنا: أب صامت.. غائب عن البيت. فكان لا بد وأن يصحح هذه الفكرة.

- ولكن بشأن ماذا، إن سمحت لي بالسؤال؟ عم تتحدثان؟

- بشأن ماذا؟ في الأونة الأخيرة كنا نتحدث كثيرا عن تولستوي.. وعن إدائته للفن والأدب.. وربما تعرفين مقالته الرائعة، وهي للأسف ليست متاحة إلا باللغة الألمانية، ما هو الفن؟ والتي لخص فيها الأدب كأنه "إنسان بلا جدوى عاطل عن العمل ويتسلى

أصبح هوفمستر الآن يتحدث بصوت أعلى بعض الشيء.. والحماس يأخذه دائما عندئذ.. حين يبدأ في ذلك.. فيخرج كلاما مثل هذا: إنسان بلا جدوى عاطل عن العمل ويتسلى.

- هل تحدث فتاة في الرابعة عشر من عمرها بذلك؟
أوما برأسه.. وبدل الحقيقة في يده الأخرى.. ثم فتحها ولم يبحث عن شيء.. فتحها بدون سبب.. وقال: إنها موهوبة كما تعرفين.. موهوبة جدا.

نظرت إليه ميفروف فان دلفن نظرة ثابتة.. والإشمئزاز يكسو وجهها بوضوح.

تمتم مودعا.. يشعر باليأس بسبب اشمئزازها.. ولكن يأسه من عدم فهمها لمعضلة تولستوي لا يقل عن ذلك.

غادر المبنى الخالي وحقيقته تحت ذراعه.. ووقع خطواته يصدر صوتا تستقيحه أذناه.. مستغربا لماذا تحدث عن مواضيع أخرى غير أنا كارينا أو ذكريات من منزل الأموات.. وهو الذي يفضل أن يجعل أي شيء ماعدا أدب اللغات الأجنبية شيئا ثانويا.. أو جملة جانبية. ناهيك عن أنه يعرف كيف يتحدث عن اضطرابات الأكل.

وقعت حقيقته على الدرج.. وقفزت المخطوطة.. وأربع أقلام.. وتفاحة خارجها. ومر به شخص ما، فلم يجرو هوفمستر على الإنحناء والتقاط أشياءه.. وانتظر حتى لم يعد يسمع حسا لخطواته.. ثم ملّم على عجل مقتنياته.

وفي هذا المساء أيضا صعد مرة أخرى إلى حجرة تيرزا.. وأنا كارنينا في يده.. وكانا قد قرأنا حتى صفحة ٣١٠.
ولما دخل الحجرة عندها.. أخفت نفسها تحت الغطاء.. وصاحت من تحته: أرجوك.. لا أريد تولستوي هذه الليلة.. ولنضاعف الكمية غدا.. ولكن ليس هذه الليلة.
جلس عند قدميها.. والكتاب في يده ولكنه لم يفتحه.. ودون أن يحاول أيضا تهدئتها بالربت عليها.. كما فعل في ليال أخرى.
لم يزد على أن جلس هناك وسأل: ألم يقدم لك تولستوي أية فائدة؟

صدر الصوت من تحت الغطاء كالرنين: ليست هذه هي النقطة.. ولكن لم يعد أحد في سني يقرأ له.. كما أن إيبى تقول أن هذا سخيف.. وأنت مجنون يا بابا.. هي تقول ذلك، وتزعم أنها تستطيع إثبات ما تقوله.

تحسس تحت الغطاء بحثا عن يديها، وبعد بعض المحاولات وجدها.. فأمسك بيد صغيرته ولم يدعها تفلت منه.. وهو يشعر بالألم في مكان ما.. يشعر بمعاناة.. وهاجس.. ولكن ذلك لم يكن كثيرا، مما حداه أن لا يعلق أهمية له.. ولم يزد على أن قال: إيبى في مرحلة المراهقة، يا تيرزا. ولذلك هي متمردة قليلا.. إنها في مرحلة صعبة من عمرها.. وأنا لست مجنوناً.. أنا أبوك.

ثم أطبق الصمت.. ومن الواضح أنها كانت تنتظر أن يواصل

القراءة، من هناك، حيث توقفنا بالأمس.. عند صفحة ٣١٠ من أنا كارنينا.. ولكنه لم يقرأ.. فقد كان عليه أن يتحدث.

نظر إلى يديها التي ما زالت تضمهما إلى الغطاء.. وإلى الملمصقات على الحائط.. وإلى الكتب التي كان يهديها إليها.. ثم تضعهم هي في ترتيب أبجدي في رفوف مكتبها.

- لقد كنت عند ميفروف فان دلفن عصر اليوم.

- البقرة الغبية. فخرجت الكلمة ترن من تحت الغطاء.

- ألا تجدينها لطيفة؟

- بربك، لطيفة، للوهلة الأولى تأخذ عنها انطبعا لطيفا جدا.. ولكنها بقرة غبية.. والكل يعرف ذلك عندنا في المدرسة.. وعندما يعرفها المرء جيدا.. يلاحظ ذلك فيها.

انتظر هو فمستر حتى يكون فكرة عما ينبغي أن يقوله.. ولكنه كان انتظارا دون جدوى.. فنظر إلى دفتر الملاحظات الذي كان على مكتبها.. فأغراه الدفتر أن يفتحه ويقرأه.. فكل ما يريد معرفته ربما يكون قابعا هنا. وفي زاوية من زوايا الغرفة كان التشيلو والحامل منزويان هناك.

- تيرزا، هل هناك أي شيء أنا لا أعرفه، ولا بد أن أعرفه؟ هل هناك شيء... - ثم غص حلقه.. وجعل يمسح على رقبته.. ولكن الخدش لم يختفي.. هل كان علي أن أسأل عن شيء ما.. ولم أسأل عنه لأي سبب غبي؟ أطلت من تحت الغطاء قليلا، وقالت: لا.. ليس هناك أي شيء.

كان يمسك بيدها وفي اليد الأخرى يمسك الكتاب.. مطبقا على الصفحات.. يفكر: أنا لا أستطيع فعل ذلك.. إذا كان ما أفعله الآن يمكن أن يسمى أبوة.. فأنا لست منها في شيء.. لابد أن أتوقف وأبحث عن أحد يقف إلى جانبي.. شخص ما يستطيع فعل ذلك.. لأنني لا أستطيع إدارة هذا الأمر.

- هل أنت متأكدة؟
أومأت: نعم.. متيقنة.. لماذا؟ هل قال لك أحدهم شيئا؟ لماذا تطرح هذه الأسئلة؟ فأنت عادة لا تفعل ذلك أبدا.
وضع الكتاب جانبا.. ووضع سبابته على شفته العليا مستدركا..

وقال فيما يشبه الهمس: هناك أناس يعتقدون أنك تعانين من اضطراب في الأكل.
احتدت قائلة: اضطراب في ماذا؟

- "أعرف أن هذا هراء.. وأن الأمر مجرد أن شهيتك ضعيفة.. أعني... "وضع سبابته مرة أخرى على شفته العليا مستدركا. " أن التغذية السليمة علم.. وأنا وأنت نعرق قواعدها.. ولكنني أجد أنه علي أن أتحدث معك في ذلك. فأنت..."

- ماذا؟

- حسنا، لقد تبين لي... لقد كنت أظن.... وأنت أيضا طبيعية تماما - كيف أقول ذلك، تيرزا: أنت نحيفة.. نحيفة جدا. أليس كذلك؟ هل أنت متفقة معي في ذلك؟

- أتعني، لأنه ليس لدي ثديين؟
- لا.. أبدا، لا أعني ذلك.. سوف يكون عندك يوما ما..
إنهما في الطريق.. ولكنهما قد تأخرا.. تصوري أنهما يجلسان
في أي قطار.. وقد تأخرا قليلا.. لأن أحدهم قد ارتكب خطأ
بسيطا.. ولكن من المؤكد أنهما قادمان.. صدقيني - ولكني لا
أعني ذلك.. إنما أعني بطنك.. أعني منطقة البطن.
فالنساء - والفتيات - لهن بطون.. بطون صغيرة.. أما
أنت يا تيرزا فليس عندك بطن أصلا.. مطلقا يا تيرزا.
توقف الآن عن النقر على شفته العليا.. وبدأ ينقر على
جبهته.. برقة وإيقاعية.. يفكر: لا أستطيع فعل هذا.. إنني
أتحطم.

نهضت فوقفت على السرير.. وسألته: ألا أعجبك؟
وشمرت عن قميص النوم.. الذي اهدته أمها لها.. لأن
تيرزا لم تعد ترغب أن ترتدي بيجامة.. وكانت تريد قميصا
للنوم.

فاشترت زوجته واحدا لها.. وردي فاقع اللون. فكان
هوفمستر يجد هذا اللون مفجعا.. إنه أسوأ درجات اللون
الوردي التي يمكن أن يتخيلها المرء.. كألوان الغرف في الفنادق
الرخيصة.. ولكن ما الذي بيده.. فقد كان يعجب تيرزا..
وتقول أنها قد أصبحت كبيرة على البيجاما.
كررت سؤالها: ألا أعجبك؟ رافعة قميصها ومتوجهة
ببطنها إلى
أبيها.. منتظرة الجواب.

حاول هوفمستر ألا ينظر.. فركز نظره على حامل النوتة
الموسيقية القابح في الزاوية.. حيث ترقد عليه بعض الأوراق..
فمنذ قليل كانت تيرزا تعزف على التشيلو.
ولكنه قال: إنك جميلة يا تيرزا.. بل إنك أجمل بنت
عرفتها.. ولكنك نحيفة جدا.. والناس يأتون إلي ويشكون كم
أنت نحيفة.. لذلك يجب أن نفعل شيئا.. علينا أن نأكل أكثر،
وبشكل أفضل.. وبطريقة منتظمة.

- بابا، انظر إلي..
قاطعته بصوت مرتفع، كما تفعل أحيانا، عندما يقرأ لها..
كما أنه يحلو لها أن تفعل ذلك من حين لآخر.. فقد كانا
متحمسان إلى حد بعيد لمغامرات الدون كيشوت.. واشتغلت
هي لوقت طويل بقراءة قصص الصيد لـ تورجنيف.

عاودت فقالت: انظر يا بابا.. انظر هنا.
فنظر إليها.

كانت تقف على السرير.. على الغطاء.. مرتدية قميص النوم ذو اللون الوردى السخيف.. الذي اشترته لها أمها من متجر سخيف يبيع الملابس بأثمان باهظة.. وترفع القميص كاشفة عن بطنها.. فحدق هوفمستر في سرتها.. وإلى السروال الأصفر المنقط بنقاط بيضاء.

قالت: أنا لست صبية.. أنا امرأة.

ثم أرسلت قميصها من يديها.. ثم وضعتها على المكان الذي ظهر فيه ثدياها فجأة.

ثم قالت: أنا امرأة، ولدي ثدي.

ثم وضعت يديها على بطنها وقالت: أنا امرأة، ولدي بطن صغيرة.

ثم اتجهت يديها إلى فخذها: أنا امرأة ساقاها طويلتان.. أنا امرأة يا بابا.

نهض هوفمستر وقال: أنت موهوبة يا تيرزا.. بل موهبتك ساطعة، ولكنك لست امرأة - مازال هذا لم يأت، ولكنه سيأتي قريباً أيضاً - أنت فتاة.. وعليك أن تأكلي.

ثم توجه إلى حامل النوتة الموسيقية القابع في الزاوية.. ورفع بضع بوصات.

وتيرزا لازالت تقف على السرير، كما هي، رافعة قميصها مرة أخرى وتصيح: - بابا، قل أنني امرأة.

ظل واقفا ويده على الحامل.. ثم قال:

- تيرزا....

صاحت: قل أنني امرأة.. قلها يا بابا.

كان الكتاب لا يزال على السرير، الكتاب الذي كان يريد أن يقرأ لها منه "أنت...."

عاد إلى السرير ووقف أمامها.. فسحبته من شعره، فقد كان ذلك يسيرا عليها لأنها تقف فوق السرير.

جعلت تسحبه من شعره وتصرخ: هيا قل ذلك.. قل ذلك يا بابا.. كن شجاعا وقل: تيرزا، أنت امرأة.

تركها تسحبه من شعره.. فلم يكن ذلك يؤلمه.. ثم أخذ الكتاب من فوق السرير.. وهي تصرخ: أنا امرأة.. هيا قلها.. هيا قلها.

ثم جعلت تشده من شعره بشكل أعنف.. إلا أنه لا يشعر بأي شيء.. ويقف هناك كالمغشي- عليه.. أو كأنه في مكان آخر.

وهي تواصل الصراخ: هيا قل: تيرزا أنت امرأتي.. هيا قلها يا بابا.

ولكنها الآن لا تفعل مجرد الصراخ.. بل انسالت الدموع على خديها.. وأسقطت نفسها على السرير.. ثم غطت وجهها بملاءة السرير.

فبدأ هو الآخر يصرخ: تيرزا، أنت ابنتي.. وستظلين ابنتي. ثم خرج مسرعا فنزل الدرج.. ولكن صوتها لحق به: ليس لديك امرأة، يا بابا، وأنا الوحيدة التي مازالت لديك.

جلس في غرفة المعيشة على الكنبه بهز جسمه ذهابا وإيابا.. يفكر كيف حدا بتيرزا أن تبكي هكذا.. دون أن يصل شيء.. وظل حائرا يفكر لماذا لم ينبج الأمر.

وفي يوم الإثنين التالي ذهب أثناء استراحة الغداء إلى مكتبة

شيلتينا لبيع الكتب.. وبعد جولة بين قسمي علم النفس والفلسفة.. وجد أخيرا بائعة لديها الوقت من أجله.

فحاول أن يسألها مباشرة قدر الإمكان فقال:

- إنني أبحث عن شيء يناقش موضوع اضطراب الأكل.

- ماذا؟

- فأعاد بصوت أعلى: حول اضطراب الأكل.

- عم تبحث بالضبط؟ رواية؟

- معلومات.

فتوجهت به إلى أحد الأرفف وقالت: هذه السلسلة هنا كاملة تتحدث عن أمراض التغذية.. وهذه السلسلة أيضا.. وهنا أيضا يمكنك أن تجد شيئا آخر.

انحنى هوفمستر ولكن أولا بعد أن اطمأن تماما أن لا أحد يراه.. لا من معارفه ولا من زملائه.. وكانت الطريقة التي تعرض بها الكتب مرهقة.. والكمية وحدها تسبب المرض.

ولذلك احتاج ما يقرب من عشرين دقيقة حتى عثر على كتابين يدوان له أنهما يثبتان عن ذكاء إلى حد ما.

فسألته أمينة الصندوق: هل أغلفهما على أنهما هدية؟

فقال هوفمستر: لا.. إنهما من أجلي.

ثم أسرع عائدا إلى دار النشر- يحمل الكتابين في الكيس ويعقد عليه بيده.. فاستقبلته موظفة الإستقبال قائلة: يالها من استراحة غداء طويلة يا يورجن.

فابتسم خجلا.. وفي المساء جلس بالكتب على الأريكة.. والأقلام الرصاص والمباري في يده.. فهو يفضل أن تكون الأقلام الرصاص مشحودة جيدا.

أتت تيرزا إليه وسألته: ماذا تقرأ؟ قال وهو يضع يده على الكتب: لا شيء.. لا شيء مهم.. هراء.

- بابا.. ألا يزعجك أن ماما لا تبقى في البيت إلا قليلا؟ كانت ترتدي قميص النوم ذو اللون الذي يزعجه.. هذا الشيء الذي كان عليه أن يحرقه سرا ذات يوم. أجابها وهو يعبث بالمبرة: أكون مسرورا بمفردتي.. فأنا لا أحب الزحام.. ولا الضوضاء.. ولا أحب أن يكون حولي أناس كثيرون. - ولكن أليس من السخيف أنها لا تبقى في البيت إلا قليلا؟

- لقد اتخذنا قرارات واضحة، هي عليها أن تعمل كثيرا.. وأنا علي أن أعمل كثيرا.. والآن عليك أن تنامي. ثم مسح على خدها.

سألته: هل لديك امرأة أخرى إذن؟ كان يود لو كان لديه.. ولكن السؤال لم يعجبه. كان السؤال في نظره سؤالاً مأكراً.. يسبق سنّها.. وكذلك خبيثاً ولا يوافق طبعها.. طبع ملكة الشمس.. التي كانت وستبقى دائماً مليكته.

- ماما هي زوجتي يا تيرزا.. وأنت تعرفين ذلك جيداً.. والآن عليك أن تذهبي للأعلى وساقرا لك غدا.

مالت عليه وعضته في أنفه.. كما تفعل دائماً.. عندما تكون قريبة جداً من أبيها.. وقد بدأت بفعل هذه الحركة في طفولتها المبكرة.. وهذه من بقاياها.. ولكنها الآن تحاول أن تعض صدره.. وهذا في نظر هوقمستر لم يكن منطقياً.. لأنها دائماً ما ترغب في عض أنفه.. ولا يأتي في خلدّها أبداً أن تعض ثديّه.. وعلى الرغم من أنها كانت في الرابعة عشر- من

عمرها.. إلا أنها كانت دائماً ما تقفز في سعادة إلى أحضان والدها وتعضه في أنفه.



همست إليه: ليس لديك امرأة يا بابا.. أنا المرأة الوحيدة التي لديك. ثم عضته في أنفه مرة أخرى وهربت مسرعة إلى حجرتها. وبقي هو على الأريكة، متردداً، إن كان عليه أن يتبعها حتى يرد عليها.. وظل متردداً طويلاً حتى فضل في النهاية أن يبقى جالسا.

كانت ابني تجلس في الحانة مع صديقاتها.. وزوجته ترسم في الأتيليه الخاص بها.. حيث لا تستقبل فيه إلا الذكور فقط.. ويورجن هوفمستر يقرأ في غرفة المعيشة في كتاب أكاديمي عن مرض صغيرته.. لا يترك فقرة إلا ويدقق فيها.. بينما تيرزا في غرفتها بجانب التشيلو.. ترنو أن تكون موهوبة للغاية حتى لو ماتت جوعاً. وهكذا كانت حياة أسرة هوفمستر في بداية الألفية الجديدة.

كان هوفمستر يقف في البلكون منذ ربع الساعة.. ينظر إلى النور الذي يسطع من الكوخ.. ثم يعود فيخفت.. ثم يسطع.. ثم يخفت..

هناك أحد يعبث بالضوء.. ثم تذكر فجأة أنه غادر تاركا إستر بدون ياء هناك في الكوخ.. واعدة إياها أن يحضر.. لها كوباً من عصير البرتقال.

والوعد سيف على الرقاب.. لذلك ذهب مسرعاً إلى المطبخ.

فلا يجوز إهمال الضيوف.. حتى ولو كانوا هم من احتجزوا أنفسهم في الكوخ.

كانت تيرزا تقف متكئة على الحوض.. فظن أنها تقيء.
فسألها: ماذا تفعلين هنا؟

- آكل طماطم. ولذلك كانت تقف منحنية على الحوض
هكذا.. بسبب القطرات التي تسقط من الطماطم.
قال بصوت تعلوه نبرة اليأس والتوبيخ في نفس الوقت:
لدينا كثير من المقبلات الشهية هنا.. كل شيء هنا.
- لدي رغبة في الطماطم.

ثم أخذت قضمة.. وانسالت العصارة على ذقنها.. فناولها
هوفمستر قماشة.

وقال: التي شيرت الذي تلبسينه.. غير مهندهم.. إنني أرى
الجمالة الصدرية.

وأراد أن يسحبه فيهندهم.. لكنها قالت: الموضة أن يُلبس
هكذا.. كيف تجده؟

صب لنفسه كأسا من النبيذ الأبيض.. فهو لا يشرب دائما
غير نبيذ العنب الإيطالي.. يشرب ذلك مرارا وتكرار.

- من؟

- شكري.. كيف تجده؟

انتهت الآن من أكل ثمرة الطماطم.

سألها هوفمستر: هل ترغبين في شيء آخر، ورفع الزجاجاة
عاليا، قائلا: نبيذك المفضل.

هزت رأسها رافضة: في وقت لاحق.. ولكن قل لي الآن
كيف تجده؟

نظر هوفمستر إلى السقف.. فوجد أنه بحاجة ملحة إلى
الطلاء.. فقد رأى بعينه المجردة ثلاث بقع داكنة.. ولكنه لم
يعد يملك المال الكافي لذلك.. فقد تبخرت المحفظة الوقائية..
وكل ما كان قريبا من هوفمستر أصبح بعيدا عنه.. وأصبح لا
يستثمر إلا في الضروريات.. ولكن الأسقف البيضاء حسب رأي
هوفمستر ليست من هذه الضروريات.

- ماذا أقول؟ إني أجده منغلق تماما.. ومتحفظ.. وليس
ودودا جدا.. وصعب المراس.. ولكن هذا طبيعي كإنطباع
أولي.

- من الطبيعي أن يكون خجولا، بابا، لكن أنت أيضا
ستكون خجولا لو تعرضت لهذا الموقف.. بل إنك نفسك
خجول - ولست خليطا من المثاليات.

- لست خجولا.
ثم صب لنفسه كأسا وأجترعه دفعة واحدة.. ليعود مباشرة فيصب كأسا آخر.
فقالت بود ولكنها تؤكد على ما تقوله.. فهي لا تسمح بأي معارضة بشأن هذا الموضوع: أنت خجول.. ولا أعرف أحدا خجولا بقدرك.

- أنا متحفظ يا تيرزا.. والتحفظ شيء مختلف عن الحياء.. وأنا لن أتطفل على صديق ابنتي.. بل سأكتفي في الوقوف في الصف الخلفي.

- بابا أنت خجول بشكل مفرط.. وأنت أفضل من يعرف ذلك.. في العطلة كنت ترسلنا دائما إلى المطعم أولا، لكي نرى كيف يبدو في الداخل، وكنت أنت تنتظر في الخارج.. ألم تعد تذكر ذلك؟ وعند التمثيلية المسرحية في المدرسة الابتدائية.. عندما كان كل الأباء يتبعون أبناءهم بفخر إلى غرفة تغيير الملابس.. كنت تختفي ورأى.. ولكن ماذا كان انطباعك حينها عن المسرحية؟

صفق بيديه.. ولكنه لم يعرف لماذا فعل ذلك.. فأبقى نظره على الملصق الذي يحمل اسم الزجاجة. وقال:

- يصعب القول لو كنت تريد أن تعرفي ذلك بالضبط.. يصعب علي القول.. ولا أستطيع الحكم عليه.. فقد ذكرني بشخص ما لا: بل هو يذكرني بشخص ما.

- بنجم سينمائي؟ إنه يذكرك بنجم سينمائي؟ أليس كذلك؟
نجم سينمائي فرنسي؟ هل يروق لك أكثر من السابقين؟

- من السابقين؟

- السابقون.

- هل كان يوجد إذن سابقون؟ لقد كنت أظن أن ذلك ليس جديا.

كانت الموسيقى من وقت لآخر تخترق أذنه قادمة من غرفة المعيشة.. فوجد أنه قد حان الوقت لكي يقلب بعض السردين مرة أخرى.. فما زال هناك الكثيرون.. وما فائدة الإنسان بدون مهمة يقضيها؟.. لا فائدة له على الإطلاق.. وقلبي السردين هو مهمته هذا المساء.

- لم يكن شيئا جديا.. ولكنهم كانوا موجودين.. وقمت بتقديمهم اليك، بابا، لقد رأيتهم كلهم.

- لقد كنت أرى شبابا.. هذا صحيح.. وقد رأيت بعضهم من حين لآخر في السنة الماضية.. وأيضا رأيت الذين كانوا يقضون الليل هنا.. وهم ليسوا أصدقائك.. وكنت تقولين.. هذا لا يعني شيئا بالنسبة إلي.

- نعم هذا صحيح.. لم يكن ذلك يعني لي شيئا.. كان من أجل المتعة فحسب.. ولكنهم كانوا أصدقائي.
ومثل كثير من الأشياء التي كان يخطئ في فهمها.. كان يخطئ الفهم هذه المرة أيضا.. ومع ذلك لن يسمى ساذجا.. لن يسمى خجولا ولا ساذجا.. بل سيوصف بشيء آخر غير ذلك.. ولكنه لا يعرف ماذا سيكون الوصف؟
فقال وهو يمد ذراعيه نحوها.. كطفل يتلهف أن يرفعه أحد:

- تيرزا.
ربما كان حريصا.. يورجن هو فمستر.. كان انسانا حذرا..
كرر مناداتها وهو لا يزال يمد ذراعيه نحوها:
- ألا ترين ذلك إذن؟
- ماذا؟

- صديقك.. هذا الرجل.. شكله.. ألم تلاحظي ذلك؟
هزت رأسها كممثل فرنسي.. هذا رأيي أنا - ولكن ألا تجد أنه يشبه ممثلا فرنسيا؟
أنزل ذراعيه.. وقال:

لا - لا.. ليس ممثلا فرنسيا.. ليس ممثلا.. على الأقل ليس أحدا يخطر في البال.. ولكنه: محمد عطا! نعم محمد عطا.. إنه نفس الوجه.. ونفس العينين.. ونفس الذقن.. بل ونفس الشعر.

هزت رأسها مرة أخرى وقالت: بابا.
وأبوها متكتئا علي البوفيه.. يكرر الكلمتين، محمد عطا،
كأنه لم يلاحظ إلا الآن.. ما يراه، وما يعتقد، وما يشعر به.
- لا تفعل ذلك.

- ماذا؟
- ما تفعله الآن.
سألها: ماذا أفعل إذن؟ ما الذي أفعله؟
اتجهت تيرزا نحوه.. واحتضنته.. وهي تهمس في أذنه:
- أرجوك.. لا تفعل ذلك.. لا تضن علي بسعادتي.

- ولكنني لا أكره لك السعادة.. بل أتمناها لك أكثر من أي أحد.. أتمنى أن تحوذين على كل سعادة الدنيا.. ولكن فقط: إنه ليس سعادتك.. بل هو تعاستك.. محمد عطا هو تعاستك!.

لم تترك تيرزا أباه: إنه صديقي يا بابا.. ويجب أن تعتاد على هذه الفكرة.. أرجوك.. ولكن هل ستتعامل مع ذلك جيداً؟ هل تظن أنك تستطيع أن تتعامل مع ذلك؟ كان شعرها يداعب جبهته فيشعر بوخز خفيف.. ويشعر بأنفاسها.. التي تصدر منها رائحة نعناع خفيفة.. ولكنه لا يستطيع أن يظل واقفاً هكذا.. ليس وهذا حفلها.. فرمها يأتي أحدهم في أي لحظة.

- توقفي يا تيرزا.. أنا أتمنى لك أفضل صديق، والأجمل والألطف في العالم.. ولكن محمد عطا ليس الأفضل ولا الأجمل أيضاً.. وبالتأكيد ليس هو الأكثر حباً لك.. إنه أسوأ مرشح لك يمكن أن أتخيله.

- توقف عن تسميته بمحمد عطا.. إن اسمه شكري.. وهو صديقي.

خرج هو فمستر من بين أحضانها.. ودار حولها يبحث عن فتاحة الزجاج.. لكي يفتح زجاجة أخرى من نبيذ العنب الإيطالي.. وهو يقول: كل له وجهة نظر خاصة.. فكلانا نتحدث عن شيء حقيقي.. ولكن ماذا نعني بذلك، هل يمكنك أن تخبريني؟ أنت تترين في هذا الرجل صديقك.. وأنا أرى فيه محمد عطا.. وأنا أعرف ما يريد عطا.. وأعرف خطته في الحصول على ما يريد.

وأخيراً وجد الفتاحة.. والآن سوف يتحدث.. وفي نفس الوقت لا يهمه من يستمع إليه.. فلا بد من قول الحقيقة.. لابد للحقيقة وأن تظهر.. هذه الحقيقة المفجعة.

فقال: إن القلق يراودني.. فأنا لا أريد لابنتي أن تقترب من محمد عطا.. فحتى الوالد المجرّد من المبادئ أو الأكثر تقدماً سوف يقول: يمكن لابنتي أن تعاشر أي شخص.. يمكنها أن تأتي بزنجي.. ولا مانع عندي أن تأتي بمدمن مخدرات.. ولا بأس أيضاً بالفيتنامي.. ولكن لا تأتي لي بإرهابي.

أهوت بيدها على البوقية صائحة: الآن قد تجاوزت الحدود.. ولم يعد ذلك طريفاً.. توقف يا بابا، توقف.

فتح زجاجة الخمر.. فقد تمكن من إدارة حوار مفتوح وصادق مع ابنته.. فروح عن نفسه بكأس خمر لكي يهدأ.

- توقف! عم أتوقف؟

- عن نعت صديقي بالإرهابي.. فهذه هي المرة الأولى التي يوصف بها هكذا.

- كيف إذن أصفه؟ مقاتل الحرية؟ مناهض العولمة؟ الفوضوي؟ عدو مقاتل؟ ضحية العقيدة الزائفة؟ تعيس الحظ؟

- إنه لا يهتم بالسياسة.. شكري يؤلف الموسيقى وأنا أحبه.

- ماذا تعرفين عن الحب؟

- ماذا تعرف أنت عنه يا بابا؟ ماذا تعرف عنه؟ هل أحببت يا تري أحدا قبل ذلك؟

وضع الكأس عن فمه.. ومسح شفثيه مجففا لهما.. ثم قال بعد أن صمت لبرهة:

- أنت.. أنت من أحببتها.

نظرت إليه.. فتمنى أن تقول شيئا الآن.. ولكنها صمتت.. فأدرك هو: أن حياته قد انتهت نهائيا ولا مفر من ذلك.. انتهت حتى قبل أن تبدأ.. وأصبحت فكرة لا يمكنه إلا أن يتسم لها.. لأنه بمجرد التفكير فيها.. يتضح أنها جنون. وما هي أفضل طريقة للرد على الجنون غير الإبتسام؟ ولكنه لا يريد أن يكتفي بالإبتسامة.

فقال أخيرا: كنت أظن - وقد سمعت ذلك على كل حال - أنكم لم تعودوا تمنحون الحب لبعضكم.. وأن ذلك قد عفا عليه الزمن وانتهى.. وأن جيلك ينظر إليه بطريقة أخرى.

- من أخبرك بذلك؟

- شخص هنا في الحفلة.

- أوه.. حسنا.. ولكني أفعل هذه الأشياء بدافع قوي من الحب.. أنا أحب شكري.

فابتسم.. وصفق: إنه يستخدمك.

- وأنا أيضا.. فهذا هو الحب.. المنفعة المشتركة.. وإستخدام الطرفين لبعضهما باحترام.

بدا هذا الكلام مثل شعار.. أو شيء سمعته في مكان ما أو قرأته.

فقال هوفمستر: لدي معرفة بالبشر.. وبعض الخبرة في الحياة.. وصدقيني: المنفعة ليست هي الحب.. والحب ليس هو المنفعة.. وهذا محمد عطا.. وإن لم يكن محمد عطا صاحب أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. فهو إذن خليفته.. أو نائبه.. أو روحه التي حلت فيه.. وولد من جديد..... أشارت إليه ترجوة أن يصمت.. وقاطعته قائلة: إذن فأنا أحب محمد عطا.. والأمر هكذا.. وعليك أيضا أن تعتاد على ذلك.

نظر إليها مندهشا وهو يمسخ مرة أخرى على شفثفه مجففا لهما.

اقتربت منه وقالت: بابا.. أرجوك.. لا تضطرنى للبكاء هذا المساء.

أمسك بيديها: لن أضطرك للبكاء.. إننى أأاول أن أجنبك الخطر.. أنا لا أريد أبدا أن أضطرك للبكاء.. ليس الآن.. أو فى أى وقت أبدا.

- ولكن لا وجود للخطر.. إنك تتخيله فقط.

- بلى.. إنه يوجد.. وأنا أشعر به.. وأشم رائحته وأراه.

ثم ترك يديها.. فمسحت هى على خديه وذقنه.

وقالت: فلتحمر لنا بعض السردين.. فمن الجميل أن أراك وأنت تقلى السردين.. فهذا يذكرنى بما مضى.

- سأفعل ذلك حالا يا تيرزا.. سأعنى الآن بشأن السردين..

ولكن حاليا... حاليا على أن أحذرك.. حاليا على أن أحميك.

هزت رأسها وقالت: لا تحمىنى يا بابا.. أرجوك لا تحمىنى.

عادت إلى غرفة المعيشة.. وهو يتابعها بنظره والكأس فى

يده.. يفكر كم تغيرت.. وأن زوجته كانت محقة.. ولكنها لم

تتغير بين ليلة وضحاها.. ربما بدأ هذا التغير بعد مرضها.. أو

فى الواقع أثناء ذلك المرض.. على الرغم من أنه لم يلاحظ شيئا

من هذا القبيل.. لم يكن يلاحظ أشياء كثيرة جدا.. ولم يجد

بدا إلا أن ينظر فى الكتب التى اشتراها بنفسه.. لكى يعالج

صغيرته.. ولكن لما تبين له.. أن دراسته لظاهرة اضطراب

الأكلى والمواضيع ذات الصلة بها لن تساعد ابنته.. عندئذ

أرسلها إلى اثنين من الأطباء النفسيين.. فأراد الثانى أن يتحدث

مع الوالدين.. وكما هو الحال دائما في مثل هذه الحالات..
ذهب هوفمستر بمفرده دون أمها.

كان الطبيب النفسي رجلا صارما.. إلا أن هوفمستر لم يكن
يجده عبوسا.. بل أكثر موضوعية.. وهذا مالم يكن ينتظره من
ممثلي هذه النقابة.

- وما أسباب ذلك؟..

كان هوفمستر يريد أن يعرف.. لأنه قد جاء وفي نيته أنه
لن يذهب فقط لكي يجيب عن الأسئلة.. بل سي طرح هو
الآخر أسئلة.. بل إنه وضع في جيب الجاكيت دفتر ملاحظات
لكي يدون فيه ما سيقوله الآخر له.. وهذا فقط هو ما أحضره
معه.

- لا يوجد سبب واحد عادة.. ف دائما ما تجتمع عدة
أسباب.. ولكن الأسباب أيضا ليست هي الشيء الملح في
الوقت الراهن.. وإنما أبتك هي من يسوء حالها.

- ولكن... - وجلس هوفمستر على الأريكة.. يبحث عن
كلمات يقولها.. يبحث عن أمل.. فقد جاء لكي يسمع أن كل
شيء سيكون على مايرام.. ولكنه حتى الآن لم يسمع إلا عكس
ذلك.. فسأل وهو يضع القلم الرصاص في وضع الاستعداد:- ما
الشيء الذي نفعله بطريقة خاطئة؟ ما الشيء الذي أفعله أنا
بطريقة خاطئة؟

- لا يتعلق الأمر بالأخطاء.. وعلى الرغم من أنها موجودة
في كل أسرة.. وكذلك في أسر تكم.. إلا أن الأمور يمكن أن تتغير
وتتجه للأفضل.

حدق هوفمستر في حذائه ثم حدق في حذاء النفساني..
ثم سأله:

- ما خطبها؟ هل تحدثت معها عما يدور بداخلها؟ وما
سبب ذلك؟

وأثناء سؤاله كان يهز رأسه.. كأنه يريد أن يظهر أنه لم
يكن يفهم ما يدور بداخلها.. وأن أحدا لم يستطع أن يفهم
ذلك.. فقد كان ما يجري بداخلها خارج كل تصور.. وبذلك
كان خارج عالم هوفمستر أيضا.. قال الرجل:

- حسنا، هذا أيضا ليس من السهل الإجابة عليه.. فهي
تحاول أن تحصل على السيطرة على حياتها.. وأن تستعيد
التحكم فيها. ومرضها هذا في الواقع ما هو إلا وسيلة لذلك..

ولذلك أعتقد أننا يجب أن نتصور أن الأمر يدور حول السيطرة.

- السيطرة؟

قال النفساني: نعم السيطرة.

كررها هوفمستر "السيطرة" كأنها كلمة أجنبية لا يعرف معناها.. وهكذا كان يشعر أيضا.. فهو لم بعد يعرف ماذا تعني "السيطرة".. فكتب الكلمة في دفتر الملاحظات دون أن يعرف حقيقة لماذا كتبها.. ثم جعل يضع تحتها خطوطا. ثم سأل النفساني لما انتهى من الكتابة ووضع الخطوط:

- وماذا علي أن أفعل الآن؟ ما الذي يمكنني فعله؟

- أن تدعمها

- ولكنني أفعل ذلك بالفعل.

- ربما ليس بما فيه الكفاية.

ليس بما فيه الكفاية.. لم تستقم هذه الفكرة بعد في رأس هوفمستر.. فقد كان يظن بدلا من ذلك: أنه يدعمها كثيرا.. ولكن الآن يظهر له: أنه لا يدعمها بما فيه الكفاية.

وهكذا جلس الاثنان أمام بعضهما في صمت.. استغرق الصمت برهة.. ثم قطعه النفساني قائلا:

- أتعرف سيد هوفمستر: إن اضطراب الأكل لا يظهر تقريبا إلا في الطبقة الوسطى البيضاء.. وليس في غيرهم.. إنه مرض نمطي في الطبقة الوسطى البيضاء. كان هذا التفسير يبدو شاملا.. وكأنه يناسب حل جميع المشاكل.

ثم نهض النفساني.. وهوفمستر يتساءل أثناء نهوضه.. ماذا يريد الرجل أن يقول بهذا.

فسأله وهو يدخل دفتر الملاحظات في الجاكييت بينما يرتديه:

- هل يمكن أن يكون هناك ما تفعله بما لديها من موهبة عالية؟

- من قال ذلك؟ من قال أنها موهوبة؟

لوح هوفمستر بذراعيه وهو يشعر بالعجز.. فقد أدهشه السؤال.. ثم قال أخيرا:

- الكل.. الكل دائما كانوا يقولون ذلك.. كل أحد يقول ذلك.

همهم النفساني.. أممممم.
وبذلك انتهى الحديث بينهما.
وبينما يفتح هوفمستر قفل الدراجة كان مستغرقا في التفكير في هذا الرجل.. كان يجده غريبا.. ودود ولكنه مراوغ قليلا.. ثم خطر له فجأة.. أنه هذا المرض نفسه.. أن مرض الطبقة الوسطة البيضاء هو يورجن هوفمستر شخصيا.
وفي وقت لاحق من نفس اليوم رأى صورته منعكسة في إحدى النوافذ الزجاجية.. فخرج عن صوابه مرة أخرى.. ها هو مرض الطبقة الوسطى البيضاء يمشي- هناك.. ها هو هوفمستر.

كانت الفكرة جديدة وساحقة.. ولكنها لم تسطع أن تؤثر في شيء.. فتلهم هوفمستر كي يفعل أي شيء آخر مختلفا عن الذي كان يفعله في الأسابيع الماضية.. فهو مازال يشتري كتباً عن اضطرابات الأكل ويقرأ فيها كل مساء.. والقلم الرصاص على أهبة الاستعداد.. والمبراة في متناول يديه.. فإن كان لهذا الأمر حل.. فلا بد وأن يكون في الكتب.. وإلا فأين يكون الحل؟

ولكنه كلما كان يخط خطأ أو يعلم على ملاحظة أو يحفظ عن ظهر قلب.. كلما كانت تيرزا تصبح أشد نحافة.. وينقص وزنها.. حتى اقتربت من النقطة الحرجة.. وذلك يعني التغذية القسرية.. والمستشفى.. والعلاج الطبيعي.
و ذات مساء من أمسيات الخريف عادت زوجته إلى المنزل قبل منتصف الليل.. وعندها جلس هوفمستر على الطاولة.. تحوطه الكتب.. وكلها تناقش نفس الموضوع.. ثم نظر إليها، إلى أم تيرزا، وقال:

- نحن على أفضل طريق لقتل طفلتنا.
جلست على الطاولة دون أن تخلع معطفها.. ثم أشعلت سيجارة.. ووقفت تشرب كأسا من الفودكا.
لم يدمر المرض تيرزا فقط.. بل بدأ المرض بسبب انهيار أسرة هوفمستر.. وكلها خاض عدد أكثر من المشاركين في هذا الأمر.. كلما ظهر له أن الأمر سيحدث سريعا.
وضعت الزوجة الكأس الصغير.. ثم عادت فجلست.. وكانت ترتدي قبعة من الصوف.. لم تخلعها هي الأخرى بعد.. سألته:

- نحن؟ نحن؟ هل قلت "نحن"؟ نحن؟.. لا.. ليس نحن.. أنت! وأشارت بإصبعها إليه.

أغلق الكتاب الذي كان يقرأ فيه لتوه. وسألها:

- أنا؟ ولماذا أنا.. لو سمحت لي بالسؤال؟ على الأقل أنا أفعل شيئاً.. أما أنت؟ ماذا فعلت أنت؟

كانت زوجته مستغرقة في التدخين.. ثم قالت:

- - أنت.. أنت من سمم الطفلة.. لم تدعها تهدأ ولو دقيقة.. لم تتركها لحظة لنفسها.. فإذا لم تذهب لدرس العزف على الكمان.. فيجب إذن أن تذهب للتدرب على السباحة.. وإذا لم تستطع أن تذهب للتدرب على السباحة.. فلا بأس، فالمكتبة مليئة بكتب الأدب الروسي.. وإن لم تقرأ لها.. فعندئذ تذهبان سوياً لشراء النيذ.. لقد دمرتها.. كما كنت تريد أن تدمر أبيي أيضاً.. ولكن أبيي والحمد لله كانت قوية.. أما تيرزا فلا.. وكل ما تقوله لها كأنه من الكتاب المقدس.. إن تيرزا تقدسك.. وأنت في أشد سعادتك لذلك.. يعجبك ذلك.. وتجد كم هو رائع أن يجعلك شخص ما وثقه الذي يعكف عليه.

أمسك هو فمستر بقلم رصاص وأخذ يشحذه بعناية.. ملتزماً الصمت.. ثم قال أخيراً: - ما تقولينه هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة.. كذبة شنيعة.. ما أقبحها.. لقد اعتنيت بتيرزا لأنك أهملتيتها.

كان ولا بد أن يعتني بها أحد.. وأن يحضرها من درس السباحة.. وأن يأخذها لدرس الكمان.

- ولكن لم يكن من الضروري أن يرغمها أحد على السباحة.. ويقف ورائها دائماً يقول أفعلي هذا ولا تفعلي ذاك.. لم يكن من الضروري أن يلح عليها أحد بشأن موهبتها.. كيف سيكون رد فعلك.. إن ظلمت تسمع هذا طوال اليوم؟ ألن يجعلك هذا مجنوناً تماماً؟ ألن تفقد أيضاً صوابك؟ أنت من حطم الطفلة، وليس أحد غيرك.. لقد حاولت أن تجعل منها زميلة لك.. أن تجعلها رفيقتك.. وزوجتك.. نعم، وزوجتك أيضاً.. فكل مالا تستطيع أنت أن تجده في العالم الخارجي.. تسد هي محله.. والشيء الوحيد الذي يمكن أن تتهمني به.. هو أنني سمحت لذلك أن يحدث.. ولم أبدأ أي اعتراض عليه.. ولكن هذا على كل حال ليس كافياً لمنع ما يحدث - ولكني أنا الأخرى لدي حياة.. وما أنا إلا إنسانة..

ولدي الحق في أن أتمتع ببعض السعادة.. نعم يا يورجن.. أنا أيضا إنسانة.

ذلك وجنتيه.. ثم قال:

- إذا قلت مرة أخرى: "أنا إنسانة".. إذا اضطررتني أن أسمع ذلك مرة أخرى، فسوف أخنقك.
فأجابته:

- هيا افعلها.. هيا اخنقني.

فواصل التدليك وقال أخيرا.. ولكن هذه المرة أهدأ من قبل:

- لم أظل ألح عليها طوال اليوم بشأن موهبتها.. لقد حاولت تشجيعها.. وهذه ليست جريمة. نعم، لقد أحببتها.. أنا أحبها.. وربما أجد نفسي معها أفضل مما لو كنت مع أبيي.. ولكن هذه أيضا ليست جريمة.. ولا أنتظر شيئا في المقابل.. لأن ما أحصل عليه منها يكفيني.. بل أكثر من الكفاية.. يكفيني كيف تبتسم لي.. يكفيني ما تقصه علي من أخبارها.. هل فعلت بذلك خطأ ما.. وأنا لا أعرف؟

لم يكن ما قالته سهلا عليه.. فكسر- قلما من الأقلام الرصاص
مفرغا فيه غضبه.
وسألها:

- هل هذا كل ما أمكنك قوله؟ كل ما استطعت أن تقولينه أنني دمرتها؟ .. وأصبح كل ما تبقى من زواجنا هو: من المسئول عن مرض تيرزا؟

نفثت الدخان وقالت: نعم.. هذا كل شيء.. يؤسفني ذلك.. ولكنك لم تكن أبدا والدا حقيقيا لتيرزا.. ربما كنت صديقا لها.. أو عاشقا - ولكن الوالد لا يكون عاشقا، يا يورجن.

نهض من مكانه وسألها:

- ماذا تعنين بذلك؟.. فقط لمجرد أنك باردة جدا وبدون مشاعر.. فإن من يلمسها أيضا هو إنسان مثلك.. ولكن هذا لم يكن جريمة أبدا.. فالبشر- يحتاجون دفء المشاعر.. وبها يحيون.. وعليها غذائهم.. وهذه المشاعر ليست جريمة.. وما الفائدة منها، إن لم يعبر عنها الإنسان؟

نهضت هي الأخرى.

سألها: أين تذهبين؟

- إلى الاستوديو.

- وما حاجتك الآن إليه؟

- سأنام هناك.

- ولكن لا سرير هناك.

- يوجد أريكة.

تبعها حتى الردهة.. ودفعها إلى الحائط، وضغط على حلقتها بإحدى يديه، وهمس إليها:

- كيف تجرؤين أن تتهميني بذلك؟ كيف تجرؤين؟ كيف طاوعتك نفسك؟ أنت؟! وأنت التي ليس لديها أدنى فكرة عما تعنيه الأمومة.. ولم تذهبي أبداً إلى أي اجتماع أباء.. ولا تأبهين لأي شيء.. فكيف تجرؤين على القول بأنني لم أكن والداً؟ لا أطلب منك أن تحييني.. فأنا أعلم أنك لا تفعلين منذ زمن طويل.. ولكن كان يمكنك على الأقل أن تبدي بعض الإحترام والتقدير لذلك.. لما أفعله.

احمر وجهها.. ولكنه لم يتوقف.. فركلته.. فاشتد في الضغط عليها، ولم يتركها إلا عندما شعر بالآلم في يده.. وظل واقفاً في الردهة.. وجرت هي مسرعة إلى المطبخ.. سمعها تسعل.. وأنصت إلى صوت الصنبور وهي تفتحه.. وصوت السعال يزداد.. ثم سمعها وهي تتحدث في الهاتف.

وبعد خمس دقائق جاءت من المطبخ.. سألتها:

- ماذا فعلت؟

- اتصلت بالشرطة.

ثم غادرت المنزل.

ظل واقفاً في الردهة للحظة.. ثم عاد إلى غرفة المعيشة.. فوضع الكتب التي تتحدث عن مرض تيرزا على الطاولة في ثلاث رصات متساوية في الطوال.. ثم أفرغ الطفاية من الرماد.. وأخذ يعبث حيناً من الوقت بنصفي القلم الرصاص المكسور.. وهو يصدر همهمة.

وفي حوالي الواحدة إلا الربع ذهب إلى الأعلى.. لكي يذهب للنوم.. ووقف أمام حجرة تيرزا.. ففتح الباب بهدوء.. ليرى إن كانت نائمة.. ولكن عيناها كانتا مفتوحتين.

جلس هوفمستر بجانبها.. ولم يعد يمكنه أن ينظر إليها.. وكلما اتضح له ما ينظر إليه.. شعر بالرغبة في شق نفسه.. كان غاضباً لأنه لم يستطع أن يتخلص من الشعور بالفشل..

وبشعر بالكره لزوجته.. يشعر بالكره تجاه كل من يذكره بهذا الفشل.

أمسك بيد تيرزا وجال بنظره في انحاء الغرفة.. وظل جالسا هكذا لفترة.. ثم قال:

- لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا ياتيرزا.. لابد لهذا أن ينتهي.

قالت: أعرف ذلك.

فبدا له وكأن المرض قد أصاب صوتها أيضا:

- أعرف يا بابا.. ولكنني لا أستطيع أن أتوقف.. فقد فات الآوان.

حدق بإمعان في كرسي المكتب.. وفي القواميس الموضوعة على المكتب.. وفي كتاب الجغرافيا المفتوح.. واستغرق في التركيز فيه.

ثم سألها.. ونظره لا يزال موجهها على كتاب الجغرافيا:

- هل فعلت شيئا.. ما كان ينبغي علي أن أفعله؟ .. هل يوجد ما يزعجك؟ هنا في المنزل؟ في أو في ماما؟ هل قمنا بفعل شيء خاطيء.. هل قمت أنا بفعل شيء خاطيء؟

كان يحاول أن يركز في شيء آخر.. فظل يركز في الستائر.. الستائر الحمراء التي اختارتها تيرزا بنفسها.

وقال وهو يتحدث بصوت منخفض تماما مثلما تفعل:

- ولكنك تعرفين.. يا تيرزا، أننا.. أنا وأمك وإبني.. نحبك جدا.. حتى وإن لم تكوني موهوبة.. نحبك في كلا الحالين.. لست مضطرة أن تكوني الأفضل.. فنحن نحبك كما أنت.

لم يكن في الواقع يتوقع جوابا.. ولكنه حصل عليه.. بصوت أعلى من ذي قبل.. صوت عال ومسموع.. قالت:

- لا يا بابا.. هذا ليس صحيحا.. فلن يحبني أحد إن لم أكن الأفضل.

ظل جالسا دون كلام.. لبضع ثوان.. يشعر بالخزي من هذه الصورة المشوهة لطموح الوالد.. ونيته الحسنة.. إلا أنه في الواقع طموح يتسم بالعقل. مصدوما من ابنته.. الذي ضحى لها بكل شيء من أجل هذا الطموح.. والذي جعله في نفس الوقت يبدو مذنبا.

ومن ثم لم يستطع البقاء في غرفتها.. فقد هرب.. وعاد إلى الأسفل ثانية، وظل واقفا أمام طاولة الطعام.. ينقر بصوت منخفض على قرص الطاولة.. وقر دقيقة تتلوها دقيقة.. حتى

مرت خمسة عشر دقيقة وهو يقف هكذا.. ثم أتمها نصف الساعة وهو على هذا الحال.. ولم يخرج من هذا الحال إلا فزعه عندما رن جرس الباب.. فقد كانت الساعة على وشك أن تكون الثانية.. قد تكون الزوجة ونسيت مفاتيحها؟ فايبي في البيت وتيرزا أيضا.. لا يمكن أن يكون أحد غير الزوجة. وأمام الباب كان يقف شرطيان.. لا يزالان في ريعان شبابهما.. فسأله أحدهما بلهجة أجنبية:

- السيد هو فمستر؟

فقال: نعم.. هو أنا.

- لقد تلقينا اتصالا.. هل هناك أية مشكلة؟

- من اتصل بكم؟

فقال الشرطي الآخر:

- زوجتك.. أأنت متزوجا؟ وتسكن هنا مع زوجة وأطفال؟

فقال هو فمستر: أخ.. ذلك.. لقد كان شجارا تافها.. وعاد كل شيء مرة أخرى إلى مايرام.. معذرة على الإزعاج. وأزاد أن يغلق الباب مرة أخرى.. فلم يكن لديه حاجة إلى الاجتماعات.

ولكن الشرطي الأجنبي سأله:

- هلا سمحت لنا بالدخول لبرهة؟

- كما ترغبون.

سمح لهم بالدخول.. ودلهم أين غرفة المعيشة.. فجعلا ينظران في أنحاء المنزل.. ثم أخذ الأجنبي كتابا من الكتب الموضوعة على طاولة الطعام، وأخذ يتصفح فيه، ثم قال والكتاب في يده:

- تريد زوجتك توجيه اتهامات.. هل هي في المنزل؟

هز هو فمستر رأسه.. قائلا:

- لا، ليست هنا.. أنت تعرف النساء.. وخاصة عندما تكون المرأة كالعقرب.

سأله الشرطي الذي لم يكن أجنبيا:

- هل هي كالعقرب؟

أجابه هو فمستر: نعم، نعم.

لم يدر لم قال ذلك.. ولكنه كان يلاحظ أنه دائما لا يعرف ماذا يريد أن يقول.. وأن له في بعض الأحيان زلات لسان.. لا

تتركه بخير.. فكيف خطرت هذه الكلمة على باله.. النساء العقارب؟ لقد كُأنت كالعقرب.. ولكن ما حيلته في ذلك؟ ولذلك كان عليه أن ينظر ماذا يقول.. وأن يسيطر على نفسه بشكل أفضل من ذلك.
فقال هو فمستر:

- الرابع عشر من نوفمبر.. برج العقرب.. لقد ذهبت إلى الاستوديو.. إنها ترسم خاصة للرجال.. وفي بعض الأحيان ترسم الفاكهة.. ترسم التفاح، والأناس، أو ترسم واحدة من الفراولة تبدو وحيدة على طبق ما.. ولكنها في الأساس ترسم الرجال.. ومن حين لآخر ترسم لنفسها صورة شخصية.. وإلا فالرجال لا غير.

أخذ الأجنبي دفة الحديث وقال:

- لقد قالت في الهاتف.. أنك كنت تحاول أن تغتصبها،

وتعتدي

عليها.. هذا ما أخبرتنا به.. هل هذا صحيح؟ هل حاولت اغتصاب زوجتك؟ هل أسأت معاملتها؟ أنت بالطبع لست مضطراً أن تجيب على ذلك إن لم تكن تريد.. وإن كنت تعتقد أنك ستحصل على المشاكل بذلك.. فيمكن أن تستخدم حقك في التزام الصمت.

أمعن هو فمستر يفكر فيم كان الحديث يدور بينه وبين زوجته.. فهو لم يعد يذكر علام كان ذلك.
ثم قطع تفكيره أخيراً وقال:

- إننا نلعب.. أنا وزوجتي نلعب كجروين صغيرين.. فأسانا تقدير قوتنا.. ونسينا أنفسنا.. وتضاعدت حدة اللعب.. فاتصلت عندئذ بالشرطة.. فهي لا تتقبل الخسارة.. ولكن هذا جزء من دورها.. فهي فنانة.. كما أخبرتك.. وهي ترسم التفاح، والبرتقال، وثمار الغابة، وكذلك الرجال.. الرجال العاطلين عن العمل على الأرجح.. العاطلين عن العمل نهائياً.. وهم لا ينتظرون في المقابل أي شيء.. فقط مجرد فئجان من الشاي.. ولكن عليهم أن يتجردوا من ملابسهم تماماً.. هل يمكن أن تتعري من ملابسك من أجل فئجان من الشاي؟
أعاد الأجنبي الكتاب إلى مكانه فوق الرصة.. ثم قال:

- الإغتصاب - أو محاولة الاغتصاب -، أنت لا تعترف بذلك؟ سأسألك مرة أخرى عن ذلك.. بكل وضوح: ألم تحاول أن تغتصب زوجتك؟

فقال هوفمستر:

- لا.. بالطبع لم أحاول.. وكما قلت لك.. إنه لعب.. وأنا أقوم بدور المغتصب وهي تلعب دور الضحية.. وبيتنا هو ساحة اللعب.. إنني... - مسح على فمه وجبينه وعينه-

فقال الشرطي المحلي:

- نعم؟ أكمل حديثك. إنك؟

- أنا الحيوان، وهي... هي الأخرى مثلي.. كلانا حيوان.. هذه لعبتنا.. حيوانان مفردهما وغازبان.. وغرفة معيشتنا هي السهوب.. وأنفاسنا هي الرياح القطبية.. ولكننا أحيانا ما ننسى.. أنفسنا.. وتتصاعد حدة اللعب.. وعندئذ تتصل بالشرطة.. وهذا جزء من اللعبة.. فمن يتوقف عن اللعب أولا.. فهو الخاسر.. وهي من تستسلم أولا دائما.. نحن نلعب... نلعب، لأننا.....

لم يكن هوفمستر يعرف نفسه.. فعندما يتعرض لحالات طارئة.. يصبح رجلا ذو مهارات اجتماعية فائقة.. صحيح أنها مهارات ملتوية.. لا نقاش في ذلك.. ولكن على الأقل هي مهارات اجتماعية.. تمكنه من الحديث.. كان الشرطيان ينظران إليه بارتياب.. ولكن الحيرة تعتربهما.

لم يقولوا أي شيء.. بل أخذوا ينظران حولهما.. فرمما قد تعرفا الآن في حجرة معيشة أسرة هوفمستر على السهوب.. وشعروا بالرياح القطبية.. ثم قال الأجنبي:

- إذن.. حسنا.. كل شيء على ما يرام.. ولتبقى نفسك قليلا تحت السيطرة.

رافقهما هوفمستر حتى الباب.. وقيل أن يودعهما شكرهما على جهدهما.. ولكنه لم يعرف أي جهد يعني.. وكذلك السيدان بدا عليهما أنهما لا يعرفان أيضا.. وفي حجرة المعيشة وقف وراء الستارة.. ثم سحبها عدة ستيمرتات جانبا.. وجعل ينظر إليهما وهما ينطلقان مبتعدان.. ثم أطفأ النور.

ذهب إلى حجرة النوم.. يبحث في خزانة الملابس في الجيوب الداخلية لجاكيتاته عن دفتر الملاحظات، الذي كان معه لدى مقابله الطبيب النفساني.. وأخيرا عثر عليه.. ثم

فتحه.. لم يكتب فيه ملاحظات كثيرة. لم يكتب سوى كلمة واحدة: التحكم.. وتحتها خطين.

نظر إلى خط يده، إلى الكلمة نفسها.. وكأن هذه الكلمة والخطان تحتها هما التفسير لكل شيء.. هما تفسير حياته كلها.. ومرض ابنته.. مرض الطبقة الوسطى البيضاء.. المرض الذي لم يعد يحتمل وجوده.

خلع ملابسه وارقى على السرير، ولكنه لم يستطع النوم.. وظل يهتمهم.. ففتح باب البلكون ثم أغلقه.. فقد كان ينتظر، كعادته دائماً، عودة زوجته.

وفي الصباح التالي سافر إلى ألمانيا مصطحباً تيرزا إلى مصحة متخصصة في علاج اضطرابات الأكل.. دون أن يسألها إن كانت تريد أو لديها الرغبة لذلك.. أو إن كانت تعتقد أن هذا قد يساعدها.. فبعد كل ذلك، بعد أن حاول في كل الكتب الذي قرأها.. اصطحبها بكل بساطة إلى ألمانيا.. دون توقف، ودون حديث. كانت تجلس في المقعد الخلفي.. أو بوصف أدق: كانت متمددة.

كان قد حصل على عنوان المصحة من السكرتيرة في دار النشر.

وعندما وصلا بعد الظهر إلى المصحة.. سلم هوفمستر ابنته إليهم كطرد بريدي.. أما هو فقد استأجر غرفة في نزل قريب مجاور للمصحة.

وفي المساء اتصل علي هاتف البيت.. ولكن زوجته لم تكن هناك.. وأبيي هي من أجابته.. فقال لها: لقد أخذت تيرزا إلى عيادة في ألمانيا.. قلتخبري ماما بذلك من فضلك.

لم يكن في القرية التي فيها العيادة.. سوى مطعم واحد.. أصبح هوفمستر فيه ضيف منتظم.. وأصبح معروفاً هناك هو وأمثاله من الآباء الذين أحضروا أولادهم إلى العيادة.. وهم في آخر رمق غالباً.. أموات أكثر من كونهم أحياء.. والكل فيه صامت لا يتكلم.. حتى ولو كانا زوجين قد أتيا معاً.. فهما لا يتحدثان أيضاً فيما بينهما.

وبعد عدة ليال أصبح على اتصال مع عالم اجتماع من فرانكفورت.. كان هو الآخر قد سلم للتو ابنته، التي تكبر تيرزا بثلاثة أعوام، إلى العيادة.

تحدث هوفمستر معه لعدة ليال عن علم الاجتماع.. وعن أدورنو.. والتعبيرية.. والجمال الوسطى الألمانية.. وعن تولستوي.. ثم عن المركب الشراعي الصغير لعالم الاجتماع..

الذي كان يبحر به كل صيف في بحر البلطيق.. وكان المركب هو ما يظلاً يتحدثان عنه دائماً.. لأن الإبحار بالمركب الشراعي شيء رائع جداً.

كل شيء كان مرحباً به كموضوعاً للحديث.. حتى جاء على العيادة، والطفلة، والمرض.. وفي الليلة الخامسة قال له الإجتماعي:

- هل تمنع لو جلست على طاولة أخرى هذا اليوم؟
قال هوفمستر: لا، لا.. لا بأس مطلقاً.

من الواضح أنه قد قال شيئاً ما.. جعله مهموماً.. ربما عندما أوضح رأيه في الحكم على شاعر تعبيري، حسب وجهة نظر علم الإجتماع.. أو ربما لم يكن حماسه لبحر البلطيق كبير بما فيه الكفاية؟ لم يعرف هوفمستر ما الذي سبب هذا الانفصال.. ولكن هذا الحدث الصغير غير المفهوم قد ألمه.. كأن شيئاً قد لدغه.

لم يجد إلا شخصاً واحداً ليتحدث معه.. ولكن اتصاله به لم يدم طويلاً.. استغرق لحظة فقط.

ومنذ هذا المساء.. الذي تركه فيه الإجتماعي وجلس على طاولة أخرى.. لم يتحدثا مع بعضهما.. فقط يومئ كل منهما للآخر من بعيد. كانت انجئات تنم عن أدب، ولا يكاد أحد غيرهما يراها.. فقد كانوا آباء فاشلين ييقون أنفسهم بعيدين عن بعضهم البعض.

كانت الأسابيع تمر.. ولا أحد ينتظر حدوث شيء، ولكن هوفمستر كان على العكس من ذلك.. فقد بدأت تبرز في استرداد عافيتها.. صحيح أنها تستردها ببطء.. وأن الشفاء كان بطيئاً جداً.. وأنها كانت تنتكس من حين لآخر.. ولكن لا ينكر أن تبرزاً قد استعادت عافيتها.

ظل هوفمستر كل هذا الوقت في النزل.. يفكر في عمله.. وأنهم سوف يفهمونه هناك.. وإن لم يفعلوا.. فهذا ليس سوى مجرد سوء حظ.

كان يزور ابنته مرتين في اليوم.. صباحاً وفي وقت متأخر بعد الظهر.. لم يكن يطيل البقاء عندها.. كانت الزيارة لا تستغرق سوى عشرين دقيقة.. أو ربع الساعة.. وهو بين ذلك يتجراً فينظر إليها من حين لآخر.

ولم يفوت في هذه الفترة أن يتجول في الطبيعة الجبلية.. سواء كان المطر ينزل.. أو كان الثلج يتساقط.. أو الشمس تنشر أشعتها.. وكان من حين لآخر يقابل هناك عالم الإجتماع..

فيومئذ لبعضهما دون أن يتوقفا.. ويشعر هوفمستر في هذه اللحظات بحزن عميق ساكن.
 وتمر الأيام ويتضح أن تيرزا تفعل ما لا يريده والدها أو
 مالا يستطيع أن يفعله.. كأن يشعر بها.. وكان أحيانا عند
 التجوال يقول لنفسه: لابد أن أسألها.. كيف يمكن للمرء أن
 يفعل ذلك.. أن يسترد عافيته.. ماذا يبدأ.. وما الذي عليه أن
 يأخذه في الحسبان.. حتى يستطيع أن يحقق ذلك.



ولكنه لم يزعجها بهذه الأسئلة الصعبة.
 ثم أطلق سراح تيرزا بعد ثلاثة أشهر قضاها في الطبيعة
 الجميلة البريئة في جنوب ألمانيا.. وسمح لها بالذهاب إلى
 المنزل.
 تسلمها الوالد في الإستقبال.. فتذكر يوم مولدها.. هذا
 اليوم البارد المطير عندما سلمتها له الممرضة في مستشفى
 أمستردام.. مضغوطة كطررد أو حزمة.. أو دودة ملفوفة
 بالغطاء.. فأخذها هي وزوجته في تاكسي- إلى البيت.. وكم
 كان حينها يشعر بالفخر.. لكن القلق لم يكن يتركه وحاله.
 والآن يرى بأنها قد أصبحت غضة ورقيقة مثلما كانت
 عندما كانت رضيعة.
 لم تتحدث كثيرا في السيارة أثناء العودة إلى أمستردام.. لم
 تسأل إلا عند الحدود قائلة:
 - هل ترى بأن علي أن أعيد السنة؟

فقال:

- لا أظن ذلك.. فسوف يمكنك استدراك ما فاتك.. وإن لم تستطعي.. فليست هذه معضلة أيضا.
لقد قالت له زوجته أنه ليس لابنته الصغرى بمثابة والد.. بل صديق أو زميل أو حبيب.. أو ربما عاشق أفلاطوني.. المهم أنه ليس والدا.. لذلك عليه الآن أن يتعلم كيف يصبح والدا.. وأن يعود إلى عالم الآباء.. وككل العائدين الجدد: سوف يكون متعصبا.

لم يصعد إليها في الغرفة كل مساء ليقرأ لها.. ولم يعد يحضرها إلى دروس الكمان.. أو يشجعها على المشاركة في بطولات السباحة: وبذلك أبقى على مسافة بينها وبينه.
وكان يقف في بعض الأحيان أمام رف الكتب.. ولكنه وجد أن المكتبة الروسية قد فقدت سحرها بالنسبة إليه.. لأنه لم يعد يستطيع أن يقرأ منها بعد ذلك.. ولم يعد هناك من أحد يستطيع أن يشاركه حماسه للقراءة.. وشيئا فشيئا أصبح هو نفسه لا يدري بما في هذه الكتب.

أصبح كل ما قرأه في طي النسيان.. كأن محتوى الكتب كان بقايا غبار.. وكأنه لم يتضح له إلا الآن.. كم أن تولستوي كان على حق.. عندما قال إن الإنسان العاطلي يتسلى ممتعة عابثه.. ولم تعد آراءه مجرد آراء ساخرة مأساوية لكاتب طاعن في السن.. وعلى ذلك فسوف يشوبها الإنحراف.. ولكن أصبحت حقيقة لا يمكن دحضها.

ولم يعد يقف أمام رف الكتب إلا نادرا.. ولم تمتد يده بعد ذلك أبدا فتلمس كتابا فيه.. حتى القراءة تركها إلا ما كان من أجل العمل.

وهكذا أصبح هوفمستر رجل دائم القلق.. خوفا من أن يقع مرة أخرى في الدور الذي أراد أن يتركه وراءه: دور العاشق لهذه المرأة التي أصبحت أبنته.

أراد أن يعطي لوظيفة الأبوة حقها الكامل، مائة بالمائة.. فلم يفوت أي اجتماعات آباء.. ولم يتوان لحظة في إجابة نداء أو خطاب جاء من المدرسة.. ومع ذلك أخذ لنفسه كل الإحتياجات اللازمة حتى يمنعها من التطفل.. فإن كان لدى تيرزا زيارة.. يتسلل خارج المنزل.. بل إنه كان يذهب أحيانا فيجلس في الكوخ.. حتى لا يقتحم حياتها الخاصة.. وقلل قدر الإمكان من سؤاله: أين كنت وأين ذهبت. فكان يخدمها

ويرعاها ويحبها في صمت.. مع الإبقاء على مسافة بينه وبينها.

ولكنه الآن لا بد وأن يكسر.. هذا الصمت.. وهذا الأب اللامبال نفسه سوف يقول: لا يا طفلي.. لا يبدو محمد عطا لي فكرة جيدة.

وبينما هو يقف في المطبخ.. ظن أنه ملح برقعة من نافذة الشباك.. فانتظر أن يسمع صوت الرعد.. ولكنه رأى بعد ذلك.. أن البرقة المعتقدة هي الضوء الصادر من الكوخ.. كان يبرق على نحو متقطع.. فتذكر مرة أخرى.. ما الذي كان في الواقع ينوي فعله: كان يريد أن يحضر لإستر كوبا من عصير البرتقال.

فنظر حوله ليرى إن كان قد صب لها واحدا بالفعل.. فهو لم يكن يعرف بالضبط إن كان فعل ذلك أم لا.. ولكنه لم يجد شيئا.

فصب هوفمستر العصير في كأس من كؤوس النبيذ.. والضوء في الكوخ يستمر بشكل متقطع.. فيحدث نفسه: هل تريد هذه الطفلة أن تسبب ماسا كهربائيا؟ هل أصبحت مجنونة؟

وبخطوات ثابتة اتجه هوفمستر إلى الكوخ، والكأس في يده.

وفتح الباب بغضب.. وهناك كانت تجلس.. على الدلو المقلوب.. ممسكة في يدها السلك المتصل بالمفتاح الكهربائي.. فسألها هوفمستر بروية:

- هلا توقفت من فضلك؟

- هل أفعل شيئا خاطئا؟

نظرت إليه والدهشة تعلو وجهها.. كأنها عرفت لأول مرة أنه ليس جيدا في حق الراشدين أن يعبثوا بالضوء.. وكأنها تفعل ذلك في بيتها طوال اليوم.

- نعم، أنت تفعلين شيئا خاطئا.. أنت تعبثين بالضوء.. وذلك منذ مدة طويلة.. ونحن بهذا سنسبب ماسا كهربيا.

- معذرة.. لقد كنت سارحة بأفكاري.. وأخذت عصير البرتقال.. وجعلت ترتشف منه كأنها تشرب الكحول.

- هل هذا العصير من عبوة عصير طازج؟

- ماذا؟

ارتشفت رشفة أخرى.

أظن أنه من آخر العبوة.. آخر كمية موجودة في العلبة.. هل هذا صحيح؟

- إنه عصير برتقال.. وإن لم يعجبك فاتركه كما هو.. ولذلك.....- ثم عقد بين ذراعيه.. وهو يعتقد أنه متسلط.. أنا لا أعرف ما يلائمك في هذا البيت، ولكنني أجد أنك قد جلست هنا في الكوخ لمدة كافية.. وإما أن تذهبي لبيتك.. أو تأتي فتشاركي في الحفلة.

تنهدت.. ونظرت نظرة ناعسة وقالت:

- من هناك إذن؟

نظر إليها نظرة صارمة.. إلى هذه الفتاة التي تجلس في كوخه على دلو.. ولم تهم حتى الآن بالذهاب.

- زملائك.. ومعلميك.. وابنتاي.. وزوجتي.. ومحمد عطا.. أظهرني نفسك.. ولا تنغلقي على نفسك هكذا.. نظرت مرة أخرى هذه النظرة الناعسة.

- من هذا العطا مرة أخرى؟

إنه لا يملك أدنى فكرة عن تاريخها.. ولكنه يعرف أن كل شيء ينাম.. ومن بينهم الطاعنون في السن الذين لم يعد لديهم إدراك لأي شيء.. وهي شابة قد بلغت.. نعم.. بلغت حتى قبل أن تمر بمرحلة المراهقة.

- مغني راب.

- آه.. نعم.

واستطرد هوفمستر قائلاً:

- إنه يغني الراب كالمجنون.. وهو الآن لا يزال يغني.. إستر، سأصطحبك الآن إلى غرفة المعيشة.. وهناك يمكنك أن تكلمي الحديث مع أقرانك.

نهضت واقفة.. ولكن متثاقلة.. ببطء ممل.

- لا يروقني أي أحد.

- إذن عليك أن تتعلمي كيف تحبين الناس.

لقد استغرقه دور المربي.. ولم يعد يخرج عنه.. فهو في الواقع يجده دوراً رائعاً.. واكتشف هوفمستر أن دور المربين هذا يدعمه.. متمثلاً في السخرية الخفيفة.. والنغمة التعليمية لعكازه.. ونظارة القراءة.. وأجهزة السمع.

- أنت أيضا لا تحبني.. لا أحد يجديني لطيفة.
- ليست الحياة سيئة إلى هذا الحد.. صدقيني.. يوجد أناس يكذبون على شخص ما.. وآخرون يكذبون عليه قليلا.
- هل يجدونك لطيفا، سيد هوفمستر؟
- ثم نظرت إليه باستفزاز وتحد.
- من؟
- الناس.
- أجابها هوفمستر بموضوعية قدر الإمكان:
- إن يعرفوني أحبوني.. نعم.. في أغلب الأحوال.
- وهذه حقيقة.. فالناس يجدونه لطيفا.. فأن تكون غامضا بعض الشيء أو أن يجدك الناس لطيفا هما في النهاية نفس الشيء.. والناس يرونه كذلك.. فالأمر أحيانا يتطلب بشدة أن لا تعتبر أحدهم لطيفا.
- وفجأة بدأت عيناها تلمعان:
- هل يوجد أيضا البسكويت المنتزع؟
- ماذا؟!!
- البسكويت المنتزع - أن تلتهم البسكويت سريعا! - اللعبة! هل هي في الحفلة، هل اعتنيتم بذلك؟
- ثم فتحت قمها كأنها الآن تلتهم قطعة من البسكويت.
- وقالت: هم هم هم هم هام.
- ثم استولت عليها هيستريا من الضحك.
- فقال هوفمستر وهو بالكاد يستطيع أن يغطي على صوت ضحكها:
- لا توجد لعبة التهام البسكويت.. عليكم أن تنظموا الألعاب بأنفسكم.
- وهي تواصل الضحك.. بهستيرية.. وأحيانا تلتهم الفراغ.. فوجد هوفمستر أن هذه المسرحية مثيرة للقلق.. وتنبئ عن نهاية مؤلمة.. فأمسكها من كتفها.. وهو يهزها يمنة ويسرة.. ويصيح فيها:
- توقفي.. توقفي عن هذا الهراء الهستيري.
- ولم يلاحظ إلا بعد دقيقة من هز الأكتاف.. أن إستر لم تعد تضحك.. بل هي تنوح.. وربما كانت تنوح منذ فترة.. وعلق مرة أخرى في شيء لم يكن يسعى له.

فبحث عن منديل.. فلم يجد إلا منديلا متسخا.. ولكن
منديل متسخ أفضل من عدمه.
ثم ضغط على يدها وهو يتكلف الود قدر ما أمكنه،
واضعا المنديل في يدها ويقول:

- فلتهدأي.. فليس كل شيء سيء كله.

- ماذا؟

وتوقف النحيب.. ولم تعد أيضا تلتهم بسكويتا غير
موجود.

- ما يؤلمك.. ليس سيئا من كل ناحية.. حسنا، أنت قد
رست.. ولا تأكلين السمك.. ولا يحبك أحد.. ولكن في سن
الأربعين عندما يكون عمرك بنفس عمري تقريبا.. سوف
تدركين: أنا لم أفعل شيئا غير الجنون.. وما زال أسوأ شيء لم
يأت بعد.

مسحت جبهتها بمنديله الملوث.. ثم أعادته إليه.

- لماذا تفعل هكذا إذن.. إذا كنت تعرف كل شيء؟

طوى المنديل وهو يقول:

- ليس كل شيء.. أنا لا أعرف كل شيء.. هدئي من روعك
أولا.. فالأمر ليس بهذا السوء.. إنه.....
لم يكمل جملته حتى نهايتها.. ولم يعرف مرة أخرى.. ماذا
كان يريد أن يقول.

كانت عيناها حمراوين تماما من البكاء.. ولكن ذلك كان
يظهرها بمظهر جميل.. وعندما وصلا عند الباب.. ووجدت
نفسها قد قدمت بدون هدية.. راحت تتصرف بشكل
مأساوي.

وحتى بدون العينان المحمرتين كانت تشع جمالا.. مما
جعل الكلمات تهرب منه في هذه اللحظة فلم يعد يذكر أي
كلمة: لا أحد يحبها.. وهي من ناحيتها أيضا لا تحب أحدا.
تشبثت في كم سترته وسألته:

- سيد هوفمستر، هل صحيح ما قلته؟

- ماذا؟

- أنك تخليت عن الحب؟

أجبرته الفكرة أن يبتسم.. فهي من الذكريات العزيزة على
قلبه.

وقال: أخ.. هذه الأيام؟ كنت حينها لا أزال صبيًا في مقتبل العمر.. وكنت أريد تحقيق شيء.. ولكنني كنت أشك في وجود الرب.. والتقدم ميت بالنسبة إلي.. وكذلك الثقافة والديمقراطية.. ولأنني شاب فقد كنت أحتاج إلى مشروع ما.. إلى خطة.. وعقيدة.. بل حتى الحب كنت قد أعلنت وفاته بالنسبة إلي.. وكان عمري حينها خمسة عشر.. أو ستة عشر.. على كل حال، فقد كنا في فصل الصيف عندما تخلّيت عنه. ثم ابتسم مرة أخرى.. لأنه لم يتذكر نفسه منذ زمن طويل عندما كان في الخامسة عشر من عمره.. ولما تذكر ذلك الآن.. شعر كأنه يفكر في شخص آخر غيره.
لم تتوقف عن التشبث بذراعه:

- وكيف كان ذلك، عندما أعلنت وفاة الحب؟
جعل يفكر.. ثم قال:

- شعرت بأنني مستقل.. أنني منفصل عن كل شيء.. ولم أكن أخشى إلا كل شيء حقيقي.
- حقيقي؟

فقال هو قمستر: لقد قلت أنني كنت أخشاه.. كنت أخشى ما هو حقيقي.
ثم تذكر مرة أخرى الحزن الساكن العميق الذي كان يطبق عليه أثناء تجوله في جبال الألب.. عندما كانت ابنته في العيادة لاسترداد عافيتها. كان حزن صامت جدا.. عميق جدا.. وكذلك مؤلم جدا.. ومن الغريب، أنه لم يشعر بأي هيسيريا.. من التي يراها المرء دائما في التلفاز.. من نساء يجذبن شعورهن.. أو رجال يشعرون بالعجز ولا يحسمون أمورهم إلا بقبضة يديهم.
- وبعد ذلك؟

- ماذا تعنين بقولك: وبعد ذلك؟
كان يريد بذلك أن يتملص منها.. ولكنه لا يجروء على ذلك.

- وماذا بعد ذلك؟ وما الذي تخلّيت عنه أيضا؟
- لا شيء.. فكما قلت: حدث خطأ ما.. فقد كان علي أن أتذكر للحب أيضا بعد أن تنكرت لله والتقدم.. ولكنني فشلت.. وأصبحت خائنا لفكرتي.

لم يتمالك نفسه من الضحك على هذا الكلام.. فهو لا يستطيع أبدا أن يتحدث دون أن يضحك من نفسه.. وهو لا يعرف كيف يقوم بذلك.. كيف يوضح لشخص آخر أحواله الشخصية.. فالإنسان يدل عليه فعله.. ولكن ما يدل علي هوفمستر في الأساس هو مالا يفعله.. فصمته فعل.. كما أن فعله في حياته المهنية: هم المؤلفين الذين لم يكتشفهم.. ثم قال:

- والآن.. الآن أصبحت كبيرا وعلي أن أعود للحفل.. لقد عفا على ذلك الزمن ولا يكاد يستحق الحديث عنه.. وعلاوة على ذلك فإنني قد نسيت معظم هذه الفترة.. والكلمات الكبيرة فقط هي ما أذكرها.. حتى أنني أنسى- كيف كنت صغيرا.. والآن علي أن أقلي السردين. جذبته من ذراعه.. وسألته:

- وماذا إن كان لديك الحق الآن لفعل ذلك؟ فقال: إذن...- ثم تنهد.. لأنه ليس لديه رغبة في إكمال هذه المحادثة.. ليس الآن، ولا في هذا المساء.. سيكون من الصعب عليه أن يكمل هذه المحادثة.. وهو الآن يشعر بالرغبة في نبيذ العنب الإيطالي -... إذن سيكون حق عديم المنفعة.. سيكون حق لا يجلب الخير لأحد.. ولا ينفعه.. حق لن يستطيع المرء أن يكبر به.. ولا يمكن لهذا الحق أن يجعل حياة المرء أفضل. والآن علي أن أعود.. دعيني أذهب. فقالت: أنا أيضا تخلّيت عنه. ولكنها لم تتركه.. بل تشبّثت به أكثر.. وأخذت تسحبه من ذراعه. فقال بكل عفوية.. دون أن يتكلف التفكير:

- لا عليك.. فالناس يفعلون ذلك مرارا وتكرارا.. ولكن مجموعة منهم هم الذين يتخلون عن الحب.. وأحيانا يتعرفون على بعضهم.. وأحيانا لا.. علي أن.... لم يكمل هوفمستر جملة حتى نهايتها.. أمسك وجهها بلطف.. كانت يديه مبتلتين.. وزلقتين بسبب الحرارة والتوتر.. وهو دائما ما يتصبب عرقا بسبب كثرة شربه لنبيذ العنب.. ثم قبلها.. ولكنه لم يستغرق وقتا طويلا فقط في تقبيلها.. بل استغرق وقتا طويلا جدا.

إنه شعور جميل.. يبدو غريبا عليه.. ولكن هذه القبلية في نظره حررته.. ربما كانت زوجته علي حق.. في أن الحيوان لم يمت.. ولكنه كان يختفي فقط تحت نظرات هوفمستر

الصارمة.. وإلا فأين كان طوال هذه السنوات؟ في أي نفق تحت الأرض كان يختفي؟

ولم تتورع هي الأخرى في أن تقبله.. بل أغرمته هي الأخرى قبله بكل شهوانية.. وأكتشف أخيراً أنه الآن على وشك أن يقترب من السعادة.. وكل ما يدور في خلدته هو: النجدة.. كان يود من قلبه أن يصرخ طالباً النجدة.. وهو يحتضن وجه زميلة تيرزا في الدراسة.

ولكنه لم يتوقف.. ولم يعرف لماذا يفعل ذلك.. وهي تدع ذلك يحدث.. لا تمتنع.. وهذا ليس بمستغرب.. فهذا ما يحدث عند إلغاء الحب.. والنظر إليه على أنه تجربة فاشلة.. لن يكون سوى رغبة مستعبدة.. وليدة وقتها.. ذاتية.. تتسلل من بين كل القواعد والآداب متخفية كالثعبان.

أصبح رجل بلا ذاكرة.. غير مدرك للزمان والمكان.. رجل لم يتبق منه سوى مالا يجوز أن يتبقى في رجل في مثل عمره: بقايا شهوة عنيدة متمردة.. ولم يعد شيء مما كان يعتقد وجوده.. موجوداً.. وكل ما يعيش بداخله هو بقايا شهوة يائسة.. لا بد وأن تنطفئ في نهاية المطاف.

كان يفعل ذلك والرعشة تعتريه.. ويشعر بالحماس.. وكل ما كان يتبجح به من مهمات وعصبيات فإنه نسيه.. نسي السردين.. والسوشي.. والساشيمي.. بل حتى محمد عطا قد نسيه.. هو والحرب العالمية الثالثة.. والمحفظة الوقائية.. كل ذلك لم يكن له فرصة معه الآن.

كان يفكر: إنها رطبة.. زلقة.. متعركة.. فرحاً بأنه يجعلها تتعرق.. وبأنه يثيرها.. إنها تريدني.. ولكنني قد استهلكت في وقت مبكر جداً.. لقد استهلكتني العالم في وقت مبكر جداً.. وربما قد فقدت كل شيء.. ولكنني، يورجن هوفمستر، مازلت هنا.

وبينما كان يفكر في ذلك.. أدرك أنه يعيش وأن إغفال الحياة من محتواها للحظة هو الحياة.. ولذلك فإن هذا الآن.. ما يفعله.. هو الحياة.. ولا شيء غيره.. وعليه مواجهة اليأس.. والذي يمارسه معها الآن.. لا يمارسه بشكل جيد.. كما أنه يمارسه بطريقة خاطئة.. ولكنه ليس سيئاً بالنسبة لرجل في عمره.. يفعل ذلك في وقت متأخر من الليل.. في وسط الكوخ.

كان كل همه أن يتحسس جسمها.. وهي كل همها أن تعرف إن كان أحد يشعر نحوها بالقبول.. كانت تسأله: هل تحبني، سيد هو فمستر.. هل تجدني لطيفة؟

وهو يقول: "نعم.. جدا" وضيق التنفس يخنقه.. ويتحدث كأنه كان يجري مسرعاً بل أكثر من ذلك.. أكثر بكثير.. لست فقط لطيفة.. بل حلوة.. حلوة للغاية.

كان يفعل ذلك.. كأنه يفعله دائماً.. يفعله على الأقل مرة في الأسبوع.. كأنها مهنته.. وكالعمل في الحديقة.. كجر الأشياء.. والزراعة.. والحراث.. هذا العمل اليدوي، الذي لم يكن يخجل منه أبداً.. وهذه أول مرة منذ مرض صغيرته.. فأخرجه ذلك من الحزن الصامت العميق.. الذي لم يتركه منذ أن كان يتجول في جبال الألب.. حتى ظن أن هذه هي الحياة: ليست إلا حزن مطبق عميق. ولكنه كان مخطئاً إلى حد بعيد.

نسي- نفسه.. ونسي- الحفلة وكل شيء عنها.. والسوشي والساشيكي.. والوقت.. وحلوق الضيوف الظامئة.. والأمعاء التي يعصف بها الجوع.. وبدي أنه نسي- الحفل للأبد.. ولم يرى أمامه فقط إلا إستر.. زميلة ابنته في الدراسة.

كان كالكلب يلعقها.. متناسياً كل شيء.. هل يكمن الشفاء في النسيان؟ هل وصل أخيراً إليه؟ هل جاء الدور عليه أخيراً؟ مضى يفعل هذه الفعلة بكل شهوانية.. وهي تسأل:

- هل أعجبك؟

نهض واقفاً.. يلهث كالكلب.. وفوق ذلك يسيل اللعاب من فمه على ذقنه ويتناثر على خده وأنفه.. كان وجهه كله مبتلًا من اللعاب وإستر.. فبدا كالغوغاء.
فأجابها:

- نعم.. أنت جميلة.. بل أكثر من مجرد جميلة.

لم يشعر بأي شيء آخر.. ولم ير شيئاً آخر.. بل لم يأبه لأي شيء آخر.. كل ما كان يشعر به هو الشعور الطاعني بوجوده.. متجاوزاً كل شيء.. غير عابئ ولا محترم لأي قواعد للأدب.. لا شيء غير هذه الرغبة التي لا تحفظ شيئاً أو تأبه لأحد.. والتي من الطبيعي أن تكون هي الهدف الأسمى في عقل لا وجود لله فيه.. وهكذا طرقت رأسه هذه الفكرة المجنونة: إن رغبتني هي الإله.. هي الإله الوحيد والباقي.

- إلى أي مدى تجدني جميلة.. سيد هوفمستر.. إلى أي مدى أنا جميلة الآن؟

إن إستر بدون ياء.. تسأله الآن أسئلة.. في هذه اللحظة.. التي قد فقد فيها كل مفردات لغته.. فلم يعد يتكلم فقط الآن، وأخيراً.. بل لا يصدر منه الآن إلا الفعل.. وهي تساعد على هذا الفعل لا تمنع.. تساعد لأنها تريده... هكذا كان يفكر.

ثم سمع وهو على هذه الحال صوتاً ينادي من بعيد:

- بابا! - ثم مرة أخرى -: بابا، أين أنت؟ وفي غضون ثانية، في غضون جزء من الثانية عادت إليه ذاكرته.. أو جزء منها على الأقل.

ثم سمع الصوت مرة أخرى: بابا! ترك إستر متفاجئاً ومرعوباً.. أظلمت الدنيا أمامه.. فلم يدري أين هو.. ولا من هو.. ولا ماذا يفعل.. خرج من الكوخ مترنحاً.. والبنطال يسقط بين رجليه.. فوقف أمام تيرزا.

كانت قريبة أقرب مما كان يتوقع.. فقالت:

- بابا.. يوفروف فلداكامب تريد أن تودعك.. كانت تيرزا تنظر إليه.. ونظراتها تتفرس جميع أنحاء بدنه.. فتثقبه عيناها كأنهما أدوات تعذيب.

لا يزال يتنفس بصعوبة.. ثم رأى الآن أيضاً يوفروف فلداكامب.. كانت هي الأخرى تقف هناك.. وتنتظر إليه.. أولاً مبتسمة ثم تحولت ملا محها إلى طبيعتها الجادة.

وهكذا وقف الأب والمعلمة.. دون حراك.. شخصان في الحديقة.. في ليلة حارة من ليالي أوائل الصيف.. لا يجد أحد منهما كلمة يخرجها من فمه.. بينما حفلة التخرج على أشدها في غرفة المعيشة.

ثم بدأت يوفروف فلداكامب.. بدأت المرأة المسئولة عن النظام في الفصل.. حتى عندما يحدث أشياء غير متوقعة.. فإنها تعني بالنظام.. وهي بنفسها هنا.. هي بنفسها هنا الآن.. قالت:

- سيد هوفمستر.. عندما وصلت هنا كنت نصف عار.. وها أنت هكذا مرة أخرى.

انحني فرفع البنطال.. وأخذ يتحسس الحزام.. ولكنه لم يستطع أن يجد الثقوب.. أين الثقوب؟ ما الذي حدث في الداخل؟ ماذا فعل؟ أين ثقوب الحزام؟ كان يلهث.. فيشم رائحة إستر بدون ياء في كل مكان.. كانت

رائحتها تفوح من كل شيء.. والحديقة بأكملها.. وحتى يوفروف فلد كأمب نفسها.

ولكن هوفمستر قد استعاد رباطة جأشه أيضا.. ولأنه الآن قد غطي نفسه من الأسفل.. فقد عاد إلى طبيعته التي كان ينبغي أن يبقى عليها.. عاد إلى دور المضيف.. رجل السوشي والساشيمي.. والد تيرزا. قال لها:

- سأصطحبك حتى الباب.

- ليس ضروريا.. فمن الواضح أنك مشغول هنا في الحديقة بما فيه الكفاية.

ثم ذهبت يبدو عليها الإبتهاج.. هكذا كانت تبدو. ثم جعلت تنظر حولها مرة أخرى.. وهو يرى في نظراتها أنها ترى المكان بأكمله مدعاة للضحك.. إذ كانت تنظر حولها كأنها تنظر إلى حادث مروع.. وهو يتساءل، أين ذهبت تيرزا. فنادى: تيرزا.

لقد ذهبت إلى الكوخ.. وسمعتها تتحدث مع إستر.. ولكنه لم يستطع أن يفهم من كلامهما شيئا.. وما زال يبحث عن الثقوب في الحزام. فجري نحو الكوخ.. ورجله لا تكاد تحمله.. يشعر بالخطر.. مرتجفا.

مرتبكا من أثر المتعة التي لم يحصل منها على قدر شعرة حتى.. فهو هكذا دائما.. لا يحصل منها على شيء ولو قدر شعرة.

وهناك كانت تقف إستر كما تركها.. لم ترفع بنطالها حتى الآن.

كانت تقف مثل تمثال منحوت.. لو أقسم أنها كانت تقف كالمنصر لما كذب.. بل ربما كانت تقف مسرورة.. وبإمكانه أن يقسم على ذلك.

- بابا.. ماذا حدث هنا؟

هز رأسه مغمغما: لا شيء.. لا شيء مطلقا.

وسحب تيرزا خارج الكوخ إلى الجزء الخلفي من الحديقة.. الجزء المظلم.. حيث لا يستطيع أحد أن يراهما.. حسب ما كان يعتقد.

قال: تيرزا.. عزيزتي تيرزا.. لم تتوقف عن الإلحاح: ماذا حدث؟.. فلم تكن هذه الكلمة "لا شيء مطلقاً" لترضيها وهي تختصر- أشياء كثيرة تريد أن تعرفها.

أخذ وجهها بين يديه.. كما فعل للتو مع إستر.. ولكنها دفعت يديه بعيداً عن وجهها.. وصاحت: ماذا حدث؟ فقال: صه!

ولكنها لم تهدأ.. لم تعد تيرزا تريد أن تهدأ ولا أن تصمت.
- أنا أعرف ما حدث.. أعرف تماماً ما حدث.. فأنا لست غبية.. أعتقد أنني مجنونة؟ إنها في فصلي يا بابا. إستر زميلتي في الفصل.

أجابته هي بدلاً عنه.. تحدثت باسم أبيها.. الذي لم يعد يستطيع أن يتقوه بكلمة.
أراد أن يحتضنها ليهدها.. ولكنها دفعته عنها.. وأخذت تنوح.

على الأقل بدأ الأمر مع إستر بالضحك.. مع التهام بسكويت غير موجود.

سيكون الوضع مريعاً لو بدأت تيرزا في البكاء.. وخاصة في هذا الوقت أكثر من غيره.. سيكون هذا المساء مريعاً لو بكت.. صاحت:

- كيف أمكنك أن تفعل ذلك.. وفي حفلتي.. كيف أمكنك أن تفعل ذلك؟

ثم جعلت تكرر باستمرار: لماذا في حفلتي؟ لماذا في حفلتي؟ لماذا؟

كأنه لا بأس بذلك إن كان جعل إستر تعود مرة أخرى.. في ليلة كثيرة الرعد.. عندما تكون الشغالة من غانا مستغرقة في ترتيب المنزل.. كان الأمر لن يكون بهذا السوء حينها.. ولا بأس بأي شيء عندئذ.

وعلى الرغم من مقاومتها إلا أنه أمسك برأسها.. واحتضنها.

وعليه الآن أن يقول شيئاً.. لا بد أن يفكر في شيء ليقوله.

فقال ببطء: لقد أغوتني.

- لقد أغوتك؟ إنها في مثل سني.. لا بل أصغر مني.. فلا تستطيع أن تغويك.. ليست هذه من تستطيع أن تغويك.. يا بابا.

وانهمرت الدموع.. فمسحت عينيها.. اللتان قد احمرتا لتوهما.. كعينا إستر.

- وحتى لو كان الأمر كما تقول.. ما عذرك في ذلك؟ يالها من حجة واهية!.. أتعرف ماذا أنت؟ أنت إنسان مثير للإشمئزاز، يا بابا.. رجل قذر ومثير للإشمئزاز. ثم واصلت البكاء بصوت أعلى. اضطر أن يسند ظهره على شجرة خوفا من أن يسقط.. فقد انتابه شعور بذلك.

فقال مرة أخرى: لقد أغوتني.
وتذكر مرة أخرى.. كيف كانت رطبة.. رطبة جدا.. ولزقة ومبتلة.. ومتعركة. أراد أن يحكي ذلك لتيرزا.. أراد أن يقول: تيرزا.. عزيزتي.. إستر كانت متعركة.
ولكنه ملك زمام نفسه.. فلم يزد على أن قال: لقد كانت

....

وترك الشجرة.. وأخذ يضع خطوات باتجاه صغيرته.
فصرخت: لا تلمسني.. ابتعد عني.
ظل واقفا.. يفكر في كأس من نبيذ العنب الإيطالي.. الذي سيكون جيدا له في هذا الوقت.

- لن ألمسك يا تيرزا.. أنا.. أنا ... أنا مازلت رجلا أيضا.. ولا أستطيع أن أغير من ذلك.. إنني رجل يا تيرزا.
أغمضت عيناها.. وقالت:

- أنت لست رجلا.. أنت قذر ومثير للإشمئزاز.. هكذا أنت.. كيف يمكنني أن أنظر إليك؟ أو كيف ألمسك؟ وكيف يمكنني أن أتصور أنك أبي؟.. ثم صرخت: ابتعد.. ابتعد.
لا أحد يعرف غير أبي لماذا تصبح تيرزا وقحة وغير ودودة هكذا.

مد يديه إليها وقال وهو يهمس إليها:

- ولكن هكذا هم الرجال.. هكذا هم يا تيرزا.. ولا أستطيع أن أغير من ذلك.. إنني حتى لا أعرف احدا منهم ليس قدرا أو مثيرا للإشمئزاز.. فالرجل قذر بطبعه.
همست إليه:

- ابتعد عني.. ابتعد يا بابا.. أبتعد أرجوك.. أنا متأكدة أن كل شيء سيكون على ما يرام.. ولكن الآن أتركني من فضلك.
ظل واقفا أمام صغيرته.. مترددا.. بينها وبينه بضعة سنتيمترات.. وكل ما يود فعله الآن أن لو يركع تحت قدميها.. فقال بصوت هادئ:

- تعالي معي إلى الحفلة في الداخل.. هيا يا تيرزا.. فلندخل معا..

فكم هي جميلة جدا حفلة تخرجك.. سوف أقلبي سردين مرة أخرى.. وكأن شيئا لم يحدث.. بل إنه لم يحدث شيء أيضا.

همست: اذهب بعيدا عني.
ظل واقفا للحظة أخرى أمامها.. ثم اتجه بخطوات متثاقلة نحو الكوخ.. وقد عاوده الحزن المطبق العميق الذي كان قد تحول بفضل إستر لبضع دقائق إلى سعادة بالغة.. ولكنه هذه المرة لم يعد مطبقا أو عميقا.. ولكن حزنا حارقا كمرض جنسي.. جامح مثل إعصار.. مميت مثل الزلزال.
كان ضوء الكوخ مازال مشتعلا.

وينطال إستر ما زال كما هو لم ترفعه.. ولكنها على كل حال قد جلست على الدلو.

سألها: هل كل شيء على ما يرام؟

ف قالت: أنا الآن أثبول.

لم يلاحظ إلا الآن أن الدلو لم يعد مقلوبا.. وأصبح يشم أيضا رائحة البول.. فعادت إليه الروائح التي كان قد شمها قبل قليل.

لم يعد يريد أن يدخل الكوخ لفترة من الزمن.. ولذلك نوى أن يعود أدراجه سريعا قدر ما أمكنه.

وعاد إلى المطبخ.. وهناك صب كأسا لنفسه.. وبقي لبرهة شاردا لا يفكر في أي شيء.. فقط يستشعر مذاق النبيذ.. وبعد ذلك أحضر طبق الساشيمي الأخير من الثلاثة.. أحضره بكل تلقائية تتطلبها ضرورة الوضع.

ولما عاد إلى الحجرة رأى أن زوجته قد صعدت على الطاولة.. وقد انطفأت معظم الأنوار.. والأطفال يلتفون حولها.. وهي تردد أغنية لدولي بارتون.. ومن غير دولي بارتون ستغني له زوجته.. بالطبع فهي معبودها.
كانت تغني وأحد ثدييها يكاد يكون عاريا.

وبينما تردد.. تتجرد من الملابس.. التي استعارتها من
ابنتها الكبرى.. ومحمد عطا منطو مع نفسه في زاوية.. ثم
أخذت ابيي ملابسها.

ودولي بارتون تغني: جولين.. جولين.. جولين. ولكن
الأغنية لم

تكن ترق لهوفمستر.. لم يكن يريد أية دولي بارتون.. كما
يخشى أن تنفجر إحدى نوبات زوجته العاطفية.. فصاح فيها:

- هيا انزلي.

ولكنها لم تسمعه.. ولم يسمعه أحد منهم أيضا.. فصوت
الموسيقى كان صاخبا.. وضوء المصباح خافت.. والزوجة تردد
الأغنية كأنها تدور حول حياتها: "ولكن بإمكانني أن أفهم
بسهولة / كيف أمكنك أن تستولي على زوجي هكذا / ألا
تعرفني ما يعنيه لي يا جولي."

كان الحماس يغمر الأطفال، زوجة هوفمستر على
الطاولة! وهم يجدونها مثيرة وحارة أكثر من كل ما أعده من
سوشي وساشيمي والسريدين جميعا.. وهم يشجعونها..
ويطلقون الصرخات.. لتقص أسرع.. ولتتجرد أكثر من
ملابسها.. فلبت لهم رغباتهم وتجردت أكثر من ملابسها..
تجردت كثيرا.. خلعت تنورة ابيي.

وهذا ما لم يعاينوه بعد في منازلهم مع والديهم..
فأصبحت زوجة هوفمستر عنصر الجاذبية في هذا المساء.
ذهب إلى حجرة النوم حاملا الطبق في يده.. فوضعه على
الأرض.. وجلس على السرير.. ثم وضع وجهه بين يديه.. فشم
رائحة إستر مرة أخرى.. كانت الرائحة نفاذة.. كأنها معه الآن
في الحجرة.

والآن هوفمستر ينظر إلى الجنس كما نظر تولستوي إلى
الفن في نهاية حياته: عبث إنسان عاطل عن العمل.
وتوالى الحزن المطبق العميق عائدا إلى غابات الصنوبر في
جنوب ألمانيا.. ولم يبق إلا الخجل هو ما بقي لديه مخزيا
وعميقا.. وتمنى لو يملك لهذا الألم الذي يعتصر فؤاده اسما..
فلا بد وأن يكون له اسم ما.. ولكن حتى لو كان له اسم
فسيظل ألما.. هذا الألم الذي يذكره برائحة عورة زميلة تيرزا.
لا بل إنها رائحة تيرزا نفسها.

ظل هوفمستر جالسا بلا حراك على سريريه في الغرفة..
أسيرا في منزله.. يسمع صوت الموسيقى.. ويخترق سمعه
صوت الباب عندما يفتح ويغلق.. يستمع إلى صوت تيرزا..

وصوت الضيوف الذين لا يعرفهم.. وهم يُودَعون.. والحفلة في طريقها ببطء إلى نهايتها.

تأقت نفسه إلى كأس من النبيذ.. ولكنه لم يجرؤ على الذهاب إلى

الأسفل.. فعليه أن يبقى هنا حتى يذهب الجميع.. ثم سمع فوقه هياج.. فما زال المستأجر هو الآخر مستيقظاً.

وهاجمته الأفكار، عدد لا يحصى.. من الأفكار يطن في رأسه.. ولا يستطيع أن يتحكم فيها.. ولكن كل ما يعرفه الآن

ومستيقن منه.. أن كل آماله قد خابت.. وأنه فقد تيرزا.. بسبب عبثه.. كمغامر عنيد خاطر باللعب ففقد أفضل

وأجمل ما عنده - ولماذا؟ ماذا كان يتوقع؟ أن يضاعف من ثروته؟

كان يشعر بأنه يجلس منذ أيام هنا على السرير.. أو أنه قضى نصف حياته على سريره أمام خزانة الملابس.. فقد أصبح

رجلاً لم يعد يجرؤ على الخروج من غرفة نومه.. وبينما هو كذلك إذ انفتح الباب.. فرفع رأسه متوقعا

زوجته.. ولكنها تيرزا.. حبيبة قلبه.. ملكة الشمس.. ولكنها ظلت واقفة تنظر إلى والدها.

سألته: ما الذي تفعله هنا؟

نظر إلى ابنته.. يتطلع فيها من مفرق رأسها حتى أخمص قدميها، كلما واتته الجراة.. وقال:

- إنني أنتظر.

- ما الذي تنتظره؟

هز كتفيه.. ثم سألها بعد بعض ثوان من الصمت المشحون بالتوتر:

- هل ذهب الجميع؟

- معظمهم قد ذهب.. وبعضهم مازال هنا.. وهم من جاءوا متأخرين.

- وهل أكلوا كل شيء؟

- ماذا؟

- المقبلات.. السوشي.

- لا أعرف، يا بابا.. حقا ليس لدي فكرة عن ذلك.

جالت ببصرها في أنحاء الغرفة.. وهو فمستر يتبع نظراتها.. فرأى أشياء زوجته التي عادت فأخذت مكانها من

السريـر كأن شيئا لم يكن موجودا من قبل.. ونظر إلى قميصه على الكرسي.. وربطة العنق.. وحذاء زوجته.. والصندل.

قالت تيرزا: بابا.

أجابها دون أن ينظر إليها: نعم.

- ما الذي سيحدث الآن؟

- ماذا؟

- معك.

نظر إليها: معي؟ ولكن يا تيرزا، ما هذا السؤال؟

كررت عليه السؤال:

- كيف سيكون الأمر معك؟

هز رأسه: لا تقلقي بشأن ما سيحدث معي.. عليك أن

تعتني بنفسك.

وتذكر قوله لها ذات مرة أثناء مرضها: " كل شيء لا يزال

متاحاً أمامك.. والمستقبل كله بين يديك." كأن هذا المستقبل

هو الحجة المقنعة التي ستمنعها من أن تجوع نفسها حتى

الموت.

أفرز جسم هوفمستر عرقاً من كل مكان.. نظر إلى المرأة

فرأى بقعاً مبتلة تحت إبطيه.. فلابد من هذه النفائات

المبتلة بعد ليلة طويلة كهذه.

- ما الذي حصل لك؟

لم يأت صوت ابنته موبخاً.. بل مستفسراً.. يعتريها

الفضول.

- متى؟ أي شيء قد حصل لي؟

- ما كان للتو، مع إستر، ما... ماذا كان هذا؟

مسح على وجنتيه.. وفمه وجبهته.. وهو يود أن يقول

شيئاً.. ولكن ذكرااته تخونه فلا يتذكر شيئاً.. فما كان يتحدث

بداخله هو الحيوان.. ولكن يبدو أنه الآن قد فقد القدرة على

الحديث.. فلغة الحيوان لا كلام فيها.. ليس فيها إلا اللدغ

واللعق.. ثم النهش والبصاق.. ولكن أن يتحدث الحيوان كما

يتحدث الإنسان.. لا.. لا يفعل الحيوان هذا أبداً.

- إن هذا الإهذيان الذي فعلته.. لهو سيئ بما فيه

الكفاية.. ولكن أن تفعله في حفلتي!

نظر إلى البلكون.. فقد كانت أبوابها لا تزال مفتوحة.. ثم

قال

بيطء:

- لقد كانت ليلة جميلة.. والكل قد استمتع فيها.. لقد اعتنيت بهم جميعاً.. لم يكن أحد ينقصه شيء.. كان هناك الكثير من السوشي.. وكذلك الساشيمي.

- بابا.. أجبنى.

- كيف قلت؟

- ماذا حصل لك! كيف تفسر.. ذلك! ماذا بك! هل أصبحت تعاني من شيء ما؟

هز كتفيه.. فهذه حركة لازمة له.. وبينما هو يقوم بهذه الحركة للمرة الثانية كأنها جواب على سؤالها.. جلست تبرزاً بجانبه على السرير.. ولكنها لم تقترب منه.. بل جعلت بينه وبينها مسافة، ولم تلمسه.. قالت:

- أنا لا أريد أن تصبح من أجلي شخصاً مختلفاً.. ليس بعد الآن يا بابا.. إذ لم يعد للألم وجود في هذا البيت.. بالنسبة لي على الأقل.. وأنا لا أريد أن أصبح يتيمة.. أريدك أنت يا بابا أن تبقى.. فأنا ما زلت صغيرة جداً على أن أعيش يتيمة.

ود لو يصرخ من أعماقه حتى يقطع الصراخ نياط قلبه.. كجندي مصاب.. لا يصرخ إلا طلباً لرصاصة تجهز عليه، فترحمه مما يعانیه.. ولكن رفقاءه لا يجدونه.. فهو.. هوفمستر لا يمكن الكشف عنه.. أو لنكون صادقين: لا أحد يبحث عنه.

قال بصوت أهدأ:

- أنا كما كنت.. كل شيء أيضاً كما كان.. لم يتغير أي شيء.

- ولكنني في الحقيقة أجذك الآن مقرفاً وقذراً.. لقد أصبحت قذراً في نظري.

وبرغم هذه الكلمات إلا أنه طوقها بذراعيه حول رقبتها.. وللحظة اعتقد أنه الموت.. إنه يعرف يقيناً ما هذا: إنه الموت.. فقال لها:

- تعالي.. فلنذهب إلى الأسفل.. فلنذهب معاً إلى الأسفل.. إن شيئاً لم يحدث.. أنا وإستر كنا نلعب سوياً.. وتصادعت حدة اللعب فنسينا أنفسنا.. وهذا يمكن أن يحدث.. وخصوصاً في الحفلات.

أراد أن ينهض.. ولكن عليه أن يستجمع قواه وشجاعته لكي

يقوم.. وبينما هو يفعل ذلك.. كان يحاول بكل ما له من إدراك أن يفهم مغزى كلمة " قذر " .. فهو يشعر أنه دائماً ما كان قذراً.. تجاه نفسه وتجاه الآخرين.. وما كل محاولاته للتقرب من الآخرين إلا محاولات للتخفيف من القذارة.. فجاءت هذه الكلمة التي خرجت منها فجأة كالبرق لتصف، على ما يبدو، جوهر وجوده.. وعنصرًا دائماً في شخصيته.

- وماذا كنتم تلعبون إذن؟

فهمس:

- كانت لعبة يا تيرزا.. لعبة.. على المرء أحياناً أن يتقمص دور شخص آخر.. وهذه ظاهرة صحية.. يجب أن يكون المرء مرناً فيما يتعلق بهويته.. فالمجانين وحدهم هم من يبقون على حالهم طوال الوقت.. وأنا والدك وأنت ابنتي.. أنت حبيبتى، وصغيرتى.. والابنة الأحب إلي.. ولكننا نلعب أحياناً.. وحينها نكون أشخاصاً آخرين.. فتكوينين أنت على سبيل المثال ملكة الشمس وأصبح أنا كبير الكهنة.. إننا لأبد وأن نلعب، حتى لا نصبح مجانين.. ولا نفقد عقلنا.. وليس لدينا خيار في ذلك.. فكلما كان المرء أكثر ذكاء.. كلما استطاع أن يلعب بشكل أفضل.. وأنت ذكية جداً.. لذلك فأنت تلعبين أيضاً بطريقة جيدة.

إنه عندما يفكر في كلمة " قذر " فإنه يفكر في رهاب القذارة ويفكر أيضاً في نفسه: فهو رجل يعاني من رهاب القذارة.. رجل جسمه بالنسبة إليه ليس إلا حمام عمومي قذر.. وكلما انحدر هذا الجسد في مزالق القذارة.. كلما اشتدت الفوبيا.. التي هي في نهاية المطاف لا تعدو عن أن تكون تقززاً من الجسم.. قالت له:

- أنا لا أفهمك.. ولكن لا يهمني ذلك مطلقاً.. وأنا أعتقد أن الأمر ليس بهذا السوء.. فقط لو لم تظل تنكر كل شيء.. كان يمكنك فقط أن تقول: أنا آسف.

فقال: ولكنك تفهميني.. أنت تفهميني جيداً.

كانت لا تزال تضع يديها حول عنقه.. وهو لا يزال تهفو نفسه أكثر من ذي قبل إلى كأس من النبيذ الإيطالي.. فسوف يجعله صب الخمر في الكأس يشعر بالاسترخاء.. وكذلك فتح الزجاجة.. قالت:

- أنا أحتاجك كأب.. أتفهمني.. أحتاجك كأب.

همس إليها:

- أنا أحتاجك أيضا يا تيرزا.. أحتاجك أيضا.
وضغط بقبضته في قمه وهو يعض عليها.. يعض مثل
حيوان يظن نفسه قد انتصر.. هذا المخلوق الأبكم.. الذي
يحيا بداخله.

مازال صوت الموسيقى يخترق أذنه قادما من الأسفل.
سألته: هل كنت سكرانا؟
فقال مغتتما الفرصة:

- نعم.. لقد كان ذلك هو السبب.. الكحول.. نعم لقد
كان الكحول.

وهو الآن يستطيع أن ينهض.. ولديه القوة الآن.. فقد
وجد جوابا بسيطا ودامغا.
ولكنها لم تدع عنقه.. لم تترك له مجالا لذلك.

- إذن فأنا لن أضطر أن أقلق عندما أسافر إلى إفريقيا؟
قال: لا.. لماذا ستضطرين للقلق؟ بشأن من؟ بشأنى؟ لماذا؟
- كل شيء سيظل على ما يرام.. حتى وإن لم أكن
موجودة هنا؟ حتى ولو ذهبت ماما مرة أخرى؟ لن تحيد عن
الطريق؟ وستظل تحترس لنفسك جيدا؟

قال: بالطبع.. سأواصل حياتي.. وكما كنت أعتني بك..
سوف أعتني أيضا بنفسى.. حتى عندما تكونين في إفريقيا.. أنا
لست بحاجة إلى أحد.. سأواصل حياتي المضحكة.. أأست
تعلمين ذلك؟

قالت: أخ بابا.. أنت بالكاد يمكنك فعل ذلك.. مواصلة
الحياة.. فأنت لا تديرها.

لاحظ أنها تبكي ولا تزال يداها على عنقه.. وهو لا يزال
يضع جزءا من قبضة يده في فمه.. فهذا يهدئ من روعه..
ويصبح أكثر قدرة على ترتيب أفكاره عندما تنغرس أسنانه في
لحمه.

- لماذا يا ترى قد أنجبتنا؟
عض على يديه بشدة.. حتى يرى جيدا أثر أسنانه على
جلد يده.. وقال:

- لقد كانت فكرة أمكما.. ولكن بمجرد أن رأيتهما.. حدث
ذلك.. كنت مترددا.. كأنني في مهب الريح.
- أوه.

نهض، ومسح على قميصه بلطف.. وأدخله بأناقة في البنطال.. وهو يعتقد في هذه اللحظة أن كل الأمور قد عادت تحت سيطرته مرة أخرى.. وأصبح مرة أخرى هو الوالد.. الذي كان يريد في هذه السنوات الأخيرة أن يكون عليه.. الرجل الذي اعتبر الأبوة وظيفة.. وظيفة يعيش بكل طموحاته فيها.. رجل متحفظ ولكنه جذاب.. وبين التلاعب بالألفاظ يختفي الاهتمام.. وبين الحماقات والطرف، التي يمازح بها ابنته وأصدقائها يختفي الحب.. الذي لابد وأن يظل حقا مشروعا.. سألها:

- وماذا سيحدث إن كنت تمشين في إفريقيا مع محمد عطا ثم قابلكما زنجيا بطوال مترين.. فوجدتيه رائعا؟ إذن - ماذا ستفعلن حينها؟

قالت: حينها سأكتب لك بطاقة.. وأكتب لك فيها: مرحبا بابا.. لقد قابلت للتو زنجي بطوال مترين.. وأنا أجده رائعا تماما.

سمع صوت لحن يأتي هادئا من بعيد.. لحن أغنية: أنا أجذك جميلا.

لقد أعادو تشغيل الموسيقى مرة أخرى.. وكل شيء بدأ مرة أخرى مثل أول الحفل.

اتجه نحو الباب وهو يقول:

- تعالي.. هيا.

وطبق الساشيمي لا يزال على الأرض.. ولكنه تركه لم يقربه.. ثم نزل الدرج متوخيا الحذر كرجل عجوز.

كان عدد من الضيوف، خمسة منهم أو ستة، لا يزالون في غرفة المعيشة. وميفروف فان دلفن تقف مع أحد الطلاب في إحدى الزوايا تتحدث معه.. والفوضى تعم أرجاء المكان.. كؤوس.. ومماسح الأيدي.. وبقايا السمك الطازج.. وعلى الأرض أرز كثير متساقط.. وكذلك كؤوس كثيرة.. وزجاجات خمر.. وما بقي من الأطباق المزخرفة.. وعلى الحائط بجوار طاولة الطعام تستند زوجته واقفة أمام شاب.. لا يستطيع هو فمستر أن يتعرف على وجهه.. غارقان معا في قبلة.. أما محمد عطا فلم يستطع أن يعثر له على مكان.

كل ما في الغرفة يوجي بجو الحفلة.. حفلة الأمس.

التفت إلى تيرزا وسألها:

- أين محمد عطا؟

فقالته وهي تؤكد على نبر كلامها:

- شكري.. لقد ذهب شكري.. لقد جعلته يذهب للمنزل.. فلم أرده أن ينظر لهذا المنظر لوقت طويل. وأشارت إلى أمها.. التي تنم الحركة العارضة منها عن الكثير مما بداخلها.. الأم التي لم تستطع أبدا أن تسيطر على نفسها.. بل التي لم ترد أبدا أن تسيطر على نفسها. رأى هوفمستر كاسا ممتلئا لنصفه على منضدة صغيرة بجانب الأريكة.. فأخذه وشربه بنهم.. ثم قال:

- سأوصلكما.. أأستم ستسافران من فرانكفورت؟ سأوصلكما إذن إلى المطار. جاء هذا الإلهام مفاجئا.. ولكنه أمده بطاقة جديدة.. فقد أعاد إليه الأمل من جديد.

- ليس ضروريا.. فالقطار سيوفي بالغرض. قال هوفمستر: لا.. لا.. دعيني أكون معكما.. ثم نقضي ليلة في بيتوفي، في منزل جدك وجدتك.. وبذلك نقضي غطلة الأسبوع معا.. قبل أن تسافرا.. أما بشأن محمد عطا فلم أكن أعني ذلك.. إنه فقط يشبهه كثيرا.. وهو ليس بيده شيء في ذلك.. لذا فلا تضعي ذلك في بالك.. لا تضعي في بالك أي شيء.

قالت تيرزا: سوف نرى.. سوف نفكر بشأن ذلك. واستغرق الأب وابنته في التحديق في زوجة هوفمستر.. فقد كانت في عالم آخر.. عالم تتزواج فيه الشهوة مع السكر. سأل هوفمستر تيرزا:

- هل تعرفين هذا الشاب؟ أومأت تيرزا برأسها.. وقالت:
- بابا.. لقد انتهى الحفل.. ألا تظن ذلك أيضا؟ .. لقد انتهى.. وعلينا أن نرسل الضيوف إلى منازلهم.
- نعم.. أنت محقة.. فلنرسلهما إلى منازلهم.

كانت حفلة تخرج ابنة هوفمستر الصغرى على وشك نهايتها.. ولكنها تحتاج إلى من يسرع من نهايتها.. فأضاء هوفمستر النور مرة أخرى.. وأخفض من صوت الموسيقى.. وأخذ يجمع الكؤوس الفارغة.. تلتصق بها يده.. كما تلتصق ملابسها مع جسده.. وشعره برأسه.

فنادته زوجته: يورجن.. هلا لابد من هذا الضوء الساطع؟

اتجه نحوها وهو يحمل ثلاثة كؤوس من النبيذ مقدسة فوق بعضها. لم تعد متجردة من ملابسها كما كانت للتو على الطاولة.. عندما كانت تحاكي دوللي بارتون.. ولكنها لا تزال غير متحفظة في ملابسها.
قال لها وهو يؤكد على نبر كلامه:

- الحفل قد انتهى.. هذه هي النهاية.. مضى الحفل.
نظر إلى الشاب.. كان هو نفس الشاب الذي قد أكل معه ذات مرة.. الشاب ذو الاسم القصير.. الاسم ذو المقطع الواحد.. ولكنه قد نسيه مرة أخرى.. إنه واحد من الشباب الذي كانت تيرزا تقول عنه: إنه سيبقى الليلة هنا للعشاء.. ولكن على ما يبدو أنه كان يفهم هذا الأمر أيضا بشكل خاطئ. فماذا تعني في الواقع "سيبقى للعشاء؟".. هذا يعني في عالم تيرزا "سيبقى للأكل"، وربما أكثر من مجرد الأكل.. اللعنة! والآن ماذا يعني "سيبقى للأكل؟"
قال هوفسمتر:

- أيها الشاب.. من فضلك قم بوداع زوجتي.. لقد كانت حفلة جميلة.. ولكنها الآن قد انتهت.
- بهذه اللهجة الرسمية يا يورجن - أنت حقا من الماضي.. لو أراد أن يبقى لحظة أخرى.. فسيبقى.. فهذا أيضا منزلي.
هز هوفسمتر رأسه ببطء قائلا:

- لا.. لم يعد كذلك.. فبيتك هو المركب.. وأن تصبحين غير مرحب بك هنا.. فأنا لا أستطيع أن أغير من ذلك شيئا.. ولكن هذا المنزل لم يعد منزلك.. وأنت هنا ضيف.
وبينما كان يقول ذلك.. تذكر كل الليالي، التي كان ينتظر فيها زوجته.. بل وتذكر أنه كان مولعا بها.. كان مولعا بها جدا في البداية.. ولكن هذه الذكريات تمزقه من الداخل.. فتحيله إلى أجزاء مقطعة.. لينة وسائلة.. أكثر سيولة من كل أنواع نبيذ العنب الإيطالي مجتمعة معا.
نظر إليها، وهو يشعر بشيء يدفعه، لكي يلمسها لبرهة.. فقط

لبرهة قصيرة. الحطام.. إنها حطام.. لقد عرف هذا منذ النظرة الأولى.. إن هذه هي المشكلة.. فزوجة هوفسمتر عندما ينظر إليها.. هي الحطام الأشد وضوحا.. وكلما ينظر إلى هذا الحطام الباد للعيان يرى فيه حياته.

لم يتفوه الشاب بكلمة.. كان في حالة سكر شديد.. ولم ينظر إليه حتى بغضب أو بازدراء.. كأن دوار الخمر الذي سيصيبه في الصباح التالي.. قد أصابه الآن. ولكنه ولي خارج البيت مذهولاً.. دون وداع.. ولم يلتفت حتى للزوجة.. كأنه قد نسي أين كان غارقاً قبل دقيقتين.. بل أقل من الدقيقتين. سمع هوفمستر صوت الباب وهو ينغلق.. فقال في نفسه: ربما هي تيرزا.. تودع آخر الضيوف.. سأل زوجته:

- ألا يمكنك أن تكفي عن ذلك؟ هل لابد وأن تشركي الآخرين دائماً في لعبتنا؟

ثم مسحت عن فمها.. ولا تزال رموشها الاصطناعية لا بأس بها.. ولا تثير أي إزعاج.. بل حتى في هذا الضوء الساطع لم يبد منظرها سيئاً جداً.

إذا لم يكن الشخص يعرفها، فلا مشكلة. وإذا لم يكن الشخص له ماضٍ مشترك معها.. فإن نظره سيسقط على أشياء أخرى.. سألته:

- أي لعبة يا يورجن؟ عم تتحدث؟ .. إن كل شيء ليس سوى مجرد لعبة.. ولكن إذا كان كل شيء ليس سوى مجرد لعبة.. فلن يعود هناك لعباً.. وقد لعبنا منذ سنوات عديدة.. وقد كنت دائماً من الماضي.

ثم سمعا صوت قرع أحد أبواب المنزل.. فالتفتا. قال: فلن فعل... فلن فعل ذلك مرة أخرى كما كنا نفعل قبل ذلك.. وحجرة المعيشة هي الفوندل بارك.. والليل يقبع في أرجاء المكان.. وأنا الحيوان.. أنا الوحش.. الذي يأتي ليمزقك.. أنا الحيوان الذي سينقض عليك.. دعيني أكون أنا الحيوان.

صاحت: لا.. توقف. ألا تفهم؟ ألا تفهم أي شيء أبداً؟ أمسكته من ياقته، وأخذت تهزّه بكل ما أتيح لها من قوة.. تطوحه للأمام والخلف.. حتى كادت الكؤوس أن تسقط على الأرض.

- نحن لا نلعب.. وذلك لأننا قد صرنا حطاماً.. نعم صرنا كذلك يا يورجن. كم مرة علي أن أقول شيئاً قبل أن تستطيع إدراكه؟ .. لم أرجع إلا لأنني لم أعد أستطيع أن أذهب إلى أي مكان.. فلم يعد أحد يرغب في يا يورجن.. لا أحد.. أتفهم؟ هل تفهم الآن؟

ثم تركته.. وهو يغمغم:

- لا.. لا أفهم ماذا تعنين.

كأنه قد تلقى للتو اتصالا غريبا.. ثم ذهب إلى المطبخ.. ولا يزال شابان يجلسان على الأريكة.. أجسادهما تتقاطع.. ويبدو أنهما نائمان.. وباب المنزل كان مفتوحا.. وهو يسمع صوت تيرزا قادمة من الشارع.

أسرع فصب كأسا من النبيذ.. وذهب إلى الحديقة.. كانت الشموع قد احترقت حتى آخرها.. وسوف ينطفئها غدا. ولم يكن غير نور الكوخ هو الذي لا يزال مضيئا، فأراد أن يطفئه.. ولكنه عندئذ رأى إستر هناك جالسة.. على الدلو.. وإن كانت قد لبست بنطالها الجنز الآن.

حديق هو فمستر فيها.. ولكن ليس كعاشق.. ولكن كمضيف.. والد من تخرجت.. أب ودود.. قال:

- لقد انتهى الحفل.. وذهب الكل إلى منازلهم.. ومن الأفضل أن تذهبي الآن أيضا.

نظرت إليه مبتسمة.. ترمقه من رأسه حتى أخمص قدميه.. تبدو متكبرة.. كأنها أعلى منه مقاما.. كأنها أعلى بكثير من هذا الرجل العجوز.. الذي لم يكن أبدا في وفاق مع جسده.. بل ربما عليه أن يعترف أنه لم يكن في وفاق مع أي شيء.

إنه لا يعرف كيف ينبغي عليه أن يفسر.. ما حدث منه وهذه الأحداث.. ولكنه يود لو يعرف. وحتى في مثل هذا الوقت فإنه يبحث عن تفسيرات من شأنها أن تؤدي إلى تبريرات ومجاملات.. إنه رجل يبرر تصرفاته.. ويهنيئ نفسه على ضعف ذاته.

- هل يمكنك أن تتصل بسيارة أجرة؟

- إلى أين ستذهبين؟

- إلى أمستلفين.

- أمستلفين..

كرر الكلمة.. كأنها قالت "سأذهب إلى المريخ".. ثم ذهب إلى المطبخ، واتصل يطلب سيارة أجرة.

كان باب البيت لا يزال مفتوحا.. وتيرزا تقف في الشارع تتحدث

مع أحدهم.. مثلما كانت تفعل في الماضي.. فعندما كانت تخرج لتودع أصدقاءها أو صديقاتها بعد الطعام.. كانت تظل واقفة معهم على الرصيف طوال ساعة.. سواء كان الجو باردا أو المطر يتساقط.

سمع من ينادي: يورجن.. يورجن.
كانت زوجته.. تنادي بصوت أحش واحد في نفس الوقت.
وكانت تحمل كؤوساً وأطباقاً وزجاجات فارغة إلى المطبخ.
فقد كانت تعمل في حانة.. عندما كانت شابة.. عندما كانت
في أوج شبابها.
فتحت سلة القمامة.. وألقت فيها بقايا الساشيمي..
وأسماء سردين كاملة وأعقاب السجائر.
فقال لها: سأوصلهما.. سأقل تيرزا و.... وصديقها.
- ماذا؟

- سأقلهما إلى المطار - إلى فرانكفورت.. حتى يستريحا في
السفر.. ثم نقضي عطلة الأسبوع في جزيرة بيتوفي.. فلا بد أن
أعود إلى هناك.
أومات برأسها.. ولكن كان يراوده شعور بأنها لم تكن
تنصت إليه.
قالت: سنقوم بالباقي غدا.. فالخادمة ستأتي غدا.. وسوف
نسألها بكل بساطة إن كانت ستبقى لفترة طويلة أم لا.. فقد
كانت تفعل ذلك في الماضي من حين لآخر.. ولم يكن هناك أية
مشكلة.

فتح الزجاجاة الأخيرة من نبيذ العنب.. ثم سألها:
- كم من الوقت ستمكثين؟
- هل تعني هنا؟ في المطبخ؟ أم في المنزل؟
- نعم.. هنا. في هذا البيت.. فأنا أريد أن تعرفيني بذلك
على مهل.
هزت كتفها وقالت:

- لا أعرف.. لقد قلت لك: لم أعد أستطيع أن أذهب إلى
أي مكان.. ماذا أفعل؟.. ونحن في هذا الأمر متشابهان.. لم
يعد أحدهما يستطيع أن يذهب إلى أي مكان.
ثم أمسكت بيده.. كانت دافئة ورطبة بعض الشيء..
فأدرك الآن.. أنهما لن يمكنهما بعد الآن أن يلعبا لعبة
التحطيم. إنهما هكذا - ولكن كيف ينبغي عليه أن يتصور
العلاقة بينهما؟ ليس لديه فكرة عن ذلك.. هل أصبح في الأمر
شيء مختلف عما كان عليه في الماضي؟
قالت: هكذا الحال.

ولكنه لم يعرف عن أي حال هي تتحدث.. إنه دائماً لم يكن يعرف أي شيء.
ثم واصلت تكمل كلامها:

- ولكن إن كنت تريد.. وإذا لم يكن في حياتك امرأة أخرى.. فيمكنني أن أخلع ملاسبي- أمامك ببطء.. قطعة قطعة.. وأنت تنظر إلي.. إن كان ذلك سيثير فيك شيئاً.. سأفعل ذلك مقابل السكن والطعام.

هذا هو الحطام مرة أخرى.. واضحاً تماماً كما من قبل.. تسأل، منذ متى وقد تداعت هكذا.. منذ متى تفككت هكذا.. وهل هذا لأنها لم تعد تستطيع أن تذهب إلى أي مكان؟.. ولكن إن كانت هي قد أصبحت بقايا أطلال.. فماذا هو إذن؟ لماذا لم ينجح في أن يكون عجوزاً كالآخرين؟ وأن يساويهم في الكرامة أو أكثر أو أقل.. لماذا لم يكن لديه نفس البديهة التي تملكها الحيوانات.. هذه البديهة التي تقول بأن الجسد لابد وأن تنتهي صلاحيته.. وهذا ينطبق على جسده مثلما ينطبق على أجساد الآخرين.

- بابا.

كان يجد صوت تيرزا جميلاً جداً.. إنها تناديه مثلما كانت تناديه في الماضي وهي تجلس على القاعدة.. أو عندما كانت تناديه من حجرتها لتسأل عن شيء عرض لها في واجبها المدرسي.. أجابها منادياً:

- أنا قادم.

وهو يظن أن سيارة الأجرة ربما قد جاءت.. ولذلك قد نادته.. لقد جاءت سيارة الأجرة.. ذهب إلى الكوخ.
وقال لإستر التي لا تزال جالسة على الدلو:

- سيارة الأجرة التي طلبتها.

لم تنهض.. ولم تنظر إليه حتى.. فسألها:

- هل لديك مال لسيارة الأجرة؟ كم يكلف بالضبط حتى أمستلفين؟

واصلت صمتها.

تحسس جييبه بحثاً عن محفظته.. فأخرج منها ورقة بمائة يورو.. وأراد أن يعطيها إياها.. ولكنها لم تأخذها.. وقالت:

- هذا كثير جداً.

- ليس معي أصغر من ذلك.. يمكنك أن تعطيني الباقي فيما بعد.. عندما يكون لديك وقت لذلك.. أو إذا جئت مرة لنأكل معا.. فلتأتي لزيارتنا يوما ما.

ثم جذبها فأقامها من قوق الدلو.. فبقيت للحظة مرة أخرى قريبة منه.. بين ذراعيه.. وهو يستنشق عطرها في هذه اللحظة.. هذا العطر الأخاذ.. الذي يبذ كل عطر آخر.. فيفوح شبابا وحيوية وأنوثة.. هذا العطر الذي يعطي كل شيء منع منه ولم يمنح له.. ولذلك هو يحبه.. سألها:

- ألا يؤلم المقعدة أن تجلسين طوال المساء هكذا على الدلو؟

- لا تؤلمني مقعدتي.. وهذا ليس أكثر من المعتاد.. ثم أوصلها إلى الشارع عبر المطبخ.. وكأنها جريشة.. وكأنها لا تستطيع أن تمشي بنفسها.. وتحتاج إلى مساعدة.. ولم يعقد على ذراعها إلا عندما أوشكا على الوصول.. كان ممسك بذراعها، كأنها طفل يتلصقا أثناء مرور الطريق، وأبوه قلقا من حركة الطريق.. فجذبه بقوة فكان الجذب قويا بعض الشيء.. فرفعه عاليا قليلا.

كانت تيرزا تقف في الشارع، وتتحدث مع أحد الشباب.. ولكنها تجاهلت والدها.. ولكن سيارة الأجرة لم تكن قد أتت بعد.. فلم يفهم لماذا كانت تيرزا تناديه.. ولكنه أيضا لم يجرؤ أن يسألها.. فهي تتحدث الآن.. وعليه أن يدعها في هدوء.. ثم خرجت ميفروف فان دلفن من المنزل.. وفتحت دراجتها.. ولوحت بإشارة قصيرة إلى تيرزا.. ولكنها تعمدت النظر إلى هوفمستر وإستر. وقد جرح ذلك مشاعره.. فإن ظل أحدهم يحدق فيك هكذا.. يضطرك حينها إلى التخفي.. فنادها:

- إلى اللقاء، ميفروف فان دلفن.
لم تلتفت إليه.. وعلقت قفل العجلة على المقود.
فنادها مرة أخرى:

- إلى اللقاء، ميفروف فان دلفن.. وشكرا لقدومك الحفل.
مرة أخرى لم تجبه.. ثم بدلت بالدراجة مبتعدة.. كأنها لم تكن في بيت هوفمستر.. ولكنها كانت في زيارة لجيرانهم.
إن هذا الحزن لم يعد بعد الآن مطبقا وعميقا.. بل أصبح ألم حاد يشعر به.. ألم الفراق.. والرفض.. والفشل.. فالتفت

للفتاة قائلاً لها عندما وصلت ميفروف فان دلفن إلى زاوية الشارع:

- إنها امرأة عاطفية.. ومتحفظة جداً.
وهكذا انتظر هو فمستر وإستر في الشارع.. شارع.. الفان إيجينز شترات.. أرقى شارع في أمستردام.. مما يجعله أفضل شارع في هولندا. عاش وما زال يعيش فيه. وظلاً منتظرين دون أن يلوح لهما في الأفق أي شيء.
وأخيراً جاءت سيارة الأجرة.. وكانت تيرزا حينها قد عادت إلى المنزل.. فمسح على خد إستر وسألها:

- أين تسكنين؟

فلم يحصل منها على جواب.. لم يحصل منها إلا على نظرة متعالية.. ولكن ليست في نظره، خالية من الحب.. فذكرته هذه النظرة برغبته فيها.. وطالما فكر في ذلك.. فإنه حتماً سيتذكر مفاتيحها.. ويده التي كانت تعبت بها.. وكم كانت رطبة هذه المفاتيح.

وبدى له أن كل ما زال يملكه من كرامة، أو حق إنساني.. قد تكشف له في المفاتيح الرطبة لهذه الفتاة.. وكأنه استعاد كرامته عندما لعق منها هذا العصير اللزج.. وعندما لم يكن أباه لميفروف فان دلفن ولا للناس الآخرين.. ولو حتى للحظة.

كرر سؤاله عليها وهو يضغط على ذراعها:

- أين تسكنين؟

فأجابته إستر بدون حياء:

- في مكان ما في أمستلفين.

فقال هو فمستر لسائق الأجرة: إلى أمستلفين.
فنظر السائق إليه نظرة.. أحس هو فمستر منها أنها نظرة شك وازدراء.

فكرر على السائق قائلاً "أمستلفين" وهو يتسم ابتسامة رجل لا يضطر من أمامه أن يقلق منه.. وأنطلق السائق مسرعاً.

وهو فمستر يقف ملوحاً.. دون أن يعرف لماذا يفعل ذلك.. ودون أن يعتقد أيضاً ولو للحظة أنها ربما تراه الآن. ولكنه كان يلوح لها.. كما كان يفعل في شيفول عندما يلوح لأحد المعارف الوهميين: حتى لا يجذب الإنتباه.. ولما أراد أن يدخل المنزل وجد الباب مغلقاً.. ولم يكن معه مفتاح.. فكان لابد

وأن يدق الجرس.. فدقه بلطف.. ولكن عندما مرت نصف دقيقة ولم يجبه أحد.. رن الجرس طويلا وبصوت عال.. منتظرا بفارغ الصبر.. على الرغم من أنه لا يريد أن يكون كذلك.. فقد كان يرتجف.

ثم فتحت تيرزا له الباب.. قالت له بلهجة تحذيرية.. ولكن ليست عدوانية:

- قد نامت ايبي.

- هل ذهب الجميع إلى منازلهم؟

- نعم، لقد ذهب الجميع إلى منازلهم.

لم تمش بجانبه.. وأسندت رأسها على القرميد الموجود في الردهة.. قال لها:

- هل أعجبتك هذه الليلة، ياتيرزا؟ هل أعجبتك برغم كل شيء؟

لم تجبه.. لم تزد على قولها:

- برغم كل شيء.

ولكنها نطقتها بنغمة السؤال.. كأنها تقول: ماذا تعني بقولك: برغم كل شيء؟ يا بابا. هكذا كانت تبدو.

أراد أن يدخل إلى المنزل.. فالجو بارد.. فقالت مرة أخرى:

- بابا.. عندما أتوقف عن العيش هنا.. كيف سيستمر الوضع؟ إنني أرغب في معرفة ذلك.

قال لها: دعيني أدخل.

- كيف سيكون الوضع هنا؟

كان هوفمستر يفكر في الوقت الذي كانا فيه في جنوب ألمانيا.. عندما كانت تعالج في العيادة.. وتذكر الكمان..

وحامل النوتة الموسيقية.. والعروض في مدرسة الموسيقى.. وأنه كان دائما أب من الآباء الذين يجلسون في الصفوف

الأولى.. فيحرق إليها باستمرار.. كأنه يقوم بتنويمها مغناطيسيا.. أو كأنها ستعزف مقطوعة خاطئة.. إن شرد

انتباهه عنها ولو للحظة واحدة.. قال لها:

- اعزفي لي شيئا.

- ماذا؟

- على الكمان.. اعزفي لي شيئا على الكمان.

- الآن؟

- نعم.. الآن.
ضحكت، وقالت:

- أنت لست في كامل عقلك. كأنه قد ألقى طرفة على العشاء.. ومعهم صديقتان لها مدعوتان للطعام.. ولكن الطرفة لم تكن مضحكة.. فلم تنل إعجابها.



فقد كان هوفمستر يكرس نفسه لدور المهرج إذا ما بقي صديقاتها أو زملاء الدراسة للطعام أو اللعب.. فحسب تفكير هوفمستر: لا بد على الأب أن يجود بكل شيء.

- هذا مهم لي.
ينبغي على ابنته الآن أن تعزف له على كمانها.. كما كانت تفعل من قبل. وإلا فإنه لا يتذكر أي شيء الآن يخرجها مما هو فيه إلا أن تعزف له صغيرته على الكمان.
- لم أعد أعزف منذ سنوات.
- لا ضير في ذلك.. فأنت لم تنس أي شيء.. لأن مثل هذه الأمور لا تنسى.

- ولكن الكل نائمون الآن.. ماما أيضا في الطابق العلوي.
- سوف يواصلون نومهم.. فقد اعتادوا على ذلك من قبل. فقالت له.. وهي لا زالت تستند برأسها على القرميد:
- بابا.. أنت حقا مجنون.. وما قالته ايبي لي قبل سنوات قد تأكد لي.. أنت حقا قد فقدت عقلك.
ومن بين كل آلافاك الأخرى تساءل.. كيف يكون من الجيد أن يمتلك الشخص والدا قد فقد عقله.. ولكن لأنه لا يعرف تفسيراً لذلك.. فقد قال:

- أنا بكامل عقلي، ياتيرزا.. سليم تماما مثلك.. وأنا فقط أسألك إن كنت تستطيعين أن تعزقي لي شيئا.. ورجاء أن يكون شيئا عاطفيا.. أو شيئا مضحكا بعض الشيء هكذا في منتصف الليل.. ولكن بدون: "أنت لست في كامل عقلك". نظرت إليه، وزمت شفتيها. ولكنه ليس متأكدا إن كانت هذه إبتسامة. ثم همست إليه وهي تنظر إليه بحب وتفاهم: بابا.. أنا أحب أن أعزف لك مرة أخرى.. ولكن ليس الآن.

- ولكن، ياتيرزا.. الآن.. نحن مازلنا في هذه الليلة.. فلتعزفي الآن. صممت لم تتكلم.. حتى هو نفسه لم يكن يفهم لماذا اهتم بذلك فجأة.. وكأنها مسألة حياة أو موت.. سوف تحل الآن كل القضايا الأساسية الأخرى.. وتجعلها في طي النسيان. وما الذي سيكون أكثر أهمية في حياته غير ذلك؟ أخرج المحفظة وقال لها:

- سأدفع لك مقابل ذلك.. مالا إضافيا للرحلة إلى ناميبيا. وأعطاهما كل ما في المحفظة من عملة ورقية وقال لها:
- هاك.. خمسمائة يورو بالتمام والكمال.. يمكنك أن تستخدمهم جيدا في إفريقيا.
- بابا.

مسحت بظهر يدها على خده.. وقالت:
- بابا.. لماذا تلح علي هكذا لكي أعزف لك؟
كان يقف وفي يده العملات الورقية.. لم يكن معه أكثر من ذلك.. وربما لم يحمل معه في حياته أكثر من ذلك.. فقد كان يخفي الورق مدخرا إياه.. حتى لا يضطر أن يطلب من أحد شيئا.. فيدفع.. لأن الحرية في دفع المال.. والدفع هو ما يحفظ الكرامة.. قال لها:

- لأن هذا يشعري بالسعادة.. يجعلني سعيدا جدا. وأراد أن يضع النقود في يدها.. ولكنها رفضت.
إنه من أجل سعادته سوف يدفع بكل سرور.. فالسعادة مرتبطة دائما أيضا بذنب لا يمكن إحتماله.. أو مرتبطة بانحراف.. مرتبطة بشيء لابد أن يفتردي المرء نفسه منه.

لم يعد الآن يشعر بالبرد.. بل أصبح يشعر أن الجو قد صار أكثر حرارة.. وعاد يشعر مرة أخرى بالعرق يسيل على ظهره.

نظرت إليه تيرزا.. ولكنها لم تعد تنظر إليه كطفلة.. ولا حتى كامرأة شابة قلقة.. تنظر إلى الرجل الذي كان يراها، بل كانت تنظر بطريقة مختلفة.. كانت تنظر إليه كما ينظر إليه الغرباء.. أو كما ينظر المستأجر.. الذي يظل مبقيا عينيه على المالك بينما هو مستغرق في التفكير في العرض. تحولت عنه.. وذهبت.. وبقي هو يستمع إلى صوت قدميها وهي تصعد الدرج بسرعة.. كغزال.. فهكذا تصورها هو فمستر.

وفي المطبخ صب لنفسه كأسا من نبيذ العنب الإيطالي.. الذي لم يتبقى منه الكثير هنا.. ولم يعد أيضا باردا.. ولكن سواء أكان باردا أم لا.. فإنه لا يزال يرتجف.. من الإرهاق والإثارة والخجل.

ثم سمع وقع أقدام تيرزا وهي تنزل الدرج.. فنظر نحوها.. فوجد الكمان معها.. تسحبه خلفها.. كبقرة تسحبها للذبح.. ثم مرت بوالدها دون أن تنظر إليه.. ووضعت الكمان في غرفة المعيشة.. وهو يتابع كل ذلك من خلال الباب المفتوح والكأس الفارغ في يده.

ثم ذهبت مرة أخرى إلى الأعلى.. وعادت بالنوتة الموسيقية والحامل.. فوضعتهما أمام النافذة.. ثم أمسكت بالكمان والقوس.. ثم سألته:

- هل تريد ذلك حقا؟ هل أنت متأكد؟
فأوما برأسه مؤكدا.

- هل سيجعلك هذا سعيدا؟
أوما مرة أخرى.

فقالت له وهي تضع القوس مستعدة:
- إذن فلتجلس.
فهمس إليها:

- إجار.. اللحن الذي تحسنين عزفه.. الذي كنت تعزفينه دائما في مدرسة الموسيقى.. إجار.. أليس كذلك؟
لم يكن يعرف، فجلس على الأرض، وعليها تتناثر نفايات الحفل.. من بعض حبيبات الأرز المسلوق، وقطع صغيرة من الخيار المخلل التي قد سحلتها شخص ما.

ولكنه الآن لم يعد باستطاعته أن يطيل الوقوف.. لذلك
جلس ووضع النقود على طاولة القهوة.
أمسكت بالكمان.. وقالت:

- بابا.. أنت مجنون تماما.. هل هذا وراثي؟

- وراثي؟

- هل أنا هكذا أيضا؟ هل علي أن أقلق لأني سأصبح
هكذا؟ مجنونة هكذا مثلك؟

ثم بدأت العزف.

كان يرى منها كتفيها وذراعيها.. وأحد حزامي حمالة
الصدر.. وما أن جلس ينظر إليها حتى عاودته الذكريات..
جلس وجسده يرتعش.. ينصت للموسيقى.. ويتطلع في
ابنته.. ويتذكر كل شيء.. وبينما يستمع هوفمستر إلى
الموسيقى وينظر إلى ابنته الصغرى.. التي تعزف له، تعزف له
هو فقط، طرق رأسه لأول مرة هذا السؤال: لماذا الحياة
مؤلمة بهذه الشدة؟

لماذا حقا كانت مؤلمة جدا هكذا؟.. ولكن لا ينطبق الأمر
على حياة كل أحد.. فمن البشر- أناس لا يعانون في هذه
الحياة.. ومنهم كثير لا يعاني من مشاكل فيها. ولكنه أمعن
التفكير في كل أحوال حياته، حتى وإن كان من المحتمل أن لا
يكون هذا الإمعان دقيقا.. فإنه وجد أنها لم تخلو أبدا من
الأم.. وقد كان يفسر ذلك دائما لأنه ابن مدلل. وحتى الآن،
الآن عندما أمعن التفكير لأول مرة، فإنه كان ولا يزال يشعر
بشيء من العزوف عن الحياة.. يشعر بالإشمئزاز.

لقد كان يملك كل شيء.. ولكنه الآن لا يملك أي شيء..
ولكن حتى عندما كان يملك كل شيء.. فإنه كان يشعر بالأم..
وذكريات حياته ما هي إلا صمت يضيق به الصدر..
وحركة مقيدة.. واضطراب أعصاب.. ورغبات مكبوتة يصعب
الوصول إليها. ثم الطموح الدائم.. لخلق انطباع متحضر-
برغم كل الظروف.. ثم قاطع هذه الأفكار توقف تيرزا عن
العزف.. فوضعت الكمان جانبا برفق.. كما يضع أحدهم طفلا
نام على ذراعيه على السرير، على أمل أن يواصل النوم في
هدوء.

ثم قامت.. وأخذت خطوة نحو والدها.. الذي يجلس على
الأرض.. مثل طفل لا يستطيع بعد أن يجلس على الكرسي أو
الأريكة.. فقال:

- خذيه.

- ماذا؟

وبقيت واقفة تنظر إليه.. وعندها رأت والدها.. والدًا عجوزًا كان من الأفضل أن لا يصبح أبًا.. كان يتمنى أن لم يجري عليه القدر بذلك، أو كما كان يحلو له أن يقول دائمًا: القدر في هيئة امرأة.

لقد فعل كل شيء من أجل غيره: الأطفال.. والمنزل.. وتأجير الطابق العلوي.. ووظيفته.. والإبقاء على ملكية والديه، حتى بعد وفاتهم. بل وحتى امتناعه مطلقًا عن كتابة معايير للشعر التعبيري كان من أجل الآخرين.. لقد كانت حياته من أجل الآخرين.. وذلك اقتناعًا منه بأن من يعيش من أجل نفسه فقط.. فهو كفرد لا قيمة له مطلقًا.. وإن كان قد اكتفى بنفسه وبعمله وشيفول.. لكانت هذه في حد ذاتها هي الخطيئة المميتة حقًا.

- المال.. خذيه.

نظرت إلى النقود الموضوعة على طاولة القهوة.. فأعاد عليها قوله:

- خذيه يا تيرزا.. لقد عزفت من أجل ذلك.. أرجوك خذيه.. لقد وعدتك بهذا.

.. رأى أنها مترددة، لم تجرؤ على الاقتراب منها.. مع أنها قد أصبحت لها.. وهي موضوعة على طاولة القهوة.. ليس عليها إلا مد يدها فقط وأخذها.. هذا كل شيء.. ليس عليها إلا أخذها.. فقال:

- خذوها يا تيرزا.. هيا.. هي لك أنت ومحمد عطا عندما تكونان في إفريقيا.

- شكري.

- شكري.. لا بأس. لك أنت وشكري عندما تريدان أن تذهبا

لتأكلأ طعاما لذيذا.

هزت رأسها، وقالت:

- نحن لسنا ذاهبين إلى إفريقيا من أجل الطعام اللذيذ يا بابا.

- في هذه الأيام يمكن للمرء أن يجد طعاما لذيذا في أي مكان.. حتى في إفريقيا.
وحينها تذكر كيف كان يقف قبل اثنتي عشرة ساعة في المطبخ يقطع السمك الطازج.
همس إليها:

- أرجوك.. أرجوك يا ملكة شمسي.
انحنت فأخذت النقود ثم ذهبت.. فأراد أن يناديها ليقول لها شيئا آخر.. ولكن الشيء الوحيد الذي تذكره ليقوله هو: تصبحين على خير.. فنادها وهو يسمع صوت أقدامها:
- تصبحين على خير يا تيرزا.. لقد كانت حفلة جميلة.
مسح على رأسه.. وما زال يرتجف كالمريض.. فهمس:
- لقد عزفت بشكل رائع.
فنادته من الردهة بصوت هادئ:

- نوما هنيئا يا بابا.
ثم سمع صوت خطواتها وهي تصعد الدرج.
وظل هو فمستر جالسا كما هو لفترة قصيرة.. ثم زحف نحو الكمان.. وحاول أن يستند على حامل النوتة الموسيقية لينهض واقفا.
ولكن المحاولة فشلت.. والحامل الآن فوقه.. أو بالأحرى: هو يرقد تحت الحامل.. ليس لديه قدرة على الوقوف.. ولا حتى القدرة على أن يحرك ساكنا.

وهكذا ظل على هذه الحال مدة.. لا يدري كم طولها.
ولم يدر إلا بعد وقت قصير أنه يحدق في قدمي ابنته.. قدمي تيرزا.. وذلك منذ بضع دقائق أو ربما أطوال.. فمدت يدها نحوه وجذبتة عالياً بمشقة وعلى مضض، كما كان يبدو عليها.. فاحتضنها.. أو هي احتضنته. لأنه كان على وشك أن يسقط.. ثم وقف أخيراً مرة أخرى على ساقيه كالإنسان.. وأصبح المضيف الذي يستند على ابنته الصغرى.. فقالت له:

- أنت مثير جدا للإشمئزاز يا بابا.. وقذر بشكل لا يطاق.
ثم قبلته على أنفه.. وعلى خديه.. وجهته.
كان الأب وابنته في نفس الحجم تقريبا.. فهمس بكلمة.. إلا أنها لم تستطع أن تفهمها. ولم تفهمها إلا بعد أن أخذ يكررها خمس أو ست مرات.. حتى رأى أنها فهمتها. كان يقول: ملكة الشمس، ملكة الشمس، ملكة الشمس.

لم تدعه يفلت من بين يديها.. والقلق باد عليها.. القلق
من أن يسقط مرة أخرى ثم لا يقوم بعد ذلك.. ولا حتى
بمساعدها.

ثم همس هوفمستر بشيء آخر.. همس بسؤال، فأخيرا
أصبح لديه سؤال يوجهه لملكة الشمس، وليس نصيحة.. أو
طرفة سمجة.. أو رجاء. فرمما تحب أن يعرف متي تفكر في
العودة إلى المنزل.. ولكن لأبد من سؤالها.. فهمس في أذنها:

- ملكة الشمس.. لماذا كل شيء في هذه الدنيا يؤلم جدا
هكذا؟ لماذا يصل الألم إلى هذه الدرجة؟

لم تتفوه بكلمة.. ولم تزد على أن هزت رأسها في صمت..
وكان جوابها الوحيد أنها احتضنت هوفمستر مرة أخرى.. في
وسط غرفة المعيشة.. بجانب الكمان والحامل المقلوب.. بينما
ضوء الصباح يزداد ببطء في الخارج.

حتى هي لا تستطيع ذلك.. لا تستطيع تركه.
فهذا الأمر في صميم العائلة.

٣

الصحراء

في مساء يوم الأحد الثالث من يوليو كان على تيرزا
وصديقها أن يركبا الطائرة من فرانكفورت إلى فينדהوك، فقد
كانت تذكرة شركة ناميبيا للطيران هي أرخص تذكرة استطاعا
أن يجداها.. وقد كانا في البداية ينويان أن يستقلا القطار إلى

فرانكفورت.. ولكن هوفمستر استطاع إقناعهما بأنه سيكون من الأفضل والأسرع لهما لو أوصلهما هو بالسيارة إلى فرانكفورت.. وياحبذا أيضا لو قضيا مع بعضهم عطلة الأسبوع في منزل والديه على جزيرة بيتوفي.. فقضاء عطلة الأسبوع على جزيرة بيتوفي هو البداية المثالية لرحلة حول العالم.. وهي بمثابة وداع جميل. وأن يجتمع الكل معا مرة أخرى فهذا يعني أن الكل على وفاق تام - ولكن بالطبع لن تسافر الزوجة معنا.. فهي ليست مدعوة.. وإيبي قد عادت إلى فرنسا منذ وقت طويل.. إلى المنزل مع رجلها الملون.

وبعد شد وجذب.. وتذمر وإياء.. وافقت تيرزا.. وفي هذه الحالة كان لابد على هوفمستر أن يعدها ألا ينادي شكري باسم محمد عطا.. ولا حتى بعطا.. ولذلك لانت قناتها ورضخت لرأيه.. فمن يستعد لرحلة حول العالم.. لن يرضن ببعض المتعة على والده.

كانوا يريدون أن ينطلقوا من أمستردام في صباح الجمعة. فاستيقظ هوفمستر مبكرا.. لأنه إن كان يريد أن يقضي عطلة الأسبوع على جزيرة بيتوفي.. فإنه سيتعين عليه أيضا أن ينجز بعض أعمال البستنة على قطعة الأرض هذه.. التي أصبحت تعتبر منذ الآن ولعقد قادم هي محل إقامة أسرة هوفمستر في الإجازات.

كما أنه طيلة أشهر لم يذهب هناك.. فلم يستطع لضيق الوقت في أيام الربيع أن يشذب بعض أشجار الفواكه.. وهو يريد الآن أن يستدرك ذلك.. كما عليه أن يقص الحشائش.. ويغتتم وقتا يذر فيه شيئا جديدا.

فذهب هوفمستر يبحث في الكوخ عن الأجهزة.. التي يريد أن يأخذها معه.. لأنه ليس هناك منها في منزل العطلات.. أو ربما تكون موجودة ولكن في حاجة للتصليح.. أو على الأصح قديمة وغير قابلة للاستعمال.. فقد كان والدا هوفمستر يجمعان الأشياء بخلا.. ولا يرميان ما لا يحتاجانه.. فالرمي عندهم خطيئة.

أحضر- الجرافة والجاروف.. والمنشار، وزكينة بذور حشائش من الكوخ.. الذي قضى فيه ليلة مع إستر منذ ثلاثة أسابيع.. وحمل الأدوات إلى المطبخ.. ولكن ليلة وقت طويل جدا على النصف ساعة التي قضاها.. فلم يستمر الأمر معها لأكثر من نصف ساعة.. وهو لا يتذكر إستر وهو يشعر بالأسف أو الحسرة.. بل يذكرها وهو يشعر بقليل من الانزعاج، وفي

نفس الوقت برغبة عارمة.. في أن يتشممها مرة أخرى..
يتشمم هذه الرائحة النفاذة.. رائحة السعادة.

لم تحضر إستر حتى الآن.. كي تعيد له النقود.. ولكنه لم يكن يعني بالنقود بتاتا.. ولكنها كان يتوق لأن يتحدث معها مرة أخرى قبل رحيل تيرزا. كان يريد أن يراها لكي يوضح لها مرة أخرى، ولكن بشكل أفضل هذه المرة.. وبالضبط.. ولكي يقنعها لماذا كان يريد في يوم من الأيام أن يلغي الحب.. ولكن هذا المشروع الآن لم يعد يشكل له أي أولوية. ولكنه يتمنى لها أن تحقق نجاحا في كل ما تريد أن تتخلى عنه.. وأنها سوف تنجح في ذلك.. وأنها كانت فتاة مأكرة.

على الأرجح أنه كان يريد أن يراها مرة أخرى لكي يقنعها بشيء ما.. على الرغم من أنه لم يكن يعرف تماما.. أي شيء هو.

ظل كذلك حتى أدرك أنها لن تأتي بعد ذلك.. لا من أجل أن تعيد له النقود.. ولا حتى من أجل عشاء صغير.

في البداية كان يدعن أن هذا الأمر أصبح لا مفر منه.. وأنها إذن قد انسجمت مع هذا الأمر.. دون أي حديث يستدركه.. وأنه سيكون بالنسبة إليها بمثابة الأب الذي قد أتت الحياة فوجدته ولم يكن لها اختيار في ذلك.. أو رجل فقد السيطرة على نفسه.. ولكن في نفس الوقت، وبطريقة غريبة، عادت إليه السعادة فأصبح يشعر بها من جديد.. وعلى كل حال: فقد عاد إلى الحياة.. نعم فهذه أول مرة منذ زمن بعيد يشعر حقا بأنه على قيد الحياة.

ولم يكن يجرؤ على سؤال ابنته فيقول لها: تيرزا، كيف حال إستر بدون ياء؟.. فقد قوبل حادث الكوخ بصمت مطبق.. وكذلك الحفلة كلها.. فقط لما يتحدث عنها إلا يوم ونصف.. وبعد ذلك كأن الحفلة لم تكن.. ولكنه ما لبث بضعة أيام، بعد أن قرر بأن يستسلم بأنه لن يرى إستر مرة أخرى، حتى وجد نفسه يتسلل إلى غرفة تيرزا - فقد كانت حينها مع عطا - وأخذ يبحث في أشياءها عن رقم هاتف إستر. فوجد في أحد الأدراج قائمة أبجدية بأسماء زملائها في ثانوية فوسويس.. وكان اسم إستر بينهم.. بما في ذلك العنوان ورقم الهاتف.

وفي وقت لاحق من نفس الليلة.. بينما تستحم زوجته.. اتصل بإستر من المطبخ.. في البداية أجابه رجل، ربما كان أبوها.. فقال هوفمستر:

- معك هوفمستر.. أرغب في التحدث مع إستر.
لم يطرح عليه أي سؤال.. ولم يبد أي تعليق.. لم يسمع
هوفمستر منه غير قوله: لحظة واحدة. ثم بعد بضعة ثوان
سمع صوت إستر في الهاتف.. وهو يقول في نفسه.. إنني حقا
لست بكامل عقلي.. فقال:

- إستر.. معك يورجن هوفمستر.. والد تيرزا.. ربما
تذكريني؟

- نعم.

- معذرة أنني أزعجك.. ولكني مازلت لم أحصل على
الباقي.

- الباقي؟

- لسيارة الأجرة.. لقد أعطيتك مائة يورو.. كان عليك أن
تذهبي إلى أمستلفين، ولكن ذلك لا يكلف مائة يورو.. ولا
حتى بسيارة الأجرة.
كان يفرك بسبابته على سطح البوفيه.

- أوه نعم.. لقد كلفت سيارة الأجرة أربعين يورو..
سأرجع لك ستين يورو.. هل علي أن أحول هذا المبلغ لك؟
وفجأة اعتقد أنه سمع تيرزا قد جاءت للمنزل.. ولكن لم
يكن سوى الريح.. فمن المحتمل أنها قد قضت الليلة مع
عطا.. فهي غالباً ما كانت تقضي الليل عنده.

- يمكنك أيضاً أن تعطيني ذلك نقداً، وسيكون ذلك أحب
إلي. هل يمكننا أن نشرب القهوة غداً معا؟ ربما هنا في هذه
الأنحاء؟ ففي

مقابل المتحف القديم يوجد مقهى لطيف.
لم يلق غير الصمت.

- إستر؟ مرحباً؟

- نعم.. موافقة.. غداً بعد الظهر؟

- الساعة الرابعة؟

وفي اليوم التالي في الساعة الرابعة إلا خمس دقائق.. جاء
وجلس في المقهى المقابل لمتحف ستيديليك القديم. وقد عاد
ميكرا من شيفول خاصة من أجل ذلك. جلس وحقيقته على
المقعد الآخر بجانبه.. يقرأ جريدة الأمس.. فحتى الصحف
القديمة لا تصيبه بالملل.

ثم جاءت هي في الساعة الرابعة وعشر.. دقائق.. ترتدي هذه المرة أيضا جينزًا وقميصًا قطنيا يبرز جسدها. كان بجانبه كرسي آخر شاغر.. فجلست عليه مواجهة له.. ولم يتذكر إلا الآن.. أن لو استطاع أن يختار مقهى آخر غير ذلك.. بعيدا أكثر من منزله.. ولكن لا بأس بذلك.. لا ضرر في ذلك ولا ذنب.. وسيظل لا ذنب في ذلك.. فهذا حديث ختامي وتوضيحي.. ألن يكون أكثر براءة؟ وهكذا جلسا أمام بعضهما.. هوفمستر وصديقة ابنته، التي لم تكن على الحقيقة صديقتها. أمسكت بقماش قميصها بين إصبعيها وجعلت تمسح عليه وتقول:

- هذا اختاره لي جدي.
- أوه.. ترتدين غالبا الملابس التي يختارها لك جدك؟
- أحيانا أرتدي ملابس يختارها لي والدي.
- استغرقت في التفكير بينما كانت تنظر إليه.. ولكنها ليست نظرة متحرشة.. متنازلة.. ولكن بطريقة طبيعية.. كأنها تعاني من أن العالم لا يعتبرها صالحة بما فيه الكفاية.
- كيف الحال؟
- حال من؟
- بالطبع أسأل عن حالك أنت يا إستر.
- بخير.
- ما ذا ترغبين أن تشربي؟
- حسنا.. إذن نبيذ أحمر.
- طلب إستر نبيذاً أحمر.. وعلى الرغم من أنه كان ينوي أن يكتفي بالقهوة.. إلا أنه قد طلب لنفسه أيضا كأس نبيذ. كان الوقت متأخرا بعد الظهر.. طوى الصحيفة بعناية.. وفي الصفحة المقابلة له: وتستمر الحرب على الإرهاب.
- وعندما ارتشف الاثنان من كأسيهما.. شعر بالدهشة من فرط الاسترخاء الذي يسري في بدنه.. هادئ وساكن.. بل حتى عاوده بعض من شعوره بأنه على قيد الحياة.
- لم يتحدثا عن حادث الكوخ.. وربما كان ذلك أفضل.. فمن الأفضل عدم الكلام بشأن الحوادث.. وخصوصاً إن كانت قد حدثت بشكل عابر.. قال لها:

- ماذا عن خططك؟ إلغاء الحب.. كيف تسير الأمور مع ذلك؟

- أنا في إجازة.. ولا أفعل أي شيء.. ولدي وقت كثير..
وجداول مواعيدي ليس عليه نقطة حبر.
ثم ارتشفت رشفة نبيذ كبيرة.. ومسحت عن شفتيها.. ثم سألتها:

- وكيف حال تيرزا؟
أوما برأسه:

- هي أيضا بخير.. ممتازة.. هي الآن عند صديقها.. وعمما قريب ستسافر إلى إفريقيا.

أخذ الحديث مجرى مختلفا عما كان يأمله.. ولم تغن المقدمة التي بدأه بها عن هذا الانحراف.. قال لها وهو لا يزال يتحدث بصوت منخفض، كأنه يبوح بسر ما:

- ربما ما زلت تذكرين أنني أيضا ذات يوم كنت أنوي إلغاء الحب من حياتي.. وأن أعلن وفاته. وقد كان هذا بمثابة مشروع.. وكان علي أن أكتب فيه مقالا.. فكتبت مقالا كبيرا بحواشيه.. وبالإثباتات العلمية.. ودعمت هذه الإثباتات بالحقائق.

- حقا؟

- مازال لدي في أرشيفي نسخة منه.. إن كنت ترين أنك يمكنك الاستفادة منه.. إذا كنت ترغبين أن تنظري.....
هزت رأسها ببطء.. وفي وجهها مرة أخرى أمارات اليأس.. فقالت:

- لا، يا سيد هوفمستر.. لا أريد كتابة مقال.. وأنا أعرف ما الذي سأدخله عنه.. فقد طفح الكيل.

جعلتا ينظران إلى المارة.. والتزام.. وسيارات الأجرة.. ومن فرط استيائه قال لها:

- أنا سعيد برفقتك.. - ثم استدرك مباشرة وقال:

- أجد أفكارك إيجابية ومثيرة للاهتمام.
هزت رأسها مرة أخرى وقالت:

- ليس لدي أفكار.. ولكنني أعرف فقط.. كيف تدار الأعمال.

أخرجت من جيب صدر القميص الذي ابتاعه لها جدها ستين يورو، ووضعتها على الطاولة.. وقالت: الباقي.

- نعم.. لقد كان.... ليس ذلك مهما. نظرت إليه معاتبة وقالت:
- ولكن هذا ما جئت من أجله.
- كنت أريد أن أشرح بتفصيل أكثر.. بالطبع أنا والد تيرزا.. لا أكثر ولا أقل.. وهذا هو الأهم.. ولكن ما زال هناك أيضا أشياء.. بالإضافة إلى بعض الأمور الجانبية.. وكذلك أنني سعيد برفقتك.
- يمكن للمرأة أن يحسن من كلامه ولكن سيظل أيضا فيه نقص بعض الشيء.. ولابد أن يفرحها هذا الاختلاف.
- لم يعد يخشى من كلماته.. فقد سهل هذا الحديث الجيد عليه كلامه.. قالت:
- علي أن أستمروا.. فأنا سعيدة بمفردتي.. وأول شيء أفعله بعد استيقاظي هو أن أجلس لنصف ساعة على الأرض وأدلك نفسي.. وأنا أأمل أني لم أخيب أمل حضرت.
- كانت تجلس.. تدلك ذراعها ببطء وتركيز.. كما كانت تفعل في الكوخ ذلك المساء.
- ألم نقل لبعضنا "أنت" قبل ذلك؟
- أأمل أني لم أخيب أملك.
- أبدا على الإطلاق.. لقد كنت أيضا أريد قول ذلك.. وهذا كل شيء.
- نهضت من مكانها.
- لقد أحضرت لك شيئا.. ولكن عذرا إن كان تافها.
- ثم فتح حقيبته.. وأخرج منها كتاب جيب صغير أسود اللون. وهو يقول:
- للأسف لم أستطع أن أحصل منه إلا على نسخة ألمانية.
- وهو بعنوان: ماذا يعني الفن؟ .. إنه مقال لتولستوي.. إنك تحتاجين فقط أن تحلي كلمة "الفن" مكان كلمة "الحب".. وعند ذلك سيقول وداعا له.
- ولكنني لا أفهم الألمانية.
- ربما في وقت لاحق.
- أخذت الكتاب.. وقبلته على خده سريعا، مغادرة المقهى.. وهو ينظر إليها وهي تتجه نحو كونسيرت جيبوف.. ولم يلحظ إلا الآن.. كم كان قميص جدها واسعا عليها.. ثم عد

النقود.. واشترى ثلاث زجاجات نبيذ تشيلي من متجر باستينونج للمشهيات.. وذهب إلى المنزل.
كان يبحث عن سترة تناسب هذه الرحلة عندما سألته زوجته، وهي مستلقية على السرير:

- هل أفرجوا عنك؟

فقال لها:

- أنا من أعطيت نفسي إجازة.. فلن أسمح أن ينقص أحد من وزني.

ورغمًا عنه في هذه اللحظة تذكر المدير، الذي كان يقول، إن الكتاب سيجد طريقه أيضا إلى الناس ذوي التعليم المتوسط والأقل.. إن لم يقتصر فقط على محلات بيع الكتب.
وقد اندهش كثيرا من أنه لم يفتقد أبدا، ولو مرة، مكتبه، والمنظر المطل على الأشجار والحديقة.. التي كانت تسمى في بعض الأحيان بالفناء، ولم يفتقد زملاءه.. أو روتين العمل.. والمؤتمرات كل يوم أحد.. لم يشعر بحنين إلى ذلك أبدا.
وبما أنهم الآن في منتصف شهر يوليو.. والجو بارد وممطر.. فقد ارتدى سترته الزرقاء.. البالية بعض الشيء.. ولكنه يحب أن يرتديها.. ثم ذهب إلى المطبخ ونظر في سرور إلى الأدوات، التي يريد أن ينقلها إلى حديقة والديّة. ثم فتح الثلاجة وأخرج منها المشتريات، التي يرغب أن يعد بها تيرزا وجبة أخيرة.. قبل أن تذهب إلى العام الثالث.

وضع هوفمستر كل شيء في حقيبة سيارته الفولفو: أدوات الحديقة.. والخبز.. أربعة أنواع مختلفة من الجبن الفرنسي.. وكذلك جبن هولندي قديم.. وشرائح اللحم.. والسلطة.. والتوت.. والكرز.. والتفاح.. وكذلك الفجل والخيار. وبقي مكان يكفي لتضع تيرزا فيه أمتعتها وكذلك حقيبة الظهر.. التي سيأخذها صديقها معه بلا شك.

وقد اعتاد هوفمستر أن يقود سيارة الفولفو منذ أن رزق بأطفال.. فهو يجد أنها سيارة تناسب المكان الذي يعيش فيه.. وكذلك تناسبه - أو ربما عليه أن يقول الآن: كانت تناسبه.

ذهب إلى حجرة تيرزا وطرق الباب.. مازالت تحزم أمتعتها: تحزم حقيبة الظهر التي اشترتها خصيصا لهذه الرحلة.

كان هوفمستر يقترح عليها أن تشتري حقيبة ذات علامة تجارية مميزة.. ولكنها ضحكت منه وقالت: أنا مسافرة إلى إفريقيا، يا بابا.. وليس إلى الكوت دازور.

كان هوفمستر يرعب من بيوت الشباب والسياح الذين يمشون حاملين حقائب الظهر.. فعدم الخصوصية، التي هي السمة المميزة للسياح ذوي حقائب الظهر، تجعل القشعريرة تسري في جسده. ليس بدافع من التعالي.. ولكنه الخوف الحيواني العميق من النوم في العنابر والأسرة ذات الطوابق.

إنه يذكر من أيام دراسته، وخصوصاً البضعة أشهر التي قضّاها في سكن الطلاب، يتذكر وهو يرعب من هذه الممارسة، التي كانت تسمى: قلب النائمين: فعندما ينهي بعض الطلاب مدته في السكن ويخرج ليذهب إلى منزله.. فإن من يبقى في السكن يأتي إليه الطلاب الآخرون أثناء النوم.. ثم يقلبونه من فوق السرير بالمرتبة التي ينام عليها وبكل شيء على السرير.. ثم يدوسون فوقه لبعض الوقت.. وكان هذا نوع خاص من المساج التايلندي.. ولكن ذلك لم يكن ليروق لكل الطلاب.. وهو منهم.. لذلك فإنه كان يحارب يديه ورجليه.. مما يجعل بالطبع الوضع يتول إلى الأسوأ..

سألها: هل ستكون مستعدة قريب. ودون أن ينتظر منها جوابا.. دفع الباب ودخل.

كانت حجرة تيرزا عبارة عن فوضى عارمة.. فالملابس في كل مكان.. وكذلك حاجيات المرحاض.. وفي مكان ما قد رميت شهادة تطعيم.. وكذلك جهاز الأيود خاصتها.. ودفتر ملاحظاتها.. وملابسها الداخلية.. وطاقية السباحة.. ونظارة الغطس.. فسألته:

- لا أستطيع أن أقرر ما الذي سأحتاج أخذه معي؟ إن اقتصرنا على هذه الأشياء فقط قلن تناسبني كثيرا.. فالطقس في إفريقيا يمكن أن يصبح أيضا بارداً جداً.. ألا ترى ذلك يا بابا؟

قال: بالطبع.. أحيانا يكون البرد قارس في إفريقيا.. فهي ليست بعيدة عن القطب الجنوبي.

- ولكن بلوفر كثيف سوف يأخذ مكانا كبيرا في الحقيبة.
- لقد قلت لك أن تشتري حقيبة ظهر.

قالت: أووه.. توقف.. أنت لا تعرف كيف يسافر الناس في هذه الأيام.. متى كانت آخر مرة قمت فيها برحلة حقا؟ ولا أعني بضعة أيام لمعرض الكتاب.. ولكن سفر حقيقي؟ ثم أخرجت شيئا من حقيبتها وقذفته.. وأخذت تحشوها بالبلوفر.. ولكنها سألت:

- أم سيكون من الأفضل لو أخذت بلوزة بعنق؟

- البلوزة بعنق تخدش في الرقبة.

ثم ذهب إلى المطبخ.. فقد مرت الربع الساعة التي كان قد ضبطها لأعداد القهوة.. ثم صب لنفسه فنجانا وناذى إلى الأعلى:

- تيرزا.. هل ترغين أيضا باحتساء القهوة؟

لم يلق جوابا.

فخيل إليه وكان إفريقيا قد بدأت في مطبخه.. وكان تيرزا هناك بالفعل، في وسط إفريقيا.. وبالتالي فهو هناك أيضا. ذات مرة وهو عند بائع الخضروات قالت له أمينة الصندوق.. وكانت سيدة عجوز.. تعمل هناك منذ سنين: ستذهب ابنتك إلى رحلة حول العالم، أليس كذلك؟ .. لقد سافر ابني قبل سنة إلى آسيا.. ولكنني أتلقى منه كل يوم رسالة إلكترونية طويلة.. وهكذا أنا على اطلاع دائما.. بآين يكون وماذا يعمل؟ وذلك يسعدني.

أجابها هوفمستر: "نعم...." ثم سكت وعاد فقال "نعم،

نعم..

بالطبع." ثم شرع يعد النقود وهو يتسم بود.. ويشعر بالسرور.

وظلت هذه العبارة تلازمه بعد ذلك ليومين على الأقل. وعلى الرغم من أن تيرزا لم تجبه.. فإنه صب لها فنجانا من القهوة على سبيل الاحتياط.. فهي تحب أن تشرب القهوة التي يعدها كل صباح.. فقد كانا يجلسان معا في المطبخ كل صباح، قبل أن تنطلق بالدراجة إلى ذاهبة إلى المدرسة، ففطران معا.. أو بالأحرى.. يجلس معها ينظر إليها وهي تأكل. فذلك بالنسبة إليه هو جوهر الأبوة: نظرة التشجيع.. وعندما تكون صديقاتها معها فإنه يبذل قصارى جهده في أن يظهر من أجلها الجانب الأفضل عنده.. وخاصة هذه النظرة التشجيعية.. وبذلك يستطيع أن يعيش. استند هوفمستر على البوفيه بساعديه.

وبدأت السماء تمطر رذاذا.. وهو يفكر: إفريقيا.. هذه
الخطئة المشؤومة.. والسفر بالمواصلات العامة من أطراف
الجنوب حتى أقصى الشمال.. يا حبذا لو ألغتها تيرزا.. ولكن
هذا هو آخر ما يتصوره.

نزلت تيرزا الدرج وعلى ظهرها الحقيبة.. وهي تحمل
حقيبة كتف أخرى أثيقة.
نظر إلى أمتعتها مبتسما.. متظاهرا بدور الرجل العجوز
الحكيم.

وهذا هو الدور الذي يحب أن يلعبه.. فهو حكيم جدا
وكبير لكي يشارك في أي شيء.. لكن عمره الحقيقي كان خمس
عشرة سنة.. قالت:

- لا يمنع أنها رحلة حول العالم أن لا يتجول المرء وهو
أنيق.

قال هو فمستر: أنا لم أقل أي شيء.. إنني أنظر فقط.
وهو يتساءل.. إلى أي مدى ياترى سيكون مفاجعا الشعور
بفقد شخص ما.. سؤال يطرحه على نفسه منذ أيام. فهو لم
يفتقد زوجته أبدا.. مع أنه كان ينتظرها.. وكلما بالغت في
جرحه.. كلما بالغ في انتظارها.. ولكن أن يفتردها - فلا.
وكذلك والديه.. لم يكن أبدا يفتردهما.. إنه على الحقيقة لم
يفتردها أبدا.

أعطى ابنته القهوة.. فجعلت تشرب على عجل.. وأفكارها
في مكان آخر.

- هل تريدان أيضا أن تتناولوا الإفطار؟ هل أعد لك الخبز
المحمص؟

هزت رأسها نافية.

- لن آخذ معي أي مجوهرات.. لن أرتدي إلا الخاتم
فقط.. أليس ذلك أفضل؟ ألا تتفق معي؟ فإذا فقدتهما.. أو
سرقا مني.. فحينها لن يكونا شيئا يقصم الظهر.
ثم أظهرت له يدها اليسرى.

كان قد أهدي لها واحدا من هذين الخاتمين في عيد
ميلادها السابع عشر.. أما الآخر فهي قد اشتريته بنفسها.. أو
ربما قد حصلت عليه من صديق ما وأرادت أن تحتفظ به
لنفسها.. صديق قديم يملك المال.

ولكن هو فمستر لا يستطيع أن يجزم بالتخمين الأخير..
نظرا لاختيارها الحالي.. فتيرزا تحب الرجال الفقراء.. والفقير

يجذبها.. حتى أنها قد قرأت بنهم شديد جميع الكتب التي تتحدث عن الفقر في إفريقيا.. والطبيعة بالنسبة إليها كانت اهتماما ثانويا. فالملايا أكثر أهمية لها من رؤية غروب شمس طبيعي.

فمعرفة بؤس الآخرين يعطي لحياتها هدفا.
حدق هوفمستر في المطر وهو يقول لها:

- أنت على حق.. لن يكون الأمر جلا حينها إذا سرقت.. لن يكون بهذا السوء.. فما قيمة خاتمين؟

كان قد عرض على تيرزا أن يحضر صديقها.. ولكنها قالت له: لا.. سوف يأتي هو إلى هنا.. فالأمر بسيط.

وفي غضون ربع ساعة.. بل ربما أقل من ربع ساعة.. لن يعود وحيدا مع صغيرته.. بعد ربع ساعة سوف يبدأ الفصل الأخير من حياته.. سوف تبدأ الخاتمة.. خاتمة لحياة بالية.. نعم كانت بالية.. ولم يعد لديه شك في ذلك.. وقد تأكد من ذلك مؤخرا أكثر من أي وقت مضى.. فالرجل الذي يعتدي على زميلة ابنته في الكوخ أثناء حفل التخرج.. ما هو إلا رجل بائس.. وبال، والزمن قد عفا عليه.. وليس لأحد غيره ذنب في ذلك.. ولكن هناك حدثا في نقطة ما من حياته.. يرجع إليه هذا البؤس.. إلا أنه لا يستطيع أن يتذكر أي شيء.. لقد مر هذا الحدث البائس وما خلفه في نفسه من أنكسار دون أدنى ملاحظة.

وضعت يدها على كتفه.. وهما ينظران معا إلى الحديقة.. الذي
تمثلت له فيها إفريقيا فجأة.. ولكن ذلك لم يفاجئه بالمرّة.. ربما، وفي أغلب الظن.. لأنها لم تكن تعجبه أصلا من قبل.
قال لها:

- سنسافر بعد ربع ساعة.. إنه أيضا دقيق في مواعيده.....
أراد أن يقول محمد عطا.. ولكنه ابتلعها.. فقالت:

- نعم يا بابا.. دقيق جدا.. كالألمان.. وهذا شاذ جدا بالنسبة لمغربي.

ثم جرت مسرعة إلى الأعلى.. كأنها قد نسيت شيئا ما.. فقام هوفمستر يصب فنجان آخر من القهوة.
عبأ في حقيبة سفر جلدية صغيرة بعض الملابس الداخلية.. والجوارب.. وقميصين.. ولم ينس سروال الحديقة.. كان مزاجه سيئا.. كأنه هو من سيذهب في جولة حول العالم.

وللمرة العاشرة في هذا الصباح أخذ يعد النقود التي في محفظته.. ويتأكد من بيانات رحلة ابنته.. ويضبط قائمة من الأعمال، التي ينوي القيام بها في حديقة والديه.. التي كانت حديقة سابقاً.

ولما انتهى من ذلك.. إذ به يجد زوجته أمامه فجأة.. وهي لا تزال ترتدي الروب.. كان واحداً جديداً.. فهي كثيراً ما تشتري هذه الأشياء.. ولا تشبع من الشراء. وجدّها تقف أمامه وهي تمد ذراعها إليه.

وتقول: بشري محبة.. أترى؟ إن الجو بارد جداً. ألا يمكننا تشغيل المدفأة؟

لمس ذراعها بتحفظ.. ثم أعاد محفظته مرة أخرى في جيبه.

سألته: متى سترجع؟

- مساء الأحد.. سأتي من فرانكفورت مباشرة إلى هنا.. ستقلع طائرتهما الساعة الثامنة مساءً.. وفي الساعة السابعة سوف أودع الأطفال.

فقالت له: هل أنت متأكد أنك سوف تودعهما في الساعة السابعة.. كم من الوقت سيستغرق التلويح لهما إذن؟.. وبعد ذلك سنكون أنا وأنت يا يورجن. إذن علينا أن نتعود كوننا بمفردنا.

- ماذا تعنين بذلك؟

- كما قلت.. لن يكون حينها غيرنا.. وسنصبح كما في الماضي.. زوجين مرة أخرى.

- زوجين؟ كما في الماضي؟

ذهب إلى الردهة.. ونزلت تيرزا الدرج، وذهبت إلى المطبخ فأحضرت حقائبها ووضعتها أمام الباب.. فقال لها:

- ولكن صديقك لم يأت بعد.. لماذا تضعينها الآن في الخارج؟ في الشارع.. في المطر.

- لست أقف في المطر.

فأخذ حقيبة الظهر ووضعها في السيارة.. وهو ينادي: رباه.. إنها ثقيلة جداً.. ماذا وضعت فيها؟ حثة؟!

فتح صندوق السيارة.. وعدل حقيبة الظهر في مكانها قدر الإمكان.. ثم ظل واقفاً وهو منحني للأمام.. كأنه يرتب شيئاً آخر. كان المنشار.. لم يكن قد وضع بشكل جيد.. وأيضاً كيس

بلاستيكي به بذور الحشائش.. ولكنه لم يكن يريد أن تراه ابنته وهو ينهار.. وذلك سبب ما يفعله الآن.. إنه الآن مثل رافعة قديمة.. إنه ينهار.

ولما استجمع قواه مرة أخرى.. عاد إلى المطبخ فأحضر.. حقيبته إلى السيارة.. كانت سيارة والده.. ولذلك كانت قديمة ومعيبة.

خرجت الزوجة هي الأخرى من المنزل.. وبذلك وقف ثلاثتهم أمام المدخل.. كوحدة مع بعضهم.. كأسرة مع بعضها.. فلا يمكن أن يخطر على بال أحد إذا رآهم هكذا إلا ذلك.. لقد تجمعت الأسرة مرة أخرى أمام باب البيت.

قالت الزوجة:

- إنني أشعر بالبرد.. فالجو هنا ليس جو صيف.. هل هذا عادي في الصيف هنا؟ إنه بالنسبة لي شتاء.. فأجابتها تيرزا:

- لا عليك.. اذهبي أنت إلى الأعلى.. وأنا سأودعك الآن.. ثم قبلت أمها مرة على خدها الأيسر.. ومرة على الأيمن.. فقط على كل خد قبلة واحدة.. ثم رجعت قليلا إلى الوراء.. كأنها تريد أن تملي نظرها منها.. من هذه المرأة التي تسلت وتركتها قبل ثمانية عشر عاما.. لكي تجعلها تشعر بالكراهية تجاهها طوال هذه السنوات.. قالت أمها:

- فلتكتبي.. أو اتصلي.. ولا بأس أيضا بالاتصال على حسابنا..

فمن المؤكد أن أباك لن يمانع أبدا بذلك.. ثم عادت إلى المنزل.. وهو فمستر يتبعها النظر.. مازالت أنيقة على الرغم من سنها.. وهو يتذكر جميع انحلالاتها.. ولكنه ما زال يتذكر المرأة التي كانت عليها قبل زمن بعيد: المرأة التي لم تكن تظن أنها تفكر بشكل خاطئ.. والتي كانت تضع الدنيا كلها تحت قدميها، ولما تعرف هو فمستر إليها.. حمل لها الدنيا كلها بين يديه.. والآن؟ لقد تعبت البدان من طوال الحمل.. ولكن هكذا هي الدنيا.. لا يمكن أبدا أن تثق بها.

والآن لم يعد يقف غير الاثنين أمام المدخل.. الأب وابنته.. والأب عصبي أكثر من ابنته.. ويهزهز مفاتيح السيارة..

ويعبث في سترته.. وينكش في جيب بنطاله.. ومن حين لآخر
يمسك بيد ابنته ويضغط عليها.. ثم سألها:

- ألا يمكنك أن تتصلي به؟

- سيأتي حالا.

وهكذا وقفا هما الاثنان.. دقيقتين أو ثلاثة أو أربعة..
صامتتين لا يتحدثان.. رجل منهار داخلها.. وابنة مسافرة في
جولة حول العالم.

حتى قطعت هذا الصمت منادية: ها هو قد جاء!.. وهي
تنظر ناحية اليمين، من جانب شارع يعقوب
أوبريشتترات.. وهوفمستر يتابع نظراتها.
فرأى رجلا يرتدي سترة رياضية ممشي.. تحت المطر..
ويحمل دون مبالاة حقيبة رياضية على كتفه.. فقال في نفسه:
إنه محمد عطا.. هاهو.. لقد جاء مرة أخرى.. قد بعث من
الموت.. ولكنها لا ترى ذلك.

ركضت تيرزا إليه.. وظل هوفمستر واقفا في المدخل ينظر
إليها وهي تعانقه.. ويتابع حركاتها.. ويراقب يد عطا، التي لم
ترفع من على ظهر ابنته.. مما جعله يشعر بالقشعريرة تسري
في جسده.

ثم اتجها الاثنان نحو هوفمستر.. وهما متعانقان.

ومد عطا يده مصافحا هوفمستر.. ثم سألها:

- هل جعلتك تنتظر طويلا؟

فقال هوفمستر: ربع ساعة.. ليس أكثر.

ثم فتح صندوق السيارة، وضغط حقيبة عطا الرياضية
بجانب
المجرة.

- لم تأخذ معك أشياء كثيرة.. بالنسبة لرجل سيسافر رحلة
طويلة مثل هذه.. ولاحتى حقيبة ظهر.

- إن كان ينقصني شيء.. فإنني أستطيع شراءه في أي
وقت.. والملابس تجف سريعا في إفريقيا.

وكان عطا يعرف خبايا هذه القارة مثلما يعرف خبايا
جيب صدره.

أوما هوفمستر: هناك مغزى في ذلك.. في إفريقيا يجف
كل شيء سريعا.

فتذكر ملابسه الداخلية أثناء رحلته في إيطاليا.. الرحلة التي كانوا فيها سويا ك أسرة.. عندما كانوا لا يزالون أسرة.. أسرة مترابطة إلى حد كبير.

جلس هوفمستر أمام عجلة القيادة.. ثم شغل ممسحة الزجاج الأمامي.. وجلست تيرزا بجانبه.. وجلس عطا بمفرده في المقعد الخلفي.

كان جو الحوَار قاسيا جدا.. فلم يكذ أحدهم يتبادل مع الآخر جملتين حتى وصلا إلى أوترخت.. فتيرزا تستمع إلى الموسيقى في جهاز الاي بود خاصتها.. وعطا يرفع رأسه ثم يخفضه من حين لآخر.. كما كان هوفمستر يلاحظه.

ولكن الجزء الأخير جرى بشكل أفضل.. فقد تبادلوا حديثا مهذبا عن إيجابيات وسلبيات المساعدات الإنمائية.

وعند وصولهم سارعت تيرزا فاحتلت الغرفة، التي كان والدا هوفمستر يستخدمانها كحجرة ضيوف.. أما عطا فأخذ يتجول في الحديقة.. يستنشق زهرة من هنا وهناك.. وبعد ربع ساعة ذهب فجلس في غرفة المعيشة.. يلعب هو وتيرزا أمام المدفأة جولة من الكلمات المتقاطعة.

محمد عطا يلعب لعبة الكلمات المتقاطعة؟ وباهتمام؟ من كان يظن ذلك؟!

أما هوفمستر فقد بدأ العمل في الحديقة.. فقد كان ولابد أن يتخلص من التوتر الذي لحقه من جراء الرحلة بالسيارة.. لكي يواجه البقايا عديمة النفع التي لا قيمة لها التي تلوح أمامه: هذه البقايا الأخيرة من حياته.

كان يلقي نظرة من حين لآخر على النافذة.. فيرى ابنته وصديقها مستغرقان في لعبهما.. فلم يطمئن لذلك.. إنه الآن، لأن طفليته قد خرجا من المنزل، لابد وأن يتعلم كيف يموت.. ولكنه لا يدري أين أو من يعلمه ذلك.

ولما قاربت الساعة الواحدة والنصف.. دخل المنزل وسأل:

- هل تشعران بالجوع؟

فقال تيرزا:

- لم نتصور جوعا بعد.. ولكننا نشعر بالبرد.

قال هوفمستر:

- سوف أشعل المدفأة.. لقد كنت أتمنى في الواقع أن لو أمكننا الأكل في الحديقة مساء اليوم.. ولكن ربما يصبح عشاء شتويا.

وبصعوبة أشعل المدفأة.. فقد كانت الانحناءات في ظهره تؤلمه.. ألم هو في الواقع فوق الحد: فقد شعر بألم يسري في ظهره.. لم يعرف له مثيلاً قبل ذلك.

وعندما اشتعلت المدفأة أخيراً.. كان عليه أن ينفخ فيها بانتظام ليأججها.. ثم ظل واقفاً لبضع دقائق وقضيب تذكية النار في يده.. ينظر لالسنه اللهب.. ينظر لهذا المنظر الجميل.. واستغرق فيه حتى نسي ما حوله.. وهو الآن الرجل الذي يحدق في النار، على الرغم من أنه رجل بائس. وأثار ذلك ذكريات في نفسه.. ذكريات غامضة وغير عاطفية عن والديه.. وعن شبابه وأيام دراسته.

وظل أسير هذه الذكريات.. لم يخلصه منها إلا عندما سمع ابنته تناديه "بابا".

- بابا.. أنا أعد خبز التوست المحمص.. هل ترغب أنت الآخر في واحدة؟

فأجابها: إنني قادم.. فلتدعي ذلك لي.. ولتجلسي- مستريحة.

ثم علق قضيب تذكية النار على الحامل.. ومسح يديه في البنطال القديم.. الذي يستخدمه كبنطال للحديقة.. ونظر لعدة ثوان إلى اللعب.. يرى ابنته وهي تضع للتو كلمة في مكانها.

قال عطا: من فضلك أريد جبناً فقط.

- أوه.. هل ترغب أنت أيضاً في الخبز المحمص؟

- نعم، من فضلك، ولكن بالجبناً فقط.

فأجاب هوفمستر بينما يتابع النظر إلى اللعب.. فثيرزا تجيد لعبة الكلمات المتقاطعة: لا مشكلة في ذلك.. فنحن في هذه الأسرة دائماً نأكل الخبز المحمص بالجبنة والطماطم فقط.. ولا نحب لحم الخنزير.. لا نحب أي لحم مقرف.

وضع هوفمستر ثلاث شرائح من الخبز بالجبناً والطماطم في المقلاة يشويها.. فوالديه لم يكن لديهما أبداً محمصة خبز كهربائية.

وجلس يأكل خبزه المحمص في غرفة المعيشة على الطاولة.. بينما تواصل تيرزا وصديقها لعبة الكلمات المتقاطعة.. ثم أمسك بمنديل ولم تمر ثلاث ثوان حتى كان قد انتهى من مسح فمه.. خوفاً من أن يعلق بشفتيه بعض الفتات.

سأله عطا: هل تحب أيضا لعب الكلمات المتقاطعة؟
أجابه: لا.. إنني لا أجيد لعبها.

- ولكن يا بابا.. لقد كنت دائما ما تلعبها معي في الماضي.
وهي تنظر إليه مندهشة.. كأنه قد كذب.

- لأنني لا أجد فيها مخاطرة.. ولكني أفضل أن ألعب
لعبة الريسيكو على سبيل المثال.. أو بنك الحظ.. أو لعب
الورق.

فاقترح عطا: إذن ما رأيك يا سيد هوفمستر لو لعبنا لعبة
بنك الحظ هذا المساء؟

نظر إليه هوفمستر.. إلى الرجل.. الذي لا يألو جهدا، بل
ويستنشق الأزهار، لكي يكسب والد صديقه.. ولكن بالنسبة
لهوفمستر لم يكن ذلك يترك لديه أي أثر.. بل إنه كان يود من
كل قلبه أن يقول له: لا تتعب نفسك.. فهذا لا يهم.

ولكنه قال: حسنا.. إن وجدت اللعبة.. سنلعب لعبة بنك
الحظ مساء اليوم بعد العشاء.

ثم عاد إلى الحديقة.. مركزا في عمله.. لكي لا يستغرقه
التفكير.. وفي حوالي الساعة الخامسة.. عندما كان قد انتهى
لتوه من قطع بعض الفروع الميتة من شجرة تفاح.. جاء إليه
عطا.

أطفأ هوفمستر المنشار.. ونزل من فوق السلم.. فقال
عطا:

- أريد أن أسألك عن شيء ما.

- اسألني عما تريد.

- أنت لا تمنع على الإطلاق.. أن أنام مع ابنتك في غرفة
واحدة.

لم يتمالك الأب نفسه من فرط الضحك.. ولأول مرة
يضحك من قلبه.. من هذا الرجل.. وأمسك المنشار بيده
اليسرى ثم أخذه بيده اليمنى.. وسأله:

- ماذا تريدان إذن أن تفعلنا في إفريقيا؟ أن تناما في
سرير بطابقين؟ أو تستأجرا سكنين مختلفين؟ ماذا تظنني؟

- لا، بالطبع لن نفعل ذلك.. ولكن هنا في بيتك سيكون
الوضع مختلفا، ربما.. هذا ما أظنه.

- البيت أيضا بيت تيرزا.. كما هو بيتي. وإن لم تمنع هي
أن تنام معك في نفس الحجرة.. فلا مانع عندي أيضا.

نظر عطا إلى شجرة التفاح.. وقال:
- أنت ماهر.. أعني: كيف قطعت الفروع التي كانت
هنا.

- كان والدائي يمتلكان محلا لبيع أدوات الأعمال اليدوية.
لم يقل هوفمستر ذلك أبدا.. دون أن يظهر على شفثيه
شعور بالخجل.. محل لبيع أدوات الأعمال اليدوية. ولكن
هذا يدل على الكثير.. ويدل على أنه قد تعلم قطع الفروع
منذ صغره.

- نعم.. قد أخبرني تيرزا بشيء من هذا القبيل.. على كل
حال، فقد كنت فقط أريد أن أسألك، ووالدي أيضا

- نعم؟ ماذا أيضا عن والديك؟
حديق هوفمستر في وجهه.. في وجه صديق تيرزا.. في وجه
الرجل الذي لا يجده فقط كبيرا على ابنته.. ولكنه ببساطة
غير مريح.. حتى مع أسلوبه الجيد.. غير مريح في وجوده..
غير مريح منذ أول لحظة.
لقد قالت زوجته له ذات مرة: لن تجد لتيرزا رجلا جيدا
كفاية كما تتمنى.

ولكنها لم تكن تقصد ذلك.. لقد كان مجرد حدس.
- والدائي أيضا مرتبطان جدا بالتقاليد.
فقال هوفمستر: أنا لست تقليديا.. أنا واقعي وعملي..
هل هما متدينان؟

- والدائي؟ نعم، هما هكذا أيضا.
فكرر هوفمستر: هكذا أيضا.
بقي الشاب واقفا كالتائه.. بينما يصعد هوفمستر السلم
مرة أخرى ويتابع قطع الفروع.
ولما مرت خمس دقائق ووجد أن عطا ما زال يقف في
مكانه.. نزل مرة ثانية من فوق السلم، وسأله:
- هل تريد أن تجرب ذلك مرة؟

- ماذا؟
- قطع الفروع.. التقليل.. العمل في الحديقة.
ضحك عطا وقال: أنا لم أفعل ذلك أبدا.
- أليس لدى والديك حديقة.
- لديهم بلكون.

مسح هوفمستر بظهر يده على فمه وركبته وخده: أوه، ولكن شقة مستأجرة صغيرة مثل هذه.. وفيها بلكون.. يمكن أيضا أن تكون لطيفة جدا. حسنا، هل تريد أن تجرب ذلك؟ تردد عطا.

- أنت ذاهب لإفريقيا؟ إلى الأدغال؟ إذن فلا تسمح لشجرة الفواكه الصغيرة هذه في بيتوفي أن تكون حاجزا لك. ولكي يسهل الأمر عليك.. ابدأ بقرع رقيق.. وأشار هوفمستر عاليًا.. إلى فرع.. يمكن أن يتركه هكذا دون أن يقطعه.. فلم يكن فرعا ميتا في الواقع. تردد عطا، ثم أخذ المنشار.

كان الوزن هو مشكلته الأولى.. وهذا يظهر بوضوح.. ولكن لا بد وأن يتعود الشخص على وزن الشيء الذي يمسكه لأول مرة.. فالأدوات مثل البشر: لا بد وأن يثق المرء بها أولا شيئا فشيئا.. وكلما عرفها المرء بشكل أفضل.. كلما سهل عليه التعامل معها.

ثم بين له هوفمستر كيفية تشغيل المنشار.. وكيف يطفأ.. والإيقاف في حالة الطوارئ.. وكيفية الإمساك به. وقال هوفمستر: إنه منشار ستيل إم أس ١٧٠.. وهو الأفضل من نوعه حاليا.

تسلق الشاب السلم.. ولما وصل للأعلى نادى قائلا: هل أنت متأكد يا سيد هوفمستر أن هذه فكرة جيدة؟

- إنها فكرة رائعة.. فعندما تعرف الشيء لأول مرة.. فأنت بعد ذلك تملك حياة طويلة مليئة بالسعادة.. ومنشار الـ إم أس ١٧٠ آمن الاستخدام تماما. ثم أشار والد تيرزا ثانية إلى الفرع، الذي سوف يقطع.. وهو ينادي:

- لا تخف.. ليس عليك إلا أن تركز قليلا.

- آمن الاستخدام تماما!

هذا ما أخبروه به في المحل الذي اشترى منه المنشار.. أكثر أمنا من المنشار الكهربائي ذو السلك.. وأيضا يتميز بسهولة الاستعمال.

وقف صديق تيرزا على السلم يقطع الفرع الرقيق.. وسرعان ما سقط الفرع على الأرض.. فقد كان فرعا رقيقا. ونزل عطا من فوق السلم صاحب الوجه. فسأله هوفمستر متفائلا:

- هل كنت تشعر بالخوف.. لقد كنت ترتجف!
فقال الرجل، الذي يبدو الآن كصبي، أكثر من أي وقت مضى.. بل صبي ودود:

- نعم، قليلا.. وأنا أظن.. أنني لست جيدا في ذلك.. كما أنني أشعر بالتعب.

أخذ هوفمستر منه المنشار مرة أخرى وهو يقول:

- كل شيء يأتي بالتمرين.
ونظر بسعادة إلى الشجرة.. فصحيح أن حياته قد وصلت لختامتها، ولكنه يعرف كيف يقطع شجر الفواكه.. وكيف يتعامل المرء مع حديقة.. ولا يستطيع أي أحد أن يسلبه ذلك.. قال هوفمستر:

- لقد أحب والداي أشجار الفواكه أكثر من أي شيء آخر.. وقد كانا مرتبطين بالأشجار أكثر من ارتباطهما ببعضهما.

- وكانا يملكان معا محلا لبيع أدوات العمل اليدوي؟
فقال.. ولكن باقتضاب:

- نعم.. تقريبا.. فالمحل كان ملك والدي.. أما والدي فقد كانت تغني في جوقة.

لم يعجبه أن تطوال المحادثة بغير داع.. فما شأن الصبي ووالديه؟

فانحنى لكي يقتلع بعض الأعشاب.. فأخبر شيء يريد.. هو وجوده مع ذلك الرجل.. إنه مستعد لأي شيء الآن.. ولكن فقط لا يكون بقرب هذا الرجل.

- ألم يطلب منك أن تتولى أنت أمر المحل؟
فأجابه هوفمستر والأعشاب في يده:

- كان علي أن أدرس.. لأنهما وجدا أن دراسة ابنهما الوحيد هي الأهم.. ولذلك كانا هما من يعملان.. وأنا أدرس.
فقال عطا: نعم.. أنا أعرف.. كنت تدرس الجرمانية، وعلم الجريمة.. أليس كذلك؟

- لم أتم دراستي في علم الجريمة.. بسبب ظروف خاصة.. فقد عرضت علي وظيفة محرر في دار نشر- مرموقة.. ومثل هذا لم يكنني أن أرفضه.. وكان الكل يعتقد، أنني سوف أترقي حتى أصبح مدير هذه الشركة.

ذهب إلى صندوق القمامة، وأفرغ فيه الأعشاب.
ولما غاد.. وجد أن عطا لا يزال في مكانه.. ويسأله:

- هل هذا هو الوقت المناسب لقطع الأشجار؟
فقال هوفمستر: لا ليس هو.. ولكني هنا الآن.. ولذلك
أقطعها.. فلا بد وأن أستغل المناسبة.. وأقطع عندما أكون هنا..
أين تيرزا؟

- إنها تنام.. لقد كانت هي الأخرى متعبة.
وعاد عطا ذاهبا إلى المنزل.. ولكنه استدار قبل المدخل
بقليل وقال:

- سيد هوفمستر.. هل يمكنني أن أساعدك فيما بعد في
المطبخ؟ عند إعداد العشاء؟
هز هوفمستر رأسه نافيا:

- إنني أفعل هذا بمفردي.. وعلى كل حال فإن معظمه
جاهز.. وما عليك سوى أن تأكل.. فأنت ضيفي.. لا تنسى..
ذلك.

وظل يتابع الرجل بنظره وهو يدخل إلى البيت.. ثم يراه
من خلال الستائر وهو يذهب إلى غرفة المعيشة فيجلس أمام
المدفأة.

واختفت النشوة التي كان يشعر هوفمستر بها قبل قليل..
ولم يفز بشيء، بل خسر.. فكل ما يعد نصرا.. إنما هو ستار
لفشل ذريع.. ربما يكون فشلا مستورا بهارة.. ولكنه في
النهاية: فشل. ومعظم الأشياء التي لها شعبية في هذه الدنيا..
مثل الأدب والسياسة.. إنما هي في الواقع ثرثرة المغلوبين على
أمرهم.

سحب هوفمستر طاولة الطعام أمام المدفأة.. ووضع عليها
ثلاث شرائح محمرة - نصف محمرة له ولتيرزا، ومحمرة تهما
لعطا - واضعا بجانب الشرائح خبزا وسلطة وفواكه طازجة
للتحلية بعد الأكل.

كانت النار في المدفأة تضطرم. فتح هوفمستر زجاجة نبيذ
البوردو الأحمر الثانية لهذا اليوم.. وهو يسأل عطا:

- ما موقف والديك من ذلك، أنك ستسافر مع ابنتي إلى
إفريقيا؟

- هل تقصد موقفهم من أنني سأسافر إلى إفريقيا، أم
أنني سأسافر مع تيرزا؟
- الاثنين معا.

ثم قطع هوفمستر قطعة خبز وغمسها بحرص في صلصة اللحم الموجودة في طبقه.. وهذا في الواقع لا يليق فعله.. ولكن بيت العطلات له قواعد أخرى.

- لم أعد على اتصال دائم بوالدي.. فنحن لا نرى بعضنا إلا نادراً.

أعجب هوفمستر مذاق الخبز.. فأخذ يمضغه.. فقالت تيرزا وهي تضغط على كتف صديقها:

- لقد انفصل شكري عن والديه.

منفصل.. تذكره هذه الكلمة بايبي.. ولكنها لم تنفصل عن والديها.. لكنها ببساطة انسحبت بنفسها.. وهذا أسهل من الانفصال.

- هل يمكنني أن أسأل لماذا؟

فقال الشاب:

- لديهم أفكار أخرى.. تصورات أخرى غير تصوراتي.

- أفكار أخرى؟

كان هوفمستر قد أكل خبزه.. فقطع قطعة خبز أخرى.. وقدمها لعطا.. ولكنه رفض بأدب.. فكرر هوفمستر:

- أفكار أخرى؟

- نعم، أفكار أخرى.. هذا هو الحال.. أراء أخرى.. عن الحياة. فأنت أيضاً بالتأكيد لديك تصورات أخرى تختلف عن تصورات تيرزا.. أفكار عما يجب أن يفعله المرء ويتركه.. وكيف ينبغي على الإنسان أن

يعيش.. وما الذي عليه فعله لكي يصبح إنساناً خيراً.

نظر هوفمستر إلى ابنته.. يفكر: بم أخبرت هذا العطا؟ عنه وعن زوجته.. وعن المستأجر، الذي كان يتخذ عشيقته.. كما تتخذ زوجته عشيقاً.. ثم قال:

- أنا ليس لدي تصورات.. هل أبدو كرجل يحمل أفكاراً؟ اصطاد عطا بإصبعه آخر ورقة خسر من طبق السلطة خاصته: حسناً.. أفكار.. إنني أعني أنك ربما يكون لديك تصورات أخرى عن الحياة تختلف عن تصورات أبتك.. وماذا بعد الحياة.

- تصور؟ ما بعد الحياة؟ عندما أموت؟ هل أبدو كشخص يعرف.. كيف ينبغي على المرء أن يعيش؟ ضحك عطا بعصبية.

شعر هوفمستر أنه الآن.. قد وضع الصبي في مأزق.. فهو يحب أن يمارس ذلك مع الناس.. لأنه يخاف منهم.. لأنه لا يعرف كيف يتعامل معهم.. بل حتى ابنتيه.. كان يمارس الضغط عليهما.. بالكلمات.. يقتصر فقط على الكلمات.. لكي يشجعهما على تعلم كيفية الدفاع عن نفسيهما باستخدام اللغة.. لكي تنمو ثروتهما اللغوية.. ولكي يتعلما فن الجدل.. فاللغة في نظره ما هي إلا أداة لتطويق الناس.. لوضعهم تحت ضغط، أو في مأزق.. حتى لا تدع لهم مخرجاً. واللغة هي آلة الإذلال الوحيدة. وهو من أجل ذلك ربما يلوذ بالصمت أحياناً.. بدافع الاحترام، أو كعلامة على الاستسلام. والصمت حينها هو بمثابة الراية البيضاء. تكلف هوفمستر ابتسامة وهو يقول:

- إذن أنت تعتقد أنني قد كونت لنفسي أفكاراً عن حياة ابنتي؟ وأنتني أعلم كيف يصبح المرء شخصاً خيراً؟
- إنني أعني.... ما أريد قوله - كل الآباء يتوقعون من الأبناء شيئاً ما.. أحياناً يتوقعون الكثير.. وأحياناً ربما يتوقعون شيئاً خاطئاً.
لأدت تيرزا بالصمت طوال الوقت.. واكتفت فقط بمضغ شريحة اللحم.
- توقعات خاطئة؟ من أين لك أن تعرف.. أي التوقعات ستكون خاطئة؟
هز عطا كتفيه استهجاناً وهو يقول:

- كما ترى.....
ولذلك تابع هوفمستر: كنت أنتظر شيئاً.. ولكني انسحبت بتوقعاتي هذه.. كما ينسحب القائد بجيشه.. لأنني لاحظت عندها، أن هذه التوقعات لم تكن جيدة من أجل تيرزا.. فالأب أيضاً يتعلم القيام بذلك.. وليس لدي توقعات.. لا منها ولا من أجلها.. إنني لا أتوقع أي شيء.
- سأخذ قطعة خبز أخرى.
أصبح صوت عطا الآن يشوبه الحرج.. فقطع هوفمستر قطعة من الخبز.. وهو يقول:
- شهيتك جيدة.. وبدأ عطا يمضغ الخبز.. دون أن يغمسه في صلصة اللحم.
ثم سأل عطا: والآن؟

- والآن؟ الآن سأشارك تيرزا في تطلعاتها.. إن كانت تتطلع لشيء.. وربما يكون لدي رأي من حين لآخر. ولكن غالباً لن أفعل ذلك.. فلماذا علي أن أفعل ذلك؟ وأنا أثق في رأيها. أما عن كيف يصبح الإنسان فاضلاً، فليس لدي علم بذلك على الإطلاق.. بل إنني أشك أصلاً في أن الإنسان يطمح لذلك.. ليس الأهم أن يبقى على قيد الحياة.. أكثر من أن يصبح إنساناً فاضلاً؟ وماذا عنك أنت؟ ماذا تتوقع حقاً من تيرزا؟ فيها عدا ما يخص مسألة الجنس؟
قالت تيرزا:

- بابا.. هل بإمكاننا أن نكتفي هذه الليلة بهذا القدر من الحديث.. ونلعب لعبة بنك الحظ؟

فصب الوالد كأس بوردو لكل منهم.. وهو يقول موضحاً:
- إنه موضوع مهم.. وخصوصاً إذا كان المرء سيسافر لموطن وباء الإيدز.

لقد كان هوفمستر يتحدث في الماضي عن الحياة الجنسية للإنسان. فكلما كان حظ الإنسان من ممارسة الجنس أقل.. كلما كان حديثه عنه أكثر. ولكنه لم يكن يتحدث بطريقة مبتذلة.. كمعظم الرجال.. ولكن أقرب ما يكون إلى حديث مليء بالمعلومات.. وبطريقة علمية تقريباً.. فكان يحلل الحياة الجنسية للإنسان. وخصوصاً إذا ما كانت صديقات تيرزا في البيت للأكل معاً.. فإنه لم يكن أبداً يريد أن يتوقف عن التحليل.

فقال عطا بصوت منخفض:

- أنا لا أعرف ماذا أتوقع من تيرزا.. هل إذا أحب المرء شخصاً فإنه ينتظر منه شيئاً؟

سأله هوفمستر: هل أنتهيت من طعامك؟
أومأت تيرزا أن نعم.. فوضع الأطباق فوق بعضها.. ووقف.. ثم قال:

- إذن أنت تحب تيرزا؟

كانت السخرية في نبرات صوته واضحة.. وها هو مرة أخرى الرجل الذي يريد أن يتنكر للحب.. الرجل الذي صار متأكداً.. أنه سينجح في ذلك.

فأومأ عطا أن نعم.. ووجد هوفمستر نفسه يفكر في إستر.. في حفل التخرج.. الذي كان يشعر فيه بغاية السعادة..

أكثر من تيرزا نفسها. هذا الحفل الذي كان يتوق إليه بكل حماس.

- هذا جميل.. أن تحب تيرزا.. جميل جدا.
- قالت تيرزا: بابا.
- انسحب متراجعا بهدوء.
- وفي الخزانة وجد لعبة بنك الحظ.
- قسم أوراق اللعب.. وأعطى لكل واحد منهم حجرا من أحجار اللعب..
- ركز ثلاثتهم في اللعب.. وانحصر حديثهم في ذلك فقط.
- ولم ينبت هوفمستر بينت شفة إلا عندما فاز.. وكان على عطا أن يسجل قرضا.. فسأله هوفمستر قائلا:
- هل قرأت فعلا القرآن؟
- رمى عطا النرد وقال:
- قرأت معظمه.. بدافع الفضول أيضا.
- رمى عطا أربعة مرتين.
- انحنى الوالد على لوح اللعب باتجاه الشاب وهو يقول:
- الفضول؟
- الاهتمام.
- حرق هوفمستر في يد الشاب.. التي يمسك بها حجرا أزرق.
- وقال: ثمانية.. لقد رميت ثمانية.. أنت ستأتي إلى فندقتي عندما كان يلعب هذه اللعبة في الماضي.. يصبح وكأنه يحصل الإيجار: خجول ولكنه يتسم بالشراسة.. وفي النهاية يكون دائما متعطشا للدماء.. كأنه يعود فجأة فيتذكر أن كل ما أحرزه من نصر ما هو إلا فشل محض.
- حتى إنني أحمله معي أيضا.
- حقا؟
- كانت تيرزا تشعر بالفضول.
- نحو ماذا؟
- سأل هوفمستر وهو قد شرد للحظة.. فلم يعرف إلى أين اتجه سير الحديث.. فكانت إجاباته تخرج تلقائيا.. أما أفكاره فشيء آخر.
- نحو القرآن.
- فقال الوالد:

- حقا.. إنني أيضا أشعر بالفضول.. إنني دائما أشعر بالفضول.. ليس فقط نحو القرآن.. بل نحو كل البشر.. نحو كل الآخرين عامة.. فالآخر دائما ما يفتنني.. لأنه يحدد من أكون.

هز الشاب رأسه معارضا:

- أنا أحدد من أكون.. أنا شكري.. وأعزف الجيتار.. وأحب ابنتك.. هذا ما أنا عليه.. وليس لأي أحد آخر غيري دخل في ذلك.

استمر اللعب لنحو عشرين دقيقة.. حتى ذهب التوتر.. وتقرر الفائز.

فذهبت تيرزا وصديقتها أولا إلى الأعلى.. وبقي هوفمستر قليلا في غرفة المعيشة.. لكي يطفى النار.. ثم أحضر الكؤوس والأطباق إلى المطبخ.. ثم طوى ببطء اللعبة على بعضها.. كان كل حركة يصدرها تؤلمه.. ثم تركها على الطاولة.. فلربما يلعبوا مرة أخرى غدا.. فهذه أيضا وسيلة لتمضية الليل.

فتح خزانة الملابس في غرفة نوم والديه السابقة.. حيث بعض

البزات لوالده لا تزال معلقة.. وأيضا قميص منسي.

تشمم الأشياء سريعا قبل أن يرمي على السرير.

والآن هو على يقين.. أنه قد أصبح لا شيء.. وإذا ما نظر الآخرون إليه.. فإنهم سيرون أن ثوبا أسود قد طرأ على حياته.. فمثله كممثل منظم الحفلات.. الذي أكل الدهر عليه وشرب وهو في هذه المهنة.. فأصبح لا ينشط في عمله إلا عندما يكون ضوء الكاميرا الأحمر مضيئا.

غفت عينيه.. ثم استيقظ في الساعة الثانية والنصف.. فخلع ملابسه ولبس بيجامة قديمة.. وواصل نومه.

كان الجو في الصباح التالي لا يزال ممطرا وغائما. ذهب هوفمستر بالبيجامة إلى المطبخ.. وطبخ ثلاث بيضات.. ولكن تيرزا وصديقتها لم يستيقظا بعد.. وهو لا يريد أن يوقظهما.. ولذلك أكل هو البيض دون تردد.. وهو يقف في المطبخ.

ثم بدأ بجز العشب في الحديقة.. ولكن لما بلغت الساعة الحادية عشرة وتيرزا وصديقتها لا يزالان نائمين.. وهو لم يعد يحتمل ذلك.. ذهب فطرق الباب.. باب غرفة الضيوف.. وينادي: تيرزا.. يا ملكة الشمس!

فتح الباب بحذر.

كانت ابنته لا تزال نائمة.. وهي.. على حد نظره.. عارية تماماً، ولا تغطي البطانية إلا نصفها.. وصديقها على الجانب الآخر من السرير.. هو الآخر قد نزع ملابسه بالكامل. ظل هوفمستر واقفاً في مدخل الباب.. ينظر إلى ابنته. أنها ستسافر غداً إلى إفريقيا.. فبعد أربع وعشرين ساعة بالتمام سوف يكون واقفاً يودعها في مطار فرانكفورت. فناداها: تيرزا.. إنها الحادية عشرة الآن.

كان رد فعلها الوحيد أن استدارت.. كان الأي بود العزيز عليها موضوع بجانبها على الكوميدينو، بجانب مذكرة سوداء اللون.. تلصق فيها في بعض الأحيان أشياء، مثل تذاكر السينما أو تذاكر القطار.. ومن حين لآخر أيضاً حساب المطعم.. وذات مرة وصفة لكعك العسل.. أو كيفية لصق زجاجات النبيذ المكسورة.

أغلق الباب في صمت.. وعاد إلى المطبخ فغسل يديه.. ثم خرج فجلس في السيارة.. ووضع رأسه على المقود، فلو رآه أحد لظنه نائماً. ومرت خمس دقائق حتى اعتدل فمدد ظهره.. ثم أدار المحرك، وقاد السيارة باتجاه القرية. فعلى الرغم من أنه قد جلب كل شيء معه من أمستردام.. إلا أنه سيتبضع مرة أخرى.

تعرف عليه أحدهم عند الحلواني.. وأراد أن يبدأ بالحديث عن والديه.. ولكن هوفمستر لم يكن يرغب في ذلك.

ثم مر على الحانة فشرب مسرعاً كأساً نبيذ.. قبل أن يعود إلى منزل العطلات.. وفي هذه الأثناء كانت تيرزا وصديقها قد استيقظا.. فجلسا في غرفة المعيشة على الطاولة.. ولا ترتدي تيرزا إلا تي شيرت طویل.. أما عطا فكان يرتدي جينزاً وقميصاً.. لا يمكن لهوفمستر أن يخطر على رأسه وصفاً لهذا القميص غير أنه كان قميصاً بالياً.

عرض عليهما أن يطبخ البيض أو يقلبه.. ولكنهما اكتفيا فقط بالفاكهة.. وقليلاً من الشاي والقهوة.

فقال: يوجد أيضاً غير الأشياء التي جلبتها من أمستردام.. عنب.. لقد أحضرته من القرية.

ثم غسل العنب وأحضره على طبق إلى غرفة المعيشة. سحب كرسيًا وجلس عليه.. وهو يبدو عليه أنه لا يرغب في ذلك.. ومن حين لآخر يمد يده فيأكل حبة عنب والخمول يعتري منظره.. ثم يبتلع بذور العنب.

ولما انتهى من معظم العنب.. قال له:

- أُرني إياه.

فسأله عطا: ماذا؟

سمع هوفمستر الرعب صادرا من صوت الصبي.. ممزوجا
بعدم الارتياح.. الناشئ عن احراجه.. فليس غير الإحراج هو
الذي يدل على انسانية الآخرين.
فقال هوفمستر:

- قرء أنك.. أُرني اياه.. أليس موجودا معك؟

ثم أخذ هوفمستر يبحث عن عنبه سليمة.. وهو يقول:

- لقد أنشأت إبنتي على الإلحاد.. ومع ذلك فقد قرأت
لهما من الانجيل.. تماما مثلما كنت أقرأ لهما من كتب
تولستوي وتورجنيف.. هل تعرف أجمل جملة في آخر صفحة
لـ أنا كارينينا؟ انها تقول " إنني لن أدرك أبدا بحكم المنطق..
لماذا أصلي.. ثم لماذا علي أن أوصل الصلاة؟ " هل تدرك ما
أعنيه؟

- أنا لا أعرف أنا كارينينا.

فقال هوفمستر:

- لا يفاجئني ذلك.. ولكن أحضره إذن.. أحضر قرآنك.

صعد الشاب إلى غرفة الضيوف بالأعلى.

وهكذا جلس الاثنان بمفردهما هذا الوقت القصير.. الوالد
وابنته.. فقالت له وهي تهمس:

- نبرتك عدائية بعض الشيء.

- أنا؟ إنني أجري محادثة. وأظهر الاهتمام. إنني أبذل

قصارى جهدي.

هزت رأسها وقالت:

- بابا.. هل تظن أنك في يوم من الأيام سوف تحصل على

صديقة.. صديقة حقيقية؟ أعني: هل تظن.. أنك ربما تقع في
الحب مرة أخرى يوما ما؟

تذكر زوجته، وعاملة التنظيف من غانا.. الذي كان
متورطا في علاقة جنسية معها لفترة من الوقت، ولكن على
نطاق صغير.. ولم يعلم أحد بذلك.. فلن يفضح أحد نفسه
بمثل هذا الفعل. كانت عاملة النظافة تكفيه كصديقة طوال
هذه السنوات.. ولكنه لم يكن ليحبها.. لأنه واقع في الحب..
انها تبرز النموذجية.. فهذا هو ما يطلب منه الآن.. الوقوع

في الحب.. كأن كل شيء ليس صعبا بما فيه الكفاية. وفي حب من؟.. وفوق ذلك عليه أن يسأل: هل أعرب لها عن ذلك؟ هل أعرب ملكة الشمس؟.. فالأب الحقيقي، والذي يستحق أن يطلق عليه هذا اللفظ، هو الأب الواقع في حب أولاده.. طوال حياته.. وحتى مماته.. وكذلك بعد مماته.. سألها:

- هل تريد أن تقولي.. أن علي أن أستخدم اعلانات المجلات؟

- لا أعرف.. ولكن كل ما أفكر فيه.. أنك لابد وأن تبحث عن شخص يناسبك.. فما كان بينك وبين ماما لا يمكن أن يستمر.. عليك أن تحب ثانية.. مثلي.

عاد عطا.. وهو يحمل كتابا أخضر.. فابتلع هوفمستر الملاحظة التي

كان يريد أن يبديها.. قال عطا:

- إنها طبعة بلغتين.. الإنجليزية والعربية.. انها لتيرزا.. فأنا في الواقع أيضا ملحد.

تصفح الوالد في الكتاب سريعا.. ثم قرأ منه آية.. وقال: جميل.. جميل للغاية.. ولكن ليس مثل تولستوي.

وفي محاولة منه لكي يبدو أقل عدائية.. سألها:

- ماذا يمكنني أن أفعل لكما؟

قالت تيرزا:

- لا شيء.. لا نريد أي شيء في الوقت الحالي.

هز كتفيه باستهجان.. ثم ذهب إلى الحديقة.. واستغرق

مرة أخرى في عمله.. فهي على الأقل جافة.. فكس أوراق

الأشجار وكومها.. وقلع الحشائش الضارة.. ثم أمسك بالمنشار

مرة أخرى لكي يقطع بعض الفروع.. التي تغاضى عنها

بالأمس.. فعندما يستغرق المرة في عمله، فإن الوقت ينقضي.. سريعا.

كان يفكر من حين لآخر في خاتمة حياته.. التي يعيش فيها

الآن.. ويفكر في الخادمة من غانا.. التي لم يكن يعدها

صديقته بالطبع.. فالصديقة هي شخص يكون بينها وبين المرء

رباطا أعمق من مجرد اتصال جسدي روتيني.. ولكنه على الرغم من ذلك كان يفكر فيها.

وشيئا فشيئا، وعلى غير المتوقع، نتج عن ذلك ارتياح متبادل بينهما.. فجاءت أيام لم تكن فيها خادمة هوفمستر فقط.. بل كانت أيضا عشيقته. وبطبيعة الحال أصبح يدفع

لها أكثر منذ ذلك الحين.. فهذه المرأة من غانا لم تكن تنظف بيت هوفمستر فقط.. بل تبقي له جسده بصحة جيدة.. وتنظف سوائل جسده.

علاوة على ذلك.. فإنه أقام لها حماميا.. كان يعرفه من أيام دراسته. واستطاع المحامي أن يساعدها في بعض الأشياء.. فقد كان وجودها غير قانوني.. ككل النساء اللاتي قدمن من غانا.. ولكنها كانت تنظف جيدا. وكان هوفمستر يعرف أن هناك علاقة بين امتثالها لذلك وبين حالة عدم قانونيتها الكاملة.. ولكن ذلك لم يكن يزعجه.. فلاشريعة الإنسان هي الباعث على امتثاله للأوامر.. وربما كان هو الآخر غير قانوني دون أن يدري.. لأنه لا يستطيع أن ينكر أنه هو الآخر بشكل ما يمثل للأوامر.

في حوالي السادسة بدأت السماء تمطر مجددا.. فأدخل كل الأجهزة إلى المطبخ.. وغدا عليه أن يحزمها ويأخذها معه.. أولا إلى فرانكفورت.. ثم يعود إلى أمستردام.. فهناك أيضا تحتاج الحديقة إلى العناية.. والحشائش والأشجار والشجيرات.

فتح زجاجة نبيذ وصب كأسا.. ثم نادى: تيرزا. ثم شرب كأسا آخر، ونادى مرة أخرى: تيرزا.. أين أنت؟ فذهب إلى غرفة المعيشة.. وهناك وجد ابنته تتمدد على طاولة الطعام. احتاج إلى وقت.. لكي يدرك الصورة. إنها لم تسمعه، ولم تره.

كان يقف تقريبا في الباب.. يحدق في المنظر الوحشي.. الوقح.. الذي لا يمكن إداركه.

كان المصحف لا يزال في مكانه.. وبجانبه الطبق بما تبقى من العنب.. ولعبة بنك الحظ.. كان هوفمستر يعرف أن عليه أن يذهب، ولكنه لم يستطع أن يزحزح قدميه من مكانها.. فقد كان كالمنوم. ولم يفهم لماذا لم تسمعه أو تراه.. أو حتى تلاحظ.. أن هناك شخصا آخر في الغرفة. فعز عليه أن ينظر إلى ابنته أو تنظر إليه الآن.. وهي على هذا الحال.. مستغلة، وممزقة.. وتتمتم بشيء ما.

كان عليه أن يتماسك.. فقد شغل بالغيثان.. كما لو كان قد أكل شيئا مثيرا للاشمئزاز.. كمحار عفن.. أو مادة غذائية سامة. انتابه الدوار.. فرجع خطوتين إلى الوراء.. واستند على

قضيب تذكية النار.. المعلق على حامله بجانب المدفأة..
وجعل يلهث ككلب مصاب بنزلة برد.. وجعلت الغرفة تدور
أمام عينيه.. ولكنهما ظلا لا يسمعا.. أو يرياها.. ماضيان في
لعبهما.. ألا تسمى هكذا؟ لعبة الحب؟

لم يجد بدا في النهاية غير أن يجرجر رجله، ويعود إلى
المطبخ.. حيث شرب ثلاثة كؤوس من النبيذ، ورطب وجهه
ويديه بالماء.

ثم عاد إلى الحديقة.. وبدأ بإزالة الأعشاب الضارة.. على
الرغم من هطوال الأمطار.. وخصوصا تحت الأشجار..
وبجانب المرح.. فقد كان هناك الكثير من هذه الحشائش.
كان يعمل كالمجنون.. كأنه قد عاد ثانية إلى العشرين من
عمره..

بدون توقف للراحة.. ودون حتى أن يمسح يديه. كان يعمل
كأن والديه لا يزالان يعيشان.. وهو لا يزال يسكن في هذا
البيت.. فكان يكبد في العمل كحصان المحراث.. فقد كان
والداه يعلمانه: أن لا شيء يجعل المرء سعيدا إلا العمل.

وبعد نصف ساعة أصبح مبتلا من المطر والعرق.. والتصق
به من الأرض في كل جسمه.. وحتى في أذنيه.. فجاد إلى
المطبخ.. ومسح يديه في أحد مناديل المطبخ.. فصار أسود..
ولكن من يهتم.

لم يعد يسمع لهما حسا الآن.. لقد انتهى اللعب.. هل
يمكن حقا أن نسمى ممارسة الجنس لعبا؟ ألن يعتبر ذلك
خطأ.. ألا يبدأ الجنس مباشرة بمجرد الانتهاء من اللعب؟
نعم.. إنه هكذا.. فالجنس يتوقف.. ثم يبدأ شيء آخر.
ولكن الموت هو الحقيقة، التي لا يمكن أن تكون ولن
تكون لعبا.

لم يعد يسمع لهما حسا.. فنادى: تيرزا.. تيرزا!!
وذهب إلى غرفة المعيشة.. كان الآي بود على الطاولة..
وكذلك المصحف.. وحجر نرد، نسي بالأمس أن يضعه مع بقية
النرد.. ولعبة بنك الحظ.

أخذ الكتاب.. وتصفح فيه.. ثم وضع هذه الطبعة ذات
الصفحات الرقيقة.. التي هي نمطية في كل الكتب المقدسة..
وكذلك أيضا في بعض الكتب القديمة من المكتبة الروسية..
وضعها على الطاولة.

كان حذاؤه يخلف آثار طين كبيرة.. فتوجب عليه أن يخلعه.. ولكنه لم يفعل ذلك.. كما كان الماء يتساقط من شعره.. وقميصه يلتصق بظهره.

فنادى مرة أخرى: تيرزا.

فصعد الدرج إلى الأعلى.. ولكنه توقف في منتصف طريقه وظل هكذا.. فقد سمع خرير الماء في الحمام.. ولكنه ظن أن ذلك ربما يكون صوت المطر أيضا. إنهما يأخذان دشا.. فبعد ممارسة الجنس يأتي الدش.. كما كانت تفعل زوجته دائما بعد أن ينام معها.. كانت تقفز مباشرة تحت الدش.. كأن هوقمستر حمام طين أو ما شابه.. ولكن تيرزا أجمل من أمها في شبابها.

عاد أدراجه.. وفي يده حجر النرد الناقص من لعبة بنك الحظ.. التي دائما ما تفقد أحجارها.. وخصوصا في الماضي.. لما كانت ايبى لا تزال تلعب بها.. ولا تتحمل أن تخسر.. فترمي بالأحجار حولها.. ثم يجذ المرء الأشياء تحت المدفأة بعد مرور شهر أو ما يقاربه.

وفي المطبخ فتح زجاجة نبيذ جديدة.. وهذه الزجاجة فيها النبيذ الأحب مذاقا إليه.. نبيذ العنب الإيطالي.. فشرب منها كأسين.. ثم نظف الحذاء. كان يشرب واقفا.. وتأتي إلى ذهنه خطرات - بطريقة غريبة - عن إستر.. التي تريد أن تتخلى عن الحب.

قرر هوقمستر أن يحضر شيئا دافئا للعشاء.. فلم يكن لديه رغبة في الطبخ في هذا اليوم الأخير. ولكنه يريد أن يكون معها.. مع تيرزا. وأن يستمتعا بمفردهما بالوقت المتبقي له معها. ولكنه مازال يسمع صوت الماء.. إنهما سيستمران في ذلك.. فهما يريدان الدفء.. بسبب ما كانا يفعلانه على الطاولة.

ولكن هوقمستر قال هامسا لنفسه: لا.. هذا ليس صوت الدش.. إنه المطر.. إنهما ينامان... وفي المطبخ غسل وجهه ويديه.. ولكنه شعر بأنه متسخ.. فخلع ملابسه.. وأخذ قميص والده.. ثم هرول إلى السيارة وهو يضع على رأسه كيسا بلاستيكيًا يحتمي به من المطر.. ثم قاد مسرعا إلى القرية.. عبر البرك.. والماء يتناثر عاليا.

وعلى الرغم من أن الظلام لا يحل في هذا الوقت من العام إلا في الساعة العاشرة.. إلا أنه كان يقود مشغلا الضوء العالي.. فقد كانت معالم الشوارع قد اختفت.. وفي بعض

الحدائق يرى حمامات سباحة بلاستيكية منفوخة.. فالناس كانوا يتوقعون طقساً مختلفاً عن ذلك.

تعرفت عليه البائعة في المطعم الإندونيسي. وسألته:

- أنت سيد هوفمستر؟ ما زلت أذكرك من الماضي.
فأوماً أن نعم.

- ماذا تفعل هنا؟

- لقد كنت أعمل في الحديقة.

- في هذا الطقس؟

تجاهل ملاحظتها. وقال لها:

- أحتاج طعاماً يكفي ثلاثة.. اجمعي لي كل ما هو لذيذ..

وضعي قليلاً من كل شيء.. وأضيفي الكروبو.. فابنتي

مهووسة برقائق الجمبري.. وهي ستسافر غداً إلى إفريقيا.. إلى

ناميبيا وبوتسوانا وزائير..

إنها تريد أن ترى كل شيء.

- أوه.. إلى إفريقيا؟



لم يكن هذا حقيقة بالنسبة إلى

المرأة شيء يذكر.. ف لديها الكثير من الأشياء الجميلة في بلدها..

إذا ما كان لدى المرء رغبة في القاء نظرة على الأشياء

الصغيرة.. مثل النمل.. والمقاهي الممتدة على الشاطئ..

والطرق.. والبيوت.. والطيور.. والكثبان الرملية.

- سوف أعد لك الرايس تافل.. إنها دائماً ما تكون لذيذة.

- أنها ستسافر لبضعة أشهر فقط.. ثم تعود السنة المقبلة للدراسة.

وبعد ربع ساعة تلقى كيسي من البلاستيك.. بهما طعام لثلاثة أشخاص.. إضافة إلى الكروبوك.

ثم قاد السيارة عائداً إلى المنزل.. وقد شغل راديو السيارة.. يستمع إلى فنان لا يعرفه يغني بالهولندية.

جهاز الأرز واللحم والسمك على طاولة الطعام.. ثم أشعل الشموع.. فمن تقاليد الاحتفال ألا ترى الأطباق البلاستيكية..

وفي الأكياس كان يوجد أيضاً أدوات طعام بلاستيكية.. فقرر أن يستخدمها أيضاً.. إذا ما اقتضت الحاجة ذلك.

ثم نادى: تيرزا.. الطعام!

وضع زجاجة النبيذ على الطاولة.. وفتح أخرى تحوطا.

مازالا بالأعلى.. سيأتيان حالا. إنه يعرف أنهما متمددان في السرير.. فهو يعرف ذلك من قبل.. فالجنس شيء جميل

وجيد.. ولكن لماذا يبقى المرء بعده مرتعياً في السرير لوقت طويل؟ .. أو ربما يصبح أسوأ: ويكون النوم أسوأ.. إذا ما

مارسه المرء في منتصف النهار.. ويشعر المرء بعدها بالكسل على أشد ما يكون. وإيبي كانت هكذا تماماً إن لم تكن أسوأ..

فكم مرة لم يحشر أنفه بين باب غرفتها في وقت متأخر من العصر.. ليرى كيف هي، إلا ويجدها نائمة بين أحضان وغد ما؟

بعد أن جامعته.. وإذا تحدث معها بهذا الشأن، فإنها تجيبه: أنت حقاً مجنون.

ولكنه لم يكن مجنوناً.. بل كان قلقاً.. فهو فمستر يستطيع أن يرى معالم المستقبل.. مثل معسكر تخييم يزوره للمرة العاشرة.

كان الآي بود الخاص بتيرزا موضوع على الطاولة.. فأخذه دون وعي وبدأ بتشغيله.. ثم وضع سماعة الأذن في أذنيه

وهو مستمر في شروده.. ثم بدأ يستمع إلى موسيقى لا يعرفها.. ثم وقف وبدأ يرقص.

وهكذا ترقص تيرزا معه أحياناً في المطبخ أو في غرفة المعيشة.. وتسمى ذلك: رقصة الديسكو الصامتة.

في العادة لا يرقص هوفمستر.. ولكنه الآن لا يخاف أن يراه أحد.. لأنه أصلاً لم يعد يدري بنفسه.

لم تتوقف الأمطار عن الهطوال.. فتحولت المنطقة التي بذر فيها بذور حشائش جديدة بالأمس إلى بركة من الطين..

فوضع الآي بود وذهب إلى الحديقة. وعندما رأى ما حصل

قال: بالأسف.. لقد جرف كل شيء.. كل البذور جرفت.. واخفت.

وضع يده في الأرض.. فلا بد وأن يتعلم الموت.. وهذا ما يفعله لتوه.. فهو ذاتي التعلم فيما يتعلق بشأن الموت.. وبينما هو متفرصا هكذا في حديثه.. حاول أن يبنى صورة عن اليوم التالي.. اليوم الأخير.. قبل سفر تيرزا.. اليوم الذي ستبدأ بعده فترة الختام من حياته.

سيستيقظ مبكرا.. كما يفعل دائما. ثم يعد إفطارا لذيذا لثلاثة أشخاص. وسياكل في المطبخ وهو يقف يعد الطعام، ولكنه على كل حال لن يكون جائعا جدا.. ففي مثل هذه الأيام ينسى المرء أمر الجوع.

سوف يحضر لابنته وصديقها الأكل إلى السرير.. فيجلسان مشدوهان دون أن يتفوها بكلمة.. لأنهما سيجدان ذلك غريبا وغير مطمئن.. في هذا اليوم الأخير في أوروبا القديمة.. أو هذا اليوم الأخير مع هوفمستر.. وحينها سوف تمسك تيرزا بيده، قبل أن يعود أدراجه إلى الأسفل، وتهمس إليه: بابا، أنت حقا لابد وأن تجد الحب مرة أخرى.. حب حقيقي.. مثلي.

ثم ينطلقون في الساعة الحادية عشرة.. احتياطا: بسبب الزحام.. وأعمال الإنشاء.. فلا يعرف المرء أبدا ما الذي سيؤخره.. وهو لا يريد أن ينزعج في السيارة.. فيصل إلى المطار وقد فقد أعصابه تماما. سيكونون في المطار في وقت مبكر جدا، فيشربون على عجلة فنجان قهوة في صالة المغادرة.. ودون أن يتكلموا كثيرا أيضا.. وسوف تفوح من يديه رائحة العرق.. سوف يتركهما بمفردهما عند نقطة التفتيش.. يترك الزوجين، اللذان ليسا زوجين.. ولكن هما هكذا خطأ.. وينتظرهما عندما ما يسمى بنقطة الالتقاء.. ولكن قبل أن يذهبا إلى نقطة تفتيش الجوازات.. سوف يأتيان إليه.. يعتريهما الخجل.

كان يود قول أشياء كثيرة.. ولكن عندما يحين الوقت.. فمن المؤكد أنه لن يتذكر غير أن يقول: اعتنيا بنفسكما.. وكذلك ببعضكما البعض.. كونا حذرين.

وسوف يصفحه عطا.. ثم يحتضن هوفمستر تيرزا.. فيتراجع عطا بأدب بضع خطوات.. وسوف يغالب هوفمستر دموعه.. فلا تظهر.. ويغلبها.. فهو دائما ما ينتصر عليها. وسوف يسألها: هل سيعمل هاتفك هناك؟

فتجيب: في الحقيقة.. يا بابا.. لم أشغل نفسي- بذلك..
 وحتى لو كان سيعمل.. فتكلفة ذلك ستكون عالية جدا!
 سوف يضغط على ذراعها.. ويظل يضغط حتى يخرج
 اليأس الذي بداخلها.. كما يضغط على أنبوبة المعجون ليخرج
 منها آخر ما تبقى من معجون الأسنان.
 سوف يقول لها: اتصلي بي عندما تصلين.. حتى لو كان
 الوقت متأخرا.. اتصلي حتى ولو كانت المكالمة على حساي.
 فتتركه وتقول: علينا أن نذهب إلى البوابة.
 - ولكن مازال لديك متسع من الوقت.
 فتقول: إن الطريق طويل وسوف يأخذ وقتا حتى نصل
 إلى هناك.
 فيذهب معها حتى نقطة مراقبة الجوازات.. وسوف
 يكون هناك قائمة انتظار طويلة.
 وعندما يفحص موظف الحدود جوازها.. سوف تلتفت
 مرة أخرى وتلوح لأبيها.
 فيرد هو عليها ملوفا أيضا.. ويواصل التلويح لها.. حتى لو
 لم يعد يراها.. سوف يلوح.. ويتابع إلى مالا نهاية.. فقد فعل
 ذلك في شيفول عدد لا يحصى- من المرات.. ويعرف كيف
 يكون الأمر.
 عندما حل الظلام وأوغل.. تبين له أن تيرزا وصديقتها
 مستغرقان في النوم. فذهب إلى الردهة، ونادى مرة أخرى
 ناحية الطابق العلوي.. ولكنهما لما يجيبا.. إذن عليه أن يلتهم
 الرايس تافل بمفرده. كان يقول في نفسه: يا لوقاحة هذا
 العطا: إنه يستغل كل شيء.. ويأخذ معه كل شيء.. ولا
 يساهم بنفسه أبدا في فعل شيء.. ولا ينخرط في المجتمع..
 وهذا ما يراه هوفمستر في ايبى وصديقتها أيضا.. فهما لا
 يظهران على الأقل ولو لتناول عشاء.. وهذا هو تأثير الملونين..
 وسلوكهم المعادي للمجتمع.
 وقبل أن يشرع في تناول الطعام.. صب لنفسه كأس نبيذ
 آخر.. وجلس على الطاولة.. وأخذ يحرق في الحديقة.. التي
 كانت يملكها والديه ذات يوم.. هذه الحديقة التي لطالما
 لعب فيها ايبى وتيرزا.. والتي سيقضي فيها اليوم القادم أيضا.
 لأن هكذا هي أفضل طريقة يمكنه بها أن يغالب دموعه..
 هذه الدموع التي لا يعترف بها.. مع أنها تسيل على خديه..
 بشكل مقيت.

استيقظ في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. لم يكن يستطيع النوم.. وحرصا أن لا يوقظ أحدا.. فقد دب على أطراف أصابعه نازلا الدرج. ففتح هوفمستر زجاجة نبيذ.. من نبيذ العنب الإيطالي.. وشرب كأسا على عجلة كأن أحدا سيلقي القبض عليه.

كان يخاف من أن يفقد عقله.. فكان ولا بد أن يفعل شيئا يبعث الهدوء في نفسه.. فذهب إلى الحديقة وهو يرتدي سرواله الداخلي.

توقفت الأمطار عن الهطوال.. وكان ضوء النيون المنبعث من المطبخ كافيا لأن يبدأ في تنظيف الحديقة. وكوم كل شيء مع بعضه.. الحشائش مع الأزهار مع الفروع.. ثم سوى الأرض.. وقسمها.. وبذر بذور حشائش جديدة.. نعم.. كان يجد في عمل ذلك.. ويكد في العمل، لدرجة أنه لم يشعر بالبرد وهو يرتدي هذه الملابس الخفيفة.

وبعد ساعة ذهب إلى المطبخ وفتح زجاجة نبيذ جديدة.. مع أن الأخيرة لا تزال ممتلئة لثلاث أرباعها.

كان يقول لنفسه.. لا داعي للقلق.. فسوف تعود تيرزا من إفريقيا.. ومرحلة اللاتيرزا سوف تكون قصيرة.. وسوف يبقى فيها على قيد الحياة.

سوف يأتي ضوء النهار ما إن ينتهي من العمل في الحديقة.. وحينها سوف ينظف الأدوات.. ويضعها في المطبخ على الأرضية.. حتى تجف.

وحتى يرتاح باله.. قام أيضا بتنظيف الردهة وحجرة المعيشة.. وكان زيارة طارئة سوف تحدث في أي لحظة.. ثم تصفح مرة أخرى سريعا في القرآن.. كتاب غريب لأناس غرباء.

ثم تمدد على السرير.. وسرح في أفكاره.. إنها تريدني أن أدخل في علاقة حب.. نعم.. ينبغي علي أن أحب.. ولكني هكذا بالفعل.. إنني غارق في الحب. وأخيرا نجح في أن يحصل على قسط من النوم لمدة ساعتين.

وفي الصباح كان كل شيء كما رتب له.. وهذه المرة لم يخيب المستقبل أمله.. حتى أنه وقف في مطار فرانكفورت.. ولوح.. تماما مثل الصورة التي تخيلها في ذهنه.

واصل هوفمستر التلويع بيده، كما كان ينوي، في البداية بيده اليمنى.. ثم بكلتا يديه.. وهو يتمدد ويمد في ذراعيه..

حتى تراه تبرزاً وهو يلوح لمدة طويلة قدر الإمكان.. مبتعداً عن كل الأيدي الأخرى الملوحة.. ظل يفعل ذلك حتى تأكد.. أنه أصبح لا يلوح لأحد.. كما كان يفعل في شيفول.
عاد ببطء.. أو ما يشبه المشي.. متنزهاً.. إلى مرآب السيارات.. وكان عليه أن يبحث عن سيارته لبرهة.
ولما وجدها.. وجلس أمام المقود.. لاحظ أن ظفره مازال أسوداً من الطين. يا لها من عطلة قضاها في الطين.. أو بالأحرى.. كان يعيش فيه.
وعندما أراد أن يبدأ بتشغيل السيارة.. رأى الآي بود

الخاص بتيروزا
أمامه.. فهم بالخروج من السيارة مهولاً إلى قسم الأمانات.. ولكنه تبين أنه لن يستطيع أبداً أن يتجاوز نقطة تفتيش الجوازات.

ظل جالساً في السيارة لبرهة متردداً.. وفي يده جهاز الآي بود الصغير.. وكذلك السلك الكهربائي كان قد نسيته. فاتصل بها.. فلربما يستطيع أن يرسله إلى النزل الذي ستقيم فيه.. وعلى كل فإنه لابد وأن يتصل بها حتى لا تظن أنها قد فقدت الآي بود الخاص بها.. فهي تعتمد على هذا الشيء عندما تجري.. ولكنها لم تعد تفعل ذلك.

اتصل بها، فأثارة صوتها من صندوق الرسائل: مرحباً.. أنا تيززا.. أنا لست هنا الآن.. ولكن اترك لي رسالة لطيفة.
وضع سماعات الأذن وبدأ يسمع الموسيقى التي تسمعها تيززا.. ومن حين لآخر.. كانت تأتي أغنية يعرفها.. فقد حملت من أجله أيضاً على الآي بود أغاني الأخوات أندرو.. وعندما تأتي الأغنية التي يعرفها يبدأ في الدندنة معها.
قطع الطريق السريع إلى أمستردام.. وهو يقود السيارة على سرعة مائة وثمانين كيلو متراً في الساعة.

وعندما اقترب من أوبرهاوسن كان عليه أن يتوقف لدى إحدى محطات البنزين.. فلم يعد يستطيع أن يواصل. ولا بد من الراحة.

ذهب إلى المراحيض.. وحاله كما لو كان في غيبوبة.. فوجد جميعها محتلة. فاضطر أن ينتظر خمس دقائق على الأقل حتى أصبح أحد المراحيض خالياً.. ثم تقياً فأخرج ما كان في جعبته.. كروبوك.. ونييدز.. ومرة أخرى كروبوك.

ثم غسل يديه وهو يقف أمام المرأة خجلا، بجانب بعض سائقي الشاحنات. ولكن ذلك لم يفده كثيرا.. التقيؤ، وغسل يديه ووجهه.. ولذلك عاد إلى سيارته مترنحا.

جلس أمام المقود.. وأمسك بالآي بود مرة أخرى.. وجعلت عيناه تتفحصانه.. بينما سافرت أفكاره إلى إفريقيا.. إنها في الجو منذ ما يقرب من ساعتين.. أين تراها تكون الآن؟ من المحتمل أنها في مكان ما فوق جنوب إيطاليا.

كان يعث بالجهاز وهو شارد الذهن.. فقد كان مستغرقا في تساؤلاته.. عما إذا كان قد انتهى حقا من منزل قضاء العطلات. ثم قلب الآي بود فرأى حينها أن شيئا محفورا على ظهره.. فبذل جهدا حتى استطاع قراءتها في هذا الضوء. فوجد أن كلمة "ملكة الشمس" قد كتبت موزعة على سطرين.

وضع الجهاز على الطبلوه وغادر السيارة.. وذهب مرة أخرى إلى التواليت. لا، لم يذهب. لقد ركض إلى التواليت. كان يشعر بحاجة ملحة إلى القىء.. وفي هذه المرة أخرج كل ما في جعبته.

كان يجلس منحنيا.. وهو لا يزال عاجزا عن التحرك.. يغمغم: ملكة الشمس.. ملكة الشمس.. فقد بعثت الكلمة الهدوء في نفسه.. فعامله سيبقي إذن.. طالما أن هذه الكلمة موجودة.

ثم عاد إلى السيارة.. وأدخل الآي بود والسلك الكهربائي في حقيبته.

وظل جالسا على هذا الحال لعدة دقائق.. ربما ربع ساعة.. حتى أطلق شخص ما بوق سيارته بصوت عال.. فانطلق بأقصى سرعة.. وهو يقول.. نعم، نعم.. لأنه يعرف أنه لا يمكنه النوم هنا.. فهذا غير مصرح به. نظر هو فمستر في ساعته.

إنهم الآن حتما قد تجاوزوا إيطاليا.. وهم الآن فوق ليبيا. إنهما الآن فوق إفريقيا.

فقال هو فمستر مخاطبا عجلة القيادة: لقد تغلبت على دموعي.

وصل إلى شارع فان ايجينزترات في أمستردام في تمام الواحدة والنصف.. ولم يحمل معه من السيارة إلا حقيبة السفر التي بها ملابسه، وفي نيته أن يحضر الأدوات إلى الكوخ

غدا. ثم فتح بحذر باب البيت، مفترضا أن زوجته ستكون نائمة.

ولكنه وجدها جالسة في غرفة المعيشة.. على طاولة الطعام.. تقرأ الجريدة.. وبجانبها زجاجة نبيذ. تجاهلته.. أو أنها لم تسمعه.. وظل هو واقفا لدقيقة.. والحقيقة لا تزال في يده.. ثم سألها أخيرا:

- ماذا تفعلين هنا؟

رفعت عينيها عن الجريدة ونظرت إليه. وقالت:

- إنني أفك شفرة.. وهي صعبة جدا.. لدرجة أنني أعرض على أسناني طوال هذا اليوم.
نقرت بالقلم على ذراعها.. وسألته:

- ماذا حدث؟

لم يكن يبدو عليها الاهتمام.. ولكنها مغضبة بعض الشيء.. فوضع حقيبته.. واقترب منها قليلا.. وهو لا يزال يشعر بطعم القيء في فمه.

- ماذا تعنين بذلك؟ ما الذي تظنينه قد يحدث؟

- أعني مظهرك.. إنك تبدو... تبدو... كيف أقولها، إنك تبدو مهلهلا جدا.

جلس على الطاولة.. وجعل يدلك يديه، وقال: إنه فقط الطقس السيئ.. وقد كنت أعمل في الحديقة.. وكان بها أشياء كثيرة توجب علي فعلها.. فاضطرتني ذلك أن أذهب إلى أماكن كثيرة.. وإلا خرب كل شيء فيها.. ولا أنتهي من قطع الفروع الميتة.. والأعشاب الضارة.. إلا وأجد غيرها.
قالت له: تفوح منك رائحة نتنة.

- ماذا تشمين إذن؟

أمسك بزجاجة النبيذ.. ولكنه لاحظ لتوه أنها فارغة. كان لديه رغبة في كأس نبيذ.. ولكنه لن يفتح زجاجة ثانية في هذا الوقت.. لا لن يفعل ذلك.

- رائحة نتنة.. رائحة عفونة.. سيئة جدا.. إنها بكل بساطة نتنة.. ولكن - كيف جرى الأمر؟ كيف كان الوداع؟

هز رأسه، وقد بدا الارتياح عليه، كأنه لم يتذكر إلا الآن أنه قد أوصل ابنته إلى المطار.. وأنه قد ودعها.. كما يفعل الأبوان.. عندما يترك الابن المنزل لفترة طويلة.

بدا على وجهه الارتياح، وكأنه لم يتذكر إلا الآن.. ماذا كان يريد.. نعم، لقد كان ينوي العودة إلى المنزل.. نعم العودة إلى المنزل.. فقال: مر بخير.. لم يستغرق وقتا طويلا.. وبدون ألم للفراق.. أنت تعرفين كيف تجري مثل هذه الأمور.. فكل شيء لابد وأن ينقضي سريعا.. في المطار.

ثم نهض واقفا.. وذهب إلى الحجرة.. وهو يشعر بها تتبعه بنظراتها. وهو يعرف أنها تتفحصه هكذا.. متسائلة، لماذا يبدو مهلهلا هكذا؟ ولكنها لم تنظر إليه طويلا.. ولم تعنى بذلك حقاً.. فقد نادتها الشفرة. ثم أي اهتمام هذا الذي يمكن أن يوجهه شخص نحو شخص آخر يعرفه جيدا؟ كما أنه يعرفه منذ مدة طويلة جدا.. مدة طويلة بشكل مريب.. مدتها نصف حياته.. لا اهتمام حينها.

خلع ملابسه في حجرة النوم.. ثم أخذ دشا.. وبعد أن جفف نفسه.. نظف أظافره بالمقص.. ثم خدش بها في الأرض.. ولكنه لم يحصل على النظافة التي كان يأملها.. ثم لبس سروالا داخليا نظيفا.. ثم رش مزيلا للعرق تحت إبطيه. وهكذا ذهب إلى حجرة المعيشة.. دون نية محددة.. ربما سقي النباتات أمر وارء.. فالأعمال المنزلية اليومية مهمة كافية.. وتبعث الهدوء في النفس.. ولذلك هو يحتاجها في هذه اللحظة أكثر من أي وقت.. ولا يريد أكثر من ذلك.

ما زالت زوجته تجلس على الطاولة مستغرقة في شفتها. جلس على الأريكة.. في ناحية أخرى من الغرفة.. وقد كان في الواقع يود أن لو شغل شيئا من الموسيقى.. ولكن الارهاق قد بلغ به كل مبلغ.. فسأل زوجته:

- ألم تخرجي من المنزل؟

فأجابه دون أن ترفع نظرها عن الجريدة:

- خرجت فقط لربع ساعة في الحديقة.. لماذا أخرج في مثل هذا الطقس؟

حديق هو فمستر في قدميه، فوجد أن أظافر قدميه تحتاج مرة أخرى لأن تقص.. قال:

- لقد أخذت دشا.

- جميل.

وما أن شعر بالقوة لكي ينهض.. حتى اتجه نحوها. وقال: لقد نظفت نفسي.. ولم يعد تصدر مني رائحة تننة.

فقال وهي تؤكد على كلامها: جميل جدا.

وقف هوفمستر بجانب المائدة.. بسرّوالة الداخلي. ولم يكن يحب فك الشففات.. ولا يطيق صبرا لذلك.. قفك الشففات شيء مخترع للناس الذين لا يأخذون اللغة على محمل الجد.

كان يشعر في داخله بحاجة إلى شيء ما، ولكنه لا يعرف ما هذا الشيء، ولا أدل علي أنه يشعر بحاجة ما.. من كونه حي.. ولكنها ليست الرغبة، وهذا يبدو رومانسيا، وليست شهوة في الجسد.. إنها كمثّل أن يتكلم مع زوجته.. وأن يسمع صوتها.. صوت أم أولاده.. فسألها:

- هل علمت أنني أنا والخادمة؟

- أنت والخادمة؟ أية خادمة؟ القديمة؟

- الجديدة.. من غانا.. هل علمت أنني وهي... أنه كان بيننا شيء ما؟ هل أخبرتك بذلك من قبل؟ هزت رأسها قائلة:

- لا، أنت لم تفعل.. ولم أعلم بذلك.. هل هذا ضروري؟ هل لابد وأن أعرف ذلك؟ هل تريد أن تتحدث عن ذلك؟ كان صوتها ممزوجا بقليل من السخرية.. التي تصدر صدى صوت كأنه أت من بعيد.

- في الواقع لا.. كنت فقط أظن.. أنني سأخبرك ذات يوم. وضعت القلم جانبا وهي تنظر إليه غير مصدقة، والذهول يعتريها فوق ذلك.. فهي تجد ذلك - كما يرى هوفمستر - شيئا غريبا.. وقالت:

- المرأة من غانا؟

جلس وقال:

- نعم.. المرأة من غانا.. لقد أخبرتك.. ذاك الخميس.. عندما عدت من العمل إلى المنزل أثناء استراحة الغداء، ثم.... ثم أخذتها. إنها تسمى هكذا؟ أليس كذلك؟

- نعم.. يمكن تسميتها هكذا.. لو كان هذا ما فعلته. أنا ليس لدي فكرة.. ولكن لو كان هذا ما فعلته.. فلا بد أن تقول "أخذتها".

- كل خميس وقت الظهر.. في الساعة الثانية عشر.. وكنت في أغلب الأحوال دقيقا في مواعيدي.. وكان الأمر يبدو وكأنني مريض.. كأنني مصاب بانفلونزا مثيرة للاشمئزاز.. ولكن ذلك حدث عن طريق الصدفة.. بدون تعمد مني.

وكنيت أنت آنذاك قد ذهبت إلى المركب السكني.. ثم أصبح الأمر كالطقوس.. ليس بمعنى أننا لم نكن نتحدث أبدا.. فلا يمكنك أن تفكرى بمثل ذلك.. ولكنها لم تكذب تتحدث الهولندية.. كما أن لغتها الإنجليزية أيضا ليست بأفضل من الهولندية.. إنني حتى قد أخذتها هنا.. هنا على الأريكة.. وليس في الأعلى.. فغرف النوم إنما هي لـ..... للحميمين. إنها شخصية.. وعلاوة على ذلك فقد كان السرير ممتلئا بالكتب والجرائد.. وهكذا وجدت أن هنا أيسر.. فقد قلت لنفسي: لو جاءت إلى الأعلى.. فسوف يتوجب علي حينها أن أزيل كل شيء من فوق السرير. وكنيت أرتدي ملابسـ بعد ذلك في الحال.. وأحيانا كنت أخذ دشا إذا لو كنت قد تعرقت كثيرا.. فأحيانا يتعرق المرء لأن هذه الفعلة قد استغرقت وقتا طويلا.. أو كانت مرهقة جدا.. فأنت تعلمين.. ما تنطوي عليه مثل هذه الأيام. وبعد ذلك تتابع التنظيف.. وأعود أنا بالدراجة إلى العمل.. ولم أكن أحبها، على الرغم من أنه كان من المحتمل أن يحدث ذلك.. فهي ليست قبيحة. ولكنه كان أقرب إلى.... جنس بين الأصدقاء.

- حقا؟ بين الأصدقاء.. ولماذا تخبرني بذلك؟
جعل يتلمسها.. يتلمس يدها.. وذراعها. يتلمسها فقط بأطراف أصابعه.. كما يفعل الأعمى.

- لقد ظننت: أنه سيكون جيدا.. إذا عرفت ذلك. إذا عرفت كل الأسرار.. فلماذا أبقئها سرا؟ ولماذا نخفي أي شيء؟ عن بعضنا؟ إننا حقا غرباء عن بعضنا؟ .. إننا نعرف بعضنا.. ولكننا غرباء.. إننا معارف.. أو زوجين سريين. وربما نصبح صديقين.. ربما.
ابتسمت وقالت:

- ربما.. ربما.. ولكن من الواضح أنه لم يحدث شيء من ذلك في الشهر الأخير.. إنني على كل لم ألاحظ أي شيء.

- نعم.. نحن منذ مدة طويلة لم يحدث بيننا أي شيء.. وهي تفهم ذلك.. كما أن الأمر ليس مهما بالنسبة إليها.. وهي تأتي دون أن تطلب أجرا لذلك.. ولكنني رغم ذلك أعطيها مالا إضافيا بانتظام.

كانت سداة فلين موضوعة على الطاولة.. ولم يساعده أخذ الدش على التخلص من رائحة فمه.. التي سببها القيء.. قيء رقائق الجمبري.. والكروبوك الرطب القديم.

سألها:

- هل حقاً تجديني إنساناً طبيعياً؟
- نظرت إليه في حيرة واستغراب:
- طبيعياً؟ لماذا؟ لماذا تسأل هذا السؤال؟
- هكذا.. دون سبب.
- أمسك بالسداة وجعلها تدور.
- هل أنا طبيعياً؟

- بريك يابورجن.. لماذا تريد معرفة ذلك؟ أعني: أليس هذا السؤال قد جاء متأخراً قليلاً.. فأنت تكاد تتقاعد. وقد تمكنت من مواصلة حياتك حتى هنا.. ولا تزال بقية منها أمامك أيضاً.. ولم يعد يهم ما أنت عليه. أعني: لقد انقضت حياتك.. ولا يهم ذلك بعد الآن.

سقطت السداة على الأرض.. فالتقطتها.. واصل كلامه:

-... ولكن متى يمكن للمرء أن يقول: لقد عشت حياة جنسية طبيعية؟ وهو لم يتمتع بالجنس أصلاً؟ أو يمارسه مرتين في غرفة النوم كل أسبوع.. في علاقة مع زوجة واحدة فقط، ومرة في المطبخ كل ثلاثة أشهر.. بعد حفلة عند الأصدقاء؟ متى تكون الحياة الجنسية للإنسان طبيعية؟ متى يستطيع المرء أن يقول، ودون كذب: إن لدي حياة جنسية طبيعية؟

لم يتوقف عن لمس ذراعها بأطراف أصابعه.. ثم وصل إلى كتفها.. وعنقها.. حتى انتهى إلى وجهها.

أغلقت الجريدة بعصبية:

- لا أعرف.. وأظن أن عليك ألا تسألني عما إذا كنت طبيعياً أم لا.. وما هو القدر الطبيعي. هل تعني: أقل شيء؟ أم المتوسط؟ وكيف يفعل الآخرون ذلك غالباً؟.. إنني أعرفك جيداً منذ فترة طويلة.. ولا يمكنني قول شيء عنك.. ولكن أسأل زملاءك.. أو ربما ابنتيك. أسأل أناساً آخرين.

كان رأسه يدق.. كأنه مصاب بجرح غائر.. ولكن هذا الشعور لم يكن شبيهاً بالصداع.

أراد أن يعرف منها.. بغض النظر عما قاله أو لم يقله.. أو ما ييوح به أو يحتفظ به لنفسه.. وبغض النظر عن الأسرار التي ستدفن معه في قبره.. فسألها:

- أي الأوضاع طبيعية في نظرك؟ وأيها ليست طبيعية؟
هل إذا سال الدم من فتحة الشرج.. فإن هذا أيضا طبيعي؟
وما هو القدر الذي يبدأ الشذوذ عنده؟ وما هي حدوده؟ ما
هي النقطة التي يتضح ذلك عندها للمرء.. وحينها يقول:
اللجنة.. لقد ذهبت بعيدا جدا.. وتخطيت حدودي.. ولا
يمكنني العودة، حتى لو كنت أريد ذلك، لم يعد يمكنني ذلك.
إنني في زمن آخر، ولكن ما هذا، أين أنا الآن؟ ما هذا؟
وسبأته الآن تلامس أنفها.

- هل يخرج الدم من فتحة الشرج؟ ممن؟ من المرأة من
غانا؟

بدا قولها كطرفة.. كنكتة لاذعة.. إلا أنه لم يكن يعرف في
البداية، ولا حتى الآن.. لماذا عليه أن يضحك.
صمت هوفمستر.. فلم يعد لديه شيئا يقوله. ولكنه
يتوقع أن تنهض زوجته لكي تذهب إلى الأعلى.. ولكنها ظلت
جالسة.. فقال بعد فترة:

- ربما أكثر شيء طبيعية هو عدم ممارسة الجنس على
الإطلاق.. أو أن يمارسه المرء بمفرده في الحمام.. أو مبكرا كل
صباح في السرير، ربما أنت كنت تفعلين ذلك، بينما أعد أنا
القهوة. وتكونين بمفردك مع أفكارك وتخيلاتك.. تخيلاتك
الغامضة التي لم تتحقق.. والتي لا يمكن لأحد أن يعاقبك
عليها.

كان في كأسها بقية من النبيذ.. فأمسكته وشربت هذه
البقية.. وقالت:

- لقد كنت خيالك.. هل تذكر؟ لقد كنت أنا خيالك.
كان مرهقا.. وأفكاره مشتتة.. فأوما برأسه وغمغم قائلا:

- خيالي.. نعم، هكذا كنت.
طوت الصحيفة.. وقامت وهي تمسك بالكأس.. وقالت:
- أنا ذاهبة إلى السرير.. لا تشغل نفسك بهذه أفكار
الكثيرة.. بشأن ما حدث مع المرأة من غانا.. إنها ليست إلا
خادمة.. لا تكن مجنونا.. أعني: لقد جاءت المرأة من غانا..
ومن المؤكد أنها قد عاينت هناك أشياء سيئة. وهي خادمتنا..
أو هي خادمتك.

ذهبت إلى المطبخ.. وتبعها. ووقف أمام البوفيه يحدق في
الساعة المعلقة على الحائط.. ويقول:

- إنهم الآن فوق مالي.. أو الكامرون.. ما اسم ذلك مرة أخرى؟

- من؟

- تيرزا ومحمد عطا.

- حدقا سويا لبضع ثوان في ساعة الحائط.

- ربما قد مرا أيضا فوق غانا.. ربما يحلقان الآن فوق منزل أسرة خادمته.

ثم ضحكت ووضعت ذراعها حول الرجل.. الذي أنجبت منه طفلين.

همس في أذنها:

- هل أنا مريض؟ هل أنا مريض؟ هل هذا ما لا يعرفه الناس؟

حركته وقالت:

- ولكنهم يعرفون بالتأكيد.. ولكن لا يهتمون. طالما أنك لا تثقل عليهم بذلك.

وذهبت إلى الأعلى.. بهدوء.. وكأنها تحاول ألا توقظ أحدا.. فنادها:

- وماذا يكونون إذن؟ إذا كنت أنا مريضا، ماذا يكونون هم؟

ثم فتح زجاجة نبيذ أخرى.. لكي يزيل طعم القيء من فمه.. شرب نصف الكأس.. ثم نادى مرة أخرى عاليا:

- ماذا يكونون هم إذن؟

ولكنه لم يلق جوابا.

وبعد سبعة أيام سألت الزوجة هوفمستر:

- هل قد اتصلت بعد؟

- من؟

- من؟ بالطبع تيرزا.

هز رأسه نافيا ذلك.

- من المؤكد أنها أرادت أن تتصل.. عندما وصلا؟

- هي قد أرادت ذلك.. ولكنها لم تفعله.

كان الجو قد أصبح حارا.. ولذلك كانا يجلسان في الحديقة، وكانت زوجته تتشمس عارية الصدر، حتى لا يوجد

في جسدها خطوط بيضاء.. وهذا لا يمكن تجنبه مع لبس البكيني.. سألها هوقمستر:

- هل علينا أن نقلق؟

أخذت كريم الشمس ولطخت نفسها به وقالت:

- بالطبع لا.. لقد كنت أتساءل فقط.. ما إذا كانت قد اتصلت أم لا.. فإيبي لم تتصل هي الأخرى أبدا.. إذا ما كانت في إجازة. ولكن تيرزا؟ لا أعرف.. ولذلك كنت أتساءل للتو. فأنا أجد أنها نموذجية وستتصل بك.. هل تفحصت بريدك الإلكتروني؟

وجعلت تدهن جسدها باحتراف.. كأنها تلك وظيفتها.. قال:

- لقد حاولت أن أتصل بها مرتين على هاتفها.. وهي لم ترسل أيضا رسالة الكترونية.. ليس لي على كل حال.. لم ترسل لك أيضا، أم ماذا؟

- إنها لم ترسل لي أبدا رسالة إلكترونية يا يورجن. وماذا حدث؟ عندما اتصلت بها؟

- فقط صندوق الرسائل.

خلعت الزوجة نظارة الشمس.

- نعم.. فهناك بالطبع لن تستطيع أن تستقبل المكالمات.. ماذا كنت تظن؟

كان يضع على رأسه قبعة من الشمس ليحمي رأسه.. فمنذ أن أصبح شعره خفيفا.. وجمجمته سرعان ما تحترق.. ولو حتى في الظل.. فيصبح الجلد أحمر.. ويبدأ في حكه.. اقترح قائلاً:

- هل علي أن أتصل بأحدهم؟

- بمن تريد أن تتصل؟

- النزل مثلا.. الذي كانا يريدان أن يقضيا فيه أول فترة.

- يورجن.. إن تيرزا مع صديقها في هذه الأثناء.. وهم في إفريقيا.. والجو حار.. ويقضيان إجازة.. فلا تتطفل عليهما.. أتعرف ماذا يفعل الاثنان طوال الوقت؟ إنهما لا يتوقفان عن الجماع.

- ولكن هل هذا هو ما أرادت من أجله الذهاب إلى إفريقيا؟ إنها أرادت أن ترى شيئا ما.. وتفهم شيئا ما.. وتعاين

هذا الشيء بنفسها. وأنت من سألت: "هل اتصلت تيرزا؟".
فإذن أنت من أثرت القلق هنا.. فلا تلوميني أنا.

- أنا لا أثير القلق.. لقد سألت سؤالاً محايداً: "هل
اتصلت تيرزا؟" هذا سؤال محايد.

- لا.. ليس محايداً.. ليس بالطريقة التي طرحتيه بها.
قالت بصوت فيه الازدراء والحقد:

- حسناً.. أتعرف.. إن ابنتك العزيزة هذه ما هي إلا
عاهرة صغيرة.. وطن نفسك على ذلك.. فهذه ليست كارثة.
فصاح:

- توقف.. أنت لا تتحدثين أبداً إلا حديثاً مبتذلاً.. توقفي
عن ذلك. والعاهرة الوحيدة التي منيت بها هذه الأسرة.. هي
أنت.

فتح في المطبخ زجاجة نبيذ باردة.. ووضعها على جبهته..
وهو يحدث نفسه: عاهرة صغيرة.. كيف يمكن لأحد أن
يسمي ابنته بالعاهرة؟ أي نوع من البشر هذا.. حتى يمكنه
أن يأتي على مثل ذلك؟

وفي المساء قام بالاتصال على النزل في ويندهوك.. الذي
كانت تيرزا تريد أن تقضي أول إجازتها فيه. فقد كان يحمل
كل تفاصيل رحلتها في مفكرة الجيب الخاصة به.. كما ينبغي
على الأب الجيد أن يفعل.

استقبلت اتصاله امرأة تتحدث الإنجليزية بشكل صحيح.
لم يسمعوا هناك بعد باسم تيرزا هوفمستر.. وليس هنا أيضاً
حجز بهذا الاسم.. ولا حتى هذا.. إذن ربما قد وقع خطأ ما..
إن كل التفاصيل تسجل هنا.. وهي ليست موجودة هنا.. ولا
حتى في الأسبوع الماضي.. ربما في السنة الماضية.. أو قبل وقت
طويل.. ربما.. فقال:

- دقيقة واحدة.

ونادى زوجته:

- ما اسم هذا الشكري كاملاً بالضبط؟
نظرت إليه نظرة حائرة.. وهي تجلس فوق الأريكة..
وقالت:

- ليس لدي فكرة.. كنت أظن أنك تعرف ذلك.. عطا..
لقد كنت تقول هذا دائماً.. عطا، أليس كذلك - أم ماذا؟ من
أين لي أن أعرف اسمه؟

تحدث هوفمستر بالإنجليزية عبر السماعه: شكرا.. أشكر
على كل جهودك.

ثم وضع السماعه.
جلس على الأريكة.. وبدأ الطنين في أذنيه.. وعادت إليه
الأصوات،
التي ليست موجودة، مرة أخرى.

- أوه.. يورجن.. إن تيرزا يمكنها أن تعتمد على نفسها.. لا
تتصرف مثل مراهق ولهان.. فسوف تعود.. إنها فقط تريد
بعض الهدوء.. وهي من المؤكد قد ذهبت إلى نزل آخر.. نزل
أفضل.. وبه حمامات نظيفة.. وليس به أسرة قدرة.. أنا أعرف
ذلك.

- لماذا سوف تريد أن تحصل على بعض الهدوء بعيدا
عنا؟ لقد تركتها دائما في هدوء.. وأنت على كل حال لم تكوني
تهتمي لها. هدوء! عما تتحدثين؟
أشعلت سيجارة.. فتابع قائلا:

- وبالمناسبة.. فأنت أيضا قلقة.. أرى ذلك في عينيك..
صحيح أنك تفعلين ذلك لأول مرة في حياتك.. وقد جاء ذلك
متأخرا.. ولكن أن يأتي متأخرا أفضل من ألا يأتي أبدا.

- لست قلقة.. مازال الوقت مبكرا على ذلك.. وطالما أن
القلق لم يأت بعد.. فالفضول يعتريني عن حالها، وكيف
تجري الأمور معها.. وهذا كل شيء.. ألا يجوز لي أن أهتم
بابنتي من لحمي ودمي؟ هل تريدها حقا لنفسك فقط؟
حسنا.. لقد كنت أقول عنها من حين لآخر أشياء قاسية..
ولكن من الأمهات لا تفعل ذلك؟ .. إنني حتى كنت أجمل
منها في مثل سنها.. وكنت أكثر حيوية.. وأنت تعرف ذلك يا
يورجن.. أنت تعرف أن ذلك صحيح.

فقال: أوه نعم.. ولكن تيرزا أيضا لا تحتاج أن تختفي
هكذا.

عندما نامت زوجته.. ذهب إلى حجرة تيرزا وبدأ يبحث.
لم يكن لديه فكرة عما يبحث عنه.. ولكن من المحتمل أنه
يبحث عن الإطمئنان.. ولكن لم يكن هناك شيئا ليجده.. ولا
حتى شيء من شأنه أن يبعث الأطمئنة عند رؤيته. لم يكن
هناك غير اليوميات التي قد قرأها قبل ذلك.. ومفكرة جيب
مكتوب فيها عنوان بريدها الإلكتروني وكلمة المرور..
وترتيبات قد علمت عليها بعد أن أنجزتها.. وصور وخطابات

من أصدقائها وصديقاتها.. ودفتر ملاحظات به رسائل قصيرة.. لم يدرك إلا بعد برهة إلا أنها رسائل محمول مسجلة.. فقال في نفسه إنها رسائل من الأصدقاء.. كانت هذه الرسائل مثل: اشتقت اليك.. أين أنت؟.. هذا النوع من الرسائل.. التي نقلت بدقة إلى دفتر الملاحظات.. بالساعة والتاريخ.. فقط لم يكتب فيها اسم المرسل.

جلس على السرير.. ثم نظر حوله.. فرأى علبة أدوات التجميل.. موضوعة على المكتب.. إذ لم تجد تيرزا لها مكانا في حنية الظهر.

وقف هو فمستر وفتح خزانة الملابس.. كانت الملابس معلقة حسب لونها. أمسك بزوج من الأحذية، وجعل يحرق في باطنهما كصانع أحذية.. ثم جلس مرة أخرى على السرير.. لقد نظفت الغرفة تماما.. وتركت كل شيء وراءها مرتبا.. وحماها مغطي بالغطاء لنصفه.. فكانت الغرفة تبدو وكأنها يمكن أن تأتي في أية لحظة.. إنها سترجع إلى البيت في أية لحظة.. وتكون كأنها راجعة من إحدى الحفلات.. مرهقة، وصوتها مبجوح، وتفوح منها رائحة السجائر والخمر.. وفي الأسفل في المطبخ تقف صديقاتها يواصلن الشرب.

تمدد على السرير.. ووضع رأسه على وسائد تيرزا.. وطوق الحمار الأزرق بذراعه.. وحاول أن ينام.. ولكن أربع شعرات من شعر تيرزا كانت على وسائدها.. فلم يستطع أن ينام. وفي الصباح الباكر ذهب إلى سريرته.. ولكنه لم ينام هناك أيضا.. فجلس في وضع مستقيم.. وراقب ظهور الفجر من خلال الستائر.. حتى استيقظت زوجته.. وهي تغغم:

- ماذا بك؟ يورجن لماذا لا تنام؟
- أنظر كيف يأتي النهار.
- لا زال الوقت مبكرا.. هيا نم مرة أخرى.. أنت تشعرني بالسعادة.

- لا يمكنني.
- ما الذي لا يمكنك؟
- لا يمكنني النوم.
- استلقي فقط.. وستجد نفسك قد غفوت.

ثم استدارت.. وسحبت الغطاء على نفسها حتى فوق رأسها.. وبقي هو جالساً وظهره مستقيم.

- هل تعرفين أنني لم أعد أعمل؟ أنه لم يعد لدي عملاً؟
لم يلق أي رد فعل في البداية.. ولكنها ما لبثت أن سألته:
إلى أين تذهب إذن كل صباح؟

- إلى شيفول.

- وماذا تفعل هناك؟

- أتجول هناك.. وأحرس المتاجر.

- أنت تحرس المتاجر؟ وتتجول حولها؟

- أولاً أتجول في صالة المغادرة.. ثم في صالة الوصول..
والوح للناس مودعاً لهم.

جلست الزوجة وأصبحت مستيقظة تماماً.

- تودع من؟

- أودع الناس.. من لا يودعه أحد.. أودعه أنا.

مسحت وجهها.. ومررت يدها خلال شعرها.

- ولماذا لم تعد تعمل؟

- لم يعودوا بحاجة إلي.. يريدون كسب الحرب بجنود آخرين.

- أي حرب هذه؟

- لا أعرف.. من المحتمل أنها الحرب على القارئ.. حرب الكتب.

- ولم تستطع أن تجد عملاً آخر؟ في دار نشر أخرى؟ أو في محل لبيع الكتب؟ أو مكتبة؟

- إنهم سيواصلون دفع راتبي إلى أن أتقاعد.. فأنا كبير في السن على أن أطرده.. ولكن لا ينبغي أن أذهب.. فهم لن يستطيعوا أن يستفيدوا مني بعد الآن.. لقد انتهت صلاحيتي وهم يحتاجون إلى جندي جديد.

قامت فذهبت إلى الحمام.. فسمع صوت الماء وهي تتبول.. ولما عادت، جلست بجانبه وسألته:

- والآن؟

- لقد قلت لك إنني أذهب كل يوم إلى شيفول.. يا له من مطار مثير للاهتمام.. يرى المرء فيه كل الأشياء الممكنة..

ولكنها في الواقع نفس الشيء كل يوم.. فمثله كمثله مصنع أو مسلخ.. يختفي شيء.. ويأتي شيء آخر فيحتل مكانه.
اضطر أن يعطس قبل أن يسألها:

- لماذا لا تتصل؟

- من؟ تيرزا؟ توقف يا يورجن.. هذا إرهاب.. أرقك هذا،
وقلقلك - إرهاب مطلق! وهو فوق ذلك معد.

فقال بعد تردد لم يدم طويلا:

- سأذهب.. لأبد أن أذهب.

- أين؟

- إلى إفريقيا.

- وماذا تريد أن تفعل هناك؟ تبحث عن عمل؟ هل تظن
أنهم قد يحتاجونك هناك؟

- ليس من أجل البحث عن عمل.. بل من أجل تيرزا..
فليس من الطبيعي أن لا نسمع صوتها كل هذه المدة
الطويلة.. وسوف أظل ألوم نفسي حتى نهاية حياتي.

- لا تتصرف بهيستيرية يا يورجن.

- لا أتصرف بهيستيرية.. فأنا أعرف نفسي.. إنني لا أريد
أن أضطر إلى لوم نفسي.. فيما بعد.
هزت الوسائد التي خلفها. وقالت:

- وأين تريد أن تبحث.. إنهم في النزل لم يسمعوا عنها
أيضا.. من أين إذن ستبدأ؟ هل تريد أن تهيم في الشوارع
وأنت تضع لافطة حول رقبتك؟ وتقتل الحانات بحثا عارضا
فيها صورتها؟

- من المفترض أن ويندهوك ليست كبيرة.. وسوف يكون
قد رأها أي أحد.. فسوف تكون واضحة هناك.. وربما أجعل
نفسي مجنوناً من أجل لا شيء.. وأيضاً ربما سأصرف بضعة
آلاف يورو هباء.. ولكن لا بأس.
أمسكته من ذراعه وقالت:

- لن يفيد ذلك بشيء.

- ماذا؟

- إنها في الثمانية عشر.. من عمرها.. كما أنها الآن مع
رجل.. وهي لم تعد طفلة يا يورجن.

- إياك وأن تجرؤي ثانية على قول عاهرتك الصغيرة.. سأضربك لو سمعتك تقولين ذلك مرة ثانية.
ضغط بيده على وجنتيه. إنه لديه ذكريات كثيرة سعيدة.. ولكنها كانت في حالة من الفوضى.. وأصبحت هذه الأفكار تربكه.. قالت الزوجة، بعد أن صارت هادئة مرة أخرى:

- لديها اهتمامات أخرى غير الاتصال بنا.. وذلك لن يفيد في شيء.. إنها في جولة حول العالم، أو ما تريد أن تسميها.. وبعد ذلك ستدرس.. أو تبقى إلى الأبد في جولة حول العالم، أو تفتتح بانسيون كما فعلت أبيي - ولكنها لن تعود يا يورجن. اجلب لنفسك حيوان أليف.. إذا كنت لا تحتمل أن يكون البيت صامت، أو تعمل في إحدى دور المسنين، إذا كنت تبحث عن التواصل، أو تريد أن تعتني بشخص.. ولكن السفر إلى إفريقيا لا معنى له. وسوف تجعل من نفسك أضحوكة، وخاصة لو وجدتتها - سوف تظل تضحك منك. لا وجود لها بعد الآن.. أقصد: في المنزل. فهي تبدأ حياة خاصة بدونك. وربما أنت لا تصدق ذلك - ولكنها تستطيع أن تفعل ذلك. نعم يستطيع الناس أن يعيشوا بدونك.. لقد استطعت أنا فعل ذلك.. واستطاعت أبيي فعل ذلك.. وسوف تستطيع تيرزا أيضا أن تفعل ذلك. ثم وعلى الرغم من ذلك: لقد عدت مرة أخرى. والآن أنت لم تعد بحاجة إلى تيرزا؟

- ولكن لو حدث شيء ما؟

- ولو حدث شيء ما.. فهذا أيضا قد جاء متأخرا جدا يا يورجن. فلو افترضنا أن عشرة من الزوج العراة قد اغتصبوها ثم قتلوها.. فما الفائدة إذن إن استقلت الطائرة الآن أو بعد أسبوع؟

ثم ضغطت على ذراعه.. كأنها تضيي بذلك تأكيداً على كلماتها.

لأذ هو فمستر بالصمت.. فأدلتها مقنعة، ولكنها لا تستطيع تهدئته، كما أن لديه شعور لا يكذب أنها هي الأخرى ليست مقتنعة تماماً بكلامها. لأبد وأن يذهب. رياه.. ألا تضمن بداية خاتمة حياة أحدهم راحة البال له؟.. لأبد وأن يذهب، من أجل راحة باله.. وراحة بال زوجته.. قال بهمس:

- دعينا نلعب.

- ماذا؟ ماذا تريد أن تلعب؟

- كما في الماضي.
- ماذا كنا إذن نلعب في الماضي؟
- أخذ نفساً عميقاً.. فلائد وأن يركز.. لأن من يريد راحة البال.. عليه قبل كل شيء أن يسيطر على عقله.. ثم قال:
- حجرة المعيشة كانت هي الفوندل بارك.
- فقلت:
- نعم.. ما زلت أعرفها.
- كنت أنت الفتاة التي تركب الدراجة.. أثناء الليل.. والظلام حالك.
- ما زلت أعرف ذلك أيضاً.
- وأنا كنت المغطى الذي يحمل السكين.
- "ولكن يا يورجن...." وجعلت تمسح على شعره. "كنا نلعب ذلك ونحن لا زلنا متحابين.. وقد كان جميلاً. ولكن الآن لم يعد ذلك ممكناً.. لأنها سوف تجعلنا حزينين.. لا، لن يمكننا أن نلعب.. فلن يتول الأمر إلى خير.
- أمسكها من معصمها وقال:
- دعينا نلعبها مرة أخرى.. مرة واحدة فقط.. نفعل فيها كما كنا نفعل في الماضي.
- لا يمكن ذلك.
- لماذا؟
- لأننا لسنا في الماضي.. نحن الآن.. كما أننا في الصيف.. وأنت مسرح من العمل.. صحيح أنك لست مسرح تماماً.. ولكنك معفي من واجباتك.. خارج نطاق الخدمة.. نعم أنت خارج نطاق الخدمة. عديم الفائدة، وقد قلت ذلك بنفسك ذات مرة، وتريد أن تعرف رأيي: لقد كنت دائماً هكذا. إن أقصى ما يمكن أن تفرح لأجله.. هو أن تتذكر الآن.. تبرز في إفريقيا.. ولم نسمع أي شيء منها.. وأنا.. أنا لم يعد يمكنني السفر لأي مكان.. ولذلك أنا هنا. وماذا ينبغي علينا أن نلعب؟ ومن أجل من سنلعب؟
- شبك بشدة على معصمها، وقال:
- مرة أخرى.. قبل أن أسافر إلى إفريقيا.. مثل الماضي.. أرجوك.

لم يعد لهذه الكلمة " خارج نطاق الخدمة " مكانا في رأسه.. فهم على كل حال قد فعلوا ذلك معه.. وكأنه لم يدرك ذلك إلا الآن.

- اتصلا مرة أخرى أولا قبل أن تقوم بهذه السفرة الطويلة.

- بمن سأصل؟

- اتصل مثلا بالسفارة الهولندية في ناميبيا.. ربما يعرفون شيئا.

تركها.. فقامت وفتحت الستائر.. وهي تهمس:

- إذا كان ولا بد أن يكون شيئا قد حدث.. فهم أول من سيعرف.. ولكنني على يقين أنها سالمة في مكان ما في الصحراء أو في الأدغال. وأنها سعيدة. إنها في إفريقيا.. إذن لن يكون هناك كابينة تليفون في كل زاوية من الشارع. ثم استدارت، وقالت:

- حسنا.. سنلعب مرة أخيرة.

أتى إليها.. فأمسكته من رقبته.. ووضع هو يده على كتفها.. فقالت:

- فقط لأننا محطمان.. من أجل ذلك فقط يا يورجن.. ولا تنسى ذلك.

في الصباح التالي تحدث إلى السفارة الهولندية في ويندهوك.. وكان الموظف في الناحية الأخرى على السماعه.. لم يحدث أي شيء هناك من حادثة أو جريمة.. سيكون كل شيء على ما يرام. كان الرجل يخبره بأنه لا ينبغي عليه أن يقلق.. فالهواتف العمومية في ناميبيا تعمل بالكارت، وهي ليست في كل مكان، وبالتالي قلن تكون في الصحراء. أخبر هوفمستر زوجته بما قاله الموظف كلمة بكلمة تقريبا.

إنهما يعيشان كأن شيئا لم يحدث.. كأن لم يكن هناك مركب سكني.. أو اختفاء.. ثم عودة.. أو كأن لم يكن هناك حفلة تخرج.. كانوا يعيشون كأنهم على سفينة بدون ربان قد اصطدمت بالصخور.. وتنتظر الرياح لتحملها إلى أي اتجاه. وكل صباح يذهب هوفمستر إلى شيفول.. وعلى الرغم من أن زوجته قد أخبرته بضعة مرات.. وهي تصر على أن يتوقف عن هذا الهراء. ولكنه أوضح لها أنه لا بد وأن يخرج بعض

الوقت من المنزل، وإلا أصبح مجنوناً. ولذلك كان يغادر مسكنه كل صباح.. حاملاً حقيبتته، يتجول في صالات المطار، ويتصفح من حين لآخر مخطوطة الكاتب الأذربيجاني.. كل ذلك حتى لا يصيبه الجنون.

و ذات مساء بعد مرور أسبوعين كاملين على سفر تيرزا، وبينما هما في الحديقة قالت له زوجته:

- ربما علينا أن نتصل مرة أخرى؟

- بمن؟

- بالسفارة في ويندهوك.. فلربما حدث إضراب هناك في وسائل المواصلات العامة.. وقد علقا في مكان ما.. أو كان هناك عاصفة رملية.. فنحن لا نقرأ أبداً عن ناميبيا شيئاً في الجرائد. أم أنه وصلت معلومات عنها؟
قام من فوق كرسي الحديقة، وبدأ في المشي جيئةً وذهاباً.. ثم سألهما:

- وماذا سأقول في رأيك؟ أقول معذرة.. ولكن هل هناك إضراب عندكم في وسائل المواصلات العامة؟ هل كان هناك عاصفة رملية؟ هل تعتقدين أن السفارة تكون على علم بكل عاصفة رملية هزيلة؟ .. سوف يظنوني مجنوناً. علاوة على ذلك، فإنها يمكنها أن تشير لأي شخص فيقلها مجاناً.. فذلك طبيعي هناك.. أنا أعرف السود.. فهذه إفريقيا وليست إلزاس أو جبال الألب النمساوية، وفوق ذلك، فإنني اتصلت بالسفارة من قبل.. ومن المؤكد أنهم ما زالو يذكرون الاتصال.
- اجلس.. فلن يفيدك هذا الضيق بشيء.. ولن يجعلك أفضل.

ففعل ذلك.. متعثراً في وعاء المكسرات الذي تضعه زوجته بجانبها على الأرض.. فقد كان مساء جميلاً.. دافئاً ولا رطوبة فيه.. وقال:

- اتصلي أنت.. اتصلي أنت وإلا سأسافر.. وربما ينبغي علي ذلك على كل حال.. فما نحن فيه لا يفيد بشيء.. لن يفيد هذا الإنتظار ولا هذه المنازعات ثم مواصلة الإنتظار.. ولن يفيد هذا التوتر من أجل لا شيء على الأرجح.
ظلت صامتة لبرهة.. ثم انحنى لتجمع المكسرات التي تبعثرت خارج الوعاء.
ولما انتهت قالت:

- نعم.. ربما ينبغي عليك أن تسافر.
- ماذا تعنين بذلك؟
- أصيب بصدمة من قولها.. فأجابته وهي تأكل ما جمعته من مكسرات:
- كما قلت.. ربما عليك أن تذهب.. فما الذي يمكننا فعله ونحن جالسين هنا؟
- كانت الكرسي التي يجلسون عليها قديمة.. فقد كان هوفمستر يرى أنه سيضيع الكثير من وقته، لو اهتم كثيرا بمقاعد الحديقة.. صحيح أنه يحب أن يترك انطباعا، ويبدى أهمية لنمط معين، وخاصة بسبب الناس، ولكن أثاث الحديقة ليس له الأولوية في ذلك.. قال:
- وبعد ذلك.. عندما أكون هناك؟
- أنت من بدأ ذلك.. لقد كانت فكرتك. وبعد ذلك تجدها: وبعد ذلك يختفي قلقنا. وهذا كل شيء. وبعد ذلك ... نعم، بعد ذلك لا أعرف أنا الأخرى شيئا.
- مال إلى الوراء وقال:
- أنت.. أنت لم تعتني بها أبدا.. ولم تتصلي بها ولو مرة في السنوات الأخيرة.. فقد كنت مشغولة جدا.. والله وحده يعلم بماذا كنت مشغولة. والآن تأتين وتلعبن دور الأم القلقة.. المرأة التي لا يمكنها النوم.. لأنها لا تعرف أين مكان ابنتها في ناميبيا.. إذا كانت أصلا لا تزال موجودة هناك.. فرمما تكون قد ذهبت إلى بوتسوانا.. أو زائير.
- كان لدي حياتي الخاصة بجانب حياة بناتي.. نعم هذا صحيح.. ولكن هذه ليست جريمة.. فهذا حقي الخالص.
- بجانب؟ هل تسمين ذلك بجانب؟ حياتك لم تكن بجانبهما.. بل كانت بدلا من حياتهم.. بدلا منهما مائة بالمائة.. هكذا كانت حياتك، وليس بجانبهما.
- إنني مهما فعلت طوال هذه السنوات أو تركت.. ومهما قلت عنهما، وهما قالا عني.. فإنني سأبقى أمهما.. صحيح أنني لم أعد زوجتك.. ولكنني سأظل دائما أمهما.
- نهض واقفا.. وذهب إلى المطبخ فوضع مفصله تحت صنوبر الماء البارد.. وهو يرتجف، ثم جفف يديه على مهل ونظر إليها وهي تطوي مقاعد الحديقة على بعضها.. وتذهب

بها إلى الكوخ، فمن الواضح أنها بدأت تشعر بالبرد.. ثم وضعت كؤوس النبيذ والمكسرات على صينية، وجاءت نحوه وهي تنظر إليه.
فقال بصوت هامس:

- حسنا.. سأسافر.. معك حق.. يجب أن أفعل ذلك..
فمن الأفضل أن يذهب المتقاعد إلى إفريقيا.
وضعت الصينية على البوفيه وأمسكت يده برقة أثارته..
فالرقة في
هذه المرحلة من حياته هي أكثر ما يثيره.

- بل من المحتمل أن تسعد بك إذا ظهرت أمامها فجأة
في إفريقيا.. ألا تعرف أن تيرزا تكن لك أعرق الحب؟ إنها
مجنونة بك.
فقال:

- نعم، ربما.. من المحتمل أن تسعد.. ولا عجب من ذلك..
فهي تحبني كثيرا.
سحب يده بعيدا عنها.. ووضع رصغيه مرة أخرى تحت
صنبور الماء البارد.

وفي الصباح التالي حجز على طائرة خطوط شمال إفريقيا
الجوية.. التي تسافر عبر زيوريخ ويوهانسبرج إلى ويندهوك.
كان عليه أن ينتظر ثلاثة أيام حتى ينطلق.. فالحجز قد
انتهى في الأيام التالية.. وأصبح من الصعب الحصول على
تذاكر رخيصة.

لم يذهب في اليومين اللذان قبل السفر إلى شيفول.. بل
قام ببعض الأعمال في الحديقة.. وتسوق.. وتنزه في الفوندل
بارك.

وفي المساء قبل السفر أعد حقيبتة الصغيرة الزرقاء.. الذي
كان يأخذها من قبل في رحلات العمل. والحق يقال إنها لم
تكن رحلات عمل كثيرة.. فلم يذهب فقط إلا إلى نيويورك
وتورين.

لم يأخذ أشياء كثيرة معه.. اكتفى بمعطف فقط..
وقمصين صيفيين.. ففي نيته أنه لن يبقى طويلا.. فعشرة
أيام لا بد وأن تكون كافية.. والمرء يمكنه أن يفعل كثيرا في
عشرة أيام.

وفي السبت الثاني من أغسطس.. في حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر.. كان قد أصبح جاهزاً للسفر.. وأصبح جاهزاً لأن يغادر الفنان إيجينز شتراًت.
كانت زوجته تجلس في الحديقة.. تقرأ في إحدى المجلات النسائية. فنادها من المطبخ:

- سأقف امام الباب.. فقد طلبت سيارة أجرة.
فقالت:

- انتظر.. أريد أن أعطيك شيئاً.
ذهبت إلى حجرة النوم وعادت وفي يدها طرد.
فسألها:

- ما هذا؟

- افحه فقط.

فتح الطرد.. فوجد فستانا بداخله.. فستان صيفي أزرق اللون.

- من أجل تيرزا.. كان ثمنه معقولا.. وهو مقاسها بالضبط.. وبملاحظة بسيطة فكرت أنه سيناسبها جدا هناك.
ضحك وهو ينظر إلى الفستان وقال:

- كم هذا لطيف منك.. ومفعم بالحب.. سوف يناسبها، فهذا ذوقها وهي تحب هذا الشكل البسيط.
طوى الفستان بعناية مرة أخرى.. ثم فتح الحقيبة سريعا.. فوجد مكانا تحت شنطة أدوات الحمام يتسع لطرد زوجته..
ثم قال:

- سأتصل عندما أصل هناك.

ألثمها قبله سريعة على خدها.. ولكنها لم تعد إلى الحديقة.. بل رافقته حتى باب المنزل.. ثم قالت:

- سيكون كل شيء على ما يرام، وسوف تري. نحن قد كبرنا في السن.. ولذلك نقلق كثيرا على أطفالنا.. لأننا عجوزان ونشعر بالملل.
فقال:

- نعم.. بسبب ذلك.. لقد أصبحنا عجوزان. هيا عودي بهدوء إلى الحديقة، واستمتعي قليلا بأشعة الشمس.. فالسماء عما قريب ستمطر.
قالت:

- خذ هذا.. لابد وأن تأخذ معك هذا أيضا. وأعطته مظلوما.

فأخذه بتردد.

- وماذا بداخله؟

- صورة.. لقد فكرت فوجدت أنه سيكون أفضل لو أخذت معك صورة.

أخرج الصورة من المظروف.. إنها صورة لتيروزا.. التقطت لها قيل وقت ليس طويل من حفل تخرجها.. بضعة أيام.. أو ربما أسبوعين.. فقال:

- شكرا.. أين وجدتها؟

- في غرفتها. لا يدري المرء أبدا.. فرما يمكنك أن تستفيد منها.

- لا يدري المرء أبدا.

وأدخل المظروف في جيب صدر قميصه.

سألته:

- هل أخبرت إيبى بشيء؟

فقال:

- لا.. لم أفعل.. لم أتحدث معها في الأيام الأخيرة.

عادت إلى الحديقة.. ووقف هو أمام باب البيت.. بجانب حقيبة السفر وحقيبة اليد.. وبها الآي بود.. والشاحن.. وأجندة التقويم الخاصة بتيروزا.. وذفتر ملاحظاتها التي تسجل فيه الرسائل القصيرة.. ومخطوطة الكاتب الأذربيجاني وأقلامه الرصاص الأربعة.

اضطر أن ينتظر عشر دقائق على الأقل.. وفي هذه الأثناء مر عليه جار له فحياه أثناء مروره.. فهو يجري أمام منزله من حين لآخر كأنه نمر في قفص.

كانت أمتعته تقف أمام الباب وتنتظره.. فخيل إليه أنها تريد قول شيء له.. ولكنه لا يعرف ماذا تريد أن تقول.. وفي أثناء الطريق إلى زيوريخ كان من حظه أن وجد مقاعد خالية بجانبه.. فكان بمفرده.. وذلك ساعده على النوم، ولكن في أثناء الطريق من زيوريخ إلى يوهانسبيرج جلس بجانبه زوجان فرنسيان. وأثناء الأكل تطورت بينهم محادثة.. فأرادا أن يتعرفا على جنوب إفريقيا - وعليه أيضا.. أرادا أن يتعرفا عليه أيضا.. فأجابها بفرنسية لا بأس بها:

- إنني في زيارة لا بنتي.
- في يوهانسبيرج؟
- في ويندهوك.
- وقطع شريحة الدجاج التي أمامه.. وانتهى الحديث بذلك.
- وبعد الطعام أخرج المخطوطة وأقلامه الرصاص وبدأ كالمعتاد في القراءة.
- ظل منتظرا في يوهانسبيرج ما يقرب من أربعة ساعات. وكانت رأسه تؤلمه من شدة التعب.. فطلب قهوة.. وجلس بجوار نافذة تطل على مدرج المطار.. ولكنه يشعر بالقلق الشديد.. من أن يظل جالسا لوقت طويل.
- تجول خلال الصالة حاملا الحقيبة.. ولم تكن الصالة كبيرة، وخاصة بالمقارنة مع صالة مطار شيفول أو فرانكفورت.. وهو يخرج المظروف من جيبه مرارا وتكرارا وينظر إلى صورة ملكة الشمس. ثم اشترى محولا كهربيا من إحدى المحلات ليستعمله في جنوب إفريقيا وناميبيا.. واشترى أيضا قبعة للوقاية من الشمس. فالشمس ستكون حامية هناك.. ثم وضع القبعة فوق رأسه.. ونظر في المرأة.. وحينها قرر في الحال أن يأخذها.. فهي لا تبدو سيئة.. كما أنها تظهره بمظهر متميز.
- وأصبح رجلا يرتدي قبعة.
- ثم ذهب هذا الرجل ذو القبعة مبكرا جدا إلى بوابة صالة التحميل.
- فقال له إحدى المضيفات:
- عذرا يا سيدي.. ولكننا لم نبدأ بعد بتحميل الطائرة.. سيبدأ التحميل بعد ربع ساعة.
- فرجع بضع خطوات إلى الوراء وانتظر.. همست المضييفة إليه.. ثم سألته:
- هل تقوم برحلة إلى ناميبيا؟
- فأخرج المظروف من جيبه وقال لها بإنجليزية مقبولة: إنني أريد زيارة ابنتي. ثم أظهر لها صورتها.. فقالت:
- يالها من فتاة جميلة.. أحبيك على ذلك.. كما أن لها عينان تشعان حياة.

نظر إلى الصورة مرة أخرى.. ربما، لكي يتفحص عينا تيرزا التي تنبضان حيوية.. وفي الطائرة لفت نظره أن الناس يبدوون مختلفين.. إنهم من الجنس الأبيض مثله، ولكنهم مختلفون عنه.. فملابسهم مختلفة.. ووجوههم مختلفة، بل وحتى طريقتهم في الحركة مختلفة.. وكان يسمع لغة ألمانية.. وأفريقية.. وإيطالية.. وقليل من الإنجليزية.

جلس في الطائرة بجانب إيطالي.. كان يسافر مع رفقة له.. وكان الإيطالي ممسكا بدليل السفر.. يتفحصه كأنه يذاكر فيه.. ومن حين لآخر يضع خطا تحت شيء لاحظته.

ومما فاجأ هوفمستر أنهم يتلقون وجبة في هذه الرحلة القصيرة أيضا.. فقد قدموا إليه لحما وبازلاء.. ولكنه أخذ بضع قضمات فقط.. فلم يكن يشعر بالجوع.

وعندما كان الطاقم يجمع السرفيس.. سأله الإيطالي بإنجليزية لا يكاد هوفمستر يفهمها: أول مرة؟

- أول مرة في ماذا؟

- إفريقيا؟ أول مرة؟

فأوما هوفمستر:

- نعم أول مرة.. إنها مررتي الأولى.

فقال الإيطالي:

- إنها ثاني مرة بالنسبة إلي.. إنني أحب إفريقيا.

فأوما هوفمستر.

شعر بالنعاس.. فأراد النوم.. أراد نوما طويلا وعميقا.. كنوم الشتاء الذي يمضي شيئا فشيئا إلى العدم.. بعيدا عن كل شيء.. بعيدا عن الحياة نفسها.

وعند الهبوط كان هناك بعض الاضطرابات.. لم يشعر هوفمستر حينها بالخوف.. ولكن الاهتزاز جعله يشعر بالتوعك.. فتشبث في المقعد وهو يتسنعج.. خوفا من أن يضطر إلى القيء.

ولما استقرت الطائرة على الأرض.. نظر من النافذة.. منتظرا أن يكحل عينه بشيء مثل مدينة أو حتى على الأقل بعض المنازل.. ولكنه لم يكن ينظر سوى إلى صحراء.. صحراء ذات ألوان مختلفة.. بعضها أحمر.. والبعض الآخر رمادي.

كان مطار ويندهوك صغيرا.. ولكن هوفمستر وجده رائعا.

أخذ قبعته من رف الأمتعة المحمولة، وترك الآخرين
يمرون قبله.. فقد كانوا على عجلة من أمرهم.. أما هو فلم
يكن كذلك.

وعلى أرض المطار لم ير غير طائرة واحدة فقط غير
الطائرة التي كان يركب فيها.. كانت طائرة رمادية كبيرة..
عليها نقش باللغة الألمانية "سلاح الجو".

وعندما حط هوفمستر رجله على الممشى، ظل واقفا
قليلا.. يستنشق الهواء الساخن. فهنا حطت تيرزا.. وهنا
تتجول. هنا في ويندهوك.. إنها لا بد وأن تكون في مكان ما
هنا.. هنا حيث أرادت أن تأتي.

نظر إلى السماء فرأى غيمات فيها.. غيمات كثيرة. ولم تكن
الحرارة

سيئة جدا كما كان يتوقع.. ولكنها حرارة مصحوبة بالجفاف.
وبعد حوالي عشر دقائق وقوفا في الطابور وصل إلى ضابط
الحدود البدينية.. فأعطاهم الاستمارة التي قد ملأها بينما كان
في الطائرة... فسألته:

- سبب زيارتك؟

- السياحة.

ولكنه قد علم عليها في الاستمارة؟ ألم تصدقه؟ .. فأخرج
المظروف من جيبه.. وأظهر لها الصورة، وقال:

- ابنتي.. أريد مفاجأتها.

فنظرت إلى الصورة.. ثم وضعت ختما في جواز سفره.
لم يلاحظ إلا عندما كان عند شريط الأمتعة في صالة
صغيرة قائمة بعض الشيء أنه يبدو مختلفا للآخرين.. إنه
مختلف عن الركاب الآخرين.. ببنتاله متقن الصنع الذي
اشتراه من أمستردام.. سترته البالية بعض الشيء.. ولكنها
مثالية.. والقبعة التي يرتديها.

إنه هنا هو الغريب.. هو الأجنبي.. ولا يستطيع أن ينكر
ذلك. ولكن هذه الحالة لا تجعله يشعر بالاستياء.. فهو
يعجبه الأحداث العابرة والمؤقتة التي ترتبط بهذه الحالة..
فهو أجنبي لا يستطيع فعل أشياء كثيرة.. وتبعات أفعاله
محدودة.. كما أن هذا الأجنبي سوف يعود قريباً.. وما حجمه
أمام حجم الطبيعة؟ إنه كمثّل ورقة في مهب الريح.. أو كيس
بلاستيك تسيره الريح حيثما ذهبت.

ولما أخذ حقيبته.. ذهب بكل عزم إلى صالة الوصول.. فالأمر في هذه الحالات يعتمد كثيرا على مثل هذه الخطوات التي تملؤها العزيمة.. وهذا شيء مؤقت بالنسبة إليه.. فهو رجل انتقالي.. ولذلك يمكن لأي شخص أن يتخطاه بسهولة. شعرا أيضا نحو صالة الوصول بنفس الانطباع الذي تملكه عن أرض المطار.. فهي مذهلة كأنها بيت دمية. ثم رأى ماكينة الصراف الآلي في إحدى الزوايا.. فحاول سحب بعض النقود ولكنه لم ينجح.. كما أن مكتب الصرافة كان مغلقا.. أخرج من جيب بنطاله منديلا، وجفف وجهه.. ثم أخذ نفسا عميقا. وعبثا راح يبحث عن شيء مثل مركز للمعلومات السياحية.

ثم خطى خطوات تملؤها العزيمة خارج الصالة.. والحذاء الذي نظفه في أمستردام يشع لمعانا. ناداه شاب: تاكسي؟ ثم أخذ الحقيبة من يد هوفمستر.. وقبل أن يدرك ما الذي يحدث.. وجد نفسه جالسا على المقعد الخلفي لمرسيدس زرقاء من السبعينيات.. سأله السائق الشاب ذو البشرة الداكنة:

- ويندهوك؟

فقال هوفمستر مؤكدا: ويندهوك.

- المسافة أربعون كيلومترا بالتمام.. أنت تعرف هذا يا زعيم؟

كان السائق يتحدث الإنجليزية باللهجة الأفريقية.

- لم أكن أعرف هذا.. ولكن لا بأس.. فلا بد أن أذهب.

انطلقت السيارة.. وأنزل هوفمستر زجاج النافذة.. سأله السائق:

- إلى أين في ويندهوك يا زعيم؟

- لم أعرف بعد.. ولكنني أبحث عن فندق جيد.. هل يمكن أن تنصحني بواحد جيد؟ ولا تنادني بالزعيم. ثم أخرج المنديل مرة أخرى.. ولكن وجهه لم يعد يحتاج للتجفيف.

- لن أناديك بالزعيم بعد الآن.. أدعى جيفريد.. هل تسافر مع مجموعة؟

- لا.. لا أسافر مع مجموعة.. إنني أسافر بمفرد.

كان جيفريد يقود مسرعاً.. ولكن الطريق لم يكن به مواصلات.. وهذا يقلل من أسباب الخطر.. ولكن على الرغم من ذلك بحث هوفمستر في مقعده عن حزام الأمان.. فأن يتعلم كيف يكون الموت.. لا يعني بالضرورة.. أنه لابد وأن يأتي مباشرة.
لم يكن هناك حزام أمان.. أو بالأصح: كان حزام الأمان معطلاً.

- هل تريد أن تتعرف على البلد؟
- إنني أريد زيارة ابنتي.
ثم أخرج هوفمستر الصورة وأظهرها لجيفريد.. الذي سحبها منه مباشرة.
وفجأة كبج جيفريد الفرامل.. ووقفاً على حافة الطريق.. وسط الرمال.. ثم فتح السائق علبة القفازات وأخرج منها دفتر يوميات متسخ.. به صورة متكسرة ووضعتها في يد هوفمستر.
كانوا خمسة أطفال يحدقون في هوفمستر.
قال جيفريد:

- إنهم أسرتي.. أطفال.
فتح هوفمستر باب السيارة وقال:
- لابد أن أخرج قليلاً.. لأستنشق بعض الهواء النقي.
وترجل من السيارة والقبعة والحقيبة في يده.
وضع القبعة على رأسه.. وعلق الحقيبة تحت ذراعه.. وأخذ ينظر.. فلا مواصلات.. ولا بيوت.. ليس هناك إلا رمال وأشجار جافة متشابكة.. وهنا وهناك شجرة شبه جرداء.. وتلال من الرمال الناعمة.. تغير من لونها كل بضعة كيلو مترات. فتساءل هوفمستر:

- أين أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ ما هذا؟
وفي هذا الوقت ترجل جيفريد أيضاً من السيارة.. ووقف بجانب هوفمستر.
وقال:

- لا تخف يا زعيم.. فأنا أوّمن بعيسى المسيح.
- لست خائفاً.. إنني أحتاج فقط أن أستنشق بعض الهواء النقي.. ولا تقل لي يا زعيم.

هبت عاصفة من الريح فأسقطت قبعة هوفمستر عن رأسه.. فجرى جيفريد خلفها كالكلب.. وأعاد إلى هوفمستر قبعته.. فلم يلبسها وأمسكها في يده.

- أين الحيوانات يا جيفريد؟

- أي حيوانات يا زعيم؟

- لا تقل لي يا زعيم.

- أي حيوانات يا سيدي؟

فأشار هوفمستر إلى المساحات الخالية التي يكاد يعصف بها الذبول.

- الحيوانات البرية.. أين هي؟ فأنا لا أرى شيئاً.

- إنهم يختبئون يا سيدي.. فالوقت منتصف النهار.. والجو حار جداً عليها.. إنهم هنا ولكننا لا نراهم.. وهم يروننا بالطبع.. يروننا ويشمون رائحتنا.

وهكذا ظلاً واقفان.. رجلان على جانب الطريق.. ينتظر الأول الثاني.. وينتظر الثاني شيئاً لا يستطيع تسميته.. ينتظر إلهاماً أو ذكرى.

وبعد خمس دقائق قال جيفريد:

- سيدي.. هل لديك مانع لو واصلنا السفر إلى ويندهوك؟

فهز هوفمستر رأسه:

- لا على الإطلاق.. إلى أي فندق تريد أن توصلني؟ فقد بحثت في المطار عن مكتب إرشاد سياحي.. ولكن كل شيء كان مغلقاً.. أي فندق تراه جيداً؟ هل تعرف فنادق ويندهوك جيداً؟

- يوجد في ويندهوك فنادق كثيرة جيدة.. عم تبحث؟ فندق كبير أم فندق صغير؟

- أفضل فندق.

نعم الأفضل.. لم لا؟ فهذه أول ليلة في أرض غريبة.. ولا يريد هوفمستر أن يتعرض لأي مخاطر.. كما أنها على كل حال لن تكون باهظة الثمن.. والآن.. وبعد أن تبخر أمله في الاستقلال المادي.. فقد يتبدد أي شيء آخر في أي وقت.

بدأ جيفريد يفكر بصوت مرتفع.. وبدأ هوفمستر يشعر بالجفاف الذي استولى على حلقه.. فعاد إلى السيارة. ولا تزال صورة أبناء جيفريد موضوعة في المقعد الخلفي، فأعادها

إليه.. وأخذ التي تخصه.. ونظر إليها مرة أخرى نظرة خاطفة.. نعم، هما عيان تنبضان بالحياة.. ربما هذا ما يلاحظه أي إنسان لأول وهلة عندما ينظر إلى صورة تيرزا.. عيان تنبضان بالحياة، وبطريقة غريبة تبعثان على الأطمئنان.. كأن الحياة قد أهدتها السلام.. وهي الآن تعيد هذا السلام إلى العالم .

قال جيفريد: هاينيتزبرج!

- ماذا؟

- هاينيتزبرج.

- وما هاينيتزبرج؟

- إنه فندق ممتاز.. يناسبك تماما.
هاينيتزبرج هو اسم قرية تبعد أربعون كيلو مترا شرق فينلو.

كرر هوفمستر قول الاسم: هاينيتزبرج.

- هل حضرتك ألماني؟

وأدار جيفريد محرك السيارة.

- أنا؟ لا.. أنا هولندي.

- ولكن الناس حيث تسكن يتكلمون الألمانية؟ أليس كذلك؟

- إنهم يتحدثون الهولندية.

- ولكنك تتحدث الألمانية؟

- لقد درست اللغة الألمانية.. درست الجرمانية وعلم الجريمة.. ولكني لم أكمل الأخير.. فقد حصلت على وظيفة في دار نشر.. فكان عرضا لم أستطع رفضه.. وكان الكل يظن أنني سوف أترقى حتى أصبح مدير دار النشر.
يبدو أن جيفريد لم يكن يستمع، كان يواصل القيادة مسرعا، وهو يشغل الراديو.

وعندما رأى هوفمستر المنازل الأولى في ويندهوك.. سأله:

- هل تأخذ أجرتك باليورو أيضا؟

نظر جيفريد إليه عبر المرأة الداخلية:

- كنت أود ذلك يا سيدي.. ولكن هناك بنوك يمكننا أن نبذل منها العملة.

- هل هنا أجهزة الصراف الآلي؟

أوماً جيفريد قائلاً:

- إنها بلاد عصرية.. لدينا كل شيء.. ماعدا العمل.. ليس لدينا عمل كافٍ.. وغير ذلك لدينا كل شيء.
توقفاً عند محطة وقود.. في شارع يبدو وكأنه الشارع الرئيسي - لقرية مهجورة.. وهناك لافتة مكتوب عليها ويندهوك الصغيرة.. اسم هذه المنطقة.. وهي بالفعل كانت صغيرة.. لن يكذب المرء إذا قال ذلك.. أشار جيفريد إلى إحدى ماكينات الصراف الآلي. فاتجه والد تيرزا نحوها.. لم يرى في الطريق غير أناس ذوي بشرة سوداء.. وربما يرجع السبب إلى أن هذا الحي لا يسكن فيه غير السود.. أو أن هذا الوقت لا يستطيع أن يخرج فيه غير السود.. والبيض القلائل الذي رأاهم كانوا يجلسون في السيارات. وبينما كان يدخل البطاقة البنكية في الماكينة.. ألقى نظرة على سيارة جيفريد المرسيدس الزرقاء.
خطر في باله أن جيفريد ربما يذهب بعيداً الآن بأشياء هوفمستر.

صحيح أنها ليست أشياء كثيرة.. ولكن إذا حدث هذا فلن يكون شيئاً لطيفاً.

على الرغم من أن ما بداخل حقيبته هي أشياء قليلة القيمة.. ولكن فكرة أن يفعل جيفريد ذلك بحقيبته قد أرقته.. فالملونون يقون ملونون. وبينما كان يقف أمام ماكينة الصراف الآلي.. وهو يحاول ألا تغيب السيارة عن عينيه، دون أن يلاحظه جيفريد.. لاحظ أن ثلاثة من عمال محطة الوقود يحدقون فيه.. فضغط القبعة على رأسه بشدة. على كل حال فهو يمكنه هنا أن يحصل على الدولار الناميبي.. ولكنه ليس لديه فكرة عن مسار الدولار الناميبي.. فهو لم يستعد جيداً لهذه الرحلة خلافاً لعادته.. أو بمعنى أصح: إنه لم يستعد إطلاقاً لهذه الرحلة. ولذلك قرر أن يسحب ألف دولار ناميبي.. فسوف تكون كافية لجيفريد. وفي خلال خمس دقائق بعد توقفهما في محطة الوقود وجد نفسه أمام فندق هاينيتسبرج.. قلعة جميلة نائمة فوق تلة.

لم يكد جيفريد يقف أسفل بوابة المدخل حتى أسرع شابان نحو المرسيدس.. فاعتنيا بامتعة هوفمستر.. وأرادا أن يأخذا الحقيبة أيضاً من يده.. ولكنه لم يدعهما يفعلان ذلك.. ثم سأل جيفريد:

- بكم أدين لك؟
 - أربعمائة يا سيدي.
 فأعطاه أربعمائة وخمسين. ثم قال له جيفريد: لو احتجتني ياسيدي، فأنا أقود بأمان.. كما رأيت. إلى أي مكان تريده.. قالفيس، سواكوهوند.. أو أي مكان آخر.
 إنني أعرف هذا البلد حتى الشمال، اتصل بي فقط لو كنت في حاجة إلي.. ثم أعطى لهوفمستر كارت عمل.
 كان الكارت لشخص آخر.. لكن جيفريد قد كتب عليه في الخلف إسمه ورقم هاتفه.
 سعد هوفمستر التل.. مسترشدا باللافتة وقد كتب عليها "الاستقبال".. فوضع الكارت في جيب الصدر.
 خطرت في رأسه خاطرة سريعة: ماذا لو لم يكن لديهم غرف خالية؟ ولكنهم من المؤكد سوف يطلبون سيارة أجرة له.. إذا كان سيضطر أن يذهب إلى مكان آخر.. ولكن لا بأس بذلك.. فالمهم أنه هنا في هذه البلدة.. وهذا ما يعنيه.
 كان الاستقبال يجعل انطباع المرء عنه أنه أنيق ونظيف.. وأول ما يستقبلك طبق فواكه به تفاح، وحامل عليه بطاقات بريدية.. ثم جاء إليه رجل يرتدي قميص أبيض ورحب به، وسأله بأي اسم قد حجز به.. فقال:
 - لم أحجز بعد للأسف.. لم يكن لدي وقت.. فكل شيء قد أتى فجأة.. هل لديكم حجرة لليلتين أو ثلاثة؟
 - كم ليلة بالضبط؟ إثنين أم ثلاثة؟
 - ثلاث ليال.. هذا ما أحтаجه.
 لم يتلق أية أسئلة.. عن سبب الحجز.. بل بدأ الرجل مباشرة في تصفح كتاب سميك.. وعلى بعد عشرين متر كان الشابان يقفان بجوار الحقيبة ينظران إليه.. ينتظرانه.. قال له موظف الاستقبال:
 - أنت محظوظ.. فنحن لدينا غرفة خالية.. وهي غرفة فسيحة وجميلة.
 فقال هوفمستر:
 - رائع.. - ثم قال -: أشكرك. كأن موظف الاستقبال قد أسدى له جميلاً.
 أخذ هوفمستر تفاحة وقضم منها قزمة.. فوجدها جافة.
 - هلا تتكرم لنا بالتسجيل هنا.

قدم إليه الموظف استمارة تسجيل العميل.. فملاً هوفمستر كل شيء على نحو صحيح.. أين يسكن.. ورقم الجواز.. فقط لم يترك إلا الخانة المكتوب فيها إلى أين يريد أن يواصل رحلته.. فهو لم يعرف بعد.
ثم قال الرجل:

- سأصطحبك إلى غرفتك.
كانت الغرفة جميلة بالفعل.. حتى بالنسبة للذوق الأوروبي.. وكانت الأشياء الوحيدة التي تحت تصرف هوفمستري سرير مظلة.. وبانيو.. وأزهار بجانب الحوض.. إن إفريقيًا يمكنها أن تكون جيدة.. إنها جيدة بصورة مذهشة.. على كل حال بالنسبة لهوفمستر.. حتى الآن.
أحضر الشاب حقييته.. وأعطى هو لكلاهما بقشيشا.. ثم أصبح بمفرده.

جلس على أحد الكراسي.. أهذه إذن هي ويندهوك.. أهذه هي ناميبيا.. أهنا هو ما أرادت ابنته أن تأتي إليه.. لا بد وأن الجولة حول العالم قد بدأت من هنا.. حسنا.. جولة حول العالم - أو جولة في إفريقيا. لقد قرأت الكثير عنها.. وشاهدت رسوماً وصوراً.. فقلبها مفعم بالحنان.. مثل أبي.. فهم أطفال نموذجيين.. ولكنهم سرعان ما ينسون هذه الأشياء.
وضع حقيته وقبعته على السرير.. وعلق السترة في الدولاب.. وألقى القميص والبنطال على الكرسي.. وخلع سرواله الداخلي والجوارب في الحمام.
نظر إلى نفسه في المرأة.. إنه مازال على مايرام بالنسبة لرجل في سنه.. فبطنه على ما يرام، وبشرته وكذلك صحته.. ثم وقف تحت الدش.

أشعره الماء بشعور جيد.. وأعاد إليه طاقته.. فترك الماء ينهمر فوق جسده وهو يقف تحته لمدة دقيقة دون أن يتحرك أو يشغل نفسه بالتفكير.. ثم لبس بنطالا فاتح اللون وقميصا قصير الكم، وأخذ من سترته هاتفه والمظروف الذي به الصورة.. وأراد أن يغادر الغرفة، ثم تذكر شيئاً آخر: تذكر أن يأخذ الحقيبة والقبعة من فوق السرير.
وهكذا ذهب إلى الاستقبال.. وهناك سأل:

- هل هنا مكان أستطيع أن أحصل فيه على بعض الطعام؟

فأوصله موظف الاستقبال إلى الناحية الأخرى من المبنى..
حيث شرفة تطل على المدينة.

لم يكن أحد غيره يجلس هناك.
فتخير لنفسه كرسيًا.. ووضع المظروف والهاتف على
الطاولة.. والحقيبة والقبعة على كرسي آخر بجانبه.. وجاءت
إليه فتاة فسألته بود غير مصطنع عما يريد أن يشربه.. فقال
لها:

- أريد أيضا أن أكل شيئا.
فتح هاتفه.. وأخرج الصورة من المظروف.. ونظر إليها:
نعم، هذا صحيح..إنهما عينا تنبضان بالحياة.. لم يكذب من
قال ذلك.. ولكن من الغريب أن أحدا لم يلاحظ هاتين
الشفيتين الجميلتين.. وعظام



وجنتيها.. إن لها
رائعة.

وبعد نظرة قصيرة في قائمة الغداء اختار الدجاج المشوي
على الفحم.. فخير له أن يختار ما يعرفه.

- وماذا تريد أن تشرب؟
- نظر مرة أخرى في قائمة الطعام.
- عصير مانجو.
- لم تكتب وكررت:
- عصير مانجو ودجاج مشوي على الفحم.
- وكأسا من النبيذ الأبيض.

- بدلا من عصير المانجو؟

- لا.. أريد كلاهما.. في نفس الوقت.

وعندما رأى أنه قد تم استقباله.. لبث قليلا مترددا قبل أن يتصل بزوجته.. ولكنها لم تلمس الهاتف.. فتحدث غير المحبب الآلي: لقد وصلت.. وأنا الآن في ويندهوك.. إن المكان هنا يبدو جيدا.. سأتصل بك مرة أخرى فيما بعد. أخرج المخطوطة والأقلام الرصاص من حقيبتها.. ثم جعل يفتش فيها عن المبراة.. فلاحظ أنه قد نسيها.. إذن لابد أن يشتري واحدة في اليوم التالي.

عندما أحضرت الفتاة المشروبات.. لاحظ كيف تنظر إلى الصورة الموضوعة على الطاولة.. فقال لها بابتسامة رقيقة:

- ابنتي.. إنها صغيرتي تيرزا.

- ما اسمها؟

- تيرزا.

اضطر أن يتهجأ الاسم.. إذ يبدو أنه غير منتشر.. في هذه الربوع الواسعة.

ثم قال: إنها في ويندهوك.. تقضي إجازة هنا.. وربما قد رأيتهما هنا في مكان ما.

لم يكن هذا سؤالاً.. لذلك لم يلق بدوره جواباً.

شرب المانجو بشراهة ثم تحول إلى التبيذ.. وعلى مد نظره يرى مبنى شاهقا.. من الواضح أنه أعلى مبنى في المدينة. وعلى أعلى طابق فيه مكتوب "كالاهاري ساندس".. جعل يحدق فيها لبرهة.. نعم، إنها كالاهاري ساندس.

إنه مضطر الآن، حيث يجلس، أن يعد خطة.. ولكنه كلما أطال النظر إلى هذه المدينة التي تتراءى له في الأفق.. كلما أصبح رأسه خاويا متجردا من الأفكار. كما أنه يدور في رأسه أيضا: أنه إن لم يعد العدة لهذا الأمر.. فسوف يكون مجيئه هنا هباء.

التهم الدجاجة على عجل.. ككلب جائع.. دون أن يتخلل الطعام بهاء.

أحضر- دفتر ملاحظات تيرزا من الحقيبة وقرأ رسائل المحمول.. التي تلقاها في الأشهر الأخيرة.. وهو يقول.. يالها من مجنونة لأنها لم تكتب اسم المرسل أيضا.

ثم رجع يقول: أم أنها هي من كتبتها كلها بنفسها؟ ربما هذه هي الرسائل القصيرة التي ترسلها هي؟

ولكن لا.. إن هذه هي الرسائل التي أرسلت لها.. وقد سجلتها كلها بالنص وكأنها تشغل بالمحاسبة.. ولكن معظم الرسائل ينقصها تناسق السياق، فعلى سبيل المثال: "أنا هنا" أو رسالة ليس فيها إلا كلمة واحدة فقط "قبلاقي".

كتب بالقلم الرصاص على صفحة خالية: ويندهوك، كالاهاري
ساندس.. إتصل بابا بملكة الشمس. ثم كتب التاريخ أسفل ذلك: ١٠ أغسطس ٢٠٠٥.

وبينما تنظف الفتاة الطاولة.. سألها:

- أين يستمتع الشباب بوقتهم هنا في ويندهوك؟ السياح من أوروبا أين يذهبون؟
نظرت بكل حيرة إلى هذا الضيف الغريب. فسألها مرة أخرى:

- أين يذهبون؟ السياح؟
فأجابت:

- إلى الساحل.. أو في الصحراء.
ارتدى قبعته.. ولملم أشياءه.. وذهب إلى الاستقبال.. وطلب منهم خريطة للمدينة.. كان من الواضح أنها ليست موجودة.. ولكنه حصل على نسخة من خريطة المدينة وضعت منذ بضع سنوات.

- كم يبعد المركز عن هنا؟
- بالسيارة؟

- على الأقدام.
فقال موظف الاستقبال:

- ربع الساعة. وأشار بقلم أخضر على الخريطة موضحا لهوفمستر كيف يذهب إلى هناك.

توقف هوفمستر بعد خمس دقائق من المشي- على الرصيف وخلال الغبار.. وتورمت قدماه من شدة الحرارة.. وقلب المشي- عليه الآلام.. فحذائه الجلدي هذا لم يصنع للمشي في مثل هذه الشوارع.

كان هوفمستر يقف من حين لآخر ويظل هكذا يمسح وجهه.. كان يشعر وكأن العرق يتدفق على عنقه.. كما ظهرت

بقعة كبيرة مبتلة تحت إبطيه.. فقال في نفسه سأخذ دشا عندما أعود إلى الفندق.. ولكنه الآن يتطلع فعلا إلى ذلك.. وبعد حوالي عشرين دقيقة.. وقف في شارع الاستقلال.. وهو، حسب قول موظف الاستقبال، الشارع الرئيسي- في ويندهوك.

نظرة عن يمينه.. ثم عن يساره.. ثم مرة أخرى عن يمينه.. واصطدم شخص به.

يوجد بشر هنا على الأقل.. ومحلات تجارية أيضا. قرر أن يتجه يسارا.. وربما عليه أن يسأل شخصا عن الطريق.. ولكنه لا يعرف كيف يحدث هذا الأمر.. كيف يبدأ المرء الحديث؟.. بخلاف أبيي وزوجته تماما.. فهما تفعلان ذلك دون خجل أو تردد، ودون أدنى تفكير.

ذهب هو فمستر إلى مركز للتسوق.. ولكنه لم يشتري شيئا.. وسحب ألف دولار ناميبى أخرى من الماكينة.. وتجول ينظر إلى الملابس والهدايا التذكارية في واجهات المحلات. كان مكيف الهواء يشعره شعورا حسنا.. ثم تجول بين بعض الواجهات الأخرى ينظر إليها دون اهتمام يذكر.

وبعد عشر- دقائق أخرى قضاها تجولا في شارع اندييندينس أفينو.. أطلقت قدماه إنذار ألم شديد.. يعني أنه في حاجة إلى الراحة. ومن حسن حظه رأى محلا لبيع الآيس كريم وبجانبه مطعم بيتزا يسمى ساردينيا. فحدث نفسه: وهنا أيضا: الإيطاليون في كل مكان.. حتى في ويندهوك.

اتجه إلى هناك بخطوات متثاقلة.. وهناك كانت معظم المقاعد خالية.. والنادلة تجلس في إحدى الزوايا.. فتخير مكانا بالقرب من البار.

فالجو في هذا المكان لطيف. ثم مسح جبهته ورقبته بمنديل من الورق.. ثم كوم المنديل على بعضه ووضعته في حقيبته.

جاءت إليه فتاة مسترجلة.. يمكن القول بأنها إيطالية.. فسألته فيم يرغب.

فطلب قهوة أسبريسو وكأسا من النبيذ. ربما هي إيطالية.. وهذا سيكون سؤالاً لطيفا لبدء حديث.. فسألها:

- هل حضرتك إيطالية؟

ثم أخرج الصورة وسألها:

- هل تعرفين هذه الفتاة.. هل رأيتهما من قبل؟

وهو يسأل نفسه: كيف يبحث المرء عن الأطفال.. إن لم يكن لديه سابق خبرة في ذلك.. كيف يبحث عن الأطفال البالغين في بلد آخر؟

أصبح الفنجان وكأس النبيذ فارغان.. وهو منذ وقت طويل لا يزال يجلس.. فقد اتضح له أنه لابد وأن يسأل.. وأن عليه أن يبدأ في مكان ما.. إذن لم لا يكون هنا؟ والآن.. في مطعم البيتزا.. وأيس كريم ساردينيا.

أخذ منديلان آخران من الطاولة المجاورة وجفف بهما رقبتيه وجبهته وعنقه.

وأخذ ينقب في حقيبته.. ثم وقف واقترب قدر الإمكان من البار.. وقال وهو في نفس الوقت يخرج المظروف ويضع الصورة على البار:

- الحساب من فضلك.. هل أنت إيطالية؟
فأجابته دون أن تنظر إليه:

- لقد ولدت هنا.

- أه.. فهمت.. هل رأيت هذه الشابة هنا من قبل؟

- من؟

فأشار إلى الصورة.. فألقت الفتاة.. التي تتشبه بالشباب.. نظرة خاطفة عليها.. وهي تعطي هوفمستر الفاتورة.. وقالت:

- لا.. من هي؟

فدفع الحساب.. وتنحج، ثم قال:

- إنها ابنتي.. صغيرتي تيرزا.

وحينما كان يقول ذلك.. وحتى وهو ينطق به.. شعر بأنها لن تصدقه.

فنادت: ماما.

فأراد أن يعيد الصورة إلى جيبه.. ولكنه تمهل.. فلربما تعرف الأم شيئاً.

فجاءته امرأة ذات شعر أشقر مصبوغ، وسألته:

- كيف أستطيع أن أخدمك؟

فأشار مرة أخرى إلى الصورة.. وقال:

- إنها ابنتي.. هل رأيتهما مرة عرضاً؟

فهزت رأسها نفيا.. وجعلت تدقق النظر في والد تيرزا.. من أعلاه حتى أخمص قدميه.

- هل أنت سائح أم رجل أعمال؟
فقال هوفمستر بنبرة مؤكدة:

- أنا هنا من أجل ابنتي.

فالشعور بأنه لا يبدو مثل أب.. يجبره على أن يؤكد على الأب
بدأخله.

أدخل الصورة.. في المظروف أولا ثم في جيب القميص.. ثم عليه أن يسأل سؤالاً آخر من شأنه أن يطمئن هؤلاء الناس.. مثل أن يقول: هل المجتمع الإيطالي كبير هنا؟
خرج صوت الأم حادا ولكن مشبعا بالتحدي:

- هل تبحث عن المتعة؟

فهز رأسه نافيا ذلك.. وذهب ببطء إلى الخارج.. فتبعته الأم.

- هل تبحث عن المتعة؟ متعة خاصة؟

أصبح الآن يقف خارج المبنى وكذلك الأم.

كان على هوفمستر أن يوضح موقفه.. فقد أدرك أنه لا يمكن لشخص أن يأتي لأناس بكل بساطة فيخرج صورة طفله ويقول: إنني أبحث عن ابنتي.. لاشك وأنهم سيحتاجون إلى توضيح.. وإلا فإنهم لن يثقون به.. فلا بد من معلومات أساسية.

- إنني هنا من أجل ابنتي.. فهي لم تأت قبل ذلك أبدا إلى إفريقيا.. ولكنها استقلت الطائرة إلى ويندهوك قبل ثلاثة أسابيع.. ثلاثة أسابيع كاملة.. ومنذ ذلك الحين ولم نسمع عنها شيئا. نظرت المرأة إليه كأنها تفهم كل شيء.. وقد سعد لهذا فتابع:

- لا اتصال.. ولا رسائل الكترونية.. ولكن زوجتي تقول: "ذلك لأننا قد كبرنا في السن." ولكن لماذا يجلس المرء في المنزل، لا يفعل شيئا، إلا أن يفسد جهازه العصبي.. وهو يستطيع أن يذهب إلى ناميبيا في وقت سريع هكذا. فما قيمة أربعة عشر ساعة في الجو أو خمسة عشر في هذا الأيام؟ وما تكلفة ذلك؟ وكيف الوضع هنا؟ أقصد مع السياح؟.. فأنت من هنا.. هل يأتي هنا سياح كثيرون؟

كان حديثه مشبعا بالحماس بعض الشيء.. ولكنها ابتسمت.. أوه.. الأمهات تفهم مثل هذه الأشياء.. إذن سوف تساعد.. سوف تخبره إلى أي مكان يذهب.
ولكنها قالت: أنت تبحث عن متعة خاصة.. أليس كذلك؟ إذن أنا أستطيع مساعدتك.. فابتعد من هناك.. وبعد خمس خطوات التفت خلفه.. فوجدها لا تزال واقفة خارج المبنى.. تنظر إليه.. فارتدى هوفمستر قبعته ونادى:

- شكرا جزيلا.. أشكرك على جهودك.. من المؤكد أنني سأعود.. ولكنني قد جئت هنا من أجل ابنتي.
ثم بدأ في صعود التلة متجها إلى الفندق.. فكانت كل خطوة تكلفه جهدا.. وخيل إليه كأن حذاءه قد أصبح أصغر أربع مرات من ذي قبل.. وسرواله الداخلي لم يعد لطيفا أبدا.. وهو الآن يحتاج كريما مرطبا.. فالهياج يعتري بدنه.
ساد الصمت في الشارع منذ أن غادر شارع أندبيندينس أفينو.. ولم يكن يسمع إلا وقع خطوات وراءه من حين لآخر.. فيعترية شعور بأن شخص ما يلاحقه.. بل ربما أكثر من شخص.. ولكنه لم يجرؤ على الالتفات.
كان يصرف كل تركيزه في كل خطوة يخطوها.. لكي يشعر بألم أقل.. ويتشبه بحقيقته.. كان تبرزها مختفية فيها.. كأنه قد أخذها معه في الحقبة.. ولا يحتاج بعد ذلك سوى أن يفتح الحقبة ثم تقفز ابنته خارجها.
لم يكد يصل إلى الفندق إلا وهو على وشك أن يصاب بنوبة قلبية.. واشتد احمرار وجهه.. وكثر عرقه.. واشتدت الآلام في صدره.. فذكر وهو على هذه الحال رقم غرفته لموظف الاستقبال.. سأله الموظف:

- متى تريد الغداء يا سيد هوفمستر؟

- حوالي الثامنة.. الثامنة والنصف.

- شخص واحد؟

- شخص واحد.

وبمجرد أن دخل هوفمستر الحجرة.. ارتقى على السرير.. وخلع حذاءه وأغلق عينيه.. وجعل يدها قدميه تدليكا خفيفا.. وظل على هذه الحال عشرون دقيقة على الأقل.. والعتمة تزداد شيئا فشيئا.

اضطره عويل الرياح أن ينظر في ساعة يده، ففي مكان ما يصطك باب أو نافذة، فوجد الساعة حوالي السابعة.

إذن عما قريب عليه أن يذهب للأكل.
فخلع ملابسه على عجل.. وملأ البانيو كاملاً.. وغمر نفسه
بداخله.

نجح في الحصول على الاسترخاء وهو في الماء الساخن.
مرت عليه لحظة بدت له فيها هذه الرحلة أنها مرحلة
عادية.. كالرحلات التي قام بها من قبل.. كزيارة مؤلف في
بلده.. أو الذهاب إلى معرض كتاب.. أو مؤتمر من حين لآخر..
وخاصة في بداية مهنته.. فقد كان يزور المؤتمرات من حين
لآخر.

ولم يتذكر هدف هذه السفرة إلا عندما سمع صوت
المحمول في غرفة النوم.. فقفز من البانيو دون أن يجفف
نفسه.. وجرى بأقصى سرعته نحو الهاتف.. فكاد ينزلق..
ولكنه استعاد توازنه في الحال.. إنها زوجته.. سألته:

- ماذا عندك؟

- ماذا عندي؟ لقد وصلت.. لا أستطيع في هذه اللحظة
قول شيء أكثر من ذلك.. وغدا سوف أضع خطة للمعركة..
وسأذهب إلى السفارة.. وأفتش في بيوت الشباب.. فويندهوك
على كل حال لا تثير عندي انطباعاً بأنها خطيرة.. ثم إنها
صغيرة نوعاً ما.. صغيرة جداً.. ولذلك لا أعتقد أنها قد بقيت
هنا طويلاً.. فقد قيل لي أن السياح يذهبون إلى الساحل أو
الصحراء.

تلقت المعلومات دون أن تبادله الكثير من التعليقات..
وقالت له:

- اتصل بي عندما تسمع شيئاً.. وتفحص بريدك
الإلكتروني من حين لآخر.. فرمياً قد أرسلت إليك رسالة.

- سوف أفعل ذلك.

- و- يورجن...؟

- نعم؟

- أوه، لا شيء.. لا عليك.. أنا أنتظرك هنا.. سوف أبقى
الحديقة على ما يرام.

عاد بعد ذلك إلى البانيو.. فلا يزال لديه وقتاً حتى طعام
الغداء.

وفي الغرفة المجاورة سمع أناساً يتحدثون.. فحاول أن
يتعرف على أي لغة يتحدثون.. ولكنه لم يسمع سوى

همهمة.. ثم تحول الحديث إلى عواء.. ولكنه عندما أنصت
السمع.. لاحظ أن ذلك لم يكن عواء.. بل كان تأوها.
وقبل أن يخرج من البانيو.. غسل الرغوة عن جسده وهو
يهمهم بأغنية رومانسية: أجذك جميلا.. من فضلك دعني
أفصح عن ذلك..

أجذك جميلا.. وهذا يعني أني أجذك ساميا ونبيلًا.
جفف نفسه بعناية.. مستخدما منشفة بيضاء كبيرة.. وهو
يفكر في الخادمة في أمستردام.

لم يفتح الحقيبة غير الآن.. فوضع هدية تيرزا في الدرج..
وترك باقي الملابس في الحقيبة كما هي.

قرر أن يرتدي بزة.. ووضع بضعة قطرات من عطر بعد
الحلاقة.. فلا يعرف المرء أبدا من ربما يقابل.

وعندما أراد أن يرتدي الحذاء.. تفاجأ بأنه لم يعد مناسبًا..
فقد أصبحت قدماه كبيرتان.. والحذاء لم يتم صنعه ليلائم
مثل درجات الحرارة هذه.. ولم يصنع للقدمين المتورمتين..
ولكنه أرغم قدميه على لبس الحذاء بعد جهد وألم.

وخلافا لما كان يأمل.. لم يقدم له الطعام في الشرفة.. ولكن
في صالة الطعام.

قُدمت إليه طاولة في إحدى الزوايا.. وجلس وهو من أحد
الرجال القلائل الذين يرتدون بزة.. أما بقية الضيوف فيرتدون
ملابس عرضية.. ككل السياح في إفريقيا.. ولكن هوفمستر
حتى الآن ليس سائحا حتى يرتدي ملابس عادية.

حاول قبل أن يتناول المقبلات أن يقرأ في المخطوطة..
ولكنه سرعان ما توقف.. فالنبذ والارهاق من جراء السفر
يصعقانه صعقا خفيفا.. ولكنه مؤلم.. فشردت أفكاره وتاهت
من رأسه.. فوضع صورة تيرزا على الطاولة.. على أمل أن
يحدثه أحد عن ذلك.. ولكن أحد لم يسأله عن شيء.. فهم
يقدمون إليه خدمة ممتازة.. ولا ينكر هذا.. ولكنهم
يسقطون من حساباتهم التعليقات على الصورة.

كان النبذ يصب له بصورة مستمرة.. فطلب زجاجة بدلا
من الكأس.. لم يكن نبذا إيطاليا.. ولكنه كان لذيذا على الرغم
من ذلك.. أخذ يلعب بالصورة ويرفعها عاليا.. ومع ذلك لم
يعلق أحد بسؤال واحد عن تيرزا.. لم يرد أحد أن يعرف من
هذه.. ولا حتى يهتم بما يريد هوفمستر أن يحكيه عنها.

وبعد انتهى من الطبق الرئيسي شعر بألم حاد في قدميه
اضطره أن يخلع جوربه وحذائه.. ومن حسن حظه أن
مفارش الطاولة كانت تتدلى

حتى تلامس الأرض.. ولذلك لن يرى أحد ذلك.
تنفس الصعداء طالبا حلوى الليمون بارفيه.. ليحلي طعم
فمه.. فالطعام لا يكون مذاقه جيدا في فم الشخص إذا كان
يشعر بالضغط في مكان ما.

وبينما كان يتناول البارفيه بالملعقة.. استغرق في التفكير
في حياته الماضية.. فحاول أن يجد لها مصطلحا مناسباً.. ولكنه
لم ينجح. فلو أعاد النظر في حياته فلن يجد شيئا يمكنه أن
يفتخر به. وما يلوح الآن في الضباب الذي يكسو حياته.. ما
هو إلا خسارة ضئيلة غير مهمة.. لم تكن كبيرة أبداً.. بصرف
النظر عن مرة أو مرتين.. ولكن الهزيمة اليومية لم تكن شيئا
يذكر بالمقارنة مع العار اليومي.

إنه فخور بتيروزا.. وهو متأكد من ذلك.. فخور بتيروزا.. دون
أن يعرف حقاً لم ذلك.. ما مكسبه من ذلك؟ أن يعد لها
وجبات ساخنة.. أن يحضرها بانتظام إلى دروس التشيلو
والسباحة.. وعلى الرغم من أنه تبين له فيما بعد أن ما كان
يفعله بانضباط هو في الواقع سبب وجيه يجعله يشعر
بالفخر.. ولكنه كان يعد ذلك هراء.

قرر أن يتناول القهوة والكونياك في البار.. فقد أصبحت
الصالة خالية من الناس إلا من بضع طاولات.. من الواضح
أنهم يذهبون هنا إلى النوم مبكراً.

وقف أمام النافذة المطلة على ويندهوك ونظر تحته إلى
أضواء المدينة.. حتى في الليل لا تزال هذه المدينة تعطي
انطبعا بأنها كبيرة إلى حد ما.

أتجه بخطوات وثيدة إلى البار.. فتبعه نادل. يناديه:
سيدي.. لقد نسيت شيئاً، ورفع بحذاء هوفمستر وجوربه.

فنظر هوفمستر إلى الأرض.. فوجد قدميه عاريتين.
باللخلخل.. ياله من شعو طاغ.. أكثر طغيانا من العاطفة.
أعطى النادل لهوفمستر الحذاء والجورب.. فقال له:

- شكرا لك.. شكرا جزيلا.. لقد نسيت تماما.. ياله من
لطف منك.

وجلس في البار.

لم يجرؤ على لبس الجورب والحذاء.. ولم يختفي الخجل
إلا بالتدريج.. وفي الحقيقة هو لا يختفي أبداً بالكامل..
وجعل يقلب

القهوة وهو يركز في ذلك.. كأن شيئاً لم يحدث.
كان جالساً وهو يضع الصورة أمامه على البار.. كأنها
إثبات، أو إعلان.

نظر الجرسون إليه.. فلم يكن لديه اختيار آخر.. إذ لم
يكن في البار ضيوف آخرين غيره.. إلى من سينظر إذن.. وإلى
من سينتصت؟.. فقال هوفمستر:

- إنها ابنتي.. اسمها تيرزا، وعمرها ثمانية عشر عاماً.
فسأله النادل:

- ماذا تعمل؟

فاستهجن هوفمستر بكتفيه.. وقال:

- تريد أن تدرس.. ولكنها لا تزال لم تعرف ماذا ستدرس..
فمرة تقول علم الموسيقى.. ثم مرة أخرى علم النفس.. ثم
فجأة اللغات الكلاسيكية. ليس لديها فكرة محددة.. ولكن
ما زال لديها الوقت.

ثم أخذ مسواكاً وأزال بحرص شيئاً من بين أسنانه.. وهو
نفسه يلاحظ أنه يتحدث بلسان ثقيل.

- وأين هي الآن؟

فنظر والد تيرزا إلى الصورة.. وكأنه سيتمكن من إيجاد
جواب هناك.. فقال وهو ينظر حوله:

- إنها هنا.. هنا في مكان ما في ناميبيا.

كان يقول ذلك وكأنه يفشي سرا.

طلب من النادل أن يصب كونياك له.. وغادر آخر
الضيوف صالة الطعام.. ولم يبق غيره بشخصه.. ينظر إليه
النادل مبتسماً.. ثم يسأله:

- هل أنت هنا بمفردك؟

أوماً أن نعم.. وأطال في الإيماء متعمداً.. وقال:

- أنا هنا بمفردك حتى الآن.. فأنا هنا لأجعل ذلك مفاجأة
لابنتي.. لذلك نحن معا في الواقع.. كنت أريد أن أترك
لطفلي مالا كثيراً.. مبلغاً كبيراً.. لكي تفتح لهما الأبواب التي
أغلقت في وجهي.. ولكن أُملي قد تبدد.. وأمال... قد التهم..
هل تعرف من قام بالتهمامه؟

وأشار للآخر.. ملوحا بيده أن اقترب.. فلم يجد النادل بدا
من أن يقترب منه.
فهمس له:

- الاقتصاد العالمي.. بعد الحادي عشر.. من سبتمبر.. لما
انهارت سوق الأوراق المالية.. هي كانت منهارة بالفعل..
ولكنها واصلت الانهيار.. وعندها اختفت محفظتي الوقائية..
اختفت بكل بساطة.. تبخر وذهب هباء.. بين عشية
وضحاها.. ووداعا للمحفظة الوقائية.. كأنها لم تكن أبدا
موجودة. محمد عطا هو من التهم مالي.. هل تعرف أيضا من
كان محمد عطا؟ .. هز النادل رأسه ناظيا.. فقال هوفمستر:

- هذا أيضا سيان. ولكن المهم أكثر من كل ذلك: أن
الناس يظنون أن محمد عطا ميتا.. لا.. لم يميت عطا.. هم
يقولون أنه مات.. ولكن يوجد الآلاف من محمد عطا..
عشرات الآلاف.. بل الملايين من محمد عطا.. والاقتصاد
العالمي لم ينمو بسبب الكثير من هؤلاء العطا.. إنه أيضا
موجود عندي في منزلي.. نعم، محمد عطا.

أعاد هوفمستر صورة ابنته إلى جيبه.. ثم سحب بذته
مباشرة.. وانحنى يبطء لكي يلتقط جوربه وحذاءه.. فظهره
قد اشتد عليه.. سألته النادل:

- هل سنراك غدا مرة أخرى؟

أوما هوفمستر بالإيجاب.. واتخذ طريقه إلى حجرته
حافيا.. وهو يسمع الحشرات تطن في أذنيه.. وكيف أن رأسه
حولت ليلته إلى ضجيج من الأزيز.. نعم، محمد عطا موجود
عنده في المنزل.. وسوف تخرج عيون الناس من رؤوسهم
عليه.. وحينها سوف يطرحون بالتأكيد أسئلة كثيرة.

كان عليه أن يدور حولي المبنى حتى يصل إلى غرفته..
وهو يشعر أن كل خطوة يخطوها إنما يدوس بقدمه فوق
شيء.. لا يعرف ما هو.. ربما حيوان صغير.. أو نمل أو ورق
شجر.. أو طحلب.

انحنى في الغرفة أمام البار الصغير.. وأخرج.. عبوة مياه
غازية.. وزجاجة نبيذ أبيض. ووضع العبوة ضاغطا إياها على
جبهته.. وفتح زجاجة النبيذ. وهو يعقد العزم على أن يشتري
حذاء جديدا غدا.
غدا سأذهب.

وقبل أن يخلع ملابسه.. وقف أمام المرأة.. ورفع ذراعيه
ثم خفضهما.. ثم رفعها مرة أخرى.. فلم يكن في نفسه شيئاً
مميزاً ينظر إليه.

وضع الصورة فوق الكوميدينو بجانب ساعة اليد.. ولاحظ
أن بها بقعاً.. كانت هذه البقع بصمات أصابع عليها أثر
الزيت.

وفي هذه الليلة استيقظ أربعة مرات.. فمرة يستيقظ
ليشرب ماء.. فيذهب ليشرب من الحمام، فيتذكر هناك أن
الماء هنا ربما لا يصلح ماء للشرب.. وأنه ربما يصاب بالمرض
إذا شرب منه.. فيعود لينام مرة أخرى. ومرة يشعر بأن الظلام
يغشى الدنيا ببطء: فيظن أن شيئاً فظيعاً سيحدث.. شيء لا
مانع له.. وإذن فإن لحظة لم الشمل لن تأتي.. ولكن الظلام
كان فقط في منامه.

وفي الأيام التالية اشترى هوفمستر زوجاً من الصنادل..
وذهب إلى السفارة الهولندية.. ومشط المدينة بمهل وترتيب
مستعلماً عن عدد من الفنادق الرخيصة.. ويخرج صورة تيرزا
هنا وهناك.. ويجري بين الحين والآخر محادثة. فلا يستطيع
أحد مساعدته.

ذهب مرتين إلى أحد مقاهي الانترنت - ولكنه لم يجد أي
رسائل الكترونية من قبل تيرزا.. لم يجد إلا رسائل من زوجته.
أخبره أحدهم بأنه رأى تيرزا في أحد الفنادق.. إلا أنه
متأكد.. بأنها كانت فتاة سويسرية تنتمي إلى إحدى
المجموعات.. فأجابه هوفمستر:

- لا يمكن ذلك.. هذه كانت فتاة أخرى.

أصبح الكل في الفندق الذي يسكن فيه يعرف أنه يبحث
عن ابنته.. فكانوا يتحدثون معه على الإفطار والعشاء مواساة
له.. وفي إحدى المرات قال له الموظفون أنها ولابد أن تكون
قد اتجهت إلى الشمال.. ثم أوضحوا له قائلين: من المؤكد
أنها في مكان ما في منتجع سوسوسفلاي في الصحراء.. وفي
الصباح التالي ومضت في رأس أحدهم فكرة أنها ربما قد
اتجهت إلى كيب تاون بالسيارة.. فالذهاب إلى كيب تاون
بالسيارة أمر شائع جداً لدى السياح.

كتب هوفمستر جميع الأفكار في دفتر تيرزا الصغير.. إلا
أن كل هذه الملاحظات الحريصة على تقديم العون له.. لم
تستطع أن تمنع من أن يتبدد إيمانه. فأصبح لا يعرف ماذا

يفعل.. أو أين يذهب.. أو أين عليه أن يواصل بحثه. وأمضي- ساعات في الحر القائظ هائما في طرقات المدينة.. والصورة في جيب قميصه.. والقبعة فوق رأسه.. والحقيبة بين ذراعه.. قالت له سيدة من السفارة الهولندية:

- وجودك هنا لا جدوى منه.. فلا يمكنك فعل أي شيء هنا.. عد إلى هولندا.. وانتظرها بهدوء في المنزل.

لا جدوى منه.. ألم يكن هذا دائما يقع تحت اختصاصه؟ حتى في مقهى الانترنت أصبح الناس يعرفونه.. فأصبح الرجل ذو القبعة.. الذي ينتظر أخبارا عن ابنته.. وأصبح الناس يتعاطفون معه، كما يتعاطفون مع بطل الفيلم.. ولكن هذا لا يفيد بشيء.. وحتى الصندل لم يشفع له في ألم قدميه من شيء.

كان يمد مدة إقامته في الفندق كل صباح.. على أمل أن تأتيه أخبار. وجعل يفكر: أين علي أن أذهب؟ هل أعود إلى هولندا؟ لا، هذا آخر شيء أفكر فيه.

اتصلت به زوجته أكثر من مرتين.. بالإضافة إلى رسائلها الإلكترونية الودودة.. والتي أصبحت حاليا أيضا مصحوبة ببعض القلق. وكان القلق أيضا واضح في صوتها.. وتقول:

- لقد أخبرت ابني بذلك.. أعني: ما المقصد من أن نكتم هذا الأمر عنها؟

فلم يجبها هوفمستر إلا بقوله:

- لم يكن ذلك ضروريا.. فسوف تعود خلال بضعة أيام.. وليس ضروريا أن تزعجي الناس هكذا.

- وذات يوم في وقت متأخر بعد الظهر - تجول مرة أخرى لساعات في شوارع المدينة.. والمظروف والصورة في جيبه.. والحقيبة تحت ذراعه - ثم صعد التلة ذاهبا إلى الفندق.. فما لبث لحظات.. حتى حل الظلام.

كان فم هوفمستر جافا.. ولأول مرة يشعر بأنه يستطيع أن يميز بين الألم واليأس.. فاليأس شيء ممل وشال للحركة إلى حد ما.. كما أنه أيضا مميت. اليأس ليس شعور.. بل على العكس.. إنه الوعي بعدم الشعور بأي شيء.. والشعور بأنك قد فقدت شخصا ما.. أو تخليت عنه.

وفي شارع هادئ.. لا يبعد كثيرا عن أحد فروع هيرتز.. لاحظ أن

أحدا ما يتبعه، فاحتضن الحقيقة بقوة أكثر من ذي قبل..
فبرغم أن الخوف قد زال لديه شيئا فشيئا في الأيام الأولى..
فإنه لا يزال يحذر من أي شيء.. فهذه إفريقيا.
أسرع من خطواته. وعندها سمع:

Do you want company, sir?

- استدار دون أن يتوقف ليرى فتاة تبلغ من العمر - كما
ياترى عمرها؟ .. حوالي تسع أو عشر سنوات.. وترتدي فستانا
باليا.. فأسرع الخطى.. وظلت كلماتها تتردد في رأسه: هل
تريد رفقة ياسيدي؟.. أليس هذا سؤال أو بالأحرى تأكيد على
الوجود؟

Do you want company, sir?

لماذا لم يسأله أحد ذلك حتى الآن؟ فهن خمس كلمات
فقط.. خمس كلمات في منتهى السهولة.

لم يكن أحد في الشارع.. وحتى حارس الأمن، الذي لم يكن
يقف دائما إلا أمام مكتب تأجير السيارات.. لم يره هوفمستر
في هذا اليوم أيضا. ربما قد فر قليلا.. ألا يحتاج رجال الأمن
هم الآخرون للتبول؟

أصبحت الفتاة تمشي بجانبه.. أو بالأحرى: تجري بجانبه.
فانعطف إلى أحد الشوارع.. لم يكن يحتاج أبدا أن ينعطف
فيه.. فهذا الشارع ليس هو الطريق إلى الفندق.

وعليه أن لا يستمر طويلا بالمشي.. في هذا الشارع.. لابد
وأن يعود.. فقد أنتشرت التفرحات في قدميه.. سألته مرة
أخرى:

- هل تريد رفقة يا سيدي؟

فهمس.. دون أن يتوقف:

- لا! لا!.. ابتعدي! هيا ابتعدي!

ثم توقف عند تقاطع إحدى إشارات المرور.. وجعل يمسخ
وجهه بالمنديل.. وهي لا تزال تقف.. كانت خلفه في باديء
الأمر.. ثم أصبحت تقف جانبه.

ولما أعاد المنديل مرة أخرى إلى جيبه.. أمسكت الطفلة
بيده.. ولم تدعها.. وشبثت عليها.

انتقلت الإشارة إلى اللون الأخضر.. فظل واقفا للحظة..
والفتاة ممسكة بيده. إنها لابد وأن تترك يده.. ولكنها لم
تفعل.. بل استمرت في تشبثها به.. فلم يجد بدا إلا أن يعبر
الشارع.. والفتاة في يده.

وهكذا اتجه الاثنان إلى الفندق صامتان.. رجل وطفلة.. أبيض وسوداء.. شخص يرتدي قبعة.. والآخر بلا قبعة.. وعندما وصلا إلى التقاطع التالي نظر إليها مرة أخرى.. كانت هائمة وخجولة.. كفاكهة محرمة.. ولم يلحظ إلا الآن أنها لا ترتدي حذاء.

نظر إلى قدميها.. وخطر بباله: أنه قد يكون هناك أوساخ في الشارع.. وزجاج.. وقمامة.. وبقيايا طعام.. فضغط برفق على يدها، ولكنها لم تقابله بضغط على يده.. وظلت كما هي متشبثة بيده.. ولما وصل إلى الاستقبال وطلب هناك مفتاح غرفته.. كانت أيضا ممسكة بيده اليسرى.. والعيون ترمقه هو والطفلة، ولكن أحد لم يتفوه بكلمة.. وأعطاه الموظف المفتاح ككل يوم آخر.. وسأله كالمعتاد:

- هل ترغب أن تتناول طعام العشاء عندنا في المطعم ياسيدي؟

فأوماً هوفمستر أن نعم.
وفي الغرفة أجلس الطفلة على أحد الكراسي وجلس هو على السرير. كانت يده مبتلة بالعرق.. ثم خلع قبعته.. ومسح وجهه بالمنديل.. والطفلة تنظر إليه.. تتابع حركاته.. متوترة ولكن ليست سيئة المزاج.
وضع هوفمستر رأسه بين يديه.. فلم يعد يعرف ما الذي ينبغي أن يفعله هنا.. لقد جاء للبحث عن تيرزا.. ولكنه الآن لديه طفلة في الغرفة.. طفلة سوداء لا ترتدي حذاء.. وفستانها قذر.. فتح البار الصغير وسألها:

- ماء؟
فأومات الطفلة أنها تريد.
فصب الماء في كأس وأعطاه إياها.. فشربت بشراهة.. وجلس هو مرة أخرى على السرير.. وجعل ينظر إليها.. ثم خلع صندله.. وكانت قدمه اليمنى تنزف من مكانين.. فبحث في حقيبة أدوات الحمام عن بلاستر، فوجد آخر واحدة.
ولما انتهى من الإعتناء بجرحه.. سألها:

- ما اسمك؟

- كايسا.

- كا- أيسا؟

- أومات.. فقال:

- أنا يورجن.. يورجن هو فمستر.
كان يحدثها بالإنجليزية.. ببطء ووضوح.. كأنه مرة أخرى
في معرض الكتاب.. ويتحدث عن كتب، هي بالنسبة إليه، لو
كان يريد أن يكون صادقاً، لا تعني له شيئاً إلى حد ما، فهي
مخيبة للأمال.. ولكن ما الذي لا يخيب الأمال بالمقارنة مع
تولستوي؟

وهكذا جلس الاثنان وجها لوجه.. هو على السرير.. وهي
على الكرسي.
شعر بضداع غريب يتصاعد في رأسه.. بؤادر مرض.. أو
انفلونزا.. وبعد ربع ساعة قامت مرة أخرى بطرح السؤال
الذي طرحته مرتين قبل ذلك:

- هل تريد رفقة ياسيدي؟
فهز رأسه نافياً.. وفتح الحقيبة.. وحينها تذكر أنه ما زال
لم يشتري مبرة.. فبحث عن شيء في الخريطة.. ولكن ماذا
كان هذا الشيء؟
فرغ الكأس.

- ماء يا كايسا؟ مازلت تريدين ماء؟
أومأت.. ففتح البار وأعطاهما زجاجة.
وهذه المرة شربت بشراهة أقل.. وبدأ هو بتحليل
الموقف.. فلطالما فعل هكذا.. لطالما كانت حياته مزيجاً من
هذه الأشياء، من التحليل والتأمل وإطالة التفكير ثم
الاستنتاج.

في حجرته تجلس طفلة.. لا يبدو عليها أي إشارة بأنها
ستذهب.. وسيكون عليه أن يعطيها شيئاً لتأكله.. هذا أول
شيء.. فسألها:

- جائعة؟
أومأت أن نعم.
فنظر إلى الساعة. مازال هناك ساعة وعندئذ يمكنهما أن
يذهبا إلى المطعم.. فقال لها:

- مازال علينا أن ننتظر ساعة.. بعد ساعة يمكننا أن نأكل.
وتساءل إن كانت تعرف ما معنى كلمة ساعة.. فقد قالها
بالألمانية.

عاد الاثنان مرة أخرى إلى الجلوس تجاه بعضهما في
صمت.. الطفلة

تنظر إليه.. ولكنها لا تحقق فيه بوقاحة.. بل كأنه جهاز تلفاز.. أو محرك دمي.. سوف يبدأ بالعرض في أية لحظة.. أخرج المظروف من جيبه.. وأظهر الصورة لكايسا، وقال:

- هذه ابنتي.

أمسكت الطفلة بالصورة.. وألقت نظرة خاطفة عليها.. ثم عادت تنظر إليه.

فجلس هوقمستر مرة أخرى على السرير.. حيث كان يجلس طوال الوقت.. وقال لكايسا:

- تيرزا.. هكذا تسمى. وعندما كانت في نفس عمرك.. كنت أقرأ لها دائما.. وأيضا كنت أقرأ لها لدوستويفسكي رواية " في قبوي " .. مع أن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ في القراءة عن العدمية مبكرا كثيرا هكذا.. كنت أمر على القراءة.. كما يمر القطار في النفق.. وكانت هي مع ذلك تفهمها. لقد كانت... " لم يكذب سعه لسانه على نطق الكلمة، ولكنه في النهاية نجح في ذلك.. وقال بصوت حاد: موهوبة.. نعم إنها موهوبة.

بدأ يشعر بالانهيار كأنه رافعة قديمة تتداعى من شدة تهالكها.. فبدأت شفتاه بالارتجاف.. ولكنه سرعان ما عاود السيطرة على نفسه.

طرق أحدهم الباب.. كانت الخادمة.. تريد أن تغير فرش السرير لهذه الليلة.. فسمح لها بالدخول.. وهما - الضيف والخادمة - يعرقان بعضهما.. فقد تقابلا قبل ذلك مرات عديدة.. ولكن يظل هناك بعض الحرج.. الذي يزداد الآن خاصة.. بسبب وجود كايسا.. تجاهلت الخادمة الطفلة عمدا.

وسحب هوقمستر نفسه إلى الحمام.. وجعل ينظف أسنانه.. بينما تقوم الفتاة بعملها.. ولما ذهبت.. كانت الستائر مغلقة. وخلافا للأيام السابقة التي كانت تترك فيها حبة واحدة من حلوى الشيكولاته.. فقد تركت اليوم حبتين.. فضحك.. فلا يمكن أن يردھا.

أخذ هوقمستر البونبون وأعطاهما لكايسا.. فقذفت بالاثنتين مباشرة في فمھا.. دون أن ترفع عينيھا عنه.. حذرا منه.. قال لها:

- إن تيرزا لديها عينان حيويتان مثل عينيک.

وأخذ من يدها ورق غلاف البونبون وألقاه في سلة المهملات.

لم يبق إلا ربع ساعة.. وبعدها سيضطر أن يذهب إلى صالة الطعام ومعه الطفلة.. إنه لا يفهم ماذا حصل له.. هو والطفلة السوداء بملابسها القذرة!

فتح البار الصغير.. ورفع إلى شفثيه زجاجة فودكا صغيرة.. ثم سألها:

- هل تريدين غسل يديك؟

لم ينتظرها أن تجيبه.. ومد إليها يده.. وذهب بها إلى الحمام.. وفتح الصنبور، وأعطاهما الصابونة.. فلم تكن هي لتستطيع أن تصل إلى الصنبور أو حامل الصابون.. غسلت الطفلة يديها.. ولما انتهت.. نظرت إليه متسائلة.

- هل تريدين غسل قدميك أيضاً؟

فهزت رأسها نافية.

- ربما يكون ذلك جميلاً؟

لم يلاحظ هوفمستر إلا الآن أنها تجدل شعرها في ضفيرة.. فلم يكن قد أمعن النظر إليها.. لم يتجرأ أن يفعل ذلك.

- هل أنت متأكدة؟ فإنني أيضاً سأغسل قدمي.. يمكنك أن تلحقي بي عندما تريدين.

ملاً البانيو بالماء إلى النصف.. وأحضر زجاجة ماء للفتاة.. ولنفسه قئنة نبذ أبيض.. الذي يوضع منه جديد كل يوم في البار الصغير.

أجلسها على حافة البانيو.. وساقاها في الماء.. وسألها: ليس ساخناً جداً؟ هو جيد هكذا؟ فأومأت.

فشمر هوفمستر عن ساقيه وجلس بجانبها.. وجلس الاثنان - الرجل والطفلة - يأخذان حماماً للقدم. كانت بشرته بالمقارنة مع بشرة الفتاة ليست شاحبة فقط، ولكنها أيضاً مدمرة.. ومريضة بمعنى الكلمة.. قد أضناها تقدم العمر.

جاء حمام القدم في وقته بالنسبة له.. فعلى الرغم من أنه يعرف أن هذا الحمام لن يخفف من وطأة مشاكله.. إلا أنه لأول مرة منذ وصوله في مشكلة حالية.

فسوف يكون معها في الحال في قلب صالة الطعام.. كيف سيتخطى ذلك؟

شرب النبيذ حتى آخر قطرة منه.
فأخرج قدميه من الماء.. وأحضر من البار زجاجة ثانية
من الفودكا.. قشر بها على عجالة.. وهو يشعر ببعض
الإشمئزاز.. كأنه يتناول دواء.. ثم قال:

- هيا.. سنذهب لنأكل.
كانت على أرضية الحمام منشفة كبيرة بيضاء.. فرفع
كأيسا وأوقفها عليها.

جثا هو فمستر فوق ركبتيه وجعل يجفف لها قدميها..
وهو يقول: بين الأصابع أيضاً.. وإلا أصيب المرء بداء القدم
الرياضي.. أعرفين، إن لدي ابنتين.. أكبر منك. وفي الواقع لم
أكن أريد أطفال.. ولم أكن أيضاً أرغب في الزواج.. ولكن
زوجتي أقنعتني بذلك. بعد أن كان لدي خطط أخرى غير
ذلك.

انتهى من تجفيف قدمها اليسرى.. وتحول إلى اليمنى،
وهو يقول:

- كنت أريد أن أثبت.. أن الرب والتقدم والحب أيضا قد
ماتوا.

ثم انخرط في الضحك كأنه قد قال طرفة لاذعة.. أمسكها
من كاحلها واستغرق في الضحك.. ثم قال:

- انتهينا.. يبقى أنا ثم يمكننا الذهاب.
خلع ملابسه خلف أحد أبواب الدولاب - فقد ظل
متحفظاً - ولبس بزته.. لأن لديه اليوم ضيفا.. وارتدى ربطة
العنق.. ثم وضع القبعة على رأسه.. وشرب سريعا قنينة من
نبيذ الجن.. فقد انتهت الفودكا.. والطفلة تنظر إليه.. فقال
لها:

- إن هذا دواء.. دواء يداوي العار.
ثم فتح زجاجة أخرى وشرب حتى نصفها.

- وهل تعرفين ما هو العار؟ إنه المدنية والثقافة.
وبينما يقف أفرغ زجاجة النبيذ الثانية وهو يشعر ببعض
الإشمئزاز.. ثم جلس فوق السرير والزجاجة الفارغة في يده..
وهو يغمغم:

- نعم.. الثقافة.. هي الثقافة.. الثقافة.. الثقافة.
تناول حقيبتته.. ثم أمسك يدها.. ومشى بجانبها مثلها..
حافي القدمين.

وذهب الاثنان هكذا إلى قاعة الطعام.
وعندما دخل.. جعل الناس يحدقون فيه.. وفي الطفلة..
يروح نظرهم ويجيء بينهما.. قالت له الفتاة التي خدمته
قبل ذلك عشرات المرات:

- أوه.. سيد هوفمستر، هل لديك ضيف اليوم؟
فأومأ.. وأفصح لكايسا كرسيها.. وخلع قبعته.. وهو يظن
أنه سيموت، ولكنه تماسك.. وانتهت الأحاديث التي تدور عنه..
وخلافاً للأيام السابقة.. طلب اليوم ماء معدنياً معبأ..
وانحنى على الأنادلة، كما لو كان يريد أن يخبرها بسر.. ما..
وقال لها:

- معذرة على القدمين الحافيتين.. فذلك بسبب الحرارة..
وهما متورمتان.. والرطوبة قد تجمعت فيهما.. ولا تخرج
منها. ولا أعرف لماذا في قدمي بالذات.. ولكن الحال أنها قد
تجمعت في قدمي.. فمعذرة.. واعتذري عنا أيضاً لبقية
الضيوف.
فقالت:

- بالطبع سيد هوفمستر.. بالطبع.. لا بأس بذلك..
وكالعادة أحضرت إليهم مع الخبز بعض أصابع الخبز
المقمرمش.

فكسر واحدة.. وأعطى نصفها لكايسا.. وقال: كلي..
فأكلت.. بينما لا تزال تواصل التحديق فيه..
وأخذ هو ينقر نقرًا خفيفًا بسببته على الطاولة.. وقد
أخذ الحديث عنه مرة ثانية يبدأ ببطء في الظهور..
كان في حيرة من أمره.. لم يدر ماذا يفعل، فوجه حديث
العاجز إلى كايسا:

- حسناً يا كايسا.. إنني أيضاً من هولندا.. هل تعرفين أين
تقع؟ في شمال أوروبا.. إنها بعيدة عن هنا.. تبعد أربعة عشر
ساعة بالطائرة.. وثمانية عشر ساعة بالترانزيت.. إنني.....
أعطاها واحدة أخرى من الخبز المقمرمش.. ولكنه لم
يكسرها هذه المرة.

- أم هل تفضلين الخبز العادي؟
فهزت رأسها.

- إنني على وشك التقاعد.. بل في الواقع، يمكن القول
بأنني في فترة التقاعد.. لأنني لم أعد أعمل.. فقد جعلوني

خارج نطاق الخدمة.. وكانوا يريدون أن يسرحوني من العمل.. ولكن المستشار القانوني كان يرى أن هذا غير ممكن نظرا لسني.

ثم أبعد بعض الفتيات الموجود على الطاولة.
أنصت إلى الموسيقى.. فلاحظ أنه قد استمع إليها مئات المرات.. إنها نفس الموسيقى التي تدور كل ليلة. ونفس الموسيقى كل ليلة ثلاث أو أربعة مرات.
جعله الدواء يشعر بالاسترخاء.. ولكنه لا يزال يشعر ببعض الحرج:

- إنني على العموم في نهاية المطاف أنا إنسان تعيس.
وعاد فضحك مرة أخرى كأنه يضحك من طرفة لاذعة..
وقد ضحك كثيرا هذا المساء.. ثم استطرد:

- ولكن لا أحد يلاحظ شيئا.. كيف سيفعلون ذلك؟ وما الذي سيلاحظونه؟ كما أن على المرء أن يتساءل دائما إذا ما مُني بسوء الحظ....

جاء إليه بقائمة أصناف النيذ.. فطلب دون أن يطيل التفكير.. الشاردونيه الجنوب أفريقي. وقال:

- والسيدة الصغيرة ستشرب عصير ليمون؟ كوكاكولا؟
فأومات موافقة.

- كوكاكولا؟

فأومات مرة أخرى.. ولكن هذه المرة مقررة.. حتى أن بعض الحماس يظهر عليها.. فقال:

- كوكاكولا للسيدة الصغيرة.

وكانها قد قاما برحلة مع بعضهما لأيام.. أو كأنهما لم يكونا يفعلان شيئا غير الأكل والنوم.. ثم الاستيقاظ والأكل.. متفهمان تماما مع بعضهما.

أعطاهما اصبعاً آخر من الخبز، فأكلته بشهية.. قال:

- من سوء حظنا أننا عالقيين هنا.. كلانا سيء الحظ.. ولو كان لدي وقت لأدرك ذلك.. لم أكن لأضع نفسي- في هذا الموقف. إن السعادة صورة.. أو أسطورة.. أو تعبير رسمي في حفلة ما.. أو التجمع مع الأصدقاء والأكل معهم. إنني غير سعيد. ولكن ليس أكثر من الآخرين.. لقد قلت ذلك عن نفسي كثيرا عندما كنت أتعرض للحظات صعبة.. ولكني

لست سيء الحظ تماما.. فأنا لدي ابنتين.. ولدي منزل جميل..
منزل رائع جدا.
وفجأة توقف عن الحديث.

- ولكن عليك أنت الآن أن تخبريني شيئا.
توقفت عن الأكل.. ولا زالت ممسكة بيدها قطعة من
الخبز المقرمش.. أو الأصح ممسكة الخبز بقبضتها الصغيرة..
وكلمة "قبضة" هذه كانت بالنسبة لهوفمستر من نفس
فئته هو عندما كان شخصا مختلفا وغامضا.. لا يعرفه أو لا
يكاد يعرفه أحد.
والقصة التي مازالت تجري أحداثها.. ربما تطور في جميع
الاتجاهات.. قال:

- نعم.. عليك الآن أن تخبريني بشيء عن نفسك. كم
عمرك؟

جاء الشاردونيه.. جرب هوفمستر مذاقه دون أن
يستطعمه.. وشربه بسرعة.. وبشيء من الوقاحة.. علي الرغم
من أنه لم يرد أن يفعل ذلك الآن.. ولكنه لم يستطع أن يصبر..
انتظر دقيقة أخرى حتى جاءت الكولا للطفلة.. فسألها:

- هل تريدين شريحة من الليمون معها؟ هل تحبين أن
تشربيهها هكذا؟ فابنتي تيرزا لا تشرب الكولا دائما إلا
بالليمون؟ منذ صغرها وهي تفعل ذلك.. ولكننا لم نكن
نسمح لها أبدا بذلك.. فقد كنا نعارض شرب الكولا، وهذا
يعني أنني كنت ضدها.

هزت رأسها بالرفض فلم ترد ليمون.

- لا بأس.. فلنشرب نخب هذا هذا المساء.. نخب
لقائنا.. نخبك أنت كايسا.. نخبك أنت.

وقرع كأسه بكأسها.. وشربت كما يشرب.. بتفان كامل.
ولما أعطيت لها قائمة الطعام.. لاحظ أنها لا تستطيع أن
تقرأ.. أو على الأقل ليس بشكل كافٍ.. وكانت تنظر إلى
القائمة.. كما كانت تحقق فيه.. بفم نصف مشدود.. كأن شيئا
على وشك الحدوث.. كأن قائمة الطعام سوف تبدأ في
الحديث.

طلب لها حساء الدجاج.. فحساء الدجاج أيضا يمكن أن
تحسب دواء.. ثم سأل:

- ثم ماذا.. سمك أم لحم؟

نظرت إليه.. والقطعة الأخيرة من الخبز المقرمش في قبضتها.

فأعاد عليها سؤاله:

- سمك أم لحم.. يا كايسا.. أيهما تفضلين؟

فقالت: لحم.

فأمر لها بلحم الضأن.. فهو دائما أفضل.. وطلب لنفسه لحم شبرينج بوك ثم قليلا من السمك.

ثم ابتعدت النادلة بعد أن دونت كل شيء.

ورأى كيف تتهاشم مع زميلتها.. وفكر، لا، بل يعرف أنها تتحدث عنه.. فهو الآن لأول مرة منذ وصوله يجلس معه شخص على الطاولة.. وفوق ذلك هي طفلة سوداء.. وهما تتهاشمان قائلتين:

- أهذا ما قاله.. يبحث عن ابنته.. ولكنه في الحقيقة ما جاء إلا للمتعة.. متعة خاصة.

إلتفت إلى كايسا وقال:

- كلي.

فأكلت القطعة الأخيرة من الخبز المقرمش.. التي كانت في يدها طوال الوقت.

ثم سألتها:

- أين كنا؟ أوه نعم.. كم عمرك؟

في لحظات كهذه يعتمد الأمر على فن إدارة الحديث.. فكل حفلات الاستقبال التي حضرها وعروض الكتب والمعارض التي زارها.. لم تذهب سدى.. فقد تعلم منها أشياء.. قالت:

- تسع.

غطى وجهه بيديه.. وقال:

- إذن الفرق بيننا خمسون سنة كاملة.. حوالي نصف قرن.. ونحن متفقان على ذلك.. نصف قرن.

عادت نظراتها.. طبيعية.. ولكن متفحصة.

- خمسون سنة هي نصف قرن.. أنت بالطبع تعرفين ذلك؟ وكم عمر والدتك؟

كانت محادثة من طرف واحد، ولكن هوفمستر لم يمل.. فهو يشعر

أن حياته الآن تتوقف على ذلك. ارتشف رشفتين من النبيذ..
الدواء الوحيد ضد العار.. الدواء الوحيد الذي يساعده حقًا.

- كم عمر أمك يا كايسا، هل تعرفين كم عمرها؟

- ماما في المنزل.

قاتلتها هأمسة، مسرعة في الجواب.. ولم تزد على ذلك.
وقد خرجت هذه الجملة منها في الواقع كما خرجت جملة:
هل تريد رفقة يا سيدي؟ .. بجواب سريع.. كأنها كانت تعلم
أنه يريد أن يسأل عن ذلك.. كأنها قد رأت ذلك.. فقال
هوقمستر:

- أها.. في المنزل. نعم.. هذا ما ينبغي أيضا. والداي لم
يعودا على قيد الحياة.. لم يلبث أحدهما أن مات فلحقه
الآخر.. وكانت الطفلتان حينها لا تزالان صغيرتين.. ولكن
جداهما لم يكونا أبدا ليتحمسا لهما.. وفي النهاية لم يعودا
يفتحا الباب لأحد.. ولا حتى لنا.. فكنا نضطر أن نعود إلى
أمستردام.. وبالطبع كنت أشعر بالأسف للطفلتين.. فقد كانتا
تسعدان جدا عندما يذهبا إلى جدتهما وجدتهم.
ثم صب لها كولا.. انتظر أن تقول شيئا.. ولكنها واصلت
صمتها.

وواصلت وواصلت.. ولذلك اقتنص الفرصة للكلام.. فلا بد
أن يتحدث، فكل شيء سيكون على ما يرام طالما يفعل ذلك..
ولكن ليس مهما نوع الكلام الذي يقوله.

- لم يكون والداي مريضان.. ولكنهما أيضا لم يكونا بصحة
جيدة.. أو بالأحرى تدهور حالهما من عافية إلى صحة
عادية.. وقد كانا قد اعتنقا مذهباً غير مذهبهما.. ويخافان أن
تعلم القرية بذلك. أن تعلم بأنهما قد تحولا وعادا إلى
فطرتهم -" ثم أخفض من صوته كأنه سييوح بسر- رهيب -
فهذا لم يكن لأحد أن يعلم به.. وهذا ما حصل أيضا. فقد كانا
يخشيان أن يظهرأ بشكل مختلف.. فيظهر أمرهما للعامة
وكذلك في البيت. وأصبح لهما طبيعة ثانية.. فكانا يكرهان
كل شيء شاذ.. هل تفهمين؟ كل شيء لا يعرفانه.. كل شيء
مختلف.. كل شيء خارج عن الطبيعي. فكانا يكرهان المرضى..
لأن كل شيء لا يوافق الطبيعة هو شيء مريض. ولم يكون
والداي ليفرقا بين المخطئين واليهود والسود والمثليين - فكلهم
مرضى.. لا يستحقون المساعدة. بل إنهما أنفسهما كانا مرضى
ورزقا بالشفاء.. ولكنهما كانا يخشيان من أن شيئا من آثار

المرض ربما بقي في جسدهما، ندبة.. أو جرب.. أو بقايا مرض عنيده يمكن أن تثور في أي لحظة.. ولذلك جعل والدي يضرب أحد اليهود حتى كاد يميته، أمام متجره بالمجرفة.. ففعل ذلك حتى لا يشك أحد في القرية أنه قد شفي.. فأيقن أهل القرية أنهما قد شفيا.. ولكن كما قلت.. لم يعودا يفتحا الباب لأحد.. وحتى لو كنا نحن.

كانت الطفلة تنظر إليه.. فقال في نفسه: إنها تظنني محرر عرائس.. لا إني مسرح العرائس.. فقال هوفمستر:

- أتعرفين ما أجده جميلا؟ معك أستطيع الحديث.
ووضعت المقبلات أمامهما.. أخبرها هوفمستر أن عليها أن تحترس.. فتنفخ في الحساء قبل أن تأكلها بالملعقة.. وأخذ الملعقة.. وقدمها إليها.. فأخذت تنفخ.. وأنهمك الاثنان في وجبتها.. لا يلقي الناس على الطاولات الأخرى انتباها لهذا الزوج. وتساءل هوفمستر: هل نحن حقاً هكذا؟ ربما نحن زوج مطاردين.. ولكن على كل حال.. ماذا غير ذلك؟ نعم زوج والأزواج بحكم التعريف متقلبون.. بل وأكثر تقلباً من الشباب.

وبعد أن انتهت من الطبق الرئيسي الذي لم تأكل منه سوى القليل.. أرغمها على أكل الحلوى.. حلوى الشربات. وطلب لنفسه الكونياك المعتاد.

ستكلفه الرحلة أكثر مما كان يتوقع في بادئ الأمر.. ولكن ماذا يهم؟ فمن فقد كل شيء.. لن يجد غصاة في أن يفقد ما تبقى.

وقبل أن يأتي الكونياك.. قام فذهب إلى الحمام.. ووقف برجله الحافيتين أمام المبتولة في بركة ماء قدرة.. فعادت إليه فكرة أنه لابد وأن يأتي يوم سيموت فيه. أنه لا يوجد أمامه سوى هذا المخرج الأخير.. فكل الطرق الأخرى مسدودة. حاول وهو يقف في بول الآخرين أن يتصور كيف يموت. كان عليه أن يستند بإحدى يديه على الحائط بينما يتبول.. فقد شعر بدوار خفيف.. ولكن ليس خطير.
كانت الحلوى والكونياك قد جاءتا في هذه الأثناء.. وعندما عاد إلى الطاولة قال مرة أخرى:

- لكم يسعدني أننا نستطيع أن نتحدث معا يا كايسا.. حديثاً حقيقياً.. ماذا تعمل أمك بالضبط؟ وأبوك؟ هزت كتفها مبدية عدم علمها بذلك.

- هل هي خادمة؟
 فهزت الطفلة مرة أخرى كتفها.
 ثم سألتها، وكأنه لم يذكر أن يسألها هذا السؤال غير الآن:
 - ألن يقلقا عليك؟ أليس عليك أن تتصلي بهما؟
 هزت رأسها وقالت وقمها مملوء بالحلوى: لا.
 - ألا تشعر بالقلق؟ ألا تتلهفى أن تذهبين للبيت؟ ولكنك
 بالطبع أيضا فتاة كبيرة.
 وبينما يشرب الكونياك.. خطرت برأسه فكرة أن على المرء
 في الواقع أن يتعلم، وربما يحتاج شيء من الموهبة لذلك، أن
 يتعلم للموت.
 قام من مكانه.. وساعد الطفلة على القيام من كرسيها..
 ثم أمسكت بيده.
 اتجه نحو باب الخروج كما يفعل كل مساء.
 وككل مساء قال له الموظفون: نتمنى لك نوما هنيئا سيد
 هوفمستر.. ولكنه كان يرى في عيونهم - برغم كل الأدوية
 التي ابتلعها - أنهم ينظرون إليه بخلاف المعتاد.. كان يرى
 أنه أصبح شخصا آخر في عيونهم.. ولم يعد الرجل الذي
 يبحث عن ابنته.. بل هو الآن شخص ما يبحث عن متعة
 خاصة.. بحث عنها.. ووجدها.
 ولكن ذلك ليس صحيحا.. فأراد أن يشرح بتفصيل أكثر..
 أراد أن يقول: أنتم مخطئون.. ليس الأمر كما تظنون.
 توقف بالقرب من الاستقبال وقال:
 - إذا يا كايسا.. لقد كان مساء جميلا.. وأنا لا أعرف أين
 عليك أن تذهبي.. أو أين تسكنين.. ولكن يمكنني أن أطلب
 لك سيارة أجرة.
 يعج الليل بالضوضاء في إفريقيا.. ففي كل مكان يسمع
 طنين الحشرات.. ولكنه للأسف لا يفهم إلا القليل عن
 الحيوانات.
 كانوا يعلقون فوق الاستقبال صاعقا كهربيا لاصطياد
 الحشرات الطائرة.. وفي كل مرة عندما تموت الذبابة من جراء
 الصاعق الكهربائي، يصدر الجهاز فرقة خفيفة.. سألها:
 - أين تسكنين يا كايسا؟ هل تسكنين بعيدا عن هنا؟
 أمسكت بيده مرة أخرى.. على الرغم من أن هذا الوقت
 هو الأنسب كي تغادر.. فهو يريد أن يذهب للسريير وينام..
 ينام أولا ثم يموت.

- هل تسكنين في ويندهوك؟
كأنها لم تسمعه.. فقد كانت تنظر مثله إلى الصاعق
الكهربائي.. وهي تسأل: هل تريد رفقة ياسيدي؟.. ولكنها
الآن أكثر حياء من المرة الأولى ومختلفة قليلا.
ظل نظره معلقا قليلا على الجهاز.. ثم نظر إلى الطفلة
وقال:

- لا.. ولكن إن كنت تريدين، يمكنك قضاء الليلة هنا.. إن
كان الوقت متأخر جدا على الذهاب إلى المنزل.
خلع قبعته قليلا ومسح على جبهته.. فهو يظل يشعر
بالحر فيها.. مع أنها على ارتفاع عال.. حوالي ١٧٠٠ متر.. ومع
أنها تبرد قليلا في المساء.. ولكنه مع ذلك يشعر بالحر.. وقال:
- لا مشكلة عندي إن قضيت الليلة هنا.. والغرفة أيضا
تتسع لشخصين.. ومع أنني لا أعرف ماذا يظنون عنا هنا..
ولكن على ما أعتقد أن ما يفكرونه لا يهمك في شيء.. وفي
الواقع نفس الأمر معي أيضا. فأنا غريب. وأنا لا آبه لما يظنه
الناس عني.. لأن الإنسان هو ما يظنه الآخرون عنه. ولكن
هنا، والآن، في هذه البلد؟ لا.. فأنا سائح.. وماذا يمكن أن
ينتظر مني هنا؟

وذهبا يدا في يد إلى غرفته.
جلست على نفس الكرسي.. الذي كانت تجلس عليه بعد
العصر.. قال:

- حسنا.. ها نحن هنا.
وأضاء أيضا أضواء الحمام.. وسألها:
- أنت بالطبع ليس معك فرشاة أسنان؟ لا، أنت ليس
معك أصلا أي شيء. هكذا هم الشباب.. يستغرقون في النوم..
ولا يحسبون لشيء حساب.. ولا يكثرثون بشيء.. ولكن مع
الزمن تأتي الحكمة.. وهكذا كانت تيرزا أيضا.. فقد كان علي
أن أذهب ورائها بكل ما يمكنني.. عندما كانت تبقى للنوم
في مكان ما. ولكن بإمكانك أن تستعيري

فرشاتي.. سأنظفها جيدا.
وضع الفرشاة تحت تيار الماء.. وجعل يغسلها وهو ينظر
إلى الطفلة.
كانت تجلس هناك بلا حراك.. فقال لها:
- تعالي.

ولوح إليها، فجاءت نحوه مترددة.. فوضع المعجون على الفرشاة.. وجلس على ركبتيه وجعل ينظف لها أسنانها.. على الرغم من أن فرشاته كانت في الواقع كبيرة جدا على فمها. لقد مر وقت طويل.. على آخر مرة نظف فيها لطفلة أسنانها.. ولكنه لم ينس ذلك.. فليس عليها سوى أن تفتح فمها.. دون أن تسأل أو تحتج. كان ينظف بتمعن.. ثم قال:

- من الجيد أن لدينا هذه.. فهي مهمة.. أقصد الأسنان. ساقها إلى السرير.. وطوى نصف الغطاء جانبا.. حيث لا أحد غيره ينام هنا. فوجيء بأنها تحتاج إلى بيجامة.. ومع أنه لا بأس إن نامت عارية.. ولكنها لم تبدو له فكرة جيدة.. فقال:

- انتظري. وذهب إلى الدولاب وأخرج منه الفستان الذي اشتريته زوجته لتيرزا.. فأزال عنه الورق بحرص.. ووضعه في الدرج.. وقال لها:

- البسي هذا. فانزلت بسرعة البرق من ثوبها.. ووضع فستان تيرزا أمامها.. وقال:

- إنه ليس بيجامة حقيقية.. ولكن ليس لدينا غير هذا.. وعليك ارتداء شيء في الليل.. فالجو يبرد. خذي هذا. إنه لتيرزا.

وبشيء من الصعوبة ألبسها فستان تيرزا - فهو منذ وقت طويل لم يعد يلبس لأطفال ملابسهم.

بدأت وكأنها قد ارتدت الفستان استعدادا لحفلة.. فهز رأسه وغلبه الضحك.. كأنها حفلة تنكرية.. هذا ما تؤدي إليه هذه الرحلة.. هذا ما تؤدي إليه حياته.. كل شيء يؤدي إلى هذا.

وضع عليها الغطاء.. ثم ذهب إلى الحمام وخلع ملابسه هناك.. إلا

السروال الداخلي. ولم يكن هو الآخر لديه بيجامة.. ثم تمدد على جانب من السرير.. وقال:

- حسنا.. نوما هنيئا.

كانت تضع رأسها على الوسادة الكبيرة البيضاء.. فبدت لطيفة، هذه هي الكلمة التي خطرت في باله.. فقال مرة أخرى:

- من الجيد أننا ننام الآن.. فقد كان يوما طويلا.. التفتت إليه وسألته:

- هل تريد رفقة ياسيدي؟

فهز رأسه ببطء نافيا.. وهمس إليها:

- توقف يا كايسا.. توقف عن ذلك الهراء.. ليس الآن.. فالوقت متأخر.. هل أبدو هكذا؟ هل أبدو كرجل يحتاج إلى ممارسة الجنس؟ لا.. في الواقع لا أبدو هكذا.
ثم انحنى مارا عليها إلى الأبحورة ليطفأها.. ثم قال:

- لم أعد معتادا على أن يشاركني أحد السرير.. لا تغضبي إن كنت أتململ في النوم.. فقد كنت أنام في السنوات الأخيرة بمفردي في السرير.. حتى عادت زوجتي.. فقد كنت أجد أنه من العملي أن أستخدم جانبا من السرير كطاولة.. أضع عليها أوراقا ومجلات وكتب. ولكن ذلك توقف عندما عادت. نوما هنيئا.

ثم أطفأ الأبحورة التي على جانبه أيضا.. وظل مستيقظا لعشرين دقيقة على الأقل.. أمسك فيها عن التنفس أحيانا.. لينصت إن كانت كايسا قد نامت.

استيقظ في منتصف الليل.. فقد حلم بتيرزا.. كانا يقودان الدراجة يتجولان بها في بيتوفي.. ووالداه لا زالا يعيشان.
فقام وأضاء نور الحمام، وجلس قليلا على حافة البانيو.. فما زالت أفكاره مشوشة.. ثم تذكر بالكاد أن طفلة تنام في سرير.. وأنه قد مكث في ويندهوك حتى الآن أسبوعا. ثم حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة سمع فيها صوت تيرزا.. نعم.. ذلك كان حين اتصل بها، وجاء صوتها من المجيب الآلي.. وبدأ يتحدث معها بصوت منخفض.. وقال: تيرزا.. إنني في ويندهوك.. إنها مدينة غريبة.. في الواقع إنها ليست مدينة.. بل هي أقرب لكونها قرية.. وأنا أتحدث بصوت منخفض

بعض الشيء لأنني لست بمفردي.

استيقظ في تمام التاسعة والنصف.. فوجد كايسا قد استيقظت.. وتجلس مستقيمة على السرير.. تنظر إليه دون كلام.. فقال:

- صباح الخير.
ومسح على وجهه.. ثم أخذ ساعته من فوق
الكوميدينو.. وقال:

- الوقت متأخر.

فارتدى ملابسه.. دون أن يأخذ دشا.

- هل تقضين الليل عادة مع الناس؟

صمت مرة أخرى.

- أسألك عما إذا كنت تقضين الليل مع الناس في كثير من
الأحيان؟

فقالت: نعم.

- طبعاً يمكنك أن تبقي حتى نتناول الإفطار.. ولكن بعد

ذلك علي أن أذهب سريعاً.. فأنا هنا من أجل ابنتي.. فهي

غائبة. أتعرفين ماذا أطلق عليها؟ أطلق عليها ملكة الشمس.

ثم رفعها من فوق السرير.. ولم يكن هناك شيئاً آخر

لترتيديه غير ثوبها المتسخ. ثم خلع بحذر فستان تيرزا.. حتى

لا يلحق به ضرر.. ثم وضعه كما كان في الورق.. وأعاده إلى

الدرج.. وأعطى لكايسا ثوبها.. فلم ترتديه.. فجلس أمامها

على ركبتيه.. وقال:

- نحن سنذهب لتناول الفطور.. لابد وأن ترتدي

ملابسك.

أظهرت أنها تريد أن تحك أنفها في أنفه.. ثم طبعت على

فمه قبلة.. فتدحرج إلى الورا.. وقال:

- لا.. لا ضرورة لهذا.. حقاً لا ضرورة لهذا.

شعر مرة أخرى بأن الجو قد أصبح حاراً.. وشم رائحة نتنة

في ملابسه التي لبسها لتوه.. ولكن ماذا يضير في ذلك؟

فألرائحة النتنة في إفريقيا هي شيء مختلف تماماً عن الرائحة

النتنة في فان ايجنزشترات.. قال:

- لابد وأن ألبسك ثوبك.. فنحن ذاهبان للفطور.

ألبسها هوفمستر ثوبها.. وظل جالسا كما هو لبرهة من

الوقت.. كأنه تذكر أنه قد نسي شيئاً.. ثم قال:

- غسيل الأسنان.. فلنفعله إذن بعد تناول الفطور.

رأى صورة تيرزا موضوعة على البار الصغير.. فوضعها في

المظروف ثم وضع المظروف في جيب القميص.

وجد أنه من الأفضل أن يرتدي صندلا هذا اليوم.. ثم ذهب وكايسا إلى بوفيه الإفطار.. المبنى على الشرفة.
كان هناك طاولتان محتلتان.. وعليهما أناس يعرفهما من ليلة أمس.. وعندما ظهر هو والطفلة سكت الحديث مرة أخرى.

أخذوا مكانا.. فعلى الرغم من أن الضيوف هم من يقومون بخدمة أنفسهم على البوفيه.. إلا أن هوفمستر ظل قابعا قليلا في مكانه.. فقد شعر بأن المشي سيكون صعبا عليه.
سألته الفتاة التي كانت تخدمه بالأمس أيضا:

- قهوة سيد هوفمستر؟
فأوما.. وسألها:

- وما رأيك في الكاكاو الساخنة للسيدة الصغيرة؟ - كاكاو ساخنة.

لم يرتدي هذا الصباح قبة.. ولكن حقيبته معه.. وفيها كل ما يحتاجه.. وبمجرد أن أراد لينهض ويذهب هو والطفلة إلى البوفيه.. اهتز هاتفه المحمول. إنها الزوجة.
سألته:

- لماذا لا أسمع أخبارا منك؟

فهمس إليها على الرغم من أن أحدا لا يمكنه فهمه:

- هل أنت متضايقة؟ ليس عليك ذلك.

- ليس منك.. من تيرزا.

- لا أظن أنها مازالت في ويندهوك.. أظن أنها ذهبت إلى الساحل - أو إلى الصحراء.. سأقص أثرها هناك أيضا.

- تقص أثرها؟ يورجن.. هذه ليست لعبة الأرنب وكلاب الصيد. ألم يحن الوقت أن تذهب إلى الشرطة، وتقدم إعلانا عن أنها مفقودة؟

- إنني أعرف أن هذه ليست لعبة الأرنب وكلاب الصيد.. هل تعتقدي أنني سافرت ثمانية عشر ساعة من أجل ذلك؟

- أريدك فقط أن تقدم على فعل شيء.

- هل أنت قلقة؟

- ابيي قلقة جدا.. انها تتصل مرتين في اليوم.. فتشعري بالخوف.. وتصيبني بالعدوى.. وتجعلني عصبية. أنا أعرف أن هذا هراء.. ولكن ما باليد حيلة. هل ذهبت إلى الشرطة؟

- الشرطة؟ هذه ناميبيا!

- نعم.. ولكن يوجد وقت عليك أن تذهب فيه إليهم.. أم تفضل فعل ذلك في أمستردام؟

سأتصل بك فيما بعد.. كل شيء تحت سيطرتي.. وسوف تظهر مرة أخرى.. لقد نسينا فقط لبعض الوقت.

ثم أغلق الهاتف ووضعها في جيبه.

كانت الطفلة تنظر إليه غير مبالية تماما كما تفعل دائما.

- إن زوجتي قلقة.. وهي تعتقد أن علي أن أذهب إلى الشرطة.

ونهب هوفمستر.. وذهب هو والطفلة إلى البوفيه.. وهي تمسك بيده.. ثم أشارت إلى قطعة كرواسان، فوضعها لها على الطبق.. سألتها:

- زبادي؟ زبادي بالفواكه؟

ولما عادا إلى طاولتهما.. وأصبح أمام الطفلة كوبا من الكاكاو.. قال:

- علي أن أحكي لك الآن شيئا يا كايسا.. وهو في الحقيقة شيء مضحك.

ثم غمس ملعقة الشاي في زبادي الفواكه خاصتها يجرب طعمها.

انحنى عليها والمعلقة في يده وقال:

- لقد انتهت صلاحية حياتي.. ولم يعد بإمكانني الذهاب إلى أي مكان.

بدأت نبرته نبرة ظافر.. هو نفسه سمع هذه النبرة.. كأن هذا إنجازا.. كأنه عندما لا يستطيع أن يذهب إلى أي مكان.. ولم يعد لديه حيلة.. فهذا يعد إنجازا.

قأومأت.. وأبتسامة قد ارتسمت على وجهها.. عندما سمعت نبرة كلامه.. نبرة رجل يسمح لنفسه أن يمزح ويبش في وجه طفلة.. لاعبا معها.. ثم قال:

- إن الناس يحولون حياتهم إلى قصة.. ولذلك فهم يخلقون النظام.. وهذا هو جوهر القصة.. جوهر القصة هو خلق النظام.

والقصة التي استفدتها من حياتي هي ...

ثم ارتشف رشفة كبيرة من القهوة " أنها قد حادت عن القضبان.. وتصادت حداثها.. وخرجت عن السيطرة.

وما لبث أن عاد يشعر بالحزن العميق الذي تعرف عليه في غابات جنوب ألمانيا.. عندما كانت ابنته في المصححة.. ثم قال:

- إذا لم يعد بإمكان الإنسان أن يذهب إلى أي مكان.. فإنه سيتوقف عن اللعب.. ثم يعيش في الواقع.. لقد كنا نلعب دائماً أنا وزوجتي.. كان ذلك في الماضي. كنت أنا الممغصب الذي يحمل السكين، وهي الفتاة التي تركب الدراجة.. في القوندل بارك.. في أمستردام.. كنا نلعب كل ليلة.. هذا ما كان يجمعني وزوجتي.. اللعب.

ثم هز كتفيه استهجاناً.. فلم يكن يعرف ماذا يقول غير ذلك.. عندما كانت النادلة تصب له قهوته.. رأى في وجهها.. أنه لا يستطيع أن يبقى في الفندق بعد الآن.. فقد رأى رفضاً لا يكاد يختلف عن غضب ظاهر. فهم هنا لا يرغبون في الضيوف الذين يبحثون عن متعة خاصة، وعلى الرغم من أنه كان يحب أن يوضح أن الأمر ليس كما يظنون - أنه لا يبحث عن متعة - إلا أنه يعرف أن هذه ستكون محاولة عقيمة لا جدوى منها.

قام من مقعده.. وساعد كايسا أن تقوم من مقعدها.. وذهب إلى حجرته.. وبينما كانا ذاهبين.. كانت الطفلة تمسك بيده.. ولم يعد ذلك يثير استغرابه.. وأصبح وكأنه يجب أن تفعل ذلك.

بقي واقفاً أمام باب الحجرة.. وانحنى للطفلة وقال لها:

- لا بد أن تذهبي للمنزل.. أين تسكنين يا كايسا؟
لم يلق منها جواباً.. وظلت تنظر إليه.. فكرر سؤاله مرة أخرى.. وواصلت هي صمتها.. فقال:

- يجب أن أبحث عن ابنتي يا كايسا.. إنها تائهة.. وهم قلقون جداً.. قلقون بشكل مفرط.. أين تسكنين؟
أمسك بيديها.. وضغط عليها ضغطاً خفيفاً.. وسألها:

- أين تسكنين؟

لم يأت جواباً له مفاجأة.. ولكنه أشعره بالحنق، فقد سألته: هل تريد رفقة يا سيدي؟

كان دائماً يعتقد بأن الناس الذين يزعمون أنهم يمرضون من الخوف.. أنهم لا يتفوهون إلا بالهراء.. ولم يكن يصدقهم أبداً.. ولكنه الآن يعاين ذلك بنفسه.. فهو مشفق من الخوف..

وفوق ذلك لا يعرف مم هو خائف.. أو حتى إن كان هناك شيء يدعو للخوف.

فتح هوفمستر الباب.. فانسلت الفتاة من بين يديه.. وسبقته فجلست على الكرسي.. إذ يبدو أنها كانت تعتبره كرسيها.. فقال وهو يقف أمام البار الصغير:

- لا بأس.. يمكنك أن تبقى يوما آخر.. فهذا جميل بالنسبة إلي.. لأننا نستطيع أن نتحدث مع بعضنا.. فنحن نفهم بعضنا يا كايسا.. أتعرفين لماذا؟ لأن أحدا لا يحتقر الآخر ولا يدينه.

ثبت القبعة على رأسه، وأمسك بحقيبته.. وبيد الطفلة.. ووقف قليلا أمام المرأة.

وقال لكايسا وهو ينظر إليها من خلال المرأة:

- كان الكل يعتقد أنني سوف أترقى لأكون مدير دار النشر، ولكن هل تعرفين ما الذي حدث بدلا من ذلك؟ لم أصبح مدير دار النشر.. ففقدت طموحي وإيماني.. لأن طموحي كان هو إيماني.. وما قيمة الإنسان إذن بدون إيمان.. سوف يكون كالحجر.. أو ربما كالصلب.. سوف يصبح كمدرة.. انظري إلينا يا كايسا.. ماذا نحن؟ نحن بشر.. بلا إيمان.. وعلى الرغم من كل شيء لا نزال مع بعضنا.. كنت أظن حرا في الفضاء دون ارتباط بأحد.. لكنك جئت وأخذت يدي.. هناك عند إشارة المرور.. ثم أصبحت عالقا بك.. هكذا حدث الأمر.. لقد كان بإمكانك أن تمسكي بيد أي شخص آخر.. ولكنك أمسكت بيدي أنا.. ما الذي يعنيه هذا يا كايسا؟ ماذا رأيت عندما كنت مازا؟ هل كانت قبعتي هي السبب؟ هل تحدثت في هذا اليوم مع أشخاص كثيرين؟

ذهب معها إلى المدينة.. كانت هي حافية.. وهو يلبس الصندل.. ومن حين لآخر يقف عند أحد التقاطعات ويسأل:

- أين نذهب الآن يا كايسا؟

فتسحب في الاتجاه الذي ترى أنه الأفضل.

وفي الغداء أكلوا وجبة خفيفة في إحدى محطات البنزين.. وفي الساعة الرابعة شربا كولا في نادي للبلياردو.. ومن حين لآخر يقول هوفمستر شيئا عن ابنته أو عن عمله أو عن إفريقيا.. وكايسا تنصت.. دون أن تبادله الحديث.. ولكنها أحيانا تهمس قائلة:

- نقود يا سيدي.. من فضلك أعطني نقود.

فيعطيه بضعة دولارات ناميبية.. ولكنها ليس معها أي شيء تحفظ فيه المال.. لم يكن معها سوى ثوبها.. فتوقف عند أحد الباعة الجائلين واشترى لها حقيبة زاهية الألوان.. وأظهر لها أنها لا بد وأن تضع فيها المال.. قائلاً:

- انظري.. هكذا تفتح.. وهكذا تغلق.

كانت الحقيبة تناسبها.. كانت تضيء عليها البهجة.. حملتها معها كأنها تحتضن دمية. وصل إلى وسط المدينة وهناك جلس في أحد المنتزهات وفيه أيضاً حديقة ألعاب للأطفال.. كان هناك أرجوحة.. وزحلقتين.. إحداهما عالية والأخرى منخفضة.. وكان هوفمستر هو الوحيد الأبيض هناك.

في البداية تسلقت كايسا الزحلاقة المنخفضة.. ثم واتها الجراة بعد فترة وتسلقت العالية أيضاً. وهوفمستر يمشي بجانبها على الرمال.. فتداعبه الرمال متسللة بين أصابع قدميه.. حارقة جروحه.

كان يقول لها وهو يقف أسفل الزحلاقة:

- هيا.. لا تخافي.

وبعد الساعة الخامسة بقليل وقف أمام مقهى الانترنت القريب من شارع اندبندينس أفينو.. تردد لدقيقة.. ثم نزل الدرج المؤدي إلى المقهى.. وجلس في مكانه المعتاد وأجلس الطفلة على حجره.. ثم قال بصوت منخفض:

- إنني أجيء هنا كل يوم تقريبا.. لكي أرى إن كانت قد أرسلت إلي رسالة إلكترونية.

فتح صندوق البريد الخاص به، فلم يجد سوى رسائل من زوجته وبعض الاعلانات.. فلم يقرأ الإعلانات الجديدة.. ولا حتى رسائل زوجته.. وظل جالسا بلا حراك.. وهو يربت بلطف على شعر الفتاة.

لم يأبه كثيراً لما يدور حوله.. ونسي ما قد يمكن أن يفكر فيه الآخرون.. ولكنه لا يزال بظن الآخرين فيه. فليظنوا ما شاءوا هنا في ناميبيا.

ثم فتح الحقيبة وأخرج منها دفتر ملاحظات تيرزا.. وأخذ يتصفح الرسائل المكتوبة.. فلا يلفت نظره من حين لآخر سوى رسالة.. أو خريشة مرسومة على عجالة.. أو ربما كانت تفعلها وهي تتحدث في الهاتف.. فمعظم الناس يفعلون ذلك وهم يتحدثون في الهاتف.. ولكنه ليس منهم.

أخذ مذكرتها وبحث عن الصفحة التي فيها بريدها الإلكتروني وكلمة المرور.

فقرأ هوفمستر البيانات كأنه يقرأ خطابا.. في حين أنه لم يقصد ذلك.. ولكنه كان يقرأه كأنه خطاب.. ثم كتب الاسم الذي تستخدمه تيرزا وأتبعه بكلمة المرور. www.yahoo.com ثم كتب: Ibi83.. فرأى الرسائل التي أرسلها إليها.. ولم تقرأها مطلقا.. ورسائل من أصدقائها وصديقاتها وأيضا رسائل من أشخاص لم تخبره أبدا بأسمائهم.. لم يقرأ أي من هذه الرسائل.. ولكنه بدأ في كتابة رسالة جديدة.

كان الكمبيوتر يعمل ببطء.. فانتظر بفارغ الصبر حتى فتحت له النافذة التالية.

فكتب عنوان بريده الإلكتروني الخاص.. وكتب في خانة الموضوع: أخيرا.. يمكنني تسمية الرسالة بذلك: أخيرا.. بدأ بكتابة الرسالة والطفلة في حجره.. فكتب:

"أبي العزيز.. أعذر أنك لم تسمع مني عن أخباري لمدة طويلة.. إنني في الصحراء.. والهواتف هنا نادرة.. ولكن الطبيعة هنا رائعة" ..

توقف عن الكتابة.. ونظر قليلا إلى الطفلة على حجره وقال لها:

- هذا صحيح.. ألا توافقيني الرأي؟ أليست الطبيعة هنا رائعة؟

ثم مسح بالمنديل على جبهته.. ثم على جبهة الطفلة أيضا.. فبرغم مكيف الهواء في المقهى، إلا أن كلاهما يتعرق.. ثم تابع الكتابة:

"... وسوف نبقي لفترة هنا.. وبمجرد أن نعود إلى الأماكن الحضرية.. سأصل بك مباشرة.. لا تقلقوا.. فأنا سعيدة.. وكل شيء على ما يرام.. إنني أشعر كأمية.. قبلاقي.. وتحياقي لماما.. تيرزا، ملكة الشمس"

هي دائما ما تكتب ذلك في نهاية الكروت والخطابات: تيرزا، ملكة الشمس.

وأما ما يتعلق بأنها تشعر كأمية، فقد أخبرته بذلك ذات مرة.. عندما اصطحبها معه إلى عطلة نهاية أسبوع طويلة في باريس.. وكان الحمام في الفندق الذي يقيمآن فيه جميل وفسيح.. فكانت تنادي والدها كل مساء وهي تجلس في

البانيو.. وهو متمدّد على السرير يشاهد التلفاز، وتقول: بابا..
إنني أشعر كأمية.. فينهض لكي يرى ابنته وهي تجلس في
البانيو.. فيجيب: هذا هو المغزي من هذا الشيء.. يجب أن
تشعري بذلك. فيشعر في هذا اليوم للحظة بسعادة وخفة..
قرأ الرسالة على الأقل مرتين ثم ضغط على "إرسال".

ولا تزال الطفلة على حجره.. تعجبها هذه الجلسة..
وتحقق كل ما قاله هوفمستر وفعله.. وفي نفس الوقت بدأ
كل شيء ينزلق.. فلم تعلق تيرزا بأي استنتاجات على ما تراه
أو تسمعه.

فتح صندوق البريد الخاص به.. وقرأ رسالة تيرزا.. التي
وصلته لتوها. وقال محدثاً نفسه أكثر مما يحدث الفتاة في
حجره: تيرزا، ملكة الشمس.

كانه تفاجأ مما كتبه بنفسه!!.. كأنه لم يكن يتوقع ذلك
مطلقاً!

أخرج المحمول من جيبه.. وبحث عن رقم زوجته وهو
يحدد في رسالة تيرزا.

ردت على المكالمة.. فمن المحتمل أنها كانت تجلس في
الحديقة أو على الكنب في غرفة المعيشة.. تحاول فك شفرة
قديمة.. فقال:

- إنه أنا.

- هل من أخبار جديدة؟

مدت الطفلة وهي على حجره يدها نحو لوحة المفاتيح..
فنحى يدها جانباً بلطف.

- نعم، يوجد أنباء سارة.. لقد تلقيت رسالة الكترونية من
تيرزا.

وتابع هوفمستر التحديق في الرسالة، التي كتبها بنفسه.
وهو يتخيل زوجته غريبة عنه.. لا تصدقه.. لا تثق فيه بما
فيه الكفاية. فكان عليه أن يقرأ الرسالة مرة أخرى.. فهو
يحفظها عن ظهر قلب.. فقال:

- إنها في الصحراء.

- ثم؟ هل هي بخير؟ ماذا حدث؟ لماذا لم تتصل أو ترسل
رسالة قبل ذلك؟

كان صوت الزوجة يبدو مختلفاً عن المعتاد.

- هي بخير حال.. ولم يحدث أي شيء.

لم تبدو الزوجة مرتاحة.. فقد كانت العلاقة بينها وبين تيرزا متوترة.. والظاهر أن في قلبها شيء يقول لها أنها قد فارتقت الحياة.. فالحياة عندها ليست شيئاً مريحاً.. ولكن الموت هو كذلك عندها على ما يبدو.. وقد كان هوفمستر يضطر أن يفكر في ذلك.. إذا تيسر له الوقت.. ولكنه نفسه لم يكن يدرك.. ما الذي يشغله هكذا.

- وماذا كتبت؟

قرأ هوفمستر عليها الرسالة كاملة.. وهو سعيد، فالكلمات التي اختارها، والجمل القصيرة.. جعلت من الرسالة قصيرة.. ومع ذلك تضمنت كل شيء.. أو ما يجب أن يكون بداخلها.. وخاصة فكرة الأميرة.. فقد كانت فكرة جيدة.. سهلت عليه الأمر.. فسألته الزوجة:

- والآن؟ هل ستأتي إلى المنزل؟

مسح هوفمستر على فمه.. فقد فاجأه السؤال.. وهو لم يكن مستعداً له.. كان مستعداً لكل شيء إلا هذا السؤال.. فقال:

- سأسافر أولاً إلى الصحراء.. سوف أزورها.. منتهزا فرصة أنني هنا.. فسوف تكون المناظر جميلة.. فراغ ورمل على مد البصر.. لا بد أن العالم كان هكذا في بداية خلقه.. ساد الصمت بينهما للحظة.. لا بد وأن الزوجة تفكر في شيء.. قالت:

- والفيستان.. ماذا عن الفيستان الذي أعطيته لك.. هل ستأخذه معك أيضاً؟

- بالطبع.. بالطبع سأعطيه لها.. إنه موضوع في الدولاب في غرفتي.. سوف يأتي معي إلى الصحراء، وسوف تسعد به، فهو فيستان يصلح للأماكن الاستوائية.. فقالت:

- أرسل إلي رسائل.. ولتسمعني أخباراً قريباً.. إنني سعيدة.. وسوف تسعد أبي أيضاً.. سمع في صوتها شك غريب، شك على ما يعتقد، إن كانت ستسمع

منه حقاً مرة أخرى أم لا.. شك مثل الذي يتحدث به المرء عن شخص ما.. ذهب بلا رجعة.. قال:

- سأفعل ذلك.. سوف أتصل بك.. بمجرد أن أعود من الصحراء.

- إنني أفقدك.
- حول المحمول إلى أذنه الأخرى.
- ماذا تعنين بذلك؟
- كما قلت.
- فقال:
- لست بحاجة أن تفتقديني.. إنني سأعود.. وهذا الأمر قد جاء متأخرا جدا. أعني: أن تفتقديتي.. أن يفتقدي عامة أي أحد.
- أشعر بفراغ هنا.. هل أنت مستاء مني؟
- نظر إلى الطفلة الجالسة على حجره.
- لا.. أبدا.. إنني أعني، أوه، أعني أن الأشياء تذهب.. كما ذهبت.. لا، لست مستاء منك.. هذا ما أعنيه.. لا، أبدا.
- عندما ترى تيرزا.. أخبرها أنني أعشقها.
- مرة أخرى سمع الشك في صوتها.. ولكن من المحتمل أنه يتخيل ذلك.
- سوف أفعل.
- و- يورجن؟
- نعم؟
- كل شيء سيكون على مايرام؟
- ترك السؤال بدون إجابة.. وأنهى المحادثة بتحية قصيرة.. ثم وضع الطفلة على الأرض ودفع عند الكاشير.
- سألته الفتاة التي تعمل في مقهى الانترنت:
- إذن؟ هل هناك من جديد؟ هل توصلت إلى شيء؟
- فقال:
- هي بأمان.. ابنتي بأمان.. إنها في الصحراء.
- ألم أقل ذلك؟
- فأوما هوفمستر.. قالت الفتاة:
- إن الأطفال لا يمكنهم أن يشعروا بالقلق الذي يشعر به أبائهم.. ولم أفهم أمي إلا عندما أصبح لدي طفلة.. هي في عمر السنتين الآن.
- نعم.. نعم. لا يفهم المرء والديه إلا عندما يرزق بأطفال.

بالطبع كأن هوفمستر يردد الكلام.. فهو طوال حياته لم يفهم والديه أبدا.. ولا حتى هما كانا يفهمانه.

غادر المقهى.. وعندما كان على قاب قوسين من مكتب شركة الخطوط الجوية لجنوب إفريقيا.. قال للطفلة:

- علي المرء أن يريح الناس.. وهذه بالطبع ليست هي الطريقة الأفضل.. ولكنها ضرورية.. فالإنسان الهاديء البال هو إنسان سعيد.. هاديء وتحل عليه السكينة.. إنني لا أستطيع تحمل رؤية الآخرين يتألمون أو يعانون.. لا أتحمّل هذا الذعر. لابد أن يعيش الناس في هدوء.. فأنا أكره الهيستريا. هذه المشاعر، لعنة هذا الزمان.
خرجت من فمه كأنها سباب.. ثم همس:

- إنها لعنة بعروضها التي تفخر بها.. لعنة بعقيدتها.. إنها جنون.. جنون.. هذه المشاعر هي العقيدة التي يجب التغلب عليها.

ثم فتح حقيبه ليتحقق من وجود دفتر ملاحظات تيرزا ومذكرتها.. فلربما حقا قد يكون نسيهما أيضا في المقهى. ولكن كل شيء، كل ما ينبغي أن يكون في الحقيقة، لا يزال فيها. المبراة فقط هي التي لم يشتريها بعد.. فهو ينسى- شراءها دائما.. حتى أنه نسي ولم يعد يذكر مرادف كلمة "مبراة" في الإنجليزية.. قال:

- سأودعك الآن.. فلايد وأن نفترق.. كان من الجميل مرافقتك.. ولكنني لابد أن أواصل. وسأذهب أنا لابنتي.. وتذهبي أنت لأسرتك.. شكرا على كل شيء.
ثم تردد، فلم يعرف ماذا ينبغي أن يقول بعد ذلك.. وكان الناس يصطدمون به بأكياس التسوق التي يحملونها.. ثم قال:

- الآن حقا يجب عليك أن تخبريني أين تسكنين.
وأمسك بوجهها بين يديه.. وجلس أمامها على ركبتيه وقال مرة أخرى بصوت أعلى.. يعلوه اليأس.. كأنه يخاف من أن لا يستطيع أبدا التخلص منها:

- أين تسكنين يا كايسا؟ ألا تريد أمك أن تأتي إلى المنزل؟
هزت رأسها نافية وهمست:
- يجب أن أعمل.

فجعل يهز الطفلة ذهابا وايابا وهو يصيح بها في وسط الشارع الرئيسي لويندهوك:

- أين تسكنين يا كايسا؟ أين تسكنين؟
فالتفت الناس ينظرون.

فذكرت له اسما.. لا يعرف هل هو اسم شارع.. أو اسم أسرة.. أو حي.. أو ربما اسم حانة.. المهم أنه لم يكن لديه فكرة.

لم يستطع أيضا أن يتعرف على ملامح الاسم.. ولم يفهمه حتى.. ولكنه على كل حال شيء كاف.. فقال لها:

- سأذهب بك إلى هناك.

ثم أوقف سيارة أجرة في شارع انديبيندس أفينو.. وجعل الطفلة تعيد على السائق اسم الشارع.. فلم يكن لديه فكرة إلى أين يذهبان.. إلا أنهما ذاهبان إلى منزل كايسا.. وهذا كاف ليشعر بالأمان.

كانت سيارة الأجرة من النوع الذي يمكن أن يقاسمك الآخرون فيه.. فالتاس يصعدون وينزلون.. فكان هوفمستر يضطر أن يجلس الطفلة على حجرة.. فقد كان يجلس بجانبه سوداء بدينة ومعها كيسان بلاستيكيان.. ورجل بجانبها. فبدأ القلق يدب إليه شيئا فشيئا في هذه السيارة الصغيرة.

فسأل الطفلة بصوت هامس:

- ألا تنزعج أمك أبدا إذا لم تذهبي إلى المنزل لمدة يومين؟
ألا تشعر بالقلق أبدا؟

هزت الطفلة رأسها.. ولكن ربما كان يتصور هوفمستر ذلك أيضا.. وربما يرجع ذلك إلى أن المحرك يهدر.. والسائق يسرع.. والطريق وعرة.. فقال:

- إنني أرى منذ أول لحظة ولدت فيها تيرزا الحوادث والكوارث في كل مكان.. لم يتطلب الأمر سوى لحظة كنت غافلا فيها - لحظة وليس أكثر - ثم أصبحت معاقبا للأبد.. فقد أرتني تيرزا العالم على حقيقته: خطر.. ومخاطره في غاية السوء.. عالم لا يأبه لساكنيه.. وغير منطقي. لا تدري أين يكمن خطره.. فهو في أنبوبة التدفئة.. أو في باب المصعد.. أو في حوض الاستحمام. ولم في كل مكان.. وأطفال صغار لا يعرفون الخوف.. علينا أن نجعلهم يدركون ما هو الخوف.. ونذكرهم به.. علينا أن ندرس لهم الخوف.. علينا أن نقول

لهم "عو" .. نعم "عو" هي الحل. فعلى المرء أن يخيف الأطفال.. وإلا أسرعوا بأنفسهم إلى حتفهم وهم لا يشعرون.
كانا في حي من أحياء ويندهوك لم يكن يعرفه.
كانت الطفلة تنظر من النافذة، وهي تشعر بالملل، كما يبدو لهوفمستر.. كأنها دائما تنتقل على طوال هذا الطريق..
وقد رأت كل شيء هنا على الأقل مائة مرة.. ثم قال:

- والسعادة؟ التي يحكي الناس عنها.. السعادة، هل الحياة هي السعادة؟ بالتأكد أنني عاينت السعادة.. في الماضي على سبيل المثال.. عاينتها مع تيرزا. فقد كنت أحيانا أذهب بها إلى درس التشيلو مشيا معها على الأقدام.. وحينها كنت أحكي لها قصصا.. أو هي تحكي لي نظرتها للعالم.. هذه كانت السعادة.
كان ينطق كلمة "السعادة" مثلما ينطق كلمة "مشاعر".
كلمة لا يتحملها فوق شفتيه.. كأنها عدو له.

- أنت أيضا جلبت لي السعادة في حياتي.. ولكن ماذا غير ذلك؟ أقولها بصراحة، قليل ما جلبتيه لي. فما زال الغم يلazمني طوال اليوم.. وطوال الأسبوع، ولكنني لا أشتكي. ومن المحتمل أن هناك بشرا يشعرون بالسعادة الغامرة في الحياة.. ولكنهم ليسوا كثيرين. إنني أبحث عن السعادة في الأشياء الصغيرة.. فمثلا إذا كنت أحرر مخطوطة ما.. فإني أضع دائما أمامي على الطاولة أربعة أقلام رصاص.. أربعة أقلام رصاص كلهم بنفس الطوال تماما.. وهذه كانت سعادة بالنسبة لي.
أصبح كلاهما الآن ينظر من النافذة.. لم يكن في الطريق إلا قليلا من الناس.
قال هامسا:

- كان من الجميل قضاء الوقت معا.. كان جميلا حقاً.. لن أنساك.. ولكن علي أن أتابع بحثي.
ترجلت السيدة البدينة بمشترياتهما ومعها الرجل.. وأصبح هوفمستر بمفرده في سيارة الأجرة.. بمفرده مع الفتاة.. فانزلت من فوق

حجره.. وجلس هو يفتح ويغلق في حقيبته.
مرا على مطار للرحلات الداخلية.. يدعى إيروس.. مما يجعله اسما غريبا لمطار.. وكأنها منطقة مخصصة لمن يريد أن يبحث عن متعة خاصة.
كان لديه انطباعا بأنهم قد خلفوا المدينة ورائهم.. فسألها:

- إلى أين نذهب؟ نحن ذاهبان إلى أمك وأسرتك.. أليس كذلك؟
فأومأت.

ظن أن كل شيء علي ما يرام.. وأن الطفلة تعرف ما تفعل.. وقد أخبرته أيضا أنها تعرف كيف يصل إلى البيت.. وهي ليست مجنونة.
وفجأة توقفت السيارة.. هكذا بشكل مفاجيء.. على حافة الشارع.. فلم يرى بيوتا.. ومع أن الطريق كان طريقا سريعا، إلا أنه يرى أناسا يركبون دراجات.. وآخرون يمشون.. فسأل الطفلة:

- هل البيت هنا؟ هل وصلنا؟

فلم تجبه.. فسأل السائق:

- ماذا حدث؟ هل حدث عطل؟

فغمغم السائق بكلام لم يفهمه هو فمستتر.. فأمسك الطفلة من كتفها وسألها:

- هل وصلنا؟ قل لي شيئا.

وجعل يهزها مرة أخرى.

فأومأت وهي تقول بصوت منخفض ولكنه مسموع:

- نعم يا سيدي.

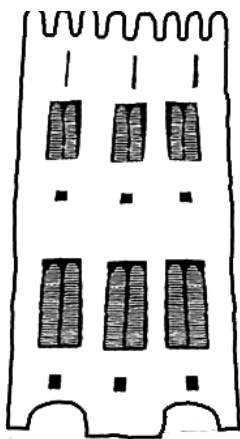
فدفع الأجرة إلى السائق.. كانت نقوداً كثيرة.. ولكنه لم يطق صبرا حتى يأخذ منه الباقي. فنزل من السيارة.

كانا يقفان على حافة أحد الشوارع.. شارع من النوع الذي يطلقون عليه في ناميبيا طريق سريع.. وفي الناحية الأخرى من جدار أمان الطريق رأى هو فمستتر أكواخا.. أكواخا صغيرة بأسقف من الصفيح المطوي.. وهناك ثلاثة رجال يشوون اللحم على برميلين مقلوبين.

كانت الشمس تضرب في عينيه.. فضغط بشدة على القبعة.

أمسكت الطفلة بيده وسحبته متقدمة إياه.. مارة به على الرجال الشوائين.

لا يوجد هناك أحد أبيض.. كما أنه يشعر أنه لا يأتي أيضا أي أحد منهم هنا.. فهذه المنطقة ليست له.. ليس هذا المكان له.



بين أكواخ
الشكل.. لا بد

كانا يمشيان
متطابقة في

وأنهم هنا يسمونها بيوتا.. هو لا يدري.. ولكن يوجد أناس
يسكنون فيها.. وكلمة "بيت" هي كلمة مناسبة في الواقع..
ولكن كلمة "كوخ" أفضل.. وهي أقرب إلى الحقيقة. فالبيت
أقرب ما يكون إلى الجمال.. ولكن ذلك أيضا يعتمد على من
ينظر إليه.

كانت الطفلة تسحبه مسرعة.. وهو ينادي:

- انتظري.. ليس سريعا هكذا.. لا تسحي حقيقتي هكذا.
كان يضع نظره في الأرض.. إذا مر على أحدهم.. مع العلم
بأنه لم يسمع أن أحدا يكرهه.. ولكن الأمر سيان بالنسبة
إليه.. فعندما تضيق الأرض بامريء ولا يستطيع أن يذهب
إلى أي مكان.. فهو لا يعلق بعد ذلك أهمية على كثير من
الأشياء.. وبرغم ذلك كان يشعر بالخوف.. الخوف من أن
يرجم أو يمزق جسده.. الخوف من الموت.. على الرغم من
أنه لم يعاينه.. ولكن لا يمكن أن يكون الموت أيضا سببا للغم
مثل الحياة.. بل هو أهدأ.. وأكثر استرخاء.. وأهم شيء أنه
مكان سلام. وهو يرى في الموت شيئا.. لم يستطع أبدا أن
يحصل عليه في الحياة.. إنها الراحة.
همس إليها:

- أين تذهبين بي؟ لا يمكن ذلك يا تيرزا.
ولم يتذكر سوى بعد بضع خطوات أنه ذكر اسم تيرزا..
فلم يحاول أن يصحح ذلك.. لأنها بالتأكيد لم تسمعه.

كانت الطفلة تهرول مسرعة.. وأصبح الآن هو من يمسك بيدها.. فقد قال في نفسه: إنها إذا تركت يدي فقد تختفي في أحد الأكواخ.. وحينها سأتوه.. وأنا لا أعرف كيف أعود إلى الطريق.. وحينها سوف يمزقني هؤلاء، ببطء وبرود أعصاب.. ويعاقبونني على جريمة، لم أقدم على فعلها.. ناداها:

- لا تسرع هكذا.. فقدماي تؤلمان.

وبعد عشر دقائق توقفا أمام أحد الأكواخ.. كان ما يميزه من بين الأكواخ ستارة الحمام المعلقة في المدخل على عصاتين. وفي باحة الكوخ ثلاث مقالي فارغة ملقاة على الأرض.. وبعد ذلك يأتي باب حقيقي.. هو حقيقي على كل حال.. فكل شيء هنا نسبي.

أما في الكوخ نفسه فالظلام حالك.. ولم يستطع هوفمستر أن يرى أي شيء.. وفوق ذلك كان يشم رائحة القمامة والنفايات.

أصابته الروائح النتنة بالدوار.. وجعلته يخرج عن طوره. أغمض عينيه وفتحهما مرة أخرى.. ولكنه ما زال لم ير شيئاً أيضاً.

كانت الأرضية من الرمل الناعم الذي شعر به يدخل بين قدمه والصندل. وكان يشعر بحاجة لأن يصرخ طلباً للمساعدة.. كان في حاجة لأن يسمع صوت إنسان.. كان يشعر بحاجة غريبة ليصرخ طلباً من الرب أن يظهر. ولم يكن ذلك يعني أنه كان مؤمناً أو يشعر بأنه تحت تهديد.. لا.. ولكن فكرة أن أحد الآن لا ينظر إليه.. اللهم سوى الطفلة وليس غيرها.. كانت فكرة لا تطاق.. سألها متوسلاً:

- كايسا.. أخبريني أين نحن؟

شيئاً فشيئاً بدأ يعتاد على الظلام.

وفي إحدى الزوايا رأى شخصاً ينام على سرير، مغطى بقطعة من القماش.. وعندما دقق وجدها امرأة.. فسحبته الطفلة إليها.. فسألها:

- أهذه أمك يا كايسا؟ أهذه أمك؟

أصلح من سترته، ثم تحنن وقال.. وقبعته في يده:

- إسمي يورجن هوفمستر. لقد جعلت من ابنتك اجتماعية لبعض الوقت.. أو بالأحرى هي جعلتني كذلك.. فكانا يومان استثنائيين.. تحدثنا فيهما مع بعضنا.. وكان ذلك

شيء ملهم جدا.. فابنتك انسانة طيبة القلب.. وهي فتاة جميلة جدا.

لم تكن الأم ميتة.. لأنها فتحت عينيها.. ورمشت بهما.. ولكن هوفمستر كان يجد الرائحة سيئة جدا.. على كل فقد كان يشعر بالغثيان وأنه سيضطر لأن يتقيأ.. وأنه سوف يتقيأ في هذا الكوخ.. مثل كلب قاء على الأرض ثم عاد في قيئه.. سألها:

- هل تفهميني؟ هل تتحدثين آلافيكانية؟
حركت شفتيها.. فبدأ أنها تقول شيئا.. ولكن لم يسمع صوت يخرج من فمها.
فالتفت لكايسا:

- إنني لا أفهم والدتك.. لا أفهم ماذا تقول.
ولكن الطفلة كان صامته أيضا.. فقال للمرأة:
- أنا لا أفهمك.

جلس على ركبتيه بجوار السرير.. فقد كان سرواله على كل حال قذرا.. وذلك شيء عادي في إفريقيا.. وفي النهاية هنا ليس شارع فان ايجينزشتراات.. كما أن إفريقيا تجعلك لا تعلق أهمية على كثير من الأشياء.. إنها بلاد مختلفة.. وطباع غريبة.
كان الذباب يرتع في وجه المرأة.. فهشه بعيدا عن وجهها.. وعاد يقول:

- أنا لا أفهمك.. ولكني صديق ابنتك.. أنا صديق كايسا.. أنا صديق من هولندا.
فحركت يديها.

نظر إليها.. محدقا في إشارات يديها.. كأنه يحدق في دمية غريبة.. وتطلب الأمر منه ثوان حتى يدرك أنها لغة الإشارة.
إنها تتحدث معه بلغة الإشارة.

نهض واقفا.. وأصلح من سترته، وبحث عن شيء في جيب قميصه.. وقال بصوت عال جدا وواضح:

- لا أستطيع أن أتحدث بلغة الإشارة.
ثم قال في نفسه إنها لا تسمع ولا تتكلم، هكذا إذن.. إنها صماء، فسأل كايسا:

- ماذا تقول أمك؟ فأنا لا أفهمها.
ثم صرخ:

- لا يمكنني أن أتحدث لغة الإشارة.
وبرك هوفمستر على ركبتيه أمام الفتاة قائلاً لها:
- علي أن أواصل بحثي يا كايسا.. علي أن أعود للمدينة..
يجب أن تفرق.. فلا يمكنني أن أبقى هنا.. هيا سأعطيك قبلة
مودعا لك. هل تفهمين ما أقوله والدتك؟
لم يلق غير الصمت.. يعلوه طنين الحشرات.. والذباب
يهبط ويقلج من فوق رأس أم كايسا وبدنها.. وكأنها مطار
للذباب.. كان هذا الجسد مطار للذباب.. وليس له وظيفة
غير ذلك.. همست كايسا:

- هل تريد رفقة يا سيدي؟ .. سيدي؟
فقال:

- لا.. لا! لا! إنها تتحدث بلغة الإشارة.. ألا ترين؟
تتحدث بلغة الإشارة. أمك تقول شيئاً ولكن لا نستطيع أن
نفهمها.

جعل ينقب في حقيبته.. ولكن لم يكن فيها أي شيء.. على
الأقل أي شيء من شأنه أن يساعده في هذه الحالة.
فأخرج من جيب البنطال كل أوراق الدولار الناميبي،
التي لديه.. وحتى في جيب الصدر كان لا يزال هناك نقود..
ووضع النقود مبعثرة على جسد المرأة التي ترقد على السرير،
وهي لا تزال تحرك يديها كالمعتوه.. أو ربما تلعنه بلغة
الإشارة.. قال:

- هاك.. خذي.. أنا لا أفهمك.. لا أعرف لغة الإشارة..
وهذه بعض النقود.. لتشتري شيئاً.. أو... أيا كان.
ثم غادر من الكوخ فاراً.. يجري، ولكن قدماه تؤلمانه ولن
يستطيع أن يصمد طويلاً.. كان يجري بين الأكواخ المتشابهة..
ورائحة العفن تطارده.. كما تطارده كايسا.. فقد جاءت
ورائه.. وهي سريعة جداً.. فأسرعت حتى أمسكت بيده..
فاحتضنها.. وعادا يشبكان أيديهما.. ثم مرا على الرجال
الشوائين.. فنادوه قائلين له شيئاً ما.. ولكن هوفمستر
لم يقف.. ولم يفهم أيضاً ماذا قالوا له.. قال:

- سيارة أجرة.. علينا أن نوقف سيارة أجرة.. أين نجد
سيارة أجرة؟
فعبر الحاجز.. وجعل يلوح بحقيبته.
ولكن لا مواصلات.

حتى الآن مازال يشم الرائحة. فقد فاحت رائحة الموت في إفريقيا.
سألها:

- ألا يهملك أنا ودعنا والدتك هكذا؟ لقد أعطيتها مالا..
ولابد أن تذهب للطبيب.. أنا لا أعرف مم تعاني.. ولكنها
يجب أن تذهب للطبيب.. طبيب يفهم لغة الإشارة.
ثم انحنى على الطفلة.

- لابد أن تعود لي البيت الآن.. فالناس يفترقون، لابد وأن
يحدث ذلك.. أنا فعلت ذلك، ولكنك مازلت صغيرة جدا
وعليك أن تتمسكي بأمك، ولذلك عليك أن تعودي لها الآن.
مرت سيارة.. قلو ح هو فمستر بالحقية.. ولكن السيارة لم
تتوقف.
بدأت الرياح في الهبوب.. فأذرت الرمال الناعمة في عينيه..
فقال:

- كايسا.. لا يمكنك المجيء معي.. فأنا ذاهب في
الصحراء.. ولا أعرف إلى أي وجهة.. إنني سأختفي.. لا يمكنك
أن تأتي معي.. فلابد أن يختفي المرء بمفرده. ففي النهاية لابد
وأن يفعل المرء كل شيء بمفرده.. نعم بالطبع.. هكذا هو
الأمر.. ولكن الاختفاء.. الاختفاء هو أهم حق لي.. وبذلك لا
يمكن للمرء أن يحتاج أحدا.. ولا حتى إلى أطفال يا كايسا..
ولا حتى إلى أطفال.

مشي بضعة أمتار محاذة حاجز الطريق.. فمرت شاحنة
به.. والشمس تبدأ في الرحيل.
كانت كايسا تمشي خلفه.. تمسك بيده. فيناديها:

- هيا ابتعدي.
ويخلع قبعته ويهش بها كأنها منشة ذباب ويقول:
- ابتعدي.

برك.. جاثيا بركبتيه على الأسفلت الساخن.. والقبعة في
يده.. والحقية تحت ذراعه.. وهمس إليها:

- كايسا.. ألا ترين من أنا؟ ألا ترين ذلك؟ ألا تفهمين؟ أنا
من

جعل تيرزا مريضة، بمرض الطبقة الوسطى البيضاء.. أنا
إضطراب الأكل الذي أصابها.

ظلت واقفة.. لم تؤثر كلماته فيها.. فنهض مرة أخرى وصاح فيها:

- ماذا تريد مني؟ أخبريني فقط ما الذي تريدينه مني؟

أقربت منه.. وسحبته من يده.. فاضطر أن ينحني.. فانحني.. وانحني.. وأخذ ينحني.. حتى أوصلته إلى مستوى فمها.. فوضعتة في أذنه وقالت:

- هل تريد رفقة يا سيدي؟

٤

في نفس المساء ذهب واستعلم في هيرتز عن سيارة جيب.. ولكنها قد استأجرت كلها، ولاحتى جيب صغيرة.. لم يتبق لديهم سوى تويوتا ذات لون أزرق فاتح.. فسأل:

- هل يمكنني أن أذهب بها أيضا إلى الصحراء؟

ف قالت الفتاة من مكتب تاجر السيارات:

- لو كنت حذرا.. فسيمكنك أن تقطع بها مسافات شاسعة.. ولكن فقط: لا تقود بأي حال من الأحوال أثناء عاصفة الرمال.. إن فعلت فستتوقف في الحال.. وأيضاً تجنب القيادة ببطء.. فلا فائدة من ذلك.. إذ تعرض السيارة للتلف. فكرر هوفمستر: تتوقف في الحال.

وفي وقت لاحق في المساء أخبرهم في الفندق بعزمه على الرحيل.. واليوم.. ولكن لأنه لم يعلمهم بذلك في الوقت المناسب، فقد اضطر أن يدفع ليلة إضافية.. ولكنه لا يلقى بالا لذلك. فمن ظل يخسر ويخسر.. سيأتي في مرحلة ويفقد أيضاً الرغبة في الإدخار، وتكون النقود في نظره كشياب قديمة لا قيمة لها.

ودعه موظفو الفندق بأدب ولكنه أدب المهنة.. لا شك في ذلك. ولكن أحد لم يسأله عن ابنته.. إن كان وجدها.. أو إن كان سيلتقي بها الآن. والبقيشيش الذي تركه للخادمة على الكوميدينو جاءت به المدير، وكانت امرأة بيضاء مسنة، وقالت له:

- هاك يا سيد هوفمستر لقد نسيت هذا.

لم يجرؤ على القول بأنه لم ينس المال.. وأخذه وهو يشعر بالخزي.

وساعده شاب يعمل بستاني أثناء النهار على حمل
الحقائب.. ولما تم وضع الأمتعة في صندوق التويوتا.. أشار
الشاب إلى حذائه.. وكان حذاء رياضيا.. وقال:

- إنه كبير جدا علي يا سيدي.. على الأقل أربعة مرات أو
خمس أكبر من مقاسي.

كانت الطفلة تمسك بيد هوفمستر.. وتنظر إلى الرجل ذو
البشرة السوداء جدا.. حتى أنها أشد سوادا من بشرتها.. فأعاد
الشاب القول:

- لقد أهدي لي.. ولكنه كبير جدا.. ولا أستطيع أن أمشي-
به.

كان باب السيارة مفتوح، وهما مستعدان للرحلة.. والد
تيرزا ورفيقته في السفر.

- هل لديك مال لحذاء لائق؟

بدا صوت البستاني كأنه لم يكن يسمح له أبدا بأن يسأل
هذا السؤال.. كان هذا السؤال محرم.

نظر هوفمستر إلى قدم الطفلة الحافية.. ثم إلى حذاء
الرجل.. وفكر لبرهة.. ما المشكلة حقا في أن يكون الحذاء
كبير.. فحذاء كبير أفضل من عدم وجود حذاء أصلا.. أليس
كذلك؟

وعلى الرغم من أن هوفمستر قد أعطى للرجل عشرين
دولارا ناميبيا.. فقد أعطاه علاوة على ذلك أيضا مائة أخرى.
ثم أجلس الطفلة على المقعد بجانب مقعد السائق.. وأظهر
لها كيف تضع حزام الأمان.

وضع حقيبته وقبعته على المقعد الخلفي، ولوح مرة
أخرى للبستاني.. وهو الوحيد من طاقم الفندق الذي كان
يقف خارجه.. ليوودع الضيف الهولندي الذي بقي طويلا في
الفندق على عكس المخطط له.

قاد هوفمستر متجها إلى أوقاهنديا.. والظلام الآن حالك..
والراديو على الإذاعة الألمانية من ناميبيا، يصدر منها موسيقى
البوب.. هذه الموسيقى التي لا تسمع أو تكاد لا تسمع في أي
مكان آخر غير هذا المكان:

"ثيو.. سنسافر إلى لوتس..

ثيو، سنسافر إلى لوتس!

هيا استيقظ أيها الفأر العجوز..
قبل أن ترى مني مالا يجوز..

ثبو نحن مسافرين إلى لوتس.
كان هوفمستر يدندن مع الأغنية. ويهمس: أيها الفأر العجوز.

ومن حين لآخر يلقي نظرة على الطفلة.. ولكنها تبدو غير مهتمة بالموسيقى.. ولا حتى لدندنته.
وبعد ثلاثين كيلو مترا شمال ويندهوك رأى لافتة مكتوب عليها "مزرعة أوكابوكا" فقاد مسرعا حتى يستطيع أن ينحرف.. وبعد ذلك يهدأ. هذا ما كان يفكر فيه.
ولكنه بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات قرر العودة.. فقد شعر بأن لا شيء سيأتي بعد ذلك أبدا.. وأن مزرعة أوكابوكا هي النزل الوحيد بين ويندهوك وأوقاهنديا.
وفوق ذلك فهو مرهق.. مرهق جدا ولن يستطيع أن يواصل.

كان حارس يقف أمام باب مزرعة أوكابوكا.. واقترب هذا الحارس من السيارة ببطء، وبالنسبة لهوفمستر كان هذا البطء مؤلما.

أبقى والد تيرزا عينيه على الطفلة الجالسة على مقعد الراكب.. كما يفعل الخاطف مع رهينته.. وهو يفكر أنه لابد وأن يهديها شيئا.. حذاء وثوب جديد. فإذا كان قد أهدى البستاني، أفلا يستطيع أن يشتري لها هي الأخرى شيئا؟
انتظر في مكانه.. يفكر.. أنه ربما يبدو مريبا وتثار الشكوك حوله عندئذ. إنه لا يبحث عن متعة خاصة.. إن كل ما يفكر فيه هو البحث عن تيرزا.. نعم، هذا ما يستغرق تفكيره بأكمله.. سأله الحارس:

- نعم؟

- إنني أبحث عن غرفة لليلة. هل أجد هنا؟ مزرعة أوكابوكا؟

نظر الرجل إلى الطفلة التي تجلس بجانب هوفمستر.. وكان يحمل مصباحا يدويا.. فأضاءه في داخل السيارة، وسأل:

- هل حجزت؟

فهز هوفمستر رأسه نافيا.

فلم يتحزج الرجل من مكانه، وظل واقفا، وسلط الضوء مرة أخرى على السيارة، وعلى المقعد الخلفي أيضا، حيث حقيبة هوفمستر وقبعته.. ثم فتح الباب ببطء.. وانطلق هوفمستر. كان هناك لافتة مكتوب عليها:

"الدخول إلى الموقع على مسئوليتك الخاصة."
فقد كان هناك حيوانات برية.. سمع هوفمستر صوت
الحجارة المنطلقة من جراء وزن السيارة عليها وهم في
طريقهم الطويل المليء بالرمال الوعرة ذاهبين إلى الاستقبال..
فقال:

- إننا نخرب السيارة.
لم تلتفت له الطفلة.
وصلا إلى مكتب التسجيل.. حيث تجلس امرأة سوداء
البشرة.. ممتلئة البدن.
فقال هوفمستر ما كان يرغب في قوله.. واعتذر أنه لم
يحجز قبل أن يأتي.. وهي تتصفح بملل قاتل كتاب أمامها.. لم
يكن هناك أحد غيرهم حسب ما يرى، وهناك حامل هدايا
تذكارية، ولكنه أيضا ليس بداخله أي شيء.. سألته:

- هل تريدون شيئا للأكل أيضا؟
- إن كان ذلك ممكنا.
نظرت في ساعتها:
- إذن عليك أن تسرع.
وأشارت إلى الطفلة وقالت:
- هل تريد سريرا خاصا بها؟ سرير أطفال؟
فقال هوفمستر:

- إنها ابنة أخي.. سرير لشخصين لا بأس به.
وبينما يتكلم.. أتضح له أنه يتصرف كمن يبحث عن متعة
خاصة ووجدها. أو أنه رجل قدم إلى إفريقيا.. ليحصل على
مالا يحصل عليه في بلاده بسهولة.
قالت المرأة وهي تعطيه المفتاح:

- الكوخ رقم ١١.. وبقي من وقت المطبخ نصف ساعة..
وسيعلق بعدها.

أضطر أن يذهب بالسيارة.. فالمسافة بعيدة ولن يستطيع
أن يمشي بالأمثلة.. كان الطريق عبارة عن مجرى نهر جاف..
فسمع مرة أخرى

صوت الحجارة الطائرة من تحت عجلات السيارة.
كانت الأكواخ الأخرى تبدو مهجورة.. والظاهر أن مزرعة
أوكابوكا لا يزورها ضيوف كثيرون.. فإما هذا الوقت ليس
بموسم.. أو أن المزرعة لا تحظى بشعبية. وقد سمع في

ويندهوك مضيفا يشتكي: لقد أصبحت ناميبيا مكلفة جدا للسياح. وحينها كان يطلب بأدب، وهو كذلك، قطعة إضافية من فطير التفاح.. فالماضي الألماني في هذه البلاد يظهر للزائر الذي لا يدرك ذلك، وخاصة في أمور الطبخ وأسماء للشوارع.. نسيها المرء بسبب التغير: فعلى سبيل المثال تجد "شارع المحطة". وعندما رأى هوفمستر الالفة وعليها اسم الشارع، ظل يحدق فيه طويلا.

حمل الحقائق إلى الكوخ.. والطفلة خلفه. كانت مروحة تندل من السقف.. والسريير كبير.. والغرفة نظيفة.. وينبعث منها رائحة خفيفة، لا بأس بها، بسبب الخشب والمطهرات. إنها إفريقيًا السياح.. فالعالم يمكن تقسيمه إلى سياح وموظفين. أو الذين يستطيعون أن يذهبوا في أي مكان في أي وقت.. وهم السياح. ومنهم الذين يخدمون السياح.. ويتناقشون.. ويشغلون.. ولا يستطيعون أن يذهبوا إلى أي مكان.

غسل هوفمستر يديه ولبس قميصا غير الذي كان يرتديه.. ومع أنه لبسه في ويندهوك عدة مرات إلا أنه لم يزل لم يتكسر.. ويبدو كذلك الذي كان يلبسه منذ أن استيقظ.



كانت الطفلة
تمشي عبر الغرفة.. ثم توقفت أمام أحد الكراسي. وبينما هوفمستر يعقد أزرار قميصه.. كان ينظر إليها ويفكر في أمها.. المرأة التي ترقى على السريير.. امرأة عندما نظر إليها أول مرة اضطر أن يتذكر البقرة.. وخاصة بسبب الذباب الذي على وجهها. فالذباب مرتبط بالماشية. وخاصة إذا استقر على الجسم ولم يطير.. وهل كان هذا ذباب أصلا؟ .. على كل فقد كانت حشرات صغيرة.. عشرات من الحشرات الصغيرة، لم ير مثلها قبل ذلك في عالم الحيوان. وسيتوجب عليه أن يحصل على كتاب يعني بمثل هذه الأشياء.

سألها بينما يعقد أزرار قميصه:

- هل كانت أمك دائما خرساء؟ هل ولدت هكذا؟

ضحكت الطفلة بصوت منخفض.. أم أن هوفمستر يتخيل فقط ذلك؟
إنها تهز رأسها.. أها.. إذن الأم لم تصبح خرساء إلا فيما بعد.
قال لها:

- من المؤكد أن أمك كانت امرأة جميلة في الماضي.
ثم أخذها من يدها، وقال:

- هيا.. سنذهب لنأكل.. لا تقلقي بشأن أمك.. لقد تركت لها مالا.. وضعته على السرير.. وهو يكفي للتسوق لمدة أسبوع.. بل لمدة شهر، عليها فقط أن تخرج، فالنوم الكثير يضر بالصحة، ويصيب الإنسان بالإكتئاب، والحركة مهمة جدا حتى لو لم يكن الإنسان يشعر أنه بخير. سوف يكون كل شيء مع أمك على ما يرام.

كان يتحدث مثل رجل عجوز وهو يتناول قهوة ما بعد الظهيرة.. إلا أنه لا يستطيع المساعدة: فهو يريد فقط أن يخفف حدة الموقف.. بل عليه أن يسكن من نفسها.
أخذتا طريقهما إلى صالة الطعام عبر الحشائش الحادة.. وبينما يشيان إذ أمسكت تيرزا بيده ووقفت في مكانها وقالت:

- هناك، سيدي.

وأشارت إلى حيوان.

ولكنه لم ينظر إليه، فقد كان سارحا بأفكاره في مكان آخر.
كان في شارع فان ايجينزترات.. مع زوجته.. والفيستان الذي ابتاعته لتيرزا.. عجا إنها على طوال السنين لم تكلف نفسها أن تستمع لها أبدا.. وفجأة تأتي لها بفستان هدية لرحلة حول العالم. إنها زوجة تقليدية.. متقلبة المزاج.. عنيدة ومندفعة.

كان الحيوان بعيدا عنهم حوالي عشرون مترا.. ولم يكن هوفمستر قد رآه من قبل إلا في الصور المرفقة بالكتب.. ولذلك أرادت تيرزا أن تأتي هنا.. إلى ناميبيا.. بسبب الحيوانات.. ولكن قبل ذلك بسبب شيء آخر.. بسبب الحضارة. الحضارة!.. لم يستطع أن يمسك نفسه من الضحك.
هرب الحيوان بعيدا.. واختفى في الظلام.. دون ضجة تذكر.

لا يعتقد هوفمستر بالثقافة التي لطالما اعتقد فيها الإنسان.. فما هي الثقافة؟ إن استراتيجيته في البقاء على قيد الحياة هي التكيف.. والقدرة على جعل نفسه غير مرئي.. أم ربما تكون هذه أيضا ثقافة؟ إن الشخص كلما كان متخفيا كلما كان أفضل.. فاللامرئي هو من لا يقهر.

ولكنه حاول أن يربي أبنتيه بطريقة مختلفة.. رباهما على انتقاد الأشخاص الذين لا يرون في المجتمع أرجوحة شبكية ولكن يرونه قفصا.. رباهما على التألق في السباحة.. وفي مدرسة الموسيقى.. واللاتينية واليونانية والرياضيات والفيزياء.. ثم سيأتي المال بنفسه.. فالحرية كل الحرية في المال.. وإذا لم يستطع المال شراء الحرية، فهو لأنه بكل بساطة غير كاف. ولكن الشيء الذي يرى فيه الحرية.. هو الشيء الذي تشم منه تيرزا وإيبي مؤامرة الرأسمالية. وكم من مرة قال هوفمستر أيضا أن لا مؤامرة في ذلك، ولكنها الحرية.. ولكنهما لا تريدان تصديقه.

بالنسبة لطفلة كان لدى تيرزا كل الأسباب التي تجعلها سعيدة. كانت موهوبة للغاية.. وكانت تشترك في بطولات السباحة وتحتل مراكزها فيها.. كما أنها تعزف بشكل جميل على الكمان أفضل من كل الأطفال الآخرين في سنها.. ولكنها في ذروة هذه الموهبة قررت أن تموت جوعا.. يالها من خطيئة.. يالها من جريمة.
قال هوفمستر للطفلة:

- جميل.. أليس كذلك؟ جميل!

لم يكن نفسه يعرف.. إن كان يقصد الحيوان، الذي هرب لتوه.. أم الحشائش الحادة.. أو الكوخ.. أو ببساطة العالم في حد ذاته.

كانت صالة الطعام تحتوي على ثمانية عشر- طاولة على الأقل.. ولكن ثلاثة منهم فقط هم من كانوا مشغولين.. كان يشغلهم أناس مسنين.. أحدهم يتحدث اللغة الجنوب إفريقية والاثنان في الجانب

الأخر في الخمسينات من عمرهما يتحدثان الألمانية.

نظروا قليلا إلى هذا الزوج الغريب، غريب حتى في ظل العلاقات الناميبية. فهو زوج مكون من أبيض عجوز، وفتاة سوداء بشكل واضح.. وفي كل مرة تعود لحظة الخجل، اللحظة التي يود فيها هوفمستر أن لو يصحح كل شيء ويوضحه. ولكن كل يوم تصبح هذه اللحظة أقصر- وأقصر..

كل يوم يتوغل أكثر في خرق العادة.. وتنهار قواعد الأخلاق..
ويصبح كل يوم هو الرجل الذي يريدون أن يروه هنا في إفريقيا: سائح غربي.. واضح عليه الولع بالمتعة الخاصة.

ألست هذه في نهاية المطاف هي المهمة الوحيدة للإنسان؟ أن يصبح المرء ما يراه الآخرون.

جلس هوفمستر والطفلة على طاولة على حافة الصالة..
تطل على شيء ما.. يخمن هوفمستر أنه سهوب. ولا يوجد
نوافذ هنا.. قلا حاجة إليها.. فكل شيء مفتوح. ولكن هناك
سقف.. تحسبا للأمطار.

كانت القائمة بسيطة.. وتتكون فقط من سلطة.. وقطعة
من فيليه سبرينج بوك.. وحلوى.. فقال للطفلة:

- هيا كلي.

نظرت الطفلة إلى السهوب.. على الرغم من أنه ليس
هناك إلا القليل الذي يمكن رؤيته بسبب الظلام. كانت تأكل
بطء، ويبدو عليها بعض النفور.

ولكن هوفمستر كان يجد الطعام جيدا.. وأفضل منه
النبيد الجنوب أفريقي الأحمر، وترك كايسا تجرب منه أيضا..
فأخذت رشفتين منه.. ولكنها لا تستطيع مذاق النبيد فهي
تحب الكولا أكثر.

ولما انتهى السبرين بوك قال هوفمستر:

- ها نحن إذن.. ها نحن هنا لم نفرق عن بعضنا، أليس
كذلك يا كايسا؟

ثم تمدد إلى الورا.. وهو يلعب بخلة الأسنان. ثم طلب
زجاجة ثانية من النبيد الأحمر.. وللطفلة زجاجة كولا أخرى.
كان يتصرف كما لو كان يقضي- عطلة. وربما كان كذلك
أيضا.. ربما هو أخيرا في إجازة.
قال بصوت منخفض:

- لقد أخذوا مني كل شيء.. أولا أخذوا زوجتي.. ثم
ثروتي. محمد عطا هو من فعل ذلك.. هل تعرفين عطا؟ هل
تعرفين من يكون؟
فهزت رأسها نافية.. فقال:

- نعم.. لقد نساه الكثيرون مرة أخرى. وهذا خطأ
شديد.. فقد سلبني أموالي.. سلبني حوالي مليون.. وقد فعل
أشياء أخرى كثيرة. إنه استولى على أطفال الآخرين.. ولكنه
استولى على مالي.. سلب مني حريتي.

بحث تحت الطاولة عن حقييته.. ولكنه تذكر أنه قد نسيها في الكوخ.. كما نسي قبعته.. ثم تابع يقول:

- لقد أخذوا أيضا عملي بعيدا عني.. ومعني ما أخذوا أيضا أطفالتي.. واسرقي.. ولكنني تحملت ذلك كالطقس.. كالطمر والثلج والريح.. فأمري ليس بيده في هذا الأمر أي شيء يا كايسا.. ليس لديه غير التحلي بالاتزان، أو بالأحرى: الحصانة في هذه الحالة فضيلة قد نسيها الناس.. ومن لا يؤمن بأي شيء لا يمكن أن يُجرح أبدا.. فهو يسمو فوق الأشياء.. بل حتى فوق نفسه.. ولا يذوق طعما للشك.. لأنه لا يستغرب أي شيء.. الحساس هو من يشك.. وأنت لست حساسة يا كايسا.. تماما مثلي.. ولا يمكن لأحد أن يأخذ منك أي شيء.. لأنك أصلا لا تملكين أي شيء.. والأمر سيان عندك بما يدعوك الناس أو ماذا يطلقون عليك.. لا تأبهين لذلك.. لأنك لست شيء.. حتى لو كان أحدهم سيسلبك حياتك فلن تأبهي لذلك.. لأنك لا تشعرين.. فأنت في الأساس ميتة.

ثم أمسك بيدها.. ولكنه تركها مرة أخرى، عندما أحضرت زجاجة النبيذ الثانية وزجاجة الكولا.. ثم أمسك بيدها مباشرة مرة أخرى.. وجعل يمسح عليها.. برقة.. وحركة صغيرة ولكن بقوة في نفس الوقت.

رأي هوفمستر خنفساء تزحف.. خنفساء افريقية كبيرة ذات ألوان متوهجة.. فأشار إليها.. ونظر الاثنان معا إلى الحشرة.. كأنها شيء جذاب جاء هنا من أجلهما خاصة. قال هوفمستر:

- كان لدي، أو بالأحرى.. لدي خادمة من غانا.. وهي امرأة لطيفة..
اقامتها غير قانونية، ولكنها لطيفة. ولما اختفت زوجتي.. بدأت معها في علاقة جنسية.

كان يمسك بيد الطفلة.. ولديه شعور بأنها تفهم كل ما يقوله.. وتدرکه وتتعاطف معه.. وهي تعرفه أفضل من الآخرين.. وهي تسامحه.. فهكذا تبدو على كل حال.. وهكذا يشعر أيضا.. بل في الواقع يشعر بذلك من أول مرة تقابلا فيها.. إنها تسامحه بصمت.. قال لها:

- إنني أستطيع أن أتحدث معك جيدا.. لقد قلت ذلك كثيرا.. ولكنني لا أستطيع التوقف عن تكرار ذلك دائما. ياكايسا.

كان هناك بقية من الكولا في زجاجة الكولا الأولى.. فأفرغها قبل أن تختلط مع ما سيصبه لكايسا من الزجاجة الثانية.. فصحیح أنه لم يعد رجل اقتصادي.. ولكنه مازال حريصا..

قال وهو مستغرق في التفكير، يبحث عن الكلمات، ويتحدث ببطء على غير عادته.. إلى الطفلة التي تفهمه:

- لقد كان شيئا بين الأصدقاء.. هذا الذي بيني وبين الخادمة.. وعينت لها محاميا خفف عنها شيئا ما.. وكان ذلك لطيفا.. كان لطيفا جدا في الواقع، كنت أخذها على الكنبه في غرفة المعيشة.. دائما من الخلف.. أتعرفين، يا كايسا... وانحنى نحوها قليلا.. وأمسك بيدها.. الصغيرة الغضة وقال:

- أساس العلاقة الجنسية بين البالغين هي الإذلال.. وليس هناك شيء مميز فيه بحد ذاته، أعني في الجنس، ليس فيه أي شيء مدمر.. حتى يأتي الإذلال.. الذي تدور العلاقة حوله.. فهو أساسها.

وانحنى مقتربا أكثر من كايسا.. حتى استطاع أن يشم رائحة أنفاسها.

- كنت أشعر حينها أنني في كامل وعيي.. وكنت أشعر بالخل من ذلك أيضا.. وبجرم الخطيئة.. كنت لا شيء وكل شيء في نفس الوقت.. كنت الحيوان.. والوحش الذي كنت أريد أن أكونه دائما. إن الشهوة تكمن في الإذلال.. والتحرر للشفاء من أمراضنا.. الإيدز الذي أصابنا: إيدز الإنسانية.. وكل شيء ينتمي إليها.. كل ما كان منها وكل ما سيكون.. كل الجديد منها.. هل تفهمين؟ هذا هو الخلاص.. الخلاص يأتي من الإذلال.

ثم لمس جبهتها بفمه.. وقبلها.. من مكانه عبر الطاولة.. وقال لها:

- لقد تم خلاصك.. أنتم تم خلاصكم.. فأنتم ميتون أثناء الحياة.. أنتم ميتون هنا في إفريقيا.. لا يمكن أن يحدث لكم شيء.. أنتم هم من لا يحسون حقيقة.. من لا يشعرون كالآلة.. كالمنتجات.. ك... الأشياء.. لقد تركتم المستقبل خلفكم.. وبذلك تركتم وراءكم كل الهواجس.

كان هو فمستر يشرب من النبيذ.. ويحرص على أن تشرب هي الأخرى أيضا. وكان الضيوف الآخرون قد ذهبوا.. والنادلة

أبضا ذهبت لتنام.. وقالت لهما أن بإمكانهما أن يبقيا هنا طالما يريدان ذلك. ولا بأس بذلك. ولو كان إلى منتصف الليل، وهذا ما فعله كلاهما.. وانتفعا بحقهما.. وجلسا.. وظلا يجلسان. يدا في يد.. ومن حين لآخر يقطع هوفمستر كلامه ويقبل كايسا على جبينها.. وهي تتحمل القبلات كما تتحمل الكلام: صامتة ومدركة جيدا لما يقول.
نعم، فقد تقبلا بعضهما.. تقبل هوفمستر والفتاة بعضهما.
قال:

- مثلما نحن.. سيكون الناس.. سيكونون عديمي الإحساس والمشاعر.. سوف يتبعنا الآخرون.. هم فقط لم يعرفوا بعد.. فهم لا يريدون أن يعرفوا ذلك.. ويظلون متمسكين بالآفكار البالية. وما زال لديهم آمال وإيمان ولا يرون أن الأمل والإيمان سوف يدمرانهم.. فهما سيهزمانهم يا كايسا وينتصران عليهم.
قبلها مرة أخرى عبر الطاولة.. ليس فقط على جبهتها.. بل أيضا على وجنتها. وأمسك وجهها بين يديه.. بحرص كما يلمس أحدهم زهرية ثمينة.. وقال:

- لما كنت في مثل عمرك، لا.. بل أكبر قليلا.. كنت أعمل على مشروع.. ولم يكن للرب وجود في حياتي.. والآن الحب أيضا.. لقد تخلصت من الحب. ثم جاءت الإلتزامات فغطت على هذا المشروع.. التزمات العمل والأسرة والبيت والمستأجر والأطفال. ولكنني كنت أحب أن أطلق عليها أسما آخر: موت الرحمة. إنني يا كايسا رجل بلا شفقة.. ولا أعرف ماذا تكون.. ولا أومن بها وقد انتزعتها من قلبي بطريقة كريهة وقلب عنيـد بارد. ولا أعني أننا نريد أن يعاني الآخرون.. بل على العكس. فنحن على العموم لا نريد ذلك.. ليس حقا على أية حال.. ولكن الشفقة؟ ماذا تكون الشفقة؟ لقد كان بإمكانني أن أعتصبك يا كايسا.. ونحن متفقان على ذلك.. ولكن قبل أن أقدم على إهانتك، كان يمكن أن أفكر، أو أشعر، لأن الإنسان كائن عاطفي، بداخله شفقة.. وذلك ما يقوله الذين يفترض أنهم يعرفوها.. ولكن لا بأس.. سأفكر مثلهم أيضا وأقول حينها: هذا يكفي الآن. نعم كان يمكنني أن أشعر بذلك. كان يمكنني أن أمزق ملايسك عن جسدك وأصفعك على وجهك.. ولكنني الآن أفكر وأشعر، وهذا يحدث

كومضة البرق، أشعر بالشفقة.. وأقول في نفسي.. لا يمكنك أن تواصل ذلك. هذا يكفي. هكذا جيد.. هل تفهمين لماذا لم أرد أن أفعل أي شيء من ذلك؟ إنني عاينت الشفقة والتعاطف ووجدتهما إذلال لشخصيتي.. إنهما يسباني.. ويجعلاني مجنوناً.

ترك وجهها.. وظل صامتا لبضع دقائق.. لا يفعل شيئاً سوى أن يشرب من نبيذه.. ثم صاح باسمها:

- كايسا.

ثم مرة أخرى، بصوت عالٍ وحاد:

- كايسا.

نظرت إليه مرعوبة.. ولكن لم يحملها الرعب على أن تقوم من مكانها وتجري.. لم ترد أن تفعل ذلك.. ثم قال بصوت أهدأ.. يكاد يهمس:

- لما جاءت امرأتى ووقفت أمام الباب.. سمحت لها بالدخول.. ولكن هل كان بدافع الشفقة؟ لا تجعليني أضحك.. لقد تركتها تدخل لأنني أتقبل كل شيء.. وأتقبل عودتها أيضاً.. نعم، وحتى عودتها.. لأنني هيئت نفسي.. لأتكيف مع ذلك.. لأستوعب ذلك. وحينها لا فرق عندي: ذهبت الزوجة.. عادت الزوجة. لا فرق. أما تيرزا.. فهذه قصة أخرى.. تيرزا كانت مريضة.. وكنت أنا الممرض.. هذه هي القصة. مع أن شخص آخر يمكن أن يقول: "إنني مريض.. لا بد وأن أسترجع عافيتي." أو يقول: "لا يمكنني أن أسترجع عافيتي.. ولكنني أرغب فيها." ولكن الممرض نفسه لا يستطيع أن يفعل ذلك.. وهذا هو الفرق بين الصفة والملكية.. فالمرض لا يمكن أن يقضي على مرض آخر.. وأنا الممرض. انتهى النبيذ.. ولكن الكولا لما تنتهي بعد.. فأخذ كأسها

وهو

يسألها:

- هل تسمحين لي؟

وارتشف بضعة رشقات.. فلم يعجبه طعمها.. ولكنه كان يشعر بالعطش.

ثم قال:

- القصة، نعم، قصة أسرة هوفمستر هي قصة دمار أسرة هوفمستر. هذه هي القصة.. قصتي. فلا يمكن تصور غير عالم لا رحمة فيه.. إنه كحقيقة الموت.. لذلك يؤخر المرء الاعتراف

دائماً.. فهو يعلق عليه. وقد كان يمكن أن أقول لنفسي.. في نقاط مختلفة من حياتي: لابد لي من توبة.. فهذا الطريق ليس طريقى.. إنه لا ينفعني.. ولكنني لم أفعل.. أوه.. بالطبع يا كايسا.. بالطبع.....

ونفض.. وجلس بجانبها.. ووضع يديه على رأسها.. وعلى ثوبها.. على جزء من الظهر الذي لا يغطيه الثوب وقال:

- هناك قرارات جيدة.. وأخرى سيئة.. وهناك حالات شك.. وإذا كان أسمى أشكال الشفقة هي أن تدع غيرك على قيد الحياة.. فيمكنني أن أكرر: إنني شخص عديم الشفقة.. لقد فقدت السيطرة على نفسي.. ربما. ولكنني ما أن أفقد السيطرة على نفسي.. أصبح ما أنا عليه. وأساس شخصية هوقمستر هو الجزء الذي يتجاهل القانون.. لذلك أنا هنا.. ولهذا أنا هنا.. لأنني لم يعد لدي شك من أكون.

وجهت الطفلة وجهها إليه.. ونظرت إليه.. ولم تكن تشعر بالخوف. فما الدافع لتشعر به؟ بل إن الإبتسامة تبدو على وجهها.. إنها تبتسم للرجل.. الذي يقول أشياء هي لا تدركها.. الرجل الذي يقول كلمات أغلب الظن أنها لا تستمع إليها. ومن المطبخ يأتي صوت موسيقى.. إنها الإذاعة الألمانية في ناميبيا مرة أخرى.

أنصت الاثنان للحظة إلى النغمات الخافتة القادمة من الراديو دون أن يفهما شيئاً.. وهي مازالت تبتسم. ولأنها تضحك، لأنها تضحك أخيراً، قال لها:

- كايسا.. هل هناك فرق بين الغفران والقبول؟ إنني أغفر للعالم..

إذن فأنا أقبله.. إنني أقبل كل شيء. فليس هناك شيء لا أقبله.. وأنت؟ أنت رأيتني أتجول ذات يوم بعد الظهر في ويندهوك.. في هذا الوقت الحار.. رأيت رجلاً يجر جر رجله.. متأثراً بالجروح المفتوحة في قدميه.. والحذاء الضيق عليهما.. ثم أتيت خلفي. ولا أعرف لماذا - هل هذا مهم؟ فأمسكت بيدي وأتيت معي. وكان يمكننا أن نعطي لذلك أهمية.. أن الأمر لم يحدث إلا على هذا الشكل.. وأنه لم يحدث بطريقة أخرى.. ربما كان لابد وأن يحدث ذلك.. ولكن ربما أيضاً لا.

من المهم أنك هنا.. أن كلانا لا يأبه للقانون.. ولهذا تسير الأمور جيداً معنا.

ثم انحنى يبحث عن شيء تحت الطاولة.. ولكن حقييته ليست معه الآن.. لقد نسي مرة أخرى أنها في الكوخ. فأمسك هوفمستر الطفلة من يدها.. وانزلت هي من فوق الكرسي.. فهو "السيد" وهي "الرقيقة". هذه لعبتها منذ حوالي يومين.. لم يستطع بسبب الظلام، وربما أيضا بسبب النبيذ.. أن يجد الطريق إلى الكوخ.. فقد كانا يمشيان ببطء وسط حشائش عالية.. فكايسا لا تستطيع أن تسرع في المشي.. وأيضاً هوفمستر.. ليس في وقت متأخر في الليل.. وليس في الحشائش العالية.. وليس هنا في ناميبيا.. بقدميه اللذان يرتجفان دائماً.

لاحظ هوفمستر أنهما يمشيان في دوائر.. فقال:

- نحن نمشي في دائرة.. أين كوخنا.. ياكايسا؟
حمل الطفلة على كتفه وسألها:

- أين الكوخ.. من أين نذهب؟

مشي ببطء مرة أخرى.. خوفاً من أن تسقط.. ثم أنزل الطفلة بحرص.. وقال:

- تيرزا.. تيرزا.. نعم.. لقد كانت مشكلة تيرزا موهبتها الخلاقة.. نعم موهبتها الخلاقة.. فهي موهوبة للغاية.. فقد عشت معها السنوات الأخيرة بمفردنا.

ثم جلس على الحشائش وتابع يقول: كانت أختها قد سافرت إلى فرنسا.. وزوجتي مع عشيقها.. وكنت أعيش بمفردتي مع تيرزا.. وفي الواقع، بالنظر للوضع مؤخراً، كانت هذه أفضل أيام حياتي. كنت أطبخ لها.. غير أنني تعمقت معها في حياتها إلى حد كبير.. هذا ما فعلته.. ولكن ذلك كان خطأ مني.

نهض واقفاً.. فقد كان يشعر بشيء يصيبه بالحكة من قماش بنطاله.. وأخيراً بعد خمس دقائق وجدا الكوخ رقم إحدى عشر.

أدار هوفمستر المروحة.. وأحضر الآي بود الخاص بتيرزا من حقيبته.. وجعل الطفلة تشاهد الأحرف المنحوتة.. وقال:

- ملكة الشمس.. انظري.. مكتوب هنا: ملكة الشمس.
شغل الآي بود.. وضع السماعة للطفلة في أذنيها.. وقال:

- هذه موسيقى تيرزا.. هذه موسيقاها.

جلس هوفمستر على السرير.. بينما تستمع الطفلة لموسيقى تيرزا.. والمروحة تدور.. وهو ناس في هذه اللحظة

لماذا هو في ناميبيا.. ولا يعرف فقط غير القليل.. وماضيه يبدو أمامه كأنه حياة أخرى. وأن شخصا آخر يعيشها.. شخص كان محاضر لأدب اللغات الأجنبية.. موجود في كل الأماكن.. شخص آخر كان يريد أن يتخلى عن الحب.. أما هو فكان هنا في ناميبيا.. مع كايسا.

وفي الصباح التالي سافرا دون توقف حتى سواكوب موند.. وهي قرية ساحلية يوجد بها سياح أكثر من أي مكان آخر.. وأيضاً جمع غفير من السياح العاديين.. الذين يأتون من ألمانيا بالطائرات المستأجرة.. بحثاً عن الشمس والبحر وهي شيء غريب بالنسبة إليهم.. فهم ليسوا من الناس الذين تربطهم علاقة خاصة بإفريقيا.. ولكن تربطهم علاقة خاصة بالشمس.. وعلاقة حميمة بالكيني.

أخذ هو والطفلة معاً غرفة في بانسيون يدعى "إبرفاين".. لم يكن بعيداً عن الشاطئ.. والناس يتحدثون هنا الألمانية بطلاقة.. كما يضيف أثاث الغرفة أيضاً طابعا ألمانيا صميماً.

كانت السيدة إبرفاين تجلس بنفسها في مكتب التسجيل.. وكانت متجعدة وذابلة من كثرة تعرضها لأشعة الشمس.. ولكنها رشيقة وبها أثر من العدائية.. وهي من لها الكلمة العليا هنا.. ولا يجروء أحد أن يشك في ذلك.. فهو فندقها. سألت هوفمستر إذا ما كان يرغب في سرير أطفال.. فقال

لها هي الأخرى أن سريراً واحداً كبيراً سوف يكون كافياً، وقال:

- نحن لن نمكث طويلاً.. وهي ابنة أخي.
ثم وضع صورة تيرزا أمامها، فهو لا يستطيع أن يترك فعل ذلك.. وسألها:

- هل من المحتمل أن تكوني قد رأيت هذه الفتاة.. ربما في الأسبوع الماضي؟

نظرت المرأة ذات الصفائر البيضاء، ومن المحتمل أنها تصبغها، نظرت إلى الصورة.. وأخذتها أيضاً في يدها وقالت:

- لا.. لم أرها أبداً قبل ذلك.. من تكون؟
قال هوفمستر:

- ابنتي.. ابنتي الصغرى.

قربت السيدة إبرفاين الصورة من عينيها وقالت: إنها تشبهك.. لديها نفس الذقن.. ثم حولت نظرها إلى الفتاة التي

تقف بجانب هوفمستر.. وكأن السيدة إرفاين تريد أن تخضع ذقن الفتاة لفحص شامل دقيق.

قام هوفمستر والفتاة بالتنزه على الشاطيء.. ينظران معا إلى رصيف الصيادين.. ثم شاركها في حانة صغيرة تدعى "أوت أوف أفريكا" طبقا من السلطة.. ثم تلقى اتصالا من زوجته بينما تجلس كايسا على دوامة الخيل.. فحكى لها كل شيء تقريبا عن الرحلة.. بدأ من السكن.. مارا بالتويوتا، وسواكوب موند.. حتى الطفلة، وقال لها:

- إنني على وشك الوصول إلى الصحراء.. على وشك أن أكون مع تيرزا.. لا يتطلب الأمر سوى يوم من السفر.
قالت الزوجة:

- إن ابيبي تجد أنه من المضحك أن لا تسمع أي شيء عن خبر تيرزا.

لم يعد صوتها كالصوت الذي اعتاد عليه.. صوت مفعم بالحيوية.. تملؤه السخرية اللاذعة. هذا الصوت الأجش الذي يثير بعض الرجال.

- لا يجب أن تظل ابيبي تفكر أن كل شيء يقع على عاتقها.

علق الحديث.. وجعلت دوامة الخيل تبطيء..
نزلت كايسا من فوق حصانها.. ولوح هوفمستر إليها.. ثم سألها:

- وكيف الحال معك؟ كيف تمر الأمور؟
بدأ له من بعيد الفان إيجينزترات فظيعا.. أصبح عالما آخر في نظره.. ولم يعد عالمة الذي كان يعيش فيه.
قالت:

- بخير.. كل شيء على مايرام. يورجن.. ما كنت أريد أن أقوله أيضا.. أنني تلقيت اتصالا من والدة شكري.. لم أفهم في البداية من تكون.. فقد كانت تتحدث الفرنسية.
جاءت كايسا ووقفت بجانبه.. فأشار إليها أن باستطاعتها أن تركب دوامة الخيل لجولة أخرى.. جولة أخرى وأخرى وأخرى.. وأعطاها مالا لذلك.. ولكنها ظلت واقفة تضع رأسها على جسده.. وكأنها مرهقة.. وكأنها تثق به.
ربما تثق به أيضا.. ففضية الثقة تحتاج الوقت وتفرضها الضرورة.. ولاسيما هذه الأخيرة.. وصحيح أنه لا يعرف الشفقة.. ولكن أحد يمكنه أن يثق به.

- يورجن، هل ما زلت هنا؟
- نعم.
- اتصلت والدة شكري تسأل أين ابنها.. ولكن لغتي الفرنسية ليست جيدة.
- كنت أظن أنه لا علاقة له بأسرته؟ هذا الشاب.
- حسنا.. لقد كانت تبدو.. لطيفة - نعم لطيفة، ولكن قلقة.
- وأنت بالطبع قلت لها أنهما في الصحراء؟ ماذا يظن الناس.. أن بين كل عشرة أمتار في الصحراء كابينة هاتف؟ إنهما سيأتيان بنفسيهما إلينا.
- هذا ما قلته أيضا.. أنهما في الصحراء.. وأنه ليس لديهما استقبال هناك.. وقد وعدتها أن أخبرك بأن شكري لابد وأن يتصل بوالدته.. يبدو أن الأمر ملح.
- أمسكت الطفلة بيده.. فمن الواضح أنها تريد مواصلة المشي.
- يورجن.. هل ما زلت هنا؟ فلدي شعور مستمر بأن الاتصال سوف ينقطع.
- وهو يفكر: على عطا أن يتصل بوالدته.. عطا لابد وأن يذهب للمنزل.
- نعم ما زلت هنا.. سوف أوصل الرسالة.
- لقد اشتريت كتابا مصورا عن صحراء كالاهايري.. وعن صحراء ناميب.
- ياللهول، عم يبحث الناس في هذه الصحراء؟ ماذا تفعل تيرزا هناك اليوم بأكمله؟
- فقال هو فمستر:
- ينظرون بأنفسهم.. ويشاهدون.. يريد الناس أن يروا الصحراء، لذلك يسافر الناس إلى الصحراء.
- والآن جعلت الطفلة حقا تسحبه من يده.. فقد ضاقت ذرعا بالانتظار.
- كتاب مصور عن ناميبيا.. لقد أظهرت الزوجة بشكل مفاجيء مشاعر الأمومة.. ولكن ليس إلا الآن.. الآن، عندما

أصبحت حطاما. بعد أن كان لديها في الماضي أشياء أخرى لتفعلها! .. قال لها:

- علي أن أنهي المكالمة الآن.. سوف أسافر غدا بنفسني إلى الصحراء.. وسوف أتصل بك بعد عدة أيام.. أو بعد أسبوع.. أو شيء كذلك. ولا تقلقي إن طالقت المدة بعض الشيء.

- يورجن.. كيف سيكون الأمر الآن؟

- ماذا؟

- أقصد ما بيننا.

- ربما علينا أن نجرب مرة أخرى؟ مع بعضنا. لأنه لا اختيار لدينا.. لأننا أصبحنا عجوزين.

- ربما.

- لقد سرحت الخادمة.. وأنا أنظف البيت بمفردي الآن.. فليس لدي أي شيء لأفعله.

أنهى المحادثة.. فالطفلة مرهقة.. ولابد أن يحملها لبقية الطريق حتى الفندق.. وفي غرفته الصغيرة سحب الستائر.. ثم وضع الطفلة على السرير وارقمى بجانبها.

كانت الساعة الرابعة عصرا.

استيقظ بعد السادسة بقليل.. والطفلة لا تزال نائمة..

فقام بحذر

من مكانه وارتمى ملابسه.. وأخذ القبعة والحقيبة وغادر الغرفة.. دون أن يصدر ضوضاء.

كان الظلام حالكا. وفي بادئ الأمر كان يتجول بلا هدف عبر شوارع سواكوب موند.. ثم توقف أمام نافذة أحد مكاتب السياحة.. ينظر إلى ملصق عبارة عن إعلان عن تنظيم رحلات إلى الصحراء.. بسيارة الجيب أو الطائرة. فالكل سيجد ذوقه هنا.. وظل ينظر إلى المناظر الطبيعية في الملصق.. ويحدق في الناس الموجودين في خلفيته.. وكأن تيرزا يمكن أن تكون واحدة منهم.

اشترى من أحد أسواق بيع المنسوجات بنظالا رياضيا وتي شيرت لكايسا.. وأربعة سراويل داخلية.. كان يرى أنها ستناسيها.. ثم وقف في الطابور منتظرا أن يدفع.. وهناك لاحظ أنه هو الأبيض الوحيد.. ولكنه لم يعد يقلق من ذلك.

عاد إلى الفندق ليجد كايسا تجلس فوق السرير تنتحب..
عويل وبكاء بائس.. تحيطها الملاية والوسائد.. فأخذ الطفلة
بين ذراعيه، وقال:

لا تخافي.. أنا لن أتركك.. حقا لن أتركك.. لم يعد
باستطاعتي الذهاب إلى أي مكان.
ثم أظهر لها التي شيرت.. والبنطال الرياضي.. والملابس
الداخلية.. وقال:

- يجب عليك أن ترتدي شيئا جديدا.. لا يعني ذلك أنني
أشمئز منك.. ولكن لن يضر المرء أن يرتدي شيئا جديدا من
حين لآخر.
جلس على الكرسي الوحيد في الغرفة.. وتوقفت الطفلة
عن البكاء.

سألها بينما تجرب الثياب الجديدة:

- كم عدد الأطفال من نوعك ياترى؟ كم عدد الأطفال
الذين مثلك في هذا البلد؟
فجلست على السرير.. وحدقت إليه.

- هل لديكم اتصال فيما بينكم؟ أنتم الأطفال الذين
يبيعون الصحبة؟

واصلت التحديق إليه.

علق ملابسه في الحمام.. وفتح صنوبر المياه الساخنة..
أملأ أن يخفي

البخار الصاعد منها التكسرات التي في ملابسه.

لم يذهب للأكل في المساء.. واكتفى بالجلوس على السرير
ومشاهدة التلفاز.. وفي العاشرة ألبس هوفمستر ملابس النوم
للطفلة: الفستان الصيفي الذي اشترته الزوجة لتبرزا.

استيقظ هوفمستر أثناء الليل.. فقد كانت الطفلة تنام في
عرض السرير.. واضعة قدميها على بطنها.. فأعادها بحرص
كما كانت.. ولزمه بعد ذلك ساعة على الأقل حتى يستطيع
النوم.

وفي السادسة والنصف استيقظ الاثنان.. وعند وصولهما
إلى غرفة الإفطار وجدا السيدة إبرفاين هناك لا تزال تعد
البوفيه.. فقالت لهما:

- لقد استيقظتما مبكرا قبل الجميع.. قهوة أم شاي؟

- قهوة من فضلك.. وكاكاو للطفلة.

كان الإفطار قاحلا.. ليس كما في هاينيتس بوج أو مزرعة
أو كابوكا.. ولكنهما أيضا لسبب ما لم يكن لديهما شهية
جامعة.

وعند الدفع قالت السيدة إرفاين:

- يالها من فتاة جميلة.. ابنة أخيك.. إنها فتاة جميلة.
ثم ناولته الباقي.. فطواه هوفمستر ووضعه في جيب
قميصه.

ولما هم بالإنصراف قالت له السيدة إرفاين:

- هناك أطفال كثيرون بلا آباء في هذا البلد.

ارتدى هوفمستر القبعة.. ووضع الأمتعة في السيارة.. ولم
يحمل فقط غير حقيبته تحت ذراعه كما يحملها دائما.. وكان
يرى أنه لابد أن يجيب عليها بشيء ما.. ولكن ماذا يقول؟
ماذا هناك ليقوله عن الأطفال اليتامى؟.. همست السيدة
إرفاين:

- إنه الإيدز.. لأنهم - السود - لا يستطيعون أن يتحكموا
في أنفسهم.

نظر إلى المرأة مقضبا وجهه، فهو يعرف ماذا ترى.. أو
بالأحرى: يعرف ما الذي تعتقد أنها تراه.
قالت:

- كن حذرا.. فهم يتصرفون أولا كأطفال.. ولكنهم
يسرقونك.. نعم، أنا أفهمك.. ولكني سأفعل ذلك لو لم يكن
لدي أي شيء.. سأسرق أيضا.. إنها تجري في دمائهم.. فهم
يلقون اللوم على الآخرين في بؤسهم.

كان على الطاولة وعاء به بعض قطرات حامضة.. فأخذه
هوفمستر واجترعها.. ثم ذهب دون أن يقول شيئا.. صاحب
الطفلة إلى التويوتا.. ولما جلس في السيارة قال لها:

- نحن مسافرون إلى تيرزا.. سنسافر إلى الصحراء.

وهو يفتح خريطة ناميبيا التي أعطاها له مكتب تأجير
السيارات، وقال:

- إلى سوسوفلاي.. هنا أرادت أن تذهب.. إلى الكثبان
الرملية.

ووضع يده على المقود.. وهو ليس لديه أي فكرة عن ما
يجب أن يتصوره عن الكثبان الرملية.. ويتساءل أين يذهب.

كانت الطريق ممهدة حتى خليج والفيس.. ثم بدأ الطريق يصبح رملياً.. فلم يجرؤ هوفمستر في بداية الأمر أن يقود بأسرع من أربعين إلى خمسين كيلومترا في الساعة.. وشيئا فشيئا زاد من سرعته وبدأ العداد يعد ثمانين.. حتى ما يقارب التسعين.

وأصبح معتادا على صوت الأحجار التي تفرقع تحت السيارة.. ولم يعد راديو السيارة يستقبل أي إرسال.. وكذلك الهاتف.. لم يعد أيضا يستقبل.. فهنا لم يعد يوجد أي شيء.. لم يكن غيره هو وكايسا.

ومن حين لآخر يلقي نظرة عليها.. وكانت تضع بين ساقها زجاجة ماء.. وعندما يطلبها منها تعطيها له.. وبذلك يستطيع أن يشرب دون أن يتوقف عن القيادة.

وعلى الرغم من أنه كان يقود سريعا، حسب رأيه، لكنه كان يحتاج لوقت أطوال مما اعتقده ليقطع هذه المسافة.. وهم الآن في وقت العصر.. وعلى الخريطة نقطة تشير إلى مدينة صغيرة.. ولكنها في الحقيقة لم تكن أكثر من نزل به محطة بنزين.

فملا خزان السيارة.. واشترى قطعتي فطيرة تفاح.. وكانت الطفلة جائعة، فأكلت قطعتها حتى آخر كسرة.. فقال لها هوفمستر كأن ما فعلته انجاز:

- أحسنت.

كانت التويوتا قد أصبحت مغطاة بأكملها بالرمل والغبار.. فجعلت الطفلة تحدث خطوطا بسبابتها على غطاء المحرك.. قال لها:

- سنجلس قليلا لنستريح.

وبجانب محطة البنزين كان هناك كرسيان وطاولة، قد أكل الدهر عليهم وشرب.. وأصبحوا خردة بالية مما مر عليهم من عوامل الطقس.. ومرور الزمن، والاستخدام. وكان هناك أيضا شيء يشبه إلى حد كبير مقهى حقيقي.. ولكن هوفمستر كان يرى أنه ليس لديهما وقت.. وعليهما أن يواصلوا السفر.

مسح بالمنديل على جبهته.. ثم على جبهة الصغيرة، على الرغم من أنها لم تكن تتعرق.

كان هناك شجرة على بعد بضعة أمتار من الشارع.. وعلى بعد أكثر كان هناك برج ماء.. وغير ذلك لم يكن هناك أي شيء، سوى الرمل والحجر وشجيرات قليلة. وسياج يفصل المنطقة عن البيئة. ولكن ماذا تعني هنا كلمة "منطقة"؟ جلسا صامتين.. وبعد فترة سألهما:

- هل تفهمين ماذا أفعل هنا؟ هل تدركين ذلك شيئاً فشيئاً؟

أشارت إلى التويوتا المترتبة.. فقال:

- لا.. لا أعني التويوتا مطلقاً.. أو ربما أعنيها أيضاً. ولكنني هنا لأختفي.. هذا ما أفعله هنا.

أراحته كلمة "أختفي"، فهي تبدو أكثر لطفاً وبراءة من كلمة "يموت". فهي أيضاً موت، ولكن دون عنف.

لابد أنه غفا.. لأنه استيقظ عندما نقرت الطفلة على وجنتيه. والشمس الآن قد توارت أكثر.. وقبعته ساقطة على الأرض.

دلك عينيه.. والتقط قبعته.. وقال:

- نعم.. سنسافر.

لزمهما ساعتين حتى وصلا إلى سكن سوسوسفلاي. وكان عبارة عن أكواخ ملونة عجيبة في وسط الصحراء.. هذه إذن هي السوسوسفلاي.. ولكن لم يعد لديهم أماكن شاغرة. لم يظن ذلك أبداً.. لم يظن أن الصحراء يمكن أن تكون مزدحمة بالناس هكذا.

قالت له الفتاة في مكتب التسجيل:

- ابحث عن مكان في نزل كولالا ديتسرت.. فلربما يسعفك الحظ هناك.. هل أتصل بهم؟

- نعم، من فضلك.

ووقف هناك، والطفلة تمسك بيده.. غبراء وعطشة.

وهو يفكر: وهذه المرة أيضاً أنا سائح لم يرتب جيداً للرحلة.. ياللسياج المتهورين.

اتصلت موظفة الإستقبال.. فوجدت أنه مازال هناك أماكن شاغرة في نزل كولالا ديتسرت. فشكرها بلطف على جهدها.

وواصل القيادة مسرعاً، برغم التعب والعطش.. ومن شدة سرعته كان عداد السرعة يشير إلى المائة كيلو في الساعة، وهو يمشي على طريق رملي.

كان الظلام قد حل عندما رأيا أخيرا لافتة مكتوب عليها "كولالا".

وكان الطريق الضيق - وبالكاد يستطيع المرء أن يسميه طريقا - هذا الطريق الضيق المؤدي إلى الفندق كان يمتد إلى ما يقرب من ستة كيلو مترات.. وسيلزمهما ربع ساعة حتى يصلا.. وكان الضوء الوحيد الموجود هو ضوء مصباحي السيارة الأماميين.. وهوفمستر يجد إرهاقا شديدا كلما حاول أن يحافظ على تركيزه.

حتى رأى أخيرا فندق كولالا ديتسرت.. الذي يبدو للوهلة الأولى أنه مخيم.. ولكن الخيام لم تكن خيام.. ولكنها اكواخ في الصحراء.

ركن السيارة.. وأخذ الطفلة، والقبعة والحقيبة، وذهب إلى الإستقبال وهو يترنح بسبب الدوار. فمن الواضح أنه لم يأكل كثيرا أو كان الطعام جافا.

وفي المدخل تقف امرأة شابة تحمل صينية.. فناولته كأسا. كانت ترتدي على رأسها قماشة ملفوفة بإتقان.. وشرب هوفمستر بشراهة.. وكان طعم المشروب في نفس الوقت مزيجا من الكحول والشاي.. فشربت منه الطفلة أيضا.. كانت ترتدي البنطال الرياضي الجديد، وكانت تبدو فيه جيدة.. وأقل عهرا مما كانت تبدو عليه في ثيابها البالية. وقد ذكرته هذه الكلمة بزوجته. هذه الكلمة التي تشبه اللعبة التي ازدهت بمرور الوقت.. قال:

- أنا يورجن هوفمستر.. اتصل أحدهم من أجلي.. أريد ليلة أو ليلتين.. هل علي أن أسجل في مكان ما؟ فقالت المرأة:

- لدينا متسع من الوقت لفعل ذلك. ثم جاء رجل نحوه.. كان علي ما يبدو شابا فرنسيا أبيض.. فألقى على هوفمستر التحية.. وقال له أن جميع الإجراءات سوف تتم في وقت لاحق.. وسأله إن كان يريد قبل كل شيء أن يأكل. حتى الأمتعة لديها متسع من الوقت.. فاملمهم أولا أن يستريحوا، وينعما بالهدوء.

ثم اصطحب هوفمستر إلى طاولة.. وكان من شدة تعبته أنه نسي أن يخلع قبعته.. ولشدة تعبته أيضا لا يبالي بذلك، ولا حتى للنظرات التي توجه إليه هو والطفلة.

ثم وضع أمامهما على الطاولة سلة خبز محلية الصنع..
فأتيا عليها في خلال خمس دقائق..
قال هوفمستر:

- كايسا، لقد وصلنا.. أو أوشكنا على ذلك..
وأخيرا قالت هي الأخرى شيئا.. لأول مرة في هذا اليوم..
والوجه تعلوه ابتسامة - ابتسامة تكاد تبدو ساخرة - قالت:

- سيدي، مزيدا من الخبز من فضلك..
فلوح لإحدى النادللات.. وكانت فتاة صغيرة. فجاءت بمزيد
من الخبز، وظلت واقفة أمام الطاولة تنظر إلى الطفلة..
وسألته:

- ابنتك؟

- ابنة أخي.

ثم بدأت الفتاة في الغناء.. كانت تغني بلغة لا يفهمها..
ونغمات كثيرة وألحان.. كان صوتها جميلا.. ولكنه لم يكن
يريد موسيقى.. أراد فقط أن يأكل ثم ينام ثم يختفي..
ولما انتهت الفتاة من الغناء.. ربت هوفمستر على ذراع
كايسا.. وهي تقضم مرة أخرى من قطعة خبز.. هامسا: لا

تأكلي كل الخبز.. وإلا ستشعرين بالشبع..
فتوقفت للحظة عن المضغ.. وابتسمت للرجل الذي
قضت معه إلى الآن يومين في الطريق.

فكر في نفسه، إن الأمر عندها سواء.. ولا تأبه حقا من
أكون.. ولكن اللامبالاة يمكن أيضا أن تكون إحدى أشكال
الغفران.

وبعد الانتهاء من الطعام ترك مفاتيح السيارة لأحد
الشباب.. لكي يحضر الأمتعة إلى الكوخ.. ولكنه ما لبث أن
قدم بعد بضعة دقائق.. إذ لم يستطع فتح صندوق السيارة..
وقال:

- من المحتمل أن هناك كثير من الرمل والغبار قد دخل
في القفل.. وسوف ننفخ فيه غدا لإزالتها.. ولكنني أخشى.. أن
عليكما أن تقضيا الليلة بدون أمتعة.. هل هذه مشكلة
كبيرة؟ هل تحتاجان منها شيئا ما؟

قال هوفمستر: لا.. لا بأس بذلك.. نحن لا نحتاج أي شيء..
واصطحبهما الفرنسي إلى سكنهما.

كانت الأكواخ متباعدة عن بعضها نسيبا.. وكان عليهم أن
يمشوا بحذر.. فالطريق معبد بالحجارة ولكن لا يوجد هناك

ضوء كاف للرؤية.. ليس هناك فقط غير رمل وغبار في كل مكان.
قال الفرنسي:

- توخيا الحذر.. إن الضيوف في الغالب يأتون مبكرا..
عندما لا تزال الشمس ساطعة.
كان الكوخ مثلما توقع هوفمستر.. سرير، ومروحة، وعلبة
مبيد حشري، ودش.. قال الفرنسي:
- يمكنكما النوم أيضا فوق السطح إذا أردتما.. فهناك
أغطية.. ومعظم الضيوف يجدون النوم تحت كواكب السماء
جميلا.. إنها تجربة مميزة.. وشيء مثير للاهتمام.
وذهبنا إلى خلف المسكن حيث السلم النقال الموصل
للسطح. وبقيت الطفلة في الكوخ.. أوما هوفمستر وسأل
الفرنسي:

- هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟
فقال:

- منذ حوالي ثلاث سنوات.. وسوف أواصل هنا..
فالصحراء إدمان وأنا لا أستطيع الانفصال عنها.
نظرا إلى الأعلى.. إلى السقف والسرير الموجود هناك عند
نهاية السلم.. لا يستطيع الانفصال عنها؟!.. كانت هذه
الكلمة تبدو مألوفة لهوفمستر وأيضاً مستغربة.. فما الشيء
المميز في هذا المكان.. لدرجة أن
المرء لا يريد أن يبتعد عنها؟
أراد هوفمستر أن يعرف، فسأله: -

- وما الذي رماك إلى هنا؟
ضحك الفرنسي وقال:

- لقد أردت مرة أن أرى شيئا مختلفا.
وسكت لبرهة.. كأنه ينتظر سؤالا آخر. ثم قال:
- حسنا.. سأتركك بمفردك.. وفي الصباح سنزيل قفل
سيارتك.. وتحصل على متاعك.. ثم تقول لي حينها أي رحلة
تريد أن تشارك فيها.
عاد هوفمستر إلى الكوخ.. فغسل يديه.. ولكن الماء كان
ساخنا بشكل عجيب.
قال: ليس لدينا فرشاة أسنان.. فرش الأسنان في صندوق
السيارة.. وهو لا يمكن فتحه مؤقتا.. ولكن هذا لا يسبب

مشكلة.. أليس كذلك.. ثم خلع ملابسه.. وعلقها في دولا ب صغير.. وسألها وهو يشير إلى البنطال الرياضي والتي شيرت:

- هل تريد أن تظلي مرتدية هذه؟.. الآن حيث ملابس نومك المعتادة ليست هنا؟
أومأت الطفلة. واتفقا على ذلك.

نظر حوله.. فلم يجد هاتفًا في الحجرة.. كل شيء موجود باستثناء الهاتف.

ففتح هاتفه المحمول.. ولكن لم يكن هنا أيضًا استقبال.
وقف بملابسه الداخلية.. يهيه السرير للنوم.. ثم تذكر فجأة شيئًا ما.. فسألها:

- هل ترغبين أن تنامي في الخارج؟ في الخارج؟ فوق السطح؟ تحت السماء مباشرة؟ وتنظرين للنجوم؟
وأشار إلى السقف.. كأنه يخشى أنها لم تفهمه.
سألها مرة أخرى:

- فوق السطح؟
فقلت:

- نعم، فوق السطح.

ذهب هوفمستر بالفتاة إلى الجانب الخلفي للكوخ وهو متفاجئ بعض الشيء من جوابها.. والرمل يزعجه عندما يلامس قدميه.. ولم يكن يظن أنها سوف ترغب في ذلك، أنها سوف ترغب بالنوم على السطح، ولكن لا بأس، لم لا؟ إنه شيء مثير للاهتمام، وربما قد فعلت تيرزا ذلك هي الأخرى.
قال لها:

- اذهبي أنت أولاً.. فإذا سقطت أمسكت بك.
تسلقت الطفلة السلم ببطء.. ثم توقفت في المنتصف.. ونظرت إلى الأسفل.
فقال هوفمستر:

- هيا تابعي.. وضغط من الأسفل على رديها.. قلقًا من أنها ربما تخاف من الارتفاع.. وقلقًا من أن تسقط.
أرهقه تسلق السلم أكثر مما كان يتوقع.. فهو متدهور من كل ناحية.. والمفاصل متصلبة والعضلات ضعيفة.
إن لم يكن هناك شيء لتتغطى به فسوف يكون الجو بارد جدًا فوق السطح.. فليالي الصحراء باردة جدًا.. فلف الغطاء حوله هو والطفلة.. والطفلة ترتجف.

فقال لها:

- تعالي هنا.. سأحتضنك.

وجعل ينظر في السماء وكايسا بين ذراعيه. ويقول في نفسه: في الحقيقة إنها كما وعده الفرنسي.. إنها رائعة، ولكن لماذا أجد ذلك جميلاً؟ أيرجع ذلك إلى الإحياء؟ أم أن كل الناس يجدون ذلك جميلاً من تلقاء أنفسهم.. دون أن يخبرهم أحد بذلك؟

لم يغمض له عين.. فمع أنه كان يقود اليوم بأكمله إلا أنه الآن ليس مرهقاً. ثم لاحظ بعد فترة أن الطفلة أيضاً مازالت لم تنم.

وعيناها مفتوحتان كعينييه، ولكن هل تنظر أم تنام وعيناها مفتوحتين؟

أهذا هو الذي يفعله المرء هنا؟ النظر للنجوم؟ أهذا هو الغاية من هذه الممارسة، وهذا هو أساس الجاذبية في ذلك؟ إن ذلك مخصص للسياح من البلاد الصناعية لكي يتذكروا ماهي السماء الصافية.

سألها:

- كايسا، هل أنت نائمة؟

لم يحصل على جواب.

فسألها: هل تشعرين بالبرد هنا يا كايسا؟

لم يلق جواباً مرة أخرى.. وأحس بشيء على وجنتيه.. إنها يد كايسا.

كانت تتحسسها على ما يبدو، ووضعة يدها على وجهه، ولكنها لا تحرك رأسها.

لم يتحرك هوفمستر، وظلت يدها كما هي.. والصمت يسود.. الصمت والظلام هما المسيطران على الصحراء. فقط من حين لآخر تزمجر الرياح.. قال مخاطباً إياها بصوت هامس:

- أتعرفين ماذا كان من أمر تيرزا؟

لم يكن يحتاج أن يهمس، ولكنه فعل على الرغم من ذلك.. فقد كانت الدنيا تنصت كأنها تستمع.. كان أحداً سوف يسمعه على بعد عشرات الأمتار منه.. وأكمل يقول:

- لقد كانت مثلي.. هكذا كانت. كانت... كانت... كانت....

واليد تتحرك ببطء على وجهه، كأنها يد أعمى.. ولكن هذه الحركة لم تكن ملاعبة.. بل كانت أقرب إلى البحث، ولكن عم تبحث يد كايسا؟ .. همس:

- كنت قادما إلى غرفة المعيشة.. غرفة المعيشة في بيت والدي.. وهناك رأيتها مستلقية.. على الطاولة.. فقلت تيرزا، ولكن تيرزا لم تسمعني، وكذلك هو. فالجنس يحدث ضوضاء كثيرة يا كايسا.. ضوضاء كثيرة تزعج الآخرين أيضا. كصوت تحطم شيء ما، ولا شيء غير الضجيج. تغير اتجاه اليد التي على وجهه هوفمستر.. واتجهت إلى فمه، وأذنيه، وأنفه. لمس كل شيء. وهو يواصل:

- وفي الواقع كنت أريد الذهاب.. الذهاب إلى المطبخ. فهناك كان لدي شيء أفعله.. ولكنني لم أكن أعرف ما هو. ربما شرب النبيذ، نبيذ العنب الإيطالي. ولكنني ظلمت واقفا.. فقد كنت أجد من الغريب أنها لم تسمعني، ولذلك بقيت واقفا وجعلت أنظر.. ولكن الأمر كان قاسيا جدا يا كايسا.. فقد رأيت ذلك فجأة.. وكم كان قاسيا. كمثل.. كانت شفتاه جافتين، فقد كان عطشا.. ولكنه لم يأخذ معه ماء عندما ذهب إلى الأعلى، وهو مرهق جدا لكي يذهب الآن إلى الأسفل في الكوخ ويحضر زجاجة ماء. استقرت اليد على أنفه.. ولم يكن شعورا لطيفا.. ولكنها كانت يدا لطيفة، وغضة بشكل لطيف.. همس:

- الجنس عامة قاس.. دائما، وفي كل الحالات، هذا ما أعتقد، وهذا ما أراه. ولم يكن ينبغي أن أفاجأ من ذلك، ولكنني مع ذلك فوجئت. ما أعنيه هو أن الحيوان لا يعرف الحب، لا يعرف غير الغضب. والجوع والعطش والتعب. وكنت أفكر: ماذا يحدث هنا؟ ما الذي يجري بالضبط؟ ماهذا؟ وقلقي يزداد مما يحدث لابنتي هنا. وهذه الكلمات " قلقي يزداد عليها " ترن دائما في رأسي، ولا تذهب منه أبدا. ودائما في دوائر مثل... مثل الصلاة يا كايسا. وقلت في نفسي: " إنها تحصل على الإهتمام.. نالت ابنتي اهتماما في حياتها. وقد رأيت مؤخرته.. مؤخرة شكري.. وقلت في نفسي: ما أشد بياضا.. كانت بيضاء مع أنه ملون. في الواقع هذا شيء مضحك. وكنت أقف أمام المدفأة أنظر إليها وهي تصعد

وتهبط، هذه المؤخرة، كما في السينما. وقد كان باستطاعتي أن أذهب كما دخلت، بصمت وفي هدوء، ولكنني لم أذهب.. ولم أتحرك من مكاني.. فقط بقيت واقفا أشاهد، وأحرق في هذه المؤخرة البيضاء.

أصبحت اليد الآن على خده.. والأصابع كأنها تعزف البيانو عليه. وهو يقول في نفسه: إنها تداعبني.. هي تداعبني.. همس:

- لا يمكنك أن تتصورى ذلك يا كايسا، ولكنني وقفت هناك. بضع دقائق كما يبدو، ولكن الأمر في الحقيقة لم يستغرق ثوان، ولكن بالنسبة لي تبدو وكأنها دقائق أو ساعات، أو حقبة من الحياة. وبرغم أنني لم أقل شيئا ولم أكن لأفعل أيضا، فقد رأوني فجأة، أو سمعا شيئا ما. أو شما رائحة شيء ما. على كل فقد التفت عطا برأسه فجأة. وفكرت أنا: لقد عابنت ذلك مرة من قبل. فأنا كبير في السن جدا لأن أعاين كل شيء مرتين في حياتي. وكذلك رأنتي تيرزا وقامت من فوق الطاولة. ولكنها لم تكن عارية تماما.. ولكن كانت.. نصف عارية - بل عارية تماما في الواقع. فقلت في نفسي: لماذا على طاولة الطعام خاصتي؟ فطاولة الطعام هي الطاولة التي يأكل المرء طعامه عليها.. كما يتضح من الاسم. وقلت في نفسي: محمد عطا؟ لقد أخذت مني مالي، والآن تأخذ ابنتي على طاولة الطعام.. طاولة طعام والداي؟ مع أنهما في آخر عمرهما لم يفتحا الباب لأحد منا، ولكن هذه قصة أخرى. اتجهت يد الطفلة الآن إلى جبهته.

همس إليها:

- كايسا.. يدك لطيفة جدا وناعمة.. ما أجمل ذلك. ثم فكر، بضع ثوان، لدقيقة.. وواصل يقول: نعم.. كانت تقف هناك.. أعني تيرزا.. وقالت: بابا.. ماذا تفعل هنا؟. ولكنها لم تكن غاضبة، بل منذهلة.. وربما غاضبة قليلا لأنني كنت أقف هناك. وحينها كان يمكنني أن أسأل أنا وأقول: ماذا تفعلون أنتم هنا؟ فهذه طاولة الطعام.. ونريد أن نأكل عليها بعد قليل.

ولكنني لم أفكر إلا في: كم أن تيرزا جميلة.. وكم هي حلوة.. ويالها من وجه ودود هذا الذي يزينها.. ويا لعينها الجميلتان.. وشخصيتها الجذابة. لطيفة جدا كطفل صغير.

إننا فقط لم نعتنني بها، وكذلك هي لم تعني بنا.. وكنت أفكر في حذائها.. أول حذاء اشتريته لها.. كان صغيرا جدا، لدرجة أن ثلاثة منه أو أربعة يمكن وضعهم على اليد. إنني أحفظه الآن، أعني الحذاء، لأبد وأنه الآن في مكان ما في خزانة الملابس في القان ايجينسشترات. وقلت أيضا في نفسي: إنها ملكة الشمس، هذا ما فكرت فيه حينها، ملكة الشمس خاصتي.. ملكة الشمس الأعز علي قلبي. ثم أمسكت بقضيب تذكية النار وضربت بها به على رأسها.. فسقطت على الأرض مباشرة.. فضربت بها مرة أخرى وهي تتمدد على الأرض.. ثم مرة أخرى.. وبينما كنت أفعل ذلك.. لم أنقطع أقول لنفسي: ملكة شمسي.. ملكة الشمس الأعز علي.. إنها ملكة الشمس. وكنت أظن أن الحذاء الذي تلبسه، هو هذا الحذاء الأول.. وكان أزرق، بدون رباط.

كان يشعر بأن اليد الآن على وجهه.. كما يشعر بحرارة الطفلة.. ولا يكاد يشعر بشيء غير ذلك.
فهمس إليها:

- كايسا.. إن يدك لطيفة جدا.. يدك.... الآن أعرف من أنا.. فلم أكن أعرف قبل ذلك. والمرء لا يعرف من هو حتى يفقد السيطرة على نفسه.. وحينها يعرف نفسه على حقيقتها.. وهل تعرفين.. أتعرفين ماذا فعل هذا العطا؟ تعثرت قدماه.. انقلب البطل رأسا على عقب.. ووجدته في المطبخ.. ففر من الباب إلى الحديقة.. وهو يرتعد ويرتجف.. فكان.... كان لا شيء.. كان حطاما.. ليس له أي كيان.. ولم يعد إنسانا.

كان فم هوفمستر قد أصبح جافا.. فارتشف بضع رشقات.
وعاد يهمس:

- كايسا.. كايسا، كان عطا يقف في مطبخي.. يهز الباب.. دون أن يكلف نفسه حتى فيرتدي ملابس به بشكل صحيح.. وتعرفين ماذا كان يقول: أرجوك يا سيد هوفمستر.. أرجوك.. هذا ما كان يقوله.. ولم ألاحظ إلا حينها أنني لا أزال ممسكا بقضيب تذكية النار.. الذي يخص والدي. وهو يتوسل ويصرخ.

هل أنا صرخت؟ عندما سلب مني عطا أموالي وابنتي؟ لم أصرخ أبدا. ثم تقدمت خطوة باتجاهه.. وفي هذه اللحظة أمسك بالمنشار الذي كنت قد وضعته هناك.. حتى يجف

وأتمكن فيما بعد من تنظيفه. أمسك بمنشاري.. فقد كنت
أعمل طوال اليوم في الحديقة.. فأنا أهوى عمل الحديقة.
هبت الريح.. فظمأن زئيرها هوفمستر.. لأن هذا يعني أن
أحد لا يسمعه ولا حتى كايسا.
فهمس:

- على المرء أن يقطع أشجار الفواكه بانتظام.. فالحديقة
بحاجة إلى عناية: فمن تقطيع الفروع الميتة، وجذ الأعشاب
الضارة.. إلى زرع الحشائش. هذا عملي وأنا أحب أن أفعله..
ولذلك لن ادع أحد يأخذ منشاري إلـ إم إس ١٧٠، وبالتأكيد
ليس عطا. ولذلك تركت القضيـب وانتزعت المنشار من يده..
فهو لم يكن يحمله بشكل صحيح.. ولم يكن يعرف كيف
يتعامل المرء مع مثل هذه الأشياء.. أو كيف يمسك بها..
وفوق ذلك كان يرتجف.. ومرتبكا وشاحب الوجه.
شعر بقدم كايسا على ساقه.. ولكن أكثر مما يشعر بيدها
على وجهه.
فهمس إليها:

- كايسا.. كايسا.. عزيزتي كايسا.. ثم فر إلى حجرة
المعيشة كالقطعة التي يحاصرها المرء في إحدى الزوايا..
والسروال لا يزال أسفل ركبتيه.. فتبعته.. ماذا برأيك سأفعل؟
لم يكن يمكنني أن أدعه يهرب.. لم يكن لدي خيار يا كايسا.
كان يقف هناك في حالة ذعر وارتباك.. على حافة الانهيار
العصبي.. ولا يزال قرآنه ولعبة بنك الحظ موضوعين على
الطاولة.. على طاولة الطعام. هذا الكتاب ذو اللون الأخضر..
المغلف بغلاف متين. كنت أنظر إليه والمنشار في يدي..
وحينها اتضح لي كل شيء.

وفهمت هذا الخطأ، هذا الشيء الغير عقلائي، هذا الوهم
الذي ابتليت به الأرض.. الذي اجتاحتها كإعصار. فقلت له:
عطا.. من في رأيك هو الأقوى، الله أم إلـ إم إس ١٧٠؟ هيا
توسل إلى الله، ربما يساعدك.. أو إلى النبي، ربما يساعدك هو
الأخر.

ولكنه لم يرد أن يتوسل، ورفض أن يفعل ذلك.. هل يمكنك
تصور ذلك؟.. ثم قطعت صفحة من المصحف وقلت: من لا
يريد أن يدعو.. فعليه أن يأكل يا عطا.
وحشوت الصفحة في فمه.. فأكلها، أكلها، ياكايـسا.. ولكن
الغوث لم يأت.. بالطبع لن يأت.. فقد كنت أنا الغوث.. وكان

الصفحة مكتوب عليها: "وامتازوا اليوم أيها المجرمون".. ومثل هذه الأشياء. ثم اقتربت من عطا، يا كايسا، اقتربت أكثر من عطا.. ثم أكثر فأكثر. حتى استطعت أن أشم رائحته.. رائحة الخوف التي تغطي على رائحة كل شيء.. وابنتي، ملكة الشمس، ملقاة على الأرض. وبذلك كانت قد شفيت من مرضها، ولكن من الواضح أنها لم تشف تماما، لم تشف مني، فانا لا يمكن أن يشفي أحد مني.

ماذا كان علي أن أفعل؟ لقد كانت الصفحة بين شفتيه كحيوان في سيرك.. ولم يجرؤ لحظة على أن يلفظها.. ولا أن يمضغها.. فقط كان يحدق إلي كالقرد.. فسألته: أين الله الآن.. أين النبي؟ لماذا لم يأتيا ليساعدك؟ ربما لم تصرخ بصوت عال كفاية.. فلم تكن صرخة متفانية كفاية؟ نادي مرة أخرى يا عطا.. ناديه كما تنادي كلبك عندما يجري في المتنزه. فلنناديه معا يا عطا.. فلربما يأتي إذا نادينا نحن الاثنين معا.. أم أنه ربما يكون أصما.

وهل تعرفين ماذا قال وصفحة المصحف في فمه: أنا لست محمد عطا، أنا لست محمد عطا. فقلت: بالطبع لن تعترف بذلك.. بالطبع أنت تستخدم إسما مستعارا.. فمن سيرغب في هذه الأيام أن يعترف بأنه محمد عطا؟، ثم أدت الـ إم إس ١٧٠، وعندما يشغل، لا يستطيع أحد أن يسمع أي شيء.. لا دعاء، ولا صوتا.. ولا حتى صراخا.. لا صوت غير صوت إم إس ١٧٠.. صوت كصوت الموسيقى.. وفوق صوت الموسيقى أصرخ أنا قائلا: نادي مرة أخرى يا عطا.. نادي بأعلى صوتك مرة أخرى.. ربما لا يفهمك الله بسبب لهجتك. أو ربما هو في إجازة. ولكنه لم يقل أي شيء.. ثم قطعت كشجرة فاكهة.. كشجرة فاكهة مريضة فروعها ميتة. قطعته من الشمال أولا ثم من اليمين ثم من الأسفل إلى الأعلى. فمع أن الـ إم إس ١٧٠ هو منشار مدمج، إلا أنه يقطع كل شيء، ولذلك يغرم به هواة العمل في الحديقة.. كما أنها موفرة في الاستخدام. التفت هو فمستر فأصبحت يد كايسا على مؤخرة رأسه. فهمس:

- كايسا.. عزيزتي كايسا.. ثم اغتسلت في المطبخ.. منظفا نفسي بقدر الإمكان، ثم أزلت ملابسني وارتديت قميصا كان لأبي.. لأن قميصي لم يعد نظيفا.. فقد كان متسخا جدا. وبعد ذلك ذهبت فجلبت الطعام من القرية.. جلبت رايس تافل.. وجبة رايس تافل صغيرة لثلاثة أشخاص.. ومعها الكروبوك

مجانى.. وأكلت أنا الرايس تافل كلها بمفردي.. نعم لقد كنت جائعاً إلى هذا الحد.. جوعاً مستعراً لدرجة أنني كنت ألحق الأطباق.. هل شعرت بمثل هذا الجوع من قبل يا كايسا؟ ، ثم حفرت حفرة في الحديقة.. ولزمني ساعات لفعل ذلك.. ولم يكن لدي وقت لقبرين.. ثم وضعت الأطفال فيها، وثبتتهما هناك. والحق يقال.. فعلت ذلك وقد استنفذت كامل قواي.. وضعت ملكة الشمس كاملة.. والآخر رميته مقطعا، كما ترمى قطع الأشجار على السماد.. ثم سويت الحفرة بالتراب.. وأعدت الحديقة كما كانت قدر المستطاع.. فهي من رائحة والداي.. ثم فعلت أول ما فعلت أن اغتسلت.. وبعد ذلك نظفت الـ إم إس ١٧٠.. ثم بعد ذلك المنزل الذي كان كل مكان فيه لا يزال ملطخاً بعصير شجرة الفواكه.. وفي كل مكان القروع والأوراق التي نسيت أن أرميها في الحفرة.. أنت لا تعرفين من كان عطا.. ولا تعرفين ماذا كان سيفعل بنا لو سنحت له الفرصة. ثم عاد كل شيء نظيفاً.. وتم التخلص من كل شيء.. لم يبق فقط غير المصحف موضوعاً على المائدة.. فجلست أفراً فيه.. ولم تكن غير صفحة واحدة هي المقطوعة منه.. فأنا رجل فضولي.. ولم أكن أستطيع النوم.. وكان فيه أشياء تثير الإهتمام.. ققرات أشياء مثل: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون".. فقلت في نفسي: هذا أنا.. أنا صاحب الجنة.

ولكن الـ إم إس ١٧٠ أقوى من الله.. أقوى من الرب.. أقوى من عيسى.. منشار الـ إم إس ١٧٠ هو السيد.. يا كايسا.. هو سيدنا.. وعندما كنت مستغرقاً في مثل هذه الأفكار، لم أكن أشعر بأي شيء.. جل ما كان يشغل بالي هو المخاوف العملية: إن كان البيت حقاً قد نظف.. أو إن كنت قد نسيت شيئاً.

ولم أنم هذه الليلة، ولكنني غفوت قليلاً.. ثم صنعت فطوراً في الصباح لثلاثة أشخاص، ثم حلقت وفركت بشرتي بكريم يعالج البشرة الجافة، ويعالج تسليخ فروة الرأس. ثم قادت السيارة إلى فرانكفورت متجهاً إلى المطار.. وجعلت أودع الأطفال حتى غابا عن ناظري.

وقد أصبحت الآن تعرفين من أكون، ولماذا أنا هنا. أنا هنا لأنني أبحث عن تيرزا.. علي الرغم من معرفتي أنها لم تأت هنا أبداً.. ولكن الشيء الأكثر حماقة من ذلك.. أن الشك يساورني أحياناً.. فلم أعد متأكداً تماماً.. وأفكر في نفسي: لقد

كانت هذه مسرحية.. كل هذا كان مسرحية في رأسي. ثم أفكر أنها قد سافرت بصحبة عطا إلى ناميبيا.. ولكنني لا أتذكر بشكل جيد.

إنني لا يمكنني أن أتصور أنني لن أرى تيرزا أبدا بعد ذلك. هذا جنون.. ولكنني طوال السنين كنت أشعر بطريقة ما بخوف غامض من أن أصبح وحشا أو حيوانا.. ولما وجدت تأكيدا على هذا الخوف.. لم أستطع أن أصدق.

لقد كنت ألعب مع زوجتي عندما كنت لا أزال شابا.. كنت ألعب معها دائما.. كنا نلعب سويا.. فأكون أنا الحيوان الذي يطوف كل ليلة في الفوندل بارك. وبسبب ذلك كله أنا هنا الآن يا كايسا.. هنا في ناميبيا.. لكي أختمي.. وأذوب.. لأنه ليس بإمكانني بعد الآن أن أذهب لأي مكان.

ربما مفهوم "اللعب" هو أن يعود المرء دائما إلى نقطة الإنطلاق.. ولكنني لا أستطيع العودة يا كايسا.. لم أكن الآن ما كنت عليه.. ولا أخفي عليك، فأنا بلا مستقبل وبلا ماض.. ولكن محايد كعملة ورقية. أنا سائح من الشمال، واحد من بين كثيرين، تهدمت حياتهم.

وهم يقولون، أنت تبحث عن الروحانية أو السلام أو شيء آخر، ولكن كل هذا يعني شيئا واحدا يا كايسا: الاختفاء. إنني أرغب... أرغب أن أقول لك، كم هو جميل بالنسبة لي أن أتحدث معك.. وأن رفقتك... رفقتك لي مهمة جدا.. فالتاس يحتاجون رفقة قبل أن يختفوا.

لم يعد يتحدث، ولكنه لم يستطع أن ينام. كان يتمدد في الصحراء، يستشعر حرارة الطفلة.. وينخر في ذكرياته، وطعم النبيذ القديم في فمه.. فلم يجد أبدا بداخله أي وحشية.. ولكن الوحشية التي فيه، مدفونة على عمق كبير في ذاكرته.. أما هو نفسه فيستلقي على الأرض في براءة الطفل.

استيقظ هو فمستر في اليوم التالي حثة مجمدة.. فظل متمددا للحظة، ثم أيقظ كايسا.. وكانت حينها الساعة السابعة صباحا.

وفي الكوخ وقف تحت الدش، ولم يطيل، لأنه كان يرغب أن تحصل كايسا أيضا على دش ماء ساخن. ثم ارتدى ملابسه.

سأله الفرنسي، أثناء الإفطار في صالة الطعام، إن كان يريد أن يشترك في إحدى الرحلات، فقال هوفمستر:

- بكل سرور، فنحن نريد أن نذهب إلى الصحراء ونرى الكثبان الرملية.
قال الفرنسي:

- سوف أرتب لك رحلة خاصة، لأنك تسافر مع طفلة.. فمعظم

الناس يأتون بلا أطفال.. وسوف يأتي إلجو ليقلك في الساعة الثانية والنصف.

فقال هوفمستر:

- شكرا جزيلا.

قال الفرنسي:

- لا داعي للشكر.

وبدا عليه أنه يريد أن يذهب، ولكنه بقي واقفا لبرهة، وأشار إلى الطفلة وسأل: هل ولدت هنا؟



فأومأ

هوفمستر، وأومأ

الفرنسي. أيضا، كأنه كان يتوقع هذا الجواب.. كأنه كان يعرف.. فأكمل يقول:

- لو احتجت لأي شيء آخر - أوه، قبل أن أنسى- لقد فتحنا قفل باب السيارة.. وسوف نجلب أمتعتك إلى الكوخ في الحال.

وذهب الفرنسي- إلى الطاولة التالية.. وهوفمستر يتبعه بنظره.. إنه رجل لطيف هو وبنطاله الكاكي، ولكن من يدري ماذا كان في فرنسا. من يدري ماذا فعل هناك.

قضايا فترة ما قبل الظهر والظهر على حافة حمام سباحة صغير.. وكانت الطفلة تنزل فيه برجليها فقط من حين لآخر، ولكنها لم تجرؤ على السباحة.. أو أنها لا تستطيع السباحة. أما هوفمستر فكان يتمدد على كرسي البلاج، وأزرار قميصه مفتوحة.. فهو يرفض أن يخلع قميصه بالكامل. وفي تمام الثانية والنصف جاء رجل أسود ضخيم نحو هوفمستر. إنه إلجو.

كانت السيارة الجيب معدلة وموسعة.. بحيث عدلت المقاعد على طريقة المدرجات، حتى يتمكن الذي يجلس في الخلف أن ينظر من فوق رأس من يجلس في الأمام، ويتمتع هو الآخر بالطبيعة.

ولكن لم يكن معهما مشتركين غيرهما، فقط هوفمستر وكايسا وإلجو.

ثم انطلقا.. ببطء في البداية.. ثم بسرعة. كان إلجو يتحدث كثيرا ويطلق نكاتا كثيرة سمجة، وبرغم ذلك يضحك هوفمستر عليها متوخيا الأدب.

كانت الصحراء تغير ألوانها باستمرار إلى الحمرة الشديدة.. ولا تكاد العين تقع على حجر، ليس هناك غير الرمال وبعض الشجيرات الجرداء.

وعندما وقفا أمام كثيب رملي، وثقل الصمت على هوفمستر، سأل إلجو:

- هل أنت من هنا من هذه المنطقة؟

فقال إلجو:

- أنا من شمال البلاد.. هناك تسكن أسرتي.

- هل تسافر دائما هناك؟

- نحن نعمل ثلاثة أشهر، ثم نأخذ إجازة لثلاث أسابيع.. وأزورهم حينها لمدة أسبوعين.

ثم قادوا لمسافة، وتوقفوا عند كثبانين مرتفعين، فقال إلجو: هذا البيج بابا. وهذا البيج ماما. والبيج ماما ليست بارتفاع البيج بابا. ولكن عند النظر إليهما يبدو أن بنفس الارتفاع.. ثم تردد وقال:

- لو تريد أن تذهب إلى الأعلى، أعني إلى البيج ماما، فسأبقى هنا مع الطفلة. فأكثر الناس عادة يدورون حولها، ويأتون مع شروق الشمس.. ولكن الهدوء يسود الآن، فقد تركوا الكثبان وشأنها.

فقال هوفمستر:

- نعم أريد أن أصعد عاليا.

قال إلاجو:

- خذ معك ماء.

حصر هوفمستر الحقيبة تحت ذراعه.. وترك القبعة في الجيب.

- ألا تريد أن تترك هذه هنا؟ هذه الحقيبة؟

قال هوفمستر:

- أوه، سأخذها معي، فهي ليست ثقيلة.

ونزل من السيارة.. ومعه زجاجة ماء، ثم انطلق.. فناداه إلاجو:

- هل أنت متأكد؟ يمكنك أن تترك الحقيبة هنا.. فلن يحدث لها أي شيء.

فتصرف هوفمستر كأنه لم يسمعه.

كان الرمل في البداية جامدا.. ولكن شيئا فشيئا أصبحت تغوص قدماه فيه، وتغوص وتغوص حتى ركبتيه.

ولما التفت، رأى أن تيرزا تتبعه.

ولا أثر لحيوان أو إنسان في هذا المكان.. لم يكن هناك غير الرمال بألوانها المختلفة.

كما أنهما ما زالا لم يبتعدا كثيرا، ومع ذلك كانت الجيب تبدو صغيرة وغير محددة المعالم.

كانت كايسا تتسلق أسرع منه.. وقريبا سوف تلحق به. ناداه:

- يجب أن تبقي معي إلاجو.. ابق مع إلاجو.. فسوف يعتني بك.

وأصل التسلق..

كانت ذراعه تؤلمانه.. وأنفاسه تضيق. والصندل يزعجه.. فخلعه من رجله.. وبعد عشرين دقيقة اختفيا عن مجال

رؤية إلاجو.. جلس على الأرض، وبقيت كايسا واقفة.. جسمه قد أعياه التعب.. وفمه قد اكتوى بلهب العطش.. فقال:

- هيا عودي الآن يا كايسا.. علي أن أواصل بمفردي.. فأنا أريد أن أختفي.

كان من السهل عليه قول ذلك. فقد كان غالبا ما يفكر في ذلك، وقد عاش هذه اللحظة دائما بفكره.

نهض واقفا.. وطبع قبلة على جبينها.. ثم أعطاه زجاجة ماء.. ما زالت ممتلئة لنصفها.

تقم إلى الأمام بخطوات ثابتة.. والكثبان تنحدر لمسافة قصيرة، ثم ثم ترتقي ارتقاء شاقا.. فجعل يمشي- على حافة هضبة الكثبان الرملية حيث يرتفع عباب الرمال من الجانبين. لم يكن هناك أي منظر يسد العين، فقط رمال ورمال وكثبان.

رمي هو فمستر الصندل بعيدا، فلم يعد يحتاجه. كان يسقط أحيانا.. ثم يزحف بضعة أمتار على يديه وركبتيه.. نعم، هذا هو الإختفاء.. هكذا يكون الإختفاء، لقد تصوره هكذا.

أحرق حرارة الشمس عينيه، ولكنه كان يشعر أن سحير الحرارة يخف شيئا فشيئا. ثم استدار ليجد كايسا تمشي خلفه على بعد أمتار فقط منه.. لقد كانت تتبعه مرة أخرى. فأطلق اللعنات، وصرخ:

- إذهبي بعيدا! ولوح بذراعيه مهددا لها، لوح بالحقيقية، لكي يظهر لها أنها ينبغي أن تعود إلى السيارة. وتبتعد من هنا.. تبتعد عنه.

ولكن ذلك لم يمنعها من مواصلة الإقتراب.. ولم يمنعها من خفض سرعتها وهي تجري على الرمال كأنها حيوان صحراء.. فلم تغص قدمها مرة واحدة في الرمال.. بل كانت تبدو وكأنها تؤدي رقصة ما.. كأنه عرض بدون جمهور.. فاستدار وتابع لا يلوي على شيء مبتعدا عن كايسا.. ولكنها أسرع منه.. فلحقت به واحتضنت ساقه.

فأراد أن يتخلص منها، ولكنه سقط نتيجة لذلك. فصاح:

- ابتعدي يا كايسا، ألا ترين ما أفعله؟ ألا ترين ذلك؟ ومهدد على بطنه.. والرمل في كل مكان من جسده. في أذنيه وأنفه وفمه، وفي حقيبته أيضا.

جلست الطفلة بجانبه.. تمسح على شعره. فهمس إليها:
- كايسا.. لقد قلت لك أنه يجب أن أختفي.. فاتركيني الآن.

ثم اعتدل جالسا.. وأمسك الطفلة بيديه، وسأل:

- هل تعتقدين أنني مريض؟ هل تظنين ذلك؟ ولكن إذا كنت مريضا، فما الشيء الصحي إذن، ما الشيء الطبيعي؟

ثم نهض واقفا.. ونادى:

- إنني نتاج المدنية والثقافة.. أنا مثال لما يحدث عندما

يسلط البشر الحضارة على الحيوان بداخلهم. هكذا أنا.. لم أرد في حياتي شيئا أكثر مما أردت أن أكون متحضرا.

كانت الريح تخنق دوي صوته.. فواصل سيره. كان يترنح ولكنه واصل سيره. والطفلة لم تستسلم.. وتأخذ بيده تجره إلى الإتجاه الآخر. فمن يراها على هذه الحال يظن أنهما يتصارعان.

ثم رفع، وهو يترنح، الطفلة عاليا لبضع ثوان.. تاركا حقيبته على الأرض، فلا يسري في جسده سوى آخر ومضة من قوة.

وقال:

- انظري.. انظري كم المكان رائع هنا. ولا بشر هنا. ليس هناك غير الرمال. يالروعة! عالم بلا بشر.. هذا هو الجمال بعينه. فالظلام هو الإنسان، ولا شيء غيره إنه أساس الظلام.. والضوء الوحيد الذي يخرج منه هو وهج الحيوان بداخله. ثم أنزلها.. وقال لها:

- لا بد أن أبقي هنا، فلم يعد لي مكان في عالم البشر.. لقد تخليت عن مكاني فيه، وسوف أخرج منه. إنني أنتمي إلى عالم الصحراء.. ولن يرحمني سوى الرمال.

أمسك هوفمستر بالحقيبة واضعا إياها فوق جبهته.. لكي يحمي عينيه من ضوء الشمس الحارق.. وكلما مر الوقت غاصت الشمس وراء الأفق.

ثم جلس مرة أخرى.. وأمسك بالزجاجة التي تحملها الطفلة، وارتشف منها رشفة.. ثم قال:

- في الماضي، كان شهود يهوه يقفون أمام باب بيتي كل يوم أحد بشكل منتظم.. وكنت أفتح الباب في كل مرة.. مع أن زوجتي كانت تعارض ذلك، ولكنني كنت أجد أن على المرء أن يظل مؤدبا.. خاصة إن كانوا قد جاءوا لينقذوا روحك. ثم كانوا يقولون أشياء مثل: "الرب يبحث عنك".. وهكذا أشياء. ولكن في الحقيقة الرمال هي من بحثت عني.. ألا تشعرين أنها تبحث عني؟ وربما كانت هي أيضا من يعنيه شهود يهوه.. لست متأكدا من ذلك. ولكن ما أنا متأكد منه أن الرمال بحثت عني، ولطالما كانت تفعل ذلك.

فتح الحقيبة.. فانسلت منها ذرات من الرمل والغبار..
قال لها:

- انظري.. إنني عما قريب سوف أجلس في مكان ما، في أي مكان هنا، لا فرق عندي، فكثبان رملي هو ككثبان آخر.. ثم أفتح حقيبتي.. وكل ما أحταجه فيها.. أقلام الرصاص الأربعة.. والمخطوطة التي أقرأ فيها.. ودفتر ملاحظات تيرزا.. ومفكرتها.. والآي بود، والشاحن. سوف أضع كل شيء أمامي وأنتظر.. فانا لذي ذكريات جميلة مع الأقلام الرصاص الأربعة، ومع تيرزا.. ملكة الشمس، وكذلك أيضا مع الحقيبة.. فهي هدية من زوجتي. وهكذا سأجلس مع هذه الأشياء وأصبح أكثر هدوءا.. وسأنظر أحيانا إلى الأقلام الرصاص.. ثم إلى دفتر ملاحظات تيرزا.. ثم إلى حقيبتي.. هكذا أتصور الأمر. ثم تأتي الرمال وترحميني.. وعليك أنت أن تعودي ببطء.. لا تسرعي، فلا أريد أن يجديني أحد. فقد كان شهود يهوه يقولون: الرب يبحث عنك.. ولكني لا أريد أن يجديني، ولا حتى البشر- أريدهم أن يجدوني. والآن أنت تعرفين كل شيء.. وعليك أن تذهبي الآن.. فهنا تنتهي لعبتنا يا كايسا.. سوف أواصل لمسافة أخرى.. وعليك أنت أن تعودي.

قام والحقيبة تحت ذراعه.. ولكن كايسا أمسكت بيده ولم تتركها. وتشبثت بها. وفي اللحظة التي أراد فيها هوفمستر أن يهزمها محاولا أن ينسل منها.. عضته في يده.. فصاح:

- آه.. هل جن جنونك؟
لم يكد يُسمع لصوته نبرات.. ولا حتى حيوانات الصحراء يمكنها أن تسمعه.. هو نفسه لا يكاد يسمع صوته.
ونظرا لإرتباكها.. نجحت في طرحه أرضا.. فسقط على الرمل.. وارتقت هي فوقه.. هبت عاصفة رملية فوقه.. فدخلت الرمال في أنفه.. فنفخ.. ونخر.

وأخيرا ارتجف هوفمستر واهتز وجاءت الدموع.. ليس لأنه ينوي أن يختفي.. أو لأنه يأسف على فرصة ضائعة - فإذا كان كل شيء تقريبا هو فرصة ضائعة، فإن فرصة ضائعة واحدة لن تضر بالضرورة- ولا يبكي أيضا لأنه يفقد ملكة الشمس أكثر مما يريد أن يعترف، ولكن لأنه يشعر - وفي الحقيقة هو مدرك تماما - أنه لا يستطيع أن يفلت من هذه الطفلة.. أنه قد عاد ضعيفا مرة أخرى، وعلى ذلك فلن

يختفي أيضا.. ليس بعد الآن.. لن يختفي هكذا، كما كان يأمل، أو كما كان يتصور، أو بالصورة التي رسمها في مخيلته.
وقف ومشى بضع خطوات.. ولكن ليست في الإتجاه الذي كان يقصده قبل ذلك. والطفلة تسحبه للأمام.. وعاد إلى الجيب.. عاد إلى الحياة، التي لم يعد يرغب فيها.
ثم قال:

- كايسا، كيف تفسرين هذا.. ما معنى ذلك؟
ولكنه كان سؤالاً بلاغياً.. فلم ينتظر جواباً، ولم يلق أيضاً جواباً.
وفي منتصف الطريق توقف.. فشرى ما تبقى من الماء في الزجاجة.. ووجد هوفمستر نفسه ينفطر في الضحك، ويقول:
- انظري إلينا.. انظري كيف نقف! نحن نقف في منتصف قمة الكثبان.

نظرت إليه ولكنها لم تضحك.. وأمسكت بيده ونزلت من فوق الكثبان ساحة إياه.. كأنها الحمار وهو العربة تجرها.
سألها الإجو: أين كنتما كل هذا الوقت؟ لقد ظننت أنكما لن تأتيا أبداً.. وشعرت بالقلق حيال الطفلة. ولكن هي من صممت أن تذهب معك يا سيدي.
ثم لاحظ أن هوفمستر لم يعد يرتدي صندله.
- حذاؤك يا سيدي!
فقال هوفمستر:

- تركتها على الكثبان.. ولكن لا بأس.. فالجو حار جداً على ليس الصندل.
والآن كلاهما حافيان.. هوفمستر والطفلة.
ثم صعد إلى السيارة، وخلع قبعته.
فسأله الإجو:
- هل ترغب في شيء تشربه.. سيدي؟
فقال:
- الماء.

جلست الطفلة بجانبه.. محكمة يدها على يده.. كأنها لا تزال لا تثق في الأمر.. أو كأن هوفمستر سوف يبدأ في أي لحظة على محاولة ملعونة جديدة. وهكذا طوال الرحلة.. حتى عادا إلى نزل كولالا ديتسرت.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي واصل السفر إلى الجنوب.. فلم يعد لدى هوفمستر أي أمل في الصحراء.
رأى على الخريطة أنه مازال هناك بلدة صغيرة على الساحل.. تدعى ليودريتس.. فأراد أن يذهب هناك.. أراد أن يحاول هناك مرة أخرى.. يحاول أن يختفي.
وكان يظن أنه سوف يصل إلى هذه البلدة في غضون يوم واحد.. ولكن الشوارع كان سيئة.. فاضطر أن يتوقف في منتصف الطريق عند مزرعة استأجر أيضا غرفة فيها.
كان المزارع وزوجته من أطفال المهاجرين الألمانين.. وهما الآن طاعنين في السن.. ولا يزالان متمسكان جدا بالتقاليد الألمانية.

في البداية لم يرغباً تأجير غرفة لهوفمستر، وسألته الفلاحة:

- أين حذاؤك؟

- لقد فقدته في الصحراء.

فقال المرأة:

- إنك تتحدث الألمانية بطلاقة.. أين تعلمتها؟ لهجتك تنبئ أنك لست ألمانيا، ولكنك تتحدث جيدا.

- تعلمتها في الجامعة.. وكنت علي وشك أن أخرج.
أرضاها جوابه.. وشفعت له موهبة التحدث.

كان هوفمستر يدرك أن الناس الطبيعيين يرتدون حذاء.. ولكن قدماه حقا كانت متورمتان.. وكانت المزارعة، برغم شيخوختها، سليمة العقل، وحكيمة بما يكفي لتدرك أن معظم السياح، الذين ليس لديهم تصور عن الظروف هنا، دائما ما يفقدون أحذيتهم في الرمال، ومع ذلك يمكن أن يكونوا أناسا متحضرين.

حصل على غرفة بسريرين لا يوازيان بعضهما البعض.. والمراتب قاسية، والهواء في الغرفة خانق.. وفي خزانة ملابس وجد ملابساً منسية من أحد الضيوف السابقين: وجد قميصا. وعلى العشاء كان يوجد لحم وملفوف مطهو.. وتحول الحديث إلى الكلام عن إرنست هاينريش جورنيش، والد هيرمان، الذي كان مفوض الرايخ لناميبيا على عهد القيصر.. وقد كان على الأقل يعني بحفظ السلام فيها.

لم يأكل المزارع وزوجته.. فقد أكلا لتوهما، ولكنهما كان يتابعان بعيون ثابتة.. كل ما يأتي عليه ضيفاهما وكذلك ما يتركانه.

قالت الزوجة:

- حتى السكان الأصليين كانوا يحترمونه.
اكتفى هوفمستر بإملاءة كموافقة على قولها.. وهو ينظر
إلى باترينة زجاجية موضوع فيها بعض الخزفيات البورسلين،
وبجانها صليبا خشيا كبير الحجم.
كانت المحادثة تدور بالألمانية.. ألمانية خالصة دون
استعارة أي كلمة من لغة أخرى.
قالت المرأة:

- عندما تصل إلى ليودريتس عليك أن تشتري حذاء
جيدا.. على الرغم من أننا دائما نذهب للتسوق في سوق
كيتمان التجاري.
وفي حوالي الساعة التاسعة قالت:

- إنها التاسعة.. هذا هو منتصف الليل بالنسبة
للمزارعين.. سنطفىء النور الآن.
تيرزا نائمة على الطاولة.

فحملها هوفمستر على ذراعيه وذهب إلى الحجرة.
ولكنه كان مرهقا جدا.. فلا يستطيع أن يخلع ملابسه ولا
ملابس الطفلة.. فتمددا على السرير كما هما بملابسهما..
متعرق ومتسخة ومتكسرة.
وفي الصباح على الإفطار جلس المزارع وزوجته ينظران
لهوفمستر وكايسا.. فعلى ما يبدو أنهما هنا يعتبران من المعالم
الأثرية.. ولا يمر سياح كثيرون هنا، ومن يمر.. يمر مسرعا لا
يعرج عليهما.

ودار الحديث عن الطقس الجاف.. فقال المزارع:
- يلزمنا من سنتين لثلاثة سنوات حتى نحصل على بقرة
سمينة.
قال ذلك والأسف باد عليه، ولكنه في خشوع تام.. وأكمل
يقول:

- تقلصت أعداد قطيعنا.
ثم أشار إلى امرأته وقال: والآن نحن نتقلص.
كانت هذه آخر كلمات سمعها هوفمستر منهما.. فقد قام
بعدها مباشرة ودفع الحساب.
ولما جلسا مرة أخرى في السيارة ونظر إلى الطفلة.. تبين
له أنه يسافر معها منذ زمن في هذا البلد.. وأن عليه أن
يتوقف عن ذلك في وقت ما. فلا يمكن لأحد أن يظل هكذا

متنقلا من مكان إلى آخر.. وما قاله عن الطفلة ينطبق عليه، بل ينطبق عليه أكثر مما ينطبق عليها.. وأكثر وأكثر: إنه بلا مستقبل.. ليس كما كان يأمل، ولا شك في ذلك. كما أن عدم مقدرة على الاختفاء حتى الآن.. وعدم معرفته كيف يحدث هذا.. كل ذلك يجعله في حيرة من أمره. كما أنه لا فكرة لديه كيف يودع المرء حياته.. مع أن ذلك لا يمكن أن يكون بهذه الصعوبة.

وعلى بعد ستين كيلومترا من هذه المنطقة حدث ثقب في الإطار.. فنزل هوفمستر وكايسا معه من السيارة.. كانت الشمس حارقة.

ولكنهما كانا يحتاجان للمساعدة.. فبرغم أن لديهما إطارا احتياطيا إلا أن هوفمستر لن يتمكن من رفعها بمفرده.

فظلا واقفين على حافة الطريق، ليلوحا للسيارات المارة. ولكن لم يمر إلا بعض السيارات القليلة.

وضع هوفمستر حقيبته أعلى رأس الصبية لكي يحميها من أشعة الشمس.. لم يتفوها بكلمة أثناء وقوفهما.. ولكنها ظلت واقفة بالقرب منه.. تبقي عينها عليه.. خاصة عندما توارى قليلا خلف الشجيرات ليتبول.

إنها لا تزال غير واثقة في هذا الأمر، وتشعر بالقلق من أن يقدم مرة أخرى على محاولة الاختفاء. وكلما بان له الخوف في عينها.. وكلما أدرك أكثر بهذا الخوف.. كلما اتضح له أن محاولة الاختفاء لن تكون بالشيء السهل.. وأنه أيضا ربما قد ضيع الفرصة.

والأدوار مازالت كما هي.. إنه الآن أسير لدى هذه الفتاة. وأخيرا جاءت سيارة جيب فيها اثنان أبيضان جنوب إفريقيان، فساعداهما على تغيير الإطار.. ولم يستغرقا سوى عشرين دقيقة. وعرض هوفمستر عليهما نقودا.. لكنهما رفضا ساخطين، وقالوا:

- هنا نساعد بعضنا البعض.. فكل واحد منا بحاجة إلى الآخر.

أفاض هوفمستر وأسهب في شكرهما.. ثم انطلق مواصلا رحلته.

توقف أمام تقاطع وحدق قليلا في رقيقة السفر.
وقال:

- لست أنا الحل.. بل إنني المشكلة.. ألا تفهمين ذلك؟

ولكن من الواضح أنها لا تفهمه.. لأنها أمسكت بيده.. وضغطت عليها.. ثم طبعت قبلة عليها.
وبعد فترة وجيزة عاد طريق الأسفلت.. وأصبح لديه استقبال.. فقد عادت الشبكة إلى الهاتف. وقد كان شخص ما يحاول الإتصال به.. إنها زوجته كما يبدو.
ثم توقف عند إحدى محطات الوقود.. وغادر السيارة لكي يمدد ساقيه ويعاود الإتصال. وبقيت الطفلة في السيارة.. تتبعه بنظراتها.. لا تدعه يغيب لحظة واحدة عن ناظرها.
وقف تحت شجرة.. وأثناء وقوفه تحتها حصل على اتصال بأمستردام.
لم يستغرق الأمر أكثر من لحظة حتى أسرع الزوجة إلى الهاتف.
فقال:

- لقد اتصلت.. ما الأمر الملح لهذه الدرجة؟
- قالت وصوتها يبدو فيه القلق والعصبية:
- من الجيد أنك عاودت الإتصال.
- أثار صوتها قلقه.. كما في الماضي عندما كان يسمع صوتها.. أن شيئاً ما كان في الشجرة.. و"شيء ما" هذا كان دائماً نفس الشيء: كان دائماً رجلاً.
- لقد وجدوها.
- من؟
- تيرزا، يا يورجن.. من غيرها؟ لا بد أن تأتي للمنزل.
- وللحظة ساد فيها الصمت.. وألقى نظرة على الفتاة الجالسة في السيارة.
- ثم قال أخيراً:
- نعم، نعم.
- فلتأتي سريعاً قدر الإمكان إلى المنزل يا يورجن.. هل تعديني بذلك؟
- فكرر قوله:
- نعم.. نعم.
- يورجن.. هل تعديني بذلك؟ يجب علينا الآن أن لا نتخلى عن بعضنا.. يورجن....
- قطع الإتصال.

ومشى يجر خطواته نحو السيارة.. وطاقم محطة البنزين
يتبعونه بنظراتهم.
جلس هوفمستر أمام المقود.. ومسح على خديه المكسوان
بالشعر الخفيف.
سأل الطفلة:

- هل نشترى وجبة خفيفة؟ هل لديك رغبة في أكل
الحلوى؟ الشيكولات؟

كانت ليودريتس مكانا ذكر هوفمستر بالدول
الإسكندنافية.. فهو أقرب إليها من الدول الأفريقية. فالبحر
بارد.. والرياح تهب شديدة.. حتى أن عواءها لا يكاد يحتمل..
حتى مع إغلاق نوافذ غرفة الفندق.. والميناء البحري
متدهور.. ومستودعات التخزين خاوية.. والمطار برج صغير
في الصحراء، ومدرج رملي.. ولا شيء غير ذلك.
كان الفندق الذي نزل به هو والطفلة يدعى "فندق
نيست".

لم يخرج هوفمستر من الغرفة لثلاثة أيام.. يجلس فقط
على السرير، ويشاهد التلفاز.. أو يستمع إلى الراديو. وفي
المساء يطلب خدمة الغرف. وقبل النوم يعلق ورقة على
الباب بها ما يريده على الإفطار في اليوم التالي. وكانت نفس
الشيء دائما: بعض التوست له مع المربي، وللطفلة الزبادي
والفاكهة.. وبالطبع القهوة والكاكاو.

وغير هذا لم يكن هناك الكثير لفعله.. كان يشعر بأنه لا
يكاد يوجد شيء ليفعله.

هكذا كان شعوره.. وكان الوقت يتبدد بين غرفة الفندق،
وسرير، وطفلة.. وعكس المستقبل طفلة.. لطالما عرف ذلك..
فبالنسبة لكايسا يعتبر اليوم بمثابة سنة معها. وهناك لحظات
يشعر فيها بالارتياح.. وهي اللحظات الخالية من التوقعات
والآمال في خطط صغيرة أو كبيرة.

وقد كان اشترى بمجرد وصوله أقلام تلوين ومبراة ولوحة
رسم من متجر لبيع القرطاسية. ولكنه لم يشتري حذاء.. ولكن
اشترى أيضا بونبون وشيكولا.

كان سائحا من الشمال حافيا.. يحمل حقيبة تحت
ذراعه.. ويرتدي قبعة.. ولكن هذا المُنظر لم يكن شيئا عجيبا
في ليودريتس.. فمعظم السياح قد أصبحوا مجانين بإفريقيا..
فيتفتنون وتذوب معالم شخصيتهم.. ولا يعودون أبدا إلى
ماكانوا عليه.. بل وتبدو على ملامحهم ألوان محيطهم.

جلست الطفلة ترسم، وهوفمستر يتابع حركتها.. ومن حين لآخر يتحول إلى النافذة وينظر إلى البحر. ولكن النوافذ كانت متسخة.. فلا يفيد أي شيء هنا في تنظيف النوافذ.

هاجت الذكريات بداخله.. وخاصة الجزيئات التي لا ترتبط بالضرورة مع تفاصيل أخرى.. مثل المحفظة الوقائية.. والحذاء الصغير الأزرق.. والـ إم إس ١٧٠.

ورذاذ الموج يقفز حتى يعلو النافذة.. وإذا صدعته ضوضاء الأمواج.. فإنه يرفع صوت الراديو.. فالإذاعة الألمانية كان إرسالها يأتي هنا أيضا.

ويستغرق في السماع.. يستمع إلى الموسيقى وإلى اتصالات المستمعين الذين يشتكون من سوء خدمة توصيل البريد.. أو أحيانا يبحثون عن شيء ما: نزهة إلى كايب تاون على سبيل المثال.

شغل هوفمستر هاتفه المحمول.. فهو ينتظر سماع رنينه.. بشكل ملح.. ربما بشكل ملح أكثر من ذي قبل.. ولكن ترى ما الذي يعنيه هذا؟

كان يأخذ دشا مرتين كل يوم.

وداهمته أفكار عن الشعراء التعبيريين وعن مقاييس الشعر التي لم تكتب أبدا.. وأفكار عن الحب الذي أعلن وفاته والتخلي عنه.. ولكن على الجملة: لم يكن كل هذا إلا وعدا من الوعود التي لم يحفظ أبدا كلمته فيها.

وقهر الساعات ويتضح له أنه لن يبقى هنا أيضا.. أنه لن يستطيع هنا أيضا، في ليودريتس، أن يختفي.. على الرغم من أن البحر قد أظهر له تعاطفا كثيرا كما فعلت الرمال.. وهو لا يشك في ذلك.. ولكنه قد ضيع فرصته. وهو الآن عالق هنا في "نيس" هوتيل مع طفلة لم تعد غريبة عنه. ما أسرع حدوث هذا.. ما أسرع أن يتوقف الآخر عن كونه غريبا.

أصبح لديه ماضٍ في ناميبيا.. وهو الآن رجل صاحب تاريخ.. ولذلك عليه أن يعود.. يعود هناك من حيث أتى.. فقد اتصلوا به من هناك.. ويريدون أن يتحدثوا معه.. وسبب كل هذا ليس إلا أن فكرة أن يمر الفعل دون عواقب هي فكرة لا تحتمل.. فعدمية العواقب شيء محتقر في المجتمع.. فاللعب ذات نفسه لابد وأن يكون له عواقب.

أصبح عالقا في تردده.. فالعودة أسوأ من الإخفاء.. بل العودة أسوأ من الموت.

وفي اليوم الرابع من إقامتهما قال هامسا لكايسا وهي تجلس على السرير ترسم.. وفمها ملطخ بالشيكولا:

- أتعرفين.. عندما كانت تيرزا في الثالثة من عمرها.. ذهبنا معا لأول مرة في عطلة للتزلج. مع أن والدائي كانا يعتبران رياضة الشتاء جنونا. وفي الصيف كنا نذهب لثلاثة أسابيع إلى ليمبورج وفيرتيج. وكان ذلك كافيا. فما الفائدة من تبديد المال؟.. ولكنني كنت أقول: لابد أن تتعلم تيرزا التزلج.. فكلما تعلمت ذلك مبكرا.. كلما كانت أفضل. إنها حتى قد اشتركت في منافسات. لكم كانت جيدة.. ولكنها كانت أفضل بكثير في السباحة.

استلقى فوق السرير على وجهه.. والطفلة تواصل الرسم.. ولكنه لا يستطيع أن يرى إلى ماذا ستؤول في نهاية الأمر.. ربما بيت.. وشجرة.. والشمس.. وانسان.

كان يتحدث معها بلا تكلف.. كأنهما يعرفان بعضهما منذ سنين.....

جلس هوفمستر صامتا يستمع إلى الراديو.. فيستمع إلى أغنية بوب.. ثم تليها أخرى بوب أيضا.. لا شيء سوى البوب. مسح لكايسا فمها.. وهو يقول:

- أنا لم أقم بالتزلج أبدا.. كنت أكتفي بالجلوس أسفل التلة وأنتظرها.. أو في الفندق.. أو في طريق التزلج بجوار إحدى الأشجار.. وفي بعض الأحيان كنت أراها تمر أمامي كالبرق.. ولكنني في البداية.. عندما كان عمرها ثلاثة أعوام.. كنت أجري خلفها.. خلال الثلج.. فلم تكن حينها تتزلج بسرعة.. فكنت أتبعها في حالة إذا سقطت.

نظرت إليه الطفلة.. بطريقة مختلفة عن ذي قبل.. كانت تنظر إليه

كأنها تنظر إلى صديق مخلص.. فقال لها:

- أتعرفين.. أتعرفين يا كايسا ... ربما يبدو ذلك غريبا، ولكنني أعتقد أنني كنت في مثل سنك في يوم من الأيام.. إنني.....

لم يعد يعرف ماذا يريد أن يقول.. بلى يعرف.. بالطبع يعرف.. إنه يريد أن يقول: أنه، يورجن هوفمستر، الراشد.. المحاضر في أدب اللغات الأجنبية.. ليس موجودا في الواقع.. ولم يكن موجودا أبدا.. بل كان ذلك دورا.. استطاع أن يقوم

به الطفل هو فمستر.. وأداه بمهارة ودقة. وفي نهاية الأمر لم يكن كل ذلك إلا لعبة.

أخذ كايسا بين ذراعيه.. وغطى جسدها بالقبلات.. والراديو يرسل موسيقاه أثناء ذلك.. امرأة فيه تغني:

- دعنا نحيا كل حلم.. ونعطي لكل لحظة حقها.

لم يتوقف هو فمستر عن تقبيل الطفلة.. كان يقبلها دون تفكير.. يقبلها كأن هذا شيء مفروغ منه.. في كل جزء من أجزاء جسدها.. رأسها.. وظهرها.. وبطنها. يقبلها كأنه يطارده شيئاً ما.

حاول أن يشرح لماذا بقي دائماً في سن التاسعة من عمره.. ولكنه لم يتذكر أي شيء.. فهو لا يكاد يذكر نفسه وهو في التاسعة من عمره.. لا يكاد يذكر كيف يبدو؟ أو ماذا كان يرتدي؟ ماذا كان يقول له والداه.. وماذا كان يقول لهم؟ فذاكرته كصحراء جرداء.

إن الشيء الوحيد الذي يعرفه أكثر من أي شيء آخر، بل متيقن منه.. أنه في الأساس لم يكن أبداً إلا صبي ذو تسع سنوات.. بالطبع قد نما جسمه وواصلت أعضائه النمو.. القدمان.. والرأس.. والأنف. كل شيء قد أصبح أكبر.. ولكن البقية بقيت كما هي لم تنمو. فتوقف حينها نحو قلبه وروحه.. إذا كانت تسمى هكذا. وعلى الرغم من أنه على وشك سن التقاعد إلا أنه على يقين أن عمره لم يتعد عمر كايسا. والمرأة في الراديو تواصل الغناء: هل أنت مستعد لموعداً؟

أعجبه اللحن فأخذ يدندن معها.. ثم همس:

- كايسا.. يجب علي أن أعود.. إنهم ينتظرونني.

لم يقل من ينتظره.. فهو نفسه لا يعرف من ينتظره بالضبط.

أمسكت الطفلة بأقلام التلوين وواصلت الرسم.. وهو يدلك كتفها.. وينظر إلى البقع التي خلفتها الشيكولاه وأقلام التلوين على

غطاء السرير.. ولكن لا بأس بذلك فسوف تخرج.

ارتدى ملابس له لأول مرة منذ ما يقرب من ثمانية وأربعين ساعة.. بل إنه ارتدى ربطة عنق أيضاً.. كبديل لعدم وجود الحذاء.. ثم ألبس الطفلة أيضاً.. التي شيرت والبنطال الرياضي.. اللذان قد غسلهما بيديه.. ثم قال لها:

- هيا.. سنذهب للتنزه.

كانت الرياح تكاد أن تطوح بهم.. أو تلقي بملابسهما عن أجسادهما.. أو بقبعة هوفمستر عن رأسه.. فلا يجدان ملجأ إلا بيتا أو جدارا من حين لآخر.. ثم يمشيان محترسين.. فرما يكون في الشارع قطع من الزجاج.

والطفلة تتشبث به.. ولم يعد الآن يقلق بشأن حالته الصحية.. فقد أصبح على يقين أنه ليس مريضا.. فالمرضى لا يمكنهم التعرف على الحقيقة.. ويسمعون أشياء ليست موجودة.. ويرون كذلك أشياء ليست موجودة.. أما هو فكل ما يسمعه أو يراه موجود.

كان شعورا جميلا أن يمشي بجانب كايسا.. فوجوده في حياتها شيء طبيعي وبديهي.. أو هكذا يجب أن يكون. وفي تيراس أحد المراكز التجارية، الذي كان في نظر هوفمستر بالغ الحدأة، جلس كلاهما يشربان الشاي بالحليب المحلى بكثير من السكر. لم يكن لديه أمل ولكنه لم يكن مريضا.. بل على العكس تماما: إنه أشد صحة.. إنه، يورجن هوفمستر، إنسان صحيح البدن. وبينما يجلسان قال لكايسا:

- سأعود.. إنني سأعود، وربما يمكنني أن أتباك.. فلن يكون ذلك عسيرا.. ثم أصطحبك معي إلى أوروبا.. وهناك تحصلين على تعليم جيد.. ربما أكون مخطئا.. فما زلت لا أعرفك جيدا بالقدر الكافي.. ولكنني أعتقد أنك موهوبة.. موهوبة جدا.

موهوبة جدا.. كانت طريقة نطقه لهذه الكلمة.. كمثل طريقة من يتحدث عن الله أو النبي. ثم ذهبا إلى داخل المدينة.. مارين بالكنيسة.. ثم بمحطة قطار لم تعد محطة قطار، وجدران عليها كتابات ونصوص بالإنجليزية مثل "حاربوا الإيدز، بشر بدون إيدز". وغير ذلك لم يكن هناك الكثير لرؤيته. ولما ظهر الشفق عادا إلى الفندق. قال هوفمستر:

- يمكنني أيضا إنشاء مؤسسة.. مؤسسة للأطفال مثلك.. للأطفال في تاميبا.. الذين يتكسبون المال من الشوارع.. كم عددكم يا ترى؟ ألف؟ عشرة آلاف؟ هل تعرفون بعضكم؟

كان الناس يختفون مع حلول الظلام.. وتصبح ليودريتس في المساء مدينة أشباح.. أكثر بكثير من النهار.. على الرغم أنها تكون في ذلك الحين أيضا قريبة بعض الشيء إلى مدينة أشباح. إجازة ونسيان تحت عواء الرياح المستمر.. لكم جن جنون هوفمستر.
قال:

- سأسافر عما قريب يا كايسا، ولكنني سأعود. لابد أن أرتب شيئا.. وعندما أعود سأقيم مؤسسة.. وربما أستطيع أن أعيش معكم؟ مع أطفال الشوارع؟ في بيت أو في خيمة.. وسوف يمكننا أن نبيع شيئا ما مع بعضنا.. يمكنني مساعدتكم بإقامة منظمة.. فلقد عملت مرة بالتعاون مع إتحاد مترجمي الأدب.. ولم يكونوا في بادئ الأمر يعملون تحت منظمة.. والمبدأ هنا نفسه.

لم يأكلا في غرفتهما لأول مرة منذ وصولهما إلى ليودريتس.. فأكلا هذه المرة في صالة الطعام. وفي هذا الوقت كانت مجموعة سياحية قد وصلت.. حافلة تقل حوالي أربعين من الرجال والنساء. كان طعم حساء المشروم تشويا.. والجمبري جاف.. فتجشأ هوفمستر.
وأثناء تناول التحلية كان يغني لكايسا بصوت منخفض:
ري دي.. ري دي.

ولما اكتفى من الغناء همس إليها: إنه لمن الجميل أن أجلس معك هنا.. لقد أحببتك كثيرا.
عبثت بالملعقة وهي تسأل:

- هل تريد رفقة ياسيدي؟
لم يعد ذلك سؤالا.. إنه تأكيد على وجود حالة ما.
لم يذهب بعد الطعام إلى الحجرة مباشرة.. ولكنهما جلسا في البار.. وقبل ذلك أحضر- بسرعة لكايسا أقلام التلوين وبعض الأوراق.. ثم
طلب نبيذا وكولا.. وجعل ينظر إليها وهي وترسم.

إنه ليس سعيدا.. ولن يسمى ما يحدث هنا سعادة.. أبدا لن يسميها كذلك.. ومع ذلك فإنه شعر لبضع ثوان بسعادة لا يمكن إنكارها.. سعادة وهمية ولا يمكن إدراكها.. سعادة جاءت من العدم وعما قريب أيضا سوف تختفي في العدم.
وفي المساء قبل أن يخلدا للنوم همس إليها:

- سوف أعود لأتيناك.. فأنا مازلت صغيرا لكي أصبح أبا مرة أخرى.. يمكنني فعل ذلك لسنوات.
وفي الصباح التالي مبكرا سافرا باتجاه ويندهوك عبر كيتمان شوب.. فقد كان يعتزم أن يصل إلى مطار ويندهوك الدولي في يوم واحد.. ولكن المساء كان قد حل عندما كانا في ماريتال.. والمسافة من هناك إلى المطار تستغرق من ثلاث إلى أربع ساعات على الأقل.. فقرر أن يقضي- الليلة في ماريتال.

كان هناك فندقا.. ففي كل مكان يوجد فندق.. وسرير وحمام وخزانة ملابس.. وبضع شموع.. كان بإمكانه أن يظل لفترة على هذا الحال.. متنقلا من فندق إلى فندق.. مع الطفلة.. والقبعة والحقيبة.. متخفيا عن كل شيء.. ولكن عليه أن يعود إلى هولندا.. عليه أن يعود إلى الفان ايجنزترات. ولكي يتبنى كايسا، لابد أن يعود.. وأن يوضح ذلك بتفصيل أكثر.

للحظة ظل مندهشا من أنه لم يقدم على ذلك في الماضي.. أن يتبنى طفلا.. ولكن لماذا يتبنى المرء طفلا لا يعرفه؟ إنه يعرف كايسا.. وهي تعرفه.. وهما متكيفان معا.. ويكملان بعضهما.. ويحب كلاهما الآخر.. كلا الإثنين كذلك.

وفي ماريتال اشترى حذاء له وصندلا للطفلة. وكان حذاءه أسود اللون.. وصندلها بني اللون. ولم يكن المحل في الواقع محلا لبيع الأحذية.. بل كان أقرب إلى سوبرماركت.. ولكن لم يكن يهتم ذلك.. فهما الآن لم يعودا حافيين.

كان الحذاء يضغط على قدميه.. ولكن من الواضح له أنه لن يستطيع أن يصل إلى شيفول حافيا.. فسوف يلقون القبض عليه مباشرة.. فقد تغير الزمن.. وأصبح الخطر في كل مكان.

كانت كايسا فخورة بالصندل.. واختلفت طريقة مشيها به.. فأصبحت تمشي كسيدة.

وفي المساء وهما جالسين في صالة الطعام الصغيرة قال لها:

- يمكنني.. يمكنني أن أعلمكم.. إذا كنت ساعيش هنا.. يمكنني أن أعلمكم الألمانية، على سبيل المثال.. أو أقرأ لكم.. وأن أقص عليكم من روايات تولستوي، الذي كان يجد أن الأدب والفن لا يجعلان الناس سعداء.. ولذلك رفض أعماله.. ولكن يجب علينا أن نضع خطة.. فخطة المعركة مهمة جدا. فماذا تحتاجون، أنتم يا أطفال الشوارع.. يامن تبعون

رفقتكم؟ أنتم لا تملكون مسكنا، وأيضا لا تملكون أحذية.. وعلى المرء أن يحدد الأولويات.. فمن لا يملك مسكنا ولا حذاء.. يحتاج أول ما يحتاج إلى حذاء.

لم تجبه الطفلة.. ولكنها أمسكت بيده، على رغم أنها لم تأكل بعد، كأنها تشعر بأنه سيختفي مرة أخرى، بأنه يريد أن يهرب من هنا مرة أخرى.. وجعلت تأكل بيد واحدة.. لأنها لن تترك يده.

اتصل بزوجته بعد أن انتهى من طعام العشاء.. قال:

- سأسافر غدا.. أردت فقط قول ذلك لك.

فأجابت:

- يجب أن تأتي سريعا قدر الإمكان.. لقد حاولت بالفعل أن أصل إليك طوال الوقت.. إنهم هنا.. و... و.....

لم يعجبه صوتها.. فهي متوترة.. وخائفة.. وكذلك لا تشعر بالأمن. " سأخبرك بكل شيء عندما تكون هنا.. الكل يبحث عنك.. وينتظرونك.. حتى الصحفيين أيضا يتصلون.. أين أنت؟

- ألم أقل لتوي: سأسافر غدا.. إذا سأكون عندك بعد غد عصرا.. إنني في ناميبيا.. أين سأكون؟ لا تقلقي.. كل شيء سيكون على ما يرام.

- يجب علينا الآن أن لا نتخلى عن بعضنا.. ما كان لنا أبدا أن نتخلى عن بعضنا.

فقال ولم يكن لديه أي فكرة ماذا تقصد:

- نعم.. أنا لم أتخلى عنك أبدا.. أليس كذلك؟

- يورجن.. تعال سريعا قدر الإمكان إلى المنزل.. أرجوك.. فأنت إذا جئت الآن.. فسوف يمكننا
فهمس إليها:

- كل شيء على ما يرام.

وبهذه الكلمات أنهى المكالمة.. وأغلق المحمول.. فلم يكن يريد أن يزعجه أحد الآن.. في الساعة الأخيرة.

طلب من استقبال الفندق أن يتصلوا بخطوط جنوب إفريقيا الجوية، ويحجزوا له علي طائرة العودة غدا.. فكان هناك لغطا كثيرا لأنه قد نسي.. أن يسجل الحجز في الوقت المناسب.. ولكنه عندما بدأ يقص على السيدة من خطوط جنوب إفريقيا الجوية قصة إختفاء ابنته.. قالت:

- أنا أهتم لذلك يا سيد هوفمستر.. وأن يكون كل شيء على مايرام.. وأتفهم أنك كنت تحت ضغط ظروف أخرى.
سأل كايسا:

- كايسا، ما رأيك.. هل ترغبين في القيام بنزهة ليلية صغيرة؟

تنزهها خلال مارتينال.. خلال الشوارع الخالية.. لم يكن شيء مفتوحا غير محطات البنزين.
قال هوفمستر بينما يشتري علكة النبيذ من إحدى محطات البنزين:

- إنني أشك.. إنني أشك دائما.. أعني: ما حدث وهو قد يكون لم يحدث.. إلى أي مدى يمكن لأحد أن يثق في لعبة؟ لقد كنت ألعب أيضا مع زوجتي. وكان وقت اللعب في المساء.. كان دائما في المساء.. وكنت أنا الحيوان.. دائما كنت أنا الحيوان. ولما ولدت أولى ابنتي، كنت ألعب دور الأب.. وفي دار النشر.. كنت ألعب دور المحرر.. لقد لعبت دائما.. لم أستطع فعل شيء غيره.

انحنى عليها وأمسك بيديه وجهها برفق.. وهما في وسط الطابور ينتظران أن يدفعا: لأنني في الواقع تماما في مثل عمرك.. ولذلك كنت ألعب دائما.. فقط ليس مع تيرزا.. بل كان شيء آخر.

لم يستطع الاثنان النوم في هذه الليلة.. كانت ترسم، وهو يحدق في السقف.. ولديه فكرة قائمة لا يستطيع أن يمسك بتفاصيلها.. ولكن هذا الذي ينتشر أمامه في مخيلته، وليس لديه فكرة عنه، إنما هي حياته.

سوف تقلع طائرته متجهة إلى يوهانس برج في تمام الثالثة وعشر دقائق بعد الظهر.. فكان هناك في مطار ويندهوك في حوالي الثانية عشر.. كان قد أعاد سيارته إلى هيرتز.. فاعتبروها قد لحقها الضرر.. فلم يحتاج هوفمستر.. وألقى كل اللوم على نفسه.. حتى تلك الأضرار التي لم يتسبب فيها هو. ثم أحضر.. كل ما يستطيع أن يحضره من نقود من ماكينة الصراف الآلي.. ووضعها في حقيبة اليد بعد أن فحصها.

سأله الستيوارد في شركة الخطوط الجوية لجنوب إفريقيا:

- هل ترغب أن تأخذها معك كحقيبة يد؟
نظر هوفمستر إلى الحقيبة التي كان يسافر بها قديما إلى البعثات وقال:

- لا.. سأعتبرها حقيقة سفر.
والآن ليس معه سوى حقيقة اليد.
تجول هو والطفلة معا في المطار بلا هدف.. ينظران إلى
المسافرين، ويأكلان برغر الدجاج.. ويزيلان الإضافات التي
فيه.. لأنهما لم يريدتا أن يأكلا سوى الدجاج.. ولكنهما في
النهاية أيضا.. تركتا نصف اللحم.
جلسا خارجا على أحد المقاعد.. أمام صالة السفر..
فشاهدا سياحا معهم زرافات خشبية كهدايا تذكارية.. فلم
يملك الاثنان إلا أن يضحكا قليلا بشأن ذلك.. يضحكا من
الزرافات المصنوعة من الخشب.
لم يعد الأمر يحتمل التهرب.. عليه الآن أن يذهب إلى
نقطة تفتيش الجوازات.. عليه أن ينطلق.. هنا سوف
يتوقف.. هنا الحدود.
جثا على الحشائش بركبتيه أمام كايسا وقال:
- إنني سأذهب الآن.. لابد وأن أفعل ذلك. ولكنني
سأعود.. أعدك بذلك.
أمسك بحقيقة اليد.
وقال: انظري سأترك لك هذه الأشياء.. إنها لك.
وفتح الحقيقة.. ثم قال:
- أربعة أقلام رصاص.. ومبراة.. والآي بود الخاص بتيرزا..
والشاحن.. وموسيقى تيرزا.. ودفتر ملاحظاتها.. ربما يمكنك
كتابة أو رسم شيء فيها.. ومفكرتها. ومخطوطة أحد الكتاب
الأذربيجانيين.. انظري بماذا ستبدئين. وهنا في هذا الجيب
يوجد المال.. ولكنني سأعود.. أعدك بذلك. في هذه الورقة
سوف تجدين رقم هاتفني وعنوان منزلي في أمستردام.. في أي
وقت عندما تريدني.. اتصلي بي... و، أوه نعم، مازال هناك
اثنتان من علكة النبيذ.. هاك خذيهما.. ولكن لا تكثري
الأكل منها.. فذلك ليس صحي.. عليك....
نهض ونظر إلى الساعة في يده.. فأمسكت بيده.
فجثا هو فمستر على ركبته مرة أخرى.. وهمس:
- سأعود يا كايسا.. هذه الحقيقة هي الضمان.. فطالما
هذه الحقيقة معك.. فأنت تعرفين أنني سأعود.. فحياتي
تكمُن في هذه الحقيقة.. ولذلك يجب أن أعود مرة أخرى.. لا
يمكنني غير ذلك.. فكل ما أملكه فيها.. ويجب عليك أن
تعتني بها.. كما اعتنيت بي.

ضمها إليه وهمس إليها:

- كايسا.. كايسا.. إنني أسامحك.. إنني أسامحك على أنك لم تسمح لي بأن أختفي.. وأنت أغويتني لكي أبقى هنا.. أسامحك على كل شيء.. ولكن علي الآن أن أذهب.
نظر حوله.. من الواضح أن لا أحد ينظر إليهما.. همس إليها:

- إنني لا أعرف كيف يموت المرء.. كيف يمكن لمرة أن يموت.. وهو يعرف أنه لم يلعب دورا في حياة بشر.. ما.. ولا حتى في حياته نفسه. ماذا يفعل المرء عندما يدرك أن - مع اعتبار إمكانية ذلك، أو جدية إعتبار ذلك - لا أحد قام بفعل شيء لأحد.. وإن لا أحد مهم بالنسبة لأحد.... كايسا، إنني سأعود لكي أتعلم الموت.. مازلت لا أستطيع فعل ذلك.. ولكنك سوف تعلميني ذلك.. سوف أعطيك دروسا في اللغة الألمانية، وفي المقابل تعلميني كيف يموت المرء.. هذه هي الصفقة.. اتفقنا؟

وبدا يغني لها:

"بعيدة المنال

تلك هي القلوب القاسية.

ونسي الكلمات التي تليها فجعل يدندن:

ري دي ري دي ري دي.

واستدار مبتعدا عنها.. غير معتاد على أن يمشي.. بدون حقيقة.

فجاءت وراءه، وأمسكت بيده.

فانتزع يده من بين يديها وهمس دون أن ينظر إليها:

- يجب أن أذهب.. ولكنني سأعود.. هيا اذهبي إلى المدينة.. سأعود يا كايسا.

عادت فأمسكت بيده مرة أخرى.. ملح بطرف عينه كيف أن الحقيقة كبيرة عليها.. فهي تقريبا كمنزل بالنسبة إليها.. ولا تزال الحقيقة القماشية زاهية الألوان التي اشتراها من أجلها في ويندهوك لكي تستطيع أن تحفظ مالها فيها، تتدلى حول كتفيها. فمن يبيع الرفقة، يحتاج لأن يحفظ نقوده بشكل جيد.

والآن هو يوشك على الوصول إلى نقطة تفتيش الجوازات. كانت الطفلة قد تم الاحتفاظ بها من قبل أحد موظفي الأمن.. فاستدار وناداه:

- سأعود يا كايسا.. سأعود.
ولوح بيده.. ثم لوح بقبعته.. وشخص وفي الصف يدفعه
للأمام، فنادى مرة أخرى:
- سأعود.

ثم غابت عن ناظره.
لم يكن الصف طويلاً. فأعطى جوازه لموظف الجوازات.
وبرغم من أنه لم يعد يرى الطفلة.. إلا أنه سمع فجأة
صوتها تصرخ في صالة التفتيش، وصوتها يعلو على كل
ضوضاء، تقول:

- هل تريد رفقة ياسيدي؟
وضع الضابط ختماً على جواز سفره.. واستعاده
هوفمستر. وسمع مرة أخرى صوت كايسا الصارخة في صالة
التفتيش في مطار ويندهوك وهي تقول:

- هل تريد رفقة ياسيدي؟ سيدي؟
اضطر هوفمستر أن يستند على شباك ضابط الحدود..
فقد شعر بأن كل ما بداخله سيخرج.. وبدأ يرتجف.. ولكنه
تماسك لكي يتحكم في نفسه، ولا يفقد السيطرة عليها.. فيقع
ضحية لهذا الدافع: فيجري عائداً إلى صالة التفتيش.. ويأخذ
كايسا بين أحضانه.. ثم يستأجر سيارة، ويذهب مبتعداً..
فيختفي معها.

والآن يعرف هوفمستر ما هو البديل للموت، ويفهم
الآن.. ماذا يحدث مع الناس الذين لا يختفون في الوقت
المناسب.

وفي صباح اليوم التالي مبكراً وصل إلى زيورخ، وكان في
شيفول بعد الظهر. كانت السماء غائمة بعض الشيء في
أمستردام ودرجة الحرارة ثمانية عشر- مئوية.. وفي نقطة
المراقبة لم يحتاج غير أن يرفع يده عالياً وهو يمسك بجواز
سفره.

قرر أن يستقل القطار إلى أمستردام - زويد.. ومن هناك
استقل الترام رقم 5.

فكر قليلاً: ماذا يا ترى موقف كايسا إذا جلست في الترام
رقم 5؟ ماذا سيكون موقفها عندما ترى الترام؟
كان يرى المدينة بعين كايسا.

ثم نزل في ناصية ويلم شيارك فيج / فان بايرشترات..
فكان كل شيء مألوفاً له وغريباً في نفس الوقت.. لأنه ينظر
إليه بعيني كايسا.

حقيته ليست ثقيلة.. والطريق لم يعد بعيدا.. فيمكنه أن
يذهب على قدميه، ولكنه قرر أن يستقل الترام في المحطتين
الباقيتين.

ولماذا لا يفعل ذلك؟ ويستخدم الإنجازات الحديثة.. فهي
تخدم البشر.

كان كل شيء يبدو غريباً له.. كل شيء غير واقعي..
وسخيف.. وما هو إلا ديكور مائة بالمائة.

نزل من الترام في محطة كورنيليس شويوت شترات..
فكان هو الراكب الوحيد الذي فعل ذلك.

ظل واقفاً أمام محل لبيع النبيذ.. ينظر إلى النافذة. كان
هناك أناس في المحل ولكن أحد منهم لم يره.. فقد كانوا
يتلقون النصائح والبائع يحمل زجاجة عالياً.. وهو فمستر
ينظر إليهم وهو يكاد يضغط أنفه على زجاج النافذة.

كانت فبعته جاثمة فوق رأسه، ومع ذلك يشعر بأنه عارياً،
فهو غير معتاد على عدم وجود حقيبة اليد. فشر بشيء
يغريه بأن يستدير ظناً منه أن كايسا لاتزال هنا.. منتظراً ليد
أن تسحب يده.

وبعد بضع دقائق واصل سيره.

التف حول الزاوية فأصبح في شارع الفان ايجينس.

كانت هناك مجموعة كبيرة من الناس.. فلاحظ أنهم
جميعاً يقفون أمام منزله مجتمعين في حشد كبير.. فظن أن
حادثاً قد وقع.

اقترب بضع خطوات.. فبدأ له أنه يعرف معظم الناس
المتجمعين.. والآن يرى أيضاً كاميرات.. نعم، إنه يعرف
معظمهم.. إنهم من التلفزيون.. ووجوه مألوفة أمام منزله..
ولابد من وجود الشرطة - ولا شك في ذلك - لإبقاء
الفضوليين بعيداً.

فهم هناك دائماً في مثل هذه المناسبات.. هؤلاء
الفضوليون الذين يضطر المرء إلى إبقائهم بعيداً.

وضع هوفمستر حقيته على الأرض.. ومسح بمنديل جيبه
على جبهته. لم يكن الجو حاراً ولكنه كان يشعر بالحر.. يشعر
بحرٍ قاطئ.

ومن بين الحشد المتجمع أمام منزله انسلت إحدى النساء فجأة.. ورغضت نحوه.. فتعرف عليها.. إنها زوجتي.. تعرف عليها من طريقة حركتها.. وتعرفت هي الأخرى عليه..

ثم تذكر.. نعم، هذا بشأن تيرزا.. ولكن ماذا ياترى؟ تذكر الأغنية التي كان يغنيها لها دائما.. عندما كان يحضرها من درس الكمان، وبعد السباحة، وعندما كانت تفوز في إحدى المنافسات.. وكذلك بعد الخروج من حمام سباحة داخلي، وفي عطلة التزلج بعد القراءة.

and I've known “ Of all the boys I've known some / Until I first met you I was lonesome. And my heart grew light. dear when you came in sight / And this old world seemed new to me

نعم.. تذكر هوفمستر الكثير من الأشياء.. فغنى بصوت منخفض: ري دي ري دي.
والزوجة تواصل ركضها نحوه.
سمع شخصا ما يقول:

- هل تريد رفقة ياسيدي؟
ولكنها لم تكن كايسا.. بل كان صوت تيرزا.. ظن أنه سمع صوت تيرزا.
تيرزا.. ملكة الشمس.. الموهوبة.. ملكة الشمس.. حياته وأمله ومستقبله.

لقد حاول يائسا مرارا وتكرارا أن يتذكر ماذا حدث بالضبط في هذه الحياة، وماذا سيحدث في المستقبل الذي يتحرك مقتربا الآن.. بشكل رهيب أكثر من أي وقت مضى.
ملكة الشمس.. إنها على طرف لسانه.. ولكنها فقط غير واضحة.. غير واضحة بشكل مفرط.

كان هوفمستر يقف أمام ذاكرته، كأنه يقف أمام باب الفردوس، التي لن يدخلها أبدا.
لم يبق غير ما يقرب من ثلاثين مترا.. وتكون الزوجة معه.
ثم تذكر.. أخيرا.
لقد وجدوها.

لقد وجدوها.. تيرزا.. هذا الاسم الوحيد.. هذه الكلمة.. تيرزا.

يجب أن يتصل بها ويقول لها.. فأخرج المحمول من جيب القميص.
وطلب الرقم...

لم يبق إلا عشرة أمتار فقط وتكون الزوجة معه.. ولكنها توقفت.. ونظرت إليه.. متوسلة.. فهكذا كانت تبدو.. ومهلهلة أيضا.. ومتسخة.

وضغطت بسبابتها على فمها، وظلت واقفة هكذا.. تنظر إليه متوسلة.. وسبابتها تكاد تلامس شفيتها.

ركض الناس الذين كانوا يقفون أمام منزله باتجاهه أيضا.. لم يكن معهم كاميرات فقط، كما يرى، بل كان معهم أيضا ميكروفونات مثبتة على أعمدة طويلة. سوف يقف ويجب على أسئلتهم إن كانوا يريدون.. إذا كان هو هوفمستر الذين يبحثون عنه.. سوف يحدثهم عن المؤسسة التي يريد إقامتها للأطفال الذين يبيعون المرافقة.

وأخيرا سمع صوتها.. صوت ملكة الشمس.. الذي لا يمكن مقارنته بأي صوت آخر.

فضغط الهاتف بشدة على أذنه، فلن تفوته أي كلمة.. أو أي حرف.. أو صوت.

وانطلق صوتها:

- مرحبا.. هنا تيرزا.. لست موجودة حاليا.. ولكن اترك لي أخبارا لطيفة.